الكشف عن راما

جنتري لي وآرثر كلارك

ترجمة هبة نجيب مغربي

الكشف عن راما

تأليف
جنتري لي وآرثر كلارك

ترجمة
هبة نجيب مغربي

مراجعة
سارة ياقوت



الكشف عن راما

جنتري لي وآرثر كلارك

Rama Revealed

Gentry Lee and Arthur C. Clarke

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٣ ٠٠٢٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٣.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٠.

المحتويات

إهداء

إلى سريلانكا
حيث صعدت سلم الآلهة.

شكر وتقدير

نود أن نشكر نيل أوزمان وشيلاج أوزمان وجيري سنايدر وميشيل سنايدر لأنهم مثَّلوا القراء؛ إذ قدَّموا اقتراحاتٍ بشأن الموضوعات التي يحسن أن نتناولها في رواية «الكشف عن راما». كان جيري عونًا كبيرًا في النقاشات التي دارت حول تفاصيل لغة كائنات الأوكتوسبايدر.

كانت جنيفر هرشي المحررة التي تعمل في بانتام مصدرَ عونٍ ونبعَ قوةٍ طوال عملية تأليف الرواية وكتابتها، فلم ينقطع عنا تشجيعها، وزودتنا بتوصياتٍ قيمةٍ حول جميع عناصر الكتاب. فشكرًا لكِ يا جنيفر. ندين بالشكر أيضًا لريتشارد إيفانز الذي يعمل في دار نشر جولانز، لما قدمه من ملاحظاتٍ عديدةٍ بشأن تحرير الكتاب بما في ذلك اقتراحه بإضافة مقدمة.

قدم لنا ناشرنا لو أرونيكا ووكيلنا روس جالين مساعداتٍ لا تُحصَى على مدار خمس سنوات، بدأت عندما جاءتنا لأول مرة فكرة كتابة جزءٍ مكمل لثلاثية راما. ومكنتنا إسهاماتهما الكثيرة من تركيز طاقاتنا على الكتابة.

وأخيرًا نشكر أُسَرنا لما قدمته من حب وتفهُّم أثناء هذه المدة. ونخصُّ بالشكر ستيسي كيدو لي ونقرُّ لها بالعرفان الكبير، ليس فقط لترحيبها بإدارة شئون أسرة من خمسة صبيان في ظل عوائق صعبة (ومتغيرة)، ولكن أيضًا لما قدَّمته من ملاحظاتٍ ثاقبةٍ بشأن نيكول وغيرها من الشخصيات النسائية البارزة في الثلاثية.

مقدمة

في أحد الأطراف الحلزونية البعيدة لمجرة درب التبانة، كان هناك نجمٌ أصفر وحيد غير واضحٍ يدور ببطءٍ حول مركز المجرَّة على بُعد ثلاثين ألف سنةٍ ضوئية. كان هذا النجم الدائم — الشمس — يستغرق مائتَين وخمسة وعشرين مليون سنة ليكمل دورةً واحدة حول مداره في المجرة. وآخر مرةٍ كانت فيها الشمس في مكانها الحالي، بدأت زواحف عملاقة ذات قوةٍ جبارةٍ تؤسِّس سلطانها على كوكب الأرض؛ وهو كوكب أزرق صغير من الكواكب التابعة للشمس.

ومن بين الكواكب والأجرام الأخرى في عائلة الشمس، لم تظهر أيُّ صورةٍ من صور الحياة المعقَّدة المستمرَّة إلا على هذه الأرض. فقط في هذا العالم الفريد تطورت المواد الكيميائية وتحولت إلى كائن مدرك، تساءل لاحقًا — بعد أن بدأ يفهم عجائب وأبعاد العالم — عن احتمالية وجود معجزات شبيهة بتلك التي أتَت به إلى العالم في مكان آخر.

فكرت هذه الكائنات الأرضية العاقلة أن هناك مائة مليار نجمٍ في مجرتنا وحدها. ونحن واثقون تمامًا أن عشرين بالمائة من هذه النجوم على الأقل تدور حولها كواكب سيَّارة، وأن عددًا قليلًا لكنه جدير بالاهتمام من هذه الكواكب تعرَّض — في وقتٍ ما من تاريخه — إلى ظروفٍ جويةٍ وحراريةٍ تُساعد على تكوُّن أحماضٍ أمينيةٍ ومواد كيميائية عضويةٍ أخرى، تمثِّل العناصر الأساسية لأي حياةٍ يمكن للعقل أن يفترض وجودها. توصلت هذه الأحماض الأمينية — مرة واحدة على الأقل في التاريخ — إلى آلية التكاثر الذاتي هنا على الأرض؛ ومن ثم بدأت معجزة التطور التي انتهت بظهور الكائنات البشرية. كيف يمكننا أن نفترض أن هذا التسلسل للأمور حدث مرةً واحدةً فقط على مدار التاريخ؟ تكونت الذرات الأثقل وزنًا اللازمة لظهورنا في الكوارث النجمية التي ضربت العالم، على مدار

مليارات السنين. هل من المحتمل أن تكون هذه الذرات هنا — في هذا المكان — قد ارتبطت ببعضها وكونت جزيئاتٍ خاصة، وتطوَّرت لتصبح كائنًا عاقلًا قادرًا على أن يسأل: «هل نحن وحدنا؟»

بدأ البشر على كوكب الأرض بحثهم عن رفاقٍ في الكون، في البداية باختراع التلسكوب الذي تمكنوا بواسطته من رؤية جيرانهم من الكواكب القريبة. وبعد أن تطورت التكنولوجيا التي يستخدمونها، أرسلوا المركبات الفضائية الآلية المتطورة لاكتشاف هذه الكواكب الأخرى، وللتحقُّق مما إذا كانَت هناك أيُّ علاماتٍ على وجود حياةٍ عليها. أثبتَت تلك الرحلات الاستكشافية عدم وجود حياة عاقلة قطُّ على أي جِرْم آخر في نظامنا الشمسي. واستنبط علماء البشر أنه إذا كان هناك كائنات أخرى — أي أجناس شبيهة يمكننا التواصل معها آخر الأمر — فإنها موجودةٌ بالتأكيد وراء ذلك الفضاء الشاسع الذي يفصل نظامنا الشمسي عن جميع النجوم الأخرى.

وبنهاية القرن العشرين من الزمن البشري، كانت هوائيات الأرض العملاقة قد بدأت تمسح السماء بحثًا عن أي إشارات مفهومة ربما تكون بعض الكائنات العاقلة ترسل لنا عن طريقها رسالةً لاسلكية. استمر البحث أكثر من مائة عام، وبلغ ذروته في أوج ازدهار العلم عالميًّا في بداية القرن الحادي والعشرين، ثم خفَّت حدته في العقود الأخيرة من ذلك القرن، بعد أن أخفقت المجموعة الرابعة المنفصلة من تقنيات الاستماع المنهجي في التقاط أي إشارات غريبة.

في عام ٢١٣٠ بدأ جسم أسطواني غريب الشكل يقترب من نظامنا الشمسي قادمًا من الفضاء الواقع بين النجوم، في ذلك الوقت كان معظم البشر المهتمين بالأمر قد توصلوا إلى عدم وجود حياة في الكون، وأن وجود حياة عاقلة — إذا كانت موجودة حقًّا في أي مكان باستثناء الأرض — أمرٌ نادر للغاية. فتساءل العلماء: كيف يمكننا إذن تبرير عدم توصل مجهودات البحث الدقيق خارج الأرض طوال القرن الماضي إلى نتائج إيجابية؟

لذا عندما فحص العلماء الجسم الذي دخل نظامنا الشمسي عام ٢١٣٠ عن قرب، وأعلنوا بوضوحٍ أنه ابتكار صناعي من أصل غريب. كان ذلك بمنزلة صدمةٍ لسكان الأرض. كان أمامهم دليلٌ لا يقبل الشكَّ على وجود حياةٍ عاقلةٍ متطورةٍ — أو على الأقل على وجودها في حقبةٍ سابقة — في جزء آخر من الكون. ثم غيَّرت بعثة فضائية مسارها للقاء ذلك الجسم الأسطواني الضخم المعتم، الذي اتضح فيما بعد أن له أبعادًا أكبر من أكبر مدينةٍ على كوكب الأرض، ولم يجد رواد الفضاء أمامهم سوى لغزٍ تلو الآخر. وعجزوا عن الإجابة

عن الأسئلة الأساسية حول السفينة الغامضة الغريبة. فتلك السفينة الدخيلة القادمة من بين النجوم لم تقدِّم إجاباتٍ حاسمةً للألغاز المتعلقة بمصدرها وهدفها.

لم تَقُم أول مجموعة من المستكشفين البشر فقط بوَضْع قائمةٍ بعجائب راما (الاسم الذي اختير للجسم الأسطواني الضخم قبل أن يُعتبر جسمًا صناعيًّا من خارج الأرض)، لكنهم أيضًا استكشفوها من الداخل ووضعوا خريطة لها. وبعد أن غادر الفريق الاستكشافي راما، وبدأت سفينة الفضاء الغريبة تندفع في رحلتها حول الشمس مغادرةً النظام الشمسي بسرعةٍ فائقة، حلَّل العلماء جميع البيانات التي جمعها الفريق في مهمته. وأقر الجميع أن البشر الذين زاروا راما لم يقابلوا قطُّ صانعي تلك السفينة الفضائية الغامضة. غير أن التحليل الدقيق للمعلومات التي جُمعت في الرحلة كشف عن ملاحظةٍ لا مفر منها؛ وهي الإسهاب الهندسي لسكان راما. فكل نظام رئيسي ونظام فرعي مهم في السفينة كان يدعمه نسختان احتياطيتان. اعتاد سكان راما تصميم كل شيءٍ في ثلاث نسخ. لذا توقَّع العلماء قرب زيارة سفينتَين فضائيتَين مماثلتَين.

كانت السنوات التي تلت زيارة راما «١» في عام ٢١٣٠ مباشرة زاخرةً بالتوقُّعات على كوكب الأرض. فأعلن الباحثون والسياسيون بَدْء عصر جديد في تاريخ البشرية. وحرصت وكالة الفضاء العالمية بالتعاون مع مجلس الحكومات، على وضع إجراءاتٍ دقيقة للتعامل مع الزيارة التالية لسكان راما. ووُجهت أجهزة التلسكوب جميعها إلى السماء، ودخلت جميعها في تنافس بعضها مع بعض؛ طمعًا في الاحتفاء الذي يحصده أول شخصٍ أو مرصدٍ يرصد سفينة راما التالية. لكنَّ شيئًا لم يظهر.

وفي النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الثاني والعشرين، انتهت فجأةً حالةُ الازدهار الاقتصادي التي كان من أسباب استمرارها في مراحلها الأخيرة ردودُ الفعل العالمية لراما. وغرق العالم في أسوأ كسادٍ عرفه في تاريخه، وهو ما عُرف باسم «الفوضى الكبرى» التي صاحبها فقدان الحكومات وانتشار الفقر المدقع. أثناء تلك المرحلة المؤسفة، تخلَّى العالم فعليًّا عن جميع أنشطة البحث العلمي، وبعد عدة عقودٍ أُرغم فيها العالم على مواجهة مشكلاتٍ يومية، كان سكان الأرض قد نسوا تقريبًا أمر الزائر الغامض القادم من بين النجوم.

في عام ٢٢٠٠، وصل جسمٌ أسطوانيٌّ دخيلٌ ثانٍ إلى النظام الشمسي. فعاد سكان الأرض ينفضون الغبار عن الإجراءات القديمة التي وُضعت بعد رحيل راما الأولى، وأعدُّوا للقاء مع راما «٢». اختير طاقم من اثني عشر شخصًا لهذه المهمة. وبعد اللقاء بوقتٍ

قصيرٍ أعلن الطاقم أن سفينة راما الفضائية الثانية مطابقة تقريبًا لسابقتها. وصادف البشر ألغازًا وعجائب جديدةً بما في ذلك كائنات غريبة، لكنهم ظلوا غير قادرين على الإجابة عن الأسئلة المتعلِّقة بمصدر وهدف راما.

أثار موت ثلاثةٍ من أفراد الطاقم بصورةٍ غريبةٍ قلقًا بالغًا على الأرض؛ نظرًا لأن السكان كانوا يتابعون كل ما يتعلق بالمهمة التاريخية على شاشات التليفزيون. وعندما ناور الجسم الأسطواني العملاق في المسار، وأصبح على مسارٍ سيجعله يصطدم بكوكب الأرض، تحوَّل القلق إلى ذعر وخوف. واضطر قادة العالم في غياب أي معلومات أخرى إلى الاعتراف بعدم وجود بديلٍ سوى افتراض أن راما «٢» جسمٌ معادٍ. لم يكونوا ليتركوا سفينةً فضائيةً تصطدم بالأرض، أو تقترب منها إلى حدٍّ يسمح لها باستخدام أي أسلحة متقدمة قد تكون بحوزتها. ومن هنا اتُّخذ قرار بتدمير راما «٢» وهي لا تزال على مسافةٍ آمنة.

صدر أمر بعودة الطاقم الاستكشافي إلى الأرض، لكن ثلاثة من أفراده — رجلان وسيدة — كانوا على متن راما «٢» عندما نجحت السفينة الغريبة في تفادي قذيفةٍ نوويةٍ أُطلقت من فوق الأرض. وناورت راما مبتعدةً عن كوكب الأرض العدائي، ورحلَت عن النظام الشمسي بسرعةٍ فائقة، حاملةً معها أسرارَها التي لم تُكتشف وثلاثةَ البشريين.

استغرقت راما «٢» ثلاثة عشر عامًا للابتعاد عن الفضاء القريب من كوكب الأرض، وهي تحلق بسرعةٍ تقارب سرعة الضوء، حتى وصلت إلى وجهتها التي كانت مجمعًا هندسيًّا ضخمًا يطلق عليه «نود»، يقع في مدارٍ بعيدٍ حول نجم الشعرى. أنجب البشريون الثلاثة على متن السفينة الأسطوانية العملاقة خمسة أطفال وأصبحوا عائلة. وبينما كانت العائلة تستكشف عجائب موطنها الجديد في الفضاء، صادفت مرة أخرى الأجناس الفضائية التي قابلتها في البداية. غير أنه في الوقت الذي وصل فيه أفراد العائلة إلى «نود»، كانوا قد أقنعوا أنفسهم بالفعل أن هؤلاء الغرباء مسافرون على متن راما مثلهم.

بقيَت العائلة البشرية في «نود» لأكثر من عام. خلال تلك الفترة طُوِّرت سفينة راما الفضائية وجُهِّزت لرحلتها الثالثة والأخيرة إلى النظام الشمسي. علمَت العائلة من الرجل النسر — وهو مخلوقٌ آليٌّ من أفراد الحياة العاقلة في «نود» — أن هدف سلسلة سفن راما الفضائية هو جَمْع أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات عن المركبات الفضائية في المجرة، ووَضْع لائحةٍ بها. وأخبرهم الرجل النسر أيضًا — الذي كان له رأس ومنقار وعينا نسر وجسم إنسان — أن سفينة راما الأخيرة — راما «٣» — ستحتوي على موطن أرضي مصمم بعناية يتسع لألفَي شخص.

بثت «نود» تسجيل فيديو إلى الأرض يعلن العودة الوشيكة لسفينة راما الثالثة. ويشرح أن أجناسًا فضائية متطوِّرة تريد معاينة ودراسة النشاط البشري لمدَّةٍ طويلة، وطالَبَ البث بإرسال ألفَي ممثِّل من البشر للقاء راما «٣» في مدارها حول المريخ.

بدأت راما «٣» رحلتها من نجم الشعرى عائدة إلى النظام الشمسي، بسرعةٍ أكبر من نصف سرعة الضوء. وداخل السفينة كان أغلب أفراد العائلة البشرية في «نود» ينامون في مضاجع خاصة. وفي مدار المريخ استقبلت العائلة الأشخاص الآخرين القادمين من الأرض، وسرعان ما أصبح الموطن البدائي داخل راما آهلًا بالسكان. كانت تلك المستعمرة التي أُطلِقَ عليها «جنة عدن الجديدة» محاطةً بالكامل بجدران سميكةٍ ومعزولةٍ عن باقي السفينة الغريبة.

انطلقت راما «٣» على الفور بسرعات تقارب سرعة الضوء، مندفعة خارج النظام الشمسي في اتجاه النجم الأصفر تاو سيتي. ومرت ثلاث سنوات دون أي تدخُّلٍ خارجي في شئون البشر. وأصبح سكان جنة عدن الجديدة منغمسين تمامًا في حياتهم اليومية، لدرجة أنهم لم يُعيروا الكون خارج مستوطنتهم الكثير من الاهتمام.

عندما واجهت الديمقراطية الوليدة في الجنة التي أسَّسها سكان راما للبشر عددًا من الأزمات التي ضيَّقت الخناق عليها، استولى زعيمٌ انتهازيٌّ على السلطة في المستعمرة، وبدأ يقمع المعارضة بلا رحمة. في ذلك الوقت هرب أحد المستكشفين الأصليين لراما «٢» من عدن الجديدة، ونجح في نهاية المطاف في الاتصال بزوجٍ من الأجناس التكافلية التي تعيش في موطنٍ متاخمٍ محاطٍ بسياج. لكن زوجته ظلَّت في المستعمرة البشرية، وحاولَت أن تكون ضمير المجتمع، لكن محاولاتها باءت بالفشل. ثم سُجنت بعد عدة أشهر، وأُدِينَت بالخيانة، وتحدَّد موعد تنفيذ حكم إعدامها.

مع استمرار تدهور الظروف البيئية والمعيشية داخل عدن الجديدة، غَزَت القوات البشرية المنطقة المتاخمة لها في نصف أسطوانة راما الشمالي، واشتبكَت في حرب إبادةٍ مع الجنسَين الفضائيَّين التكافليَّين. في ذلك الوقت استمر سكان راما الغامضون — المعروفون فقط بإبداعاتهم الهندسية — في مراقبتهم الدقيقة للبشر من على بُعد، وهم يدركون أنها مسألة وقت قبل أن يلتحم البشر بالأجناس المتطورة التي تستوطن المنطقة إلى جنوب البحر الأسطواني …

الهروب

١

«نيكول.»

في البداية بدا ذلك الصوت الآلي الهادئ جزءًا من حلمها. لكن عندما سمعت اسمها مرةً أخرى بنبرةٍ أعلى استيقظَت نيكول فجأة.

واجتاحت كيانها موجة من الخوف المتوتر. كان أول ما خطر ببالها: «لقد جاءوا من أجلي. إننا في الصباح. سأموت في غضون ساعاتٍ قليلة.»

أخذت نفسًا بطيئًا عميقًا وحاولت أن تهدِّئ روعها. وبعد ثوانٍ فتحت عينَيها، لتجد الظلام يخيم على زنزانتها تمامًا. فنظرت حولها في حيرةٍ باحثة عن الشخص الذي كان ينادي باسمها.

فقال الصوت بنبرة منخفضة: «نحن هنا، على فراشكِ بجوار أذنكِ اليمنى. أرسلنا ريتشارد لمساعدتكِ على الهرب ... لكن يجب أن نتحرَّك بسرعة.»

لوهلةٍ ظنَّت نيكول أنها لا تزال تحلم. ثم سمعت صوتًا آخر يشبه الصوت الأول لكنه مميزٌ يقول: «استديري جهة جانبكِ الأيمن، وسوف نُضيء لنكشف عن أنفسنا.»

فاستدارت نيكول، ورأت كائنتَين بالغتَي الصغر تقفان على الفراش بجوار رأسها، لا يزيد طول كلٍّ منهما عن ثمانية أو عشرة سنتيمترات، وكلتاهما على هيئة امرأة. كانتا تتوهجان لحظيًّا من مصدرٍ داخلي للضوء. كانت إحداهما قصيرة الشعر ترتدي درع فارس أوروبي من القرن الخامس عشر، أما الثانية فكانت ترتدي تاجًا فوق رأسها ورداءً كاملًا ذا ثنيات كأردية ملكات العصور الوسطى.

قالت الأولى: «أنا جان دارك.»

«وأنا إليانور الأكويتينية.»

ضحكت نيكول ضحكةً عصبيةً وحدَّقت بدهشةٍ في المخلوقتَين، وبعد عدة ثوانٍ عندما خبا ضوء الآليتين الداخلي، كانت نيكول قد استعادت رباطة جأشها أخيرًا لتتحدث. فهمست قائلة: «إذن أرسلكما ريتشارد لمساعدتي على الهروب، كيف تقترحان القيام بذلك؟»

أجابَتها جان الصغيرة بفخر: «قمنا بالفعل بتخريب نظام المراقبة. وأعدنا برمجة كائن جارسيا الآلي، سيكون هنا في غضون دقائق قليلة ليخرجك.»

أضافت إليانور: «لدينا خطة هروب مفصلة، بالإضافة إلى بعض الخطط البديلة. ظل ريتشارد يخطط لها لشهور، بعد أن انتهى من صنعنا.»

ضحكت نيكول مرة أخرى. كانت لا تزال مندهشة. ثم قالت: «حقًّا؟ وهل لي أن أسألكما عن مكان زوجي العبقري الآن؟»

أجابتها جان: «ريتشارد في مخبئكِ القديم أسفل نيويورك. وقد طلب منا أن نبلغكِ أن شيئًا لم يتغير هناك. وهو يتابع حركة تقدمنا باستخدام جهازٍ لاستقبال الإشارات اللاسلكية ... وهو بالمناسبة يرسل لكِ حبه. ولم ينسَ ...»

قاطعَتها إليانور قائلة لنيكول: «اثبتي دقيقةً واحدة من فضلك»؛ وذلك لأن نيكول حكَّت بصورةٍ تلقائية الوخز الذي شعرَت به خلف أذنها اليمنى. أردفت إليانور: «أنا أحاول تشغيل مرسل إشاراتك الآن، وهو ثقيل للغاية.»

بعد عدة دقائق لمست نيكول الأداة الصغيرة المثبتة بالقرب من أذنها وهزَّت رأسها. ثم سألت: «وهل بإمكانه سماعنا أيضًا؟»

فأجابتها إليانور: «رأى ريتشارد أنه لا يمكننا المخاطرة ببث الصوت؛ إذ يستطيع ناكامورا اعتراضه بسهولة ... غير أن ريتشارد سيتابع تحركاتنا.»

قالت جان: «يمكنكِ النهوض الآن وارتداء ملابسك. نريد أن نكون على استعدادٍ عندما يصل جارسيا.»

«ألن تتوقف هذه العجائب أبدًا؟» فكرت نيكول وهي تغسل وجهها في الظلام في الحوض البدائي. لثوانٍ شكَّت نيكول أن تكون الكائنتان الآليتان جزءًا من خطة ذكية وضعتها حكومة جنة عدن الجديدة لتقتلها وهي تحاول الهروب. لكنها قالت لنفسها بعد ثوانٍ: «مستحيل. فعلى فرض أن أحد أتباع ناكامورا تمكَّن من اختراع آليتَين كهاتَين، فريتشارد وحده يعرف ما يكفي عني كي يطلق عليهما جان دارك وإليانور الأكويتينية ... وعلى أي حال ما الفارق الذي سيصنعه مقتلي وأنا أحاول الهروب؟ فمن المخطط إعدامي بالكهرباء الساعة الثامنة صباح اليوم.»

سمعت نيكول صوتَ آليٍّ يقترب من زنزانتها. شعرَت بالتوتر وكانت لا تزال غير مقتنعةٍ تمامًا أن صديقتَيها الصغيرتَين تُخبرانها بالحقيقة. ثم سمعَت جان تقول لها من الخلف: «عُودي واجلسي على السرير، حتى يمكنني أنا وإليانور أن نتسلقَكِ وندخل جيبك.» شعرت نيكول بالآليتَين تتسلَّقان قميصها من الأمام. فابتسمَت وقالت في نفسها: «أنت رائع يا ريتشارد. وأنا سعيدة للغاية أنك لا تزال على قيد الحياة.»

كان الآلي جارسيا يحمل مشعلًا كهربائيًّا. دخل إلى زنزانة نيكول وهو يتصرف بمسئولية. وقال بصوت عالٍ: «تعالَي معي يا سيدة ويكفيلد. لديَّ أوامر بنقلكِ إلى غرفة الإعداد.»

مرةً أخرى شعرَت نيكول بالخوف؛ فالكائن الآليُّ لم يكن يتصرف بطريقةٍ ودية. ماذا لو … لكن لم يكن لديها متسعٌ من الوقت لتفكر. قادها الآلي جارسيا عبر الممر خارج الزنزانة بخطًى سريعة. وبعد عشرين مترًا مرَّا من أمام المجموعة التقليدية من الحراس الآليين وضابط بشري مسئول، وهو شابٌّ لم تره نيكول من قبل. وما إن كانت نيكول والآلي جارسيا على وَشْك أن يصعدا درجات السلم، حتى صاح الرجل من خلفهما: «انتظرا». فتجمَّدت نيكول في مكانها.

ثم استأنف الضابط كلامه وهو يرفع مستندًا للآلي جارسيا قائلًا: «نسيتَ أن توقِّع أوراق النقل.»

أجاب الآلي: «أنت محق» وهو يكتب رقم تحقيق شخصيته على المستند بخطٍّ منمق. بعد أقل من دقيقةٍ كانَت نيكول خارج المنزل الكبير الذي ظلَّت حبيسةً بداخله لشهور. فأخذَت نفسًا عميقًا من الهواء النقي وبدأَت تتبع جارسيا في طريقهما باتجاه سنترال سيتي.

سمعت نيكول نداء إليانور من داخل جيبها: «كلا. لن نذهب مع الآلي، اتجهي غربًا. باتجاه تلك الطاحونة الهوائية التي يعلوها كشاف. يجب أن تركضي. لا بد أن نصل إلى مزرعة ماكس باكيت قبل الفجر.»

كان سجن نيكول يبعد نحو خمسة كيلومترات عن مزرعة ماكس. فاندفعَت نيكول تركض في الطريق بخطًى ثابتة، تحفزها واحدة من الآليتَين من حينٍ لآخر وهما منتبهتان لمرور الوقت. لم يتبقَّ الكثير من الوقت حتى بزوغ الفجر. فعلى عكس الأرض حيث يكون الانتقال من الليل إلى النهار تدريجيًّا، كان بزوغ الفجر في جنة عدن الجديدة حدثًا منفصلًا مفاجئًا.

فيكون الظلام مخيمًا على المدينة في لحظة، ثم في اللحظة التالية تشتعل الشمس الصناعية، وتبدأ حركتها في قوس صغير فوق سقف المستعمرة.

وما إن وصلت نيكول إلى طريق الدراجات المؤدِّي إلى آخر مائتَي مترٍ قبل بيت مزرعة باكيت، حتى قالت جان: «أمامنا اثنتا عشرة دقيقةً أخرى حتى تُشرق الشمس.» كانت نيكول منهكةً تمامًا لكنها استمرت في الركض. وأثناء ركضها عبر المزارع، شعرَت بألم خفيف في صدرها مرتَين منفصلتَين. فقالت وهي توبِّخ نفسها لأنها لم تكن تمارس التمارين الرياضية بانتظامٍ في سجنها: «فقدت لياقتي بلا شك. بالإضافة إلى أنني بلغت ستين عامًا.»

كان بيت المزرعة مظلمًا، فوقفت نيكول عند المدخل تلتقط أنفاسها، ثم فُتح الباب بعد ثوانٍ. وظهر ماكس وهو يقول: «كنت في انتظارك»، وكانت علامات الجدية التي ترتسم على وجهه تؤكِّد على جدِّية الموقف. احتضن نيكول سريعًا. ثم قال لها: «اتبعيني» وهو يتحرَّك بسرعةٍ إلى الخارج باتجاه الحظيرة.

عندما أصبحا داخل الحظيرة، قال ماكس: «لم تظهر سيارات الشرطة على الطريق. على الأرجح لم يكتشفوا بعدُ أنكِ هربت. لكنها أصبحَت مسألة دقائق الآن.»

كان يحتفظ بالدواجن في أقصى الحظيرة. حيث أبقى الدجاجات في مكانٍ مغلقٍ بعيدًا عن الديوك وعن باقي المبنى. عندما دخل ماكس ونيكول عش الدجاجات حدثَت ضجةٌ شديدة. تدافعت الطيور في جميع الاتجاهات، وهي تصرخ وتضرب بأجنحتها. وكادَت رائحة المكان النتنة تخنق نيكول.

فابتسم ماكس وهو يقول: «أعتقد أنني نسيت كيف تزعج رائحةُ مخلفات الدجاج الآخرين؛ نظرًا لأنني اعتدت عليها تمامًا.» ثم ربَّت على ظهر نيكول بخفَّة. وقال: «على أي حالٍ إنه مستوًى آخر من الحماية لك، ولا أعتقد أنكِ ستستنشقين هذه الرائحة وأنتِ في مخبئك.»

اتجه ماكس نحو ركنٍ في عش الدجاج وهو يهشُّ بعضه بعيدًا عن طريقِه، ثم جثا على ركبتَيه. قال وهو يُزيح جانبًا بعض القش وطعام الدجاج: «عندما ظهرَت للمرة الأولى الآليتان الغريبتان اللتان صنعهما ريتشارد، لم أعرف أين ينبغي أن أبنيَ مخبأك. ثم فكَّرت في هذا المكان.» رفع ماكس لوحَين خشبيَّين ليكشفَ عن حفرةٍ مستطيلة الشكل في أرضية الحظيرة. وقال: «أتمنى من كل قلبي أن أكون قد أحسنت الاختيار.»

أشار إلى نيكول أن تتبعه ثم زحف إلى داخل الحفرة. كان كلاهما يزحف على يدَيه وركبتَيه وسط القاذورات. كان الممر الذي يسير بمحاذاة الأرضية بضعة أمتار، ثم ينحدر

إلى الأسفل بزاوية حادة ضيقًا جدًّا. فظلَّت نيكول ترتطم بماكس أمامها وبالحوائط القذرة والسقف من حولها. وكان المصدر الوحيد للضوء هو الكشاف الصغير الذي يحمله ماكس في يده اليمنى. وبعد خمسة عشر مترًا أفضى النفق الصغير إلى غرفة مظلمة. فنزل ماكس بحذرٍ على سلم من الحبال، ثم استدار ليُساعد نيكول على النزول. وبعد لحظاتٍ كانا يقفان في وسط الغرفة، حيث مدَّ ماكس ذراعه إلى أعلى وأشعل المصباح الكهربائي الوحيد.

نظرت نيكول إلى المكان حولها وقال ماكس: «إنه ليس قصرًا، لكنني أعتقد أنه أفضل كثيرًا من زنزانتك.»

كانت الغرفة تحتوي على سرير وكرسي ورفَّين يحملان الكثير من الطعام، وآخر عليه أسطوانات كتب إلكترونية، بالإضافة إلى بعض الملابس المعلَّقة في خزانة مفتوحة، وبعض أدوات التجميل الأساسية، وبرميل كبير من الماء الذي لا بد أنه عبر الممر بالكاد، ومرحاض مربع عميق في ركن بعيد من الغرفة.

سألته نيكول: «هل فعلت كل هذا وحدك؟»

فأجابها: «نعم. فعلته ليلًا ... على مدار الأسابيع العديدة الماضية. ولم أجرؤ على طلب المساعدة من أحد.»

تأثَّرت نيكول بما فعله. وقالت: «كيف يمكنني أن أشكرك؟»

فابتسم ماكس ابتسامةً عريضة وقال: «لا تدعي الشرطة تمسك بك. فلا أريد أن أموت مثلما لا تريدين ذلك ... تذكرت الآن ...»، أضاف ماكس وهو يعطي نيكول جهاز قراءة إلكترونيًّا يمكنها أن تضع فيه أسطوانات الكتب: «أتمنى أن تكون الكتب التي اخترتها لك جيدة. أدرك بالطبع أن كتيبات تربية الخنازير والدجاج ليست مثل روايات والدك، لكنني لم أشأ أن ألفت الانتباه إليَّ بالذهاب إلى متجر بيع الكتب.»

عبرت نيكول الغرفة وطبعت قبلةً على وجنته. ثم قالت له برقة: «ماكس، أنت صديق عزيز للغاية. لا يمكنني أن أتخيل كيف ...»

لكن صوت جان دارك التي كانت في جيبها قاطعها: «بزغ الفجر بالخارج الآن. ووفقًا لجدولنا الزمني نحن متأخرون. سيد باكيت، يجب أن نفحص طريق خروجنا قبل أن تتركنا.»

قال ماكس: «تبًّا. ها قد عدت أتلقى الأوامر من كائنتَين آليتَين لا يتعدَّى طول إحداهما طول السيجارة.» وأخرج جان وإليانور من جيب نيكول ووضعهما على الرف العلوي خلف علبة بازلاء. ثم قال: «هل تريان ذلك الباب الصغير؟ هناك أنبوب على الجانب الآخر. إنه يؤدِّي إلى خارج معلف الخنازير بالضبط ... لماذا لا تتفحصانه؟»

في الدقيقة أو الدقيقتَين اللتَين استغرقتهما الآليتان في الخروج، شرح ماكس الموقف لنيكول قائلًا: «ستبحث الشرطة عنكِ في كل مكان. ولا سيما هنا؛ لأنهم يعلمون أنني صديق العائلة؛ لذا سأغلق مدخل مخبئك. يجب أن يكون لديكِ كل ما تحتاجينه بكميةٍ تكفيكِ عدة أسابيع.

تستطيع الآليتان المجيء والذهاب كما يحلو لهما» ثم أضاف ضاحكًا: «إلا إذا أكلتهما الخنازير. ستكونان صلتك الوحيدة بالعالم الخارجي. وستُبلغانك عندما يحين وقت الانتقال إلى المرحلة الثانية من خطة الهروب.»

فسألته نيكول: «إذن فلن أراك ثانية؟»

أجابها ماكس: «على الأقل بضعة أسابيع. فهذا أمر في غاية الخطورة ... هناك أمر آخر، إذا كانت الشرطة في المبنى فسأقطع عنكِ الكهرباء. ستكون هذه إشارةً لكِ حتى تلتزمي الهدوء التام حينها.»

كانت إليانور الأكويتينية قد عادت ووقفت على الرف بجوار علبة البازلاء. قالت: «إن طريق خروجنا ممتاز. ستغيب جان عدة أيام. وهي تعتزم مغادرة المستوطنة والاتصال بريتشارد.»

فقال ماكس لنيكول: «وأنا أيضًا يجب أن أغادر.» وصمت قليلًا. ثم أردف: «لكن ليس قبل أن أخبرك بشيءٍ واحد يا صديقتي ... على الأرجح تعلمين أنني كنت شخصًا متشائمًا طوال حياتي. ولم يترك الكثيرون أثرًا في نفسي. لكنكِ أقنعتني أن البعض قد يكون أرفع مكانة من الدجاج والخنازير.» ابتسم ماكس. ثم استدرك قائلًا: «بالطبع ليس الكثير منا، لكن على الأقل بعضنا.»

ردَّت نيكول: «شكرًا لك يا ماكس.»

اتجه ماكس إلى السلم. ثم استدار ولوح لها مودعًا قبل أن يبدأ في الصعود.

جلست نيكول على الكرسي وأخذت نفسًا عميقًا. أدركت بفطنةٍ من الأصوات القادمة من النفق أن ماكس أغلق المدخل المؤدي إلى مخبئها، بوضع حقائب علف الدجاج الكبيرة فوق الحفرة مباشرة.

تساءلت نيكول: «ماذا سيحدث الآن؟» وأدركت أنها لم تفكر طوال الأيام الخمسة التالية لانتهاء محاكمتها إلا في اقتراب أجلها. فأطلقت لخيالها العنان دون أن تجعل الخوف من الإعدام الوشيك يحدُّ تفكيرها.

فكرت في البداية في زوجها وشريكها ريتشارد الذي افترقت عنه منذ ما يقرب من عامَين. واستعادت التفاصيل الحية لآخر أمسية قضياها معًا، كانت ليلة مروعة مليئة بالقتل والدمار، بدأت بخبرٍ واعد هو زواج ابنتها إيلي من الطبيب روبرت تيرنر. قالت في نفسها وهي تسترجع الذكريات: «كان ريتشارد متأكدًا أنه حُكم علينا بالقتل مثل كينجي وبايوتر. وكان محقًّا على الأرجح ... ونظرًا لأنه لاذ بالفرار فقد جعلوا منه العدو، وصرفوا انتباههم عني لبعض الوقت.

ظننت أنك مت يا ريتشارد، كان لا بد أن أتحلَّى بإيمانٍ أقوى ... لكن كيف انتهى بك الحال في نيويورك مرةً أخرى؟»

وبينما كانت تجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة تحت الأرض، كان قلبها يتحرَّق شوقًا لرفقة زوجها. واجتاح سيلٌ من الذكريات ذهنها. فتذكَّرت كيف كانت في المخبأ الطائر في راما «٢» قبل سنواتٍ طويلة، أسيرة لبعض الوقت في أيدي المخلوق الغريب الذي يُشبه الطيور، والذي كانت لغته ثرثرةً وصراخًا. كان ريتشارد هو من عثر عليها هناك، وخاطر بحياته بالعودة إلى نيويورك ليكتشف إن كانت لا تزال على قيد الحياة. لو لم يعُد ريتشارد لظلَّت نيكول منسيةً على جزيرة نيويورك للأبد.

وقع ريتشارد ونيكول في الحب عندما كانا يُناضلان لاكتشاف طريقةٍ لعبور البحر الأسطواني، والعودة إلى زملائهما رواد الفضاء بسفينة نيوتن الفضائية. شعرَت نيكول بالدهشة والسعادة بسبب ما تبثُّه ذكريات أيام حبهما الأولى فيها من مشاعر قوية. «نجونا من هجوم الصواريخ النووية. واستمرَّت علاقتنا بعد محاولتي العنيدة الخاطئة لإحداث تغيراتٍ جينيةٍ في نسلنا بمعاشرة رجل آخر.»

أجفلت نيكول وهي تتذكر سذاجتها قبل سنوات طويلة، وقالت في نفسها: «سامحتني يا ريتشارد، ومن المؤكد أنه لم يكن أمرًا سهلًا. ثم أصبحنا مقرَّبَين أكثر من قبلُ في «نود» أثناء جلسات وضع التصميم مع الرجل النسر.»

ثم اتخذت أفكارها منحًى آخر وهي تفكر: «تُرى ماذا كان الرجل النسر حقًّا؟ ومن أو ما الذي خلقه؟» وارتسمت في ذهنها صورة حية لذلك الكائن الغريب الوحيد الذي تواصل معهما طوال مدة بقائهما في «نود»، أثناء تجديد سفينة راما الفضائية. أخبرهما ذلك الكائن الغريب — الذي كان له وجهُ نسرٍ وجسدُ رجل — أنه مثالٌ على تطور الذكاء الاصطناعي، وهو مصمم خصوصًا ليكون رفيقًا للبشر. «كانت عيناه رائعتَين وغامضتَين. وكانتا قويتَين مثل عينَي أومه.»

كان جدها الأكبر أومه يرتدي الرداء الأخضر الذي يرتديه كاهن قبيلة سينوفو، عندما جاء لزيارتها في روما قبل أسبوعَين من إطلاق سفينة الفضاء نيوتن. وكانت نيكول قد قابلت أومه مرتَين قبل ذلك في قرية والدتها في ساحل العاج؛ الأولى في احتفال «بورو» عندما كانت نيكول في السابعة من عمرها، والثانية في جنازة والدتها بعد ثلاث سنوات. وفي تلك المقابلات القصيرة، كان الكاهن العجوز قد بدأ يعد نيكول لما أكد لها أنه سيكون حياة استثنائية. كان أومه هو مَن أصرَّ على أن نيكول هي المرأة التي تنبَّأ تاريخ سينوفو أنها ستنثر بذور قبيلتهم «حتى النجوم».

قالت نيكول في نفسها: «أومه والكائن النسر وريتشارد. يا لها من مجموعة مميزة!» ثم لاح لها وجه هنري أمير ويلز وضمَّته إلى ذكرى الرجال الثلاثة، وتذكَّرت للحظةٍ العاطفة القوية التي تميَّزت بها علاقتهما القصيرة في الأيام التي تلت فوزها بالميدالية الذهبية في الألعاب الأوليمبية. واستعادت بحدة ألم الصد. لكنها ذكَّرت نفسها: «لولا هنري لما كانت جنيفياف.»

وعندما كانت نيكول تذكر حبها لابنتها على الأرض، ألقت نظرة عبر الغرفة إلى الرف الذي يحتوي على أسطوانات الكتب الإلكترونية. وفجأةً تشتَّت ذهنها وقطعت الغرفة وصولًا إلى الرف، وبدأت تقرأ العناوين. بالطبع كان ماكس قد ترك لها بعض الكتيبات عن تربية الخنازير والدجاج. لكن لم يكن هذا هو كل شيء. بدا الأمر كما لو أن ماكس أعطى نيكول مكتبته الخاصة بالكامل.

ابتسمَت نيكول وهي تسحب كتابًا عن القصص الخيالية وتضعه في القارئ الإلكتروني. ثم تصفَّحت الكتاب ووقفَت عند قصة «الجمال النائم». أعادت عبارة «وعاشا في سعادةٍ دائمةٍ إلى الأبد» إلى ذهنها ذكرى حية أخرى، هذه المرة وهي طفلة صغيرة ربما في السادسة أو السابعة من عمرها، وهي تجلس في حجر أبيها في منزلهما في الضاحية الفرنسية شيلي مازارا.

فكَّرت: «كم تقت وأنا فتاة صغيرة إلى أن أكون أميرةً وأعيش في سعادةٍ دائمةٍ إلى الأبد. لم أعرف حينها أن حياتي ستجعل القصص الخيالية تبدو أمورًا عادية.»

وضعت نيكول أسطوانة الكتاب على الرف ثانية، وعادَت إلى كرسيها. وفكَّرت وهي تتفحص الغرفة بكسل: «والآن بعد أن اعتقدت أن هذه الحياة التي لا تُصدق انتهت، يبدو أن القدر منحني بضعة أيامٍ أخرى على الأقل.»

عادَت نيكول مرة أخرى تفكِّر في ريتشارد وفي شوقها الشديد لرؤيته. «تشاركنا الكثير والكثير يا عزيزي ريتشارد. أتمنى أن أشعر مرة أخرى بلمستك، وأستمع إلى صوت

ضحكتك، وأرى وجهك. لكن إذا لم يحدث هذا، فسأحاول ألَّا أتذمَّر. فحياتي نالت نصيبها من المعجزات.»

٢

وصلت إليانور ويكفيلد تيرنر إلى مبنى الاجتماعات العامة الكبير في سنترال سيتي في السابعة والنصف صباحًا. ومع أن موعد الإعدام كان في الساعة الثامنة صباحًا، فكان هناك ما يقرب من ثلاثين شخصًا يجلسون في مقاعد الصفوف الأمامية، بعضهم يتحدَّث بينما جلست الأغلبية في هدوء. وتجوَّل طاقم تصويرٍ تليفزيوني حول الكرسي الكهربائي على المسرح. بالرغم من التخطيط لبثِّ الإعدام على الهواء مباشرة، فكان رجال الشرطة في قاعة الاجتماعات يتوقَّعون أن يملأ الحضور المكان؛ نظرًا لأن الحكومة كانَت قد شجعت مواطني جنة عدن الجديدة أن يذهبوا ليشهدوا موت حاكمتهم السابقة بأعينهم.

كانت إيلي قد تشاجرَت مع زوجها الليلة السابقة. فعندما أخبرَتْه أنها تعتزم حضور الإعدام قال لها: «وفِّري على نفسك العناء يا إيلي. فرؤية أمك مرة أخيرة لا توازي ألم رؤيتها وهي تموت.»

لكن إيلي كانت تعلم شيئًا لم يكن روبرت يعلمه. وعندما جلست على مقعد في قاعة الاجتماعات، حاولت أن تسيطر على المشاعر القوية التي اجتاحتها. وقالت لنفسها: «لا بد ألَّا يفضحني وجهي، أو أن تعكس حركاتي شيئًا. ولا أقل تعبير. يجب ألَّا يشعر أحدٌ أنني أعرف شيئًا عن الهروب.» اتجه إليها العديد من العيون فجأة وحدَّقت إليها. فشعرت إيلي بقلبها يقفز في صدرها قبل أن تدرك أن أحدهم تعرَّف عليها، وأنه من الطبيعي تمامًا أن تتجه إليها الأنظار وتحدق إليها.

كانت إيلي قد قابلت الآليتَين الصغيرتَين جان دارك وإليانور الأكويتينية، اللتَين صنعهما والدها قبل ستة أسابيع فقط، عندما كانت خارج الموطن الرئيسي في قرية الحجر الصحي أفالون، تُساعد زوجها الطبيب روبرت في العناية بالمرضى الذين أصيبوا بالفيروس القهقري «آر في ٤١». كانت إيلي قد أنهت لتوها زيارة ليلية سعيدة ومشجعة لصديقتها ومعلمتها السابقة إيبونين. وكانت قد غادرت غرفة إيبونين، وتسير في زقاق قذر متوقعة ظهور روبرت في أي لحظة. وفجأةً سمعت صوتَين غريبَين يُناديان عليها. وبحثَت إيلي في المنطقة حولها قبل أن تتمكَّن في النهاية من تحديد مكان الكائنتَين الصغيرتَين على سطح أحد المباني القريبة.

وبعد أن عبرت الزقاق حتى تتمكن من رؤية وسماع الآليتَين بصورةٍ أفضل، أخبرتها جان وإليانور أن والدها ريتشارد لا يزال حيًّا. استغرقت بضع دقائق حتى تُفيق من الصدمة. ثم بدأت تطرح عليهما أسئلتها. وسرعان ما اقتنعت أن جان وإليانور تخبرانها بالحقيقة، غير أنها قبل أن تتحقَّق من السبب وراء إرسال والدها للآليتَين رأت زوجها يقترب. فأخبرتها الآليتان الواقفتان على سطح المنزل على عجالةٍ أنهما ستعودان عما قريب. وحذرتاها أيضًا من أن تخبر أحدًا بوجودهما وإن كان روبرت، على الأقل في ذلك الوقت.

شعرت إيلي بسعادةٍ غامرةٍ أن والدها لا يزال حيًّا. وكان من المستحيل تقريبًا أن تُبقي الخبر سرًّا، مع أنها كانت تعي جيدًا الأهمية السياسية لتلك المعلومة. وعندما قابلت إيلي الآليتَين الصغيرتَين مرة أخرى في أفالون بعد أسبوعَين تقريبًا، كانت جاهزةً بسيلٍ من الأسئلة. لكن جان وإليانور كانتا مبرمجتَين تلك المرة لمناقشة موضوعٍ آخر؛ هو محاولة مستقبلية محتملة لمساعدة نيكول على الهروب من السجن. أبلغت الآليتان إيلي في اللقاء الثاني أن ريتشارد كان يدرك جيدًا أن محاولة الهروب محفوفةٌ بالمخاطر. وقالت جان: «لم نكن سننفذ هذه المحاولة قطُّ، ما لم يكن إعدام والدتكِ أمرًا مؤكدًا. لكن إذا لم نكن مستعداتٍ مسبقًا، فلن تنجح فكرة الهروب في اللحظة الأخيرة.»

فسألتهما إيلي: «ماذا يمكنني أن أفعل للمساعدة؟»

فمنحتاها ورقة تضم قائمة بأشياء لازمة مثل طعام وماء وملابس. وارتجفت إيلي عندما تعرَّفت خطَّ والدها.

قالت لها الآلية إليانور وهي تمنحها خريطة: «خبِّئي تلك الأشياء في المكان المشار إليه. في موعدٍ أقصاه عشرة أيامٍ من الآن.» وبعد دقيقةٍ ظهر شخصٌ آخر من سكان المستعمرة، فاختفت الآليتان.

وجدت إيلي رسالةً قصيرةً من والدها مرفقة بالخريطة. يقول فيها: «عزيزتي إيلي، أعتذر عن اقتضاب الرسالة. أنا بخير وأمان، لكنني قلق بشدة على والدتك. أرجوكِ أن تجمعي هذه الأشياء وتأخذيها إلى المكان المشار إليه في السهل الرئيسي. إذا لم تتمكني من تنفيذ المهمة بنفسك، فرجاء لا تستعيني بأكثر من شخصٍ واحد. واحرصي على أن يكون مَن تختارين وفيًّا ومخلصًا لنيكول مثلنا. أحبك.»

قرَّرت إيلي على الفور أنها تحتاج إلى مساعدة، لكن من ستختار ليكون شريكها؟ لم يكن زوجها روبرت خيارًا جيدًا لسببَين. أولًا أظهر أن إخلاصه لمرضاه ولمستشفى جنة عدن الجديدة أكبر أولوية عنده من تبني موقف سياسي. وثانيًا إن أي شخصٍ سيُقبض

عليه وهو يساعد نيكول على الهرب سيُعدم بلا شك. ومن ثَم إذا ورطت إيلي روبرت معها في خطة الهروب فقد ينتهي الحال بابنتهما نيكول بلا والدَين.

ماذا عن ناي واتانابي؟ فهي بلا شكٍّ شديدة الإخلاص لهم، لكنها امرأة تربي وحدها ابنَيها التوءمَين البالغَين أربعة أعوام. وليس من العدل طلبُ مثل هذه المخاطرة منها. وهذا يعني أن إيبونين هي الخيار الوحيد المعقول. وسرعان ما تبدَّدت كل المخاوف التي كان يمكن أن تساور إيلي حول صديقتها البائسة. فقد أجابتها على الفور: «بالطبع سأساعدك، فليس لديَّ ما أخسره. طبقًا لما يقوله زوجكِ فإن فيروس «آر في ٤١» سيقتلني في غضون عامٍ أو اثنَين على أي حال.»

جمعت إيبونين وإيلي سرًّا كل الأغراض المطلوبة شيئًا تلو الآخر على مدار أسبوع. وربطتاها جيدًا في ملاءةٍ صغيرةٍ مخبأةٍ في ركنٍ من أركان غرفة إيبونين في أفالون التي يعوزها النظام دائمًا. وفي اليوم المحدد خرجت إيلي من جنة عدن الجديدة واتجهت إلى أفالون، بزعم «مراقبة» البيانات الحيوية لإيبونين بدقةٍ لمدة اثنتَي عشرة ساعة. في الواقع كان تبرير رغبتها في قضاء الليل مع إيبونين لروبرت أصعبَ بكثيرٍ من إقناع الحارس البشري الوحيد والآلي جارسيا، الواقفَين على مخرج الموطن بشرعية احتياجها لجواز مرور تلك الليلة.

بعد منتصف الليل مباشرة، كانت إيلي وإيبونين قد أخذتا الملاءة وتسلَّلتا بحذرٍ إلى شوارع أفالون. وحرصًا منهما على تجنُّب الكائنات الآلية الصغيرة التي تستخدمها شرطة ناكامورا، لتطوف القرية الخارجية الصغيرة في دورياتٍ ليلية، تسلَّلت السيدتان عَبْر ضواحي المدينة إلى السهل الرئيسي. ثم سارتا لعدَّة كيلومتراتٍ وخبأتا الأغراض في المكان المحدَّد. ولدى عودتهما وهما خارج غرفة إيبونين واجههما آلي تياسو، وسألهما عن سبب تجوُّلهما بالخارج في ذاك الوقت.

فأجابَته إيلي بسرعةٍ بعد أن شعرت بالرعب الذي سيطر على صديقتها: «هذه السيدة تعاني من فيروس «آر في ٤١». وهي إحدى مريضات زوجي. كانت تعاني آلامًا شديدة ولم تستطع النوم، ففكرنا أن السير في الصباح الباكر قد يساعدها ... والآن هلَّا تعذرنا ...»

تركهما آلي تياسو تعبران. وكان الرعب يسيطر عليهما لدرجة أنهما لم تتحدثا لمدَّة عشر دقائق.

لم ترَ إيلي الآليتَين مرة أخرى. ولم يكن لديها أدنى فكرة إن كانت محاولة الهروب قد نُفذت بالفعل أم لا. ومع اقتراب موعد إعدام والدتها وامتلاء المقاعد حولها في مبنى

الاجتماعات، أخذ قلبها يخفق بقوة. «ماذا لو أن شيئًا لم يحدث؟ ماذا لو أن أمي ستموت حقًّا بعد عشرين دقيقة؟»

ألقَت إيلي نظرةً على المسرح. ورأت كومةً من إلكترونياتٍ معدنيةٍ رمادية اللون تقف بارتفاع مترَين إلى جانب الكرسي الضخم. باستثناء ذلك لم يوجد على المسرح سوى ساعةٍ رقميةٍ تُشير إلى الساعة ٠٧:٤٢. حدَّقت إيلي في الكرسي، ورأت أعلاه غطاء رأسٍ متدلِّيًا يوضع فوق رأس الضحية. شعرت بقشعريرة تسري في جسدها وقاومت الشعور بالغثيان. «يا له من أمرٍ بربري! كيف يمكن لأي جنسٍ يعتبر نفسه متطورًا أن يسمح بحدوث أمرٍ بهذه البشاعة؟»

كانت إيلي لا تزال تحاول أن تمحو صورة الإعدام من ذهنها، عندما شعرت بنقرةٍ خفيفةٍ على كتفها. استدارَت لترى رجل شرطة ضخم الجثة مقطبًا جبينه يقف في الممر منحنيًا في اتجاهها. سألها: «هل أنت إليانور ويكفيلد تيرنر؟»

شعرت إيلي برعبٍ شديدٍ لدرجة أنها لم تستطع الإجابة. فاكتفَت بالإيماء برأسها. فقال لها: «هلَّا تأتين معي من فضلك؟ أريد أن أطرح عليكِ بضعة أسئلة.»

مرَّت إيلي وساقاها ترتعشان أمام ثلاثة أشخاص يجلسون في نفس الصف، ودخلت الممر. كانت تقول في نفسها: «لا بد أن شيئًا ما لم يَسِر على ما يرام. أخفقَت محاولة الهروب. ووجدوا الأغراض المخبَّأة وأدركوا بوسيلةٍ ما أنني متورطةٌ في الأمر.»

اصطحبها رجل الشرطة إلى غرفة اجتماعات صغيرة في جانب المبنى. وقال لها: «سيدة تيرنر، أنا النقيب فرانتس باور. ومهمتي هي التخلُّص من جسد والدتكِ بعد تنفيذ حكم الإعدام. رتَّبنا بالطبع لعملية الإحراق التقليدية مع الحانوتي، لكن ...»، وصمت النقيب باور كمن يتخيَّر كلماته بعناية، ثم استأنف قائلًا: «نظرًا للخدمات السابقة التي قدمتها والدتك للمستعمرة فكرت أنكِ قد تودين أنت أو أي فرد من العائلة أن تباشروا الإجراءات الأخيرة.»

أجابَته إيلي بصوتٍ واهن بعد أن شعرت بارتياح: «بالطبع أيها النقيب باور.» وأضافَت بسرعة: «بالتأكيد، شكرًا جزيلًا لك.»

فقال رجل الشرطة: «هذا كل شيءٍ يا سيدة تيرنر. يمكنكِ الآن العودة إلى مقعدك.»

وقفت إيلي واكتشفت أنها لا تزال ترتجف، فوضعت إحدى يدَيها على المنضدة في منتصف الغرفة. وقالت للنقيب باور: «سيدي!»

فأجابها: «ما الأمر؟»

فسألته: «هل يمكنني أن أرى والدتي بمفردنا للحظةٍ واحدةٍ قبل ...؟»

تفحص ضابط الشرطة إيلي بنظرةٍ طويلة. ثم قال: «لا أعتقد هذا، لكنني سأطلب ذلك نيابةً عنك.»

«شكرًا جز ...»

قاطع رنين الهاتف عبارة إيلي. فتلكَّأت في الخروج من غرفة الاجتماعات لترى الصدمة المرتسمة على وجه النقيب باور. وسمعَتْه يقول وهي تُغادر الغرفة: «هل أنت واثقٌ من ذلك؟»

بدأ الحشد يضطرب. أشارت الساعة الرقمية على المسرح إلى ٠٨:٣٦. وقال الرجل الجالس خلف إيلي متذمرًا: «هيا. دعونا ننتهِ من الأمر.»

قالت إيلي في نفسها مبتهجة: «لقد هربت أمي. أنا متيقنة من ذلك.» أرغمت نفسها على البقاء هادئة، وألقت نظرةً سريعةً على الجموع المضطربة. «هذا هو سبب الاضطراب الذي يسود الوضع هنا.»

كان النقيب باور قد أخبر الجميع بعد أن تجاوزَت الساعة الثامنة بخمس دقائق أن «الحدث» سيتأجَّل «لدقائق»، لكن لم تصدر أيُّ تصريحاتٍ إضافيةٍ أثناء النصف الساعة التالية. وسرَت شائعةٌ غريبةٌ في الصفوف أمام إيلي مفادها أن الكائنات الفضائيةَ أنقذَت نيكول من زنزانتها.

كان بعض الأشخاص قد بدءوا يغادرون بالفعل، عندما صعد الحاكم ماكميلان على المسرح. كان يبدو منزعجًا وغاضبًا، لكنه سرعان ما رسم على وجهه ابتسامته الرسمية العريضة وهو يخاطب الجموع.

قال: «أيتها السيدات والسادة، تأجَّلت عملية إعدام نيكول دي جاردان ويكفيلد. إذ اكتشفت الحكومة بعض المخالفات البسيطة في أوراق قضيتها — وهو أمرٌ غير مهمٍّ في الواقع — لكننا شعرنا أنه يجب التعامل مع هذه المخالفات أولًا، حتى لا تكون هناك شكوكٌ حول شرعية الأمر. وسيعاد تحديد موعد الإعدام قريبًا. وسيتم إعلام جميع سكان جنة عدن الجديدة بالتفاصيل.»

ظلَّت إيلي جالسةً في مقعدها، حتى أصبحت قاعة الاجتماعات فارغةً تقريبًا، إذ خشيت أن تعتقلها الشرطة إن حاولت أن تغادر، لكن لم يوقفها أحد. وفور أن خرجَت كان من الصعب عليها أن تكتم صرخة سعادة. قالَت في نفسها والدموع تترقرق في عينَيها: «أمي، كم أنا سعيدة لأجلك!».

لكنها اكتشفت فجأةً أن عددًا من الأشخاص ينظر إليها. فقالت في نفسها: «سأكشف نفسي.» ثم بادلتهم النظرات بابتسامة مهذبة. وقالت في نفسها: «الآن ستواجهين أكبر تحدٍّ لكِ يا إيلي، لا يمكنكِ أيًّا كانت الظروف أن تتصرَّفي كما لو أنكِ توقَّعت ذلك.»

كالعادة وقف روبرت وإيلي ونيكول الصغيرة في أفالون؛ لزيارة ناي واتانابي وولدَيها التوءمَين بعد أن انتهَوا من زياراتهم الأسبوعية للمرضى السبعة والسبعين الباقين من المصابين بفيروس «آر في ٤١». كان ذلك قبل وقت العشاء مباشرة. وكان كلٌّ من جاليليو وكيبلر يلعبان في الشارع القذر أمام المنزل المتهالك. وعندما وصلت عائلة تيرنر كان الصبيان يتشاحنان.

قال جاليليو ذو السنوات الأربع بغضب: «حدث.»

فأجابه كيبلر بانفعال أقل بكثير: «لا، لم يحدث.»

فانحنت إيلي بجوار التوءمَين. وقالت بنبرةٍ ودودة: «يا ولدَيَّ. علامَ تتشاجران؟»

فأجاب كيبلر بابتسامةٍ خجولة: «أهلًا يا سيدة تيرنر. لا شيء مهم. كنت أنا وجاليليو ...»

فقاطعه جاليليو بحدة: «أنا أقول إن الحاكمة ويكفيلد ماتت. إذ أخبرني بذلك أحد الأولاد في المركز، وهو يعرف الحقيقة بالتأكيد. فوالده ضابط شرطة.»

للحظةٍ ذهلت إيلي. ثم أدركَت أن التوءمَين لم يربطا بينها هي ونيكول. فقالت برفق: «هل تذكران أن الحاكمة ويكفيلد هي والدتي وجدَّة نيكول الصغيرة؟ ألم تقابلها أنت وكيبلر عدة مرات قبل أن تدخل السجن؟»

قطب جاليليو جبينه ثم هز رأسه.

وقال كيبلر بجدية: «أعتقد أنني أتذكرها ...» ثم أضاف الطفل البريء بعد لحظات من الصمت: «هل ماتت يا سيدة تيرنر؟»

فأجابَته إيلي: «لا نعرف بالضبط، لكننا نتمنى ألَّا تكون كذلك.» كانت على وَشْك ارتكاب خطأ. إذ كان من السهل إخبارُ هذَين الطفلَين بالحقيقة. لكن الأمر لا يحتمل خطأً واحدًا. فعلى الأرجح كان هناك آليٌّ على مدى السمع.

وحينما رفعت إيلي كيبلر واحتضنَته، تذكَّرَت أنها قابلت ماكس باكيت مصادفةً في متجر الإلكترونيات قبل ثلاثة أيام، وفي منتصف نقاشهما العادي قال ماكس فجأة: «جان وإليانور بخير وطلبتا مني أن أبلغكِ تحياتهما.»

ودون التفكير طرحت إيلي على ماكس سؤالًا آخر يتعلق بالآليتَين الصغيرتَين. لكنه تجاهله تمامًا. وبعد ثوانٍ قليلةٍ لاحظَت إيلي وهي على وَشْك أن تُعيد سؤالها أن الآلي جارسيا المسئول عن المتجر اقترب منهما، وكان على الأرجح ينصت إلى محادثتهما.

صاحَت ناي الواقفة على باب منزلها: «مرحبًا يا إيلي. مرحبًا يا روبرت.» ومدَّت ذراعَيها لتأخذ نيكول من والدها. وقالت لها: «كيف حالكِ يا صغيرتي الجميلة؟ لم أرَكِ منذ حفل عيد ميلادك الأسبوع الماضي.»

دخل الكبار إلى المنزل. وبعد أن تفقَّدت ناي المكان لتتأكَّد أنه لا يوجد أيُّ آليين جواسيس في المنطقة اقتربَت من إيلي وروبرت. وهمست لصديقَيها: «حقَّقَت الشرطة معي مرة أخرى ليلة أمس، بدأت أعتقد أن الإشاعة تحمل شيئًا من الحقيقة.»

قالت إيلي: «أي إشاعة؟ فهناك الكثير من الإشاعات.»

أجابتها ناي: «يعمل شقيق إحدى النساء اللائي يعملْنَ في مصنعنا في مخابرات ناكامورا. وأخبرها ذات ليلة بعد أن أسرف في الشراب أنه حين دخلَت الشرطة زنزانة نيكول صباح يوم تنفيذ حكم الإعدام، كانت الزنزانة خاوية. كان قد أخرجها آلي جارسيا. ويظنُّون أنه نفس الآلي الذي دُمِّر في الانفجار خارج مصنع الذخيرة.»

ابتسمَت إيلي، لكن عينَيها لم تبُح بشيءٍ ردًّا على النظرة المحدقة المتسائلة في عينَي صديقتها. قالت في نفسها: «هي بالأخص لا يمكنني أن أخبرها.»

قالَت بنبرةٍ موضوعية: «حقَّقت الشرطة معي أنا أيضًا عدة مرات يا ناي. وطبقًا لما يقولون فإن الهدف من جميع الأسئلة هو التخلص مما أسمَوْه «مخالفات» في قضية والدتي. وزارَت الشرطة كيتي أيضًا. إذ مرَّت عليَّ بصورةٍ غير متوقعةٍ الأسبوع الماضي، وقالت إن تأجيل إعدام أمي أمرٌ غريب بلا شك.»

قالَت ناي بعد صمتٍ دام لوقتٍ قصير: «شقيق صديقتي يقول إن ناكامورا يشكُّ في وجود مؤامرة.»

فأجابها روبرت بسخرية: «هذا مضحك. لا توجد أي معارضة فعلية للحكومة في أي مكان في المستعمرة.»

اقتربت ناي أكثر من إيلي. وهمست لها: «ماذا يحدث حقًّا في رأيك؟ هل تعتقدين أن والدتك هربت بالفعل؟ أم إن ناكامورا عدل عن رأيه وأعدمها سرًّا كي لا تتحوَّل إلى شهيدةٍ وطنية؟»

نظرت إيلي أولًا إلى زوجها ثم إلى صديقتها. كان صوت يردد داخل رأسها: «أخبريهما، أخبريهما.» لكنها أرغمت نفسها على الإجابة قائلة: «ليس لديَّ أدنى فكرة. فكَّرت بالطبع في كل الاحتمالات التي ذكرتها. بالإضافة إلى بعض الاحتمالات الأخرى. لكن كيف لنا أن نعرف ... ومع أنني لست الشخصية المتدينة التقليدية كما تعرفين، فقد ظللت أدعو بطريقتي الخاصة أن تكون أمي على ما يرام.»

٣

انتهت نيكول من تناول علبة المشمش المجفَّف، واجتازت الغرفة كي تلقيَ بالعبوة الفارغة في سلة القمامة. كانت السلة ممتلئةً تقريبًا. فحاولَت أن تضغط عليها بقدمها كي تقلل من حجم القمامة، لكن ارتفاعها لم يختلف كثيرًا.

ففكرت في نفسها: «إن الوقت ينفد مني»، وبصورةٍ تلقائية ألقَت نظرةً على الطعام المتبقِّي على الرف. «يمكنني الصمود ربما لخمسة أيامٍ أخرى. بعدها يجب أن أحصل على مخزون جديد.»

كانت كلٌّ من جان وإليانور قد غادرتا قبل ثمانٍ وأربعين ساعة. في أول أسبوعَين قضتهما نيكول في الغرفة أسفل حظيرة ماكس باكيت، كانت إحداهما تُقيم معها باستمرار. وكان الحديث معهما أشبه بالتحدُّث إلى زوجها ريتشارد، على الأقل في البداية قبل أن تستنفد نيكول جميع الموضوعات التي خُزِّنت في ذاكرتَي الصغيرتَين.

فكَّرت نيكول وهي تجلس على المقعد: «هاتان الآليتان هما أعظم إبداعاته. لا بد أنه قضى شهورًا لابتكارهما.» وتذكَّرت الآليين الآخرين الذين حاكوا شخصياتٍ من مسرحيات شكسبير، والذين صنعهم ريتشارد عندما كانا على متن نيوتن. «جان وإليانور أكثر تطورًا من الأمير هال وفولستاف. لا بد أن ريتشارد تعلَّم الكثير عن هندسة الكائنات الآلية البشرية في جنة عدن الجديدة.»

كانت جان وإليانور تُبقيان نيكول على اطلاع بالأحداث المهمة التي تقع في الموطن. وكانت تلك مهمة سهلة عليهما. إذ كان جزء من تعليمات برمجتهما يقتضي المراقبة وإبلاغ التقارير لريتشارد عبر اللاسلكي، عند خروجهما الدوري من عدن الجديدة؛ ومن ثم كانا يمرِّران المعلومات نفسها لنيكول. علمت، على سبيل المثال، أن قوات الشرطة الخاصة في حكومة ناكامورا فتشت كل مبنًى في المستوطنة في أول أسبوعَين بعد هروبها، بحجة البحث عن أي شخصٍ يجمع موارد مهمة. وبالطبع جاءوا أيضًا إلى مزرعة باكيت، وظلَّت نيكول

لمدة أربع ساعات جالسةً في صمت تام في الظلام الدامس في مخبئها. كانت قد سمعَت بعض الضوضاء فوقها، لكن مُجري عملية التفتيش لم يقضِ وقتًا طويلًا في الحظيرة.

بعد ذلك كان من الضروري لكلٍّ من جان وإليانور أن تبقيا خارج المخبأ في الوقت نفسه. وأخبرتاها أنهما منشغلتان بالتنسيق للمرحلة التالية من عملية هروبها. في إحدى المرات سألت نيكول الآليتَين: «كيف تتمكنان بسهولة من عبور نقاط التفتيش في مدخل عدن الجديدة؟» قالت لها جان: «الأمر في غاية البساطة. تمرُّ شاحنات البضائع عبر البوابة عشرات المرات يوميًّا، ومعظمها يحمل مواد من وإلى القوات وموظفي التشييد في الموطن الآخر، وبعضها يخرج إلى أفالون. ومن المستحيل أن يلاحظنا أحدٌ وسط الشحنات الضخمة.»

أخبرت جان وإليانور نيكول بأخبار المستعمرة منذ أن زُج بها في السجن. فأصبحت نيكول تعرف أن البشر غزوا موطن المخلوقات الطائرة واللاسويقية وأبادوا ساكنيهما. لم يهدر ريتشارد مساحة من ذاكرة الآليتين أو وقته بإمداد جان وإليانور بتفاصيل كثيرة حول المخلوقات الطائرة واللاسويقية، لكن نيكول عرفت أن ريتشارد نجح في الهروب إلى نيويورك ببيضتَين من بيض المخلوقات الطائرة، وأربعةٍ من بطيخ المنِّ الذي يحتوي على أجنة من الفصيلة اللاسويقية الغريبة، وشريحة حيوية من أحد المواطنين اللاسويقيين البالغين.

علمت نيكول أيضًا أن الفرخَين الطائرَين خرجا إلى العالم قبل بضعة أشهر، وأن ريتشارد منشغلٌ للغاية بتلبية احتياجاتهما.

كان من الصعب على نيكول أن تتخيل زوجها ريتشارد يقوم بدور الأم والأب لمخلوقَين فضائيَّين. وتذكرت حينما كان أولادهما صغارًا أن ريتشارد لم يُبد اهتمامًا بتربيتهما، وكان معظم الوقت لا يبالي بالاحتياجات العاطفية للأطفال. كان بالطبع رائعًا في تعليمهم الحقائق، خاصة المفاهيم المجردة في مجالَي الرياضيات والعلوم. لكن نيكول ومايكل أوتول اتفقا عدة مرات أثناء رحلتهما على متن راما «٢»، على أن ريتشارد لا يبدو قادرًا على التعامل مع الأطفال بما يناسب مستواهم.

قالت نيكول لنفسها وهي تتذكر حواراتها مع ريتشارد عن والده الذي كان يسيء معاملته: «كانت طفولته مؤلمة للغاية. لا بد أنه نشأ بلا قدرة على حب الآخرين أو الثقة بهم … فجميع أصدقائه كانوا إمَّا أوهامًا وإما آليين صنعهم بنفسه …» وتوقَّفت للحظةٍ ثم عادت تفكر: «لكنه تغيَّر دون شكٍّ في السنوات التي قضيناها في عدن الجديدة … ولم تتح لي الفرصة قطُّ لأخبره كم أنا فخورة به. لهذا أردت أن أترك الخطاب الخاص …»

وفجأةً انطفأ النور الوحيد في غرفة نيكول، وأحاط بها ظلام دامس. فجلسَت بهدوء على مقعدها وأخذت تنصت علَّها تسمع أي صوت. ومع أنها عرفت أن الشرطة في المبنى مرة أخرى، فإنها لم تتمكَّن من سماع شيء. ومع ازدياد خوفها بدأت تدرك أهمية جان وإليانور في حياتها. ففي أول زيارة للشرطة الخاصة لمزرعة باكيت، كانت الآليتان الصغيرتان معها لطمأنتها.

مر الوقت ببطء شديد. كانت نيكول تسمع صوت خفقات قلبها. وبعد أن مضى ما بدا لنيكول دهرًا كاملًا سمعت ضجيجًا فوقها. كأن هناك عددًا كبيرًا من الأشخاص في الحظيرة. فأخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن تهدئ روعها. وبعد ثوانٍ قليلةٍ شعرَت بفزعٍ شديدٍ عندما سمعت صوتًا خافتًا يلقي قصيدة شعر بجوارها.

اجتحني الآن يا صديقي القاسي،
واجعلني أرتعد في الظلام.
ذكرني بأنني وحدي تمامًا
واترك آثارك على وجهي.
ليتني أعرف كيف تأسرني،
في حين تقاومك كل أفكاري؟
تُرى أهو الوحش القابع في عقلي
الذي يفسح المجال لإرهابك باستمرار؟

* * *

خوف لا أساس له يحطمنا جميعًا
مع أننا ننشد أهدافًا سامية.
نحن فرسان المستقبل لا نموت،
لكن الخوف يشل أرواحنا.
ويخرس ألسنتنا عندما نحب،
بأن يذكرنا بما قد نفقد.
وإذا قابلنا النجاح مصادفة،
يدلنا الخوف على آمَنِ طريقٍ نسلكه مبتعدين.

أدركت نيكول في النهاية أن ذلك الصوت هو صوت الآلية جان، وأنها كانت تلقي مقطعَين شهيرَين من قصيدة الشاعرة بينيتا جارسيا عن الخوف، التي كتبتها بعد أن

انغمست في السياسة بسبب الفقر والعوز اللذَين شاعا وقت الفوضى الكبرى. هدَّأ صوت الآلية الودود وأبيات الشعر المألوفة من روع نيكول قليلًا. وظلَّت تستمع بهدوء أكثر لبعض الوقت مع أن الضوضاء بالأعلى كانت تتزايد بشدة.

عندما سمعت نيكول صوت نقل حقائب علف الدجاج الكبيرة الموضوعة فوق مدخل مخبئها، تجدَّد خوفها. وقالت لنفسها: «قُضي الأمر، سيلقون القبض عليَّ.»

وتساءلت نيكول إذا كانت قوات الشرطة الخاصة ستقتلها فور أن تجدها. ثم سمعت صوت دقٍّ معدنيٍّ عالٍ في نهاية الممر المؤدي إلى غرفتها، ولم تحتمل البقاء جالسة. حالما هبَّت من مكانها، شعرَت بوخزتَين حادتَين في صدرها وشعرَت أنها تتنفس بصعوبة. وتساءلت: «ماذا حل بي؟» بينما بدأت جان تحدِّثها من جانبها.

قالت الآلية: «بعد التفتيش الأول، خشي ماكس أن يكون قد أساء تمويه مدخل المخبأ جيدًا. فأضاف وأنت نائمةٌ ذات ليلةٍ نظام صرف كاملًا لبيت الدجاج في أعلى الحفرة، وجعل أنابيب الصرف تمر فوق المخبأ مباشرة. وهذا القرع الذي سمعته يعني أن أحدًا كان يقرع الأنابيب.»

حبست نيكول أنفاسها، بينما كان هناك حديث مكتوم يدور على السطح فوقها. وبعد دقيقةٍ سمعت مرة أخرى حركة نقل حقائب علف الدجاج. وقالت في نفسها بعد أن هدأت إلى حد ما: «ماكس العجوز الرائع.» هدأ الألم في صدرها، وبعد عدة دقائق اختفت الضوضاء بالأعلى تمامًا. تنهدت نيكول وجلست على الكرسي. لكنها لم تستطع النوم إلا بعد أن عاد الضوء.

عندما استيقظت نيكول، كانت الآلية إليانور قد عادت، وشرحت لنيكول أن ماكس سيبدأ في إزالة نظام الصرف في الساعات القليلة التالية، وأن نيكول ستغادر مخبأها أخيرًا. اندهشت نيكول بعد أن زحفت عبر النفق، عندما وجدت إيبونين تقف بجوار ماكس.

تعانقت السيدتان، وقالت إيبونين لنيكول: «كيف حالك؟ لم أرَكِ منذ مدةٍ طويلة جدًّا؟»

«لكن لماذا أنت هنا يا صديقتي؟ اعتقدت ...»

فقاطعها ماكس قائلًا: «حسنًا. سيكون لديكما الكثير من الوقت لتتبادلا الأخبار فيما بعد. أما الآن فيجب أن نسرع، فنحن متأخرون بالفعل لأنني استغرقت الكثير من الوقت في فكِّ نظام الصرف اللعين ... اصطحبي نيكول إلى الداخل يا إيبونين وساعديها على ارتداء

ملابسها. ويمكنك شرح الخطة وهي ترتدي ملابسها ... أنا بحاجةٍ لأن أستحمَّ وأحلق ذقني.»

أثناء سير السيدتَين في الظلام من الحظيرة إلى منزل ماكس، أبلغت إيبونين نيكول أن كل شيءٍ معدٌّ لهروبها من الوطن. قالت: «في الأيام الأربعة الماضية، خبأ ماكس كل قطع معدات الغطس في أماكن مختلفة حول شاطئ بحيرة شكسبير. ولديه مجموعة كاملة أخرى في مخزن في بوفوا، تحسبًا لاحتمالية نقل أحدهم القناع أو أسطوانات الهواء من المكان الذي خبأها فيه. وعندما سنكون أنا وأنت في الحفل، سيتأكد ماكس أن كل شيء على ما يرام.»

«أي حفل؟» سألت نيكول وهي متحيرة.

فضحكت إيبونين وهما تدخلان المنزل وقالت: «بالطبع، نسيت أنكِ بقيت معزولة مدة. اليوم هو ثلاثاء المرفع الذي يسبق الصوم. وسيقام حفل كبير في بوفوا وآخر في بوزيتانو. وسيكون الجميع تقريبًا بالخارج اليوم. فقد ظلت الحكومة تشجع الجميع على حضور الحفل، على الأرجح لصرف أذهانهم عن المشكلات الأخرى في المستعمرة.»

نظرت نيكول باستغرابٍ إلى صديقتها، فضحكت إيبونين مرة أخرى. وقالت: «ألا تُدركين معنى ذلك؟ كانت أكبر مشكلة تواجهنا هي إيجاد طريقةٍ لاصطحابكِ من المستعمرة إلى بحيرة شكسبير دون أن يراكِ أحد. فجميع سكان عدن الجديدة يعرفون وجهك. ريتشارد نفسه رأى أن هذه هي الفرصة الوحيدة المواتية. فأنت سترتدين ملابس تنكرية وقناعًا ...»

فسألتها نيكول بعد أن بدأت تستوعب على الأقل الإطار العام للخطة: «هل تحدثت إلى ريتشارد؟»

فأجابتها إيبونين: «ليس مباشرة. لكن ماكس تواصل معه عبر الآليتَين الصغيرتين. وكان ريتشارد هو صاحب فكرة تثبيت نظام الصرف الذي ضلَّل الشرطة في زيارتها الأخيرة للمزرعة؛ لأنه كان قلقًا من أن يعثروا عليك ...»

بينما كانت إيبونين تتحدث، قالت نيكول في نفسها: «شكرًا لك مجددًا يا ريتشارد. أنا أدين لك بحياتي ثلاث مرات حتى الآن تقريبًا.»

دخلت السيدتان إلى غرفة النوم، حيث وجدتا رداءً أبيض رائعًا على الفراش. قالت إيبونين: «ستحضرين الحفل بزي ملكة إنجلترا. ظللت أعمل على ردائك طوال الأسبوع دون توقف. وبعد ارتداء هذا القناع الكامل والقفازَين الأبيضَين وغطاء الساق، لن يظهر أيُّ جزءٍ من شعرك أو جسدك. ولا داعي لأن تبقي في الحفل أكثر من ساعة، أو أن تتحدثي

كثيرًا مع أي شخص، لكن إذا سألكِ أحدٌ عن هُويتك فقولي إنك إيلي. فهي ستبقى الليلة في منزلها مع حفيدتك.»

سألتها نيكول بعد ثوانٍ: «هل تعلم إيلي أنني هربت؟» كان صدرها يجيش شوقًا لرؤية ابنتها ونيكول الصغيرة التي لم ترها قط.

فأجابتها إيبونين: «على الأرجح. على الأقل عرفت أن هناك محاولةً لتهريبك ... كانت إيلي هي من أشركتني من البداية في خطة هروبك. إذ قمت أنا وهي بتخبئة مؤنك في السهل الرئيسي.»

«إذن فأنت لم تريها منذ أن هربت من السجن؟»

«بل رأيتها. لكننا لم نقُل شيئًا. لا بد أن تتوخَّى إيلي الحرص شديد حاليًّا. فناكامورا يراقبها كالصقر ...»

سألتها نيكول وهي تحمل الرداء لترى كيف سيبدو عليها: «هل اشترك شخصٌ آخر في الأمر؟»

فأجابتها إيبونين: «كلا. لا أحد غيري أنا وماكس وإيلي ... وبالطبع ريتشارد والآليتان الصغيرتان.»

وقفت نيكول أمام المرآة لعدة ثوانٍ، وقالَت في نفسها: «ها أنا ذي، سأصبح ملكة إنجلترا أخيرًا. على الأقل لمدة ساعةٍ أو اثنتَين.» كانت واثقة أن ريتشارد أيضًا هو صاحب فكرة ارتداء هذا الزي بالتحديد. «فلا يوجد شخصٌ آخر بإمكانِه أن يحسن الاختيار إلى هذا الحد.» ثبتت نيكول التاج على رأسها، وفكرت: «وبهذا الوجه الأبيض كان هنري نفسه سيجعلني الملكة.»

كانت نيكول غارقة في ذكرى حدثت قبل سنوات طويلة عندما خرج ماكس وإيبونين من غرفة النوم. وما إن رأتهما نيكول حتى بدأت تضحك. كان ماكس يرتدي رداءً قصيرًا أخضر اللون، ويحمل في يده رمحًا ثلاثي الشعب. كان متنكرًا في زي نبتون ملك البحار، وتنكرت إيبونين في زي أميرته الحورية المثيرة.

قالت الملكة نيكول وهي تغمز لإيبونين: «تبدوان أنتما الاثنان رائعين!» وأضافت بعد برهة بنبرة تعمد إلى إثارة غيظ ماكس: «هذا رائع يا ماكس، لم أعلم أن جسمك بديع هكذا.»

تذمر ماكس قائلًا: «هذا غير صحيح. فلديَّ شعر كثيف في كل مكان؛ شعر يغطي صدري بالكامل وأسفل ظهري وداخل أذني و...»

قاطعته إيبونين وهي تربت على رأسه بعد أن خلعت عنه التاج: «غير أنه خفيف هنا.»

قال ماكس: «تبًّا، عرفت الآن لماذا لم أنجح قط مع السيدات ... هيا بنا، دعونا نتحرك. علمت أن الطقس غريب الليلة أيضًا. وستحتاجان إلى شال أو سترة أثناء ركوبنا في العربة المكشوفة.»

قالت نيكول وهي تنظر إلى إيبونين: «العربة المكشوفة؟»

فابتسمت صديقتها. وقالت: «سترين بعد دقيقة واحدة.»

عندما صادرت حكومة عدن الجديدة جميع القطارات؛ لتحويل خليط المعادن الفضائية الخفيفة الوزن إلى طائراتٍ حربية وأسلحة أخرى، أصبحت مستعمرة عدن الجديدة تفتقر إلى نظام نقل كامل. لحسن الحظ اشترى معظم السكان دراجات، وأُنشِئت مجموعةٌ كاملةٌ من طرق الدراجات في السنوات الثلاث الأولى، بعد بناء المستوطنة الأساسية. وإلا كان من الصعب للغاية على الناس أن تنتقل من مكان لآخر داخل المستعمرة.

في الوقت الذي هربت فيه نيكول، كانت كل خطوط السكك الحديدية القديمة قد أُزيلت، وشقَّت بدلًا منها الطرق. خدمت هذه الطرق السيارات الكهربائية (المقصور استخدامها على قادة الحكومة وكبار المسئولين العسكريين) وشاحنات النقل (التي تسير أيضًا بالكهرباء المخزنة) ووسائل النقل الأخرى المختلفة والمبتكرة التي يصنعها بعض مواطني عدن الجديدة. كانت عربة ماكس المكشوفة رائعة. كان جانبها الأمامي دراجة وثبت في جانبها الخلفي مقعدان واسعان مريحان، يشبهان الأريكة إلى حدٍّ ما، يستندان إلى عجلتَين ومحور قوي، كانت تشبه كثيرًا العربات التي تجرها الخيول التي استخدمت قبل ثلاثة قرون على كوكب الأرض.

تعارك الملك نبتون مع الدواسات، عندما انطلقت المركبة ثلاثية العجلات في الطريق إلى سنترال سيتي. وقال وهو يحاول جاهدًا زيادة سرعتها: «تبًّا، لماذا وافقت على هذه الخطة السخيفة؟»

فضحكت نيكول وإيبونين في المقعد الخلفي. وقالت إيبونين: «لأنك رجل رائع، وأردتنا أن نكون مرتاحتَين ... ثم هل يمكنك أن تتخيل ملكة تركب دراجة لمسافة عشرة كيلومترات تقريبًا؟»

كان الجو يميل فعلًا للبرودة. وقضت إيبونين بضع دقائق تشرح لنيكول كيف أصبح الطقس أقل استقرارًا. قالت: «أذيع مؤخرًا تقرير في التليفزيون يؤكد أن الحكومة تعتزم

نقل الكثير من سكان المستعمرة إلى الموطن الثاني. إذ إن بيئته لم تفسد بعد ... لا أحد يصدق أننا سنتمكن من علاج المشكلات هنا في عدن الجديدة.» وحالما اقتربا من سنترال سيتي، شعرت نيكول بالقلق على ماكس الذي بدأ يرتعش من البرد. وعرضت عليه الشال الذي اقترضته من إيبونين، فقبله آخر الأمر. وقالت متعمدة إثارة غيظه: «كان يمكنك اختيار زيٍّ يدفئك أكثر.»

فقالت إيبونين: «كان اختيار شخصية الملك نبتون لماكس فكرة ريتشارد أيضًا. وبهذه الطريقة لن يبدو الأمر غريبًا الليلة إذا اضطر أن يحمل أيًّا من معدات غطسك.»

كانت نيكول منفعلةً بصورة مفاجئة عندما سارت العربة ببطء وسط الزحام المتزايد، وانعطفت بين المباني الرئيسية في سنترال سيتي. وتذكرت نيكول ليلةً قضتها قبل سنوات، عندما كانت البشرية الوحيدة المستيقظة في عدن الجديدة. في تلك الليلة اطمأنت على عائلتها للمرة الأخيرة، ثم دخلت فراشها وهي مدركةٌ تمامًا ما تفعل، وأعدَّت نفسها لتنام طوال الرحلة التي تستغرق الكثير من السنوات إلى النظام الشمسي.

داعبَت ذهنها صورة الرجل النسر، ذلك الكائن الذي يجسد بغرابة ذكاء المخلوقات الفضائية، والذي كان مرشدهم في «نود». استرجعت بسرعةٍ ملخص تاريخ المستعمرة بالكامل، منذ اللقاء الأول مع المسافرين من الأرض على متن بينتا، وتساءلت في نفسها: «هل كان بإمكانك توقع كل هذا؟ وما رأيك فينا الآن؟» هزت نيكول رأسها بحدة وهي تشعر بإحراجٍ شديد من سلوكيات بني جنسها من البشر.

قالت إيبونين وهي تجلس على المقعد المجاور لنيكول بعد أن دخلوا الميدان الرئيسي: «لم يستبدلوه قطُّ.»

فأجابتها نيكول: «معذرة، كنت مستغرقةً في أحلام اليقظة.»

«أعني النصب التذكاري الرائع الذي صممه زوجك، والذي كان يشير إلى مسار راما في المجرة ... تذكرين كيف دُمر الليلة التي أراد فيها الشعب إعدام مارتينيز ... على أي حال لم يستبدلوه قط.»

مرة أخرى غرقت نيكول في ذكرياتها. وفكرت: «ربما كان هذا من علامات كبر السن. مزاحمة الكثير من الذكريات دائمًا لأحداث الحاضر.» وتذكرت الجماهير الثائرة والصبي أحمر الشعر الذي صرخ: «اقتلوا الوغد الزنجي ...»

سألت نيكول بصوتٍ خفيضٍ وهي متخوفة من سماع الإجابة: «ماذا حدث لمارتينيز؟»

فجاءت الإجابة: «أُعدِمَ بالكرسي الكهربائي بعد وقتٍ قصيرٍ من استيلاء ناكامورا وماكميلان على الحكومة. وظلَّت أحداث المحاكمة الموضوع الرئيسي في الأخبار لعدة أيام.»

كانت العربة قد مرت عبر سنترال سيتي واستمرت في طريقها جنوبًا نحو بوفوا، وهي القرية التي عاشت فيها نيكول وريتشارد وعائلتهما قبل انقلاب ناكامورا. نظرت نيكول إلى جبل أوليمبوس المطل عليهم إلى يسارها. وفكرت: «كان من الممكن أن تكون الأوضاع مختلفة، كان من الممكن أن نبني جنة هنا. ليتنا بذلنا المزيد من الجهد …»

اجتاح نيكول سيل من الذكريات غرقت فيه مئات المرات منذ تلك الليلة الفظيعة، ليلة رحيل ريتشارد العاجل عن عدن الجديدة. ظل دائمًا ذلك الأسى العميق في قلبها، وتلك الدموع المريرة في عينَيها.

تذكرت نيكول أنها قالت ذات مرة للرجل النسر في «نود»: «نحن البشر قادرون على التصرُّف وفق سلوك ثنائي. في بعض الأوقات عندما نجد الاهتمام والحنان نبدو حقًّا كائناتٍ لا تختلف عن الملائكة. لكن في أكثر الأوقات يغلب طمعنا وأنانيتنا على فضائلنا، ونصبح أشبه بالمخلوقات الدنيئة التي تطورنا منها.»

٤

كانت إيبونين ونيكول قد بدأتا تشعران بالقلق. فقد مرَّت ساعتان تقريبًا على رحيل ماكس من الحفل. وبينما حاولت السيدتان اجتياز قاعة الرقص المزدحمة، أوقفهما رجلان يتنكران في زي روبن هود وفراير تك.

قال روبن هود لإيبونين: «أنت لست جميلتي ماريان، لكن حورية البحر لا تختلف عنها كثيرًا.» وأخذ يضحك بشدة على دعابته، ومد ذراعَيه وبدأ يرقص مع إيبونين.

وقال الرجل الآخر: «هل لراهب بسيط أن يحظى برقصة مع جلالتك؟» فابتسمت نيكول. وفكرت: «ما الضرر الذي قد تسببه رقصة واحدة؟» فاقتربت من الراهب فراير تك وبدآ يرقصان ببطء في القاعة.

كان فراير تك شخصًا ثرثارًا. فبعد كل عدة فواصل موسيقية، كان يبتعد خطواتٍ قليلةً عن نيكول ويطرح عليها سؤالًا. وكما هو مخطط كانت نيكول تُجيب بإشارةٍ أو إيماءةٍ برأسها. ومع قرب انتهاء الأغنية، بدأ الراهب المتنكر يضحك قائلًا: «أعتقد أنني أرقص مع بكماء. إنها رشيقة حقًّا، لكنها مع ذلك بكماء.»

أجابته نيكول بصوت منخفض محاولةً تغيير نبرتها: «أعاني بردًا شديدًا».

لكن بعد أن تحدثت، لاحظت تغيرًا واضحًا في سلوك الراهب. وزاد قلقها عندما ظل الرجل ممسكًا بيدَيها، محملقًا فيها لعدة ثوانٍ بعد أن انتهَت الرقصة.

ثم قال بجدية: «سمعت صوتك من قبل. إنه مميزٌ للغاية ... ربما نكون قد تقابلنا قبل ذلك. أنا السيناتور واليس ميكلسون من الجزء الغربي من بوفوا.»

فكرت نيكول في ذعر: «أتذكرك. كنت أحد أول الأمريكيين الداعمين لناكامورا وماكميلان في عدن الجديدة.»

لم تجرؤ نيكول على التفوُّه بكلمةٍ أخرى. ولحسن الحظ عادت إيبونين وروبن هود لينضما إلى نيكول وفراير تك، قبل أن يطول صمتهما بدرجةٍ خطيرة. شعرت إيبونين بحدوث شيءٍ غريب فتصرفت بسرعة، وقالت وهي تأخذ نيكول من يدها: «كنت أنا والملكة في طريقنا إلى الحمام، عندما أوقعتمانا في شراككما أيها الخارجان على قانون غابة شيرووود. والآن اسمحا لنا بالذهاب إلى وجهتنا الأصلية، وشكرًا على الرقصة.»

بينما ابتعدت السيدتان، ظل الرجلان بملابسهما الخضراء يراقبانهما باهتمام. وفور أن دخلتا حمام السيدات، فتحت إيبونين جميع أبواب الحجرات الصغيرة الداخلية لتتأكد أنهما وحدهما. ثم قالت هامسة: «حدث خطبٌ ما. على الأرجح اضطر ماكس للعودة إلى المخزن لاستبدال معداتك.»

فقالت نيكول: «فراير تك هو سيناتور من بوفوا. وتعرَّفَ صوتي تقريبًا ... أعتقد أنني لست بمأمن هنا.»

فردَّت إيبونين بعصبيةٍ بعد لحظةٍ من التردد: «حسنًا. سننفذ الخطة البديلة ... سنخرج مباشرة وننتظر تحت الشجرة الضخمة.»

وفجأةً التقطت أعين السيدتَين في آنٍ واحدٍ الكاميرا الصغيرة المثبتة في السقف؛ إذ أصدرت صوتًا خافتًا وهي تغيِّر اتجاهها لتتبعهما في أرجاء الحمام. فحاولت نيكول أن تتذكَّر كل كلمة تفوهت بها هي وإيبونين. وسألت نفسها: «هل قلنا ما يشير إلى هُويَّتنا؟»

كانت نيكول قلقةً بصورة خاصة على إيبونين؛ لأنها ستظل في المستعمرة سواء هربت أم قُبض عليها.

عندما عادت نيكول وإيبونين إلى قاعة الرقص، أشار إليهما روبن هود وراهبه المفضل كي تنضما إليهما. لكن إيبونين اتجهت نحو الباب الأمامي وهي تُشير بإصبعَيها على شفتَيها لتخبرهما أنها ستخرج لتدخن سيجارة، ثم اجتازت الغرفة هي ونيكول. ألقت إيبونين نظرة خاطفة وراء ظهرها وهي تفتح الباب الخارجي. ثم همست لنيكول: «الرجلان المرتديان الأخضر يتبعاننا.»

على بُعد ما يقرب من عشرين مترًا خارج مدخل قاعة الرقص — التي كانت في حقيقة الأمر قاعة الألعاب الرياضية بمدرسة بوفوا الإعدادية — كانت تقف شجرة دردار كبيرة، هي إحدى الأشجار القليلة التي نُقلت إلى راما من كوكب الأرض. عندما وصلت إيبونين والملكة نيكول إلى الشجرة، وضعت إيبونين يدها داخل حقيبتها وأخرجت سيجارة وأشعلتها بسرعة. نفثت الدخان بعيدًا عن نيكول. وهمست لصديقتها: «أنا آسفة.»

«لا بأس، أنا أتفهَّم الأمر» وفور أن أنهت نيكول عبارتها، حضر روبن هود وفراير تك إليهما.

قال روبن هود: «إذن فأميرتنا الحورية مدخنة. ألَا تعلمين أنكِ بهذا تقتطعين سنواتٍ من عمرك؟»

كانت إيبونين على وَشْك أن تخبرَه بإجابتها المعهودة، وتشرح له أن فيروس «آر في ٤١» سيقتلها قبل أن يفعل التدخين بوقتٍ طويل، لكنها رأت أن أي حوارٍ قد يشجِّع الرجلَين على البقاء. فابتسمَت ابتسامة صفراء وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارتها، ونفثت الدخان فوق رأسها باتجاه أغصان الشجرة.

فقال روبن هود متجاهلًا حقيقة أن أيًّا منهما لم تُجب على تعليقه الأول: «كنت أنا والراهب نأمل أن تقبلا الانضمام إلينا لاحتساء شراب.»

وأضاف فراير تك: «هذا صحيح، نودُّ معرفة مَن أنتما …» ثم حدَّق في نيكول وقال: «أنا واثقٌ أننا تقابلنا من قبل، فصوتكِ يبدو مألوفًا للغاية.»

اصطنعت نيكول السعال ونظرت حولها. كان يوجد ثلاثة رجال شرطة في محيط خمسين مترًا. قالَت في نفسها: «ليس هنا. ليس الآن. ليس وأنا قريبة بهذا الشكل.»

قالت إيبونين: «إن الملكة لا تشعر أنها على ما يُرام. وقد نغادر مبكرًا. إذا لم نغادر فسنجدكما عندما نعود إلى الداخل …»

قاطعها روبن هود وهو يقترب من نيكول قائلًا: «أنا طبيب. ربما يمكنني مساعدتك.»

شعرت نيكول بتوتُّرٍ شديد. وبدأت ثانية تلتقط أنفاسها بصعوبة. فسعلت مرة أخرى وأشاحت بوجهها عن الرجلَين.

وفجأة سمعت صوتًا مألوفًا يقول: «إنه سعالٌ شديدٌ يا جلالة الملكة. من الأفضل أن نصطحبكِ إلى المنزل.»

رفعت نيكول عينها لترى رجلًا آخر يرتدي رداءً أخضر. كان الرجل هو ماكس أو الملك نبتون الذي كان ينظر إليها وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. وخلفه رأت نيكول العربة

المكشوفة على بُعدٍ لا يزيد عن عشرة أمتار. شعرت نيكول بسعادةٍ وارتياح، فاحتضنت ماكس بقوةٍ ونسيت تقريبًا المخاطر التي تُحيط بها، وهتفت: «ماكس» قبل أن يضع إصبعه على شفتَيها.

قال ماكس بثقة: «أعرف أنكما يا سيدتاي مسرورتان أن الملك نبتون أنهى أعماله لهذه الليلة، ويمكنه أن يصطحبكما إلى قلعته بعيدًا عن الخارجين على القانون، والعناصر الأخرى غير المرغوبة.»

نظر ماكس إلى الرجلَين اللذَين كانا يستمتعان بأدائه، مع أنه أفسد عليهما خططهما للأمسية. وقال ماكس وهو يساعد السيدتَين على ركوب العربة المكشوفة: «شكرًا لك يا روبن. وشكرًا لك يا فراير تك. أقدِّر كثيرًا اعتناءكما بصديقتيَّ.»

اقترب فراير تك من العربة المكشوفة، وكان من الواضح أنه يعتزم طرح سؤال آخر، لكن ماكس بادر بقيادة العربة مبتعدًا. وقال وهو يلوح للرجل: «إنها ليلة الملابس التنكرية والألغاز. لكن لا يمكننا البقاء أكثر من ذلك، فالبحر ينادينا.»

قبَّلت إيبونين ماكس وهي تقول له: «إنك مذهل.»

أومأت نيكول برأسها. وقالت: «ربما تكون قد أخطأت في اختيار مهنتك. وجب عليك العمل ممثلًا وليس مزارعًا.»

قال ماكس وهو يعطي نيكول قناع الغطس؛ لإدخال التعديلات النهائية عليه: «لعبت دور ماركوس أنطونيوس في مسرحيةٍ بالمدرسة الثانوية في آركنسو. أحبَّت الخنازير تجارب الأداء التي قمت بها ...» ثم سرد عبارة من دوره في المسرحية قائلًا: «أيها الأصدقاء، أيها الرومان، أيها الإخوة المواطنون ... أعيروني أسماعكم، جئت الآن كي أدفن قيصر لا لأمدحه.»

ثم ضحك ثلاثتهم. كانوا يقفون في تلك اللحظة في قطعة أرض صغيرةٍ على بُعد خمسة أمتارٍ تقريبًا من شاطئ بحيرة شكسبير. حجبتهم الأشجار والشجيرات العالية عن الطريق ودرب الدراجات القريب منهم. رفع ماكس أسطوانة الهواء وساعد نيكول على تثبيتها على ظهرها.

ثم سألها: «هل كل شيء جاهز الآن؟»

أومأت نيكول برأسها.

قال ماكس: «إن الآليتَين ستقابلانك في المخبأ. وطلبتا مني أن أذكركِ ألَّا تغوصي بسرعة ... فإنكِ لم تمارسي الغوص منذ وقت طويل.»

وقفت نيكول صامتةً لعدة ثوانٍ. ثم قالت: «لا أدري كيف أشكركما. ولا أجد الكلمات المناسبة التي تُعبِّر عن امتناني لكما.»

اتجهت إيبونين إليها واحتضنتها. ثم قالت: «صحبتكِ السلامة يا صديقتي. نحبكِ كثيرًا.»

وقال ماكس بصوتٍ متهدج وهو يعانقها: «وأنا أيضًا.» ثم وقف هو وإيبونين يلوحان لنيكول وهي تتجه إلى البحيرة.

كانت الدموع تنهمر من عينَي نيكول وتتجمَّع في أسفل قناعها. ثم لوَّحت لهما مرةً أخيرة، عندما وصلت المياه إلى خصرها.

كانت المياه أكثر برودةً مما توقَّعت نيكول. وكانت تعرف أن التغيرات في درجات الحرارة في عدن الجديدة زادَت، منذ أن تولَّى المستوطنون مهمة التحكم في الطقس، لكنها لم تظنَّ أن التغيرات في الطقس قد تُسبِّب تغيُّر درجة حرارة البحيرة.

عدَّلت نيكول كمية الهواء في سترة الغوص؛ لتقلِّل من سرعة هبوطها في الماء. وبدأت تنصح نفسها: «لا تسرعي. وحافظي على هدوئك. فأمامك رحلة سباحة طويلة.»

كانت إليانور وجان قد دربتا نيكول كثيرًا على الخطوات التي يجب عليها اتباعها؛ لتحديد مكان النفق الطويل الذي يجري أسفل حائط الموطن. فأشعلت مصباحها الكهربائي وفحصت المزرعة المائية التي تقع إلى يسارها. وتذكرت: «ثلاثمائة متر باتجاه وسط البحيرة، ثم في اتجاهٍ عمودي على الحائط الخلفي لمنطقة تغذية أسماك السلمون. أظل على عمق عشرين مترًا حتى أرى الرصيف الأسمنتي بالأسفل.»

لم تجد نيكول صعوبةً في السباحة لكنها شعرت بالتعب سريعًا. تذكرت نقاشًا خاضَته مع ريتشارد منذ بضع سنوات، حينما كانا يفكران في عبور البحر الأسطواني معًا ليهربا من نيويورك. قالت نيكون حينها: «لكني لست بسباحةٍ ماهرة. قد لا أستطيع فعل ذلك.»

حينها طمأنها ريتشارد أنها لن يصعب عليها السباحة لمسافةٍ طويلة؛ لأنها تتمتع بلياقة بدنية عالية. فكرت: «ها أنا ذي أسبح كي أنجو بحياتي، متبعة طريق الهرب الذي سلكه ريتشارد منذ سنتَين. إلا أن عمري يناهز الستين. فضلًا عن أني فقدت لياقتي.»

وجدت نيكول الرصيف الأسمنتي، فهبطت خمسة عشر مترًا أخرى وهي تراقب جميع أجهزة القياس بحرص، وفي النهاية عثرَت على إحدى محطات الضخ الثمانية الكبيرة

المنتشرة أسفل البحيرة؛ لكي تجعل الماء يدور باستمرار. من المفترض أن يكون مدخل النفق مخبأ أسفل أحد تلك المحركات الكبيرة. لكن نيكول لم تعثر على المدخل بسهولة. فقد تجاوزَته عدة مرات بسبب النباتات التي نمت حول مجموعة المضخات.

كان النفق أنبوبًا مستديرًا قطره أربعة أمتار مليء تمامًا بالماء. أنشئ ليكون طريق هروب في حالة حدوث طوارئ في الموطن، وظهر في تصاميم الموطن الأصلي بإصرار من ريتشارد، الذي علمته خبرته في مجال الهندسة أن يضع في الاعتبار كل الاحتمالات غير الواردة. كانَت مسافة السباحة من المدخل في بُحيرة شكسبير إلى المخرج — وفي الخارج في السهل الرئيسي خلف أسوار الموطن — أكثر بقليل من كيلومتر. استغرقَت نيكول عشر دقائق إضافية وهي تبحث عن المدخل. وكان التعب قد تملَّك منها بالفعل عندما بدأت سباحة آخر جزءٍ من رحلتها.

طوال العامَين اللذَين قضتهما نيكول في السجن، كانت التمرينات التي تُمارسها هي السير وتمارين البطن والضغط، ولم تمارسها بانتظام. لهذا لم تكن عضلاتها التي بدأت تهرم قادرةً على تحمل الإجهاد الشديد دون أن تتشنج. وبالفعل تشنجت عضلات ساقها ثلاث مرات عندما كانت تسبح في النفق. وفي كل مرةٍ كانت تُناضل وتقف في وَضْع مستقيم، وتجبر نفسها على الاسترخاء حتى يزول التشنُّج تمامًا. لذا كان تقدُّمها بطيئًا للغاية. ومع نهاية رحلتها خشيَت نيكول أن ينفد الهواء منها قبل أن تصل إلى مخرج النفق.

وفي مائة المتر الأخيرة، كان الألم يسري في جسد نيكول بالكامل. فذراعاها كانتا لا تقدران على دفع الماء وساقاها خارت قواهما؛ فلم يعد بإمكانهما التحرك في الماء. وحينها أيضًا بدأ الألم في صدرها. ولازمها ذلك الألم المزعج حتى بعدما أشار مقياس العمق أن النفق ارتفع لأعلى قليلًا.

عندما وصلت نيكول أخيرًا إلى نهاية الممر، ووقفت في حجرة صغيرة أسفل الأرض لا يغطي أرضيتها سوى نصف متر من الماء، كادت تنهار تمامًا. ولعدة دقائق حاولت سدًى أن تستعيد التوازن في تنفسها ومعدل خفقان قلبها. لكن لم يكن لديها قوةٌ تكفي لرفع الغطاء المعدني لباب الخروج فوق رأسها. هكذا بعد أن شعرت أنها حمَّلت جسدها فوق طاقته، قرَّرت أن تبقى في النفق لبعض الوقت وتغفو قليلًا.

استيقظت نيكول بعد ساعتَين، عندما سمعت صوت قرع خفيف غريب فوقها. هبت واقفةً أسفل الغطاء وأصغَت جيدًا. وبالفعل التقطَت أذناها بعض الأصوات، لكنها لم تستطع تبيُّن ما يُقال. فسألت نفسها وخفقات قلبها تتسارَع: «ماذا يحدث؟ إذا كان رجال الشرطة قد كشفوا أمري فلماذا لا يفتحون الغطاء؟»

تحرَّكت نيكول بهدوءٍ في الظلام في اتجاه معدات الغوص، التي كانت موجودةً بجانب الحائط على الجانب الآخر من النفق. سلَّطت كشافها الصغير على أدوات القياس لترى مقدار الهواء المتبقي في الخزان. قالت في نفسها: «يمكنني أن أبقى تحت سطح الماء لبضع دقائق.»

وفجأةً سمعت صوت ضربة حادة على الغطاء. وجاءها صوت الآلية جان تسأل: «هل أنتِ بالأسفل يا نيكول؟ إذا كنت كذلك فأكِّدي ذلك على الفور. لدينا بعض الملابس الجافَّة لكِ لكننا لسنا قويتَين بالقدر الكافي لتحريك الغطاء.»

صاحَت نيكول بارتياح: «نعم، أنا هنا. سأخرج فور أن أستطيع.»

بعد أن صعدت نيكول، كان جسدها يرتجف داخل ملابسها المبللة في هواء راما المنعش؛ إذ كانت الحرارة أعلى من درجة التجمُّد ببضع درجات. فظلَّت أسنانها تصطكُّ وهي تسير ثمانية أمتار في الظلام إلى المكان الذي وُضع فيه الطعام والملابس الجافَّة.

عندما وصلت ثلاثتهنَّ إلى مكان المؤن، طلبَت جان وإليانور من نيكول أن ترتديَ زي الجيش الذي تركته لها إيلي وإيبونين. وحينما سألتهما نيكول عن السبب، شرحتا أنه كي يتمكنَّ من الوصول إلى نيويورك يجب أن يعبرْنَ الموطن الثاني. وقالَت إليانور بعد أن استقرَّت بأمانٍ في جيب قميص نيكول: «إذا اكتشف أحدُهم أمرنا، فسيكون من الأسهل الخروج من المأزق بأن تقنعيه وأنتِ ترتدين الزي العسكري.»

ارتدت نيكول الملابس الداخلية الطويلة والزي العسكري. وبعد أن شعرت بالدفء أدركت أنها جائعةٌ جدًّا. وبينما كانت تتناول الطعام الذي خبأته لها إيبونين، وضعت جميع الأغراض الأخرى المغلفة في الملاءة في حقيبة ظهرها التي كانت تحملها أسفل سترة الغوص.

كان الدخول إلى الموطن الثاني يمثِّل مشكلة. فلم تقابل نيكول والآليتان المختبئتان في جيبها أيَّ بشري في السهل الرئيسي، لكن مدخل ما كان يومًا ما موطن المخلوقات الطائرة واللاسويقية كان يحرسه بشري. ذهبت إليانور وحدها كي تستطلع الأمر، وعادت لتبلغهما بالصعوبة التي سيواجهنها. فتوقَّفت الثلاثة على بُعد ثلاثمائة أو أربعمائة متر من طريق المرور الرئيسي بين الموطنَين.

قالت جان لنيكول: «لا بد أن هذا إجراء أمني جديد طُبق منذ هروبك. فإننا لم نواجه قطُّ أي صعوبات في الذهاب والمجيء.»

فسألت نيكول: «هل توجد طرق أخرى تقود إلى الداخل؟»

أجابت إليانور: «لا. كان موقع التفتيش الأصلي هنا. ومنذ ذلك الحين وُسع بصورةٍ كبيرةٍ وبُني جسر فوق الخندق المائي، حتى تتمكَّن القوات من التحرك بسرعة. لكن لا توجد مداخل أخرى.»

فسألت نيكول: «هل يجب علينا المرور عبر هذا الموطن للوصول إلى ريتشارد ونيويورك؟»

أجابتها جوان: «نعم. فذلك الحاجز الرمادي الضخم إلى الجنوب، الذي يُعدُّ حائط الموطن الثاني، ويمتد عدة كيلومترات يمنع الحركة من وإلى نصف الأسطوانة الشمالي من راما. من الممكن أن نطير فوقه لو أن معنا طائرة تحلق على ارتفاع كيلومترَين وطيارًا ماهرًا للغاية، لكن هذا غير متوفر ... بالإضافة إلى أن ريتشارد يتوقع مجيئنا عبر الموطن.»

وهكذا ظللن منتظراتٍ لوقت طويل في البرد والظلام. وكانت إحدى الآليتَين تذهب لتتفقد المدخل بصفة دورية، لكن الحارس كان موجودًا باستمرار. أصيبَت نيكول بالتعب والإحباط. قالت في لحظة من اللحظات: «اسمعاني، لا يمكننا البقاء هنا للأبد. لا بد من وجود خطة بديلة.»

فقالت إليانور مذكرةً نيكول بأنهما مجرد آليتَين: «لا علم لنا بوجود خطة بديلة أو خطة احتياطية للتعامل مع هذا الموقف.»

غفت نيكول منهكة القوى غفوةً قصيرة، حلمت فيها أنها ترقد عارية على مكعب ثلج ضخم مسطح. والمخلوقات الطائرة تهاجمها بعنف من السماء، بينما يحيط بها مئات الآليين الصغار مثل جان وإليانور على سطح المكعب. وكانوا جميعًا ينشدون معًا في انسجام.

عندما استيقظت نيكول شعرت أنها استعادت بعضًا من نشاطها. فتحدَّثت مع الآليتَين ووضعْنَ معًا خطةً جديدة. قررت ثلاثتهن ألَّا يتحرَّكْن إلا عندما تتوقف حركة المرور عبر المدخل إلى الموطن الثاني لوقتٍ قصير. في تلك اللحظة ستخدع الآليتان الحارس حتى تتسلل نيكول إلى الداخل. ونصحتاها أن تسير بحذر إلى الجانب الآخر من الجسر، وأن تنعطف وتسير بامتداد الخندق المائي. ثم قالت لها إليانور: «انتظرينا في الكهف الصغير على بعد ثلاثمائة مترٍ من الجسر.»

بعد عشرين دقيقةً أثارت جان وإليانور جلبةً شديدة عند الحائط البعيد، على مسافة ما يقرب من خمسين مترًا من المدخل. وعندما ترك الحارس موقعه للتحقُّق من الضوضاء، دخلت نيكول الموطن دون أن يعترض أحدٌ طريقها. وفي الداخل كان هناك درج طويل

متعرج جيئةً وذهابًا، يهبط عدَّة مئات الأمتار من ارتفاع المدخل إلى مستوى الخندق الواسع الذي يطوق الموطن بأكمله. كانت هناك أضواءٌ تُضيء على فتراتٍ متقطعةٍ على الدرج، ورأت نيكول المزيد من الأضواء على الجسر أمامها، لكن الإضاءة كانت خفيفةً بوجهٍ عام. شعرَت نيكول بالتوتر عندما رأت اثنَين من عمال البناء يصعدان الدرج باتجاهها. لكنهما استمرا في صعود الدرج دون أن يعيراها الكثير من الاهتمام، فسعدت أنها ترتدي الزي العسكري.

بينما كانت نيكول تنتظر بجوار الخندق المائي، حدقت باتجاه وسط موطن الكائنات الفضائية وحاولت أن تتبين المعالم المذهلة التي وصفتها لها الآليتان الصغيرتان؛ مثل البناء الأسطواني البُني الضخم الذي يرتفع مسافة ألف وخمسمائة متر، والذي كان يومًا يضمُّ مستعمرتَي المخلوقات الطائرة واللاسويقية، والكرة المغطاة الضخمة التي تتدلَّى من سقف الموطن وتمده بالضوء، وحلقة المباني البيضاء الغامضة — بطول قناة — تطوق الأسطوانة.

لكن الكرة المغطاة لم تُضِئ منذ شهور، منذ أول غارةٍ بشريةٍ على موطن المخلوقات الطائرة واللاسويقية. لم ترَ نيكول سوى أضواءٍ صغيرةٍ ومتناثرةٍ على أبعادٍ كبيرة، وكان من الواضح أن البشر الغُزاة هم من وضعوها في الموطن. لذا كان كلُّ ما أمكنها تمييزه هو ظلًّا باهتًا غير واضح الحواف للأسطوانة العملاقة. قالت نيكول لنفسها وهي تفكر أنها في مكان كان حتى وقتٍ قريبٍ يُؤوي فصيلة واعية أخرى: «لا بد أن الأمر كان رائعًا عندما دخل ريتشارد هنا للمرة الأولى. وهنا أيضًا نمدُّ نطاق سلطتنا، ونطأ بأقدامنا جميع أشكال الحياة الأخرى التي لا تضاهينا في القوة.»

استغرقَت إليانور وجان وقتًا أطول من المتوقع للانضمام إلى نيكول. بعدها تقدمت ثلاثتهن ببطءٍ بطول الخندق المائي. وكانت إحدى الآليتَين تتقدَّم باستمرارٍ لتستطلع الطريق، وتحرص على تجنب أي احتكاك بالبشر. اضطرَّت نيكول مرتَين وهي تسير في الجزء الذي يشبه غابات الأرض في الموطن، أن تنتظر في هدوءٍ حتى تمرَّ مجموعةٌ من الجنود أو العمال في الطريق إلى يسارهن. وفي المرتَين كانت نيكول تتفحص النباتات الجديدة الشائقة حولها في افتتان. حتى إنها عثرَت على مخلوقٍ بين العلقة ودودة الأرض يحاول أن يدخل حذاءها الأيمن. فالتقطَته بفضول ووضعته في جيبها حتى تتمكن من تفحصه في وقتٍ لاحق.

عندما وصلت نيكول والآليتان أخيرًا إلى النقطة المحددة للقاء، كان قد مر اثنتان وثلاثون ساعةً تقريبًا منذ أن ذهبت إلى بحيرة شكسبير. كانت ثلاثتهن يقفن على الجانب

البعيد من الموطن الثاني بعيدًا عن المدخل، حيث كان الوجود البشري في أقل كثافة له. وفي غضون دقائق من وصولهن ظهرت غواصة. ثم فتح جانبها وخرج منه ريتشارد ويكفيلد بابتسامة كبيرة على وجهه الملتحي، واندفع تجاه زوجته الحبيبة. غمرت نيكول سعادةٌ بالغة عندما شعرت بذراعَيه تحيطانها.

٥

بدا كل شيء مألوفًا للغاية. ما عدا الفوضى التي أشاعها ريتشارد في الشهور التي قضاها وحده، وتحويل غرفة الأطفال إلى غرفة نوم لفرخي المخلوقات الطائرة، كان المخبأ أسفل نيويورك، كما كان بالضبط عندما رحل ريتشارد ونيكول ومايكل أوتول وأطفالهم قبل سنواتٍ من راما.

أوقف ريتشارد الغواصة في مرفأ طبيعيٍّ في الجانب الجنوبي من الجزيرة، في مكان أطلق عليه «الميناء».

سألته نيكول عندما كانا يسيران معًا باتجاه المخبأ: «من أين حصلت على الغواصة؟»

فأجابها: «إنها هدية. أو على الأقل هذا ما أظنُّه. فبعد أن أراني القائد الأعلى للمخلوقات الطائرة كيف أشغِّلها، اختفى وتركها هنا.»

كان السير في نيويورك تجربة غريبة على نيكول. ففي الظلام كانت ناطحات السحاب تذكرها بالسنوات التي عاشتها على تلك الجزيرة الغامضة وسط البحر الأسطواني.

سألت نيكول وهما يدلفان إلى مخبئهما: «تُرى كم سنة مرت منذ أن غادرنا نيويورك؟»

أجابها ريتشارد وهو يهز كتفَيه: «لا أستطيع أن أمنحكِ إجابةً دقيقة. فقد خضنا رحلتَين في الفضاء بسرعةٍ تقارب سرعة الضوء. ونحن لا نستطيع حساب الزمن بدقةٍ إلا إذا عرفنا السرعة التي سافرنا بها على وجه الدقة.»

وبينما كانت نيكول لا تزال تفكِّر في عجائب النسبية، قال ريتشارد: «إن التغييرات الوحيدة التي طرأت على مركبة راما الفضائية في كل زيارة للنود؛ هي تلك اللازمة للتجهيز للمهمة التالية. ومن ثَم فإن شيئًا لم يتغير هنا. لا يزال الحاجز الأسود موجودًا في الغرفة البيضاء. بالإضافة إلى لوحة مفاتيحنا القديمة. كما أن خطوات تقديم الطلبات لسكان راما — أو إلى مضيفينا أيًّا كان اسمهم — لا تزال كما هي.»

أثناء نزولهما المنحدر إلى المستوى الذي يعيشون فيه، سألته نيكول: «ماذا عن المخابئ الأخرى، هل زرتها أيضًا؟»

أجابها ريتشارد: «إن مخبأ المخلوقات الطائرة أصبح مقبرة؛ إذ ذهبت إليه عدة مرات. وفي إحدى المرات دخلت مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر العنكبية بحذر، لكنني لم أتوغَّل فيه لأبعد من الغرفة الكاتدرائية التي تحتوي على أربعة أنفاقٍ تقود إلى ...»

فقاطعته نيكول ضاحكة: «تلك التي أطلقنا عليها إيني وميني ومايني ومو ...»

استأنف ريتشارد حديثه: «أجل. إنها هي، لكنني لم أشعر بالراحة هناك على أي حال. راودني شعورٌ بأن المخبأ لا يزال مأهولًا، مع أنني لم أستطع العثور على شيء. وشعرت أن كائنات الأوكتوسبايدر أو أيًّا كان ما يعيش هناك يراقب كل خطوةٍ أخطوها.» وهذه المرة ضحك ريتشارد وهو يقول: «صدقي هذا أو لا تصدقيه. كنت قلقًا أيضًا أن يحدث شيء لتامي وتيمي لو لم أعُد لأي سبب.»

كان لقاء نيكول الأول مع تامي وتيمي — فرخَي المخلوقات الطائرة اللذَين رباهما ريتشارد منذ الصغر — رائعًا للغاية. كان ريتشارد قد وضع نصف بابٍ بغرفة الأطفال، وأحكم إغلاقه عندما غادر لمقابلة نيكول في الموطن الثاني. ونظرًا لأن المخلوقَين الشبيهَين بالطيور لم يكن بمقدورهما الطيران بعد، فقد ظلَّا آمنَين داخل غرفة الأطفال في غياب ريتشارد. لكن حالما سمعا صوته في المخبأ بدآ يصرخان ويزقزقان. ولم يتوقفا عن الصراخ بعدما فتح ريتشارد الباب واحتضنهما.

قال ريتشارد لنيكول بصوت أعلى من صوتهما: «إنهما يقولان إنه لم يجدر بي تركهما وحدهما.»

لم تستطع نيكول أن تمنع نفسها من الضحك. فقد مد الفرخان رقبتَيهما الطويلتَين نحو وجه ريتشارد، وتوقَّفا عن الصراخ والزقزقة قليلًا كي يمسحا الجانب السفلي من منقارَيهما برقَّة في وجنة ريتشارد ذات اللحية. كان الفرخان لا يزالان صغيرَين، يبلغ طولهما ما يقرب من سبعين سنتيمترًا عندما يقفان على أرجلهما، لكنَّ عنقَيهما كانا طويلَين للغاية لدرجة أنهما بدوا أطولَ بكثير.

راقبت نيكول زوجها بإعجاب وهو يعتني بالكائنَين الفضائيين اللذين أصبحا في وصايته. أزال فضلاتهما وتأكد أن لديهما طعامًا طازجًا وماءً نظيفًا، وتفقَّد مدى نعومة فراشَيهما المصنوعَين من مادةٍ تُشبه القش في ركن الغرفة. قالَت نيكول لنفسها وهي تتذكر معارضته قبل سنوات القيام بأيٍّ من واجبات الأبوة: «قطعت شوطًا كبيرًا جدًّا يا ريتشارد ويكفيلد.» تأثرت نيكول بشدةٍ بعاطفته الجلية تجاه الفرخَين الطويلَين النحيلَين. وسألَت نفسها: «هل من الممكن أن يكون بداخل كلٍّ منا هذا النوع من الحب غير الأناني؟ وهل

يجب علينا بطريقةٍ ما أن نتعامل مع جميع المشكلات الناشئة عن الوراثة والبيئة قبل أن نجده؟»

كان ريتشارد قد احتفظ ببطيخات المن الأربع وشريحة الكائنات اللاسويقية، في ركنٍ واحدٍ من الغرفة البيضاء. وقال لنيكول إنه لم يلاحظ أي تغيرات في البطيخ أو الكائن اللاسويقي منذ أن وصل إلى نيويورك. وبعد أن استمعت نيكول للشرح الذي قدمه لها ريتشارد عن دورة الحياة المعقدة للكائنات اللاسويقية، قالت: «ربما يستغرق البطيخ وقتًا طويلًا قبل أن تظهر عليه أي تغيرات، مثل البذور.»

فرد عليها ريتشارد قائلًا: «هذا ما خطر لي. بالطبع ليس لديَّ أدنى فكرةٍ عن الظروف التي ينبت فيها البطيخ ... وهذا النوع غريبٌ ومعقَّد للغاية، فلن أندهش إذا كانت تلك القطعة الصغيرة من الكائن اللاسويقي هي التي تتحكم في العملية.»

وفي أول ليلة يقضياها معًا، واجه ريتشارد صعوبةً في جعل الفرخَين يذهبان للنوم. وفسَّر ذلك لنيكول عندما عاد إلى الغرفة البيضاء لثالث مرة، بعد أن قاطع صراخ تامي وتيمي الغاضب عشاءه مع نيكول: «إنهما خائفان أن أتركهما مرة أخرى.» وفي النهاية برمج ريتشارد جان وإليانور لتسلية الطائرَين. كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لإبقاء الصغيرَين هادئَين ليستطيع قضاء بعض الوقت على انفرادٍ مع نيكول.

كانت العلاقة الحميمة التي أقامها ريتشارد ونيكول رقيقة. بالرغم من أن ريتشارد باح لنيكول وهو يتخفَّف من ملابسه أنه غير واثقٍ من كفاءته ... لكن نيكول طمأنته وأخبرته أن الأمر غير ذي أهمية على الإطلاق. وأكدت له أن الوجود بالقرب منه سيسعدها، وأن أي شيءٍ آخر سيكون إضافةً رائعة. بالطبع شعرا بالتناغم تمامًا كما شعرا في أول ليلة لهما معًا. وبعد أن انتهيا من العلاقة الهادئة احتضن كلٌّ منهما يد الآخر. لم يتكلَّم أيٌّ منهما. تجمعت دمعات في مقلتَي نيكول، وسالت ببطءٍ على وجهها حتى استقرَّت في أذنَيها. ابتسمت في الظلام. كانت في تلك اللحظة غارقة في السعادة.

لأول مرة على الإطلاق لم يكن إيقاع حياتهما سريعًا. فكانا يتحدثان كل ليلة بهدوء، وفي بعض الأحيان تحدَّثا أثناء العلاقة. حدَّث ريتشارد نيكول عن طفولته ومراهقته أكثر من أي وقتٍ مضى. وتضمَّن حديثه أكثر ذكرياته إيلامًا عن سوء معاملة والده له، والتفاصيل المؤلمة لزواجه الكارثي الأول من سارة تايدينجز.

قال ريتشارد ذات ليلة في وقت متأخر: «أدرك الآن أن سارة وأبي بينهما شيء أساسي مشترك. كان كلاهما عاجزًا عن منحي التشجيع الذي كنت أسعى إليه بكل كياني، وبطريقةٍ

ما عرف كلاهما أنني سأستمر في السعي للحصول على ذلك التشجيع، حتى إن كان ذلك يعني هجر كل شيء آخر في حياتي.»

ولأول مرة، باحت نيكول لريتشارد بدقائق علاقتها التي استمرت لثمانية وأربعين ساعةً مع أمير ويلز، بعد أن فازت بالميدالية الذهبية الأوليمبية. حتى إنها اعترفت له بأنها تاقَت للزواج من هنري، وأصيبَت بإحباطٍ شديدٍ بعد أن عرفت أنه استبعدها من قائمة المرشحات لتكون ملكة إنجلترا؛ بسبب لون بشرتها في المقام الأول. خلبت القصة التي روتها نيكول لب ريتشارد. لكن لم يبدُ عليه ولو للحظةٍ أنه يشعر بالغيرة أو التهديد.

فكرت نيكول بعد عدة ليالٍ، بينما كان زوجها ينهي مهمته الليلية، بوضع الفرخَين في فراشهما وقالت لنفسها: «أصبح أكثر نضجًا.» وعندما عاد إلى غرفة نومهما في المخبأ، قالت له: «حبيبي، هناك شيء أودُّ أن أخبرك به. كنت أنتظر الوقت المناسب ...»

قطَّب ريتشارد جبينه. وقال مفتعلًا الجدية: «يبدو أنه أمر خطير ... أتمنى ألَّا يستغرق وقتًا طويلًا؛ لأنني أعددت بعض الخطط لنا هذا المساء.»

واجتاز الغرفة وبدأ يقبِّلها ... لكنها قالت وهي تبعده برفق: «ليس الآن من فضلك يا ريتشارد. فهذا الأمر يهمني جدًّا.»

تراجع ريتشارد بضع خطوات. فقالت نيكول ببطء: «عندما ظننت أنني سأُعدَم لا محالة، أدركت أن جميع شئوني الخاصة على ما يرام، ما عدا أمرَين. ما زالت هناك أشياء أودُّ أن أخبرك أنت وكيتي بها. حتى إنني طلبت من ضابط الشرطة الذي كان يشرح لي إجراءات الإعدام، أن يعطيني قلمًا وورقة كي أكتب خطابَين أخيرَين.»

سكتَت نيكول للحظةٍ كما لو أنها تبحث عن الكلمات المناسبة. ثم أكملت: «في تلك الأيام الرهيبة، لم أستطع أن أتذكر يا ريتشارد إذا كنت قد أخبرتك قطُّ بوضوحٍ عن مدى سعادتي أننا زوج وزوجة ... لم أشأ أن أموت دون أن ...»

ثم سكتَت مرة أخرى، وجالت بعينَيها في الغرفة، ثم عادت لتنظر في عينَي ريتشارد مباشرة. وقالت: «كان هناك أمر آخر أردت أن أفعله بمساعدة الخطاب الثاني. اعتقدت في ذلك الوقت أنه من الضروري أن أجعل حياتي تنتهي على أكمل وجه، حتى أرحل عن هذا العالم دون أن أترك خلفي أمورًا معلقة ... ريتشارد، أردت أن أعتذر لك عن عدم اكتراثي عندما كنا أنا وأنت ومايكل معًا ... اقترفت خطأً حينها عندما سارعت بإقامة علاقة مع مايكل بعدما خشيت ...»

أخذت نيكول نفسًا عميقًا. واستأنفت: «كان لا بد أن أتحلَّى بإيمانٍ أقوى. وهذا لا يعني أنني أتمنى لو أنني لم أنجب باتريك وبينجي، لكنني أدرك الآن أنني استسلمت بسرعةٍ كبيرة لوحدتي. ليتني ...»

وضع ريتشارد إصبعه على شفتَيها. وقال برفق: «لا داعيَ إلى الاعتذار يا نيكول. أعرف أنكِ أحببتِني حقًّا.»

سارَت حياة نيكول وريتشارد بوتيرةٍ هادئةٍ وببساطة. في الصباح كانا يتجوَّلان سيرًا على الأقدام حول نيويورك وكلٌّ منهما ممسكٌ بذراع الآخر، ويستكشفان من جديدٍ كلَّ ركن في الجزيرة التي كانوا يطلقون عليها منزلهم. ونظرًا لأن المكان كان مظلمًا دائمًا بدت المدينة مختلفة. فكانت أشعَّة مصابيحهما الكهربية فقط هي ما تلقي الضوء على ناطحات السحاب، التي كانت تفاصيلها محفورةً في ذاكرتَيهما.

وكثيرًا ما كانا يتجولان بطول أسوار المدينة، يتطلَّعان إلى مياه البحر الأسطواني. في صباح أحد الأيام قضيا عدة ساعات يقفان في مكان واحد، في المكان نفسه الذي سلما فيه حياتَيهما إلى المخلوقات الطائرة الثلاثة قبل سنوات طويلة. وتذكرا خوفهما وسعادتهما في اللحظة التي رفعتهما فيها المخلوقات الطائرة الضخمة من فوق الأرض لتعبر بهما البحر.

كل يوم بعد الغداء كانت نيكول — التي دائمًا ما كانت تحتاج لساعات نوم أكثر من زوجها — تغفو قليلًا. وكان ريتشارد يستخدم لوحة المفاتيح كي يطلب المزيد من الطعام أو المؤن من سكان راما، أو يصطحب الفرخَين إلى أعلى لممارسة بعض التمرينات، أو يعمل في أحد مشروعاته العديدة المتناثرة في المخبأ. وفي المساء بعد أن يتناولا العشاء برويةٍ يستلقيان أحدهما بجوار الآخر، ويتسامران لساعات قبل أن يقيما علاقة حميمة أو يخلدا للنوم. كانا يتحدثان عن كل شيء: الرجل النسر وسكان راما، ووجود الله، والحياة السياسية في عدن الجديدة، ومختلف أنواع الكتب، وأطفالهما أكثر من أي شيء آخر.

ومع أنهما كانا يتحدثان بحماسةٍ عن إيلي وباتريك وبينجي وسيمون أيضًا الذي لم يرياه منذ سنوات، فقد كان من الصعب على ريتشارد أن يتحدث عن كيتي. كان يؤنب نفسه دائمًا لأنه لم يكن أكثر صرامةً مع ابنته المفضلة في طفولتها، وأرجع تصرفاتها غير المسئولة وهي بالغةٌ إلى تسامحه معها. حاولت نيكول أن تواسيَه وتعيدَ الطمأنينة إلى نفسه، وذكَّرته أن ظروفهما على متن راما كانت غيرَ تقليدية، وأنه مع كل شيءٍ لم تكن لديه معرفةٌ بما يجب عليه فعله بوصفه الأب.

في ظهيرة أحد الأيام بعدما استيقظَت نيكول من غفوتها، تمكنت من سماع ريتشارد يتمتم لنفسه في الردهة. فدفعها الفضول لأن تنهض بهدوء وتتجه إلى الغرفة، التي كانت في يومٍ من الأيام غرفة نوم مايكل أوتول. وقفَت نيكول على الباب، وشاهدَت ريتشارد يضع اللمسات الأخيرة على نموذجٍ كبيرٍ يشغل الجزء الأكبر من الغرفة.

فاستدار ريتشارد لنيكول ليعلمها أنه سمع صوت خطواتها، وقال: «ها هو ذا.» ثم ابتسم ابتسامةً عريضة وتحرَّك باتجاه النموذج قائلًا: «صحيح أنه لن يفوز بأي جوائز فنية، لكنه نموذج مقبول للجزء الخاص بنا من العالم، وبالطبع أمدَّني بالكثير من الأفكار.»

غطَّت قاعدة مسطحة مستطيلة الشكل الجزء الأكبر من الأرضية. ووُضعت أعواد عمودية ذات أطوالٍ مختلفة في عشرين موقعًا حول القاعدة. وفي أعلى كل عودٍ كرة واحدة ملونة على الأقل تمثل نجمًا.

كان العود العمودي في منتصف النموذج — المثبت أعلاه كرة صفراء — يرتفع مسافة نحو متر ونصف المتر عن القاعدة. قال ريتشارد لنيكول: «هذه، ولا شك، شمسنا … وها نحن ذا — أو ها هي راما — في هذا الربع من الدائرة، نحو رُبع المسافة تقريبًا بين الشمس وأقرب نجم شبيه؛ نجم تاو سيتي … أما نجم الشعرى اليمانية حيث كنا عندما مكثنا لبعض الوقت في نود، فهو هنا في الخلف …»

سارَت نيكول حول النموذج، ونظرت إلى الأجرام المجاورة للشمس. تابع ريتشارد شرحه: «هناك عشرون نظامًا شمسيًّا في نطاق اثنتَي عشرة سنةً ضوئية ونصف السنة من وطننا، وهذا يشمل ستة أنظمة ثنائية ومجموعة ثلاثية واحدة، وهذه هي أقرب جيراننا؛ القنطورس. لاحظي أن نجوم القنطورس هي النجوم الوحيدة داخل نطاقٍ مداه خمس سنواتٍ ضوئية.»

أشار ريتشارد إلى الكرات الثلاث المنفصلة التي تمثِّل نجوم القنطورس. كان لكلٍّ منها حجمٌ ولون مختلفان. ارتبطت ثلاث الكُرات بعضها ببعض بأسلاكٍ دقيقةٍ مثبتة على نفس العود العمودي، داخل كرةٍ سلكيةٍ مفتوحةٍ متمركزةٍ في الشمس كُتب عليها الرقم «٥» بخطٍّ كبير.

استأنف ريتشارد حديثه قائلًا: «أثناء الأيام العديدة التي قضيتها وحيدًا هنا، تساءلت كثيرًا لماذا تسير راما في هذا الاتجاه بالتحديد. هل لنا وجهة محددة؟ فالأمر بالفعل يبدو كذلك؛ لأننا لم نغير مسارنا منذ لحظة انطلاقنا. وإذا كنا في طريقنا إلى تاو سيتي فماذا سنجد هناك؟ مجمع آخر مثل نود؟ أو ربما يكون نود «نفسه» قد تحرك إلى هناك في الوقت بين الزيارتَين؟»

ثم سكت ريتشارد. كانت نيكول قد ذهبت إلى حافة النموذج، وكانت تمدُّ ذراعَيها إلى الأعلى إلى نجمَين حمراوَين في نهاية عودٍ طوله ثلاثة أمتار. وقالت: «أعتقد أنك باينت بين أطوال هذه الأعواد لتظهر العلاقة الكاملة الثلاثية الأبعاد بين هذه النجوم.»

أجابها ريتشارد بصوته البشري الذي يشبه صوت الآليين: «هذا صحيح ... إن هذه المجموعة الثنائية التي تلمسينها الآن يُطلق عليها اسم ستروف ٢٣٩٨. وهي تتمتَّع بميل زاوٍ عالٍ للغاية، وتبعد عن الشمس أكثر من عشر سنواتٍ ضوئية.»

عندما رأى ريتشارد التجهُّم على وجه نيكول، ضحك في نفسه واجتاز الغرفة كي يُمسك بيدها. ثم قال: «تعالَي معي، وسأريكِ شيئًا ممتعًا جدًّا.»

ذهبا إلى الجانب الآخر من النموذج، وواجها الشمس في منتصف الطريق بين نجمَي الشعرى اليمانية وتاو سيتي. وقال ريتشارد بسعادة: «ألن يكون من الرائع أن يثبت أن النود يتحرَّك بالفعل، وأننا سنراه مجددًا هنا على الجانب المقابل من نظامنا الشمسي؟»

ضحكت نيكول وقالت: «بالطبع. لكننا لا نملك أي دليلٍ على الإطلاق ...»

قاطعها ريتشارد قائلًا: «لكنَّ لدينا عقلًا وخيالًا. والرجل النسر أخبرنا أن النود بالكامل قادرٌ على التحرك. يبدو لي ...» لكن ريتشارد توقَّف قبل أن ينهيَ جملته، ثم غيَّر الموضوع. قال: «ألم تسألي نفسكِ قطُّ أين ذهبت سفينة راما بعد أن غادرنا النود طوال تلك السنوات التي قضيناها نائمين؟ افترضي على سبيل المثال أن المخلوقات الطائرة واللاسويقية ركبت من مكانٍ ما ربما هنا قرب نجوم بروسيون الثنائية، أو هنا قرب إبسيلون إيريداني الذي كان في مسارنا بسهولة. نحن نعرف أن هناك كواكب حول إيريداني. ومن الممكن أن تكون راما قد عادَت مرة أخرى إلى الشمس بسهولةٍ بسرعةٍ كبيرةٍ تمثل جزءًا من سرعة الضوء ...»

فقالت نيكول: «تمهل قليلًا يا ريتشارد. أنت تسبقني بمراحل. لمَ لا نبدأ من البداية؟» وجلسَت في وَضْع القرفصاء على القاعدة داخل النموذج، بجوار كرة حمراء ترفعها عن الأرض عصًا صغيرة بضعة سنتيمترات. وقالت: «إذا كنت أفهم فرضيتك فإن رحلتنا الحالية ستنتهي عند نجم تاو سيتي.»

أومأ ريتشارد برأسه. وقال: «إن المسار مثاليٌّ بصورةٍ تمنع احتمال أن يكون ذلك مصادفة. سنصل إلى تاو سيتي بعد خمسة عشر عامًا تقريبًا، وأعتقد أن تجربتنا ستصل إلى نهايتها.»

امتعضَت نيكول وهي تقول: «إنني عجوز بالفعل. وإن كنت لا أزال على قيد الحياة حينها فسأكون مليئةً بالتجاعيد كالبرقوق المجفف ... بدافع الفضول أود أن أسألك ماذا سيحدث عندما «تصل تجربتنا إلى نهايتها» كما تقول؟»

«نحتاج في هذا الصدد أن نطلق لخيالنا العنان ... أعتقد أنهم لن يجعلونا نغادر راما، لكن ما سيحدث لنا بعد ذلك أمر غير معلوم تمامًا ... أظن أن مصيرنا سيعتمد بطريقة ما على ما لاحظوه طوال هذا الوقت ...»

«إذن فأنت تتفق معي تمامًا أن الرجل النسر ورفاقه في النود كانوا يراقبوننا؟»

«بالطبع. استثمروا استثمارًا ضخمًا في هذا المشروع ... وأنا واثق أنهم يراقبون كل شيءٍ يحدث هنا على متن راما ... ويجب أن أعترف أنني مندهش أنهم تركونا وشأننا تمامًا، ولم يتدخلوا في شئوننا قط، لكن من المؤكد أن هذا هو أسلوبهم.»

لزمت نيكول الصمت لبضع ثوانٍ. ولعبت وهي شاردة الذهن بالكرة الحمراء إلى جوارها، التي أخبرها ريتشارد أنها تمثل النجم إبسيلون إندي. ثم قالت بحزن: «إن القاضي بداخلي يخشى ما يمكن أن يقرِّره أي مخلوقٍ فضائي عاقل بشأن مصيرنا، بناءً على سلوكنا في عدن الجديدة.»

هزَّ ريتشارد كتفَيه وقال: «لم نتصرَّف في راما بصورةٍ أسوأ مما كنا عليه على الأرض لقرونٍ طويلة ... إلى جانب أنني لا أستسيغ فكرة أن مخلوقاتٍ فضائيةً متقدمة ستصدر مثل هذه الأحكام غير الموضوعية. إذا كانت عملية مراقبة الكائنات التي تعيش في الفضاء مستمرة منذ عشرات آلاف السنين، كما قال الرجل النسر، فمن المؤكَّد أن سكان راما وضعوا مقاييس لتقييم مختلف جوانب الحضارات التي يصادفونها ... وأنهم على الأرجح مهتمُّون بصورةٍ أكبر بطبيعتنا، وما تعنيه على نطاق أوسع من تحديد ما إذا كنا صالحين أم طالحين.»

قالت نيكول بحزن: «أعتقد أنك محق. لكن من المحبط أن نتصرف — أعني جنسنا — ببربرية، مع علمنا التام أننا نخضع للمراقبة.» وصمتَت قليلًا وفكرت مليًّا، ثم قالت: «إذن أترى أن علاقتنا الطويلة مع سكان راما التي بدأت بظهور مركبة الفضاء الأولى قبل مائة عام؛ شارفت على الانتهاء؟»

أجابها ريتشارد: «هذا ما أظنه. في مرحلة ما في المستقبل، على الأرجح عندما نصل إلى تاو سيتي سينتهي دورنا في هذه التجربة. وتخميني أنه بعد إدخال كل البيانات الخاصة بالكائنات الموجودة حاليًّا داخل راما، في «قاعدة البيانات الضخمة الخاصة بالمجرات» سيتم

إفراغ راما تمامًا. ومن يدري ربما تظهر هذه المركبة الفضائية الأسطوانية الضخمة بعدها في نظام كوكبي آخر؛ حيث تعيش كائنات فضائية أخرى، وتبدأ دورة جديدة.»

«وهذا يُعيدنا إلى سؤالي السابق الذي لم تُجِب عليه في الواقع ... ماذا سيحدث لنا حينها؟»

«ربما سنُرسل نحن أو ذريتنا في رحلة بطيئة إلى الأرض ... أو ربما سيعتبروننا كائناتٍ يمكن الاستغناء عنها بعد جمع كل البيانات.»

«لا أجد أيًّا من الإجابتَين جذابة. ويجب أن أقول إنه مع أنني أوافقك الرأي أننا نتجه نحو تاو سيتي، فإنني أشعر أن باقي فرضيتك تخمين ليس إلا.»

ابتسم ريتشارد وقال: «تعلمت الكثير منكِ يا نيكول ... كل جزءٍ آخر من فرضيتي يعتمد على الحدس. وحدسي يخبرني بأنها صحيحةٌ بناءً على كل ما عرفته عن سكان راما.»

«لكن ألَا يبدو لك أنه من المنطقي أكثر أن نتخيَّل أن سكان راما لديهم محطات متناثرة في جميع أنحاء المجرة، وأن أقرب محطتَين لنا هما نجما الشعرى اليماني وتاو سيتي؟»

أجابها ريتشارد: «هذا صحيح، لكن حدسي يُنبئني أن هذا غير وارد. كان النود بناءً هندسيًّا مهيبًا. فإذا كانت هناك أماكن مشابهة كل عشرين سنةً ضوئيةً تقريبًا في المجرة، فمن المؤكد أن هناك المليارات منها ... وتذكري أن الرجل النسر قال بثقةٍ إن النود بإمكانه التحرُّك.»

أقرت نيكول في قرارة نفسها أنَّ من غير المحتمل بناءَ مليارات النسخ من بناء مذهل مثل النود في نطاق عملية كونية ضخمة. كانت فرضية ريتشارد تبدو منطقية. وفكرت نيكول في نفسها: «كم من المؤسف أن تكون البيانات الخاصة بنا في قاعدة بيانات المجرة تحتوي على هذا القدر من المعلومات السلبية.»

ثم سألَت نيكول بعد مرور دقيقة: «إذن ما دور المخلوقات الطائرة واللاسويقية وأصدقائنا القدامى كائنات الأوكتوسبايدر في السيناريو الذي وضعته؟ هل هم أيضًا جزء من التجربة نفسها، مثلنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل تعتقد أيضًا أن هناك مستوطنةً من الأوكتوسبايدر على متن راما، وأننا لم نقابل سكانها بعد؟»

مرة أخرى أومأ ريتشارد برأسه. وقال: «لا مفرَّ من التوصُّل إلى هذا الاستنتاج. إذا كانت المرحلة النهائية من كل تجربةٍ هي مراقبة عينة من المخلوقات الفضائية في ظروفٍ متحكم فيها، فمن المنطقي أن تكون كائنات الأوكتوسبايدر هنا أيضًا ...» وضحك بعصبية.

ثم استأنف حديثه قائلًا: «بل من المحتمل أن يكون أيضًا بعض أصدقائنا من مركبة راما الثانية هنا معنا، على متن راما في هذه اللحظة.»

قالت نيكول وهي تبتسم: «يا لها من مجموعة أفكار جميلة تشغل ذهن المرء قبل الخلود إلى النوم! إذا كان ما تقوله صحيحًا فأمامنا خمس عشرة سنة أخرى نقضيها على متن مركبة فضائية مأهولة، ليس فقط ببشر يريدون القبض علينا وقتلنا، لكن أيضًا بكائنات عنكبية ضخمة في الأغلب عاقلة لا ندرك طبيعتها.»

فقال ريتشارد وابتسامة عريضة تعلو وجهه: «تذكري أنني ربما أكون مخطئًا.»

نهضت نيكول وسارت نحو الباب.

فسألها ريتشارد: «إلى أين أنت ذاهبة؟»

فقالت وهي تضحك: «إلى فراشي. بدأت أشعر بصداع. يمكنني التفكير في اللانهاية لوقت محدود فقط.»

٦

في الصباح التالي عندما فتحت نيكول عينَيها، كان ريتشارد يقف إلى جوارها يحمل حقيبتَي ظهر ممتلئتَين. وقال لها بسعادة: «سنخرج للاستكشاف والبحث عن كائنات الأوكتوسبايدر خلف الحاجز الأسود ... تركت طعامًا وماءً يكفيان تامي وتيمي ليومَين، وبرمجت جان وإليانور أن تجدانا إذا طرأ شيء.»

راقبت نيكول زوجها بتركيز أثناء تناولها إفطارها. كانت عيناه مليئتَين بالحيوية والطاقة. وقالت لنفسها بسعادة: «هذا هو ريتشارد الذي أعرفه. لطالما كانت المغامرات هي الشيء الأهم في حياته.»

قال ريتشارد عندما حنيا رأسَيهما للمرور أسفل الحاجز: «حضرت إلى هنا مرتَين. لكنني لم أصل قطُّ إلى نهاية الممر الأول.»

أُغلق الحاجز خلفهما تاركًا ريتشارد ونيكول غارقَين في الظلام. فسألت نيكول وهما يتفقدان مصباحَيهما الكهربيَّين: «لا توجد مشكلة إذا علقنا في هذا الجانب، أليس كذلك؟»

أجابها ريتشارد: «على الإطلاق؛ فالحاجز لن يرتفع أو ينخفض أكثر من مرة واحدة كل دقيقة تقريبًا. لكن إذا كان هناك أيُّ شخص أو أيُّ شيء في هذه المنطقة العامة على مدار دقيقة من الآن، فسيرتفع الحاجز تلقائيًّا مرة أخرى.»

ثم استأنف بعد بضع ثوانٍ: «والآن يجب أن أحذركِ قبل أن نبدأ السير، إنه ممر طويل للغاية. سرت فيه من قبل مسافة كيلومتر تقريبًا ولم أصل إلى شيء على الإطلاق. ولم أجد طريقًا جانبيًّا. ولا يوجد به ضوء نهائيًّا. لذا فالجزء الأول من الرحلة سيكون مملًّا للغاية، لكن لا بد أن يؤدِّي إلى شيءٍ في نهاية المطاف؛ لأن الكائنات الآلية التي تُحضر لنا المؤن تسلك، ولا ريب، هذا الطريق.»

أمسكت نيكول بيدَيه. وقالت بهدوء: «تذكَّر يا ريتشارد أننا لم نعُد شبابًا كما كنا.»

سلط ريتشارد ضوء مصباحه أولًا على شعر نيكول الذي تحوَّل بأكمله إلى اللون الرمادي، ثم على لحيته الرمادية. وقال بسعادة: «لسنا إلا شخصَين هرمَين مزعجَين، أليس كذلك؟»

أجابته نيكول وهي تضغط على يدَيه: «تحدَّث عن نفسك.»

كان الممر أطول بكثير من كيلومتر، فظل ريتشارد ونيكول يتحدثان وهما يشقان طريقهما عن التجارب المذهلة التي مر بها ريتشارد في الموطن الثاني. فقال ريتشارد: «ارتعدت فرائصي حقًّا عندما فُتح باب المصعد، ورأيت كائنات القطنمل للمرة الأولى.»

كان ريتشارد قد انتهى من إخبار نيكول عن المدة التي مكث فيها مع المخلوقات الطائرة، ووصل إلى النقطة التي هبط فيها إلى أسفل الأسطوانة. كان يحكي لها قائلًا: «كدت أتجمد من الخوف بكل ما تحمله الكلمة من معنًى. كانا على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار مني. وكلاهما يحدق فيَّ. وكان السائل الهلامي في عيونهما السفلى الضخمة بيضاويةِ الشكل يتحرَّك من جانبٍ لآخر، بينما انثنَت أزواج العيون الموجودة بالأعلى على سيقانهما هنا وهناك؛ كي تراني من زاوية أخرى.» انتفض جسد ريتشارد وهو يقول: «لن أنسى تلك اللحظة أبدًا.»

بعد بضع دقائق، قالت نيكول وهما يقتربان ممَّا بدا أنه تفرَّع من الممر تحت الأرض: «الآن دعني أتأكد أنني أفهم الأمر جيدًا من الناحية البيولوجية. تنمو كائنات القطنمل في بطيخ المَن وتعيش حياةً قصيرةً نوعًا ما، لكنها مفعمة بالنشاط، ثم تموت داخل أحد الكائنات اللاسويقية؛ حيث — طبقًا لنظريتك — تُضاف بطريقةٍ ما جميع تجارب حياتها إلى قاعدة المعرفة العصبية للشبكة. وتكتمل دورة الحياة عندما ينمو بطيخ المَن الجديد داخل الكائنات اللاسويقية. ثم تجمع مجموعات القطنمل النشطة أفراخ هذه الكائنات في الوقت المناسب.»

أومأ ريتشارد برأسه. وقال: «قد لا يكون هذا ما يحدث بالضبط، لكنه قريب مما يحدث بالفعل.»

«إذن فنحن لا ينقصنا إلا معرفة مجموعة الظروف اللازمة؛ كي يبدأ بطيخ المن عملية النمو؟»

أجابها ريتشارد: «كنت آمل أن تساعديني في حل هذا اللغز. ففي النهاية أنت الوحيدة يا دكتورة، التي تلقيتِ تعليمًا رسميًّا في مجال علم الأحياء.»

تفرع الممر إلى ممرَّين، كل منهما يكوِّن مع الممر الطويل المستقيم البادئ من مخبئهما؛ زاوية قياسها خمس وأربعون درجة. فسأل ريتشارد مبتسمًا وهو يُوجِّه مصباحه الكهربي في الاتجاهَين: «أي طريقٍ نسلك يا رائدة الفضاء نيكول دي جاردان؟» لم يكن في أيهما سمة تميزه عن الآخر.

قالت نيكول بعد بضع ثوانٍ، فور أن رسم ريتشارد خريطة موجزة على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به: «دعنا نسلك الممر الأيسر أولًا.» وبعد أن سارا في الممر الأيسر بضع مئات الأمتار بدأ يتغير. إذ اتسع الممر ليصبح منحدرًا هابطًا إلى الأسفل يلتف حول عمودٍ سميكٍ للغاية، وينزل على الأقل مائة متر متوغلًا في هيكل راما. وفي طريقهما للأسفل تمكَّن ريتشارد ونيكول من رؤية ضوءٍ تحتهما. وفي الأسفل وجدا قناةً طويلةً واسعةً لها ضفتان فسيحتان منبسطتان. وإلى يسارهما رأيا سلطعونَين آليين يهربان مبتعدَين على الجانب الآخر من القناة، ورأيا جسرًا بعيدًا خلف الكائنَين الآليين. وإلى يمينهما كان هناك مركب يبحر في القناة محملًا تمامًا بأغراضٍ متنوعةٍ غير معروفة رمادية وسوداء وبيضاء، متجهًا إلى وجهةٍ ما في عالم ما تحت السطح.

استطلع ريتشارد ونيكول المشهد حولهما ثم نظر أحدهما إلى الآخر. وقال ريتشارد وهو يضحك ضحكة قصيرة: «عدنا إلى بلاد العجائب يا أليس. لمَ لا نتناول وجبةً خفيفةً بينما أُدخل بيانات هذه المنطقة في جهازي الذي أثق به؟»

أثناء تناولهما الطعام، اقتربت حشرة آلية متعددة الأرجل تقف على نفس الجانب الذي يقفان عليه من القناة، ووقفَت قليلًا كما لو أنها تدرسهما ثم مرَّت بهما. وصعدت المنحدر الذي هبطه ريتشارد ونيكول لتوهما. فسألت نيكول ريتشارد: «هل رأيت أي سلطعونات أو كائنات آلية متعددة الأرجل في الموطن الثاني؟»

فأجابها ريتشارد: «كلا.»

فقالت: «ألم نتعمَّد عدم وضعها في خططنا الخاصة بعدن الجديدة؟»

ضحك ريتشارد. وقال: «هذا ما فعلناه حقًّا. إذ أقنعتني أنا والرجل النسر أن البشر العاديين لن يتمكنوا من التعامل معها بسهولة.»

فسألته نيكول: «إذن هل يشير وجودها هنا إلى وجود موطن ثالث؟»

فأجاب: «هذا احتمال وارد. فبالرغم من كل شيءٍ ليست لدينا أدنى فكرةٍ عما يوجد الآن في نصف الأسطوانة الجنوبي. ولم نرَه منذ أن جرى تطوير راما. لكنَّ هناك تفسيرًا آخر أيضًا. دعينا نفترض أن السلطعونات ومتعددات الأرجل وكائنات راما الآلية الأخرى تعيش في المركبة كلها، إذا كنت تفهمين ما أعني. فربما تعمل في جميع أجزاء راما وعلى جميع رحلاتها، ما لم يرفض أحد الكائنات الفضائية وجودها تحديدًا.»

بعدما انتهى ريتشارد ونيكول من تناول الغداء، ظهر مركب بضائع آخر إلى يسارهما. وكان محملًا كسابقه بأكوامٍ من الأشياء البيضاء والسوداء والرمادية. فقالت نيكول: «هذه الأشياء تختلف عن السابقة. فهذه الأكوام تذكرني بقطع غيار الكائنات الآلية المتعددة الأرجل، التي كانت مخزنة في الحفرة التي سقطت فيها.»

فقال ريتشارد وهو يقف على قدمَيه: «قد تكونين محقَّة. دعينا نَسِر بمحاذاة القناة ونرَ إلى أين تقودنا.» ثم ألقى نظرةً حوله، في البداية على السقف المقوس على ارتفاع عشرة أمتارٍ فوق رأسَيهما، ثم على المنحدر خلفهما. وقال: «إذا لم أكن قد أخطأت في حساباتي أو كان البحر الأسطواني أعمق مما أظن، فإن هذه القناة تجري من الجنوب إلى الشمال تحت البحر نفسه.»

فسألته نيكول: «إذن فتتبُّع المركب سيعيدنا أسفل نصف الأسطوانة الشمالي؟»

أجابها ريتشارد: «أعتقد هذا.»

سار ريتشارد ونيكول بمحاذاة القناة لأكثر من ساعتَين. وطوال رحلتهما لم يريا شيئًا جديدًا ما عدا ثلاث عناكب آلية تتحرك كفريق مسرعة على الضفة الأخرى من القناة. ومر بهما مركبان آخران يحملان نفس الأشياء غير المحددة، وقابلا على أوقاتٍ متقطعةٍ سلطعونات ومتعددات أرجل آلية، لكن دون أن يحدث أيُّ احتكاك. ورأيا في طريقهما جسرًا واحدًا آخر فوق القناة.

ارتاح ريتشارد ونيكول مرتين، شربا خلالهما الماء أو تناولا وجبةً خفيفة وهما يتجاذبان أطراف الحديث. وفي الاستراحة التالية اقترحت نيكول أن يعودا أدراجهما. نظر ريتشارد إلى ساعته وقال: «دعينا نستمر لساعةٍ واحدة أخرى. وإذا كان إحساسي بالمكان صحيحًا، يجب أن نكون أسفل نصف الأسطوانة الشمالي الآن. وسنجد آجلًا أو عاجلًا إلى أين تأخذ المراكب كل هذه الأشياء.»

كان ريتشارد محقًّا. فبعد أن سارا كيلومترًا آخر على ضفة القناة، رأى ريتشارد ونيكول بناءً خماسيًّا كبيرًا على بعد. وعندما اقتربا منه قليلًا رأيا أن القناة تتدفق مباشرة إلى وسط المبنى الخماسي. كان البناء نفسه — الذي تمر القناة عبره — يبلغ ارتفاعه ستة أمتار. وكان له سطحٌ مستوٍ ولا توجد به نوافذ، ولونه من الخارج أبيض. ويمتد كل جزءٍ من أجزائه أو أجنحته الخمسة مسافة عشرين أو ثلاثين مترًا من منتصف البناء.

انتهى الممر المحاذي للقناة بسلمٍ يؤدي صعودًا إلى ممرٍّ ضيقٍ يُحيط بالبناء كلِّه. كان هناك شكلٌ مشابهٌ في الجانب الآخر من القناة، وحينها كانت إحدى الكائنات المتعددة الأرجل تستخدم الممرَّ الضيق المحيط بالبناء كجسرٍ للانتقال من أحد جانبَي القناة إلى الآخر.

سألت نيكول ريتشارد وهما يفسحان المجال للكائن الآلي كي يمر: «إلى أين تظنه ذاهبًا؟»

أجابها ريتشارد: «ربما إلى نيويورك. إذ كنت في بعض الأحيان أرى أحدها في نزهاتي الطويلة سيرًا على الأقدام، قبل أن يُفقَس الفرخَان.»

وقفا معًا خارج الباب الوحيد للبناء الخماسي، الذي كان بجوار البناء على الجانب المواجه للقناة. وقالت نيكول: «أظن أننا سندخل، أليس كذلك؟»

أومأ ريتشارد برأسه ودفع الباب الصغير ليفتحه. وانحنت نيكول ودخلت المبنى. وجد ريتشارد ونيكول نفسَيهما في حجرةٍ ضخمةٍ جيدة الإضاءة، ربما يبلغ إجمالي مساحتها ألف متر مكعب، ويرتفع سقفها عن الأرض خمسة أمتار. كان الممر الذي يسيران فيه يرتفع فوق الأرض بمترَين أو ثلاثة؛ لذا تمكَّن ريتشارد ونيكول من رؤية معظم الأنشطة التي تحدث تحتهما. فكان هناك عمالٌ آليون لم يرياهما من قبل — كلٌّ منهم مصمم للقيام بمهمة محددة — يفرغون المركبَين في الغرفة، ويفصلون الحمولة وفقًا لخطة محددة مسبقًا. كان العديد من الأجزاء يوضع على شاحناتٍ آليةٍ اختفَت بعد أن عبرت أحد الأبواب الخلفية فور تحميلها.

بعد بضع دقائق من المراقبة، استأنف ريتشارد ونيكول سيرَهما في الممر إلى حيث تقاطع مع ممر آخر فوق منتصف الغرفة مباشرة. وقف ريتشارد وأدخل بعض الملاحظات على جهاز الكمبيوتر. ثم قال لنيكول: «أعتقد أن هذا التصميم بسيط كما يبدو. يمكننا إما أن نتجه يمينًا أو يسارًا، وكل طريق سيقودنا إلى جناح مختلف من أجنحة هذا البناء الخماسي.»

اختارت نيكول الممر الأيمن؛ لأن الشاحنات الآلية، التي اعتقدت أنها تحمل أجزاء الكائنات المتعددة الأرجل، ذهبت في ذلك الاتجاه. وكانت ملاحظتها دقيقة بالفعل. فبعد ولوج ريتشارد ونيكول الغرفة الثانية التي كانت تماثل في حجمها الغرفة الأولى بالضبط، أدركا أنه يجري تصنيع سلطعون آلي ومتعددة أرجل آلية على الأرضية في الأسفل. فتوقفا ليراقبا العملية لعدة دقائق.

ثم قال ريتشارد وهو ينهي الرسم البياني لمصنع الكائنات الآلية الذي يدخله على الكمبيوتر: «مذهل حقًّا. هل أنت مستعدة للانطلاق؟»

وفور أن استدار ريتشارد لمواجهة نيكول رأت عينَيه وقد اتسعتا. ثم قال بهدوءٍ بعد ثانية واحدة: «لا تنظري الآن، لكن لدينا رفقة.»

استدارت نيكول ونظرت خلفها. فرأت في الجانب الآخر من الغرفة خلفهما على الممر بأربعين مترًا؛ اثنَين من كائنات الأوكتوسبايدر يقتربان منهما ببطء. لم يكن ريتشارد ونيكول قد سمعا صوتهما المميز الذي يشبه صوت جر فُرش معدنية؛ بسبب الضوضاء الصادرة من مصنع الكائنات الآلية.

وقف كائنا الأوكتوسبايدر عندما أدركا أن البشريَّين لاحظا وجودهما. كان قلب نيكول ينبض بقوة. وتذكرت بوضوح آخر مرة قابلت فيها كائنات الأوكتوسبايدر، عندما أنقذت كيتي من مخبئها في مركبة راما الثانية. وكان الشعور الذي سيطر عليها حينذاك — وفي هذه اللحظة — هو الرغبة في الهرب.

أمسكت بيد ريتشارد وحدق كلاهما في الكائنات الغريبة. وهمست: «هيا بنا.»

فأجابها ريتشارد: «أشعر بالخوف مثلك تمامًا، لكن دعينا لا نغادر بهذه السرعة. فإنها لا تتحرك. وأريد أن أرى ماذا ستفعل.»

ركَّز ريتشارد على الأوكتوسبايدر الذي يقف في المقدمة، ورسم في ذهنه صورةً دقيقةً له. كان الجزء الأساسي من جسده كرويًّا رماديًّا قاتمًا، يبلغ قطره مترًا تقريبًا، وكان عديم الملامح ما عدا شقًّا رأسيًّا عرضه عشرون أو خمسة وعشرون سنتيمترًا من أعلى الجسم إلى أسفله، حيث يتفرع الجسد إلى ثماني لوامس سوداء وذهبية تمتد على الأرض، يبلغ طول كلٍّ منها مترَين. وداخل الشق الرأسي كان هناك الكثير من العقد والتجاعيد — ففكَّر ريتشارد: «من المؤكد أنها مجسات» — أكبرها عدسة كبيرة مستطيلة الشكل تحتوي على سائل.

وبينما حملق كلٌّ من الفريقَين في الآخر، ظهر لون أرجواني فاتح على هيئة شريط عريض حول «رأس» الأوكتوسبايدر الذي في المقدمة. كان الشريط ينبثق من أحد الطرفَين

المتوازيَين للشق الرأسي. ويدور حول الرأس دورةً كاملةً ثم يختفي عند الحافة المقابلة للشق. تبع ظهورَ الشريط ببضع ثوانٍ ظهورُ سلسلةٍ معقدةٍ من الشرائط؛ بعضها أحمر وبعضها أخضر وبعضها أبيض، وقطعت هذه السلسلة الرحلة نفسها السابقة حول رأس الأوكتوسبايدر.

قالت نيكول بعصبيةٍ لريتشارد: «هذا بالضبط ما حدث عندما واجهت أنا وكيتي كائنات الأوكتوسبايدر. وقالت حينها إنها كانت تتحدث إلينا.»

فأجاب ريتشارد: «لكن ليس بإمكاننا على الإطلاق معرفةُ ما تقول. وحقيقة أن بإمكانها التحدث لا تعني على الإطلاق أنها لن تؤذينا ...» وبينما استمرَّت كائنات الأوكتوسبايدر في التحدُّث بالألوان، تذكر ريتشارد فجأةً حادثةً وقعَت قبل سنوات، أثناء مغامرته في مركبة راما الثانية. حينها كان يرقد على منضدةٍ محاطًا بخمسة أو ستة كائناتٍ من الأوكتوسبايدر، تغطِّي رءوسها جميعًا أنماط ملونة. وتذكَّر ريتشارد بوضوحٍ الرعب الشديد الذي شعر به، وهو يشاهد مجموعةً من الكائنات الصغيرة التي تتحكَّم فيها كائنات الأوكتوسبايدر تزحف إلى داخل أنفه.

بدأ رأس ريتشارد يدور عندما تذكر الألم. وقال لنيكول: «لم تكن لطيفة معي في السابق. عندما ...»

وفي تلك اللحظة فُتح باب في أقصى الغرفة، ودخل منه أربعة كائنات أوكتوسبايدر أخرى. فقال ريتشارد وهو يشعر بتوتر نيكول الواقفة إلى جواره: «هذا يكفي، أعتقد أنه حان الوقت لنخرج من هنا.»

سار ريتشارد ونيكول بسرعةٍ إلى منتصف الغرفة؛ حيث كان الممر يلتقي — كما في الغرفة السابقة — بالطريق الذي يقود إلى خارج البناء. واستدارا متجهَين للخارج لكن توقَّفا بعد خطواتٍ قليلة. فقد رأيا أربعة كائنات أوكتوسبايدر أخرى قادمة من ذلك الباب أيضًا.

لم يكن الأمر يحتاج إلى تفكير. على الفور استدار ريتشارد ونيكول وعادا إلى الممر الداخلي الرئيسي، واندفعا في اتجاه الجناح الثالث من البناء الخماسي. لكنهما ركضا هذه المرة دون أن يلتفتا إلى الخارج حتى أصبحا في الجناح الرابع. لكن ذلك الجزء كان يخيم عليه الظلام. فأبطآ الخُطى حتى يُخرج ريتشارد مصباحه الكهربي ويفحص المكان. كان بالمكان معداتٌ تبدو متطورة موضوعة على الأرض أسفلهما، لكن لا وجود لأي نشاطٍ من أي نوع.

سأل ريتشارد نيكول وهو يُعيد مصباحه إلى جيب قميصه مرة أخرى: «هل نجرب الخروج مرة أخرى؟» وعندما رآها تُومئ برأسها أمسك يدها، وركضا في اتجاه تقاطع الطرق، حيث انعطفا يمينًا وخرجا من البناء الخماسي تمامًا.

بعد بضع دقائق، كانا يركضان في ممرٍّ مظلمٍ في منطقةٍ غير معروفة على الإطلاق. وكان التعب قد تملك منهما. وكانت نيكول تواجه صعوبةً في التقاط أنفاسها. فقالت: «ريتشارد، إنني بحاجة إلى بعض الراحة. لا يمكنني مواصلة الركض.»

سار ريتشارد ونيكول في الممر الخاوي لمسافة خمسين مترًا أخرى. ثم رأيا بابًا إلى يسارهما. ففتحه ريتشارد بحذر، وحدَّق بالداخل ثم تفحَّص الغرفة بمصباحه الكهربي. وقال: «لا بد أنها غرفة تخزين من نوع ما. لكنها خاويةٌ في الوقت الحالي.»

دخل ريتشارد الغرفة، وألقى نظرة عبر بابها الخلفي على غرفة أخرى فارغة أيضًا، ثم عاد إلى نيكول. جلس الاثنان يسندان ظهرَيهما إلى الحائط. ثم قالت نيكول بعد بضع ثوانٍ: «عندما نعود إلى المخبأ يا عزيزي، أريدك أن تساعدني في فحص قلبي. إذ تنتابني آلام غريبة مؤخرًا.»

فسألها ريتشارد ونبرة صوته تعكس قلقه: «هل أنت بخير الآن؟»

فأجابته: «نعم.» وابتسمت في الظلام وقبلت زوجها. ثم قالت: «أنا بخيرٍ كأي شخصٍ نجا بأعجوبةٍ من سربٍ من كائنات الأوكتوسبايدر.»

٧

نامت نيكول نومًا متقطعًا وظهرها مستند إلى الحائط ورأسها على كتف ريتشارد. وداهمها كابوس تلو الآخر، فكانت تستيقظ فزعةً ثم تعود إلى نومها مرةً أخرى. في الكابوس الأخير كانت نيكول على جزيرةٍ وسط المحيط ومعها جميع أبنائها. ورأت موجة مدٍّ عاتية تتجه إليهم. اضطربت نيكول بشدة لأن أبناءها كانوا متفرقين في جميع أرجاء الجزيرة. فكيف يمكنها إنقاذهم جميعًا؟ فانتفضت من نومها مستيقظة.

وكزت زوجها في الظلام. وقالت له: «استيقظ يا ريتشارد. ثمة شيء ليس على ما يرام.»

في البداية لم يتحرك ريتشارد. لكن عندما لمسته نيكول مرة ثانية فتح عينَيه ببطء. وقال: «ما الأمر؟»

قالت: «لديَّ إحساس أننا لسنا بأمان هنا. أعتقد أنه يجب علينا الرحيل.»

فأشعل ريتشارد مصباحه الكهربي وأداره في أرجاء الغرفة ببطء. ثم قال بهدوء: «لا أحد هنا. ولا أسمع صوت أي شيءٍ أيضًا ... ألا تعتقدين أننا في حاجةٍ إلى المزيد من الراحة؟»

تزايدَت مخاوف نيكول وهما يجلسان في صمت. ثم قالت في النهاية: «لا يزال لديَّ إحساسٌ بأننا في خطرٍ يا ريتشارد. أعلم أنك لا تصدق ما لا يمكنك تحليله، لكنني تعلمت أن أصدِّق مخاوفي.»

قال ريتشارد بفتور: «حسنًا.» ثم وقف واجتاز الغرفة وفتح الباب الخلفي الذي قاده إلى منطقةٍ مجاورةٍ مشابهة. وألقى نظرةً بداخلها. ثم قال بعد عدَّة ثوانٍ: «لا شيء هنا أيضًا.» ثم عاد ريتشارد إلى الغرفة وفتح الباب المؤدي إلى الممر الذي استخدماه في الهروب من البناء الخماسي. وفي اللحظة التي فُتح فيها الباب، سمع هو ونيكول الصوت الذي لم تخطئه آذانهما؛ صوت جر فُرش على الأرض.

هبَّت نيكول واقفةً على قدمَيها. وأغلق ريتشارد الباب دون أن يصدر أي صوت، وهرع إلى جوارها. وهمس: «هيا بنا. لا بد أن نعثر على مخرج آخر.»

سارا معًا إلى الغرفة التالية، ثم التالية والتالية. كانت جميعها مظلمة وخاوية. فقدا الإحساس بالاتجاهات وهما ينطلقان في المنطقة التي لم تكن مألوفة. وفي نهاية المطاف، وصلا إلى باب ضخم ذي مصراعَين في الجانب الأقصى من إحدى الغرف المتشابهة. طلب ريتشارد من نيكول أن تتراجع بينما يفتح باب الغرفة بحرص. لكن فور أن نظر إلى داخل الغرفة قال بذهول: «عجبًا. ما هذا؟»

وقفت نيكول بجوار ريتشارد، وتتبعت عيناها شعاع المصباح الكهربي وهو يسقط على المحتويات الغريبة للغرفة المتاخمة. كانت الغرفة مليئةً بأغراضٍ ضخمة متراكمة بغير نظام. أقربها إلى الباب كان يشبه أميبا ضخمة على لوح تزلج. يليها ما يشبه كرة عملاقة من الجدائل يبرز من منتصفها قرنا استشعار. لم يكن هناك أيُّ صوت أو حركة في الغرفة. فرفع ريتشارد مصباحه الكهربي إلى مستوًى أعلى، ودار به بسرعةٍ في باقي أرجاء الغرفة المزدحمة.

فجأةً قالت نيكول بانفعال عندما وقعت عيناها على شيءٍ مألوف: «عُد إلى هناك. بضعة أمتارٍ إلى يسار الباب الآخر.»

بعد ثوانٍ قليلة، سقط ضوء المصباح على أربعة أشكالٍ تشبه البشر ترتدي خوذاتٍ وحُللًا فضائية، وتجلس مستندة إلى الحائط في الجانب الأقصى. فقالت نيكول بانفعال: «هؤلاء هم البشر الآليُّون الذين رأيناهم على متن مركبة راما الثانية في السهل الرئيسي.»

سرت القشعريرة في جسد ريتشارد. وسألها مذهولًا: «نورتون ورفاقه؟»

أجابَته نيكول: «أراهن أنهم هم.»

دخل ريتشارد ونيكول الغرفة ببطء، وسارا على أصابع أقدامهما حول الأغراض الكثيرة في طريقهما إلى الأجسام المقصودة. جثا ريتشارد ونيكول على ركبتَيهما بجوار ما بدا أنه أربعة بشريين. وقالَت نيكول بعد أن تأكَّدا أن الوجه خلف الخوذة الشفافة يُشبه بالفعل وجه القائد نورتون، الذي قاد بعثة راما الاستكشافية الأولى: «لا بد أن هذا المكان هو مقلب نفايات الكائنات الآلية.»

وقف ريتشارد وهو يهز رأسه في استنكار. وقال: «هذا أمر لا يصدق على الإطلاق. ماذا تفعل هذه الأشياء هنا؟» ودار بمصباحه الكهربي في أرجاء الغرفة.

بعد ثانيةٍ واحدةٍ أطلقت نيكول صرخة فزع. كان هناك كائن أوكتوسبايدر يتحرك على بعد ما لا يزيد عن أربعة أمتار منها، أو على الأقل ذاك ما تخيَّلَته في الإضاءة الغريبة. فهُرع ريتشارد إلى جوارها. وسرعان ما تحقَّقا أن ما يرياه ما هو إلا أوكتوسبايدر آلي، فتملكهما الضحك لعدة دقائق.

وبعد أن تمكنت نيكول من السيطرة على نوبة ضحكها العصبية، قالت: «ريتشارد ويكفيلد، هلا تُعيدني إلى المنزل الآن؟ رأيت ما يكفي.»

فأجابها ريتشارد مبتسمًا: «أعتقد هذا. شريطة أن نجد الطريق.»

كلَّما توغَّلا أكثر وأكثر في متاهة الغرف والأنفاق في المنطقة المحيطة بالبناء الخماسي، ازداد اقتناع نيكول أنهما لن يجدا طريقهما إلى الخارج أبدًا. وآخر الأمر بدأ ريتشارد يبطئ الخطى ويحفظ معلومات على جهاز الكمبيوتر المحمول. وهكذا كان قادرًا على الأقل أن يجنبهما السير في دوائر، لكنه لم يتمكن على الإطلاق من ربط خريطته بأيٍّ من العلامات البارزة التي كانا قد رأياها، قبل أن يهربا من كائنات الأوكتوسبايدر.

عندما بدأ اليأس يتسلَّل إلى نفسَيهما، صادفا في طريقهما شاحنةً آليةً صغيرة تحمل مجموعةً غريبة من الأغراض الصغيرة في ممرٍّ ضيق. فبدأت الطمأنينة تعرف طريقها إلى نفس ريتشارد. وقال لنيكول: «تبدو هذه الأشياء كأنها مصنَّعة خصوصًا طبقًا لمواصفات وضعها شخصٌ ما، مثل الأشياء التي تصلنا في الغرفة البيضاء. إذا سرنا في الاتجاه الذي أتى منه الآلي، فقد نتمكَّن من تحديد مكان تصنيع جميع أغراضنا. ومن هناك سيكون من السهل إيجاد طريقٍ إلى مخبئنا.»

كانت الرحلة طويلة. وكانت قواهما قد خارَت بالفعل عندما اتسع الرواق الذي يسيران فيه بعد عدَّة ساعاتٍ من السير، وتحوَّل إلى ساحة مصنع ضخمة ذات سقف عالٍ. وفي منتصف المصنع كان هناك اثنتا عشرة أسطوانةً ضخمة أشبه بالمراجل القديمة التي كانت تُستخدم على كوكب الأرض. كان ارتفاعُ كلٍّ منها أربعة أو خمسة أمتار، وعرضها مترًا ونصف المتر. وكانت المراجل موزعةً على أربعة صفوف من ثلاثة مراجل.

كانت السيور المتحركة — أو على الأقل ما يناظرها في راما — تدخل إلى كل مرجل وتخرج منه، وكان هناك مرجلان يعملان بالفعل في تلك اللحظة. انبهر ريتشارد بما رآه. قال وهو يشير إلى منطقةٍ واسعةٍ بالمستودع مغطاة بأكوامٍ من الأغراض ذات الأشكال والمواصفات المختلفة: «انظري هناك. لا بد أن هذه هي كل المواد الخام. وما يحدث هو أنه عندما يصل الطلب إلى الكمبيوتر المركزيِّ الذي يوجد على الأرجح في ذلك الكوخ خلف المراجل، تتمُّ معالجة الطلب وإرساله لإحدى هذه الآلات. فتخرج الكائنات الآلية وتجمع المواد المناسبة وتضعها على السيور المتحركة. فتتحول هذه المواد الخام داخل المراجل، ويكون المنتج الذي يخرج هو ما جاء بالضبط في الطلب الذي أرسله الجنس العاقل، الذي استخدم لوحة المفاتيح أو ما يقابلها للتواصل مع سكان راما.»

اقترب ريتشارد من أقرب مرجل يعمل. وقال والانفعال يملؤه بالكامل: «لكن السؤال الحقيقي هو: ما نوع العملية التي تحدث داخل هذه المراجل؟ هل هي عملية كيميائية؟ أو ربما تكون نوويةً تتضمَّن تحويل عناصر إلى أخرى؟ أم إن لدى سكان راما تكنولوجيا أخرى للتصنيع تفوق إدراكنا تمامًا؟»

قرع ريتشارد عدَّة مراتٍ بقوة على الجزء الخارجي من المرجل النشط. ثم قال: «إن الجدران سميكة للغاية.» ثم انحنى حيث تدخل السيور المتحركة إلى المرجل، وبدأ يضع يده بالداخل. فصرخت نيكول وهي تقول: «ريتشارد، ألَا تعتقد أن ما تفعله حماقة؟»

رمق ريتشارد زوجته بنظرةٍ سريعةٍ وهز كتفَيه. وعندما انحنى مرة أخرى لفحص واجهة السير المتحرك، اندفع من آخر الغرفة كائن آلي غريب الشكل يشبه صندوق الكاميرا، وله أرجل تخرج من مؤخرة الصندوق الكبير. ووقف بسرعةٍ بين ريتشارد والسير المتحرك النشط، ثم تمدد في الحجم مُجبرًا ريتشارد على التراجع بعيدًا عن العملية التي تحدث.

فقال ريتشارد مستحسنًا ما حدث: «تصرف جيد.» واستدار إلى نيكول قائلًا: «يتمتع النظام بحماية فائقة من الأخطاء.»

فقالت نيكول: «ريتشارد، إذا لم يكن لديك مانعٌ فهل بإمكاننا الآن العودة إلى مهمتنا الأساسية؟ أم إنك نسيت أننا لا نعرف طريق العودة إلى مخبئنا؟»

فأجابها ريتشارد: «دعينا نمكث لبعض الوقت. فأنا أريد أن أعرف ماذا سيخرج من المرجل النشط القريب منا. ربما إذا رأينا المنتج النهائي بعد أن رأينا المدخلات، يمكنني استنتاج نوع العملية التي تفصل بين الاثنَين.»

فهزَّت نيكول رأسها وقالت: «نسيت كم أنت مدمن على المعرفة. أنت الإنسان الوحيد الذي قابلته في حياتي يتوقف ليدرس نباتًا أو حيوانًا جديدًا وهو تائه تمامًا في الغابة.»

عثرت نيكول على ممرٍّ آخر طويلٍ في الاتجاه المقابل للغرفة الضخمة. وبعد ساعةٍ تمكَّنت أخيرًا من إقناع ريتشارد أن يغادر مصنع الكائنات الفضائية الذي خلب لبَّه. لم يكن لديهما وسيلةٌ ليعرفا إلى أين يقود الممر الجديد، لكنه كان أملهما الوحيد. ومرة أخرى سارا لوقتٍ طويل، وفي كل مرة كانت نيكول تشعر بالتعب أو اليأس، كان ريتشارد يرفع من معنوياتها بالإشادة بعجائب كل شيء رآياه منذ أن تركا مخبأهما.

فقال في إحدى المرات وهو لا يكاد يكبح جماح نفسه: «هذا المكان مدهش، إنه مذهل، أعجز عن تقييم ما يعنيه ... لا يعيش بنو البشر وحدهم في هذا الكون، وهم غير قريبين من قمة هرم الكائنات الحية؛ من حيث الكفاءة ...»

ساعدتهما حماسة ريتشارد، حتى رأيا أخيرًا وهما على وَشْك الانهيار تفرعًا في الممر. كان ريتشارد واثقًا بسبب قياس الزوايا أنهما عادا إلى الطريق الأصلي الذي تفرَّع إلى فرعَين، وكان على بعد لا يزيد عن كيلومترَين من مخبئهما. فصرخ وهو يسرع الخُطى: «مرحى.» ثم نادى نيكول وهو يشير بضوء مصباحه للأمام: «انظري، اقتربنا من المنزل.»

لكن نيكول سمعت شيئًا في تلك اللحظة جعلها تتجمَّد في مكانها. وصرخت: «ريتشارد، أطفئ المصباح.»

استدار ريتشارد نحوها بسرعة لدرجة أنه كاد يسقط وأطفأ مصباحه. وفي الثواني القليلة اللاحقة، لم يراودهما شكٌّ أن ما يسمعانه هو صوت جر فُرش معدنية على الأرض. وكان الصوت يعلو ويعلو.

فصاحَت نيكول وهي تندفع أمام زوجها وتركض هاربةً بأقصى سرعتها: «أسرع بالهرب.» وصل ريتشارد إلى نقطة تقاطع الطرق، فيما لا يزيد عن خمس عشرة ثانيةً قبل وصول أول أوكتوسبايدر. وكانت الكائنات الغريبة تخرج من القناة. وبينما كان ريتشارد يهرب منها، التفتَ وأضاء مصباحه الكهربي. فرأى في تلك اللحظة أربعة أنماط ملوَّنة تتحرَّك في الظلام.

أحضر ريتشارد ونيكول كل الأثاث الذي عثرا عليه إلى الغرفة البيضاء، وأقاما حاجزًا بعرض الحاجز الأسود. ولعدة ساعات ظل ريتشارد ونيكول يراقبان وينتظران، متوقعَين أن يرتفع الحاجز في أي لحظةٍ وتغزو كائنات الأوكتوسبايدر مخبأهما. لكن لم يحدث شيء. وفي النهاية تركا جان وإليانور في الغرفة البيضاء للحراسة، وقضيا الليلة في غرفة الأطفال مع تامي وتيمي.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، سأل ريتشارد نيكول: «لماذا لم تتبعنا كائنات الأوكتوسبايدر؟ إنها تعلم ولا ريب أن الحاجز يرتفع تلقائيًّا. لو أنها وصلت إلى نهاية الممر ...»

قاطعته نيكول بهدوء قائلة: «ربما لم ترغب في أن تخيفنا مرة أخرى.» فقطب ريتشارد جبينه ونظر إلى نيكول بحيرة. فاستأنفت حديثها قائلة: «لا نملك دليلًا قاطعًا حتى الآن على أن كائنات الأوكتوسبايدر عدوانية، مع أنك تشعر أنها أساءت معاملتك عندما كنت أسيرها في مغامرتك قبل سنوات ... إنها لم تؤذِ كيتي أو تؤذِني عندما كان بإمكانها ذلك بسهولة. كما أنها أعادَتك إلينا في نهاية المطاف.»

قال ريتشارد: «كنت في ذلك الوقت في غيبوبة عميقة. ولم أكن أنفعها في شيء وهي تخضعني للاختبارات ... بخلاف ذلك كيف تفسرين ما حدث لتاكاجيشي؟ أو الهجمات على الأمير هال وفولستاف؟»

ردَّت نيكول: «كل حادثٍ من هذه الحوادث له تفسيرٌ غير عدواني معقول. ولهذا فإن الأمر محير. افترض مثلًا أن تاكاجيشي مات جراء الإصابة بأزمة قلبية. وأن كائنات الأوكتوسبايدر احتفظَت بجثمانه وحنطته، لاستخدامه في تعليم كائنات الأوكتوسبايدر الأخرى ... أظن أننا قد نفعل الأمر نفسه ...»

سكتت نيكول لبرهة ثم تابعت: «وما تسميه اعتداءً على الأمير هال وفالستاف قد يكون مجرد سوء تفاهم ... ربما دلف الآلي الصغير إلى مكانٍ شديد الأهمية، عش مثلًا، أو ما يُناظر الكنيسة لدى كائنات الأكتوسبايدر ... في تلك الحالة سيكون من الطبيعي أن تدافع الكائنات عن ذلك الموقع المهم.»

قال ريتشارد بعد لحظةٍ من التردد: «أشعر بالحيرة، فها أنتِ اليوم تدافعين عن كائنات الأوكتوسبايدر، بينما ركضتِ بالأمس خوفًا منها أسرع مما ركضت أنا.»

أجابَته نيكول وهي تفكر بعمق: «نعم، أعترف أنني كنت أرتعد خوفًا. وأن غريزتي الحيوانية جعلتني أفترض أنها عدوانية ودفعتني للهرب. لكنني اليوم أشعر بخيبة أمل

في نفسي. إذ إننا، نحن البشر، من المفترض أن نستخدم عقولنا للتغلُّب على ردود الفعل الغريزية ... وبالأخص أنا وأنت. فبعد كل ما رأيناه على متن راما وفي النود، لا بد أن نكون محصنَين تمامًا من رُهاب الكائنات الغريبة.»

ابتسم ريتشارد وأومأ برأسه. ثم قال: «إذن أنتِ تقولين الآن بأنه من المحتمل أن كائنات الأوكتوسبايدر كانت تحاول فقط إنشاء نوعٍ من الاتصال السلمي؟»

أجابت نيكول: «ربما. لا أعلم بالضبط ما تريد، لكنني أعرف أنني لم أرها تتصرف تصرفًا عدوانيًّا صريحًا.»

حدق ريتشارد في الجدران لثوانٍ وهو شارد الذهن ثم حك جبهته. وقال: «ليتني أتذكر المزيد من التفاصيل عن الوقت الذي قضيته معها. فلا يزال ذلك الصداع الرهيب يصيبني كلما حاولت التركيز على تلك المدة من حياتي؛ وحدها ذكرياتي عن الأوكتوسبايدر، عندما كنت داخل الكائن اللاسويقي، لا تكون مصحوبةً بالشعور بالألم.»

قالت نيكول: «مر وقت طويل على مغامرتك تلك. ربما تكون كائنات الأوكتوسبايدر قادرةً على التعلُّم أيضًا، وربما تبنَّت الآن أسلوبًا مختلفًا في تعاملها معنا.»

وقف ريتشارد. وقال: «حسنًا. نجحت في إقناعي. في المرة القادمة التي نرى فيها أوكتوسبايدر لن نهرب.» ثم ضحك واستأنف: «على الأقل ليس على الفور.»

مر شهر آخر لم يذهب فيه ريتشارد ونيكول خلف الحاجز الأسود، ولم يقابلا كائنات الأوكتوسبايدر ثانية. وكانا يمضيان الأيام يعتنيان بالصغيرَين (اللذَين كانا يتعلَّمان التحليق) ويتآنسان. وفي الكثير من حواراتهما تحدث ريتشارد ونيكول عن أطفالهما واستعادا ذكريات الماضي.

وفي صباح أحد الأيام حين كانت نيكول وريتشارد يسيران في أحد الميادين الثلاثة الرئيسية في نيويورك، قالت له: «أظن أننا تقدمنا في العمر.»

فأجابها ريتشارد بابتسامة عابثة: «كيف تقولين هذا؟ هل لأننا نقضي معظم وقتنا نتحدث عما حدث منذ أمدٍ بعيد، وأن مهامنا اليومية في الحمام تشغل حيزًا من اهتمامنا وطاقة أكبر من ممارسة العلاقة الحميمة؛ يعني أننا تقدمنا في العمر؟»

ضحكت نيكول وقالت: «هل الأمر سيئ إلى هذا الحد؟»

فقال ريتشارد بنبرة مازحة: «ليس إلى هذا الحد. لا تزال عاطفتي تجاهكِ متقدةً مثل عاطفة طالب في المدرسة ... لكن من حينٍ لآخر تغطي الآلام التي لم أشعر بها من قبل على هذا الحب ... مما يذكرني بأمر ما، ألم يكن من المفترض أن أساعدك في فحص قلبك؟»

أومأت نيكول برأسها وقالت: «نعم. لكن لا يوجد ما يمكنك القيام به. فالأدوات التي أحضرتها معي في صندوق المعدات الطبية عندما هربت، كانت السماعة وجهاز قياس الضغط. واستخدمت كليهما عدة مرات كي أفحص نفسي ... لكنني لم أعثر على مؤشر غير عادي ما عدا صمامًا مثقوبًا، أما ضيق التنفس فلم يعاودني ثانية.» وابتسمت وقالت: «كان الأمر على الأرجح بسبب الانفعال الذي مررنا به ... وكبر السن.»

قال ريتشارد: «لو كان زوج ابنتنا طبيب أمراض القلب هنا، لكان أجرى لكِ فحصًا شاملًا.»

وسارا معًا لعدة دقائق وهما صامتان. ثم قال ريتشارد: «تشتاقين للأولاد كثيرًا، أليس كذلك؟»

أجابت نيكول وهي تتنهد: «بلى. لكنني أحاول ألَّا أفكر فيهم كثيرًا. فأنا سعيدةٌ أنني لا أزال على قيد الحياة وأنني هنا إلى جوارك، هذا أفضل بكثيرٍ طبعًا من تلك الشهور الأخيرة التي قضيتها في السجن. لديَّ الكثير من الذكريات الجميلة عن الأولاد ...»

فقال ريتشارد: «ربِّ امنحني الحكمة كي أتقبَّل ما لا أستطيع تغييره.» ثم استطرد قائلًا: «إنها إحدى أفضل صفاتك يا نيكول ... لطالما كنت أحسدكِ على رباطة جأشك.»

أبطأت نيكول وتيرة سيرها. قالت في نفسها متعجبة: «رباطة جأشي؟» وتذكرت الهلع البالغ الذي انتابها بعد موت فاليري بورزوف، بعدما رست سفينة نيوتن الفضائية في راما. «لم أستطع النوم حتى أقنعت نفسي أن موته لم يكن ذنبي.» ولوهلةٍ استرجعت السنوات التي مرَّت منذ ذلك الحدث. وقالت في نفسها: «إن كنت أتمتع برباطة جأش فقد اكتسبتها مؤخرًا ... فالأمومة وكبر السن يغيران نظرة المرء لنفسه وللعالم.»

وبعد بضع لحظات، صمت ريتشارد فجأة واستدار ليواجه نيكول. وقال لها وهو يعانقها بقوة: «أنا أحبكِ جدًّا.»

فسألته نيكول المتحيرة بسبب هذا الفيض المفاجئ من المشاعر: «لماذا تقول هذا؟»

شردت عينا ريتشارد. وأجابها بحماسة: «في الأسبوع الماضي اكتملت خطة مجنونة جامحة في عقلي. كنت أعلم من البداية أنها محفوفة بالمخاطر، بل مجنونة على الأرجح، لكن على غرار جميع مشروعاتي، سيطرت عليَّ بالكامل ... لدرجة أنني تسلَّلت من الفراش مرتَين في منتصف الليل لوضع التفاصيل ... وكنت أريد أن أخبركِ بشأنها من قبل، لكنني أردت أن أقنع نفسي أولًا أن الأمر ممكن ...»

فقالت نيكول بنفاد صبر: «ليس لديَّ أدنى فكرة عما تتحدث عنه.»

أجاب ريتشارد بسعادة: «الأمر يتعلق بالأولاد. لديَّ خطة هروب لهم جميعًا، للانضمام إلينا هنا في نيويورك. وبدأت بالفعل في إعادة برمجة جان وإليانور.»

حدَّقت نيكول في زوجها ومشاعرها مختلطة. فبدأ ريتشارد يشرح لها خطة الهروب. لكنها قاطعَته بعد عدة ثوانٍ قائلة: «تمهل لحظة يا ريتشارد. هناك سؤالٌ مهمٌّ يجب أن نُجيب عنه أولًا ... ما الذي يجعلك تعتقد أن أولادنا «سيرغبون» في الهروب؟ إنهم لا يواجهون تهمًا في عدن الجديدة وليسوا في السجن. صحيح أن ناكامورا طاغيةٌ وأن الحياة في المستوطنة صعبةٌ تصيب المرء بالاكتئاب، لكن على حد علمي فأولادنا يتمتَّعون بالحرية مثل أي مواطن آخر. وإذا حاولوا الانضمام إلينا وفشلوا، فستتعرَّض حياتهم للخطر ... بالإضافة إلى أن الحياة التي نعيشها هنا مع أنها جيدةٌ في نظرنا، فلن تكون في نظرهم جنَّة.»

أجابها ريتشارد: «أعلم هذا ... وربما دفعَتْني رغبتي في رؤيتهم إلى التخطيط لذلك ... لكن ما الضرر من إرسال جان وإليانور للتحدُّث إليهم؟ إن باتريك وإيلي راشدان ويمكنهما أن يقررا لنفسَيهما.»

فسألته نيكول: «وماذا عن بينجي وكيتي؟»

عقد ريتشارد ما بين حاجبيه. وقال: «بالطبع لا يستطيع بينجي القدوم وحده؛ ومن ثم فإن قدومه يعتمد على استعداد أيٍّ من الآخرين لمساعدته. أما كيتي فهي مزعزعةٌ ولا يمكن توقُّع تصرفاتها ... فمن المحتمل أن تخبر ناكامورا ... أعتقد أنه ليس أمامنا خيارٌ سوى إسقاطِها من حُسْباننا ...»

قالت نيكول بهدوءٍ لريتشارد ولنفسها أيضًا: «إن الأب والأم لا يفقدان الأمل أبدًا.» ثم أضافت: «هل تتضمَّن خطتك أيضًا ماكس وإيبونين؟ إنهما بمثابة أفراد العائلة.»

قال ريتشارد وقد عادت الحماسة إليه مرة أخرى: «إن ماكس في الواقع هو الشخص الأمثل لتنظيم خطَّة الهروب من داخل المستوطنة. إذ قام بعملٍ رائعٍ عندما أخفاكِ ثم أوصلكِ إلى بحيرة شكسبير، دون أن يكتشف أحدٌ أمرك. وسيحتاج باتريك وإيلي إلى شخصٍ ناضجٍ ومتعقلٍ ليساعدهما في التعامل مع تفاصيل الخطة ... ووفق خطتي ستذهب جان وإليانور إلى ماكس أولًا. هو يعرف الآليتَين بالفعل ويمكنه أيضًا تقييم الخطة بموضوعية والحكم على جدواها من عدمه. إذا أخبرنا عبر الآليتين أن الخطة مستحيلة، فسنتغاضى عنها.»

حاولت نيكول أن تفكر في مدى السعادة التي ستشعر بها لحظة أن تضم أولادها إلى صدرها. لكن الأمر كان مستحيلًا. فقالت في النهاية وهي تبتسم: «حسنًا يا ريتشارد. أقر

أن الأمر أثار حماستي ... دعنا نتناقش فيه ... لكن يجب أن نَعِد أنفسنا أننا لن نفعل شيئًا إلا بعد التيقُّن أنه لن يعرِّض أبناءنا للخطر.»

٨

استأذن ماكس باكيت وإيلي تيرنر، وتركا إيبونين وروبرت ونيكول الصغيرة بعد تناول العشاء بوقتٍ قصير، ثم سارا في الخارج باتجاه بيت مزرعة ماكس في عدن الجديدة. وفور أن أصبحا بعيدَين عن مسامع الآخرين، بدأ ماكس يُخبر إيلي عن زيارات الآليتَين الصغيرتَين الأخيرة له. ولم تصدق إيلي ما سمعته. قالت له بصوتٍ مرتفع: «لا بد أنك مخطئ. لا يمكن أن يقترحا أن نغادر هكذا بكل بساطة ...»

وضع ماكس إصبعه على شفتَيه وهما يقطعان الأمتار القليلة التي تفصلهما عن الحظيرة. وقال هامسًا: «يمكنك التحدث إليهما بنفسك. لكن طبقًا لما تقوله الصغيرتان، هناك متسعٌ لنا جميعًا في المخبأ الذي عشت فيه في السنوات الأولى بعد ميلادك.»

كان الظلام يخيم على الحظيرة. وقبل أن يشعل ماكس الضوء، كانت إيلي قد لمحت بالفعل الآليتَين الصغيرتَين تومضان في الظلام إلى جوارها على إحدى حواف النافذة. وقالت لها جان الصغيرة وهي لا تزال ترتدي درعها: «مرحبًا مرة أخرى يا إيلي. إن والدكِ ووالدتكِ بخير ويرسلان تحياتهما إليك.»

أضافت الآلية إليانور: «جئنا لرؤيتكِ الليلة؛ لأن ماكس رأى أنه من الضروري أن تسمعي بنفسكِ ما جئنا لنقوله. إن ريتشارد ونيكول يدعوانك وأصدقاءك للانضمام إليهما في مخبئكم القديم في نيويورك، حيث يعيش والداكِ حياةً بسيطة وهادئة.»

وأضافت جان: «إن كل شيء في المخبأ لم يتغير منذ أن كنت طفلة صغيرة. فلا يزال سكان راما يوفرون الطعام والملبس والأشياء الأخرى بعد طلبها منهم، باستخدام لوحة المفاتيح في الغرفة البيضاء. وهناك كميةٌ غير محدودةٍ من الماء العَذْب متوفرةٌ في الصهريج بالقرب من أسفل درج الدخول.»

استمعت إيلي بسعادة وجان تذكرها بظروف المعيشة أسفل المدينة الجزيرة في الجانب الجنوبي من الموطن الثاني. وحاولت إيلي أن تستعيد شكل المخبأ في مخيلتها، لكن الصورة التي ارتسمت في ذهنها كانت مبهمةً للغاية. وما تذكرته بوضوح عن تلك المدة من حياتها هي الأيام القليلة الأخيرة التي قضَتها على متن راما، بما في ذلك حلقات الألوان المذهلة التي انبثقت من الجبل الكبير، واتجهت ببطءٍ إلى شمال الأسطوانة العملاقة. لكن ذكرياتها عن

المخبأ من الداخل كانت مشوشة. فتساءلت في نفسها: «لماذا لا أتذكر على الأقل غرفة الأطفال بوضوح؟ هل لأن أحداثًا كثيرة وقعت منذ ذلك الوقت وتركت في ذاكرتي انطباعًا أقوى؟»

وتدفقت إلى عقل إيلي مجموعة من الصور من طفولتها المبكرة. وكانت بعض الصور من راما، لكن الكثير منها كان من منزل العائلة في النود. وسيطرت عليها ملامح الرجل النسر التي لا تُنسى الذي بدا لإيلي الصغيرة كإله.

ألقت إليانور الأكويتينية سؤالًا على إيلي التي لم تكن منتبهة. قالت إيلي: «أنا آسفة يا إليانور، هلَّا تُعيدين سؤالك؟ أخشى أنني غرقت لبعض الوقت في ذكريات طفولتي.»

فقالت: «إن والدتكِ تسأل عن بينجي. هل لا يزال في المستشفى في أفالون؟»

أجابتها إيلي: «نعم. وهو بخير كما هو متوقع. وأفضل صديقة له في العالم كلِّه الآن هي ناي واتانابي. عندما انتهَت الحرب تطوَّعت ناي للعمل مع أولئك الذين اختيروا — لسببٍ أو لآخر — ليكونوا نزلاء مستشفى أفالون. لذا فهي تقضي مع بينجي بعض الوقت كل يومٍ تقريبًا وتُساعده كثيرًا. وطفلاها التوءمان كيبلر وجاليليو يُحبَّان اللعب معه — فبينجي ليس إلا طفلًا كبيرًا — مع أن جاليليو يكون فظًّا في بعض الأحيان ويزعج ناي كثيرًا.»

قال ماكس معيدًا دفة الحوار إلى الموضوع الرئيسي: «كما أخبرتك، ترك ريتشارد ونيكول الأمر لنا لنقرِّر من سيشارك إذا كنا سننفذ بالفعل عملية الرحيل الجماعي. هل سيتبع بينجي التعليمات؟»

قالت إيلي: «أعتقد هذا، ما دام يثق بالشخص الذي يعطيه التعليمات. لكن من المستحيل أن نخبره بشأن الهروب قبل وقت تنفيذه. فلا يمكن أن نتوقَّع منه ألَّا يتفوَّه بكلمةٍ في هذا الشأن. السرية والدهاء ليسا من سمات شخصيته. سيطير من السعادة، لكن ...»

قاطعتها جان دارك متسائلة: «سيد باكيت، ماذا أقول لريتشارد ونيكول؟»

فأجابها ماكس: «تبًّا يا جان، تحلِّي بقليلٍ من الصبر ... من الأفضل أن تعودي مرة أخرى في غضون أسبوع، بعد أن أكون أنا وإيلي وإيبونين قد حظينا بمزيدٍ من الوقت لمناقشة الأمر، وسأعطيكِ إجابة مبدئية ... أخبري ريتشارد أنني أجد الأمر برمته مثيرًا للاهتمام، وإن كان جنونيًّا بلا شك.»

وضع ماكس الآليتَين على أرض الحظيرة وانطلقتا مبتعدتَين. وعندما عاد ماكس وإيلي إلى الخارج في الهواء الطلق، أخرج ماكس سيجارة من جيبه. وقال مبتسمًا: «أعتقد أنكِ لن تمانعي «كثيرًا» إذا دخنت سيجارة هنا؟»

ابتسمت إيلي. ثم قالت بعد دقيقة بينما كان ماكس ينفث حلقات الدخان في هواء الليل: «بالطبع لا تريد أن تخبر روبرت عن الأمر، أليس كذلك يا ماكس؟»

هز ماكس رأسه. وأجاب: «ليس الآن. ربما في آخر لحظة.» ثم وضع ذراعه حول إيلي وقال: «يا سيدتي الصغيرة، أنا معجب بزوجك الطبيب، إنها الحقيقة، لكنني أجد في بعض الأحيان مواقفه وأولوياته غريبة بعض الشيء. ولا يمكنني الجزم بأنه لن يخبر أحدًا ...»

فسألت إيلي: «ماكس، هل تعتقد أن روبرت ربما أقسم قسمًا خاصًّا ألَّا يقومَ بأي تصرفٍ ضد مصلحة السلطة مرة أخرى؟ وأنه خائف ...»

أجابها ماكس: «تبًّا يا إيلي، لست طبيبًا نفسيًّا. ولا أعتقد أن أيًّا منا يمكنه أن يفهم تأثير قتل شخصَين عمدًا عليه. لكن يمكنني القول إن هناك احتمالًا ضئيلًا ألَّا يحتفظ بسرنا؛ قد يكون ذلك لتجنُّب اتخاذ قرارٍ شخصيٍّ مؤلم، إن لم يكن لأيِّ سببٍ آخر.» ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وحدَّق في صديقته الشابَّة.

«أنت لا تظن أنه سيأتي، أليس كذلك؟ حتى إذا طلبتُ منه أن يأتي؟»

مرة أخرى هز ماكس رأسه. وقال: «لا أعلم يا إيلي. سيعتمد الأمر على مدى احتياجِه إليكِ وإلى نيكول الصغيرة. خصَّص روبرت لكما مكانًا في حياته، لكنه لا يزال يخفي مشاعره خلف ستار العمل المتواصل.»

فسألته إيلي: «ماذا عنك أنت يا ماكس؟ ما رأيك بصراحة في الخطة كلها؟»

قال ماكس مبتسمًا: «أنا وإيبونين مستعدان للذهاب، ولخوض مغامرة صغيرة. وعلى أي حال إنها مسألة وقت قبل أن أدخل في مشكلاتٍ حقيقيةٍ مع ناكامورا.»

«وماذا عن باتريك؟»

«ستُعجبه الفكرة. لكن يساورني شكٌّ أنه قد يقول شيئًا لكيتي. فإن علاقتهما علاقةٌ خاصَّةٌ ...»

سكت ماكس بمنتصف جملته، عندما رأى روبرت الذي يحمل ابنته المتعبة قادمًا إلى الشرفة الأمامية.

قال روبرت: «ها أنتِ ذي يا إيلي. ظننت أنكِ تهتِ أنت وماكس في الحظيرة ... إن نيكول متعبة، ولديَّ عمل في المستشفى غدًا في الصباح الباكر ...»

أجابته إيلي: «أنت محق يا عزيزي. كنت أنا وماكس نستعيد بعض الذكريات عن والدي ووالدتي ...»

قالت إيلي لنفسها وهي تبرز بطاقة هُويتها لكائن جارسيا الآلي، في مدخل متجر مدينة بوفوا: «لا بد أن يكون اليوم يومًا طبيعيًّا. لا بد أن أفعل كل شيءٍ بالضبط كما لو أنه يوم خميس عادي.»

بعد ثوانٍ قليلة قال جارسيا الآلي وهو يمنحها قائمةً مطبوعةً من الكمبيوتر قبالة الحائط خلفه: «سيدة إيليانور تيرنر، ها هي حصتك من المؤن للأسبوع. نفد من عندنا البروكلي والطماطم مرة أخرى؛ لذا أضفنا كبديل مكيالَين من الأرز ... بإمكانك الآن التقدُّم إلى الطابور للحصول على بضاعتك.»

سارَت نيكول الصغيرة إلى جانب والدتها وهي تدخل إلى الجزء الرئيسي من المتجر. وعلى الجانب الآخر من حاجزٍ شبكيٍّ — كان المواطنون في الأيام الأولى لمستوطنة جنة عدن يتسوَّقون خلفه بأنفسهم — كان هناك خمسة أو ستة كائنات تياسو ولينكولن آلية — جميعها من مجموعة الثلاثمائة آلي المُبرمجين بالكامل على يد حكومة ناكامورا — تتحرك جيئة وذهابًا في الممرات لتجهيز الطلبات. كان معظم أرفف المتجر خاويًا. فمع أن الحرب انتهَت منذ مدة، فإن ظروف الطقس غير المستقرة في عدن الجديدة، بالإضافة إلى مقت معظم المزارعين لأساليب ناكامورا الجائرة، نقصت معدلات إنتاج الطعام لأقصى حد. لذا وجدت الحكومة أنه من الضروري أن تشرف على عملية توزيع الطعام. ولم يكن من المتاح الحصول على أكثر من المواد الضرورية إلا لأولئك المفضلين لدى الحكومة.

وقف ستة أفراد في الطابور أمام إيلي وابنتها التي تبلغ من العمر عامَين تقريبًا. كانت إيلي تتسوق مع نفس الأشخاص كل يوم خميس بعد الظهيرة. وعندما وقفت إيلي ونيكول في الطابور التفت معظم المصطفين إليهما.

وقالت سيدة لطيفة غطى الشيب شعرها: «ها قد أتت الفتاة الصغيرة الجميلة. كيف حالكِ اليوم يا نيكول؟»

لكن نيكول لم تُجِب. بل تراجعَت بضع خطواتٍ وتشبَّثت بقوة بإحدى ساقَي والدتها. فقالت إيلي: «إن نيكول لا تزال خجولة. ولا تتحدث إلا إلى الأشخاص الذين تعرفهم.»

أحضر آلي لينكولن صندوقَين صغيرَين من الطعام، وأعطاهما الأب وابنه الشاب الواقفَين في مقدمة طابور المتجر. فقال الوالد للآلي: «لن نحتاج إلى عربة تسوقٍ اليوم. من فضلك دوِّن هذا في سجلك ... إذ إن أحدًا لم يدوِّن تلك المعلومة قبل أسبوعَين عندما حملنا بضاعتنا بأيدينا، ثم فوجئنا بآلي جارسيا يوقظنا في منتصف الليل، ويطلب منا إعادة العربة إلى المتجر.»

فقالت إيلي لنفسها: «يجب أن أتجنَّب الوقوع في جميع الأخطاء التافهة. أخطاء مثل عدم إعادة العربة إلى المتجر، أو أي شيء قد يثير شكوك أحدٍ قبل الصباح.» وبينما كانَت تقف في الطابور، راجعَت تفاصيل خطة الهروب التي ناقشتها هي وباتريك مع ماكس

وإيبونين في اليوم السابق. اختير يوم الخميس لتنفيذ الخطة؛ لأنه اليوم الذي يقوم فيه روبرت بزيارته المعتادة لمرضى «آر في ٤١» في أفالون. تقدم كلٌّ من ماكس وإيبونين بطلبٍ للحصول على تأشيرة مرور لزيارة ناي واتانابي لتناول العشاء معها، وحصلا عليها بالفعل. وسيقومان برعاية كيبلر وجاليليو، عندما تذهب ناي إلى المستشفى من أجل بينجي. كان كل شيء مخططًا، ولم يكن هناك سوى شيء مقلق واحد فقط.

كانت إيلي قد تمرَّنت على ما ستقوله لروبرت مئات المرات. مع ذلك فكرت في نفسها: «لا بد أن رد فعله المبدئي سيكون الرفض. فسيقول إن الأمر محفوفٌ بالمخاطر وإنني أُعرض أمن نيكول للخطر. وسيغضب لأنني لم أخبره منذ البداية.»

وكانت قد أعدَّت في ذهنها إجاباتٍ لجميع اعتراضاته، وأعدَّت وصفًا دقيقًا مشجعًا للحياة التي سيعيشونها في نيويورك. لكنها كانت لا تزال تشعر بالتوتر الشديد. إذ إنها لم تنجح في إقناع نفسها أن روبرت سيوافق على مصاحبتهما. ولم تكن لديها أدنى فكرة عما سيفعله إذا أخبرته أنها ونيكول الصغيرة مستعدتان للرحيل بدونه.

بينما كانت بضاعة إيلي تُوضَع في عربة التسوُّق الصغيرة التي يجب عليها إعادتها إلى المتجر فور إفراغ محتوياتها في منزلها؛ اعتصرَت يد ابنتها الصغيرة. وفكرت في نفسها: «لقد حان الوقت. يجب أن أتحلَّى بالشجاعة. يجب أن أتحلَّى بالإيمان.»

قال روبرت تيرنر: «ماذا توقعت أن يكون رد فعلي؟ عدت إلى المنزل لتوي بعد يوم عملٍ مرهق جدًّا. وعقلي مشغول بمئات الأشياء التي يجب أن أفعلها غدًا، وأنت تخبرينني على العشاء أنكِ تُريدين أن نغادر عدن الجديدة إلى الأبد؟ وأن ننطلق «الليلة»؟ عزيزتي إيلي، الأمر برمته سخيف. حتى إن نجح، فسأحتاج إلى وقتٍ لترتيب أموري … فلديَّ مشاريع …»

قالت إيلي وقد ازداد خوفها من أن تكون قد استهانت بمدى صعوبة مهمتها: «أعلم أن الأمر مفاجئٌ يا روبرت، لكن لم يكن بإمكاني أن أخبرك قبل ذلك. كان الأمر سيصبح أكثر خطورة. ماذا لو أن لسانك زلَّ، وأخبرت إد ستافورد أو أي شخصٍ من فريقك شيئًا، وسمعك مصادفةً أحدُ الكائنات الآلية؟»

هز روبرت رأسه بقوة. وقال: «لكن لا يمكنني الرحيل دون أن أخبر أيَّ أحد … هل لديكِ فكرةٌ عن عدد سنوات العمل التي سأهدرها؟»

فاقترحت إيلي: «ألَا يمكنك تدوين ما يجب القيام به في كل مشروع؟ وربما تلخيص ما أُنجز بالفعل؟»

فأجابها روبرت بلهجةٍ واثقة: «ليس في ليلة واحدة. كلا يا إيلي، الأمر مستحيل، لا يمكننا الرحيل. ربما تعتمد الحالة الصحية في المستوطنة على المدى الطويل على نتائج أبحاثي ... بالإضافة إلى أنني لو سلَّمت أن والدَيكِ يعيشان حياةً مريحةً في ذلك المكان الغريب الذي وصفتِه أينما كان، فإنه، ولا ريب، لا يبدو مكانًا مناسبًا لتربية طفلة ... وأنتِ لم تذكري المخاطر المحتملة التي قد نتعرَّض لها جميعًا. فرحيلنا سيُنظر إليه على أنه خيانة. ومن المحتمل أن نُعدم أنا وأنتِ إذا أُلقيَ القبض علينا. ماذا سيكون مصير نيكول حينها؟»

استمعَت إيلي إلى اعتراضات روبرت لدقيقةٍ أخرى، ثم أدركت أن الوقت حان لكي تبلغه بقرارها. فاستجمعت شجاعتها، ودارت حول المائدة وأمسكت يدَي زوجها. وقالت: «ظللت أفكِّر في الأمر لمدَّة ثلاثة أسابيع تقريبًا يا روبرت ... ولا بد أن تفهم مدى صعوبة هذا القرار عليَّ ... أنا أحبك من كل قلبي، لكن إذا اضطررنا لهذا، فسأرحل أنا ونيكول بدونك ... أنا أعلم أن رحيلنا محفوفٌ بالمخاطر، لكن الحياة هنا في عدن الجديدة غير مناسبةٍ لأيٍّ منا ...»

رد روبرت على الفور وهو يبعد نفسه عن إيلي ويذرع الغرفة بخطواتٍ واسعةٍ قائلًا: «لا، لا، لا. أنا لا أصدق ما تقولين. هذا الأمر برمته ما هو إلا كابوس ...» ثم سكت، ونظر إلى إيلي من الجانب الآخر للغرفة وقال بانفعال: «لا يمكنك اصطحاب نيكول معك. هل تسمعين؟ أنا أمنعكِ من اصطحاب طفلتنا ...»

فقاطعته إيلي بصرخة، وبدأت الدموع تنهمر من عينَيها على وجنتَيها وقالت: «روبرت. انظر إليَّ ... أنا زوجتك أمُّ طفلتك. إنني أحبك. وأرجوك أن «تنصت» إلى ما أقوله.»

كانت نيكول قد دخلت الغرفة تركض، وظلت تبكي بجوار أمِّها. فاستعادت إيلي رباطة جأشها قبل أن تستأنف حديثها قائلة: «أعتقد أنك لست الشخص الوحيد في هذه الأسرة المسموح له باتخاذ القرارات. فأنا أيضًا لديَّ هذا الحق. يمكنني احترام رغبتك في عدم الذهاب، لكنني أمُّ نيكول. وإذا كنا سننفصل، أعتقد أنه من الأفضل لنيكول أن تأتيَ معي ...»

سكتَت إيلي. وارتسم الغضب على وجه روبرت. ثم تقدم خطوةً نحوها، ولأول مرة في حياتها خشيَت إيلي أن يضربَها روبرت.

ثم صاح وهو يرفع قبضته اليمنى: «ومن الأفضل لي أن تنسي هذه الحماقة.»

تراجعت إيلي قليلًا. واستمرَّت نيكول في البكاء، بينما حاول روبرت أن يتمالك نفسه. وقال وصوته يتهدج من الانفعال: «أقسمت ألَّا يؤلمني شخص أو شيء بهذا الشكل مرة أخرى ...»

انهمرت الدموع من عينَيه وهو يقول: «تبًّا.» وضرب بقبضته المنضدة المجاورة. ودون أن يتفوَّه بكلمةٍ أخرى جلس على مقعده ودفن وجهه في كفَّيه.

هدَّأت إيلي نيكول ولم تقُل شيئًا لعدة ثوانٍ. وفي النهاية قالت: «أعلم كم كان مؤلمًا أن تفقد عائلتك الأولى، لكن هذا الموقف مختلف تمامًا يا روبرت. فلا أحدَ سيؤذيني أنا ونيكول.»

اتجهت إيلي إليه وأحاطَته بذراعَيها. وقالت: «أنا لا أقول إن هذا قرارٌ سهل. لكنني مقتنعةٌ أنه أفضل وضعٍ لنيكول ولي.»

احتضن روبرت إيلي بدوره لكن بفتور. وقال باستسلام بعد عدة ثوانٍ: «لن أمنعك أنت ونيكول من الرحيل. لكنني لا أعرف ماذا سأفعل. أحتاج للتفكير في الأمر برمته على مدار الساعات القادمة ونحن في أفالون.»

أجابته إيلي: «حسنًا يا عزيزي، لكن رجاءً لا تنسَ أنني ونيكول نحتاج إليك أكثر من مرضاك. فلا أب وزوج لنا غيرك.»

٩

لم تستطع نيكول أن تخفي حماستها. وأخذت تتخيَّل وهي تضع اللمسات النهائية على غرفة الأطفال ما ستبدو عليه الغرفة عندما يتشارك فيها أطفال البشر وطفلا المخلوقات الطائرة. فتيمي الذي أصبح في طول نيكول تقريبًا شب بجوارها ليعاين ما صنعته يداها. ثم أصدر بعض الأصوات في إعجاب.

فقالت نيكول وهي تعلم أن الطائر لا يستطيع فَهْم ما تقول بالضبط، لكن يمكنه تفهُّم نبرة صوتها: «تخيَّل يا تيمي، عندما أعود أنا وريتشارد سنكون قد أحضرنا لك ثلاثةَ رفقاء ليشاركوك الغرفة.»

وفي تلك اللحظة سمعت ريتشارد وهو يصيح: «هل أنت جاهزة يا نيكول؟ حان الوقت كي نغادر.»

فأجابته: «نعم يا عزيزي. أنا هنا في غرفة الأطفال. لمَ لا تأتي وتلقي نظرة؟»

أدخل ريتشارد رأسه من باب الغرفة، وألقى نظرةً لا مبالية على زينة الغرفة. وقال: «رائع، هذا رائع حقًّا. والآن يجب أن نتحرك. فهذه العملية تتطلب دقة في المواعيد.»

بينما كانا يسيران معًا إلى الميناء، أخبر ريتشارد نيكول أنه لم تَرِده أي تقارير من نصف الأسطوانة الشمالي. وغياب الأخبار قد يشير إلى أن جان وإليانور منشغلتان تمامًا

بعملية الهروب، أو أنهما قريبتان للغاية من عدو، أو أن هناك متاعب في تنفيذ عملية الهروب. لم تتذكَّر نيكول أنها رأت ريتشارد بهذه العصبية من قبل. فحاولت تهدئته.

سألَته بعد مرور بضع دقائق وهما يقتربان من الغواصة: «ما زلنا لا نعرف إن كان روبرت سيأتي معهم، أليس كذلك؟»

«بلى. ولا أي معلوماتٍ عن رد فعله عندما أخبرته إيلي بالخطة. صحيح أنهما ذهبا إلى أفالون كما هو مخطَّط، لكنهما كانا مشغولَين مع مرضاه. ولم تحظَ جان وإليانور بفرصةٍ للحديث مع إيلي، بعد أن ساعدتا ناي في إخراج بينجي من المستشفى.»

كان ريتشارد قد تفحص الغواصة مرتَين على الأقل في اليوم السابق. ومع ذلك تنهد بارتياح عندما عمل نظام التشغيل جيدًا وشقت المركبة المياه. ساد الصمت بين نيكول وريتشارد عندما غمرتهما مياه البحر الأسطواني. كان كلٌّ منهما يتطلَّع إلى اجتماع الشمل المفعم بالعواطف الذي سيحدث خلال أقلَّ من ساعة.

تساءلت نيكول في نفسها: «هل ثمَّة سعادة تفوق سعادة المرء لحظة اجتماعه بأبنائه الذين كان يتوقَّع ألَّا يراهم قطُّ مرة أخرى؟» وبدأت صور أبنائها الستة تتوارد إلى ذهنها ببطء. رأت صورة جنيفياف طفلتها الأولى التي وضعتها على كوكب الأرض بعد علاقتها بالأمير هنري. يليها ابنتها الهادئة سيمون التي تركتها على نود مع زوجٍ يكبرها بستين عامًا. ثم استحضر عقلها بعد ذلك صور أطفالها الأربعة الذين لا يزالون يعيشون في راما، ابنتها المتمردة كيتي، والغالية إيلي وابنيها اللذين أنجبتهما من مايكل أوتول؛ باتريك، وبينجي المعاق ذهنيًّا. وقالت لنفسها: «كلهم مختلفون اختلافًا كبيرًا، وكلٌّ منهم معجزة فريدة.»

فكرت والغواصة تقترب من النفق الموجود أسفل حائط كان في أحد الأيام موطن المخلوقات الطائرة واللاسويقية: «أنا لا أُومِن بالحقائق الكونية الثابتة، لكن لا يمكن أن يكون هناك الكثير من البشر الذين مرُّوا بتجربة الأبوَّة الفريدة دون أن تكون هذه التجربة غيَّرتهم. نتساءَل جميعًا وأطفالنا ينضجون عما فعلنا، أو لم نفعل، وهل أسهمنا، أو انتقصنا من سعادة هذه الكائنات المميزة التي جئنا بها إلى العالم؟»

كان الانفعال والإثارة اللذان تشعر بهما نيكول يسيطران على كيانها بالكامل. نظر ريتشارد إلى ساعته، ثم بدأ يُناور بالغواصة إلى المكان المحدد للقاء. في أثناء ذلك استرجعَت ذكرياتها الأخيرة مع إيلي وباتريك وبينجي ففرَّت الدموع من عينَيها. مدَّت يدها واعتصرت يد زوجها التي لا يستعملها في القيادة، بينما شقَّت غواصتهما سطح الماء.

من خلال النافذة رأيا ثمانية أشخاصٍ يقفون على الشاطئ في المكان المحدَّد. وعندما انحسرَت المياه عن النافذة ميَّزت نيكول إيلي وزوجها روبرت وإيبونين وناي وهي تُمسك يد بينجي، وثلاثة أطفال صغار من بينهم حفيدتها التي تحمل اسمها والتي لم ترَها من قبل. دقَّت على النافذة مع علمها أن ما تفعل لا معنى له، فهي تدرك أنه ليس بإمكان أي شخصٍ على الشاطئ أن يراها أو يسمعها.

وفور أن فتح ريتشارد ونيكول الباب، سمعا صوت طلقاتٍ نارية. فألقى روبرت تيرنر نظرةً خاطفةً خلفه، ثم رفع نيكول الصغيرة سريعًا من فوق الأرض. وكذلك حملت كلٌّ من إيلي وإيبونين التوءمَين. قاوم جاليليو إيبونين لكن والدته ناي وبَّخته وهي تحاول أن تقود بينجي إلى الغواصة.

وحينما كانت المجموعة تعبر إلى الغواصة دوت طلقاتٌ ناريةٌ مرة أخرى. لكنها كانت أقرب هذه المرة، ولم يكن هناك وقت للعناق. فقالت إيلي بسرعةٍ لوالدَيها: «نصحنا ماكس بأن نغادر فور دخولنا جميعًا. سيعيق هو وباتريك الجنود الذين أُرسِلوا للقبض علينا.»

كان ريتشارد يستعدُّ لإغلاق الباب عندما اندفع شخصان مسلَّحان من بين شجيراتٍ قريبةٍ يمسك أحدهما بجنبه. صاح باتريك وهو يحمل بندقيته ويطلق النيران منها مرتَين: «استعدوا للرحيل. إنهم خلفنا تمامًا.»

تعثَّر ماكس لكن باتريك حمل تقريبًا صديقه المصاب مسافة الخمسين مترًا الأخيرة التي تفصلهما عن الغواصة. وأطلق ثلاثةٌ من جنود المستوطنة النارَ على الغواصة وهي تغوص في مياه الخندق المائي. وللحظةٍ لم ينبس أيٌّ من الأشخاص على متن الغوَّاصة ببنت شفة. وفجأةً امتلأَت المقصورة الصغيرة بأصواتٍ عاليةٍ متداخلة. كان الجميع يصيحون ويبكون. وانحنى كلٌّ من نيكول وروبرت نحو ماكس الذي كان يجلس وهو يسند ظهره إلى الحائط.

سألته نيكول: «هل إصابتك خطيرة؟»

فأجابها ماكس بحماسة: «كلا. هناك رصاصة واحدة في مكانٍ ما في أحشائي. لكن التخلص من شخصٍ قويٍّ مثلي يحتاج لأكثر من هذا بكثير.»

عندما وقفت نيكول واستدارت كان بينجي خلفها تمامًا. قال وهو يمد ذراعيه نحوها وجسده الضخم يرتعد من السعادة: «ماما.» فتعانقت نيكول وبينجي عناقًا طويلًا في وسط المقصورة. وعبَّرت دموع السعادة التي انهمرت من عينَي بينجي عن الإحساس الذي سيطر على جميع مَن على متن الغواصة.

بدا الوافدون الجدد وهم على متن الغواصة كأنهم عالقون بين عالَمَين غريبَين، وكان معظم الحوار الذي يدور بينهم شخصيًّا. إذ قضت نيكول دقائق خاصة مع كلٍّ من أولادها واحتضنت حفيدتها لأول مرة. ولم تعرف نيكول الصغيرة ماذا تفعل بشأن تلك السيدة بيضاء الشعر التي أرادت أن تحتضنها وتقبِّلها. فقالَت إيلي محاولةً أن تقنع الطفلة أن تتجاوب مع مشاعر نيكول: «هذه جدتكِ يا نيكول. إنها والدتي يا نيكي، واسمها مثل اسمكِ بالضبط.»

كان لدى نيكول خبرةٌ كافيةٌ في التعامل مع الأطفال؛ كي تفهم أن الطفلة ستستغرق بعض الوقت كي تتقبَّلها. وفي البداية كان هناك بعض الارتباك بسبب الاسم المشترك، فكلما قال شخص: «نيكول» كانت الجدة وحفيدتها كلتاهما تنظران. لكن بعد أن بدأت إيلي وروبرت يستخدمان اسم نيكي للطفلة، سار الجميع على نهجهما.

وقبل أن تصل الغوَّاصة إلى نيويورك، كان بينجي يُري والدته كيف أن قدرته على القراءة تحسنت كثيرًا. كانت ناي أستاذةً رائعة. وكان بينجي قد أحضر معه في حقيبة ظهره كتابَين؛ الأول مجموعة قصصية لهانز كريستيان أندرسن كُتبت قبل ثلاثة قرون. وكانَت قصة بينجي المفضلة هي «البطة القبيحة» التي قرأها كاملةً ووالدته السعيدة ومعلمته تجلسان بجواره. وعندما تحولت البطة المنبوذة إلى بجعةٍ جميلةٍ ظهر في صوته نبرة سعادة صادقة.

عندما انتهى بينجي من القراءة، قالت نيكول: «أنا فخورة جدًّا بك يا عزيزي.» ثم التفتت إلى صديقتها وقالت: «أشكركِ من أعماق قلبي يا ناي.»

فأجابتها السيدة التايلندية: «أمتعني العمل مع بينجي للغاية. كنت قد نسيت شعور الإثارة التي يشعر بها المرء عند تعليم طالبٍ يهتمُّ حقًّا ويقدر معلمه مثل بينجي.»

نظَّف روبرت تيرنر جرح ماكس باكيت، وأخرج الرصاصة من جسده. وكان طفلا آل واتانابي البالغان من العمر خمس سنواتٍ يراقبان العملية عن كثب، وكانا مفتونَين بما شاهداه داخل جسد ماكس. كان جاليليو العدواني بطبعه يدفع شقيقه لكي يقف في المكان الذي يتيح له رؤية أفضل، وكان على ناي أن تفصل بين التوءمَين في نزاعَين حسمَتهما لمصلحة كيبلر.

أكَّد دكتور تيرنر على كلام ماكس، فالجرح لم يكن خطيرًا، ونصحه بالراحة لمدةٍ قصيرة للتماثل للشفاء.

فقال ماكس وهو يغمز بعينه لإيبونين: «أظن أنه عليَّ أن أرتاح قليلًا. وهذا ما كنت أخطط للقيام به على أي حال. لا أظن أنه سيكون هناك الكثير من الخنازير أو الدجاج في مدينة ناطحات السحاب الفضائية هذه. وأنا لا أعرف شيئًا عن الكائنات الآلية.»

دار حوار قصير بين نيكول وإيبونين قبل أن تصل الغواصة إلى الميناء، شكرت فيه نيكول معلمة إيلي السابقة جزيل الشكر على كل شيء فعلته هي وماكس من أجل العائلة. تلقت إيبونين شكرها بسعادة، وأخبرت نيكول أن باتريك كان «أكثر من رائع» في مساعدتهم في جميع أجزاء خطة الهروب. وقالت لها: «أصبح شابًّا رائعًا.»

بعد بضع لحظات سألت نيكول إيبونين بصوت حانٍ: «كيف حال صحتكِ الآن؟»

هزَّت المرأة الفرنسية كتفَيها. وقالت: «الطبيب يقول إن فيروس «آر في ٤١» لا يزال كامنًا ينتظر فرصة للسيطرة على جهاز مناعتي. ومتى يحدث ذلك يكن أمامي ما بين ستة أشهر وعام أعيشها.»

أبلغ باتريك ريتشارد أن جان وإليانور حاولتا خداع قوات ناكامورا بإحداث ضوضاء شديدة كما جرى برمجتهما، ومن المؤكد أن القوات أمسكت بهما ودمرتهما.

قالت نيكول لريتشارد في لحظة حميمية نادرة جمعتهما على متن الغواصة: «أنا آسفة لما حدث لجان وإليانور. أعلم جيدًا كم كانتا تعنيان لك.»

فأجابها ريتشارد: «لقد حققتا الهدف من صنعهما.» ثم أضاف مجبرًا نفسه على الابتسام: «ألم تخبريني ذات مرة أنهما ليستا مثل البشر؟»

فاقتربت نيكول من زوجها وقبلته.

لم يكن أيٌّ من الهاربين الجدد قد زار نيويورك بعد أن كبر. إذ وُلد أطفال نيكول الثلاثة على الجزيرة وعاشوا فيها بداية مرحلة طفولتهم، لكن بالطبع يختلف إدراك الطفل للمكان عن الشخص البالغ اختلافًا كبيرًا. كان الشعور بالرهبة يسيطر على إيلي وباتريك وبينجي عندما وطئت أقدامهم الشاطئ، ورأوا الظلال الطويلة الرفيعة التي تكاد تلامس سماء راما في الظلام.

أما ماكس باكيت فلم يتفوه بكلمة على غير عادته. وقف إلى جوار إيبونين يمسك يدها، ويحدِّق ببلاهةٍ في الأبراج الرفيعة الشاهقة التي ترتفع لأكثر من مائتَي مترٍ فوق الجزيرة. ثم قال في النهاية وهو يهزُّ رأسه: «هذا كثيرٌ للغاية على مُزارع من ولاية آركنسو.» سار ماكس وإيبونين في نهاية الموكب الذي كان يشقُّ طريقه إلى المخبأ الذي حوله ريتشارد ونيكول إلى مسكنٍ يصلح لأن يضمَّ عائلة كبيرة.

سأل روبرت تيرنر ريتشارد عندما توقفت المجموعة قليلًا أمام بناء عملاق متعدد الجوانب: «من شيَّد كل هذا؟» كان قلق روبرت وخوفه يتزايدان باستمرار. إذ كان مترددًا في البداية في الذهاب مع إيلي ونيكي، وكان اقتناعه بأنه ارتكب خطأً جسيمًا يزيد بسرعة بداخله.

أجابه ريتشارد قائلًا: «غالبًا المهندسون في النود. لكننا لا نستطيع الجزم بهذا. أضفنا — نحن البشر — مبانيَ جديدةً في موطننا. ومن الممكن أن يكون الأشخاص — أو الأشياء — الذين عاشوا هنا قبل وقت طويل، هم من شيَّدوا بعض أو كل هذه المباني المذهلة.»

فسأله روبرت، وقد بدأ الخوف يتسلَّل إلى نفسه من احتمال أن يقابل مخلوقات تمتلك الخبرة التكنولوجية التي يتطلبها بناء مثل هذه الصروح الرائعة: «وأين هم الآن؟»

«ليس بوسعنا أن نعرف. فطبقًا لما قاله الرجل النسر ظلت مركبة راما الفضائية تقوم برحلات لآلاف السنين؛ لاكتشاف الأجناس الأخرى التي تعيش في الفضاء. فربما يكون هناك في مكانٍ آخر في الجزء الخاص بنا من المجرة كائناتٌ أخرى تعيش في بيئةٍ كهذه. أما ماهية تلك الكائنات، وسبب رغبتها في أن تعيش في ناطحات السحاب؛ فهو لغز على الأرجح لن نتمكن من حلِّه قط.»

سأله باتريك: «ماذا عن المخلوقات الطائرة وكائنات الأوكتوسبايدر يا عمي ريتشارد. هل لا يزالون يعيشون هنا في نيويورك؟»

«لم أرَ أيَّ مخلوقاتٍ طائرة على الجزيرة منذ وصلت إليها، بالطبع ما عدا الفرخَين اللذَين نربيهما. لكن لا يزال هناك كائنات أوكتوسبايدر. قابلت أنا ووالدتك بعضًا منها عندما كنا نستكشف المكان خلف الحاجز الأسود.»

في تلك اللحظة خرج كائن آلي متعدد الأرجل من زقاق جانبي، واقترب من المجموعة. أضاء ريتشارد مصباحه الكهربي في اتجاهه. وتجمد روبرت تيرنر للحظة من الخوف، لكنه اتبع تعليمات ريتشارد، وتحرك بعيدًا عن طريق الكائن الآلي الذي تحرك بجانبه.

زمجر روبرت وقال: «ناطحات سحاب شيدتها أشباح، وكائنات أوكتوسبايدر، وكائنات آلية متعددة الأرجل. يا له من مكانٍ رائع!»

فقال ريتشارد: «في رأيي إنه أفضل كثيرًا من العيش في ظل حكم طاغية مثل ناكامورا. على الأقل نحن أحرار هنا ويمكننا اتخاذ قراراتنا بأنفسنا.»

صاح ماكس باكيت من آخر الصف: «ويكفيلد. ماذا سيحدث إذا لم نفسح الطريق لأيٍّ من هذه الكائنات الآلية المتعددة الأرجل؟»

أجابه ريتشارد: «لا أعلم بالضبط يا ماكس. لكنها على الأرجح ستتخطاك أو تدور حولك بطريقةٍ ما كما لو كنت جمادًا.»

عندما وصلوا إلى المخبأ، قامت نيكول بدور المرشدة التي تقود المجموعة هذه المرة. اصطحبت بنفسها كل فرد ليرى غرفته. كانت هناك غرفة واحدة لماكس وإيبونين وأخرى لإيلي وروبرت وغرفة يقسمها حاجز إلى جزأين لباتريك وناي، أما غرفة الأطفال فقد قُسمت إلى أجزاء أصغر؛ بحيث تمنح مساحة وخصوصية لكلٍّ من بينجي والأطفال الثلاثة والطائرَين، وقرر ريتشارد ونيكول أيضًا استخدام المساحة الصغيرة المتاخمة لغرفة نومهما؛ لتكون غرفة تناول طعام للمجموعة بأكملها.

وبينما كان الكبار يفرغون أمتعتهم القليلة التي جاءوا بها في حقائب الظهر، قابل الأطفال تامي وتيمي للمرة الأولى. لم يعرف الطائران ماذا يفعلان مع البشر الصغار، ولا سيما جاليليو الذي أصرَّ على جَذْب أو قَرْص أي شيء تصل إليه يداه. وبعد مرور ما يقرب من ساعةٍ وهو يعاملهما بهذه الطريقة، خدش تيمي جاليليو خدشًا بسيطًا بأحد براثنه على سبيل التحذير، لكن الصبي أثار ضجيجًا شديدًا.

فقال ريتشارد لناي معتذرًا: «أنا لا أعلم ما أصابهما. إن الطائرَين لطيفان حقًّا.»

فأجابته ناي: «أما أنا فأعلم. لا بد أن جاليليو كان على وَشْك أن يؤذيَهما.» ثم تنهدت وأردفت: «لكن أتعرف، إنه لأمرٌ مدهش حقًّا أن تربي طفلَين بالطريقة نفسها، ثم يصبحا مختلفَين بهذا الشكل. فكيبلر طيب وكأنه ملاك، ولا أستطيع أن أعلمه الدفاع عن نفسه. أما جاليليو فلا يعير أيَّ شيءٍ أقوله أي اهتمام تقريبًا.»

عندما انتهى الجميع من إفراغ أغراضهم، أكملت نيكول الجولة لتريهم الحمامَين والأروقة والصهاريج المعلقة التي عاشت فيها الأسرة، طوال المدة التي كانت فيها راما تسافر بسرعةٍ قصوى بين الأرض والنود، وأخيرًا الغرفة البيضاء التي تحوي الحاجز الأسود ولوحة المفاتيح، والتي كانت أيضًا غرفة نوم نيكول وريتشارد. وأراهم ريتشارد كيف يعمل الحاجز الأسود، إذ طلب بعض الألعاب الجديدة البسيطة للأطفال واستلمها بعد ساعةٍ تقريبًا. وأعطى روبرت وماكس نسخةً من قاموس للأوامر القصيرة تساعدهما في استخدام لوحة المفاتيح.

وبعد تناول العشاء نام الأطفال كلهم تقريبًا. وتجمع الكبار في الغرفة البيضاء. طرح ماكس أسئلة عن كائنات الأوكتوسبايدر. وبينما كانت نيكول تصف لهم المغامرة التي

مرُّوا بها خلف الحاجز الأسود، ذكرت المشكلات التي واجهها قلبها. أبدى روبرت قلقه على حالتها، وفحصها بعدها بقليلٍ في غرفتها.

ساعدت إيلي روبرت في فحص والدتها. وكان روبرت قد أحضر معه ما استطاع من أدوات طبية عملية في حقيبة ظهره، بما في ذلك الأدوات المصغرة والشاشات اللازمة لعمل رسم قلب كامل. لم تكن النتائج جيدة، لكنها ليست سيئة بقدر ما كانت نيكول تخشى. وقبل الذهاب إلى الفراش، أخبر روبرت باقي أفراد العائلة أن السنوات الطوال أثَّرت في قلب نيكول، وأبلغهم أنه لا يعتقد أنها ستحتاج إلى جراحةٍ في المستقبل القريب. ونصح نيكول بألَّا ترهق نفسها، مع أنه كان يعرف أن والدة زوجته ستتجاهل تحذيره على الأرجح.

بعد أن غرق الجميع في سباتٍ عميق، حرَّك ريتشارد ونيكول الأثاث لإفساح مكانٍ لفراشَيهما. واستلقيا جنبًا إلى جنب ويداهما متشابكتان. سألها ريتشارد: «هل أنت سعيدة؟»

فأجابَته: «نعم، سعيدة جدًّا. إنه لرائع حقًّا أن يكون جميع الأطفال هنا.» ثم اقتربَت منه وقبَّلته. وقالت: «أنا مرهقةٌ جدًّا يا زوجي، لكنني لن أخلد للنوم دون أن أشكرَك أولًا لأنك رتبت لكل هذا.»

فقال ريتشارد: «إنهم أولادي أيضًا.»

فقالت نيكول وهي تعود لتستلقي على ظهرها: «نعم يا حبيبي. لكنني أعلم أنك لم تكن ستفعل كل هذا لولاي، كنت سترضى بالبقاء هنا مع الفرخَين وآلاتك والألغاز الفضائية.»

قال ريتشارد: «ربما، لكنني سعيد أيضًا لأن الجميع هنا في مخبئنا ... وعلى ذكر الجميع هل واتتك الفرصة للتحدث مع باتريك عن كيتي؟»

فأجابته نيكول وهي تتنهد: «لوقت قصير فقط. ويمكنني القول مما رأيته في عينَيه إنه لا يزال قلقًا عليها.»

فأجابها ريتشارد برفق: «ألسنا جميعًا كذلك؟» صمتا لدقائق قليلة ثم اعتدل ريتشارد واستند إلى مرفقه. وقال: «أريد أن أخبرك أنني أرى أن حفيدتنا رائعة.»

فأجابته نيكول وهي تضحك: «وأنا أيضًا، لكن قد يعتبرنا البعض متحيزَين في هذا الشأن.»

«مهلًا، هل يعني وجود نيكي معنا أنني لا يمكنني أن أناديك نيكي، ولو في لحظاتنا الخاصة؟»

أدارت نيكول رأسها لتنظر إلى ريتشارد. كانت تعلو وجهه ابتسامة عريضة رأتها نيكول على وجهه عدة مرات. قالت وهي تطلق ضحكة قصيرة أخرى: «نم يا ريتشارد. أنا مرهقة عاطفيًّا للغاية لكي أقوم بأي شيء الليلة.»

في البداية كان الوقت يمر سريعًا للغاية. كان هناك الكثير من الأمور للقيام بها، والكثير من الأماكن الرائعة لاستكشافها. ومع أن الظلام كان يخيم باستمرار على المدينة الغامضة فوقهم، كانت العائلة تقوم برحلات استكشافية منتظمة إلى نيويورك. وكان لكل مكان على الجزيرة قصة خاصة يرويها ريتشارد ونيكول. قالت نيكول بعد ظهر أحد الأيام، وهي توجه مصباحها الكهربي إلى الشِّبَاك العملاقة المعلقة بين ناطحتَي سحاب وكأنها شباك عنكبوت: «أنقذت المخلوق الطائر الذي وقع في الشباك هنا، والذي دعاني بعد ذلك إلى مخبئه.»

وقالت في مناسبة أخرى عندما كانوا في الحظيرة الكبيرة، بحفرها المميزة وأجسامها الكروية: «علقت هنا لعدة أيام وظننت أني سألقى حتفي.»

وضعت العائلة الكبيرة مجموعة من القواعد لمنع الأطفال من الوقوع في المشكلات. لكنها لم تكن ضرورية لنيكي الصغيرة التي نادرًا ما كانت تبتعد عن والدتها وجدها الشغوف بها. لكن كان من الصعب السيطرة على الصبيَّين كيبلر وجاليليو. كانت طاقة التوءَمين لا تنضب، وفي إحدى المرات وجدوهما يقفزان على الأرجوحات الشبكية في الصهاريج المعلقة، كما لو أنها ترامبولين. ومرةً أخرى «اقترض» جاليليو وكيبلر المصابيح الكهربية التي تستخدمها العائلة، وصعدا لأعلى دون أن يرافقهما أحدٌ لاستكشاف نيويورك. ولم تعثر عليهما العائلة إلا بعد مرور عشر ساعاتٍ من التوتر والقلق، عندما وجداهما في متاهة الأزقة والشوارع على الجانب الآخر من الجزيرة.

كان الطائران يتدرَّبان على الطيران كل يومٍ تقريبًا. وكان الأطفال يسعدون وهم يصطحبون صديقَيهما الشبيهَين بالطيور إلى الساحات العامة؛ حيث كانت المساحة كبيرةً أمام تامي وتيمي كي يُظهرا مهاراتهما المتنامية. وكان ريتشارد يحرص على اصطحاب نيكي لتشاهد الطائرين وهما يحلقان. في الواقع كان يصطحب حفيدته معه في كل مكان يذهب إليه. ومن وقت لآخر كانت نيكي تسير، لكن في معظم الأوقات كان ريتشارد يحملها في أداة تشبه حقيبة حمل الأطفال ثبتها على ظهره. أصبح الاثنان لا يفترقان. وأصبح ريتشارد المعلم الأساسي لنيكي كذلك. وأعلن ريتشارد للجميع في وقت مبكر أن حفيدته عبقرية في الرياضيات.

وفي المساء كان يمتع نيكول بسرد أحدث إنجازات نيكي. فيقول بعد أن يصبح هو ونيكول وحدهما في الفراش: «هل تعلمين ماذا فعلت اليوم؟»

وتكون إجابة نيكول المعتادة هي: «كلا يا عزيزي» وهي تعلم أنها لن تنام هي أو ريتشارد حتى يخبرها.

فيقول: «سألتها كم سيصبح عدد الكرات السوداء التي ستكون معها إذا أعطيتها اثنتَين وهي معها ثلاث.» ويتوقف عن الحديث قليلًا بأسلوب تشويقي. ثم يقول: «هل تعلمين ماذا كانت إجابتها؟» ثم يتوقَّف مرة أخرى لإثارة فضولها. ثم يقول: «خمسًا! قالت خمسًا. تخيلي أن هذه الفتاة الصغيرة أتمت عامها الثاني الأسبوع الماضي.»

كانت نيكول سعيدة باهتمام ريتشارد بنيكي، فكانت علاقة الفتاة الصغيرة والرجل الكهل مناسبة تمامًا. فريتشارد الأب لم يستطع قط التغلب على مشكلاته العاطفية المكبوتة وإحساسه الشديد بالمسئولية، وكانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي يتذوق فيها متعة الحب البريء. ومن ناحية أخرى فإن روبرت والد نيكي طبيب عظيم، لكنه ليس شخصًا دافئ المشاعر، ولم يستطع أن يدرك قيمة أوقات الفراغ التي يجب أن يقضيها الآباء مع أطفالهم.

دار بين باتريك ونيكول العديد من الأحاديث الطويلة عن كيتي، وكانت جميعها تبعث في نيكول شعورًا بالإحباط الشديد. فباتريك لم يُخفِ عن والدته أن كيتي متورطةٌ للغاية في جميع مؤامرات ناكامورا، وأنها تفرط في احتساء الخمر، وأنها تواعد الكثير من الرجال. لكنه لم يخبرها أنها تتولَّى إدارة أعمال الدعارة التابعة لناكامورا، أو أنه يشكُّ في أن شقيقته أصبحت مدمنة مخدرات.

١٠

استمرت العائلة في حياتها الهادئة الجميلة في نيويورك حتى صباح أحد الأيام، عندما كان ريتشارد ونيكي بالأعلى معًا بمحاذاة السور الشمالي للجزيرة. في الواقع كانت الفتاة الصغيرة هي من رأت ظلال السفن في ضوء راما الباهت. فأشارت إلى المياه المظلمة. وقالت: «انظر بوبا، نيكي ترى شيئًا.»

لم تستطع عينا ريتشارد الضعيفتان رؤية أي شيء في الظلام، ولم يكن شعاع مصباحه يصل إلى هذه المسافة البعيدة، ليلقي الضوء على الشيء الذي رأته نيكي. فأخذ

ريتشارد المنظار المعظم الذي يحمله معه دائمًا، وتأكَّد بالفعل من وجود باخرتَين في وسط البحر الأسطواني. فوضع نيكي في الحامل على ظهره وأسرع بها إلى المخبأ.

كان باقي أفراد العائلة قد استيقظوا من النوم لتوهم، ووجدوا صعوبة في البداية في استيعاب سبب قلق ريتشارد. قال لهم: «لكن مَن غيرهم قد يأتي في مركب؟ خاصة في الجزء الشمالي. لا بد أنها فرقة استطلاعية أرسلها ناكامورا.»

عقدت العائلة مجلسًا على الإفطار. واتفق الجميع على أنهم يواجهون أزمة خطيرة. وعندما اعترف باتريك أنه رأى كيتي يوم الهروب؛ لأنه أراد في المقام الأول أن يودعها، وأنه قال بعض التعليقات غير المعتادة التي دفعَت كيتي إلى أن تبدأ في طرح الأسئلة، خيَّم الصمت على نيكول والآخرين.

فقال باتريك معتذرًا: «لم أقل شيئًا محددًا، لكن لا يزال من الغباء أن أفعل شيئًا كهذا ... كيتي ذكية للغاية. ومن المؤكد أنها بعد اختفائنا جميعًا تمكنت من ربط الخيوط ببعضها.»

سأل روبرت تيرنر سؤالًا يعبِّر عما يجيش بصدورهم جميعًا من قلق وخوف فقال: «لكن ماذا سنفعل الآن؟ إن كيتي تعرف نيويورك جيدًا. كانت في عمر المراهقة تقريبًا عندما رحلت من هنا، ويمكنها أن تقود رجال ناكامورا إلى المخبأ مباشرة. سنكون أهدافًا سهلةً لهم هنا.»

فسأل ماكس: «هل هناك مكانٌ آخر يمكن أن نذهبَ إليه؟»

أجابه ريتشارد: «في الواقع لا يوجد. إن مخبأ الطيور القديم خاوٍ، لكنني لا أعلم كيف سنتمكَّن من إطعام أنفسنا هناك. وكان مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر خاليًا عندما زرته قبل عدَّة شهور، لكنني لم أدخل إلى منطقتهم منذ وصلت نيكول إلى نيويورك. يجب أن نفترض بالطبع، بناءً على ما حدث عندما ذهبت أنا ونيكول في الرحلة الاستكشافية، أن أصدقاءنا ذوي اللوامس السوداء والذهبية لا يزالون موجودين. حتى إن كانوا لا يعيشون في مخبئهم القديم، فستواجهنا المشكلة نفسها؛ وهي الحصول على الطعام إذا انتقلنا إلى هناك.»

فسأله باتريك: «ماذا عن المنطقة خلف الحاجز يا عمي ريتشارد؟ قلت إن طعامنا يصنَّع هناك. ربما نجد بعض الغرف هناك ...»

قال ريتشارد بعد صمت قصير: «إنني غير متفائل، لكن اقتراحك على الأرجح هو الخيار المعقول الوحيد أمامنا في الوقت الراهن.»

قررت العائلة أن يذهب ريتشارد وماكس وباتريك لاستطلاع المنطقة خلف الحاجز الأسود، كي يكتشفوا مكان صنع طعام البشر بالضبط، ويقرِّروا إذا كانت هناك منطقةٌ

أخرى تصلح للسكن. وسيظل روبرت وبينجي والنساء والأطفال في المخبأ. كانت مهمتهم هي البدء في الإعداد للإخلاء السريع للمكان، في حالة اضطروا لذلك.

وقبل الخروج انتهى ريتشارد من اختبار نظام جهاز اتصال لا سلكي جديد، كان قد صمَّمه في وقت فراغه. وكان قويًّا بما يكفي لأن يتمكَّن فريق الاستكشاف، وباقي أفراد العائلة من التواصل عَبْر جهاز الاتصال طوال المدة التي سينفصلون فيها. وسهل وجود الاتصال اللاسلكي مهمة ريتشارد ونيكول في إقناع ماكس باكيت بأن يترك بندقيته في المخبأ.

لم يواجه الرجال الثلاثة أي صعوبة في تتبع الخريطة المحفوظة على كمبيوتر ريتشارد، والوصول إلى غرفة المراجل التي زارها ريتشارد ونيكول في رحلتهما الاستكشافية السابقة. حدَّق ماكس وباتريك بدهشةٍ في الاثني عشر مرجلًا الضخم، والمساحة الشاسعة التي تضمُّ المواد الخام المنظمة بإتقان، والكائنات الآلية المختلفة التي تعدو هنا وهناك. كان كل شيء في المصنع يعمل بنشاط. وكان كل مرجلٍ من المراجل يشترك في عملية تصنيع من نوع ما.

قال ريتشارد لنيكول الماكثة في المخبأ عبر جهاز اللاسلكي: «حسنًا. نحن هنا ومستعدون. أعطِي أمرًا بتجهيز العشاء وسنرى ما سيحدث.»

وبعد أقل من دقيقة أنهى أقرب المراجل للرجال الثلاثة ما كان يفعله. وفي غضون ذلك تحركت ثلاثة كائناتٍ آلية، تُشبه سيارات صندوقية لها أذرع من نقطةٍ ليست ببعيدة عن الكوخ الموجود وراء المراجل متجهة نحو مجموعات المواد الخام المنظمة، والتقطت بسرعةٍ كميات قليلة من العديد من المواد المختلفة. بعد ذلك اجتمعت الكائنات الآلية الثلاثة عند المرجل غير النشط بالقرب من ريتشارد وماكس وباتريك، وأفرغت حاوياتها على السير المتحرِّك الذي يدخل إلى المرجل. وعلى الفور سمع الرجال الثلاثة المرجل وهو يبدأ في العمل بنشاط. وعندما كانَت عملية التصنيع القصيرة على وَشْك أن تنتهي، زحف صاعدًا على السير المتحرك كائنٌ آلي طويل نحيف يشبه ثلاثة جداجد مربوطة معًا في صف، لدى كلٍّ منها درع على شكل إناء. وبعد لحظاتٍ توقَّف المرجل مرة أخرى، وخرجت المواد المصنعة على السير المتحرك. أخرج الجدجد الآلي المجزأ مغرفةً من طرفه، ووضع الطعام المعد للبشر على ظهره وانطلق مبتعدًا.

قال ماكس وهو يرى الجدجد الآلي يسير مبتعدًا في الرواق خلف الكوخ: «هذا مذهل.» وقبل أن يتفوَّه أيٌّ من الرجال بكلمة واحدة، حمَّلت مجموعةٌ أخرى من الكائنات الآلية

الشبيهة بالسيارة الصندوقية ذات الأذرع؛ السيورَ المتحركة بأعوادٍ طويلة سميكة، وفي أقل من دقيقة كان المرجل الذي صنع لهم الطعام يصنع شيئًا آخر.

هتف ريتشارد بحماسة: «يا له من نظام رائع! لا بد أنه يعمل وفق نظامٍ معقد للتعامل مع عمليات التوقف المفاجئة، وعلى رأسها طلبات الطعام. لا أصدق ...»

وهنا قاطعه ماكس قائلًا: «انتظر لحظة، وأعِد ما قلته بلغةٍ مفهومة.»

قال ريتشارد بانفعال: «لدينا في المخبأ نظم فرعية للترجمة الأوتوماتيكية، صممتها عندما كنا هنا قبل سنوات. وعندما أدخلت نيكول طلب الدجاج والبطاطس والسبانخ في الكمبيوتر، ظهرت قائمةٌ من أوامر لوحة المفاتيح تمثِّل المواد الكيميائية المعقدة في هذه الأنواع المحددة من الطعام على جهاز إخراج المعلومات لديها. وبعد أن أرسلتُ إليها إشارةً أننا جاهزون، كتبت تلك السلسلة من الأوامر على لوحة المفاتيح. ووصلت الأوامر على الفور، وما رأيناه هنا كان الاستجابة على الأوامر. وفي ذلك الوقت كانت أنظمة المعالجة جميعها نشطة، غير أن الجهاز المقابل للكمبيوتر عندنا، الذي يستخدمه سكان راما في هذا المصنع، تعرَّف أن الطلب القادم كان من أجل الطعام، فجعله على رأس قائمة أولوياته.»

فقال باتريك: «هل تعني يا عمي ريتشارد أن كمبيوتر التحكم هنا أوقف المرجل العامل حتى يقوم بتصنيع غذائنا؟»

قال ريتشارد: «نعم، هذا ما حدث بالفعل.»

كان ماكس قد ابتعد قليلًا، وكان يُحملق في المراجل الأخرى في المصنع الضخم. فسار ريتشارد وباتريك إليه.

قال ماكس: «عندما كنت صبيًّا صغيرًا في الثامنة أو التاسعة من عمري، ذهبت أنا ووالدي في أول رحلة تخييم ليلية في أعلى منطقة أوزاركس الجبلية التي تبعد عدة ساعات من مزرعتنا. كانت ليلة رائعة والسماء مليئة بالنجوم. أذكر أنني كنت نائمًا على ظهري على حقيبة التخييم، محدقًا في تلك الأضواء المتلألئة الصغيرة في السماء ... وفي تلك الليلة داعبت ذهني فكرة أعمق من أن تجول بذهن طفل من آركنسو يعيش في مزرعة. تساءلت عن عدد الأطفال في الفضاء الخارجي الذين يتطلعون إلى نجوم الكون في تلك اللحظة بالذات، ويدركون لأول مرة أن عالمهم صغير جدًّا مقارنة بالنظام الكوني بأكمله.»

التفت ماكس وابتسم لصديقَيه. وقال وهو يضحك: «كان ذلك هو أحد الأسباب التي دفعتني أن أبقى مزارعًا. فأنا مهم جدًّا للدجاج والخنازير التي أربيها. فأنا أحضر لها طعامها، ويكون وصول العجوز ماكس إلى حظيرتها حدثًا كبيرًا ...»

وتوقف للحظة. لم يتفوَّه أيٌّ من ريتشارد أو باتريك بكلمة. فاستأنف هو قائلًا: «أظن أنني في أعماقي دائمًا ما أردت أن أكون عالم فلك؛ لأرى إذا كان بإمكاني فهم ألغاز الكون. لكن في كل مرة فكرت فيها في مليارات السنين ومليارات الكيلومترات أصابني الإحباط. لم أحتمل الشعور بالضآلة وعدم الأهمية الذي اجتاحني. كان الأمر كما لو أن هناك صوتًا بداخلي يظل يقول: «باكيت، إنك لا شيء على الإطلاق. لست إلا نكرة».»

فقال ريتشارد بهدوء: «لكن «إدراك» هذه الضآلة، خاصة مع قدرتنا على قياسها يجعلنا — نحن البشر — مميزين.»

أجابه ماكس: «نحن نتفلسف الآن. وأنا لا أشعر بالارتياح في الحديث بهذا الأسلوب. أرتاح مع حيوانات المزرعة والتيكيلا والعواصف الرعدية غرب الأوسطية.» ثم لوَّح بذراعَيه في اتجاه المراجل والمصنع قائلًا: «كل هذه الأشياء ترعبني. ولو كنت أعرف عندما وافقت على القدوم للعيش في هذه المستوطنة المريخية، أنني سأقابل آلاتٍ أذكى من البشر …»

في تلك اللحظة جاءهم صوت نيكول القلق عبر جهاز اللاسلكي وهي تقول: «ريتشارد. لدينا حالة طوارئ. عادت إيلي لتوها من الشاطئ الشمالي. هناك أربعة مراكب ضخمة على وَشْك أن ترسو … وتقول إيلي إنها واثقة من أنها رأت أحدهم يرتدي زي شرطة رسميًّا … وقالت أيضًا إنها رأت ما يشبه قوس قزح ضخمًا جهة الجنوب … هل يمكنكم العودة إلى هنا في غضون دقائق؟»

أجابها ريتشارد: «كلا، لا يمكننا ذلك. إننا لا نزال في الأسفل في غرفة المراجل. نحن نبعد على الأقل ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر … هل قالت إيلي عدد الأشخاص الذين من المحتمل وجودهم على كل مركب؟»

أجابته إيلي: «أظن أنهم عشرة أو اثنا عشر شخصًا تقريبًا يا أبي. أنا لم أبقَ كي أُحصيَهم … لكن لم تكن المراكب هي الأمر الوحيد الغريب الذي رأيته عندما صعدت إلى أعلى. فعندما كنت أركض عائدة إلى المخبأ، أضاءت السماء في المنطقة الجنوبية بومضاتٍ قوية من الألوان التي أصبحَت في النهاية قوس قزح ضخمًا … إنه بالقرب من المكان الذي أخبرتنا أنه يجب أن يكون الجبل الكبير فيه.»

وبعد عشر ثوانٍ صاح ريتشارد في جهاز اللاسلكي: «نيكول، إيلي، اسمعوني جميعًا جيدًا. اتركوا المخبأ على الفور. اصطحبوا الأطفال والفرخَين والبطيخ، والكائنات اللاسويقية والبندقيتَين وكل الطعام، وقَدْر ما يمكنكم حمله من الأغراض الشخصية. واتركوا أغراضنا فلدينا هنا في حقائب الظهر ما يكفينا في حالة الطوارئ. اذهبوا مباشرة إلى مخبأ كائنات

الأوكتوسبايدر وانتظرونا في الغرفة الكبيرة التي كانت معرضًا للصور قبل سنوات ... فقوات ناكامورا ستأتي إلى مخبئنا أولًا. وإذا لم تجدنا وكانت كيتي معهم، فمن المحتمل أن يذهبوا إلى مخبأ الأوكتوسبايدر أيضًا، لكنني لا أعتقد أنهم سيذهبون إلى الأنفاق هناك ...»

فسألته نيكول: «ماذا عنك أنت وماكس وباتريك؟»

«سنعود بأقصى سرعتنا. وإذا لم نجد أحدًا ... بالمناسبة يا نيكول، اتركي جهاز إرسال وارفعي درجة صوته إلى درجة عالية في الغرفة البيضاء وفي غرفة الأطفال. بهذه الطريقة سنعلم إذا كان هناك شخص في مخبئنا ... وعلى أي حال، كنت أقول لك إنه إذا لم يغزُ أحد منزلنا، فسننضم إليكم على الفور. وإذا كان رجال ناكامورا يحتلون منزلنا، فسنحاول العثور على مدخل آخر لمخبأ كائنات الأوكتوسبايدر من هنا. لا بد أن هناك مدخلًا ...»

قاطعته نيكول: «حسنًا. لا بد أن نبدأ في حزم أغراضنا ... وسأترك جهاز الاستقبال مفتوحًا في حالة احتجت إلينا.»

سأل ماكس بعد أن أغلق ريتشارد جهاز الإرسال: «هل تظن إذن أننا سنكون بأمان أكثر في مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر؟»

أجابه ريتشارد بابتسامة باهتة: «إنه خيار ليس إلا. هناك الكثير من الأشياء التي لا نعرفها هنا خلف الحاجز. ونحن واثقون أننا لن نكون بمأمن إذا عثرت شرطة وقوات ناكامورا علينا ... من المحتمل ألَّا تكون كائنات الأوكتوسبايدر تعيش في المخبأ. إلى جانب أننا، وكما قالت نيكول عدة مراتٍ لا نملك دليلًا قاطعًا على أنها كائنات عدائية.»

تحرك الرجال بأسرع ما يمكنهم. واضطروا للتوقف للحظة حتى ينقل باتريك بعض الأغراض التي تثقل كاهل ريتشارد إلى حقيبته. كان ريتشارد وماكس يتصببان عرقًا، عندما وصلوا إلى التشعب في الرواق الذي يشبه حرف Y.

قال ماكس لباتريك الذي كان يسبق رفيقَيه الكهلَين: «يجب أن نتوقف لدقيقة. فعمك ريتشارد يجب أن يرتاح قليلًا.»

أخرج باتريك زجاجة ماء من حقيبته وناولها لهما. فشرب ريتشارد بنهم من الزجاجة، ومسح جبينه بمنديل، وبعد أن ارتاحوا لدقيقة بدءوا السير مرة أخرى باتجاه المخبأ.

وعلى بعد ما يقرب من خمسمائة متر من الرصيف الصغير خلف الحاجز الأسود، بدأ جهاز الاستقبال الذي يحمله ريتشارد يلتقط أصواتًا غير واضحة من داخل المخبأ. فقال

ريتشارد وهو يبطئ من سرعته لينصت: «ربما نسي أحد أعضاء العائلة شيئًا مهمًّا وعاد لاستعادته.»

وبعد وقت قصير، سمع ثلاثتهم صوتًا لم يتعرَّفوا على صاحبه. فتوقفوا وانتظروا. قال الصوت: «يبدو أن نوعًا من الحيوانات كان يعيش هنا. لمَ لا تأتي لتلقي نظرة؟»

قال صوت ثانٍ: «تبًّا. كانوا قطعًا هنا منذ وقتٍ قريب ... تُرى منذ متى رحلوا؟»

سمعوا صياح شخصٍ ما. كان يسأل: «ماذا تريدني أن أفعل بهذه المعدات الإلكترونية أيها النقيب باور؟»

أجابه الصوت الثاني: «اتركها الآن. ستنزل باقي القوات في غضون دقائق قليلة. سنقرر وقتها ماذا سنفعل.»

جلس ريتشارد وماكس وباتريك بهدوء في النفق المظلم. ولدقيقة تقريبًا لم يسمعوا شيئًا عبر جهاز الاستقبال. يبدو أنه لم يكن هناك أحد من فرقة التفتيش في الغرفة البيضاء، أو في غرفة الأطفال في ذلك الوقت. ثم سمع ثلاثتهم صوت فرانتس باور مرة أخرى.

كان باور يقول: «ماذا قلت يا مورجان؟ بالكاد أسمعك ... هناك جلبة ... ماذا؟ ألعاب نارية؟ ألوان؟ ... ما الذي تتحدث عنه؟ حسنًا. حسنًا. سنصعد على الفور.»

ولخمس عشرة ثانية أخرى لم تصل أي أصوات عبر جهاز الاستقبال. ثم عاد صوت النقيب باور يقول بوضوح: «ها أنت ذا يا فايفر. اجمع الرجال الآخرين ودعنا نصعد مرة أخرى. مورجان يقول إن هناك عرض ألعاب نارية مذهلًا في السماء جهة الجنوب. معظم القوات مفزوعة بالفعل بسبب ناطحات السحاب والظلام. سأصعد كي أهدِّئ روعَ الجميع.»

وهنا همس ريتشارد وهو يقف على قدميه: «هذه فرصتنا. سيخرجون من المخبأ لبضع دقائق.» وبدأ يركض ثم توقف فجأة. وقال: «قد نحتاج إلى أن نفترق ... هل تتذكران كيف يمكنكما الوصول إلى مخبأ الأوكتوسبايدر؟»

هزَّ ماكس رأسه. وقال: «لم أكن يومًا ...»

فقال ريتشارد وهو يعطي ماكس الكمبيوتر المحمول الخاص به: «خذ هذا. أدخل حرف M وحرف P لعرض صورة شاملة لنيويورك. وستجد مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر مميزًا بدائرة حمراء ... وإذا ضغطت على حرف L مرتَين فسيعرض لك الجهاز خريطة للمخبأ من الداخل ... والآن دعونا ننطلق، فلا يزال لدينا بعض الوقت.»

لم يقابل ريتشارد وماكس وباتريك أيًّا من القوات داخل المخبأ. لكن كان هناك حارسان يقفان على بُعد أمتارٍ قليلة من باب الخروج الذي يقود إلى نيويورك. ولحسن

الحظ كان الحارسان يتابعان بكل كيانهما الأعمال النارية في سماء راما فوق رأسيهما، لدرجة أنهما لم يسمعا صوت الرجال الثلاثة وهم يصعدون السلم وراءهما خلسة. وزيادة في الحرص تفرق الرجال الثلاثة، وسلك كلٌّ منهم طريقًا مختلفًا إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر.

وصل ريتشارد وباتريك إلى وجهتهما تفصلهما دقائق قليلة، لكن ماكس تأخر. فمن سوء حظه أن الطريق الذي اختاره كان يمر بأحد الميادين التي اجتمع فيها خمس أو ست من قوات المستوطنة؛ لمشاهدة الأعمال النارية من مكان أفضل. فأسرع ماكس في أحد الأزقة، واختبأ بجوار أحد المباني. ثم أخرج الكمبيوتر وأخذ يفحص الخريطة على الشاشة، محاولًا العثور على طريق آخر يقود إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر.

في هذه الأثناء كان عرض الأعمال النارية المذهل لا يزال مستمرًّا في السماء. ألقى ماكس نظرة إلى أعلى، وانبهر عندما رأى كرة زرقاء كبيرة تنفجر ملقية مئات من أشعة الضوء الأزرق في جميع الاتجاهات. ولدقيقة ظل ماكس يراقب العرض الذي يخلب اللب. كان أروع من أي شيء رآه على الأرض.

عندما وصل ماكس أخيرًا إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر، هبط المنحدر بسرعةٍ ودخل إلى الغرفة الرئيسية التي تحتوي على الأنفاق الأربعة، التي يقود كلٌّ منها إلى الأجزاء الأخرى من المخبأ. كتب ماكس حرف L مرتين على جهاز الكمبيوتر، فظهرت له خريطة لمخبأ كائنات الأوكتوسبايدر على الشاشة الصغيرة. كان ماكس يركز بشدة على الخريطة حتى إنه لم يسمع في البداية صوت جر الفرش الميكانيكية المصحوب بأنين رقيق عالي النغمة.

لم يرفع ماكس رأسه إلا بعد أن أصبح الصوت عاليًا جدًّا. وعندما فعل كان الأوكتوسبايدر الضخم يقف على بعد ما لا يزيد عن خمسة أمتار منه. وما إن رآه ماكس حتى سرت في جسده قشعريرة قوية. تجمد في مكانه مقاومًا رغبته في الهروب. تحرك السائل الهلامي في عدسة عين الأوكتوسبايدر الوحيدة من جانب لآخر، لكن دون أن يتقدم الكائن الفضائي تجاهه خطوة أخرى.

اندفع من إحدى الفجوات المتوازية على جانبَي العدسة شريط أرجواني، أخذ يطوف رأس الأوكتوسبايدر الكروية، يتبعه شرائط من ألوان أخرى، واختفت جميعها في الشق الثاني من الشقَّين المتوازيَين. وعندما تكرَّر شريط الألوان نفسه هزَّ ماكس رأسه، وقلبه يخفق بقوة حتى إنه كان يشعر بخفقانه في حلقه. وقال: «لا أفهم.» تردَّد الأوكتوسبايدر لدقيقةٍ ثم رفع اثنتَين من لوامسه من على الأرض، وأشار بوضوحٍ في اتجاه أحد الأنفاق الأربعة. ثم تحرَّك الكائن في ذلك الاتجاه وأعاد الإشارة.

وقف ماكس وسار ببطء في اتجاه النفق المشار إليه، وهو يحرص على ألَّا يقترب كثيرًا من الأكتوسبايدر. وعندما وصل إلى مدخله، خرجت سلسلة أخرى من الشرائط الملونة، ودارت حول رأس الكائن الفضائي. فقال ماكس بأسلوبٍ مهذبٍ وهو يدخل إلى الممر ويسير فيه: «شكرًا جزيلًا.»

لم يتوقف ماكس لينظر إلى خريطته إلا بعد أن قطع ثلاثمائة أو أربعمائة متر في النفق. وكلما كان ماكس يتقدم كانت الأضواء تظهر أمامه أوتوماتيكيًّا وتنطفئ في الأجزاء التي اجتازها بالفعل. وعندما فحص خريطته آخر الأمر اكتشف أنه ليس بعيدًا عن الغرفة المحددة.

وبعد دقائق قليلة دخل ماكس الغرفة، حيث وجد باقي أفراد العائلة مجتمعين. ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ كبيرة. وقال قبل أن تعانقه إيبونين: «لن تتخيَّلوا أبدًا من قابلت لتوِّي.»

بعد انتهاء ماكس من قصِّ حكايته مع الأوكتوسبايدر للجميع، عاد ريتشارد وباتريك في المسار نفسه إلى الغرفة الرئيسية، وكانا يتوقفان كل مائة متر تقريبًا وينصتان بحرص بحثًا عن صوت الكائن الفضائي. لكنهما لم يسمعا شيئًا. وكذلك لم يسمعا أو يريا شيئًا يدلُّ على أن القواتِ التي أُرسِلَت من عدن الجديدة قريبةٌ منهم. وبعد مرور ساعة تقريبًا عاد ريتشارد وباتريك إلى باقي المجموعة، واشتركا في مناقشةٍ حول ما يجب أن يفعلوه بعد ذلك.

كان لدى العائلة الكبيرة طعام يكفيها لخمسة أيام، أو ربما ستة إذا رشدوا استهلاكهم. وكان الماء متاحًا في الحوض بالقرب من الغرفة الرئيسية. اتفق الجميع سريعًا أن فريق البحث القادم من عدن الجديدة — على الأقل الفريق الأول — لن يمكث في نيويورك طويلًا على الأرجح. ودار بينهم حوار قصير حول احتمالية أن تكون كيتي قد أخبرت النقيب باور ورجاله عن موقع مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر. وفي مرحلة حاسمة من النقاش لم يكن هناك ما يدعو للاستمرار؛ فاليوم أو اليومان التاليان سيحددان إذا كان إخوانهم من البشر سيعثرون عليهم. ونتيجة لذلك لم يغادر أيٌّ من أفراد العائلة الغرفة الكبيرة التي كانوا يمكثون فيها، إلا في حالة الضرورات الجسدية، على مدار الساعات الست والثلاثين التالية.

وفي آخر ذلك الوقت كانت المجموعة بأكملها، لا سيما الطائرَين والتوءمَين، يعانون حالةً سيئةً من حمى الأماكن المغلقة. فاصطحب ريتشارد وناي تامي وتيمي وبينجي

والأطفال الصغار إلى الممر محاولين بلا فائدة أن يبقوهم هادئين، وقادوهم بعيدًا عن الغرفة الرئيسية باتجاه الممر الرأسي ذي النتوءات الذي يهبط في مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر. حذر ريتشارد — الذي كان يحمل نيكي على ظهره معظم الوقت — ناي والتوءمَين من مدى خطورة المنطقة التي يقتربون منها. ومع ذلك ما إن بدأ النفق يتسع ووصلوا إلى الممر الرأسي، حتى صعد جاليليو المتهور إلى الحفرة التي على شكل برميل، قبل أن تتمكَّن والدته من إيقافه. وسرعان ما تجمَّد في مكانه من الخوف. وكان على ريتشارد أن ينقذ الطفل من المكان الخطر الذي يقف فيه على بروزَين، أسفل مستوى الممر الذي يحيط بحافة الهاوية الضخمة. كان المخلوقان الطائران الصغيران مسرورَين لأنه عاد بإمكانهما التحليق مرة أخرى، وظلَّا يحومان في المنطقة بحُرية، وهبطا مرتَين لعدة أمتار في الهوة المظلمة، لكنهما لم يهبطا لمسافة كافية لإشعال المجموعة التالية من الأضواء.

وقبل العودة إلى باقي أفراد العائلة، اصطحب ريتشارد بينجي معه لإلقاء نظرة سريعة فاحصة على ما كان يسميه هو ونيكول متحف كائنات الأوكتوسبايدر. كانت تلك الغرفة الضخمة، التي تقع على بُعد عدَّة مئات الأمتار من الممر الرأسي، لا تزال خاوية تمامًا. وبعد عدَّة ساعات، دخل نصف أفراد العائلة الكبيرة بناءً على اقتراح ريتشارد إلى المتحف لمنح الجميع مساحة أكبر.

في اليوم الثالث لبقائهم في مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر، قرَّر ريتشارد وماكس أنه يجب أن يُحاول أحدهم اكتشاف ما إذا كانت قوات المستوطنة لا تزال في نيويورك. وكان باتريك هو الخيار المنطقي ليكون مستكشف الأسرة. كانت تعليمات ريتشارد وماكس له واضحة ومباشرة؛ ألا وهي التقدم بحرص إلى الغرفة الرئيسية ثم صعود المنحدر إلى نيويورك. ومن هناك يعبر إلى الشاطئ الشمالي للجزيرة، مع استخدام المصباح الكهربي والكمبيوتر المحمول في أضيق الحدود، ليرى إذا كانت القوارب لا تزال موجودة. وأيًّا كان ما سيتوصل إليه يجب أن يعود إلى المخبأ مباشرة ويقدم لهم تقريرًا كاملًا.

ثم قال له ريتشارد: «هناك شيء واحد آخر في غاية الأهمية عليك أن تتذكره. في أي وقت تسمع فيه صوت كائن أوكتوسبايدر أو جندي، عليك أن تعود أدراجك على الفور. لكن مع وَضْع الشرط الآتي في اعتبارك: يجب ألَّا يراك أيُّ إنسان وأنت تنزل إلى المخبأ. لا يمكنك أن تفعل أي شيء يعرِّض حياة باقي أفراد مجموعتنا للخطر.»

أصر ماكس على أن يأخذ باتريك إحدى البندقيتَين. ولم يناقشه ريتشارد ونيكول في هذا الأمر. وبعد أن تمنى له الجميع حظًّا طيبًا، بدأ باتريك مهمته الاستكشافية. لم يكن

قد سار سوى خمسمائة متر في النفق عندما سمع ضوضاء أمامه. فتوقف لينصت جيدًا، لكنه لم يستطع تمييز صوت ما يسمعه. وبعد حوالي مائة متر أخرى بدأت بعض الأصوات تتضح. وتيقن باتريك من أن ما يسمعه هو صوت جر فرش معدنية عدة مرات. كما كان هناك صوت صليل كما لو أن أشياء معدنية يرتطم بعضها ببعض أو بجدار. أرهف باتريك السمع لعدة دقائق أخرى ثم تذكر التعليمات التي تلقاها، فعاد إلى عائلته وأصدقائه.

وبعد مناقشة طويلة أُرسل باتريك إلى الخارج مرة أخرى. وقيل له هذه المرة أن يقترب من كائنات الأوكتوسبايدر إلى أقرب مسافة ممكنة، وأن يراقبها بهدوء لأطول وقت. ومرة أخرى سمع باتريك صوت جر فرش وهو يقترب من الغرفة الرئيسية. لكن عندما وصل باتريك إلى الغرفة الكبيرة الموجودة أسفل المنحدر بالفعل، لم يجد أيًّا من كائنات الأوكتوسبايدر. فتساءل: «أين ذهبت؟» وأول فكرة خطرت على باله في تلك اللحظة هي أن يعود من حيث جاء. لكنه قرَّر أنه ما دام لم يقابل أيًّا من كائنات الأوكتوسبايدر، فبإمكانه صعود المنحدر والخروج إلى نيويورك وتنفيذ باقي المهمة التي أُسنِدَت إليه في البداية.

أُصِيب باتريك بصدمة، عندما اكتشف بعد دقيقةٍ واحدة تقريبًا أن باب الخروج من مخبأ الأوكتوسبايدر قد أُغلِقَ بإحكام، باستخدام مزيج سميك من القضبان المعدنية ومادة تشبه الأسمنت. استطاع بالكاد أن يرى ما وراء الغطاء، وكان ثقيلًا جدًّا لدرجة أن جميع أفراد العائلة لن يتمكَّنُوا من إزاحته. فقال باتريك في نفسه: «إن كائنات الأوكتوسبايدر هي من فعلت هذا، لكن لماذا تحبسنا هنا؟»

وقبل أن يعود باتريك ويقدم تقريره، فحص الغرفة الرئيسية ووجد أن أحد أنفاق الخروج الأربعة أغلق أيضًا، بما بدا أنه باب سميك أو بوابة. ففكر: «من المؤكد أن هذا هو النفق الذي يقود إلى القناة.» ظل باتريك في المنطقة لعشر دقائق أخرى يرهف السمع بحثًا عن أصوات كائنات الأوكتوسبايدر، لكنه لم يسمع أي صوت.

١١

«وكنتم تقولون إن كائنات الأوكتوسبايدر لم تقم بأي تصرف عدواني قط؟ فماذا تطلقون إذن على ما حدث؟ نحن محبوسون.» قال ماكس هذه الجملة وهو يشتعل غضبًا. ثم هز رأسه بقوة وهو يقول: «أرى أن المجيء إلى هنا كان فكرة غبية في المقام الأول.»

قالت إيبونين: «رجاء يا ماكس. دعنا لا نختلف. فلن يفيدنا أن نتشاجر.»

قطع جميع أفراد العائلة الكبار، ما عدا ناي وبينجي، مسافة الكيلومتر في الممر الذي يفصلهم عن الغرفة الرئيسية؛ ليروا ماذا فعلت كائنات الأوكتوسبايدر. كان البشر بالفعل محتجزين داخل المخبأ. وكان نفقان من الأنفاق الثلاثة المفتوحة التي تقود إلى خارج الغرفة يفضيان إلى الرواق الرأسي، وسريعًا ما اكتشفوا أن الثالث يؤدي إلى مخزن كبير خاوٍ ليس له مخرج.

فقال ماكس: «من الأفضل أن نفكر في شيء سريعًا. فالطعام الباقي لدينا يكفينا لأربعة أيام فقط، وليس لدينا أدنى فكرة أين يمكننا أن نحصل على المزيد.»

فقالت نيكول: «أنا آسفة يا ماكس، لكنني لا أزال أرى أن قرار ريتشارد المبدئي كان صحيحًا. لو كنا بقينا في مخبئنا، لأُلقيَ القبض علينا وأخذونا إلى عدن الجديدة وجرى إعدامنا جميعًا بلا شك ...»

قاطعها ماكس: «ربما. وربما لا ... على الأقل في هذه الحالة كانوا سيُبقون على حياة الأطفال. ولا أعتقد أن بينجي والدكتور كانا سيُقتلان أيضًا ...»

فقال ريتشارد: «كل هذا الحديث غير عملي، ولا يتناول مشكلتنا الرئيسية؛ ألا وهي ماذا سنفعل الآن؟»

فقال ماكس بنبرة سخرية لاذعة في صوته: «حسنًا أيها العبقري. كنت أنت القائد الذي يدير دفة الأمور حتى الآن. فماذا تقترح؟»

تدخلت إيبونين مرة أخرى لتلطيف الأمور بينهما قائلة: «أنت متحامل عليه يا ماكس. إن وقوعنا في هذه الورطة ليس خطأ ريتشارد. وكما قلت من قبل هذا لا يساعدنا في شيء ...»

فقال ماكس وهو يتجه إلى الممر الذي يقود إلى المخزن: «حسنًا. سأدخل إلى هذا النفق لأهدأ وأدخن سيجارة.» ثم التفت وألقى نظرة على إيبونين. وقال: «هل تريدين أن تشاركيني فيها؟ وسيتبقَّى لدينا بالضبط تسع وعشرون سيجارة بعد أن ندخن هذه.»

ابتسمت إيبونين ابتسامة باهتة لنيكول وإيلي. وقالت بهدوء: «إنه لا يزال مستاءً مني لأنني لم أحضر كل سجائرنا عندما أخلينا المخبأ. لا تقلقوا ... إن ماكس سيئ المزاج لكنه سرعان ما ينسى الأمر ... سنعود بعد دقائق قليلة.»

قالت نيكول لريتشارد بعد أن غادر ماكس وإيبونين بثوانٍ قليلة: «ما هي خطتك يا عزيزي؟»

قال ريتشارد بإحباط: «ليس أمامنا الكثير من الخيارات. فليجلس أقل عددٍ ممكن من الكبار مع بينجي والأطفال والطائرَين، بينما يستكشف الباقون هذا المخبأ بأقصى سرعةٍ ممكنة. لا أصدق أن كائنات الأوكتوسبايدر تعتزم حقًّا أن تحبسنا هنا حتى نموت جوعًا.»

قال روبرت تيرنر الذي أراد التحدث لأول مرة، منذ أن أبلغهم باتريك أن باب الخروج الذي يقود إلى نيويورك أغلق: «معذرة يا ريتشارد، لكن ألست تفترض مرة أخرى أن كائنات الأوكتوسبايدر ودودة؟ ماذا إذا لم تكن كذلك؟ أو ماذا إذا كان — وهذا هو الأرجح في رأيي — بقاؤنا لا يعنيها بتاتًا، وأنها أغلقت مخبأها لحماية نفسها من البشر الذين ظهروا مؤخرًا ...»

توقف روبرت عن الحديث فجأة وكأن تيار الأفكار المتدفق في ذهنه انقطع. ثم استأنف بعد ثوانٍ قليلة: «ما أحاول قوله هو أن الأطفال ومن بينهم حفيدتك في خطر شديد — خطر نفسي وجسدي في نظري — في موقفنا الراهن، وسأعارض أي خطة تتركهم عرضة للخطر ودون حماية ...»

قاطعه ريتشارد قائلًا: «معك حق يا روبرت. يجب أن يبقى أكثر من شخص من الكبار، من بينهم رجل واحد على الأقل مع بينجي والأطفال. وفي الحقيقة المهمة التي تتولاها ناي الآن ثقيلة عليها ... فلمَ لا تعود أنت وباتريك وإيلي إلى الأطفال الآن؟ وسننتظر أنا ونيكول ماكس وإيبونين وننضمُّ إليكم خلال وقتٍ قصير.»

ظل ريتشارد ونيكول وحدهما بعد أن غادر الجميع. قالت نيكول: «تقول إيلي إن روبرت ثائر معظم الوقت الآن، لكنه لا يعرف كيف يعبِّر عن غضبه بصورة بناءة ... إذ أخبرها أنه يرى أن الأمر برمته كان خطأً منذ البداية، ويظل ساعات يفكر في الأمر بعمق ... حتى إن إيلي تقول إنها قلقةٌ على سلامته.»

هزَّ ريتشارد رأسه. وقال: «ربما كان خطأً بالفعل. ربما كان من الأفضل أن نعيش حياتنا أنا وأنت هنا وحدنا، لكنى اعتقدت أن ...»

في تلك اللحظة عاد ماكس وإيبونين إلى الغرفة. وقال ماكس وهو يمد يده للمصافحة: «أريد أن أعتذر منكما. أظن أنني جعلت خوفي ويأسي يسيطران عليَّ.»

فأجابته نيكول: «شكرًا لك يا ماكس. لكن لا داعي للاعتذار. فمن الغباء افتراض أن العديد من الأشخاص يمكنهم المرور بتجربة مثل التي نمر بها دون حدوث اختلاف.»

تجمعت العائلة في المتحف. وقال ريتشارد: «دعونا نراجع الخطة مرة أخرى. سنهبط نحن الخمسة النتوءات ونستكشف المنطقة حول رصيف القطار النفقي. وسنفحص جيدًا كل نفق نعثر عليه. وإذا لم نجد طريقًا للهروب وكان القطار الكبير لا يزال موجودًا، فسنستقله أنا وماكس وإيبونين ونيكول. عندئذٍ سيصعد باتريك وينضم إليكم في المتحف.»

فسأله روبرت: «ألا تظن أن وجودكم أنتم الأربعة على متن القطار يعد تهورًا؟ لماذا لا يذهب اثنان منكم في البداية؟ ماذا إذا غادر القطار ولم يعد قطُّ؟»

فأجابه ريتشارد: «الوقت عدونا يا روبرت. فلو لم يكن الطعام ينفد منا، لكان من الممكن أن نتبع خطةً أكثر حذرًا. وفي هذه الحالة كان من الممكن أن يدخل اثنان منا فقط القطار. لكن ماذا إذا كان القطار يؤدي إلى أكثر من مكان؟ ولأننا قرَّرنا أن تكون كل مجموعة بحث تتكون من فردَين، فمن الممكن أن يستغرق العثور على طريق الهروب وقتًا طويلًا، بالاعتماد فقط على مجموعةٍ واحدةٍ لتقوم بعملية البحث.»

خيم صمت طويل على الغرفة حتى بدأ تيمي يصرخ في شقيقته. فاتجهت نيكي إليه وبدأت تربت على الجانب السفلي الناعم من الطائر. فقال ريتشارد: «لا أدعي أن لديَّ جميع الحلول. ولا أقلل من خطورة موقفنا. لكن إذا كان هناك مخرج من هنا، وأنا ونيكول نعتقد أنه لا بد أن هناك واحدًا، فكلما وجدناه مبكرًا كان هذا أفضل.»

وهنا سأله باتريك: «على فرض أنكم أنتم الأربعة ركبتم القطار، فكم من الوقت ننتظركم هنا في المتحف؟»

أجابه ريتشارد: «هذا سؤال صعب. فلديكم طعام يكفي لأربعة أيام أخرى، والمياه الوفيرة في الحوض ستبقيكم أحياء لفترة أطول بعد ذلك ... لا أدري يا باتريك. أظن أن عليكم البقاء هنا ليومين أو ثلاثة أيام على الأقل ... وبعد ذلك عليكم أن تتخذوا قراركم ... وإذا أمكن فسيعود واحد أو أكثر منا.»

كان بينجي يتابع الحوار باهتمام. ومن الواضح أنه يفهم ما يحدث بطريقة ما إذ إنه بدأ يبكي بهدوء. فاتجهت نيكول إليه لتهدئته. قالت له: «لا تقلق يا بني. كل شيء سيكون على ما يرام.»

نظر الطفل الكبير إلى والدته. وقال لها: «أتمنى ذلك يا ماما، لكنني خائف.»

وفجأة قفز جاليليو واتانابي واجتاز الغرفة ركضًا، واتجه إلى حيث توجد البندقيتان إلى جانب الحائط. وقال بعد أن لمس البندقية الأقرب إليه قبل أن يرفعها ماكس بعيدًا عن متناوله: «إذا ظهر أيٌّ من كائنات الأوكتوسبايدر، فسأطلق النار عليها. طاخ! طاخ!»

فدفع صراخه المخلوقَين الطائرَين إلى الصياح، ونيكي الصغيرة إلى البكاء. وبعد أن مسحت إيلي دموع ابنتها، وضع ماكس وباتريك البندقيتَين على كتفَيهما وودع المستكشفون الخمسة رفاقهم. سارت إيلي معهم إلى النفق. وقالت: «لم أشأ أن أطرح هذا السؤال أمام الأطفال، لكن ماذا «يجب» علينا أن نفعل إذا رأينا أوكتوسبايدر في غيابكم؟»

أجابها ريتشارد: «حاولي ألَّا تهلعي.»
وأضافت نيكول: «ولا تقومي بأي تصرُّفٍ عدواني.»
فقال ماكس وهو يغمز لها بعينه: «أمسكي بنيكي وأطلقي ساقيكِ للريح.»

لم يحدث أي شيءٍ غير عادي وهم يهبطون النتوءات. وكما حدث قبل سنوات، كانت الأضواء في المستوى التالي تُضاء فور أن يقترب أحدهم من منطقة غير مضاءة. وفي أقل من ساعةٍ وصل المستكشفون الخمسة إلى رصيف القطار. قال لهم ريتشارد: «الآن سنعرف إذا كانت هذه المركبات الغامضة لا تزال تعمل.»

وفي منتصف الرصيف الدائري، كانت هناك حفرةٌ دائريةُ الشكل أصغر حجمًا تبرز من جوانبها نتوءاتٌ معدنية وتهبط أكثر في الظلام. وفي طرفَي الرصيف بزاوية تسعين درجةً إلى يمين ويسار النقطة التي كانوا يقفون فيها، بدا نفقان مظلمان شقًّا في الصخور والمعادن. كان أحد النفقَين كبيرًا يصل ارتفاعه إلى خمسة أو ستة أمتار، في حين كان النفق المقابل له أصغر منه بعشر مراتٍ بالضبط. وعندما اقترب ريتشارد من النفق الكبير أضيء النفق فجأة، وأصبح من الممكن رؤية ما بداخله بوضوح. كان النفق يشبه أنبوب صرف صحي كبيرًا كالمستخدم على كوكب الأرض.

وفور أن سمعوا صوت أول صفير قادم من النفق، هُرع فريق الاستكشاف ليقفَ إلى جانب ريتشارد. وبعد أقلَّ من دقيقةٍ ظهر قطار نفقي مندفعًا في زاويةٍ بعيدة ثم اتجه نحوهم بسرعة، ووقف ومقدمته على بعد متر تقريبًا من النقطة التي يستمر فيها الممر ذو النتوءات في الهبوط لأسفل.

بدا القطار النفقي أيضًا مضاءً من الداخل. ولم يكن به مقاعد بل قضبان عمودية من السقف إلى الأرض متناثرة في العربة بنمط يبدو عشوائيًّا. فتح الباب بعد ما يقرب من خمس عشرة ثانية من وصول القطار. وعلى الجانب المقابل من الرصيف، وصلَت عربة مطابقة للأولى لكن عُشرها في الحجم، وتوقفت بعد ما لا يزيد عن خمس ثوانٍ.

ومع أن ماكس وباتريك وإيبونين سمعوا جميعًا قصصًا عن القطارَين اللذَين تسكنهما أرواح عدَّة مرات، فإن رؤية العربتَين بأعينهم جعلت ثلاثتهم يشعرون بالخوف. فحص ماكس وريتشارد الجزء الخارجي من القطار الكبير بسرعة. ثم قال ماكس لريتشارد: «هل أنت جاد فيما تقول يا صديقي؟ هل تعتزم حقًّا أن «تستقل» هذا الشيء إذا لم نجد طريقًا آخر؟»

أومأ ريتشارد برأسه.

قال ماكس: «لكنه قد يكون ذاهبًا إلى «أي مكان». وليس لدينا أدنى فكرة عن ماهيته أو هُويَّة صانعه أو سبب وجوده هنا. وفور أن نصعد على متنه لن يكون بمقدورنا فعلُ أي شيء.»

ابتسم ريتشارد ابتسامةً شاحبة. وقال: «هذا صحيح. إنك تفهم موقفنا بدقة يا ماكس.»

فهز ماكس رأسه. وقال: «حسنًا، من الأفضل أن نجد شيئًا أسفل تلك الحفرة؛ لأنني لا أدري إن كنت أنا وإيبونين ...»

فقال باتريك وهو يقترب من الرجلين: «حسنًا. أظن أن الوقت قد حان للمرحلة التالية من هذه العملية ... هيا يا ماكس، هل أنت مستعد للهبوط على المزيد من هذه النتوءات؟»

لم يكن لدى ريتشارد أي إنسان آلي ذكي من اختراعه ليضعه في القطار النفقي الصغير. لكن كان لديه كاميرا صغيرة ذات نظام حركة بدائي، تمنى أن تكون ثقيلة بصورة كافية لتنشيط القطار النفقي الصغير. قال للآخرين: «إن النفق الصغير ليس به مخرج يمكننا استخدامه على أي حال من الأحوال. لكنني أريد أن أعرف إذا كان شيء قد تغير خلال تلك السنوات. بالإضافة إلى هذا، لا أجد أي سبب — على الأقل حتى الآن — يستدعي أن يهبط أكثر من اثنَين منا لمسافة أبعد.»

وبينما كان ماكس وباتريك يهبطان ببطء على النتوءات الإضافية، وريتشارد منهمك في فحص كاميرته المتحركة للمرة الأخيرة، أخذت نيكول وإيبونين تتجولان على الرصيف. سألت إيبونين ماكس عبر جهاز الاتصال اللاسلكي: «كيف يسير الأمر أيها المزارع؟»

فأجاب: «على ما يرام حتى الآن. لكننا على بعد عشرة أمتار فقط أسفلكم. هذه النتوءات ليست متقاربة مثل التي بالأعلى؛ لذا فإننا أشدُّ حرصًا هنا.»

وبعد لحظاتٍ قليلةٍ قالت نيكول لإيبونين: «لا بد أن علاقتك بماكس تطوَّرَت كثيرًا وأنا في السجن.»

فأجابتها إيبونين بعفوية: «أجل، هذا حقيقي. في الواقع فاجأني الأمر. فأنا لم أظن أنه يمكن لرجل أن يدخل في علاقةٍ جادة مع امرأة ... أنتِ تعلمين ... لكنني بخست ماكس حقه. إنه شخص غير عادي. فوراء ذلك القناع الفظ العدواني ...»

سكتَت إيبونين. وابتسمت نيكول ابتسامة واسعة. وقالت: «لا أظن أن ماكس يخدع أحدًا بهذا القناع، أو على الأقل أولئك الذين يعرفونه. فذلك الشخص القاسي البذيء اللسان ليس إلا دورًا يلعبه لسبب ما، على الأرجح حمايةً لنفسه وهو في المزرعة في آركنسو.»

صمتَت السيدتان لعدة ثوانٍ. ثم أضافت نيكول: «لكنني أعتقد أنني لم أقدره حق قدره أنا الأخرى. إنه لشيءٌ يدعو لاحترامه أنه يحبكِ هذا الحب الجم، مع أنكما لم تتمكنا من ...»

فقالت إيبونين بفيض مفاجئ من المشاعر: «آه يا نيكول. لا تظني أنني لم أرغب في هذا، ولم أحلم به أيضًا. وأخبرنا دكتور تيرنر عدة مرات أن احتمال أن يلتقط ماكس عدوى فيروس «آر في ٤١» ضئيل للغاية إذا استخدمنا وسيلة حماية ... لكن مجرد وجود احتمال ولو «ضئيل للغاية» لا يكفيني. فماذا لو حدث بطريقةٍ ما أن نقلت هذا البلاء اللعين الذي يقتلني لماكس؟ كيف يمكن أن أسامح نفسي إذا حكمت على الرجل الذي أحب بالموت؟»

وامتلأت عينا إيبونين بالدموع. أردفت: «بالطبع بيننا علاقة حميمة. لكن بطريقتنا الخاصة الآمنة ... وماكس لم يشتكِ من ذلك قطُّ. لكنني أرى في عينَيه أنه مشتاق إلى ...»

وفي تلك اللحظة جاءهم صوت ماكس عبر جهاز اللاسلكي. كان يقول: «حسنًا، إننا نرى القاع الآن. يبعد عنا خمسة أمتار بالأسفل، ويشبه أرضية عادية. وهناك نفقان يقودان للخارج؛ أحدهما في حجم النفق الصغير بالأعلى عندكم، والآخر صغير جدًّا. سنهبط لنفحصه عن كثب.»

حان الوقت كي يدخل المستكشفون القطار النفقي. لم تعثر كاميرا ريتشارد على أي شيء جديد، ولم يكن هناك أي مخرج يمكن أن يستخدمه البشر في المستوى الوحيد أسفلهم في المخبأ. انتهى ريتشارد وباتريك من حوار خاص راجعا فيه بالتفصيل ما سيفعله الشاب عندما يعود إلى الآخرين. ثم انضما إلى ماكس ونيكول وإيبونين، وسار خمستهم ببطء على الرصيف باتجاه القطار الذي يقف منتظرًا.

كانت إيبونين متوترة للغاية. وتذكرت أن شعورًا مماثلًا راودها من قبل عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، قبل افتتاح أول معرض فني لها تقيمه سيدة في دار الأيتام التي تربت بها في مدينة ليموج. فأخذت نفسًا عميقًا.

وقالت: «لن أجد حرجًا في قولها. أنا مرعوبة.»

فقال ماكس: «تبًّا، هذا أقل مما يستحق الموقف ... أخبرنا يا ريتشارد، كيف نعلم أن هذا الشيء لن يندفع بقوة عبر المنحنى الذي أخبرتنا عنه من قبل ونحن بداخله؟»

ابتسم ريتشارد لكنه لم يُجب. وعندما وصلوا إلى جانب القطار قال: «حسنًا. نظرًا لأننا لا نعلم بالضبط كيف يعمل هذا الشيء، فيجب أن نتوخَّى الحذر. سندخل جميعًا في وقت واحد. حتى نتجنب احتمال أن تغلق الأبواب ويرحل القطار ولسنا جميعًا على متنه.»

لم يتفوَّه أيٌّ منهم بكلمة لمدة دقيقة تقريبًا. واصطفُّوا جنبًا إلى جنب وماكس وإيبونين يقفان في الجهة الأقرب إلى النفق. فقال ريتشارد: «الآن سأبدأ العد. عندما أقول ثلاثة سندخل جميعًا معًا.»

فسأله ماكس مبتسمًا: «هل لي أن أغلق عيني؟ كان ذلك يهون عليَّ رهبة ركوب القطار السريع في الملاهي وأنا صبيٌّ صغير.»

فأجابته نيكول: «لك مطلق الحرية.»

دخلوا إلى القطار وأمسك كلٌّ منهم بقضيبٍ من القضبان العمودية. لكن لم يحدث شيء. فوقف باتريك يحدق إليهم من الجانب الآخر للباب المفتوح. فقال ريتشارد بهدوء: «ربما ينتظر باتريك.»

فتمتم ماكس: «لا أعلم، لكن إذا لم يتحرك القطار في غضون ثوانٍ قليلة فسأقفز خارجًا.»

وبعد لحظات قليلة من تعليق ماكس أغلق الباب ببطء. ولم تمر ثوانٍ قليلة حتى بدأ القطار رحلته واندفع بسرعة متزايدة داخل النفق المضاء.

لوَّح باتريك لهم وتابع بعينَيه القطار حتى اختفى بعد أول زاوية. ثم وضع بندقيته على كتفه وبدأ يتسلق النتوءات. وفكر في نفسه: «أرجوكم عودوا بسرعة. قبل أن يصبح المصير المجهول أكثر مما نتحمل جميعًا.»

عاد روبرت إلى المستوى الذي يعيشون فيه في أقل من خمس عشرة دقيقة. وبعد أن احتسى جرعة ماء من زجاجته، أسرع مجتازًا النفق إلى المتحف. وفي طريقه كان يفكر فيما سيقول للجميع.

لم يلاحظ باتريك عندما عبر عتبة الغرفة أن الغرفة مظلمة. وعندما دخل وأضيئت الأنوار شعر بالارتباك للحظة. وللوهلة الأولى فكر: «لست في المكان الصحيح. لقد سلكت النفق الخطأ.» لكن عقله المشوش وهو ينظر حوله في الغرفة قال له: «لكن لا، لا بد أن هذه هي الغرفة. فهناك ريشتان في ذلك الركن، وإحدى حفَّاظات نيكي الغريبة ...»

ومع كل ثانية مرت تسارعت دقات قلبه. وسأل نفسه وعيناه تدوران في الغرفة بعصبية مرة ثانية: «أين ذهبوا؟ ماذا حدث لهم؟» وكلما حدق في الجدران الخاوية واستعاد

الحوار الذي دار بينهم قبل أن يرحل، تيقن أكثر أن شقيقته وأصدقاءه لم يرحلوا بمحض إرادتهم. إلا إذا كانوا قد تركوا رسالة! فقضى دقيقتَين يبحث في كل ركن من أركان الغرفة عن رسالة. لكن لم تكن هناك أي رسائل. ففكر في نفسه: «إذن لا بد أن شخصًا أو شيئًا أجبرهم على الرحيل.»

حاول باتريك أن يكون عقلانيًّا في تفكيره لكن كان ذلك مستحيلًا. فظل عقله مشتتًا بين ما يجب أن يفعله والصور الفظيعة لما يمكن أن يكون قد حدث للآخرين. وفي النهاية استنتج أنه من المحتمل أنهم عادوا إلى الغرفة الأصلية، تلك التي أطلق عليها ريتشارد ووالدته معرض الصور، ربما بسبب خلل الأضواء في غرفة المتحف أو لأي سبب تافه آخر. بثت تلك الفكرة بعض الأمل في عروقه فاندفع يجري إلى النفق.

وصل باتريك إلى معرض الصور بعد ثلاث دقائق. كانت خاوية هي الأخرى. جلس مستندًا إلى الحائط. وفكر في أن هناك اتجاهَين فقط يمكن أن يسلكهما رفاقه. ولأنه لم يرَ أيًّا منهم أثناء صعوده، فلا بد أن الآخرين ذهبوا إلى الغرفة الرئيسية وباب الخروج المغلق. وبينما سار في الممر الطويل وهو قابض على بندقيته بيدَيه بإحكام، أقنع نفسه أن قوات ناكامورا لم تغادر الجزيرة، وأنها تمكنت بطريقةٍ ما من دخول المخبأ وإلقاء القبض على الجميع.

لكن قبل أن يدخل إلى الغرفة الرئيسية سمع صوت بكاء نيكي. كانت تصيح: «ماما، ماما» ثم أتبعت ذلك بعويل. فاندفع باتريك إلى الغرفة الكبيرة، وعندما لم يرَ أحدًا صعد المنحنى في الاتجاه الذي سمع منه صوت صراخ ابنة شقيقته.

رأى باتريك على المنطقة أسفل باب الخروج الذي لا يزال مغلقًا، مشهدًا فوضويًّا. فبالإضافة إلى صراخ نيكي المتواصل، كان روبرت تيرنر يذرع المكان جيئةً وذهابًا وهو زائغ العينَين باسطٌ يدَيه متجهًا بعينَيه إلى الأعلى، ويقول مرارًا وتكرارًا: «لا، يا إلهي، لا.» وكان بينجي جالسًا في زاويةٍ يبكي بهدوء، في حين حاولت ناي سُدَّى أن تهدئ ابنَيها التوءمَين.

وعندما رأت ناي باتريك قفزت من مكانها واتجهت إليه. وقالت والدموع تنهمر من عينَيها: «باتريك! اختطفت كائنات الأوكتوسبايدر إيلي.»

١٢

استغرق الأمر عدة ساعات، قبل أن يتمكن باتريك من جمع أجزاء القصة الكاملة لما حدث، بعد أن رحل فريق الاستكشاف من غرفة المتحف. إذ كانت ناي لا تزال في حالة صدمة،

وروبرت لا يستطيع الحديث لأكثر من دقيقةٍ دون أن يجهش بالبكاء، والأطفال وبينجي يقاطعونهم باستمرار دون أن يضيفوا أيَّ شيءٍ مفهوم. في البداية تأكد باتريك أن كائنات الأوكتوسبايدر جاءت ولم تختطف إيلي فحسب، بل أيضًا المخلوقَين الطائرَين وبطيخ المَن والكائنات اللاسويقية. وآخر الأمر بعد أن أعاد عليهم الأسئلة أكثر من مرة ألمَّ بمعظم تفاصيل ما حدث.

فبعد ساعة تقريبًا من رحيل المستكشفين الخمسة، أي تقريبًا في الوقت الذي كان فيه ريتشارد وباتريك والآخرون بالأسفل على رصيف القطار، سمع الباقون الذين ظلوا في المتحف صوت جر فرش معدنية على الأرض خارج الغرفة. وعندما خرجَت إيلي لتتحقَّق من الأمر، رأت كائنات أوكتوسبايدر تقترب من كلا الاتجاهَين. فعادت إلى الغرفة وأخبرتهم بما رأته، وحاولت أن تهدئ من روع بينجي والأطفال.

وعندما ظهر أول أوكتوسبايدر على باب الغرفة، تراجع الجميع إلى الوراء، مفسحين المجال لكائنات الأوكتوسبايدر التسعة أو العشرة التي دخلت الغرفة. في البداية وقفت الكائنات معًا، في مجموعة تضيء رءوسها بالرسائل الملونة المتحركة التي استخدمتها في التواصل. وبعد بضع لحظاتٍ تقدَّم أحد كائنات الأوكتوسبايدر، وأشار مباشرةً إلى إيلي برفع إحدى لوامسه السوداء والذهبية من على الأرض، وبدأت سلسلة طويلة من الألوان التي سرعان ما أعادها مرة أخرى. فخمنت إيلي (طبقًا لما تقوله ناي، في حين أصر روبرت من ناحية أخرى أن إيلي «عرفت» مغزى رسالة الأوكتوسبايدر) أن الكائنات الفضائية تطلب بطيخ المَن، والكائنات اللاسويقية. فأحضرتها من ركن الغرفة وسلمتها للأوكتوسبايدر القائد. فالتقطها بثلاثٍ من لوامسه (قال روبرت معلقًا: «وهو مشهد يستحق المشاهدة؛ رؤيتهم وهم يستخدمون تلك الأشياء التي تشبه الخراطيم والشعيرات أسفلها») وأعطاها لأتباعه.

ظنت إيلي والآخرون أن كائنات الأوكتوسبايدر سترحل بعد ذلك، لكنهم كانوا مخطئين للأسف. فقد ظل الأوكتوسبايدر القائد يواجه إيلي ويحدثها برسائله الملونة. فبدأ اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر يتحركان ببطء باتجاه تامي وتيمي. لكن إيلي قالت: «لا، لا. لا يمكنك.»

لكن كان الأوان قد فات. إذ قام الكائنان بلف الطائرَين بعددٍ من أذرعهما متجاهلَين تمامًا صراخهما، وحملاهما بعيدًا. فاندفع جاليليو واتانابي وهاجم الأوكتوسبايدر الذي يلفُّ تيمي بثلاثٍ من لوامسه. لكن ما كان من الأوكتوسبايدر إلا أن رفع الصبي من على

الأرض بذراعه الرابعة، وأعطاه لأحد زملائه. ثم تناقله زملاؤه فيما بينهم إلى أن وُضع أخيرًا دون أن يمسه أذًى في الركن الأقصى من الغرفة. وسمح الدخلاء لناي بأن تهرع إلى ابنها لتُهدِّئه.

في ذلك الوقت كان ثلاثة أو أربعة من كائنات الأوكتوسبايدر والمخلوقان الطائران والبطيخ والكائن اللاسويقي، قد اختفَوا في الرواق بالخارج. وظل ستة من الكائنات الفضائية في الغرفة. ولعشر دقائق تقريبًا تحادثوا فيما بينهم. وفي أثناء ذلك طبقًا لرواية روبرت كانت إيلي تراقب الرسائل الملونة التي تبادلتها كائنات الأوكتوسبايدر (أما ناي فقالت: «لم أكن منتبهةً لهم؛ فقد كنت خائفةً بشدة وقلقةً على أطفالي.») وفي لحظةٍ أعطَت إيلي نيكي لروبرت ووضعتها بين ذراعَيه. ثم شحب وجهها بشدة. وقالت (حسب رواية زوجها): «أعتقد أنني أفهم بعض ما يقولون. إنهم يعتزمون اصطحابي أنا أيضًا.»

ومرة أخرى تحرك الأوكتوسبايدر القائد في اتجاههم، وبدأ يتحدث بالألوان وتركيزه منصبٌّ على إيلي. أما ما حدث في الدقائق العشر التالية فكان موضع خلاف كبير بين ناي وروبرت، وكان بينجي يساند ناي في أجزاء كثيرة من قصتها. فتقول ناي إن إيلي حاولت حماية جميع مَن في الغرفة، وعقد صفقة مع كائنات الأوكتوسبايدر. فأخبرتهم بإشارات اليد وعبارات مكررة أنها ستذهب معهم، على أن تضمن كائنات الأوكتوسبايدر أن يغادر جميع البشر الآخرين الموجودين في الغرفة المخبأ بسلام.

وأصرَّت ناي على قصتها قائلة: «كانت إيلي واضحةً في كلامها. إذ شرحت لهم أننا محبوسون وليس لدينا ما يكفي من الطعام. لكن لسوء الحظ أخذوها قبل أن تتأكَّد من أنهم فهموا الصفقة.»

فقال روبرت وعيناه تبثان ما تموج به نفسه من ارتباك وألم: «إنك ساذجة يا ناي. أنت لا تدركين مدى شر هذه الكائنات. لقد نوموا إيلي تنويمًا مغناطيسيًّا. نعم، هذا ما فعلوه. في بداية زيارتهم عندما كانت تراقب الألوان بدقة. أؤكد لكم أنها لم تكن على طبيعتها. وكل هذا الهراء عن ضمان خروج الجميع بأمان كان حيلة. لقد «أرادت» أن تذهب معهم. غيروا شخصيتها في الحال بتلك الأشكال الملونة المجنونة. أنا وحدي رأيت هذا.»

استبعد باتريك رواية روبرت الذي كان في حالةٍ من التشوُّش. لكن ناي وافقَت روبرت على نقطتَين أخيرتَين؛ هما أن أيلي لم تقاوم أو تعترض بعد أن طوقها أول أوكتوسبايدر بأذرعه، وقبل أن تخرج من الغرفة أخبرتهم بهدوءٍ بقائمة طويلة من التفاصيل الدقيقة الخاصة بالاعتناء بنيكي.

فقال روبرت: «كيف يمكن لأي شخص في حالته الطبيعية بعد أن تختطفه كائنات فضائية؛ أن يخبرنا بهدوءٍ عن الأغطية التي تحب ابنته أن تحتضنها وهي نائمة، ومتى تغوطت نيكي آخر مرة، وأشياء أخرى من هذا القبيل؟ كانت منومة تنويمًا مغناطيسيًّا بلا شكٍّ أو مخدرة أو ما شابه.»

أما القصة المتعلقة بكيفية انتقال الجميع إلى أسفل المنحدر تحت باب الخروج المحكم الإغلاق، فاتفقَت عليها الروايات. بعد أن غادرت كائنات الأوكتوسبايدر مع إيلي، خرج بينجي يركض في الممر يبكي ويصرخ ويهاجم عبثًا الحارس الأخير لكائنات الأوكتوسبايدر. وانضم إليه روبرت، وتبع الاثنان إيلي والكائنات الفضائية طوال الطريق إلى الغرفة الرئيسية. وكانت البوابة التي تقود إلى النفق الرابع مفتوحة. أبعد أحد كائنات الأوكتوسبايدر بينجي وروبرت وأعاقهما باستخدام أربعٍ من لوامسه الطويلة حتى غادرت الكائنات الأخرى. ثم أغلق الأوكتوسبايدر الأخير البوابة وراءه.

كانت الرحلة في القطار النفقي مبهجة لماكس. فقد ذكَّرته برحلةٍ قام بها إلى مدينة مَلاهٍ كبيرةٍ خارج مدينة ليتل روك، عندما كان صبيًّا في العاشرة من عمره. وكان القطار معلقًا فوق ما بدا أنه شريطٌ معدنيٌّ ولم يتصل بأي شيءٍ وهو يُسرع في النفق. فاستنتج ريتشارد أنه يعمل بالطاقة المغناطيسية بطريقةٍ ما.

توقف القطار بعد ما يقرب من دقيقتَين ثم انفتح الباب سريعًا. نظر المستكشفون الأربعة إلى الخارج ليجدوا رصيفًا منبسطًا أبيض اللون، خلفه مدخل ذو قبة مقوسة ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. قال ماكس: «أعتقد أنه طبقًا للخطة «أ» يجب أن أنزل أنا وإيبونين هنا.»

فقال ريتشارد: «نعم، وبالطبع إذا لم يتحرَّك القطار مرة أخرى، فسننضم إليكما أنا ونيكول بعد وقتٍ قصير.»

أمسك ماكس بيد إيبونين ونزلا بحذر شديد إلى الرصيف. وفور خروجهما بأمان من القطار أغلق الباب. وبعد عدة ثوانٍ انطلق القطار مرة أخرى.

قال ماكس بعد أن لوح هو وإيبونين لريتشارد ونيكول مودعين: «أليس هذا الأمر رومانسيًّا؟ إننا هنا، نحن الاثنان فقط. وحدنا أخيرًا.» ثم أحاط إيبونين بذراعَيه وقبَّلها. وقال: «أريدك أن تعرفي أيتها الفرنسية أنني أحبك. وليس لديَّ أدنى فكرةٍ عن مكاننا، لكن أينما كنا، فأنا سعيدٌ لأنني هنا معك.»

فضحكت إيبونين. وقالت: «كان لديَّ صديقةٌ في دار الأيتام كل حلمها أن تكون على جزيرةٍ قاحلةٍ مع ممثلٍ فرنسيٍّ شهير اسمه مارسيل دوبوا، كان هائل الصدر وله ذراعان ضخمان مثل جذعَي شجرة. أنا أتساءل الآن بماذا كانت ستشعر في مكان كهذا؟» ثم ألقت نظرة حولها. وقالت: «أظن أن علينا عبور ذلك المدخل.»

فهز ماكس كتفَيه. وقال: «إلا إذا جاء أرنب أبيض يركض هنا حتى نتبعه إلى حفرة ما ...»

وعلى الجانب الآخر من المدخل ذي القبة كانت هناك حجرة كبيرة مستطيلة الشكل لها جدران زرقاء. وكانت الغرفة خالية تمامًا، ولها مخرج واحد عبر باب مفتوح إلى رواق ضيق مضاء يسير بمحاذاة نفق القطار. وكانت جدران الرواق جميعها — التي امتدت في الاتجاهَين إلى منتهى نظر ماكس وإيبونين — زرقاء اللون كما في الغرفة خلف المدخل.

فسأل ماكس إيبونين: «أي طريق نسلك؟»

فأجابته إيبونين مشيرة إلى اليمين: «أرى في هذا الاتجاه ما يشبه بابَين يقودان بعيدًا عن القطار.»

فقال ماكس وهو ينظر إلى اليسار: «وهناك أيضًا بابان في ذلك الاتجاه. لمَ لا ندخل إلى أول بابٍ ونلقي نظرة بداخله ثم نضع خطة؟»

فسارا وهي تتأبط ذراعه مسافة خمسين مترًا في الرواق الأزرق. لكن ما رأياه عندما وصلا إلى الباب التالي أصابهما بالخوف. إذ رأيا ممرًّا أزرق مطابقًا للممر الأول يمتد أمامهما عدة أمتار وفي نهايته أبواب أيضًا.

فقال ماكس: «تبًّا. إننا على وشك الدخول في متاهة ... وليس من المحبذ بالتأكيد أن نضل طريقنا.»

فسألته إيبونين: «ماذا تظن علينا أن نفعل؟»

فقال ماكس مترددًا: «أظن ... أظن أن علينا أن نشعل سيجارة ونتناقش في الأمر.»

ضحكت إيبونين. وقالت: «ما كنت لأوافقك على أمر أكثر من هذا.»

تقدم الاثنان في طريقهما بحرص شديد. وفي كل مرة ينعطفان في ممر أزرق يضع ماكس علامات على الحائط باستخدام أحمر شفاه إيبونين، موضحًا بالكامل الطريق إلى الغرفة خلف المدخل المقوس. وأصر أيضًا على أن تحتفظ إيبونين — التي كانت أبرع منه في استخدام الكمبيوتر — بنسختَين من السجلات على جهاز الكمبيوتر المحمول. قال لها: «لاستخدامهما في حالة حدوث شيء يحذف العلامات التي وضعتها.»

في البداية كانت مغامرتهما ممتعة، وعادا أول مرتين إلى المدخل المقوس فقط ليتأكدا من أن ذلك بإمكانهما، فشعرا أنهما حققا إنجازًا مهمًّا. لكن بعد ساعة تقريبًا عندما كان كل انعطاف يقودهما إلى ممر أزرق آخر مطابق للذي سبقه؛ بدأت متعتهما تخبو. وفي النهاية توقف ماكس وإيبونين، وجلسا على الأرض وتشاركا سيجارة أخرى.

قال ماكس وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء: «لماذا يبني أي كائن عاقل مكانًا كهذا؟ فإما أننا نخضع لاختبار من نوع ما دون أن ندري ...»

فأنهت إيبونين جملته قائلة: «أو أن هناك شيئًا هنا لا يريدون أحدًا أن يعثر عليه بسهولة.» ثم التقطت السيجارة من ماكس وأخذت منها نفسًا عميقًا. ثم أكملت: «وإذا كان هذا هو الوضع، فلا بد أن تكون هناك شفرة بسيطة تحدد مكان ذلك الموقع أو الشيء الخاص، شفرة مثل مجموعة قديمة من الأقفال، مثل اليمين الثاني ثم اليسار الرابع ثم ...»

فقاطعها ماكس بابتسامة عريضة قائلًا: «سر في خط مستقيم حتى الصباح.» ثم قبلها ونهض وهو يقول: «إذن ما سنفعله هو «افتراض» أننا نبحث عن شيء خاص، وتنظيم بحثنا تنظيمًا قائمًا على أسس منطقية.»

عندما نهضت إيبونين نظرت إليه وهي مقطبة الجبين. وقالت: «ماذا تعني تلك الجملة الأخيرة بالضبط؟»

فأجابها ماكس وهو يضحك: «لست واثقًا مما تعنيه. لكنَّ لها وقعًا ينم عن الذكاء.»

ظل ماكس وإيبونين يسيران في ممرات زرقاء لمدة أربع ساعات تقريبًا، حين قررا أنه قد حان الوقت لتناول الطعام. وما إن بدآ تناول طعامهما المقدم من سكان راما، حتى رأيا على أقصى يسارهما في تقاطع الممرات شيئًا يمر. هب ماكس واقفًا على قدميه وهرع إلى تقاطع الممرات. ووصل إلى هناك قبل ثوانٍ قليلة من انعطاف عربة صغيرة — لا يزيد ارتفاعها عن عشرة سنتيمترات — إلى اليمين إلى الرواق المجاور. فاندفع ماكس في أثرها وبالكاد رآها وهي تختفي أسفل مدخل مقوس شُقَّ في جدار ممر أزرق آخر على بعد عشرين مترًا.

فصرخ مناديًا على إيبونين: «تعالي إلى هنا. وجدت شيئًا.»

وصلت إليه إيبونين سريعًا. ورأت سقف المدخل المقوس الصغير في الحائط يرتفع خمسة وعشرين سنتيمترًا عن الأرض، لذا كان عليهما أن يجلسا على ركبتَيهما ثم ينحنيا لأسفل ليريا إلى أين ذهبت العربة. وأول ما رأياه هو خمسون أو ستون كائنًا صغيرًا في حجم النملة تقريبًا يخرجون من العربة التي تشبه الحافلة، وينتشرون في جميع الاتجاهات.

فتساءل ماكس: «ما هذا؟»

فقالت إيبونين بحماسة: «انظر يا ماكس. أمعن النظر ... إن هذه الكائنات الصغيرة كائنات أوكتوسبايدر ... أترى؟ ... إنها تشبه ذلك الذي وصفته لي ...»

فقال ماكس: «أجل. معك حق ... لا بد أنها صغار الأوكتوسبايدر.»

فأجابته إيبونين: «لا أعتقد ذلك. انظر إلى الطريقة التي تدخل بها إلى خليتها أو بيتها أو أيًّا كان ذلك ... انظر، هناك قناة من نوع ما وقارب ...»

فصرخ فيها ماكس: «الكاميرا. اذهبي وأحضري الكاميرا ... يوجد هنا مدينة صغيرة كاملة.»

كان ماكس وإيبونين قد أنزلا حقيبتَي ظهرَيهما ومعداتهما الأخرى بما في ذلك كاميرا إيبونين، عندما جلسا على الأرض ليتناولا طعامهما. فقفزت إيبونين وأسرعت لتحضر الكاميرا. واستمر ماكس في مراقبة العالم المصغر المعقد على الجانب الآخر من المدخل المقوس. بعد دقيقة سمع صرخة مكتومة، فسرت قشعريرة خوف باردة في جسده.

قال في نفسه وهو يُهرع عائدًا إلى حيث كانا يتناولان طعامهما: «أيها الغبي. ما كان يجب أن تترك أبدًا بندقيتك.»

عندما انعطف حول الزاوية الأخيرة وقف فجأة. كان يقف بينه وبين المكان الذي تناول فيه الطعام مع إيبونين خمسة كائنات أوكتوسبايدر. وكان أحدهم يحيط جسد إيبونين بثلاثٍ من لوامسه، بينما كان آخر يمسك ببندقيته. وكان ثالث يحمل حقيبة ظهر إيبونين التي رُتِّبت فيها جميع أغراضها الشخصية بعناية.

ارتسم الرعب بأجلى صوره على وجه إيبونين. قالت باستجداء: «ماكس، ساعدني ... أرجوك.»

تقدم ماكس لكن أعاق اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر تقدمه. وأرسل أحدهم سلسلة من الشرائط الملونة حول رأسه. لكن ماكس صرخ فيه بيأس: «أنا لا أفهم ما تحاول أن تخبرني به. لكن يجب أن تتركها.»

ثم اندفع ماكس — مثل لاعب خط الوسط في كرة القدم الأمريكية — متخطيًا أول اثنين من كائنات الأوكتوسبايدر، ونجح تقريبًا في الوصول إلى إيبونين عندما شعر بلوامس تلتف حوله وتثبت ذراعيه بصدره. لم يكن هناك فائدة من المقاومة. كان ذلك الكائن قويًّا لدرجة مذهلة.

بدأ ثلاثة من كائنات الأوكتوسبايدر — ومنهم الذي قبض على إيبونين — السير في الممر الأزرق بعيدًا عنه. فصرخت إيبونين التي تملكها الرعب: «ماكس ... ماكس.» لكن

لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئًا. وبعد مرور دقيقة لم يعد ماكس يسمع صوت صراخ إيبونين.

ظل ماكس محاطًا باللوامس عشر دقائق أخرى، قبل أن يشعر أن العضلات القوية التي كانت تقبض عليه ارتخت. فقال بعد أن وجد نفسه مطلق السراح: «إذن ماذا الآن؟ ما الذي تعتزمان فعله أيها الوغدان؟»

أشار أحد كائنَي الأوكتوسبايدر إلى حقيبته التي كانت لا تزال تستند إلى الحائط حيث تركها ماكس. فجلس إلى جوارها وأخرج منها بعض الطعام والماء. دار حوار بالشرائط الملونة بين كائنَي الأوكتوسبايدر، في حين كان ماكس الذي أدرك جيدًا أنهما يقفان لحراسته يتناول بضع قضمات من طعامه.

قال ماكس لنفسه وهو يفكر في الهروب: «هذه الممرات ضيقة للغاية. وهذه الكائنات ضخمة للغاية، خاصة مع وجود تلك اللوامس الطويلة. أعتقد أنه ليس أمامي سوى أن أنتظر لأرى ما سيحدث.»

لم يتحرك الكائنان من مكانهما لساعات. وفي النهاية استسلم ماكس لسبات عميق على الأرض بينهما.

عندما استيقظ ماكس من نومه وجد نفسه وحيدًا. فسار بحذر شديد إلى أول زاوية ونظر في كلا الاتجاهَين في الممر الأزرق. لكنه لم يرَ شيئًا. وبعد أن قضى دقيقة يدرس علامات أحمر الشفاه التي رسمها على الحائط، ويضيف بعض الكتابات السريعة غير المنظمة لوصف موقع مدينة كائنات الأوكتوسبايدر المتناهية الصغر، عاد إلى الغرفة الموجودة خلف رصيف القطار النفقي.

لم تكن لديه فكرةٌ واضحةٌ عما يجب فعله بعد ذلك. قضى عدة دقائق يتجول في الممرات الزرقاء، وينادي باسم إيبونين من حين لآخر دون جدوى. فقرر في النهاية أن يجلس على الرصيف وينتظر القطار النفقي. وبعد أكثر من ساعة كان ماكس مستعدًّا للعودة إلى مدينة كائنات الأوكتوسبايدر المصغرة، عندما سمع هدير القطار النفقي يقترب. كان قادمًا من الاتجاه المقابل للممرات الرأسية ذات النتوءات.

ومع اقتراب القطار النفقي، رأى ماكس ريتشارد ونيكول عبر نوافذه. وفور أن رأياه صاحا معًا في صوت واحد: «ماكس!» حتى قبل أن يفتح الباب.

كان ريتشارد ونيكول سعيدين جدًّا. وثب ريتشارد إلى الرصيف. وهتف قائلًا: «وجدناها! غرفة كبيرة ذات قبة ترتفع أربعين مترًا تقريبًا بألوان قوس قزح ... توجد

على الجانب الآخر من البحر الأسطواني؛ فالقطار يعبر البحر الأسطواني في نفق شفاف ...» ثم سكت قليلًا فيما تلاشى هدير القطار.

أضافت نيكول بسرعة: «إن بها حمامات وأسرَّة ومياهًا متدفقة.»

«وطعامًا طازجًا، صدق أو لا تصدق ... هناك أنواع غريبة من الفواكه والخضراوات، لكنها رائعة فعلًا لكل ...»

قاطعت نيكول ريتشارد فجأة في منتصف عبارته سائلة: «أين إيبونين؟».

فأجابها ماكس باقتضاب: «فقدتها.»

فقال ريتشارد: «فقدتها؟ كيف ... وأين؟»

فقال ماكس بجفاء: «أصدقاؤكما غير العدائيين اختطفوها.»

فقال ريتشارد: «ماذا؟»

قص عليهما ماكس ما حدث ببطء وبالتفاصيل دون أن يحذف أيَّ تفصيلة مهمة. فاستمع ريتشارد ونيكول بانتباهٍ حتى انتهى من قصته. وفي النهاية علق ريتشارد وهو يهز رأسه: «كانوا أكثر ذكاءً منا.»

فقال ماكس بإحباط: «ليس منا. بل مني أنا. تركوني أنا وإيب نعتقد أننا نحل لغزًا ما في متاهة الأروقة الزرقاء ... تبًّا.»

فقالت نيكول بهدوء وهي تضع يدها على كتف ماكس: «لا تقسُ على نفسك. فلم تكن لتعلم ما سيحدث ...»

فقال ماكس وهو يرفع صوته: «لكنه غباء محكم. أحضرتُ هذه البندقية للحماية، لكن أين كانت البندقية عندما ظهر أصدقاؤنا ذوو الأرجل الثماني؟ كانَت إلى جانب الحائط ...»

قال ريتشارد: «كنتُ أنا ونيكول في مكان مماثل، فيما عدا أن جميع الأروقة كانت حمراء لا زرقاء. وقد استكشفتُ المكان أنا ونيكول لمدة ساعة تقريبًا ثم عدنا إلى الرصيف. وفي غضون عشر دقائق اصطحبنا القطار مرة أخرى وعبر بنا البحر الأسطواني.»

سألت نيكول ماكس: «هل بحثت عن إيبونين؟»

فأومأ ماكس برأسه. وقال: «إلى حد ما. جلت بالمكان هنا وهناك وأنا أنادي باسمها عدة مرات.»

فاقترحت نيكول: «ربما يجدر بنا أن نحاول مرة أخرى.»

عاد الأصدقاء الثلاثة إلى عالم الأروقة الزرقاء. وعندما وصلوا إلى التقاطع الأول، شرح ماكس لنيكول وريتشارد العلامات التي وضعها بأحمر الشفاه على الحائط. ثم قال: «أعتقد

أننا يجب أن ننفصل. فهذه الطريقة على الأرجح ستكون أكثر فعالية للبحث عنها ... ما رأيكما أن نتقابل في الغرفة خلف المدخل المقوس بعد نصف ساعةٍ مثلًا؟»

وفي الزاوية الثانية، لم يعثر ماكس الذي كان يبحث وحده على أي علامات لأحمر الشفاه. فشعر بالحيرة وحاول أن يتذكر، ربما نسي وضع علامات في جميع الانعطافات، أو ربما لم يسلك ذلك الطريق قط ... وبينما كان مستغرقًا في أفكاره شعر بيد على كتفه، ففزع بشدة.

فقال ريتشارد عندما رأى وجه صديقه: «لا تفزع. إنه أنا ... ألم تسمعني وأنا أناديك؟»

فقال ماكس وهو يهز رأسه: «لا.»

«كنت على بُعد رواقَين فقط ... لا بد أن هناك تقنيات رائعة للتخفيف من الصوت في هذا المكان ... على كل حال لم أجد أنا أو نيكول أيًّا من خرائطك عندما انعطفنا. لذا لم نكن واثقين ...»

فقال ماكس بقوة: «تبًّا. هؤلاء الأوغاد الأذكياء نظفوا الجدران ... ألا ترى؟ خططوا للأمر من البداية، ونحن فعلنا بالضبط ما توقعوه.»

فقال ريتشارد: «لكن يا ماكس، من المستحيل أن يكونوا قد توقعوا «كل شيء» سنفعله. نحن أنفسنا لم نكن نعرف بالضبط خطتنا، فكيف يمكنهم هم ...؟»

فقال ماكس: «لا يمكنني أن أفسر هذا. لكن هذا ما أشعر به. انتظرت تلك الكائنات حتى بدأتُ أنا ونيكول تناول طعامنا قبل أن يجعلونا نرى تلك العربة. «عرفوا» أننا سنطاردها وستكون لديهم فرصة لأسر إيبونين ... كانوا يراقبوننا جميعًا بطريقة ما طوال الوقت ...»

رأى ريتشارد ونيكول أن جهود البحث عن إيبونين في متاهة الأروقة الزرقاء ستذهب هباءً، ووافقهما ماكس على ذلك. قال في حزن: «إنها بالتأكيد لم تعُد موجودة هنا.»

وبينما انتظر ثلاثتهم على الرصيف حتى يعود القطار، أخبر ريتشارد ونيكول ماكس المزيد من التفاصيل عن الغرفة الكبيرة ذات القبة على شكل قوس قزح، الموجودة في الجزء الجنوبي من البحر الأسطواني. وبعد أن انتهيا قال ماكس: «حسنًا، هناك علاقة واحدة واضحة للمزارع القادم من آركنساس. وهي أن قوس قزح في القبة مرتبط بوضوح بقوس قزح الذي كان في السماء، والذي شتت انتباه قوات ناكامورا. لذا فإن هؤلاء الأشخاص الذين صنعوا قوس قزح — أيًّا كانوا — لا يريدوننا أن نقع في أيدي القوات. أو نموت جوعًا

... وهم على الأرجح مَن صنع ذلك القطار، أو على الأقل هذا ما يبدو لي منطقيًّا. لكن ما العلاقة بين أصحاب قوس قزح وكائنات الأوكتوسبايدر؟»

أجابه ريتشارد: «قبل أن تخبرني عن اختطاف إيبونين كنت واثقًا أن الاثنين واحد. لكن الآن لا أعرف. فمن الصعب تفسير ما مررت به إلا على أنه عملٌ عدائي.»

فضحك ماكس وقال: «ريتشارد، إن لك طريقةً مميزةً في استخدام الكلمات. لماذا تفترض براءة هؤلاء الأوغاد قبيحي الخلقة؟ من الممكن أن أتوقع هذا من نيكول، لكن تلك الكائنات احتجزتك لأشهر، وأدخلت كائنات صغيرة إلى أنفك، ومن المرجح أنها تلاعبت في مخك أيضًا ...»

فقال ريتشارد بهدوء فيما بدا أنها المرة المائة التي يكرر فيها العبارة: «لا نعلم ذلك على وجه اليقين.»

فقال ماكس: «حسنًا، لكنني أعتقد أنك تتجاهل أدلة كثيرة ...»

سكت ماكس عندما سمع صوت هدير القطار المألوف. وصل القطار متجهًا إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر. فقال ماكس بسخرية قبل أن يستقلوا القطار: «لماذا يأتي القطار دائمًا في الاتجاه الصحيح؟»

تمكن باتريك في نهاية المطاف من أن يقنع روبرت وناي بالعودة إلى غرفة المتحف. بالطبع لم يكن هذا بالأمر السهل. فقد تعرض كلاهما والأطفال إلى صدمة كبيرة عندما هاجمتهم كائنات الأوكتوسبايدر. وهناك لم يغمض لروبرت جفن، ورأى التوءمان في نومهما الكثير من الكوابيس التي كانا يستيقظان منها وهما يصرخان. وعندما وصل ريتشارد ونيكول وماكس كان الطعام قد نفد تقريبًا، وكان باتريك قد بدأ بالفعل يفكر في خططٍ بديلة.

لكن كان اجتماع الشمل مليئًا بالشجن. فقد قص كل فريق على الآخر قصة الاختطاف التي تعرض لها بالتفصيل، الأمر الذي ترك جميع الكبار مكتئبين بشدة حتى نيكول. ولم يتأثر أحد بشدة بحقيقة وجود غرفة قبة قوس قزح في الجنوب. لكن لم يكن هناك أي شك فيما يجب فعله. لخص ريتشارد موقفهم باقتضاب. فقال: «على الأقل هناك طعام أسفل القبة.»

جمعت العائلة الكبيرة جميع أغراضها في صمت. وحمل باتريك وماكس الأطفال وهم يهبطون الممر الرأسي ذا النتوءات. وبعد أن استقر الجميع على الرصيف بوقت قصير ظهر القطار. ولم يتوقف في رحلته في المحطتَين في وسط الطريق كما تنبَّأ ماكس متهكمًا، لكن

بدلًا من ذلك انطلق في طريقه إلى النفق الشفاف عبر البحر الأسطواني. وكان الأطفال مفتونين بالمخلوقات البحرية الغريبة الرائعة الموجودة على جانبَي جدار النفق، وجميعها بالتأكيد كائنات آلية، ذكَّرت ريتشارد برحلته السابقة إلى نيويورك قبل سنوات عندما حضر بحثًا عن نيكول.

كانت الغرفةُ الكبيرةُ أسفل القبة بعد وصول القطار مذهلةً حقًّا. ومع أن بينجي والأطفال كانوا مهتمين أكثر في البداية، بتنوع الطعام الطازج الجديد الذي كان موضوعًا على مائدةٍ طويلةٍ في أحد جوانب الغرفة، فقد كان الكبار يتجولون في دهشة، ليس فقط محدقين في الألوان الرائعة لقوس قزح فوق رءوسهم، لكن أيضًا متفحصين الغرف الصغيرة الموجودة خارج الرصيف، حيث وجدوا الحمامات وغرف النوم المخصصة لكل فرد.

قاس ماكس أبعاد أرضية الغرفة الرئيسية. ووجد أن عرضها خمسون مترًا تقريبًا، والمسافة بين رصيف القطار والغرف نحو أربعين مترًا. وبعد بضع دقائق جاء باتريك ليتحدث إلى ماكس، الذي وقف في ذلك الوقت إلى جانب الشق المخصص للقطار في الرصيف. وكان الآخرون يناقشون تقسيم غرف النوم.

قال باتريك وهو يضع يده على كتف صديقه: «أنا آسف بشأن ما حدث لإيبونين.»

فهز ماكس كتفَيه وقال: «من المؤسف فقدان إيلي. فأنا لا أعلم إن كان روبرت ونيكي سيتجاوزان الأمر تمامًا.»

وقف الرجلان جنبًا إلى جنب يحدقان في النفق الطويل المظلم الخالي. ثم قال ماكس بحدة: «أتعرف يا باتريك؟ أتمنى أن أقنع المزارع بداخلي أن مشكلاتنا انتهت، وأن أصحاب قوس قزح سيعتنون بنا.»

في تلك اللحظة جاء كيبلر يجري ومعه نوع من الخُضَر يشبه جزرًا أخضر اللون. وقال: «سيد ماكس، يجب أن تجرب هذا الصنف. إنه الأفضل.»

قبل ماكس هدية الطفل الصغير ووضعها في فمه. وقضمها. ثم قال وهو يداعب شعر الصبي: «إنها جيدة يا كيبلر. شكرًا جزيلًا لك.»

فأسرع كيبلر عائدًا للآخرين. مضغ ماكس الثمرة ببطء. ثم قال لباتريك: «لطالما اعتنيت جيدًا بخنازيري ودجاجي. فكنت أوفر لهم طعامًا جيدًا وظروف معيشة مريحة.» قالها وهو يشير بيده اليمنى إلى القبة والمائدة المحملة بالطعام. وأكمل: «لكنني كنت أيضًا أُخرج القليل من الحيوانات في كل مرة أكون مستعدًّا فيها لذبحها أو بيعها في السوق.»

غرفة قوس قزح

١

كانت نيكول ترقد على ظهرها مستيقظة مجددًا في منتصف الليل. وعلى ضوء غرفة نومهما الخافت رأت ريتشارد نائمًا بسلام إلى جوارها. وبعد مرور بعض الوقت نهضت بهدوء واجتازت الغرفة، وخرجت إلى الغرفة الرئيسية الكبيرة في منزلهم المؤقت.

كانت المخلوقات العاقلة التي تتحكم في الإضاءة تجعل من النوم أمرًا سهلًا على البشر؛ إذ كانت تخفت الضوء الواصل إليهم عبر قبة قوس قزح ثماني ساعات تقريبًا، كل أربع وعشرين ساعة. في فترات «الليل» تلك تكون الغرفة الرئيسية أسفل القبة مضاءة بضوء خافت، وكانت غرف النوم الفردية المحفورة في الجدران — التي ليس بها إضاءة مستقلة — مظلمة بصورة كافية لنوم هادئ.

ولعدة ليالٍ متتالية نامت نيكول على نحو متقطع، واستيقظت في الغالب على أحلام مزعجة لا تستطيع تذكرها جيدًا. وفي تلك الليلة بالتحديد، وبينما كانت نيكول تجاهد عبثًا كي تتذكَّر الصور التي أقلقت منامها، سارَت بهدوء حول الغرفة الدائرية الكبيرة التي يقضي فيها أفراد عائلتها وأصدقاؤها معظم وقتهم. وفي الجانب البعيد من الغرفة بالقرب من رصيف القطار الخاوي، توقفت وحدقت في النفق المظلم الذي يعبر البحر الأسطواني.

قالت نيكول في نفسها متسائلة: «ماذا يحدث هنا حقًّا؟ ما القوة أو الكائنات العاقلة التي تتولى رعايتنا الآن؟»

مرَّ على وصول الوفد البشري الصغير إلى ذلك المأوى المذهل المصمم أسفل جزء الأسطوانة الجنوبي من راما؛ أربعةُ أسابيع. ومن الواضح أن مسكنهم الجديد صُمم

خصوصًا من أجلهم بمجهودات ضخمة. إذ كانت غرف النوم المجوفة في الجدران والحمامات لا تختلف عن تلك التي في عدن الجديدة. وأول قطار نفقي حضر بعد وصولهم إلى القبة كان يحمل المزيد من الطعام والمياه، بالإضافة إلى أرائك ومقاعد ومناضد كي يُؤَثِّثوا المكان الذي يعيشون فيه. كما تلقوا صحونًا وأكوابًا وأدوات مائدة. فمَن أو ما الذي يعرف ما يكفي من المعلومات عن أنشطة الحياة اليومية للبشر، حتى يمدهم بمثل هذه الأدوات الدقيقة؟

فكرت نيكول: «من الواضح أنه شخص راقبنا عن كثب.» واستحضر ذهنها صورة للرجل النسر، لكنها أدركت أن تلك ليست إلا أماني. ثم عادت تقول لنفسها: «لكن مَن قد يكون غيره؟ فسكان راما والكائنات العاقلة في النود فقط لديها معلومات كافية ...»

قاطع صوت أتى من خلفها أفكارها. فاستدارت لترى ماكس باكيت يقترب منها من الجانب الآخر للغرفة. قال وهو يقترب أكثر: «ألا تستطيعين النوم أنت الأخرى؟»

فهزت نيكول رأسها وقالت: «راودتني أحلام سيئة في الليالي الأخيرة.»

فقال ماكس: «أنا لا أنفك أقلق على إيبونين. نظرة الرعب التي ملأت عينيها وهم يأخذونها بعيدًا لا تغيب عن ذهني.» ثم استدار في صمت ليواجه نفق القطار.

فتساءلت نيكول في نفسها وهي تشعر بقلق شديد يجتاح كيانها: «ماذا عنكِ يا إيلي؟ هل أنتِ آمنة مع كائنات الأوكتوسبايدر؟ أم إن ماكس محق بشأنها؟ هل نخدع أنا وريتشارد أنفسنا عندما نقول إن كائنات الأوكتوسبايدر لا تعتزم إيذاءنا؟»

قال ماكس بهدوء لنيكول: «لا يمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك. لا بد أن أفعل شيئًا لمساعدة إيبونين ... أو على الأقل كي أقنع نفسي أنني أحاول.»

فسألته نيكول بعد صمت قصير: «لكن ماذا يمكنك أن تفعل يا ماكس؟»

فقال ماكس: «إن صلتنا الوحيدة بالعالم الخارجي هي ذلك القطار اللعين. في المرة القادمة التي يأتي فيها بالطعام والماء، وسيكون هذا على الأرجح الليلة أو غدًا، أعتزم أن أستقله وأبقى بداخله. وعندما يغادر سأظل على متنه حتى يتوقف. ثم سأحاول العثور على كائن أوكتوسبايدر وأحرص على أن يأسرني.»

رأت نيكول علامات اليأس التي ارتسمت على وجه صديقها. فقالت برفق: «إنك كالغريق الذي يتمسك بقشة يا ماكس. لن تجد أي كائن أوكتوسبايدر إلا إذا أرادت تلك الكائنات ذلك ... بالإضافة إلى أننا نحتاج إليك.»

فأجابها ماكس بصوت مرتفع: «تبًّا يا نيكول، لا أحد يحتاج إليَّ هنا. ولا يوجد أيُّ شيءٍ نفعله، سوى تحدُّث بعضنا إلى بعض أو اللعب مع الأطفال. على الأقل في مخبئكما كانت هناك فرصةٌ لأن نتنزَّه في ظلام نيويورك سيرًا على الأقدام ... في هذه الأثناء قد تكون إيبونين وإيلي قد ماتتا، أو تتمنيان الموت. حان الوقت كي نفعل شيئًا ...»

وبينما كان يتحدث، رأى كلاهما بصيص ضوءٍ يأتي من بُعدٍ في نفق القطار. فقال ماكس: «ها قد أتى مرة أخرى. سأساعدكِ على تفريغ حمولته بعد أن أنتهي من جمع أغراضي.» واندفع في اتجاه غرفة نومه.

وقفت نيكول تراقب القطار يقترب. وكالعادة أضاء الضوء أمام القطار وهو مسرع في النفق. وبعد بضع دقائق توقف القطار في الجزء المخصص له، وهو عبارة عن شق في أرضية الغرفة الدائرية، وتوقف فجأة. وبعد أن فُتحت الأبواب دخلت نيكول لتفحص ما بداخل العربة.

كان بداخل القطار، بالإضافة إلى أربعة أوعية كبيرة من الماء، المجموعةُ المعتادة من المنتجات الطازجة، التي تعلَّم البشر أن يأكلوها ويستمتعوا بها أيضًا، وأنبوب كبير يُخرج عند الضغط عليه مادةً لزجة يشبه طعمها مزيجًا من البرتقال والعسل. فسألت نيكول نفسها للمرة المائة وهي تبدأ في تفريغ الطعام: «لكن أين ينمو كل هذا الطعام؟» وتذكرت النقاشات العائلية الطويلة حول هذا الموضوع. وكانت النتيجة التي توصلوا إليها بالإجماع دائمًا هي أنه لا بد من وجود مزارع شاسعة في مكان ما، في نصف الأسطوانة الجنوبي.

أما فيما يتعلَّق بهُوية «مَن» يطعمهم فلم يكن ثمة خلافٌ كبير. كان ريتشارد متأكدًا أن كائنات الأوكتوسبايدر هي من تتولى هذا الأمر، ويرجع ذلك في المقام الأول لأن المؤن التي تصل إليهم تمر عبر المنطقة التي تعتبر خاضعة لنفوذ الأوكتوسبايدر. وكان من الصعب الرد على المنطق الذي تحدث به، ووافقه ماكس على أن كائنات الأوكتوسبايدر هي من يمدهم بالطعام. إلا أنه كان يعزو سلوكها إلى دوافع شريرة. وشدد على أنه إذا كانت كائنات الأوكتوسبايدر هي مَن يطعمهم فإن ذلك ولا شك ليس لأهداف نبيلة.

وتساءلت نيكول في نفسها: «لماذا تتولى كائنات الأوكتوسبايدر مهمة إمدادنا بالطعام؟ إنني أتفق مع ماكس في أن إمدادنا بالطعام يتضارب مع اختطاف إيبونين وإيلي ... أليس من الممكن أن يكون هناك نوع آخر من الكائنات مشارك في العملية؟ جنس اختار أن يتدخَّل لمصلحتنا؟» ومع أن ريتشارد سخر بأسلوب مهذب من الفكرة عندما كانا وحدهما

في غرفتهما، فإن جزءًا من نيكول تشبث بعناد بأمل أن يكون هناك بالفعل «أناس قوس قزح» أعلى في سلسلة التطور من كائنات الأوكتوسبايدر، تهتمُّ بطريقةٍ ما بالحفاظ على البشر الضعفاء، وتأمر كائنات الأوكتوسبايدر أن توفر لهم الطعام.

دائمًا ما كان القطار يحمل لهم مفاجأة. وهذه المرة كانت المفاجأة موجودةً في مؤخرة العربة وهي ست كراتٍ مختلفة الحجم، كلٌّ منها له لون زاهٍ.

كان ماكس قد عاد بحقيبته وكان يساعدها على تفريغ حمولة القطار. فقالت له نيكول: «انظر يا ماكس. لقد أرسلوا كرات للأطفال ليلعبوا بها.»

فقال ماكس متهكمًا: «رائع. الآن سيتشاجر الأطفال لتحديد أي الكرات تخص أيهم.»

وعندما انتهيا من إفراغ محتويات القطار، دخل ماكس وجلس على الأرضية. فسألَته نيكول: «كم من الوقت ستنتظر؟»

فأجابها ماكس بحدة: «مهما استغرق الأمر.»

فسألته: «هل ناقشت ما أنت بصدد فعله مع أي شخص آخر؟»

فأجابها ماكس بحدة: «بالطبع لا. ولم أفعل هذا؟ فنحن لا ندير جمهوريةً ديمقراطية هنا.» ثم انحنى إلى الأمام في جلسته، وقال: «أنا آسف يا نيكول، لكنني غاضب جدًّا الآن. مضى شهر منذ أن اختُطفت إيبونين، ونفدت سجائري، ومن السهل إثارة غضبي الآن.» ثم أجبر نفسه على الابتسام وقال: «اعتاد كلايد ووينونا أن يخبراني عندما أتصرف بهذا الشكل أنني سيئ المزاج.»

قالت نيكول: «لا بأس يا ماكس.» ثم عانقته عناقًا سريعًا قبل أن يغادر وهي تقول: «أتمنى فقط أن تكون بأمان في المكان الذي ستذهب إليه.»

لم يرحل القطار. لكن ماكس رفض بعناد أن يغادره، ولو للذهاب إلى الحمام. وكان أصدقاؤه يحضرون له الطعام والماء وما يلزم للحفاظ على نظافة القطار. وبنهاية اليوم الثالث كان مخزون الطعام لديهم ينخفض بسرعة.

فقال روبرت للبالغين الآخرين بعد أن أخلد الأطفال للنوم: «لا بد أن يتحدث أحدنا إلى ماكس قريبًا. من الواضح أن القطار لن يتحرك من مكانه ما دام على متنه.»

فقالت نيكول: «أنا أنوي مناقشة الموقف معه في الصباح.»

فقال روبرت معترضًا: «لكن الطعام ينفد منا الآن. ولا نعلم المدة التي يستغرقها القطار حتى يُحضر لنا المزيد ...»

فقاطعه ريتشارد: «يمكننا أن نرشد استهلاك ما تبقى لدينا من طعام، ونجعله يكفينا لمدة يومَين إضافيَّين ... اسمعني يا روبرت، إننا جميعًا متوترون ومتعبون ... وسيكون من الأفضل أن نتحدَّث إلى ماكس بعد أن نحظى بقسطٍ من الراحة.»

وبعد أن أصبح ريتشارد ونيكول وحدهما، سألها ريتشارد: «ماذا سنفعل إذا رفض ماكس مغادرة القطار؟»

فقالت نيكول: «لا أدري. سألني باتريك السؤال نفسه بعد ظهر اليوم ... إنه يخشى ما قد يحدث إذا أجبرنا ماكس على مغادرة القطار ... وقال إن ماكس مرهق للغاية وغاضب جدًّا أيضًا.»

كان ريتشارد يغط في النوم، قبل أن تهدأ أفكار نيكول بشأن الطريقة الأفضل لإقناع ماكس. كانت تقول في نفسها: «يجب تجنب الصدام بشتى الطرق. هذا يعني أني يجب أن أتحدث معه على انفراد، دون أن يسمعنا أحد ... لكن ماذا أقول له؟ وكيف أتصرف إذا لم يستجب؟»

عندما نامت نيكول أخيرًا كانت منهكة، ومرة أخرى عادت إليها الأحلام المضطربة. في الحلم الأول رأت الفيلَّا في بوفوا تشتعل ولم تستطع العثور على جنيفياف. ثم تغير مكان الحلم فجأة، وعادت نيكول في السابعة من عمرها في ساحل العاج تشارك في احتفال البورو. وكانت تسبح نصف عارية في البركة الصغيرة في وسط الواحة. وعلى ضفاف البركة كانت أنثى الأسد تطوف خلسة؛ بحثًا عن الفتاة الصغيرة التي أزعجت شبلها. فغطست نيكول كي تتجنب أن تراها أنثى الأسد الحادة النظر. وعندما رفعت رأسها لتلتقط أنفاسها، كانت أنثى الأسد قد رحلت، لكن كان هناك ثلاثة من كائنات الأوكتوسبايدر تراقب البركة.

وسمعت نيكول إيلي وهي تناديها: «أمي، أمي.»

جالت نيكول بعينيها في أرجاء البركة وهي تسير في الماء. قال صوت إيلي بوضوح: «نحن بخير يا أمي. لا تقلقي علينا.»

لكن أين كانت إيلي في المشهد؟ رأت نيكول في الحلم خيال إنسان في الغابة خلف كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة، فصاحت: «إيلي، هل هذا أنت يا إيلي؟»

فقال الخيال بصوت إيلي: «نعم»، ثم سار إلى مكان يمكن رؤيته فيه في ضوء القمر. تعرَّفت نيكول على الفور الأسنانَ الناصعةَ البياض.

صاحَت وقد اجتاحت كيانها موجةٌ من الرعب: «أومه، أومه ...»

استيقظت نيكول من نومها على وكزٍ مستمر. فوجدت ريتشارد يجلس بجوارها على الفراش. قال لها: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟ كنت تصرخين باسم إيلي ... ثم اسم أومه.»

فقالت نيكول وهي تنهض وترتدي ملابسها: «رأيت حلمًا آخر من أحلامي الجلية. أخبروني أن إيبونين وإيلي بخير، أيًّا كان مكانهما.»

انتهت نيكول من ارتداء ملابسها. سألها ريتشارد: «إلى أين أنت ذاهبة في هذه الساعة؟»

فأجابته: «سأتحدث إلى ماكس.»

ثم هُرعت خارجةً من غرفة نومهما إلى الغرفة الرئيسية أسفل القبة. ولسببٍ ما وجدت نفسها تلقي نظرةً على السقف فور أن دخلت الغرفة. فرأت شيئًا لم تلاحظه من قبل. بدا أن هناك مكانًا للهبوط أو رصيفًا مشقوقًا عدة أمتار أسفل القبة. فتساءلت نيكول في نفسها: «لماذا لم أرَهُ من قبل؟ هل لأن الظلال مختلفة أثناء النهار؟ أم لأنه بُني حديثًا؟»

كان ماكس ينام متكورًا في زاوية القطار. فدخلت نيكول إلى العربة بهدوء. وقبل أن تمسه بثوانٍ قليلة سمعته يردد اسم إيبونين مرتين. ثم اهتز رأسه وقال بوضوح: «نعم يا عزيزتي.»

همست نيكول في أذنه: «ماكس. استيقظ يا ماكس.»

عندما استيقظ ماكس كان كمن رأى شبحًا. فقالت له نيكول: «رأيت حلمًا مذهلًا يا ماكس. أنا الآن أعلم أن إيلي وإيبونين بخير ... وجئت لأطلب منك أن تغادر القطار، ليتمكن من إحضار المزيد من الطعام لنا. أنا أعلم أنك تريد بقوة أن تفعل شيئًا ...»

سكتت نيكول. إذ نهض ماكس ووقف على قدميه واستعد لينزل من القطار. كانت نظرة الذهول لا تزال على وجهه. قال: «هيا بنا.»

فقالت نيكول وهي مندهشة أنها لم تواجه الكثير من المقاومة منه: «بهذه السهولة؟»

فقال ماكس وهو ينزل من القطار: «نعم.» وبعد بضع لحظاتٍ من خروج نيكول من القطار هي الأخرى، أُغلِقَت الأبواب وتحرَّكت العربة مسرعةً بعيدًا عنهما.

فقال ماكس وهو يراقب مع نيكول القطار وهو يختفي: «عندما أيقظتني كنت في منتصف حلم. كنت أتحدث إلى إيبونين. وقبل أن أسمع صوتك بلحظة أخبرتني أنك ستبلغينني برسالة مهمة.»

ارتجف جسد ماكس، ثم ضحك وبدأ يسير في اتجاه الغرف: «بالطبع لا أُومِن بالحاسة السادسة وهذه الخرافات، لكنها مصادفة فريدة.»

عاد القطار مرة أخرى قبل أن يحل الظلام. هذه المرة كان يتكوَّن من عربتَين. الأولى كانت مضاءةً ومفتوحةً ومليئةً بالطعام والماء كالعادة. أما الثانية فكانت مظلمةً تمامًا. ولم تفتح أبوابها وكانت نوافذها مغطَّاة.

فقال ماكس وهو يتجه إلى حافة المكان المخصص للقطار، محاولًا سدًى فتح العربة الثانية: «حسنًا، ماذا لدينا هنا؟»

وبعد تفريغ العربة الأمامية من الطعام والماء، لم يرحل القطار كالعادة. فانتظر البشر، لكن العربة الثانية الغامضة رفضت أن تبوح بأسرارها. وفي النهاية قررت نيكول وأصدقاؤها أن يتناولوا عشاءهم. وكان الحوار الذي دار بينهم أثناء العشاء هادئًا ومليئًا بافتراضات حذرة عن المتطفل الجديد.

وعندما اقترح كيبلر الصغير ببراءةٍ احتماليةَ أن تكون إيبونين وإيلي داخل العربة المظلمة، أخبرتهم نيكول مرة أخرى أنها عثرت على ريتشارد في غيبوبةٍ بعد إقامته الطويلة مع كائنات الأوكتوسبايدر. فساد بين المجموعة إحساسٌ بالترقُّب.

وبعد العشاء تقدَّم ماكس باقتراحٍ فقال: «لا بد أن نظل نراقب أثناء الليل، حتى لا تحدث أي خدعة شريرة ونحن نائمون. وأنا سأتولى نوبة المراقبة للساعات الأربع الأولى.»

تطوع باتريك وريتشارد أيضًا للمساعدة في المراقبة. وقبل الذهاب إلى الفراش ذهبت العائلة بالكامل بما فيها بينجي والأطفال إلى حافة الرصيف، وحدقوا في القطار. ثم سأل بينجي والدته: «ماذا قد يكون بداخله يا أمي؟»

فأجابت نيكول وهي تحتضن ابنها: «لا أعلم يا حبيبي. ليس لديَّ أدنى فكرة.»

وقبل ساعةٍ من سطوع أنوار القبة معلنة بَدْء صباح اليوم التالي، أيقظ باتريك وماكس ريتشارد ونيكول. وقال ماكس بانفعال: «تعاليا، يجب أن تريا هذا ...»

وفي منتصف الغرفة الرئيسية، كان هناك أربعة كائناتٍ سوداء اللون كبيرة الحجم مقسمة الجسد، تشبه النمل في الشكل والبنية. وفي كل جزءٍ من الأجزاء الثلاثة المكونة لأجسامها، كان هناك زوجانِ من الأرجل وزوجان من الزوائد القادرة على الإمساك بالأشياء، وكما رأى البشر كانَت مشغولةً بتكديس بعض المواد في أكوام. كان مشهدًا مذهلًا. فقد كانت كل «ذراع» من الأذرع الطويلة التي تشبه الثعبان تتمتَّع بحرية حركة خرطوم الفيل، لكنها تتمتع بقدرة أخرى مفيدة. فعندما تكون إحدى أذرعه غير مستخدمةٍ في رفع شيء، أو موازنة ثقل يحمله بالذراع المقابلة، فإنها تنسحب إلى «جراب» في جانب الكائن، حيث تظل مطويَّةً بإحكام داخل جرابها حتى يحتاج الكائن إليها مرة أخرى. ومن ثم عندما تكون الكائنات الغريبة لا تؤدي أي مهام، تكون أذرعها غير مرئية ولا تعوق حركتها.

استمر البشر المذهولون مستغرقين في مشاهدة الكائنات الغريبة، التي يبلغ طولها مترَين وارتفاعها مترًا، وهي تفرغ بسرعة محتويات عربة القطار المظلمة، ثم تفحص الأكوام على عجالة وترحل مع القطار. وفور أن اختفَت الكائنات الفضائية، اتجه ماكس وباتريك وريتشارد ونيكول لفحص الأكوام. كانت هناك أجسامٌ من جميع الأشكال والأحجام، لكن الجزء المنفرد الموجود بأكثر كميات عبارة عن قطعةٍ طويلةٍ مستقيمةٍ تُشبه درجات السلم المعهودة.

وقال ريتشارد وهو يلتقط جسمًا صغيرًا على شكل قلم حبر: «إذا كنت سأخمن، أعتقد أن هذه المواد تقع بين الأسمنت والصُّلب من حيث قوة التحمل.»

فسأله باتريك: «لكن فيمَ تُستخدَم هذه المواد يا عم ريتشارد؟»

«أعتقد أنهم يعتزمون بناء شيء ما.»

فسأله ماكس: «ومَن هم؟»

فهز ريتشارد كتفَيه ورأسه. وقال: «أعتقد أن هذه الكائنات المذهلة التي غادرت لتوها حيوانات منزلية متقدمة، قادرة على القيام بمهام متتابعة معقدة دون تفكير حقيقي.»

فقال باتريك: «إذن هم ليسوا أناس قوس قزح الذين كانت أمي تتحدث عنهم؟»

فأجابته نيكول بابتسامة باهتة: «بالطبع لا.»

أثناء تناول الإفطار، قصَّت المجموعة التي رأت الكائنات الجديدة على باقي أفراد العائلة وحتى الأطفال ما حدث بالكامل. واتفق البالغون أنه إذا عادت الكائنات الفضائية كما هو متوقع، يجب ألَّا يتدخل أحدٌ في العمل الذي جاءت لتنجزه، إلا إذا تقرَّر أن أنشطتها تمثل تهديدًا خطيرًا عليهم.

عندما عاد القطار ليقف في المكان الخاص به على الرصيف بعد ثلاث ساعات، خرج اثنان من الكائنات الجديدة من العربة الأمامية، وأسرعا إلى منتصف الغرفة الرئيسية. وكان كلٌّ منهما يحمل إناءً صغيرًا يضع إحدى أذرعه فيه من حين لآخر، وهو يضع علامات حمراء زاهية على الأرض. وفي النهاية بينت تلك الخطوط الحمراء حدود منطقة تشمل رصيف القطار، وجميع المواد التي وضعت في أكوام ونحو نصف مساحة الغرفة.

وبعد لحظات خرج نحو اثنَي عشر كائنًا من الكائنات الضخمة ذات الزوائد الخرطومية من عربتَي القطار، العديد منها يحمل على ظهورها أشكالًا منحنية الأضلاع ثقيلة وكبيرة. وتبعها اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر تتدفَّق حول رأسَيهما الكرويتَين

ألوانٌ ساطعة بصورةٍ غير عادية. دخل كائننا الأوكتوسبايدر إلى منتصف الغرفة، حيث فحصا أكوام المواد، ثم أمرا الكائنات الشبيهة بالنمل بأن تبدأ بما بدا كأعمال بناء.

وبينما وقف ماكس وباتريك يراقبان ما يحدث من بعيدٍ قال ماكس لباتريك: «إذن فقد ازدادت المؤامرة تعقيدًا. إن أصدقاءنا كائنات الأوكتوسبايدر هي بالفعل التي تسيطر على الموقف، لكن ما الذي تفعله؟»

أجابه باتريك وهو مذهول بما يراه: «مَن يدري؟»

قال ريتشارد بعد دقائق قليلة: «انظري يا نيكول إلى هناك بجوار تلك الكومة الكبيرة. إن هذه الكائنات التي تشبه النمل تفهم بلا شكٍّ ألوان الأوكتوسبايدر.»

فقالت نيكول بصوت منخفض: «إذن ماذا نفعل الآن؟»

فأجابها ريتشارد: «أعتقد أننا سنكتفي بالمراقبة والانتظار.»

كانت جميع أعمال البناء تحدث داخل الخطوط الحمراء التي رُسمت على الأرض. وبعد عدة ساعات، بعد أن وصل قطارٌ آخر محمَّلٌ بمكونات الإنشاء منحنية الأضلاع وجرى تفريغه، اتضح الشكل العام لما يُبنى. كانوا يشيدون في أحد جوانب الغرفة أسطوانة رأسية يصل قطرها إلى أربعة أمتار. وفي النهاية وُضع الجزء العلوي منها أسفل القبة. ووُضعت داخل الأسطوانة درجات السلم بحيث تدور حول وسط البناء وحتى أعلاه.

استمر العمل لمدة ست وثلاثين ساعة دون توقف. وكان المهندسان من كائنات الأوكتوسبايدر يشرفان على النمل العملاق ذي الأذرع المرنة. ولم تتوقف أنشطة البناء حقًّا إلا عندما قفزت كرة كان كيبلر وجاليليو يلعبان بها، بعد أن سئما من متابعة عملية البناء لساعات، إذ قفزت متجاوزة الطلاء الأحمر إلى أحد الكائنات التي تشبه النمل. وعلى الفور توقف العمل بالكامل، وتحرك أوكتوسبايدر بسرعة كي يستعيد الكرة وكما يبدو كي يطمئن العامل. وألقى الأوكتوسبايدر الكرة إلى الطفلَين مرة أخرى بحركةٍ بارعةٍ من اثنتَين من لوامسه، واستُؤنف العمل.

أخلد الجميع إلى النوم ما عدا ماكس ونيكول، عندما انتهت الكائنات الفضائية من إنشاء السلم، والتقاط المواد الباقية والرحيل في القطار. توجَّه ماكس نحو الأسطوانة وأدخل رأسه فيها. وقال بخجل: «عمل رائع. لكن ما فائدته؟»

فأجابته نيكول: «بربك يا ماكس، كن جادًّا. واضح أنهم يريدوننا أن نصعد السلم.»

فقال: «تبًّا يا نيكول. أنا أعرف هذا. لكن لماذا؟ لماذا تريدنا كائنات الأوكتوسبايدر أن نخرج من الأعلى؟ ظلوا يتحكمون بنا منذ اللحظة التي دخلنا فيها مخبأهم. اختطفوا

إيبونين وإيلي وجعلونا ننتقل إلى نصف الأسطوانة الجنوبي، ورفضوا أن يجعلوني أعود إلى نيويورك ... فماذا سيحدث إذا قررنا ألَّا نمضي قدمًا في خطتهم؟»

حدَّقت نيكول في صديقها. وقالت: «هل تمانع أن نرجئ هذا الحديث حتى نجتمع كلنا في الصباح؟ إنني متعبة جدًّا.»

قال ماكس: «بالتأكيد. لكن أخبري زوجك أننا يجب أن نفعل شيئًا غير متوقع بالمرة، مثل العودة سيرًا في النفق إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر. فأنا يراودني شعور سيئ حيال ما ستَئُول إليه الأمور.»

فأجابته نيكول بضجر: «نحن لا نعرف جميع الإجابات يا ماكس، لكنني لا أرى فعلًا أن أمامنا الكثير من الخيارات سوى تلبية رغبات الأوكتوسبايدر، ما دامت تمدُّنا بالطعام والماء ... ربما كل ما نحتاج إليه في هذا الموقف هو أن نتحلَّى ببعض الثقة.»

فقال ماكس: «الثقة؟ ليست إلا كلمة أخرى تعني عدم التفكير.» ثم اتجه ثانية نحو الأسطوانة. وقال: «وهذا السلم المذهل قد يأخذنا جميعًا إلى الجحيم أو إلى الجنة.»

٢

في الصباح عاد القطار محملًا بطعام جديد وماء. وبعد أن رحل وفحص الجميع البناء الأسطواني المطوق، قال ماكس إن الوقت قد حان كي يُظهر البشر أنهم سئموا من أن تحركهم كائنات الأوكتوسبايدر. واقترح أن يأخذ البندقية الوحيدة المتبقية هو ومَن يريد أن يذهب معه، ويشقوا طريقهم عبر النفق أسفل البحر الأسطواني.

فسأله ريتشارد: «لكن ما الذي تحاول الوصول إليه بالضبط؟»

أجابه: «أريدهم أن يأسروني ويأخذوني إلى المكان الذي يحتجزون فيه إيبونين وإيلي. حينئذٍ سأتيقَّن بنفسي أنهما بخير. فأحلام نيكول ليسَت كافيةً في الواقع ...»

فاعترض ريتشارد قائلًا: «لكن خطتك غير منطقية يا ماكس. فكر في الأمر جيدًا. إن افترضنا أن القطار لن يدهسك وأنت في النفق، فكيف ستشرح ما تريد لكائنات الأوكتوسبايدر؟»

فقال ماكس: «كنت آمل أن تساعدني في ذلك يا ريتشارد. إنني أتذكر كيف تواصلت أنت ونيكول مع المخلوقات الطائرة. ربما يمكنك استخدام مهارتك في الكمبيوتر لرسم صورة لإيبونين من أجلي. لأريها لكائنات الأوكتوسبايدر على شاشة الكمبيوتر الخاص بي ...»

شعرت نيكول بنبرة تضرُّعٍ في صوت ماكس. فلمسَت يد ريتشارد. وقالت: «لمَ لا؟ يمكن لأحدنا أن يستكشف إلى أين يقود الدرج، في حين تحضِّر أنت على الكمبيوتر صورة لإيبونين وإيلي من أجل ماكس.»

وفجأةً قال روبرت تيرنر: «أودُّ أن أذهب مع ماكس. إذا كانت هناك فرصةٌ للعثور على إيلي، أودُّ أن أستغلها ... وستكون نيكي بخيرٍ ما دامت هنا مع جدِّها وجدتها.»

ومع أن ما سمعه ريتشارد ونيكول قد أصابهما بالقلق، فقد فضَّلا ألَّا يعبِّرا عن قلقهما أمام الجميع. فطلبوا من باتريك أن يصعد السلم ويستكشف قليلًا أثناء تنفيذ ريتشارد تصميمه السحري على الكمبيوتر. ذهب ماكس وروبرت إلى غرفة نومهما كي يستعدا لرحلتهما. وفي هذه الأثناء كانت نيكول وناي وحدهما مع بينجي والأطفال في الغرفة الرئيسية.

«أنت ترين أنه ليس من الصواب أن يذهب ماكس وروبرت، أليس كذلك يا نيكول؟» طرحت ناي هذا السؤال كالعادة بالنبرة اللطيفة التي تميز شخصيتها.

فأجابتها نيكول: «بلى. لكنني لست متأكدة أن رأيي له وزن في هذا الموقف ... فكلاهما يشعر أنه فقد شخصًا عزيزًا عليه ويشعر بالإحباط. ومن المهم لهما أن يقوما بخطوة ما للَمِّ شملهما مع شريك حياتهما ... وإن كانت تلك الخطوة غير منطقية.»

فسألتها ناي: «ماذا سيحدث لهما في ظنك؟»

فأجابتها نيكول: «لا أعلم. لكنني لا أظن أن ماكس وروبرت سيعثران على إيبونين وإيلي. وفي رأيي اختُطفت كل واحدة منهما لسبب معين ... ومع أنني لا أعلم مطلقًا ما هي الأسباب، فأنا أُومِن أن كائنات الأوكتوسبايدر لا يمكن أن تؤذي إيبونين وإيلي، وسوف تعيدهما إلينا في النهاية.»

فقالت ناي: «إنكِ تثقين بها للغاية.»

فقالت نيكول: «في الواقع لا. لكن تجربتي مع كائنات الأوكتوسبايدر تجعلني أعتقد أننا نتعامل مع نوع من الكائنات يتمتع بحسٍّ أخلاقيٍّ عالٍ للغاية ... وأنا أعترف أن عمليات الاختطاف «لا تتفق» مع هذه الصورة، وأنا لا أرى أن ماكس وروبرت مخطئان في النتيجة المختلفة تمامًا التي توصَّلا إليها عن كائنات الأوكتوسبايدر، لكنني أراهن أننا سنفهم — على المدى البعيد — الهدف وراء عمليتَي الاختطاف.»

فقالت ناي: «أمَّا في الوقت الراهن فنحن نواجه موقفًا صعبًا. إذا غادر ماكس وروبرت ولم يعودا قطُّ ...»

قالت نيكول: «أعلم، لكن لا يسعنا فعل شيءٍ حيال ذلك. لقد اتخذا قرارهما، وبالذات ماكس، شعرا أنهما يجب أن يتخذا موقفًا الآن. صحيح أنه موقف تقليدي نوعًا ما، أو رجولي، لكنه موقف يمكننا تفهُّمه. ويجب علينا كباقي أفراد العائلة أن نلبِّي احتياجاتهما، حتى إذا كان رأينا في تصرفاتهما مختلفًا.»

عاد باتريك بعد أقلَّ من ساعة. وأخبرهم أن السلم ينتهي إلى رصيفٍ صغيرٍ يضيق حتى ينتهي برواقٍ خلف القبة. ذلك الرواق يؤدي إلى سلمٍ آخر أصغر يصعد لمسافة عشرة أمتار، وينتهي داخل كوخ يشبه المباني الجليدية على شكل قبة، على بُعد خمسين مترًا جنوب المنحدر الذي يطلُّ على البحر الأسطواني.

فسأله ريتشارد: «وكيف بدا الوضع، في الخارج في راما؟»

فأجابه باتريك: «كما في الشمال. بارد، درجة الحرارة نحو خمس درجات مئوية، ومظلم لا يوجد به سوى آثار ضوء ينبعث من الخلفية ... أما الكوخ ذو القبة فهو دافئ وجيد الإضاءة. وبه أسرَّة وحمام واحد، من المؤكد أنه مصمَّم لنا، لكن لا توجد به مساحةٌ كبيرة للمعيشة.»

فسأله ماكس: «ألَا توجد أروقةٌ أو ممراتٌ أخرى؟»

فأجابه باتريك وهو يهز رأسه: «نعم.»

حينها قال بينجي لشقيقه: «صنع العم ريتشارد صورًا رائعة لإيلي وإيبونين. يجب أن تراها.»

ضغط ماكس على اثنين من أزرار الكمبيوتر المحمول، فظهرت صورة ممتازة لوجه إيبونين. قال ماكس: «لم يتمكن ريتشارد من رسم عينيها بدقة في المرة الأولى، لكنني ساعدته ... أما صورة إيلي فكانت أسهل له.»

فسأل باتريك ماكس: «هل أنتما مستعدان للرحيل؟»

«تقريبًا. لكننا سننتظر حتى الصباح ليضيء النور المنبعث من هذه الغرفة النفق أمامنا.»

«كم تتوقعان أن يستغرق الوصول إلى الجانب الآخر؟»

فقال ماكس: «ساعة تقريبًا لو أسرعنا الخطى. وأتمنى أن يتمكن روبرت من المواكبة.»

فسأل باتريك: «وماذا ستفعلان إذا سمعتما القطار قادمًا؟»

أجابه ماكس وهو يهز كتفَيه: «لا يوجد ما يمكننا فعله. عندما فحصنا النفق وجدنا مساحةً ضئيلةً جدًّا متاحة. لكن عمك ريتشارد يقول إنه يجب أن نعتمد على «نظام الحماية من الأخطاء» المجهز به القطار.»

وأثناء العشاء دار نقاش حول البندقية. فكان كلٌّ من ريتشارد ونيكول يعارضان بشدة أن يأخذ ماكس البندقية معه، ليس لأنهما أرادا أن يبقى السلاح مع باقي أفراد العائلة، لكن لأنهما خشيا وقوع «حادث» يؤثر في النهاية على الجميع. لم يكن ريتشارد لبقًا في الملحوظات التي أبداها فتسبب في إثارة غضب ماكس.

وفي مرحلة من النقاش أجابه ماكس قائلًا: «حسنًا أيها الخبير، هلَّا تخبرني كيف «تعرف» أن بندقيتي ستكون عديمة النفع في العثور على إيبونين؟»

فقال ريتشارد بحدة: «ماكس، إن كائنات الأوكتوسبايدر لا بد ...»

فتدخلت نيكول قائلة: «اسمح لي يا عزيزي.» ثم قالت بنبرة هادئة: «ماكس، لا يمكنني تصور وضع يكون فيه للبندقية دور مهم في هذه الرحلة. فإذا احتجت إليها بأي صورة للتعامل مع كائنات الأوكتوسبايدر، فهذا يعني أنها ستكون عدائية، ويعني أن مصير إيبونين وإيلي قد تحدَّد منذ وقتٍ بعيد ... نحن لا نريد ...»

فقال ماكس بعناد: «ماذا لو قابلنا بعض المخلوقات العدائية الأخرى، بخلاف كائنات الأوكتوسبايدر واحتجنا لأن نحمي أنفسنا؟ أو ماذا لو احتجت للبندقية لأرسل لروبرت إشارة؟ هناك الكثير من المواقف التي يمكن أن أستخدم البندقية فيها ...»

لم تستطع المجموعة حسم القرار. ظل ريتشارد محبطًا عندما كان في غرفته مع نيكول يخلعان ملابسهما استعدادًا للنوم. فقال: «ألا يستطيع ماكس أن يفهم أن السبب الحقيقي في رغبته في أن يكون لديه سلاح، هو أن يمنح نفسه إحساسًا بالأمان؟ بل هو إحساس زائف أيضًا؟ ماذا لو فعل شيئًا متهورًا فحرمتنا كائنات الأوكتوسبايدر من الطعام والماء؟»

قالت نيكول: «لا يسعنا أن نقلق بشأن ذلك الآن يا ريتشارد. في هذا الوضع أعتقد أنه ليس بوسعنا سوى أن نطلب من ماكس أن يتخذ حذره، ونذكِّره أنه بمثابة ممثلٍ لنا. لكننا لن نستطيع إثناءه عن رأيه مهما تناقشنا معه.»

قال ريتشارد: «إذن فلنقترح إجراء تصويت حول ضرورة أخذ البندقية من عدمه. ونثبت لماكس أن الجميع يعارضون ما يفعله.»

فأجابته نيكول بسرعة: «إن حدسي يخبرني أن أي تصويت سيكون قطعًا الطريقة الخاطئة للتعامل مع ماكس. لقد استشفَّ بالفعل بما يشعر به الجميع. فأي إجماعٍ متفق عليه سيجعل ماكس يشعر بالغربة بيننا، وسيجعل احتمال وقوع «حادثة» أكبر ... كلا يا عزيزي، في هذه الحالة دعنا نأمل فقط ألَّا يحدث شيء غير مرغوب.»

سكت ريتشارد لدقيقة تقريبًا. ثم قال في النهاية: «أظن أنك محقة، كالعادة. تصبحين على خير يا نيكول.»

ردت نيكول: «تصبح على خير يا ريتشارد.»

قال ريتشارد لماكس وروبرت: «سننتظر هنا معًا لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة. بعد ذلك قد يبدأ بعضنا في نقل أغراضنا إلى الأعلى، إلى الكوخ ذي القبة.»

فقال ماكس وهو يوثق أحزمة حقيبة ظهره: «حسنًا.» ثم ارتسمَت على وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ وأردف: «لا تقلق. لن أطلق النار على أيٍّ من أصدقائك الأوكتوسبايدر، إلا إذا كان ذلك لا مفرَّ منه.» ثم التفت إلى روبرت. وقال: «يا صديقي، هل أنت مستعدٌّ لبَدْء المغامرة؟»

لم يبدُ أن روبرت يشعر بالارتياح وهو يحمل حقيبة ظهره. انحنى بصعوبةٍ وحمل ابنته. قال لها: «سيغيب أبوكِ لوقت قصير يا نيكي. وسيبقى جدك وجدتكِ معكِ هنا.»

وقبل أن يرحل الرجلان، ركض جاليليو عبر الغرفة وهو يحمل حقيبةً صغيرةً على ظهره. وصاح: «سأذهب معكما. أريد محاربة كائنات الأوكتوسبايدر.»

ضحك الجميع، بينما شرحت ناي لجاليليو لماذا لا يستطيع الذهاب مع ماكس وروبرت. وحاول باتريك الترفيه عن الصبي الذي شعر بالاكتئاب، عندما أخبره أنه سيكون أول من يصعد السلم عندما تنتقل العائلة إلى الكوخ بالأعلى.

دخل الرجلان بسرعةٍ إلى النفق. وسارا بضع مئات الأمتار في البداية في صمت، وهما يستمتعان بمشاهدة المخلوقات البحرية الرائعة في الجانب الآخر من الزجاج أو البلاستيك الشفاف. أبطأ ماكس من سرعته مرتَين لينتظر روبرت الذي كان يفتقر إلى اللياقة. لم يقابل الرجلان أي قطارات في طريقهما. وبعد ما يزيد عن الساعة، ألقت مصابيحهما الكهربية نورها على أول محطة في الجانب الآخر من البحر الأسطواني. وعندما كان ماكس وروبرت على بعد خمسين مترًا من رصيف المحطة، أضيئت جميع الأنوار وتمكنا من رؤية المكان الذي يتجهان إليه.

فقال ماكس: «زار ريتشارد ونيكول هذا المكان. يوجد خلف ذلك المدخل المقوس غرفة، ثم متاهة من الأروقة الحمراء.»

فسأله روبرت: «ماذا سنفعل هنا؟» لم يشعر بالارتياح على الإطلاق وكان راضيًا تمامًا باتباع ماكس.

فقال ماكس: «لم أقرر بعد. أعتقد أننا سنستكشف المكان قليلًا، ونتمنى أن نعثر على بعض كائنات أوكتوسبايدر.»

ولدهشة ماكس وجدا خلف رصيف المحطة، في منتصف أرضية الغرفة، دائرة كبيرة مطلية باللون الأزرق، يخرج منها خط أزرق سميك يتجه إلى اليمين نحو بداية متاهة الأروقة الحمراء. فقال لروبرت: «لم يذكر ريتشارد ونيكول قطُّ وجودَ خطٍّ أزرق.»

فقال روبرت: «من الواضح أنها مجموعة توجيهات شديدة الوضوح لاتباعها.» ثم أطلق ضحكة عصبية. وقال: «إن اتباع الخط الأزرق السميك سهل كاتباع الطريق الممهد بالطوب الأصفر، كما في رواية الساحر أوز.»

دخلا الرواق الأول. امتد الخط الأزرق في وسط الغرفة لمائة متر أمامهما، ثم انعطف إلى اليسار في تقاطع بعيد عنهما.

فقال ماكس لروبرت: «أنت ترى أن نتبع الخط، أليس كذلك؟»

فأجابه روبرت وهو يخطو بضع خطوات في الرواق: «لمَ لا؟»

فقال ماكس لرفيقه، ولنفسه كذلك: «إنه واضح بصورة زائدة عن الحد.» ثم تشبث ببندقيته واتبع روبرت. ثم عاد يسأل بعد أن انعطفا إلى أول يسار: «أخبرني، أتعتقد أن هذا الخط وُضع هنا لنا خصوصًا؟»

فأجابه روبرت وهو يتوقف للحظة: «لا أعتقد هذا. فكيف يمكن لأي شخص أن يعرف أننا قادمان؟»

فتمتم ماكس: «هذا هو بالضبط السؤال الذي طرحته على نفسي.»

سار ماكس وروبرت في صمت، وانعطفا ثلاث مراتٍ أخرى وهما يتبعان الخط الأزرق قبل أن يصلا إلى مدخلٍ مقوسٍ بارتفاع مترٍ ونصف المتر. فانحنيا ودخلا غرفةً كبيرة مظلمة، لونُ سقفها وجدرانها أحمرُ قانٍ. وانتهى الخط الأزرق السميك بدائرةٍ زرقاء كبيرة في منتصف الغرفة.

وخلال أقل من ثانية بعد أن وقفا داخل الدائرة الزرقاء انطفأت الأنوار. وعلى الفور ظهرَ على الحائط المواجه لهما فيلم سينمائيٌّ صامت بسيط، حجم صورته متر مربع تقريبًا. وفي منتصف الصورة كانت إيبونين وإيلي ترتديان ملابس صفراء فضفاضة غريبة الشكل. وكانتا تتحدثان أحدهما مع الأخرى ومع شخص أو شيء غير معروف يقف بعيدًا جهة اليمين، لكن بالطبع لم يكن بوسع ماكس وروبرت سماع شيء مما تقولان. وبعد لحظات تحركت الاثنتان بضعة أمتار إلى اليمين مارَّتَين بأوكتوسبايدر، ثم ظهرتا إلى جانب حيوان سمين غريب يُشبه بقرةً إلى حدٍّ ما، وله بطن أبيض مسطَّح. كانت إيلي تُمسك بقلم ملتوٍ، فضغطَت عليه عدَّة مراتٍ وكتبت على السطح الأبيض الرسالة التالية: «لا تقلقوا. إننا بخير.» وابتسمَت الاثنتان ثم اختفَت الصورة فجأةً بعد ثانيةٍ واحدة.

وقف ماكس وروبرت في الغرفة مذهولَين، وأُعيدَ الفيلم الذي تصل مدته إلى تسعين ثانيةً مرتَين. وعندما أعيد للمرة الثانية، كان الرجلان قد نجحا في السيطرة على نفسَيهما بصورةٍ كافية لملاحظة التفاصيل بدقة. ثم عادت الأضواء تملأ الغرفة الحمراء مرةً أخرى بعد انتهاء الفيلم.

فقال ماكس وهو يهز رأسه: «يا إلهي!»

أما روبرت فكان مبتهجًا. هتف: «إنها على قيد الحياة! إيلي لا تزال على قيد الحياة.»

فقال ماكس: «هذا إن صدقنا ما رأيناه.»

فقال روبرت بعد عدَّة ثوانٍ: «بربك يا ماكس. ماذا قد يدفع كائنات الأوكتوسبايدر لتتكبد عناء تصوير فيلم كهذا لخداعنا؟ ألن يكون أسهل بكثيرٍ ألَّا تفعل شيئًا على الإطلاق؟»

أجابه ماكس: «لا أعلم. لكن أجبني على سؤال واحد. كيف علموا أننا سنأتي معًا إلى هنا في هذا الوقت، وأننا قلقان على إيلي وإيبونين؟ هناك تفسيران فقط. إما أنهم يراقبون كل شيء نقوله أو نفعله منذ أن دخلنا إلى مخبئهم، أو أن أحدًا …»

«… أحدًا من مجموعتنا يمدُّ كائنات الأوكتوسبايدر بالمعلومات. ماكس إنك لا تشكُّ بالتأكيد أن ريتشارد أو نيكول …»

فقاطعه ماكس: «لا، بالطبع لا. لكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يراقبوننا عن كثب هكذا. لم نرَ أيَّ أثرٍ يدل على وجود أجهزة تنصُّت … وما لم تكن هناك أجهزة بث متطورة للغاية مثبتة «علينا» أو «داخلنا»، فإن أيًّا من هذه الأشياء لن يكون معقولًا.»

«لكن كيف فعلوا ذلك دون علمنا؟»

أجابه ماكس وهو ينحني ليخرج من المدخل المقوس: «لا أعلم مطلقًا.» ثم وقف في الرواق الأحمر على الجانب الآخر من المدخل. وقال: «والآن إذا لم يخُني التقدير، فسيكون ذلك القطار اللعين بانتظارنا عندما نصل إلى المحطة، وسيُتوقع منا العودة بسلام إلى الآخرين. كل شيء لطيف ومنظم للغاية.»

كان ماكس محقًّا. إذ كان القطار يقف على الرصيف فاتحًا بابه، عندما وصل هو وروبرت إلى الغرفة من متاهة الأروقة الحمراء. توقَّف ماكس. كانت عيناه تومضان ببريقٍ غريب.

ثم قال بصوتٍ منخفض: «لن أستقلَّ ذلك القطار اللعين.»

فسأله روبرت وقد بدأ الخوف يتسلَّل إلى نفسه: «ماذا ستفعل؟»

فقال ماكس: «سأعود إلى المتاهة.»

ثم تشبَّث ببندقيته واستدار وأسرع متجهًا إلى الرواق. ابتعد ماكس عن الخط الأزرق، وركض مسافة خمسين مترًا قبل أن يظهر أمامه أول كائن أوكتوسبايدر. وسرعان ما انضم إليه عددٌ من زملائه، وانتشروا في الممر من جانب إلى الآخر. ثم بدءوا يتحرَّكون باتجاه ماكس.

فتوقف ماكس، ونظر إلى كائنات الأوكتوسبايدر التي تتقدم باتجاهه، ثم نظر خلفه. رأى في نهاية الممر مجموعة أخرى من الأوكتوسبايدر تتقدم باتجاهه أيضًا.

فصرخ ماكس: «انتظروا دقيقة واحدة فقط. فلديَّ شيء أقوله لكم. إنكم تفهمون جزءًا من لغتنا على الأقل، وإلا فما استطعتم معرفة أننا قادمان ... أنا غير مقتنع بما رأيت. أريد دليلًا على أن إيبونين على قيد الحياة ...»

في تلك اللحظة كانت كائنات الأوكتوسبايدر فوقه تقريبًا وشرائط الألوان تدور حول رءوسها. سرت موجة من الخوف في كيان ماكس، وأطلق رصاصة من بندقيته في الهواء على سبيل التحذير. وبعد ما لا يزيد عن ثانيتين شعر بلدغة حادة في مؤخرة عنقه. سقط على الأرض على الفور مغشيًّا عليه.

أسرع روبرت الذي ظل واقفًا مترددًا على المحطة، واجتاز الرصيف متجهًا إلى المكان الذي صدر منه صوت إطلاق النار. وعندما وصل إلى الرواق الأحمر رأى اثنين من كائنات الأوكتوسبايدر يرفعان ماكس من الأرض. فتنحَّى روبرت جانبًا بينما حمل الكائنان الفضائيان ماكس إلى القطار، ووضعاه برفقٍ في زاوية العربة. ثم أشارا إلى باب القطار المفتوح فدخل روبرت. وفي أقلَّ من عشر دقائق كان الرجلان قد عادا إلى الغرفة أسفل قبة قوس قزح.

٣

ظل ماكس مغشيًّا عليه لمدة عشر ساعات. وفي تلك المدة فحصه روبرت ونيكول جيدًا، ولم يعثرا على أثر جرح أو إصابة. وفي هذه الأثناء سرد روبرت مرارًا وتكرارًا أحداث مغامرتهما، بالطبع ما عدا ما حدث في اللحظة الحرجة التي كان ماكس فيها وحده في الرواق الأحمر.

كانت معظم أسئلة العائلة عما رأياه بالضبط في الفيلم. هل رأيا دلائل على توتر إيلي وإيبونين، تشير إلى احتمالية إجبارهما على تصوير الفيلم؟ وهل كانتا قد فقدتا بعض الوزن؟ هل بدتا مرتاحتَين؟

وفي نهاية مناقشة ثانية طويلة للعائلة حول قصة روبرت، قال ريتشارد: «أعتقد أننا نعلم الآن المزيد عن طبيعة مضيفينا. أولًا، من الواضح أن كائنات الأوكتوسبايدر — أو الكائنات المتحكمة هنا — تراقبنا بانتظام وتفهم حواراتنا. فلا يوجد تفسير آخر لعرض فيلم لماكس وروبرت تظهر فيه إيلي وإيبونين …

ثانيًا، مستوى تقدمهم التكنولوجي — على الأقل فيما يخص صناعة الأفلام — إما يتخلف عنا مئات السنين، أو إذا كان روبرت محقًّا في إصراره على عدم وجود جهاز عرض في الغرفة أو خلف الحائط، فإنهم متقدمون للغاية حتى إن التكنولوجيا التي يستخدمونها تبدو لنا كالسحر. ثالثًا …»

وهنا قاطعه باتريك. فسأله: «لكن يا عم ريتشارد، لماذا لم يكن الفيلم مصحوبًا بالصوت؟ ألم يكن من الأسهل على إيبونين وإيلي أن «تقولا» إنهما بخير؟ أليس احتمال أن تكون كائنات الأوكتوسبايدر صمَّاء أكبر من احتمال أن تكون التكنولوجيا لديهم لم تتعد صناعة الأفلام الصامتة؟»

فأجابه ريتشارد: «يا لها من فكرة مثيرة للاهتمام يا باتريك! لم نفكر في هذا الأمر من قبل. بالطبع هم لا يحتاجون إلى حاسة السمع للتواصل …»

قالت نيكول: «إن الكائنات التي قضت معظم مراحل تطورها في قاع المحيط تكون في الغالب صماء. وتكون احتياجاتها الحسية الأساسية للبقاء متركزة في أمور أخرى، ونظرًا لوجود عدد محدود من الخلايا المتاحة للأجهزة الحسية وعمليات المعالجة التي تقوم بها، فإن القدرة على السمع لا تتطور لديها.»

وأضافت ناي: «عملت مع أشخاص يعانون من إعاقات سمعية في تايلاند، ودهشت لمعرفة أن عدم القدرة على السمع لا تشكل عائقًا كبيرًا في ثقافة متحضرة. فلغة الإشارة التي يستخدمها الصم ذات نطاق واسع ومعقدة نوعًا ما … لم يعد البشر على كوكب الأرض بحاجة إلى حاسة السمع، للصيد أو للهروب من الكائنات المفترسة … ولغة كائنات الأوكتوسبايدر التي تعتمد على الألوان أكثر من مناسبةٍ للتواصل …»

فقال روبرت: «انتظروا دقيقة. ألسنا بهذا نتغاضى عن دليل قوي على أن كائنات الأوكتوسبايدر «تستطيع» أن تسمع؟ فكيف عرفت أنني وماكس سنخرج للعثور على إيلي وإيبونين إذا لم تسمع حوارنا؟»

ساد الصمت لعدة ثوانٍ. ثم اقترح ريتشارد: «ربما جعلت المرأتَين تترجمان ما يُقال.»

فقال باتريك: «لكن هذا يتطلب شيئَين غير واردَين. أولًا إذا كانت كائنات الأوكتوسبايدر صماء، فلماذا سيكون لديها أجهزة دقيقة متطورة لتسجيل الصوت من

الأساس؟ ثانيًا إن قيام إيبونين وإيلي بترجمة ما نقول لكائنات الأوكتوسبايدر يعني أن هناك مستوًى من التواصل الذي يصعب أن يتطوَّر خلال شهرٍ واحد ... بل في رأيي أن كائنات الأوكتوسبايدر قررت على الأرجح الهدف من رحلة ماكس وروبرت على أساس الدليل المرئي؛ أي صورة المرأتَين على شاشة جهاز الكمبيوتر المحمول.»

صاح ريتشارد: «أحسنت. ذلك تفكير رائع ...»

وفجأةً سمعوا صوت ماكس يقول وهو يتجه إلى منتصف المجموعة: «هل ستظلُّون تثرثرون حول هذا الموضوع طوال الليل؟»

هب الجميع من أماكنهم. وسألته نيكول: «هل أنت بخير؟»

فقال ماكس: «بالطبع. حتى إنني أشعر أني قد حظيت بقسطٍ جيد من الراحة ...»

فقاطعه روبرت قائلًا: «أخبرنا بما حدث. سمعتُ صوت إطلاق النار من بندقيتك، لكن عندما وصلت إلى الزاوية كان اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر يحملانك.»

فقال ماكس: «أنا شخصيًّا لا أعرف. شعرت قبل أن أفقد وعيي بوخز مؤلم في مؤخرة عنقي ... هذا هو كل ما أذكره ... لا بد أن أحد كائنات الأوكتوسبايدر التي كانت تقف خلفي أصابني بما يشبه السهم المهدئ عندنا.»

حك ماكس مؤخرة عنقه. فذهبت إليه نيكول لتفحصه. ثم قالت: «لا أجد الثقب الصغير الآن. لا بد أنهم يستخدمون أسهمًا رفيعة للغاية.»

نظر ماكس إلى روبرت. وقال: «لا أعتقد أنك أعدت البندقية.»

فأجابه روبرت: «أنا آسف يا ماكس. لم تخطر ببالي قط إلا بعد أن أصبحنا على متن القطار.»

فنظر ماكس إلى أصدقائه. وقال: «حسنًا يا رفاق، أريد أن أخبركم أن ثورتي قد انتهت. أنا مقتنع الآن أنه لا يمكننا محاربة هذه الكائنات. لذا فمن الأفضل أن نجرب السير وفقًا لخطتهم.»

وضعت نيكول يدها على كتف صديقها. وقالت وهي تبتسم: «هذا هو ماكس باكيت الجديد.»

فأجاب ماكس وهو يبتسم بدوره: «قد أكون عنيدًا لكنني لست غبيًّا.»

في صباح اليوم التالي، قال ماكس بعد أن جاء قطار آخر محمل بطعام وماء: «لا أعتقد أنه من المفترض أن ننتقل جميعًا إلى الكوخ المقبب الذي وجده باتريك.»

فسأله ريتشارد: «لماذا تقول هذا؟ انظر إلى الدلائل. صُمم ذلك الكوخ بلا شكٍّ كي يسكنه بشر. وإلا فلماذا أقاموا ذلك السلم؟»

فأجابه ماكس: «إن الأمر غير ملائم. لا سيما للأطفال. فلا توجد مساحة كافية تصلح للعيش لأي مدة من الزمن ... أظن أن الكوخ ما هو إلا محطة على الطريق، أو يمكنك أن تطلق عليه منزلًا في الغابة.»

حاولت نيكول أن تتخيل عائلتها المكونة من عشرة أفراد تتكدس في الغرف الصغيرة التي وصفها باتريك. ثم قالت: «أدرك ما تعنيه يا ماكس، لكن ماذا تقترح؟»

قال: «لماذا لا يعود بعضنا إلى الكوخ ويفحصونه بدقة؟ فربما لم ينتبه باتريك لشيء ما في حملته الاستطلاعية السريعة ... وعلى أي حال لا بد أن يكون ما يفترض بنا القيام به واضحًا. فكائنات الأوكتوسبايدر أو أيًّا كانت الكائنات التي ترشدنا غير معتادة أن تتركنا في حيرة.»

اختير ريتشارد وماكس وباتريك لتنفيذ المهمة الاستطلاعية. لكن رحيلهم تأخر بعض الوقت حتى يستطيع باتريك الوفاء بوعده لجاليليو. فاتبع باتريك الغلام ذا السنوات الخمس وهو يصعد السلم الطويل المتعرِّج، ثم عبر الرواق إلى أسفل السلم الثاني. لكن الصبي كان منهك القوى تمامًا حتى إنه لم يستطع التسلق أكثر من هذا. في الواقع عندما كانوا يهبطون من القبة انهار الصبي الصغير، فاضطر باتريك لحمله الاثني عشر مترًا المتبقية في طريقهما إلى الأسفل.

عندما هبطوا سأل ريتشارد باتريك: «هل تستطيع الصعود مرة أخرى؟»

فأجابه باتريك وهو يضبط وضع حقيبته: «أعتقد ذلك.»

فقال ماكس بابتسامة عريضة: «على الأقل لن يكون عليه الآن أن يتوقف كثيرًا لينتظر رفيقَيه الكهلَين.»

توقَّف الرجال الثلاثة يتأملون بإعجابٍ المشهد من أعلى السلم الأسطواني. وقال ماكس وهو يطيل النظر في ألوان شرائط قوس قزح الرائعة في القبة على بعد أمتار قليلة فوقه: «في بعض الأحيان أظن أن كل شيء حدث لي منذ أن صعدت على متن بيتنا ليس إلا حلمًا ... كيف تتناسب الخنازير والدجاج وآركنسو نفسها مع هذه الصورة؟ كل هذا كثير.»

قال باتريك وهم يسيرون عبر الرواق: «لا بد أنه من الصعب عليك التوفيق بين كل هذا وحياتك العادية على كوكب الأرض. لكن انظر إلى وضعي. وُلدت على متن مركبة فضائية غريبة تتجه إلى عالم اصطناعي يقع بالقرب من نجم الشعرى اليمانية. وقضيت أكثر من نصف حياتي نائمًا. ليست لديَّ أدنى فكرة عن الحياة العادية ...»

فقال ماكس وهو يحيط الشاب بذراعه: «تبًّا يا باتريك، لو كنت مكانك، لفقدت عقلي.»

وفي وقت لاحق عندما كانوا يصعدون السلم الثاني، توقف ماكس والتفت إلى ريتشارد الصاعد خلفه. وقال بدفء: «ريتشارد ويكفيلد، أتمنى أن تكون قد أدركت أنني وغد عنيد، وأنني لم أقصد أي إساءة شخصية أثناء نقاشاتنا في الأيام القليلة الماضية.»

ابتسم ريتشارد. وقال: «أتفهم ذلك يا ماكس. وأعلم أيضًا أنني مغرور بقدر ما أنت عنيد ... وسأقبل اعتذارك غير المباشر إذا قبلت اعتذاري.»

تظاهر ماكس بالامتعاض. وقال وهو يصعد درجة السلم التالية: «إن هذا لم يكن اعتذارًا.»

كان الكوخ المقبب كما وصفه باتريك بالضبط. ارتدى الرجال الثلاثة ستراتهم واستعدوا للخروج. ورأى ريتشارد — الذي كان أول شخص يخرج من الباب — الكوخ الثاني، قبل أن يلتقط ماكس وباتريك أول نفس لهما من هواء راما المنعش.

فقال باتريك مؤكدًا: «لم يكن ذلك الكوخ الآخر موجودًا يا عم ريتشارد. لقد طفت المنطقة بالكامل.»

كان الكوخ الثاني — الذي كان بالضبط عُشر حجم الكوخ الأول — على بُعد ثلاثين مترًا من المنحدر المتاخم للبحر الأسطواني. كان يتوهج في ظلام راما. وعندما بدأ الرجال يسيرون باتجاه الكوخ الصغير فُتح بابه وخرج منه كائنان بشريان صغيران. كان طولهما عشرين سنتيمترًا تقريبًا، وكانا يتوهجان من الداخل.

هتف ماكس متعجبًا: «ما هذا ...؟»

فقال باتريك بحماسة: «انظر، إنهما والدتي وعم ريتشارد!»

اتجه الكائنان إلى الجنوب المظلم بعيدًا عن المنحدر والبحر. فاقترب ريتشارد وماكس وباتريك منهما لرؤيتهما بوضوح أكثر. كان الكائنان يرتديان ملابس كالتي ارتداها ريتشارد ونيكول في اليوم السابق بالضبط. وكان الاهتمام بالتفاصيل مذهلًا. الشعر والوجهان ولون الجلد وشكل لحية ريتشارد ولونها، كلها تطابق تمامًا ريتشارد ويكفيلد وزوجته. كما كان الكائنان يحملان حقيبتَي ظهر.

انحنى ماكس ليلتقط الكائن الصغير الذي يشبه نيكول، لكنه تلقَّى صدمة كهربائية عندما لمسه. والتفت الكائن في اتجاه ماكس وهزَّ رأسه بقوة. اتبع الرجال الكائنَين لمسافة مائة مترٍ أخرى ثم توقَّفوا.

فقال ريتشارد: «لا يوجد شكٌّ حول ما يفترض بنا أن نفعله الآن.»

فقال ماكس: «صحيح. يبدو أنهم يستدعونك أنت ونيكول.»

بعد ظهر اليوم التالي، جمع ريتشارد ونيكول طعامًا وماءً يكفيهما لعدة أيام في حقائب ظهرهما، وودَّعا أفراد عائلتهما الكبيرة. وكانت نيكي الصغيرة قد نامت بجوارهما في الليلة السابقة وبكَت بشدةٍ عندما رحلا.

كان السلم شديد الارتفاع. قالت نيكول وهي تلتقط أنفاسها بصعوبةٍ عندما وقفت هي وريتشارد أعلى السلم أسفل القبة، ولوَّحت للجميع للمرة الأخيرة: «كان يجدر بي أن أصعد السلم ببطء.» شعرت نيكول بقلبها يخفق باضطراب في صدرها. فانتظرت بصبرٍ حتى يهدأ الخفقان.

كان ريتشارد أيضًا يجد صعوبة في التقاط أنفاسه. فقال بعد صمت: «إننا لم نعد شبابًا كما كنا قبل سنوات في نيويورك.» ثم ابتسم وأحاط نيكول بذراعيه. ثم سألها: «هل أنت جاهزة للمضي قدمًا في مغامرتنا؟»

أومأت نيكول. فسارا ببطء وقد شابكا يديهما عبر الرواق الطويل. وعندما وصلا إلى السلم الثاني التفتت نيكول إلى ريتشارد وسألته بانفعال مفاجئ: «حبيبي، أليس من الرائع أن نكون وحدنا مرة أخرى، نحن الاثنان فقط، ولو لساعات قليلة؟ إنني أحب الآخرين، لكنه شيء مرهق أن أكون مسئولة طوال الوقت …»

ضحك ريتشارد بعفوية. وقال: «أنت اخترت القيام بهذا الدور يا نيكول، ولم يجبرك أحد عليه.»

ثم انحنى وطبع قبلة على وجنتها. فأدارت وجهها إليه وطبعت على شفتيه قبلة حارة.

فسألها ريتشارد على الفور بابتسامة عريضة: «هل تقترحين بهذه القبلة أن نقضي الليلة في الكوخ، ثم نبدأ رحلتنا غدًا؟»

فأجابته نيكول مبتسمة في دلال: «أنت تقرأ أفكاري يا سيد ريتشارد. في الواقع كنت أفكر كم سيكون ممتعًا أن نتخيل أنفسنا الليلة وقد عدنا عاشقَين شابَّين من جديد …» وضحكت. ثم أردفت: «على الأقل مخيلتنا لا تزال تعمل بكفاءة.»

عندما صارا على بعد ثلاثمائة مترٍ جنوب الكوخَين. لم يكن بإمكان ريتشارد ونيكول رؤيةُ أي شيءٍ ما عدا ما يسقط عليه ضوء مصباحَيهما الكهربيَّين. ومع أن الأرضية أسفلهما كانت ملساء، لا يشوبها سوى تجمعاتٍ من الصخور الصغيرة هنا وهناك، فكان أحدهما أو كلاهما يتعثر عندما لا يكون منتبهًا.

قالت نيكول عندما توقفا لاحتساء بعض الماء: «قد نظل نسير لوقت طويل في الظلام حتى يتملك منا التعب.»

فقال ريتشارد بعد أن شرب: «والبرد أيضًا. هل تشعرين بالدفء؟»

فأجابته نيكول: «ما دمنا نتحرك.» ثم مددت ذراعَيها وعدلت وَضْع حقيبة ظهرها.

مرت ساعةٌ تقريبًا عندما رأيا ضوءًا في السماء جهة الجنوب. وكان الضوء يقترب منهما ويزداد في الحجم.

فسألته نيكول: «ما هذا في رأيك؟»

فأجابها ريتشارد: «ربما الجنية الزرقاء التي تحقق الأمنيات. فهي تظهر عندما يتمنى شخصٌ أمنية أيًّا كانت ...»

فضحكت نيكول. وقالت: «إنك شخص كوميدي.»

فقال ريتشارد والضوء مستمرٌّ في التحرك في اتجاههما: «بعد ليلة أمس أشعر أنني عدت صبيًّا مرة أخرى.»

ضحكت نيكول وهزت رأسها. وشبكا يديهما في صمت فيما ظل حجم الكرة المضيئة يزداد. وبعد دقيقة توقفت على بعد عشرين أو ثلاثين مترًا أمامهما، وعلى ارتفاع عشرين مترًا فوقهما. أطفأ كلٌّ من ريتشارد ونيكول مصباحه الكهربي، إذ كان بإمكانهما رؤية المنطقة حولهما لأكثر من مائة متر.

ظلَّل ريتشارد عينَيه بيده محاولًا تحديد مصدر الضوء، لكن الضوء كان مبهرًا للغاية. ولم يستطع النظر إليه مباشرة. وقالت نيكول وهما يستأنفان السير مرةً أخرى: «مهما كان هذا الشيء، فمن الواضح أنه يعرف أين من المفترض أن نذهب.»

بعد ساعتَين وجد ريتشارد ونيكول طريقًا يتجه إلى الجنوب الغربي، على جانبَيه حقول بها نباتات نامية. وبعدما توقفا لتناول الغداء تجولا في الحقول واكتشفا أن أحد الأصناف الغذائية الرئيسية التي تناولاها أسفل القبة، وهو خضار يشبه في مذاقه الفاصوليا الخضراء وفي شكله القرع الأصفر، هو المحصول الرئيسي في الحقول. كانت تلك الخضراوات يتخلَّلها صفوفٌ من نباتٍ قصيرٍ لونه أحمر فاتح لم يرياه من قبل. فاقتلع ريتشارد واحدًا من النباتات الحمراء من الأرض، لكنه ألقاه على الفور عندما بدأ الجسم الأخضر الكروي المرن كالجلد الذي كان أسفل سطح التربة يتلوَّى في نهاية الساق الحمراء. وعندما ارتطم بالأرض زحف الكائن قاطعًا السنتيمترات القليلة عائدًا إلى حفرته الرئيسية، ودفن كرته الخضراء مرة أخرى في المكان نفسه.

فضحك ريتشارد. وقال: «أظن أنني سأعيد التفكير قبل أن أفعل شيئًا كهذا مرة أخرى.»

قالت نيكول بعد دقيقة: «انظر إلى هناك. أليس هذا أحد الحيوانات التي شيدت السلم؟»

سارا معًا في الممر ثم عادا إلى الحقل مرة أخرى ليريا بصورة أوضح. وبالفعل كان يتجه إليهما أحد الكائنات الضخمة ذات الأذرع الست الطويلة، التي تشبه النمل. كان الكائن يحصد الخضراوات بكفاءة مذهلة؛ فيتعامل مع الصفوف الثلاثة على جانبي جسده. كان كل ذراع أو خرطوم يقتلع صفًّا من الخضراوات ويكدِّسها بين الصفوف في أكوامٍ يفصل بينها متران. كان مشهدًا مذهلًا؛ فالأذرع الست تعمل في الوقت نفسه وتقوم بمهام مختلفة، على أبعادٍ مختلفةٍ من جسده.

وعندما وصل الكائن إلى الممر تراجعت أذرعه على الفور. ثم تحرَّك ستة صفوفٍ ودخل إلى الحقل في الاتجاه المقابل. كان الحصاد يتم من الجنوب إلى الشمال؛ لذا فعندما بدأ ريتشارد ونيكول السير مرةً أخرى، مرَّا عبر الجزء من الحقل الذي انتهَت النملة العملاقة من العمل فيه. وهناك رأيا كائناتٍ تشبه القوارض تجمع الأكوام المتناثرة وتُهرَع بها بعيدًا إلى الغرب.

مر ريتشارد ونيكول أثناء سيرهما في الممر بين الحقول بالعديد من تقاطعات الطرق، وفي كلِّ مرةٍ كان الضوء الذي يحوم حولهما يدلهما على الطريق الذي سيسلكانه. كانت الحقول ممتدةً لعدة كيلومترات. ومرا بالعديد من المحاصيل المختلفة، لكن ريتشارد ونيكول اللذَين كانا جائعَين ومرهقَين لم يتوقَّفا لفحص كل خضار جديد يريانه.

وفي النهاية وصلا إلى منطقة مسطحة مفتوحة تكسوها تربة ناعمة. دار الضوء في الأعلى ثلاث مرات ثم تأرجح حول وسط المنطقة. قال ريتشارد: «أعتقد أننا سنقضي الليلة هنا.»

فأجابَته نيكول وهو يساعدها في خلع حقيبة ظهرها: «بكل سرور. ولا أعتقد أنني سأجد صعوبةً في النوم، ولو على هذه الأرض الصلبة.»

تناول ريتشارد ونيكول عشاءهما وعثرا على بقعة مريحة، حيث يمكنهما النوم معًا. وعندما كان الاثنان في المرحلة ما بين اليقظة والنوم، بدأ الضوء فوقهما يخبو قليلًا ثم يهبط من أعلى.

فهمس ريتشارد: «انظري، إنه سيهبط.»

فتحت نيكول عينَيها، ونظرت إلى الضوء الذي كان يخبو تدريجيًّا، وهو يكوِّن قوسًا جميلًا ويهبط على الجانب المقابل للمنطقة المفتوحة. استمر الضوء في التوهج قليلًا بعد أن

أصبح على الأرض. ومع أن ريتشارد ونيكول لم يتمكَّنا من رؤية الكائن جيدًا، فقد حددا أنه طويل ونحيف ولديه جناحان أطول من ضعف طول جسده.

فصاح ريتشارد عندما لم يعُد بإمكانهما رؤية جسده: «إنها يراعة عملاقة.»

٤

«علم الأحياء في الإضاءة، وعلم الأحياء في معدات الزراعة والبناء، هل تشعرين أن أصدقاءنا كائنات الأوكتوسبايدر، أو الكائنات الأعلى منها في سلسلة مذهلة تعيش على التكافل، هم أفضل علماء أحياء في المجرة؟»

أجابت نيكول وهي تنتهي من إفطارها: «لا أدري يا ريتشارد. لكن من الواضح أن تطورهم التكنولوجي قد اتبع مسارًا مختلفًا عن المسار الذي اتبعه تطورنا.»

شاهدا اليراعة العملاقة بتعجب وهي تضيء نفسها، وتتخذ وضعية التحليق فوقهم فور أن سمعت أولى حركاتهم بعد أن استيقظوا من النوم. وبعد بضع دقائق اقترب منهما كائن ثانٍ مماثل من جهة الجنوب. واجتمع ضوءاهما ليمداهما بإضاءة، في المكان الذي يسيران فيه، تشبه ضوء النهار في عدن الجديدة.

كان ريتشارد ونيكول قد ناما ملء جفنيهما واستعادا نشاطهما تمامًا. فقادهما المرشدان في طرق عبر حقول تمتد لعدة كيلومترات، بما في ذلك طريق يتميز بوجود أعشاب يبلغ طولها أكثر من ثلاثة أمتار. وعلى بعد مائة متر بعد أن انعطفا إلى اليسار وسط الأعشاب الطويلة، وجد ريتشارد ونيكول نفسيهما على حافة مصفوفة كبيرة من صهاريج المياه تمتد أمامهما على امتداد بصرهما.

فاتجها إلى اليسار وسارا لعدة دقائق حتى وصلا إلى ما أدرك ريتشارد أنه الركن الشمالي الشرقي من المصفوفة. وكان النظام يتكوَّن من سلسلة من الصهاريج المعدنية المستطيلة الضيقة الطويلة رمادية اللون. وكان عرض كل صهريج في المصفوفة عشرين مترًا تقريبًا، وطوله عدة مئاتٍ من الأمتار. ووصل ارتفاع الصهاريج إلى وسط نيكول وكانت تمتلئ حتى ثلاثة أرباعها بسائلٍ يبدو أنه ماء. وفي زاوية كل صهريج توجد أسطوانة سميكة لونها أحمر فاتح يصل ارتفاعها إلى ضعف ارتفاع الصهريج، ويعلوها جسم كروي أبيض اللون.

سار ريتشارد ونيكول إلى جانب الحافة الطويلة للمصفوفة لعدة دقائق، وهما ينظران داخل كل صهريج، ويفحصان الأعمدة الأسطوانية السميكة التي تميز المكان الذي تتشارك

فيه الصهاريج المتاخمة في الجوانب. ولم يريا شيئًا داخل الصهاريج سوى الماء. فسألت نيكول: «إذن هل هذه وحدة تنقيةٍ من نوعٍ ما؟»

فأجابها ريتشارد: «أشك في هذا.» ثم توقفا عند الحافة الغربية. وقال ريتشارد: «انظري إلى هذه الكتلة من الأجزاء الصغيرة الدقيقة المثبتة بالجدار الداخلي لهذا الصهريج أمام الأسطوانة بالضبط ... تخميني أن هذه مكونات إلكترونية معقدة من نوعٍ ما. لن يكون هناك داعٍ لوجود هذه الأشياء في نظام تنقية مياه بسيط.»

نظرت نيكول بارتياب لزوجها. وقالت: «بربك يا ريتشارد، هذا مجرد تخمين. كيف يمكنك أن تدَّعي معرفة وظيفة مجموعة من الأجزاء الصغيرة ثلاثية الأبعاد، المثبتة على الجدار الداخلي لصهريج مياه فضائي؟»

فأجابها ريتشارد وهو يضحك: «قلت لك إنني أخمن. كنت أحاول فقط أن أشير إلى أنه يبدو أكثر تعقيدًا من أن يكون وحدة تنقية مياه.»

كان الضوء فوقهما يحثهما على الاتجاه جنوبًا. وكان الجانب الآخر من الصهاريج الضيقة لا يحتوي على شيء سوى الماء، لكن عندما وصلا إلى المجموعة الثالثة من الصهاريج المستطيلة والأعمدة الأسطوانية، اكتشف ريتشارد ونيكول أن المياه مليئة بكرات صغيرة غامضة متعددة الألوان. فشمر ريتشارد عن ساعده ووضع يده في الماء، وأخرج عدة مئات من هذه الأجسام.

فقالت نيكول مؤكدة: «إنها بيض. أنا أعرف هذه الحقيقة بالقدر نفسه الذي تعرف به أن تلك الأجزاء الصغيرة المثبتة على الجدران الداخلية للصهاريج مكونات إلكترونية.»

فضحك ريتشارد مرة أخرى. وقال وهو يضع مجموعة الأجسام الصغيرة أمام عينَي نيكول: «انظري، إذا أمعنت النظر إليها، فستجدين أن هناك خمسة أنواع مختلفة فقط.»

فسألته نيكول: «خمسة أنواع من ماذا؟»

كانت تلك الأجسام الشبيهة بالبيض تملأ المجموعة الثالثة من الصهاريج بالكامل. وفي الوقت الذي كان ريتشارد ونيكول يقتربان فيه من الصف الرابع من الأسطوانات، ومجموعة أخرى من الصهاريج التي كانت تمتد عدة مئات أمتار إلى الجنوب، كان كلٌّ منهما قد بدأ يشعر بالتعب. فقالت نيكول: «إذا كنا لا نجد أي شيء جديد هنا، فما رأيك بتناول الغداء؟»

فأجابها: «أوافقكِ على هذا.»

لكنهما استطاعا تمييز شيءٍ جديد بالفعل، عندما كانا على بعد خمسين مترًا من الصف الرابع من الصهاريج. كانت هناك مركبة آلية مربعة يبلغ طولها وعرضها ثلاثين سنتيمترًا

تقريبًا، وارتفاعها عشرة سنتيمترات؛ تتحرك بسرعةٍ جيئةً وذهابًا بين الأعمدة الأسطوانية. قالَت نيكول مداعبة ريتشارد: «كنت «أعرف» أن هذه مساراتٌ لنوع من المركبات.»

لكن ريتشارد كان مستغرقًا فيما يحدث حتى إنه لم يُجِب عليها. فبالإضافة إلى المركبة الآلية التي كانت تنطلق مسرعة، وتقطع دورةً كاملة عبر المصفوفة من الشرق إلى الغرب كل ثلاث دقائق تقريبًا، كان هناك العديد من العجائب الأخرى. فكان كلٌّ من الصهاريج في ذلك المكان مقسمًا من الداخل إلى جزأَين طويلَين بسياجٍ شبكي موازٍ للجدران، التي كانت أعلى قليلًا من مستوى الماء. وعلى أحد جانبَي السياج الشبكي كان هناك سربٌ من كائناتٍ صغيرة بخمسة ألوان مختلفة تسبح في الماء. وعلى الجانب الآخر كانت هناك دوائر وامضة تشبه حيوان الدولار الرملي متناثرة على امتداد الصهريج. وكان السياج موضوعًا؛ بحيث يكون ثلاثة أرباع حجم الصهريج متاحًا للدوائر الوامضة، مما يمنحها مساحة أكبر للمناورة مقارنة بالكائنات السابحة بأعداد كبيرة في مساحة صغيرة.

انحنى ريتشارد ونيكول ليتبينا ما يجري داخل الصهريج. فوجدا أن حيوانات الدولار الرملي تتحرك في كل اتجاه. ونظرًا لأن المياه كانت تعج بالكثير من الكائنات والحركة، فقد استغرق ريتشارد ونيكول عدة دقائق كي يدركا النمط العام للحركة. كان كل حيوان من حيوانات الدولار الرملي يدفع نفسه على فترات غير منتظمة إلى السياج الشبكي، بمساعدة الأهداب التي تُشبه السوط أسفل جسده المسطح، ثم يستخدم زوجًا آخر من الأهداب وهو يقف على السياج، ليمسك كائنًا من الكائنات الصغيرة التي تسبح في الجزء الآخر، ويسحبه عبر أحد ثقوب الشبكة. وعندما يكون الدولار الرملي أمام السياج يخبو ضوءه. وإذا مكث وقتًا طويلًا واصطاد عددًا من الكائنات السابحة ليأكلها، فإن ضوءه يتلاشى تمامًا.

قال ريتشارد لنيكول وهو يشير إلى دولار رملي معين أسفلهما: «انظري ماذا يحدث الآن عندما يترك السياج. عندما يسبح مع رفاقه، فإن ضوءه يتجدد ببطء.»

أسرع ريتشارد عائدًا إلى أقرب عمود أسطواني إليه وجثا على ركبتيه على الأرض. ثم حفر في التربة بواحدة من الأدوات التي يحتفظ بها في حقيبته. ثم قال بحماسة: «هناك جزء كبير من النظام تحت الأرض. أراهن أن هذه المصفوفة بالكامل جزء من مولِّد طاقة عملاق.»

ثم خطا ثلاث خطواتٍ كبيرة محسوبةً إلى الجنوب، وحدد مكانه بدقة ثم انحنى فوق الصهريج؛ ليحصي حيوانات الدولار الرملي في المنطقة بين العمود الأسطواني وبينه. ولم يكن ذلك بالأمر السهل نظرًا للحركة المستمرَّة للدوائر الوامضة.

ثم قال ريتشارد: «هناك تقريبًا ثلاثمائة في ثلاثة أمتار من طول الصهريج، مما يجعل عددها في الصهريج الكامل تقريبًا خمسة وعشرين ألفًا، أو مائتَي ألف في صفٍّ كامل.»

فسألته نيكول: «هل تفترض إذن أن هذه الأعمدة الأسطوانية نوع من أنظمة التخزين؟ مثل البطاريات؟»

فقال ريتشارد: «على الأرجح. يا لها من فكرة مذهلة! العثور على كائن حي يولد الكهرباء داخليًّا. ثم إجباره على التخلي عن طاقته المخزنة كي يأكل. ماذا قد يكون أفضل من هذا؟»

«وماذا عن المركبات الآلية التي تتحرك جيئة وذهابًا بين الأعمدة، ما الهدف منها؟»

فأجابها ريتشارد: «أظن أنها وسيلة مراقبة من نوع ما.»

تناول ريتشارد ونيكول غداءهما، ثم انتهيا من فحص ما يفترضان أنه مولِّد طاقة. كانَت المصفوفة بالكامل تتكوَّن من ثمانية أعمدة وثمانية صفوف، مما يجعل العدد الكلي للصهاريج أربعة وستين صهريجًا. لم يكن يعمل منها سوى عشرين صهريجًا في ذلك الوقت. فقال ريتشارد معلقًا على هذا: «هناك الكثير من الطاقة الزائدة. من المؤكد أن مهندسيهم يدركون بوضوح مفاهيم الزيادة والهامش.»

اتجهت اليراعتان الضخمتان إلى الشرق بمحاذاة ما بدا أنه طريق سريع رئيسي. وقابل ريتشارد ونيكول مرتَين قطعانًا صغيرةً من الكائنات الضخمة الشبيهة بالنمل تسير في الاتجاه المقابل، لكن لم يحدث بينهما احتكاك. فسألت نيكول ريتشارد: «هل هذه الكائنات عاقلة بصورة تمكنها من العمل دون إشراف؟ أم إننا غير مسموحٍ لنا برؤية الكائنات التي تُعطيها التعليمات؟»

فقال ريتشارد: «هذا سؤال مثير للاهتمام حقًّا. هل تذكرين كيف هُرِع الأوكتوسبايدر إلى النملة الضخمة التي اصطدمت بها الكرة؟ ربما تتمتع بذكاء محدود لا يمكِّنها من العمل جيدًا في بيئةٍ جديدة أو غير معروفة.»

فقالت نيكول وهي تضحك: «مثل بعض الأشخاص الذين عرفناهم.»

انتهت رحلتهما الطويلة شرقًا، عندما قادتهما اليراعتان إلى حقلٍ ترابيٍّ كبير على جانب الطريق. كان الحقل خاويًا فيما عدا ما بدا من بعيدٍ أنه أربعون عارضةً كالمستخدمة في كرة القدم، مغطَّاة بنبات اللَّبْلَاب المتسلق، ومنظمة في خمسة صفوف كل منها يتكوَّن من ثماني عوارض.

فقال ريتشارد: «هلَّا تراجعين الدليل من فضلك؟ سيكون من الأسهل فهم ما نراه إذا قرأنا عنه أولًا.»

فابتسمت نيكول. وقالت: «إنهم يصطحبوننا في رحلة، أليس كذلك؟ لماذا يريد مضيفونا أن نرى كل هذا في رأيك؟»

صمت ريتشارد لدقيقة. ثم قال في النهاية: «أنا واثقٌ إلى حدٍّ كبير أن كائنات الأوكتوسبايدر هي المسيطرة على هذه المقاطعة بالكامل، أو على الأقل هي الأجناس العليا في هذه السلسلة المعقدة ... ولا بد أن مَن اختارنا دون غيرنا للذهاب في هذه الجولة، يؤمن أن إعطاءنا معلوماتٍ عن إمكانياته سيجعل التعامل بيننا أسهل في المستقبل.»

فقالت نيكول: «لكن إذا كانت هي كائنات الأوكتوسبايدر بالفعل، فلماذا لم تختطفنا ببساطة مثلما فعلت مع إيلي وإيبونين؟»

أجابها ريتشارد: «لا أعلم. ربما يكون حسُّها الأخلاقي أكثر تعقيدًا مما نتخيَّل.»

وفي تلك اللحظة، كانت اليراعتان العملاقتان تدوران في الهواء فوق مجموعة العوارض المغطَّاة باللبلاب. فقالت نيكول: «أظن أن صبر مرشدتَينا بدأ ينفد.»

لو لم يكن ريتشارد ونيكول منهكَين من رحلتهما الشاقة على الأقدام لمدة يومَين، ولو لم يكونا قد رأيا بالفعل الكثير من المشاهد الرائعة، في ذلك العالم الفضائي الغريب الموجود في نصف الأسطوانة الجنوبي من راما؛ لخلب لُبَّهما وأذهلهما ما اكتشفاه في الساعات التالية من علاقاتٍ تكافليةٍ معقَّدة.

لم يكن ما يغطي العوارض لبلابًا. فما بدا من بعيد أنه أوراق كان في الحقيقة أعشاشًا صغيرةً مخروطية الشكل، تتكوَّن من آلاف الكائنات المتناهية الصِّغَر التي تُشبه حشرات قملة النبات. كانت الحشرات ملتصقة بعضها ببعض؛ لتكون العش باستخدام مادة لزجة حلوة المذاق تشبه العسل، كان البشر يستمتعون بتناولها في الغرفة أسفل القبة. وكانت حشرات قملة النبات الفضائية تصنع كميات كبيرة من هذه المادة كجزء من نشاطها العادي.

وبينما راقب ريتشارد ونيكول ما يحدث، كانت قوافل من الخنافس البارزة الأنف — تعيش في تلالٍ ترتفع لعدَّة أمتارٍ عن الأرض حول الحقل — تندفع من منازلها كل أربعين دقيقة تقريبًا، وتزحف حول العوارض من كل جانب لحصد المادة اللزجة الإضافية من الأعشاش. بلغ طول تلك الخنافس عشرة سنتيمترات تقريبًا قبل حصاد المادة اللزجة، لكنها كانت تنتفخ ويتضاعف حجمها ثلاث أو أربع مرات، قبل أن تستكمل دورة الحصاد، وتفرغ محتويات أجسامها المنتفخة في أوعيةٍ مغمورةٍ في قاع العوارض.

لم يتبادل ريتشارد ونيكول الكثير من الحديث وهما يراقبان تلك الأنشطة. فقد كان النظام البيولوجي الذي يرونه أمامهما دقيقًا ورائعًا؛ إنه مثال آخر على التقدم المذهل الذي أحرزه مضيفوهما في مجال العلاقات التكافلية. قال ريتشارد المرهق وهو يستعد هو ونيكول للنوم في مكان ليس ببعيد عن تلال الخنافس: «أراهن أننا لو انتظرنا وقتًا أطول، فستظهر دابة وترفع أوعية العسل — أو أيًّا كانت تلك المادة — من فوق الأرض، وتحملها إلى مكان آخر.»

ولاحظا، وهما يرقدان متجاورين على التراب، اليراعتَين وهما تهبطان على مسافةٍ منهما. ثم خيَّم الظلام فجأة. فقالت نيكول: «لا أصدق أن كل هذا حدث. ليس على كوكب آخر. وليس في أي مكان. إن التطور الطبيعي لا يتمخَّض بهذه البساطة عن هذا النوع من الانسجام الذي شاهدناه خلال اليومَين السابقَين، بين الأنواع المختلفة من الكائنات.»

فسألها ريتشارد: «ما الذي تحاولين قوله؟ إن جميع هذه الكائنات تم تصميمها بطريقة ما مثل الآلات لتنفيذ المهام الموكلة إليها؟»

فقالت نيكول: «هذا هو التفسير الوحيد الذي يمكنني تقبله. لا بد أن كائنات الأوكتوسبايدر أو غيرها، قد وصلت إلى مستوًى من التقدُّم يمكنها من التحكم في الجينات؛ لإنتاج نباتٍ أو حيوانٍ يفعل بالضبط ما تريده. لماذا تضع هذه الخنافس العسل في الأوعية؟ ما النفع البيولوجي الذي تحصل عليه من قيامها بهذا السلوك؟»

فقال ريتشارد: «لا بد أنها تحصل على عائدٍ ما لم نكتشفه بعد.»

فقالت نيكول: «بالطبع. وسيكون خلف ذلك العائد مُصمِّم أو مهندسٌ مذهل للأنظمة البيولوجية، يعمل على ضمان الانسجام بين هذه العلاقات المتداخلة، ليس فقط كي يكون كل جنس سعيدًا، مهما كان اختيارنا لتعريف هذه الكلمة، لكن أيضًا كي يحصل مُصمِّمو النظام أنفسهم على فائدة؛ ألَا وهي الطعام في شكل العسل الإضافي ... هل تعتقد أن هذا النوع من الكفاءة في الأداء يحدث دون الاعتماد على هندسةٍ جينيةٍ متطورة؟»

صمت ريتشارد لدقيقة تقريبًا. ثم قال في النهاية ببطء: «تخيلي أن هناك مهندسًا بيولوجيًّا محترفًا يجلس إلى لوحة مفاتيح، يصمِّم نظامًا يتألَّف من كائناتٍ حية تطابق متطلبات محددة لنظام معين ... إنها فكرة مرعبة.»

ومرة أخرى خرجت أسراب الخنافس من تلالها، متفادية البشريَّين النائمَين وهي تندفع إلى العوارض للقيام بمهمة الحصاد. راقبت نيكول الخنافس حتى اختفَت في الظلام. ثم تثاءبَت واستدارَت على جانبها. وفكَّرت في نفسها قبل أن تغطَّ في سبات عميق: «دخلنا نحن البشر عصرًا جديدًا. وفي المستقبل ستؤرخ الأحداث التاريخية جميعها بحرفَي «ق.ت»

أي قبل الاتصال و«ب.ت» أي بعد الاتصال. لأننا منذ اللحظة الأولى التي تأكدنا فيها أن العناصر الكيميائية البسيطة قد تطورت إلى كيان واعٍ وحياة عاقلة في مكانٍ آخر من كوننا الشاسع، أصبح تاريخ جنسنا لا شيء سوى تاريخ قديم؛ جزء صغير وغير مهمٍّ في لوحةٍ عملاقةٍ ليس لها حدود، تصور التنوع المذهل للحياة العاقلة.»

وفي الصباح التالي بعد تناول طعام الإفطار، دارت مناقشة قصيرة بين ريتشارد ونيكول عن مخزون طعامهما الذي ينخفض بسرعة، ثم قررا أن يأخذا بعضًا من المادة التي تشبه العسل من أحد الأوعية. قالت نيكول وهي تنظر حولها وهي تملأ حاوية صغيرة: «أظن أنه لو لم يجدر بنا فعل ذلك لجاء شرطيٌّ فضائيٌّ وأوقفنا.»

في البداية تحركت الأضواء التي تقودهما إلى الجنوب مباشرة، متجهة بريتشارد ونيكول إلى غابة كثيفة من الأشجار الباسقة تمتدُّ على مرمى البصر، في اتجاهَي الشرق والغرب. انحرفت اليراعتان إلى اليمين وتحركتا بموازاة حافة الأشجار. فرأيا الغابة إلى يسارهما مظلمةً وتثير في النفس خيفة. ومن حين لآخر، سمع ريتشارد ونيكول أصواتًا عالية غريبة تأتي من داخلها.

وفي إحدى المرات، توقف ريتشارد وسار حيث تبدأ النباتات الكثيفة. وكان بين الأشجار الكثير من النباتات الصغيرة ذات أوراق كبيرة تختلف ألوانها ما بين أخضر وأحمر وبني، بالإضافة إلى أنواعٍ عديدةٍ مختلفة من الكَرْم التي كانت تربط الغصون الوسطى والعليا من الأشجار. تراجع ريتشارد مجفلًا عندما سمع صوت عواء حاد بدا على بعد أمتار قليلة للغاية. ودارت عيناه تبحثان في الغابة لكنه لم يعثر على مصدر العواء.

فقال عندما عاد إلى نيكول: «هناك شيء غريب في هذه الغابة. إنها تبدو في غير محلها، كما لو أنها لا تنتمي إلى هنا.»

ولأكثر من ساعة استمرت اليراعتان في طريقهما غربًا. وترددت الأصوات الغريبة أكثر بينما كان ريتشارد ونيكول يسيران ببطء وإجهاد في صمت. ووافقت نيكول ريتشارد في رأيه عن الغابة. نظرت إلى الحقول التي يسودها النظام على يمينها، وقارنت بينها وبين النباتات العشوائية غير المشذبة على يسارها. قالت في نفسها: «ثمة شيء مختلف يثير القلق في تلك الغابة.»

توقف ريتشارد ونيكول للراحة قليلًا وقت الضحى. حسب ريتشارد المسافة التي ساراها منذ أن استيقظا من نومهما، فوجدها أكثر من خمسة كيلومترات. طلبَت نيكول بعضًا من العسل الطازج الذي يحتفظ به ريتشارد في حقيبة ظهره.

ثم قالت بعد أن تناولت طعامها، ثم شربت جرعةً كبيرةً من الماء: «إن قدمَيَّ تؤلماني. وألم ساقيَّ لم يتوقف الليلة الماضية … أتمنى أن نصل إلى وجهتنا أيًّا كانت قبل مرور المزيد من الوقت.»

فقال ريتشارد: «أنا أيضًا أشعر بالتعب. لكن أداءنا ليس سيئًا لشخصَين في بداية الستينيات من عمرَيهما.»

فقالت نيكول: «أشعر أنني أكبر من هذه السن الآن.» ثم وقفت وتمددت قائلة: «لا بد أن قلبَينا في التسعين من عمرَيهما الآن. صحيح أنهما لم يمارسا أنشطة كثيرة خلال السنوات التي قضيناها نائمَين، لكنهما ظلا يخفقان.»

وبينما كانا يتحدثان، اندفع حيوان غريب صغير الحجم كروي الجسم، له عين واحدة وشعر أبيض أشعث واثنتا عشرة ساقًا طويلة، من الغابة القريبة واختطف حاوية العسل. ثم اختفى الكائن والطعام في لحظة.

ففزعت نيكول وسألت زوجها: «ماذا كان هذا؟»

فقال ريتشارد: «كائن يحب الطعام حلو المذاق.» ثم حدق في الغابة إلى حيث اختفى الحيوان. وقال: «لا بد أن هناك عالمًا آخر في هذه الجهة.»

وبعد نصف ساعة تحركت اليراعتان إلى اليسار، وحامتا فوق طريق يقود إلى الغابة. كان عرض الطريق خمسة أمتارٍ وتصطفُّ على جانبَيه نباتاتٌ كثيفة. غير أن حدس نيكول أخبرها ألَّا تتبع اليراعتَين، لكنها لم تقُل شيئًا. وازداد خوفها عندما انبعثَت ضوضاء من الأشجار حولهما، بعد أن خطت هي وريتشارد بضع خطواتٍ داخل الغابة. فتوقَّفا وشبكا أيديهما وأنصتا.

قال ريتشارد: «إنها تبدو أصوات طيور وقردة وضفادع.»

فقالت نيكول: «لا بد أنها تبعث إشارة بحضورنا.» ثم التفتت ونظرت خلفها. وقالت: «هل أنت واثق أن ما نفعله هو الصواب؟»

فأشار ريتشارد إلى الضوء فوق رأسَيهما. وقال: «نحن نتبع هاتَين الحشرتَين منذ يومَين ونصف اليوم. ليس من المنطقي أن نفقد ثقتنا فيهما الآن.»

بدآ يسيران في الطريق مرة أخرى. وظلَّت أصوات النعيب والعواء والنقيق مسموعة. ومن حين لآخر كان نوع أوراق النباتات على جانبَي الطريق يتغير، لكنه ظل كثيفًا وداكنًا.

وفي وقتٍ من الأوقات قال ريتشارد: «لا بد أن هناك مجموعة من البستانيِّين الفضائيِّين يعملون في المنطقة حول هذا الطريق، عدة مرات في الأسبوع. انظري كيف تبدو هذه الشجيرات والأشجار مشذبة … إنها لا تبرز ولو مقدارًا قليلًا في الفضاء فوق رءوسنا.»

وبعد وقتٍ قصيرٍ قالت نيكول: «ريتشارد، إذا كانت الأصوات التي نسمعها تصدر عن حيواناتٍ فضائية، فلمَ لا نرى أيًّا منها على الإطلاق؟ فلم يخرج أي كائن قطُّ إلى الطريق.» ثم انحنت وفحصت التراب أسفل قدميها. وقالت: «ولا يوجد أي دليل مرئي على وجود حياة هنا، سواء الآن أو قبل ذلك ... ولا نملة حتى ...»

فقال ريتشارد وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه: «ربما نسير في طريق سحري. وربما يقود إلى منزل مصنوع من الكعك وساحرة عجوز شريرة ... دعينا نتغنَّ يا جريتل، وربما نشعر أننا أفضل.»

بدأ الطريق الذي كان مستقيمًا تمامًا في أول كيلومتر تقريبًا يصبح متعرجًا. ومن ثم أصبحت أصوات كائنات الغابة تحيط بريتشارد ونيكول. أنشد ريتشارد أغاني شهيرةً تعود إلى سنوات مرحلة المراهقة التي عاشها في إنجلترا. وانضمَّت إليه نيكول لبعض الوقت عندما عرفت الأغنية، لكنها بذلت طاقتها معظم الوقت في محاولة التحكُّم في توتُّرها المتزايد. وكانت تحاول إقناعَ نفسها ألَّا تفكر في أنهما هدفٌ سهل لأي حيوانٍ فضائيٍّ ضخم متربص في الغابة.

وفجأة سكت ريتشارد. واستنشق الهواء بعمق مرتَين. وسأل نيكول: «هل تشمين هذه الرائحة؟»

فاستنشقت نيكول الهواء حولها. وقالت: «نعم ... إنها تشبه قليلًا رائحة أزهار الجاردينيا.»

فقال ريتشارد: «إلا أنها أجمل بكثير. إنها خلابة!»

وفجأة انعطف الطريق أمامهما إلى اليمين. وبعد الانعطاف، كانت هناك مجموعة أعشابٍ كبيرة إلى جانب الطريق مغطَّاة بأزهارٍ صفراء ضخمة، وهي أول زهور يريانها منذ دخولهما إلى الغابة. كانت كل زهرةٍ في حجم كرة السلة. وعندما اقترب ريتشارد ونيكول أكثر من مجموعة الأعشاب أصبحت الرائحة الخلابة أقوى.

لم يستطع ريتشارد كبح نفسه. وقبل أن تتفوه نيكول بأي كلمة كان قد سار أمتارًا قليلة خارج الطريق، وأدخل وجهه في واحدة من الزهور الضخمة واستنشق عبيرها بعمق. كانت رائحتها بديعة. وفي تلك الأثناء، عادت واحدة من اليراعتَين في اتجاههما وبدأت تحوم فوق رأسَيهما في خطٍّ متعرِّج.

فقالت نيكول: «لا أظن أن مرشدتَينا توافقان على الغارة التي تقوم بها.»

فأجابها ريتشارد وهو يعود إلى الطريق: «على الأرجح لا. لكن الأمر كان يستحق.»

وهما يستأنفان سيرهما أحاط بهما المزيد من الزهور من جميع الأشكال والأحجام والألوان على جانبي الطريق. ولم يسبق لأيٍّ منهما رؤية هذه الوفرة من الألوان. وفي الوقت نفسه خبت الأصوات التي كانا يسمعانها. وبعد قليل عندما كان ريتشارد ونيكول في وسط منطقة الزهور، اختفت الضوضاء تمامًا.

ضاق الطريق ليصبح عرضه مترَين فقط، بالكاد يتسع كي يسيرا فيه جنبًا إلى جنب دون أن يحتكا من الجانبَين بالنباتات، التي كانت الزهور تنمو عليها. خرج ريتشارد عن الدرب عدة مرات كي يفحص أو يشم واحدة من الزهور الرائعة. وكل مرة يفعل فيها هذا كانت اليراعتان تعودان لإعادته إلى اتجاهَيهما. ومع أن ريتشارد كان متحمسًا للغاية لرحلاته الخاصة إلى داخل الغابة، فقد كانت نيكول منتبهةً تمامًا للقائدتَين وظلَّت تسير في الطريق.

كان ريتشارد على بعد ثمانية أمتار إلى اليسار يحاول أن يفحص زهرة عملاقة تشبه السجاد الشرقي، عندما اختفى بغتة من أمام ناظرَيها. سمعته نيكول يصرخ فجأة وهو يسقط على الأرض: «آه.»

فسألته على الفور: «هل أنت بخير؟»

فقال: «نعم. تعثرت ببعض النباتات وسقطت داخل كومةٍ من النباتات الشوكية ... إن الشجيرة المحيطة بي أوراقها حمراء اللون وتنمو عليها أزهار صغيرة غريبة تشبه الكرات ... رائحتها كالقرفة.»

فسألته نيكول: «هل تحتاج إلى مساعدة؟»

أجابها: «كلا ... سأخرج من هنا خلال لحظة.»

فنظرت نيكول إلى الأعلى، ولاحظَت أن واحدةً من اليراعتَين كانت تنطلق مبتعدة. فتساءلت في نفسها: «ما الذي يحدث؟» ثم سمعت ريتشارد يتحدث مرة أخرى.

كان يقول: «قد أحتاج إلى بعض المساعدة. يبدو أنني علقت.»

خطت نيكول بحذر خارج الطريق. ففقدت اليراعة الأخرى صوابها، وظلَّت تقترب من نيكول حتى أصبحَت بجوار وجهها تقريبًا. ففقدت نيكول مؤقتًا القدرة على الرؤية بسبب الضوء المبهر.

وبعد ثوانٍ قليلة قال ريتشارد على حين غرة: «لا تقتربي يا نيكول. إن لم أكن مجنونًا فإن هذا النبات يستعد ليلتهمني.»

تملك الخوف من نيكول. قالت: «ماذا؟ هل أنت جاد فيما تقول؟» وانتظرت بنفاد صبر حتى يتعافى نظرها من تأثير الضوء المبهر.

قال ريتشارد: «نعم. عودي إلى الطريق ... لقد لفت هذه الشجيرة الغريبة فروعها الصفراء حول ذراعَيَّ وساقيَّ ... وهناك بعض الحشرات الزاحفة تمتص الدماء التي سببتها الأشواك ... وهناك فتحة في الشجرة أنجذب في اتجاهها ببطء، تبدو كفم قبيح ... يمكنني أن أرى بعض الأسنان أيضًا.»

شعرت نيكول بنبرة الرعب في صوت ريتشارد. فأخذت خطوة أخرى في اتجاهه، لكن عادت اليراعة مرة أخرى كي تعميها بضوئها.

فصاحت: «أنا لا أستطيع أن أرى شيئًا. هل ما زلت موجودًا يا ريتشارد؟»

فأجابها: «نعم. لكن لا أعلم إلى متى.»

ثم سمعا صوت حيوانات تتحرك بسرعة في الغابة مع عواء عالٍ. وفجأة ظهر ثلاثة من كائنات الأوكتوسبايدر تلوِّح بأسلحةٍ طويلةٍ رفيعةٍ بصورة غريبة. أطلقت كائنات الأوكتوسبايدر رذاذًا سائلًا على الشجيرة آكلة اللحوم، وفي غضون ثوانٍ لفظت الشجيرة ريتشارد. وعلى الفور أخفت الشجرة العدوانية فمها مرة أخرى خلف أغصانها الكثيرة.

سار ريتشارد متعثرًا واحتضن نيكول. وصاح كلاهما: «شكرًا لكم» لكائنات الأكتوسبايدر الثلاثة، بينما كانت تختفي في الغابة بالسرعة نفسها التي ظهرت بها. ولم يلحظ ريتشارد ونيكول أن اليراعتَين عادتا تحومان فوق رأسَيهما.

فحصت نيكول ريتشارد بحرص، لكنها لم تعثر على شيءٍ سوى جروحٍ بسيطةٍ وخدوش. فقال وهو يبتسم ابتسامةً باهتة: «أظن أنني سألتزم بالطريق لبعض الوقت.»

فأجابته نيكول: «هذه على الأرجح ليسَت فكرة سيئة.»

تحدَّث الاثنان عما حدث وهما يستكملان سيرهما في الغابة. كان ريتشارد لا يزال مصدومًا. قال: «تباعدَت الأغصان القريبة من كتفي الأيسر وظهرت تلك الفجوة، في البداية كانت في حجم كرة بيسبول. لكن عندما حملتني الحركة الموجية للفروع باتجاهها، اتسعت الفجوة.» ثم انتفض جسده. وقال: «حينها رأيت الأسنان الصغيرة التي تحيط بها. كنت قد بدأت أفكر في شعوري وأنا وجبة حين ظهر أصدقاؤنا كائنات الأوكتوسبايدر.»

بعد قليل سألته نيكول: «ماذا يحدث هنا برأيك؟»

كانا في ذلك الوقت قد تركا منطقة الزهور، وعادا مرة أخرى محاطَين بالأشجار ونباتات الغابة وضوضاء الحيوانات المتقطعة.

فأجابها ريتشارد: «لا أعلم مطلقًا.»

انتهت الغابة فجأةً بينما كان ريتشارد ونيكول يتضوران جوعًا. وجدا نفسَيهما يخرجان إلى أرضٍ منبسطةٍ خاوية. ورأيا أمامهما — ربما على بعد كيلومترَين — قبة خضراء كبيرة تملأ المكان.

«ما هذا؟»

فقال ريتشارد: «إنها مدينة الزمرد يا حبيبتي. بالطبع تعرفينها من مشاهدة الفيلم القديم ... وبداخلها ستجدين الساحر أوز مستعدًّا لأن يلبِّي جميع أمنياتك.»

ابتسمت نيكول وقبَّلت زوجها. ثم قالت: «اتضح أن الساحر محتال. فلم يكن يتمتع بأي قوًى خارقة.»

أجابها ريتشارد بابتسامة عريضة: «الأمر محل خلاف.»

وبينما كانا يتحدثان، اندفع ضوء اليراعتَين اللتَين كانتا تقودانهما باتجاه القبة الخضراء، تاركَين ريتشارد ونيكول في ظلامٍ شبه دامس. فأخرجا مصباحَيهما من حقيبتَيهما. وقال ريتشارد وهو يسير بخطًى واسعةٍ يقطع المسافة في اتجاه مدينة الزمرد: «أشعر أننا نقترب من نهاية رحلتنا.»

كان بإمكانهما من مسافة تزيد عن الكيلومتر رؤية البوابات من خلال منظارَيهما المقرِّبَين. بدأت الإثارة تعرف طريقها إلى قلب ريتشارد ونيكول. ثم سألت نيكول: «هل تعتقد أن هذا هو موطن كائنات الأوكتوسبايدر؟»

فقال ريتشارد: «بالتأكيد. لا بد أنه مكان مذهل. فقمَّة القبة الخضراء ترتفع على الأقل مسافة ثلاثمائة مترٍ فوق سطح الأرض. وتخميني أن المساحة أسفلها تتجاوز عشرة كيلومترات مربعة ...»

وسألت نيكول بعد أن أصبحا على بعد ستمائة متر فقط من المكان: «ما هي خطتنا يا ريتشارد، هل سنذهب إليها ونطرق الباب؟»

فسألها ريتشارد وخطاه تتسارع: «ولم لا؟»

عندما أصبحا على بعد مائتَي متر من البوابة، فُتحت وظهر ثلاث هيئات. سمع ريتشارد ونيكول صيحة عندما بدأ أحدها يتحرك في اتجاههما بسرعة. فوقف ريتشارد واستخدم منظاره المقرِّب مرة أخرى. ثم صاح: «إنهما إيلي، وإيبونين ... ومعهما أوكتوسبايدر.»

ألقت نيكول حقيبة ظهرها وقطعت السهل ركضًا. واحتضنت ابنتها الحبيبة بين ذراعَيها حتى إنها رفعتها من فوق الأرض من قوة عناقها، وردَّدت اسمها والدموع تنهمر من عينَيها لتغرق وجنتَيها.

٥

«هذا صديقنا آرشي … كان عونًا كبيرًا لنا طوال المدة التي قضيناها هنا … هذان هما أبي وأمي يا آرشي.»

أجاب آرشي الأوكتوسبايدر بسلسلة من الألوان بدأت بلون قرمزي رائع، تبعه لون أخضر يميل إلى الزرقة، ثم لون أرجواني ثم درجتان مختلفتان من اللون الأصفر (الأولى تميل إلى اللون البرتقالي، والثانية ليمونية تميل إلى الأخضر) وأخيرًا لون بنفسجي. ودارت سلسلة الألوان حول رأس الأوكتوسبايدر الكروي دورة كاملة، ثم اختفَت مرة أخرى في الجانب الأيسر من الشق الذي تكوَّن من الفجوتَين المتوازيتَين في منتصف وجهه.

فقالت إيلي: «إن آرشي يقول إنه سعيد للقائكما، خاصة بعد سماع الكثير عنكما.»

فسألتها نيكول وهي مصدومة بعض الشيء: «هل بإمكانك قراءة ألوانه؟»

فأجابتها إيبونين: «إن إيلي بارعة. تعلمت لغة كائنات الأوكتوسبايدر بسرعة كبيرة.»

فعادت نيكول تسأل: «لكن كيف تتحدَّثين إليها؟»

فأجابتها إيلي قائلة: «إن بصرها حادٌّ بصورة مذهلة وتتمتع بذكاء خارق … إذ تعلَّم آرشي واثنا عشر أوكتوسبايدر آخر أن يقرءوا الشفاه … لكن يمكننا التحدُّث عن كل هذا فيما بعد يا أمي. أخبريني أولًا كيف حال نيكي وروبرت. هل هما بخير؟»

«إن ابنتك تزداد جمالًا كل يوم وتشتاق إليكِ بشدة … وأظن أن روبرت لم يتغلب على فقدك، فلا يزال يلوم نفسه لأنه لم يحمِكِ بصورةٍ أفضل …»

تابع الأوكتوسبايدر آرشي الحوار الشخصي بأدب لعدة دقائق قبل أن يربت على كتف إيلي، ليذكرها أن والديها على الأرجح مرهقان ويشعران بالبرد.

فقالت إيلي: «شكرًا لك يا آرشي. إليكم الخطة. ستدخلان أنتما الاثنان إلى المدينة على الأقل لقضاء الليلة والغد؛ إذ تم إعداد ما يمكن أن نعتبره جناحًا في فندق بالداخل لنا نحن الأربعة، وبعد غد أو عندما تنالا قسطًا من الراحة سنعود جميعًا إلى الآخرين. وسيحضر آرشي معنا.»

فسألها ريتشارد بعد صمت دام لفترة قصيرة: «ألم يكن من الأسهل أن تأتوا أنتم الثلاثة إلى حيث كنا؟»

«طرحت السؤال نفسه يا أبي … ولم أتلقَّ إجابةً مرضية …»

قاطعت شرائط الألوان التي ظهرت على رأس آرشي ما كانت إيلي تقوله. فقالت للأوكتوسبايدر: «حسنًا.» ثم التفتت إلى والديها وقالت: «يقول آرشي إن كائنات

الأوكتوسبايدر أرادت أن يكون لديكما أنتما الاثنان بالذات فكرة واضحة عنها، وعلى أي حال يمكننا مناقشة هذه الأمور بعد أن نستقر في جناحنا.»

فُتحت أبواب مدينة الزمرد العملاقة، عندما كان البشر الأربعة ومرافقهم الأوكتوسبايدر على بعد عشرة أمتارٍ منها. ولم يكن ريتشارد ونيكول مستعدَّين لرؤية تلك المشاهد الغريبة المتنوعة التي سقطت عليها أعينهما فور دخولهما المدينة. فكان أمامهما مباشرة طريقٌ واسعٌ على طول جانبَيه مبانٍ منخفضة يؤدي إلى مبنًى هرمي مرتفع ذي لونَين قرنفلي وأزرق على بعد عدة مئات من الأمتار.

وعندما خطا ريتشارد ونيكول أولى خطواتهما داخل مدينة الأوكتوسبايدر، كانا مذهولَين. ولن يتمكن أيٌّ منهما أن ينسى أبدًا تلك اللحظة الأولى التي لا تصدق. كانا محاطين بلوحة من الألوان المختلفة. فكل شيء في المدينة — بما في ذلك الشوارع والمباني والزخارف غير المفهومة التي تصطف على طول الطريق والنباتات في الحديقة (إذا كانت نباتات بالفعل) والعدد الكبير من الحيوانات التي كانت تنطلق في جميع الاتجاهات — كان مزخرفًا بألوان زاهية. كانت هناك مجموعة من أربع ديدان أو ثعابين، تشبه الحلويات على شكل عصا المشي فيما عدا أنها أكثر منها ألوانًا، ظلت ملتفة داخل البوابة على الأرض إلى يسار ريتشارد ونيكول. وكانت رءوسها مرفوعة لأعلى، على الأرجح تجاهد كي ترى الزوار الأغراب. ورأيا حيوانات لونها أحمر وأصفر فاتح لها ثماني أرجل ومخالب تشبه مخالب جراد البحر، تحمل أعوادًا خضراء سميكة في تقاطع على بعد خمسين مترًا أمام ريتشارد ونيكول.

وبالطبع كان هناك عشرات وربما مئات من كائنات الأوكتوسبايدر جاءت جميعًا إلى منطقة البوابة، لتلقي نظرة على البشريَّين الجديدَين في المدينة. كانت تجلس في جماعات أمام المباني أو تقف إلى جانب الطريق أو تسير على أسطح المباني. وكانت جميعها تتحدث في الوقت نفسه مستخدمة شرائط الألوان الزاهية، مؤكدة على جمال الزخارف في الشارع، بمساعدة موجاتٍ متحركةٍ من الألوان المختلفة.

نظرت نيكول حولها، وهي تلقي نظرة سريعة للحظة واحدة على كل كائن من الكائنات الغريبة التي تحملق فيها. ثم أعادت رأسها إلى الخلف لتتمعن في القبة الخضراء في الأعلى. فرأت ما يشبه أضلاعًا مرنة رفيعة في نقاط بعيدة، مغطاة تقريبًا بمظلة خضراء سميكة.

ثم سمعت إيلي بجوارها تقول: «إن السقف يتكون من نباتات معترشة وغيرها، بالإضافة إلى بعض الحيوانات التي تشبه الحشرات التي تحصد الفواكه والزهور المفيدة. إنه نظام بيئي حي متكامل يتمتع بميزة إضافية، ألا وهي قدرته على أن يكون غطاءً ممتازًا للمدينة، يمنع عنها هواء راما البارد. وبعد أن تغلق الأبواب سترين أن درجة الحرارة ملائمة داخل المدينة.»

وتناثر تقريبًا عشرون مصدرًا مبهرًا للضوء أسفل القبة، أكبر بكثيرٍ من حجم اليراعات التي قادَت ريتشارد ونيكول إلى موطن الأوكتوسبايدر. حاولت نيكول أن تفحص واحدًا من الأضواء، لكنها سريعًا ما توقفت لأن الضوء كان يغشي عينَيها. قالت في نفسها: «إن صحَّ تخميني فإن هذا الضوء يصدر عن مجموعاتٍ من اليراعات نفسها التي قادتنا إلى مدينة الزمرد.»

هل هو التعب أم السعادة أم مزيج من هذا وذاك الذي جعل نيكول تفقد توازنها؟ أيًّا كان السبب، فقد بدأت نيكول تشعر بالدوار وهي تحدق في القبة الخضراء بالأعلى، فتعثرت ومدت يدها لتتعلق بريتشارد. وتسبب تدفق الأدرينالين الذي صاحب شعورها بالدوار والخوف المفاجئ في ازدياد معدل خفقان قلبها.

فقالت إيلي وقد أقلقها شحوب وجه أمها: «ماذا بك يا أمي؟»

فقالت نيكول وهي تتنفس ببطء وروية: «لا شيء، لا شيء ... شعرت بالدوار للحظة.»

نظرت نيكول إلى الأرض أسفلها كي تشعر بالثبات. كانت الشوارع مرصوفة بمربعات زاهية الألوان تشبه السيراميك. ورأت على الأرض أمامها يجلس على بعد ما لا يزيد عن خمسين سنتيمترًا أغرب ثلاثة كائنات رأتها نيكول في حياتها. كان كلٌّ منها في حجم كرة السلة. ورءوسها نصف الكروية مموجة لونها أزرق داكن، تشبه إلى حد ما شكل المخ البشري، والجزء الذي يطفو من قنديل البحر على سطح الماء. وفي منتصف تلك الكتلة التي تتحرَّك باستمرارٍ كانت هناك فجوة دائرية مظلمة، يخرج منها قرنا استشعارٍ رفيعان طويلان، ربما يصل طول كلٍّ منهما إلى عشرين سنتيمترًا، وبه كتل عصبية أو عقد يبعد بعضها عن بعض بمقدار اثنين أو ثلاثة سنتيمترات تقريبًا. عندما تراجعت نيكول لا إراديًّا، وقفزت إلى الخلف لشعورها الغريزي أن هذه الكائنات الغريبة تمثِّل تهديدًا لها، دارَت قرون الاستشعار وفرَّت الكائنات الثلاثة بسرعةٍ إلى جانب الطريق.

ألقت نيكول نظرة سريعة حولها. كانت شرائط الألوان تتدفق حول رءوس جميع كائنات الأوكتوسبايدر التي رأتها. وكانت نيكول «تعرف» أنها تحلل ردود أفعالها لحظة

بلحظة. وفجأة شعرت كما لو أنها عارية وتائهة ومرتبكة تمامًا. ومن أعماق نفسها راودها شعور قديم قوي بالحزن. فخشيت أن تبدأ في الصراخ.

فقالت بهدوء: «إيلي، أظن أنني رأيت ما يكفيني اليوم ... هل نستطيع الدخول إلى الجناح سريعًا؟»

فأمسكت إيلي والدتها من ذراعها، وقادتها باتجاه بابٍ في المبنى الثاني إلى يمين الساحة. وقالت: «ظلت كائنات الأوكتوسبايدر تعمل ليلًا ونهارًا كي تجعل هذه الغرف مناسبة. أتمنى أن تكون مرضية لكما.»

استمرت نيكول في التحديق في مشهد الشارع، لكن ما رأته لم يعد يخترق أعماق عقلها الواعي. فقالت في نفسها عندما مرت أمام عينيها مجموعةٌ من الكائنات الخضراء النحيفة، التي تشبه كرات البولينج على ركائز خشبية رفيعة: «إنه حلم. لا يمكن أن يكون هناك مكانٌ كهذا في أي مكان.»

قال ريتشارد: «شعرت أنا أيضًا بالإجهاد. إذ حدث ما أرعبنا في الغابة. وقطعنا مسافة طويلة سيرًا على الأقدام لثلاثة أيام، مسافة طويلة لعجوزَين مثلنا ... لا عجب أن ترتبك أمك بهذا الشكل؛ فالمشهد بالخارج كان غريبًا.»

فقالت إيلي: «قبل أن يغادر آرشي اعتذر بثلاث طرائق مختلفة. فحاول أن يشرح أن الأوكتوسبايدر سمحت لأي شخصٍ بالاتجاه إلى منطقة البوابة ظنًّا منها أن هذا سيثير سعادتك أنت وأمي ... ولم تفكر في احتمال أن يكون الأمر أكثر مما يمكنكما احتماله ...»

اعتدلت نيكول في جلستها على فراشها ببطء. وقالت: «لا تقلقي يا إيلي. لم أَصِر بعدُ هشةً لهذه الدرجة ... أظن أنني لم أكن مستعدة، لا سيما بعد كل هذا المجهود البدني والعاطفي.»

«إذن هل ترغبين في نيل المزيد من الراحة يا أمي، أم تفضلين تناول الطعام؟»

فكررت نيكول: «أنا بخير حقًّا. دعينا نَسِر وفق خطتك ...» ثم التفتت إلى صديقتها الفرنسية التي لم تتحدث كثيرًا منذ أن ألقت عليهما التحية على الباب خارج المدينة، وقالت: «بالمناسبة يا إيبونين، يجب أن أعتذر عن فظاظتنا. انشغلت أنا وريتشارد في التحدث إلى إيلي ومشاهدة كل شيء ... فنسيت أن أخبرك أن ماكس يرسل لك تحياته الحارة. جعلني أعده أنني إذا رأيتك، فسأخبرك أنه يفتقدك بشدة.»

فأجابتها إيبونين: «شكرًا لك يا نيكول. ظللت أفكر في ماكس وفي الآخرين يوميًّا منذ أن أحضرتنا كائنات الأوكتوسبايدر إلى هنا.»

ثم سألتها نيكول: «هل تتعلمين لغة الأوكتوسبايدر مثل إيلي؟»

فأجابتها إيبونين ببطء: «لا، كنت أقوم بشيء آخر مختلف تمامًا ...» ثم نظرت حولها بحثًا عن إيلي التي خرجت للحظةٍ كي تطلب إحضار العشاء. ثم استكملت: «في الحقيقة لم أرَ إيلي لمدة أسبوعَين، حتى بدأنا نضع خطة مجيئكما إلى هنا.»

ساد صمتٌ غريبٌ في الغرفة دام لثوانٍ. ثم سألها ريتشارد بصوت منخفض: «هل كنت أنت وإيلي سجينتين هنا؟ وهل علمتما لم اختطفتكما؟»

فأجابته إيبونين: «لا، ليس بالضبط.» ثم وقفت في الغرفة الصغيرة وصاحت: «إيلي، هل أنت بالخارج؟ إن والدك يطرح بعض الأسئلة ...»

ثم سمعوا جميعًا صوت إيلي وهي تصيح: «دقيقة واحدة.» وبعد بضع لحظات عادت إلى الغرفة والأوكتوسبايدر آرشي خلفها. ففهمت إيلي النظرة التي ارتسمت على وجه أبيها. ثم قالت: «إن وجود آرشي لا بأس به. اتفقنا أنه عندما نبدأ بإخباركما عن كل شيء يمكن أن يكون موجودًا ... ليشرح ويوضح لكما بعض الأمور، وربما ليجيب عن الأسئلة التي لا نستطيع الإجابة عنها ...»

جلس الأوكتوسبايدر بين البشر فخيَّم الصمت المؤقت ثانية. وفي النهاية قال ريتشارد: «لماذا يراودني شعور أنكما تدربتما على هذا المشهد بالكامل؟»

فانحنت نيكول التي تشعر بالقلق إلى الأمام وأمسكت بيد ابنتها. وقالت: «لا توجد أخبار سيئة، أليس كذلك يا إيلي؟ أخبرتمانا أنكما ستعودان معنا ...»

فقالت إيلي: «صحيح يا أمي. كل ما في الأمر أن هناك بعض الأشياء التي نودُّ أنا وإيبونين أن نخبركما بها ... لماذا لا تبدئين أنتِ يا إيب؟»

تدفقت حول رأس آرشي الذي كان من الواضح أنه يتابع الحوار بانتباه شرائط من الألوان، وهو يغير موضع جلوسه ليواجه إيبونين. فراقبت إيلي شرائط الألوان بحرص.

فسألتها نيكول: «ماذا يقول هذا الشيء ... هذا الكائن؟» كانت مذهولة من مهارة ابنتها في تعلم لغة الفضائيين.

فقالت إيلي وهي تضحك ضحكة قصيرة: «أظن أن «الكائن» ستكون مناسبة أكثر. على الأقل هذا ما أخبرني به آرشي عندما شرحت له الفرق ... لكنني ظللت أنا وإيب نستخدم صيغة المذكر للإشارة إلى آرشي ودكتور بلو ... على أي حال يريدنا آرشي أن نخبركما أن كائنات الأوكتوسبايدر اعتنت جيدًا بي وبإيبونين، وأننا لم نعانِ بأي شكلٍ من الأشكال، وأنها اختطفَتنا لأنها لم تتمكَّن من التوصل لطريقةٍ تمكنها من التواصل معنا على نحوٍ غير عدائي ...»

فقاطعها ريتشارد قائلًا: «إن الخطف لا يعد الوسيلة المناسبة لبدء التواصل.»

فاستكملت إيلي: «شرحت كل هذا لآرشي والآخرين يا أبي؛ لهذا يريدني أن أوضِّح الأمور الآن … عاملونا معاملةً حسنة، ولم أرَ أي إشارةٍ تدل على أن جنسها قادرٌ على القيام بسلوكٍ عدواني …»

فقال ريتشارد: «حسنًا، أفهم أنا ووالدتك «الغرض» من هذا التمهيد …»

انقطع الحديث لحظة بسبب بعض التعليقات الملونة من آرشي. وبعد أن شرحت له إيلي معنى كلمتَي «الغرض» و«التمهيد» نظرت إلى والدَيها. وقالت: «إن مستوى ذكاء كائنات الأوكتوسبايدر مبهر حقًّا. فآرشي لم يسألني عن معنى أي كلمة أكثر من مرة.»

بدأت إيبونين تتحدث قائلة: «عندما وصلت إلى هنا، كانت إيلي قد بدأت تفهم لغة الأوكتوسبايدر … وفي البداية كان كل شيء محيرًا بصورة رهيبة … لكن بعد بضعة أيام فهمنا أنا وإيلي لماذا اختطفتنا كائنات الأوكتوسبايدر.»

فتدخلت إيلي قائلة: «تحدثنا عن الأمر لليلة كاملة. كنا نحن الاثنتان مشدوهتين … لم نستطع التوصل إلى كيفية معرفتها بالأمر …»

فقال ريتشارد: «أي أمر؟ أنا آسف أيتها السيدتان. لكنني أواجه مشكلة في متابعة ما تتحدثان عنه …»

قالت إيبونين: «عرفت الأوكتوسبايدر أنني مريضة بفيروس «آر في ٤١». كان آرشي ودكتور بلو … إنه أوكتوسبايدر آخر يعمل طبيبًا ونحن نطلق عليه اسم دكتور بلو (أزرق) لأنه عندما يتحدث يتدفق شريط الألوان الأزرق الفضي خارج الحدود العادية …»

هذه المرة نيكول هي التي قاطعتها، وقالت وهي تهز رأسها بقوة: «انتظري لحظة. دعيني أستوعب الأمر. أنت تقولين إن كائنات الأوكتوسبايدر «عرفت» أن إيبونين مريضة بفيروس «آر في ٤١». كيف يمكن ذلك؟»

فأظهر آرشي سلسلة طويلة من الألوان، وطلبت منه إيلي أن يعيدها. ثم قالت: «إنه يقول إنهم ظلوا يراقبون جميع أنشطتنا عن كثب منذ أن غادرنا عدن الجديدة. واستدلَّت كائنات الأوكتوسبايدر من تصرفاتنا — على حسب قوله — على أن إيبونين تعاني مرضًا عضالًا من نوع ما.»

بدأ ريتشارد يذرع الغرفة. ثم قال بانفعال: «إن هذا أحد أروع التصريحات التي سمعتها على الإطلاق.» ثم استدار مواجهًا الحائط وهو مستغرق تمامًا في أفكاره. فذكَّر آرشي إيلي أنه لن يستطيع فهم أي شيء إلا إذا كان ريتشارد يواجهه. وفي النهاية استدار

ريتشارد ليواجه المجموعة وقال: «كيف أمكنها ... إيلي، أليست كائنات الأوكتوسبايدر صماء؟»

وعندما أومأت إيلي برأسها مؤكدة، تعلم ريتشارد ونيكول أول مقطع من لغة الأوكتوسبايدر. إذ أطلق آرشي شريطًا قرمزيًّا عريضًا بسرعة، مشيرًا إلى أن العبارة تقريرية، وأتبعها بلون أزرق رائع يميل إلى الخضرة.

فقال ريتشارد: «حسنًا، إذا كانت صماء، فكيف أمكنها معرفة أن أيبونين مريضة بفيروس «آر في ٤١»، إلا إذا كانت عبقرية في قراءة العقول، أو لديها سجل لكل ... لا، لن يكون الأمر ممكنًا حتى في هذه الحالة.»

ثم جلس. وعاد الصمت يخيم على الغرفة. وفي النهاية سألت إيبونين: «هل أستكمل حديثي؟» فأومأ لها ريتشارد بالإيجاب.

«كما كنت أقول، شرح دكتور بلو وآرشي لإيلي ولي أن جنسَهما متقدم للغاية في علمَي الأحياء والطب ... وإذا فكرنا في التعاون معها، فستبحث عن تقنياتٍ يمكنها شفائي ... على فرض طبعًا أنني سأكون مستعدةً للخضوع لكل إجراءات العلاج ...»

قالت إيلي: «وعندما سألناه لماذا يرغب في علاج إيبونين، أخبرنا دكتور بلو أن كائنات الأوكتوسبايدر تحاول تقديم عربون صداقةٍ كبير، شيءٍ يمهد الطريق لعلاقةٍ متناغمة بين النوعَين.»

كان ريتشارد ونيكول مذهولَين تمامًا مما سمعاه. فنظر أحدهما إلى الآخر غير مصدِّقَين في حين استكملت إيلي حديثها.

«نظرًا لأنني كنت لا أزال مبتدئة في تعلم اللغة، كان من الصعب للغاية أن أخبر الأوكتوسبايدر بما نعرفه عن «آر في ٤١». وفي النهاية بعد الكثير من الجلسات المكثفة الطويلة لتعلم اللغة، تمكنا من إخبارها بما نعرف.»

«حاولت أن أتذكر أنا وإيلي كل شيء قاله دكتور روبرت عن ذلك المرض. وطوال الوقت كان دكتور بلو وآرشي واثنان آخران من كائنات الأوكتوسبايدر معنا. ولم نرهم قطُّ يدوِّنون ملحوظة. ومع هذا لم نخبرها قط المعلومة نفسها مرتَين.»

وأضافت إيلي: «في الواقع عندما كنا نكرر الأمر سهوًا، كانت تذكرنا أننا أخبرناها بذلك الأمر من قبل.»

وعادت إيبونين تقول: «ومنذ ثلاثة أسابيع تقريبًا أخبرتنا كائنات الأوكتوسبايدر أن عملية جمع المعلومات انتهَت، وأنها مستعدةٌ لإخضاعي لبعض الفحوصات. وشرحت أن الفحوصات قد تكون مؤلمةً في بعض الأوقات، وفق معايير البشر.»

قالت إيلي: «كانت معظم الفحوصات تتضمن استخدام كائنات حية، بعضها لا يُرى بالعين المجردة، والبعض الآخر كان بإمكان إيبونين أن تراه، وإدخالها إلى جسدها، إما بالحقن ...»

«أو بجعل هذه الكائنات تدخل إلى جسدي عبر ... أعتقد أن الكلمة المناسبة هي فتحات جسمي.»

وهنا قاطعهما آرشي ليسأل عن معنى «سهوًا» و«فتحات». وبينما كانت إيلي تشرح له مالت نيكول على ريتشارد. وسألته: «هل يبدو لك الأمر مألوفًا؟»

فأومأ ريتشارد. وقال: «لكن لم يحدث بيننا أي نوع من التفاعل قط، على الأقل لا أتذكر حدوثه ... بل كنت معزولًا ...»

فقالت إيبونين: «راودتني بعض المشاعر الغريبة في حياتي، لكن لا شيء على الإطلاق يشبه ما شعرت به يوم زحفت خمس أو ست ديدان صغيرة — لا يزيد حجمها عن حجم دبوس — في الجزء الأسفل من جسدي.» ثم انتفض جسدها. وأكملت: «قلت لنفسي إذا نجوت من غزو كائناتٍ غريبة لجسدي من الداخل، فلن أشكوَ أبدًا من أي مشكلاتٍ جسدية.»

فسألتها نيكول: «وهل صدقت أن كائنات الأوكتوسبايدر ستتمكن من مداواتك؟»

فأجابت إيبونين: «ليس في البداية. لكن بمرور الأيام بدأت أفكر أن ذلك ممكن، رأيت بالتأكيد أن لديها إمكانياتٍ طبيةً تختلف تمامًا عن إمكانياتنا ... وراودني شعور بأنها تحرز تقدمًا بالفعل ...

وذات يوم بعد انتهاء الفحوصات جاءت إيلي إلى غرفتي؛ إذ كنت طوال تلك المدة في جزءٍ آخر من المدينة، على الأرجح فيما يعتبرونه المستشفى، وأخبرَتني أن كائنات الأوكتوسبايدر عزلت فيروس «آر في ٤١»، وفهمت كيف يعمل في جسد مضيفه؛ أنا. وطلبت كائنات الأوكتوسبايدر من إيلي أن تخبرني أنها ستدخل «عميلًا بيولوجيًّا» في جسدي، ليطارد الفيروس ويدمره تمامًا. لكن لن يكون بإمكان العميل تقليل الضرر الذي تسبب فيه الفيروس بالفعل، وعلمت من إيلي أن الضرر ليس شديدًا، لكن العميل سينظف جسدي تمامًا من الفيروس.»

فقالت إيلي: «أخبرتني كائنات الأوكتوسبايدر أن أشرح لإيبونين أيضًا أنه من المحتمل ظهور بعض الآثار الجانبية لذلك العميل. لم تعرف الكائنات بالضبط ما تتوقعه؛ لأنها لم تستخدم ذلك العميل في جسد بشري من قبل، لكن توقعت «نماذجها» الإصابة بالغثيان والصداع.»

وقالت إيبونين: «كانت محقة بشأن الغثيان بالفعل. فقد كنت أتقيأ كل ثلاث أو أربع ساعات لمدة يومَين. وفي نهاية ذلك الوقت جاء دكتور بلو وآرشي وإيلي والاثنان الآخران، واجتمعوا حول فراشي وأخبروني أنني شُفيت.»

فهب ريتشارد من مكانه واقفًا. وصاح: «ماذا؟»

وقالت نيكول على الفور: «إيبونين، أنا سعيدة للغاية من أجلك.» ثم وقفت واحتضنت صديقتها.

فقال ريتشارد لنيكول: «وهل تصدقين هذا؟ هل تصدقين أن أطباء الأوكتوسبايدر الذين من المستحيل أن يكونوا قد أَلَمُّوا بآليات عمل جسم الإنسان؛ نجحوا في غضون أيامٍ فيما لم يستطع زوج ابنتكِ العبقري، وفريق عمله في المستشفى في إنجازه في أربع سنوات؟»

فقالت نيكول: «ولِمَ لا يا ريتشارد؟ لو كان الرجل النسر في النود فعل ذلك، لكنت صدقته على الفور. فماذا يمنع أن تكون كائنات الأوكتوسبايدر أكثر تقدمًا منا في علم الأحياء؟ فكر في كل ما رأيناه ...»

فقال ريتشارد: «حسنًا.» وهز رأسه بضع مرات ثم التفت إلى إيبونين. وقال: «أنا آسف، لكن من الصعب عليَّ ... تهانينا. أنا أيضًا سعيد من أجلك.» ثم احتضن إيبونين وهو مضطرب.

وبينما كانوا يتحدثون، وضع شخصٌ ما الخضراواتِ الطازجةَ والماء على باب غرفتهم دون أن يصدر أدنى صوت. ورأت نيكول المواد المستخدمة لإعداد وليمتهم عندما ذهبت إلى الحمام.

وحين عادت إلى حيث كانوا جالسين قالت لإيبونين: «لا بد أنها كانت تجربة مذهلة.»

قالت إيبونين: «هذا أقل مما يوصف به الأمر.» ثم ابتسمت. واستأنفت: «ومع أنني أُومِن في أعماقي أنني شُفيت تمامًا، لا أطيق صبرًا حتى أحصل على تأكيدٍ منك ومن دكتور تيرنر.»

كان ريتشارد ونيكول مرهقَين بشدة بعد تناول عشائهما الهائل. وأخبرت إيلي والديها أن هناك المزيد ليتحدثوا بشأنه، لكن بإمكانها أن تنتظر حتى ينالا قسطًا من الراحة.

قال ريتشارد عندما كان مستلقيًا بجوار نيكول على الفراش الكبير، الذي وفَّره لهما مضيفوهما: «أتمنى أن أتذكر المزيد عن الفترة التي قضيتها مع كائنات الأوكتوسبايدر قبل أن نصل إلى النود. ربما يمكنني حينها أن أفهم بصورةٍ أفضلَ رد فعلي تجاه القصة التي أخبرتنا بها إيلي وإيبونين.»

فسألته نيكول: «هل لا تزال تشكُّ في أنها شُفيت؟»

قال ريتشارد: «لا أعلم، لكنني أعترف أنني متحير من اختلاف سلوك كائنات الأوكتوسبايدر هذه، وتلك التي فحصتني وأجرت اختبارات عليَّ قبل سنوات … فأنا لا أستطيع أن أصدق أن كائنات الأوكتوسبايدر على متن مركبة راما الثانية، كانت تنقذني من بين براثن نبات مفترس.»

«ربما تكون كائنات الأوكتوسبايدر قادرةً على تغيير سلوكها تغييرًا جذريًّا. فهذا ينطبق تمامًا على البشر. وفي الواقع إنه ينطبق على جميع الثدييات من الرتبة العليا على سطح الأرض. فلماذا تتوقَّع أن تكون جميع كائنات الأوكتوسبايدر متشابهة؟»

«أعلم أنك ستتهمينني بالخوف من الكائنات الفضائية، لكن من الصعب عليَّ أن أتقبل كائنات الأوكتوسبايدر «الجديدة» هذه. إنها متعاونة بدرجة تثير الريبة. وبصفتك عالمة بيولوجيا ماذا تظنين سيكون مقابل لطفها معنا؟»

أجابته نيكول: «هذا سؤال منطقي يا حبيبي، لكنني لا أعرف الإجابة. فالشخص المثالي بداخلي يريد أن يصدق أننا صادفنا جنسًا يتصرف — معظم الوقت — بطريقة أخلاقية، بدافع فعل الخير ذاته.»

فضحك ريتشارد. وقال: «كان لا بد أن أعرف أنكِ ستقولين شيئًا كهذا. فهذا يتفق مع تعليقاتك على سيسيفوس، أثناء النقاش الذي دار بيننا في عدن الجديدة قبل وقت طويل.»

٦

عندما استيقظت نيكول أخيرًا من نومها الذي دام إحدى عشرة ساعة، كانت إيلي تقول: «ستجد أن لغتها مذهلة يا أبي.» كان ريتشارد وإيلي يتناولان إفطارهما. أكملت إيلي: «إنها رياضية بحتة. فهي تستخدم أربعةً وستين لونًا في المجمل، لكن واحدًا وخمسين منها فقط هي ما يمكن أن نطلق عليها حروفًا هجائية. والثلاثة عشر الأخرى تُستخدم للإيضاح، فتستخدم لتحديد الأزمنة أو لتحديد مقابل الكلمة، أو لتحديد صيغ التفضيل والتفضيل المطلق. إنها حقًّا لغة راقية.»

فقال ريتشارد: «لا أتخيل كيف يمكن للغة أن تكون راقية، والدتك هي الخبيرة اللغوية في العائلة. تمكنت من تعلم قراءة اللغة الألمانية لكن مهارتي في التحدث كانت سيئة.»

وهنا قالت نيكول وهي على الفراش: «صباح الخير جميعًا. ماذا لدينا على الإفطار؟»

فأجابتها إيلي: «بعض الخضراوات المختلفة والجديدة ... أو ربما تكون فواكه، فلا يوجد في عالمنا نظير لها ... إن كل شيء تقريبًا تأكله كائنات الأوكتوسبايدر يمكن أن نعتبره نباتًا يستمد طاقته من الضوء. والديدان هي الطعام الوحيد الذي تتناوله كائنات الأوكتوسبايدر بانتظامٍ ولا يستمد طاقته الأساسية من الفوتونات.»

«إذن فجميع النباتات في الحقول التي مررنا بها، تستمدُّ طاقتها الأساسية من عملية البناء الضوئي؟»

أجابتها إيلي: «شيء من هذا القبيل، إذا كنت أفهم ما أخبرني به آرشي فهمًا صحيحًا ... وفي مجتمع الأوكتوسبايدر لا يهدر الكثير ... فهذه الكائنات التي تطلقين عليها أنت وأبي «اليراعات العملاقة» تحوم فوق كل حقل لأوقات محددة بدقة أسبوعيًّا أو شهريًّا ... ويجري التحكم في المياه بدقة كما هو الحال مع الفوتونات.»

ثم سألت نيكول وهي تلقي نظرة على الطعام على المائدة في منتصف الغرفة: «أين إيبونين؟»

فقالت إيلي: «ذهبت لتجمع أغراضها. إلى جانب أنها فضلت عدم المشاركة في حوار هذا الصباح.»

سألتها نيكول برفق: «هل سنتلقَّى صدمة أخرى مثل الليلة السابقة؟»

أجابتها إيلي برفق: «ربما. لا أعلم في الواقع ماذا سيكون رد فعلكما ... هل تريدان أن تنتهيا من تناول إفطاركما قبل أن نبدأ، أم أخبر آرشي أننا مستعدون؟»

فسألها ريتشارد: «هل تعنين أن الأوكتوسبايدر سيشارك في الحوار ولن تشارك فيه إيبونين؟»

فقالت إيلي: «إنه خيارها. إلى جانب أن آرشي — على الأقل بصفته ممثلًا عن كائنات الأوكتوسبايدر — له علاقة بالموضوع أكثر من إيبونين.»

تبادل ريتشارد ونيكول النظرات. ثم سأل ريتشارد: «هل لديك أدنى فكرة عن ماهية الأمر؟»

فهزت نيكول رأسها. ثم قالت: «لكن يمكننا أن نبدأ الآن.»

فرد آرشي لوامسه على الأرض، بحيث يكون رأسه في نفس مستوى رءوس البشر الجالسين، ثم أخبرت إيلي والدَيها أن هذه المرة آرشي هو الذي سيبدأ بـ «التمهيد»، فضحك الجميع. تولت إيلي — بتردد في بعض الأحيان — ترجمة ما يقوله آرشي، الذي بدأ حديثه بالاعتذار لريتشارد عما فعله به «أقرباؤه» قبل سنوات. وشرح آرشي أن كائنات

الأوكتوسبايدر التي قابلها البشر على متن راما قبل الوصول إلى النود كانت من موطن منشقٍّ منفصل، يرتبط من بعيدٍ بكائنات الأوكتوسبايدر الموجودة على متن راما في تلك اللحظة. وأكد آرشي أن كائنات الأوكتوسبايدر — كجنس — لم تدرك أهمية مركبة الفضاء الأسطوانية الضخمة حتى دخلَت إلى نطاق نفوذهم للمرة الثالثة.

إن قليلًا من كائنات الأوكتوسبايدر المنتمية لمستعمرة الأكتوسبايدر الأخرى التي نجت — والتي وصفها آرشي بأنها «شرذمة منحدرة المستوى» (وهذا أحد المواضع التي طلبت فيها إيلي من آرشي أن يعيد ما قال) ظلَّت على متن راما، عندما اعترض السفينة في بداية مسارها سكان مستعمرة الأكتوسبايدر الموجودون حاليًّا على متن راما، والذين اختيروا لتمثيل باقي أفراد نوعهم. وتم التخلُّص من تلك الشرذمة المنشقة من على متن راما، مع الاحتفاظ بسجلاتها. وعرف آرشي والآخرون من مستعمرته تفاصيل ما حدث لريتشارد في ذلك الوقت، وتمنَّوا أن يعوضوه عن تلك المعاملة التي تلقاها.

فقال ريتشارد: «إذن فهذه المقدمة الطويلة الهدف منها — بالإضافة إلى أنها مذهلة — تقديم اعتذار مفصل لي؟»

أومأت إيلي برأسها، وأطلق آرشي شريط اللون القرمزي تبعه اللون الأزرق الرائع المائل للخضرة.

حينها سألت نيكول: «هل لي بسؤال قبل أن نستأنف؟» ثم التفتت نحو الأوكتوسبايدر. وسألته: «بناءً على ما أخبرتنا به، أفترض أنك أنت وأهل مستعمرتك صعدتم على متن راما عندما كنا نائمين. فهل علمتم أننا موجودون؟»

أجابها آرشي قائلًا إن كائنات الأوكتوسبايدر افترضَت بقاء البشر في الموطن أقصى شمال راما، لكنها لم تتأكد من ذلك حتى كُسر القفل الخارجي لموطن البشر لأول مرة. وفي ذلك الوقت — وفقًا لما يقوله آرشي — كان موطن الأوكتوسبايدر قد ظل على متن راما لمدة اثنَي عشر عامًا من زمن البشر.

قالت إيلي وهي تنظر إلى والدها: «أصرَّ آرشي أن يعتذر إليك بنفسه»، ثم انتظرت ردًّا من والدها.

أجابها ريتشارد: «حسنًا، وأنا أقبل اعتذاره. مع أنني ليس لديَّ أدنى فكرةٍ عن البروتوكول المناسب لذلك ...»

فطلب آرشي من إيلي أن تشرح معنى كلمة «بروتوكول». فضحكت نيكول. وقالت لزوجها: «في بعض الأحيان تكون متزمتًا يا ريتشارد.»

قالت إيلي مرة أخرى: «على أي حال حفاظًا على الوقت، سأخبركم بنفسي عن كل شيء. وفقًا لما يقوله آرشي، توضِّح سجلات الموطن المنشق أن كائنات الأوكتوسبايدر أجرَت عددًا من التجارب عليك، معظمها محظورة قانونًا في مواطن الأوكتوسبايدر التي يصفها آرشي بأنها «شديدة التطور». كانت إحدى تلك التجارب — كما اقترحتَ دومًا يا أبي — تتضمن إدخال سلسلة من الميكروبات المتخصصة إلى مخك، لإلغاء ذاكرتك عن المدة التي قضيتها مع الأوكتوسبايدر. وقد أخبرت آرشي والآخرين أن تجربة محو الذاكرة كانت ناجحةً إلى حدٍّ ما …

أما أكثر تجربة تعقيدًا أجرتها على جسدك، فكانت محاولة تغيير حيواناتك المنوية. إذ إن الأوكتوسبايدر المنشقة لم تعرف شيئًا عن اتجاه سير راما أكثر مما عرفته عائلتنا. فظنت أن البشر وكائنات الأوكتوسبايدر سيتحتم عليهما التعايش معًا لقرون أو لعصور، فقررت أنه من الضروري للغاية أن يتواصل الجنسان.

فحاولت تغيير الكروموسومات في حيواناتك المنوية، حتى يكون لدى نسلك قدراتٌ لغويةٌ إضافية وقدرة بصرية أكبر على تحليل الألوان. باختصار حاولت أن تتحكم فيَّ بواسطة الهندسة الجينية؛ لأني كنت الطفل الوحيد الذي أنجبته من أمي بعد مغامرتك الطويلة، وذلك بهدف أن أكون قادرةً على التواصل معها بكفاءة. ولتحقيق هذا أدخلت مجموعة من الكائنات الخاصة في جسدك.»

سكتت إيلي، وكان ريتشارد ونيكول يحدقان فيها كما لو أنهما مصدومان.

وفي النهاية سألها ريتشارد: «إذن فأنت هجين من نوع ما؟»

فقالت إيلي ضاحكة كي تهدِّئ قلقهما: «ربما قليلًا، وإذا كنت قد فهمت جيدًا فلم يتغيَّر سوى بضعة آلافٍ من ثلاثة مليارات الكيلوقاعدة التي تحدِّد الجينات في جسمي … وفيما يخص هذا الشأن سيحتاج آرشي وكائنات الأوكتوسبايدر الأخرى إلى التأكد مرة أخرى — من أجل أبحاثها العلمية — أنني فعلًا نتيجة حيوان منوي معدل. فستحتاج إلى عينات دم وخلايا منكما، لتتيقن دون شك أنني لست نتيجة جماع «عادي» بينكما. ومن ثم تتأكد أن قدرتي على فهم لغتها بسهولة ناتجة بالفعل عن «تعديل وراثي» وليس حسن حظ.»

فسألها ريتشارد: «وما الفارق الذي يحدثه هذا الأمر الآن؟ فكل ما يهم الآن أن بإمكانك التواصل معها.»

«أستغرب سؤالك هذا يا أبي، فطالما كنت متعطشًا للمعرفة … إن مجتمع كائنات الأوكتوسبايدر يضع المعلومات على رأس قائمة الأشياء التي يقدرها. إنها متأكدة بالفعل

بناءً على الفحوصات التي أجرتها عليَّ، بالإضافة إلى سجلات مجموعة الأوكتوسبايدر المنشقة أنني نتاج حيوان منوي معدل. لكن فحص جيناتكما بالتفصيل سيجعلها تتأكد من الأمر.»

قالت نيكول بعد تردد قصير: «حسنًا، أنا مستعدة للمشاركة.» ثم توجهت إلى إيلي واحتضنتها. وقالت: «أيًّا كان ما جاء بك إلى الحياة، فأنت ابنتي وأنا أحبك من كل قلبي.» ثم ألقت نظرة سريعة على ريتشارد. وقالت: «وأنا واثقة أن والدك سيوافق بعد أن يحظى بفرصة للتفكير.»

ابتسمت نيكول لآرشي. فأجاب بإطلاق شريط قرمزي عريض، ثم تبعه آخر أضيق أزرق فضي وأصفر فاتح. وهذه العبارة تعني «شكرًا لك» في لغة الأوكتوسبايدر.

في صباح اليوم التالي، تمنَّت نيكول لو أنها ألقت المزيد من الأسئلة قبل أن تتطوَّع لمساعدة كائنات الأوكتوسبايدر في بحثها العلمي. فبعد الإفطار مباشرة انضم اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر إلى آرشي الرفيق الدائم للبشر في غرفتهم الصغيرة. وشرح أحد الكائنَين الجديدَين الذي عرَّفته إيلي بأنه «دكتور بلو، خبير طبي بارز» ما يُتوقع أن يحدث. كانت الإجراءات الخاصة بريتشارد بسيطة ومباشرة. ففي الأساس أرادت الأوكتوسبايدر بيانات كافية عن ريتشارد؛ للتأكد من صحة السجل القديم لزيارته مستعمرة الأوكتوسبايدر المنشقة قبل سنوات.

أما نيكول، فنظرًا لأن قاعدة بيانات الأوكتوسبايدر لا تحتوي على أي معلومات فسيولوجية عنها، وأن كائنات الأوكتوسبايدر علمت من خلال فحصها الدقيق لإيلي أن الطريقة التي تنتقل بها الخصائص الجينية للبشر يكون للأم فيها النصيبُ الأكبر، فسيتطلَّب الأمر إجراء فحوصاتٍ أكثر على نيكول. فاقترح دكتور بلو أن يجري سلسلةً معقدةً من الفحوصات على نيكول، أهمُّها جمع بيانات من داخل جسدها عن طريق الكثير من الكائنات الملتوية الضئيلة، التي يبلغ طولها سنتيمترَين وعرضها مثل عرض دبوس. انتفض بدن نيكول عندما أمسك الأوكتوسبايدر الطبيب ما يشبه الحقيبة البلاستيكية، ورأت للمرة الأولى الكائنات اللزجة الملتوية التي ستدخل جسدها.

فقالت نيكول: «لكنني ظننت أن كل ما تحتاج إليه هو شفرتي الجينية، وهي موجودة في كل خلية، وليس من الضروري …»

قاطعَت سلسلة الألوان الزاهية فوق رأس دكتور بلو نيكول، قبل أن تنتهي من اعتراضها. وقال بواسطة إيلي: «إن التقنيات التي نستخدمها لاستخلاص معلوماتك الجينية

ليست متقدمة للغاية بعد. ووسائلنا تعمل بصورةٍ أفضل إذا كان لدينا العديد من الخلايا من العديد من الأعضاء المختلفة والأنظمة البيولوجية الفرعية.»

ثم شكر الدكتور نيكول بأسلوب مهذب على تعاونها، خاتمًا عبارته بالشريط الأزرق الفضي والأصفر الفاتح التي تعلمت أن تفسرها بنفسها. لكن اللون الأزرق في عبارة الشكر أضاء جانب رأس دكتور بلو، مسببًا تأثيرًا مرئيًّا رائعًا أثار انتباه العالمة اللغوية في نيكول. ففكرت في نفسها: «لا بد أن القدرة على الحفاظ على انتظام شرائط الألوان تعد سلوكًا تتعلمه. وطبيبنا يعاني نوعًا من الإعاقة في التخاطب.»

لكن بعد لحظاتٍ قليلةٍ عادت نيكول للتركيز على الإجراءات التي تنتظرها، عندما شرح لها دكتور بلو أن الكائنات الملتوية ستحفر في جلدها وتدخل إلى جسدها، وتبقى داخلها لمدة نصف ساعة. فقالت نيكول لنفسها على الفور: «إنها تذكرني بالديدان الطفيلية.»

وُضِعت إحدى هذه الديدان على ساعدها. فرفعت نيكول ذراعها أمام وجهها، وراقبت الحيوان الصغير وهو يشق طريقه عبر جلدها. لم تشعر بشيء عندما كانت الدودة تغزوها، لكنها ارتعدت رغمًا عنها عندما اختفت داخل جسدها.

ثم طُلب من نيكول أن تستلقي على ظهرها. وأراها دكتور بلو كائنَين صغيرَين ثمانيَّي الأرجل، أحدهما أحمر والآخر أزرق، وكلٌّ منهما في حجم ذبابة الفاكهة. وقال لها بواسطة إيلي: «قد تشعرين بعدم الراحة بعد قليل، عندما تصل الديدان الملتوية إلى أعضائك الداخلية. ويمكن استخدام هذَين الصغيرَين للتخدير إذا أردت تسكين الألم.»

وبعد أقل من دقيقة شعرت نيكول بوخز حاد في صدرها. كان أول ما خطر لها هو أن شيئًا يدخل إلى حجرات قلبها. وعندما رأى دكتور بلو الألم الذي ارتسم على وجهها، وضع ذبابتَي التخدير على رقبتها. وخلال ثوانٍ دخلَت نيكول في وضعٍ غريبٍ بين اليقظة والنوم. فكانَت لا تزال تسمع صوت إيلي يستمر في شرح ما يحدث، لكنها لم تشعر بأي شيء مما يحدث داخل جسدها.

وجدت نيكول نظرها مثبتًا على مقدمة رأس دكتور بلو، الذي كان يشرف على العملية بأكملها. وظنت أنها بدأت ترى بعض التعبيرات العاطفية في تجاعيد السطح الرقيقة لوجه الأوكتوسبايدر، وهو ما أدهشها. وتذكرت أنها ذات مرة وهي طفلة كانت متيقنة أنها ترى كلبها المدلل يبتسم، ففكرت في نفسها: «هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن نراها. أكثر مما نفعل بأعيننا بالفعل.»

شعرت نيكول بسكينة بالغة. فأغلقت عينيها للحظة وعندما فتحتهما رأت نفسها طفلة في العاشرة من عمرها، تبكي بجوار أبيها وهي ترى نعش أمها تلتهمه النيران في

مراسم دفن تليق بملكة قبيلة سينوفو. ورأت رجلًا عجوزًا — جدها الأكبر أومه — يرتدي قناعًا مخيفًا ليطرد أي شياطين قد تحاول مصاحبة والدة نيكول إلى الحياة الآخرة، اقترب الجد منها وأمسك بيدها. وقال لها مستخدمًا اسمها في عشيرة سينوفو: «تحقق ما جاء في النبوءة يا روناتا، تناثر دمنا حتى النجوم.»

تلاشى القناع الملون الذي ارتداه جدها الكاهن، وتحوَّل إلى مجموعة أخرى من الألوان تتحرَّك في شرائط حول رأس دكتور بلو. ومرةً أخرى سمعَت نيكول صوتَ إيلي. قالت في نفسها دون عاطفة: «إن ابنتي هجينة. وضعتُ طفلة بسمات أفضل من البشر. لقد بدأ نوع جديد من التطور.»

ومرة أخرى سافر عقلها بعيدًا، ورأت نفسَها طائرًا ضخمًا أو طائرةً تحلق في الظلام فوق غابات السافانا في ساحل العاج. تركت الأرض وراءها وأدارت ظهرها للشمس، واندفعت كالصاروخ نحو الظلام والمجهول فيما وراء النظام الشمسي. وفي عقلها رأت بوضوح وجه أومه، كان يناديها في سماء ليل ساحل العاج: «لا تنسي يا روناتا. أنت المختارة.»

ففكرت نيكول وهي لا تزال بين النوم واليقظة: «هل كان يعلم فعلًا قبل كل هذه السنوات، وهو في أفريقيا على كوكب الأرض؟ وإذا كان يعرف، فكيف؟ هل لا يزال هناك بُعد آخر للإدراك لم نبدأ في فهمه إلا أخيرًا؟»

كان ريتشارد ونيكول يجلسان معًا في الظلام. كانا وحدهما مؤقتًا. إذ خرجت إيلي وإيبونين مع آرشي للترتيب لرحيلهم في الصباح التالي.

فقال ريتشارد: «أنتِ هادئة طوال اليوم.»

فأجابته نيكول: «هذا صحيح. راودني شعورٌ غريب، كأنني مخدرة تقريبًا منذ إجراء تلك الاختبارات الأخيرة هذا الصباح ... فذاكرتي نشيطةٌ نشاطًا غير عادي. تذكرت والدي ووالدتي. وأومه. وتذكرت رؤًى كنت أراها قبل سنوات.»

فقال ريتشارد بعد صمتٍ قصير: «هل فاجأتك نتيجة التحاليل؟»

«لا. فقد مررنا بالكثير ... ريتشارد، أتعرف أنني لا زلت أذكر عندما حملت بإيلي ... لم تكن حينها قد عدت إلى سجيتك بعد.»

قال: «تحدثت إلى إيلي وآرشي قليلًا بعد ظهيرة اليوم عندما كنت نائمة. إن التغيرات التي أحدثَتها كائنات الأوكتوسبايدر في إيلي دائمة، مثل الطفرات الوراثية. وعلى الأرجح تتمتع نيكي ببعض من تلك الخصائص أيضًا، وهذا يعتمد على خليطها الجيني بالضبط. وبالطبع ستضعف خصائصها من جيل لآخر ...»

لم ينهِ ريتشارد نظريته. وتثاءب ثم أمسك بيد نيكول. وجلسا معًا في هدوء لعدة دقائق قبل أن تكسر نيكول حاجز الصمت.

قالت: «ريتشارد، هل تذكر عندما أخبرتك عن سجل تاريخ سينوفو؟ وعن المرأة من القبيلة ابنة الملكة، التي تقول النبوءة إنها ستحمل دم سينوفو «إلى النجوم»؟»

فأجابها ريتشارد: «ليس بوضوح. فإننا لم نتحدث عن الأمر منذ وقتٍ بعيد.»

«كان أومه واثقًا أنني المرأة التي تحدثت عنها النبوءة ... وكان يطلق عليها «المرأة الوحيدة» ... هل تصدق أن هناك طريقة بالفعل نعرف بها المستقبل؟»

فضحك ريتشارد. وقال: «إن كل شيء في الطبيعة يتبع قوانين محددة. ويمكن التعبير عن هذه القوانين في صورة معادلات تفاضلية تصف التغيرات على مدى الزمن. إذا كنا نعرف جيدًا الحالة المبدئية للنظام في حقبة معينة، والمعادلات الدقيقة التي تمثل قوانين الطبيعة، يمكننا نظريًّا التنبؤ بكل النتائج. لكن هذا غير ممكن بالطبع؛ لأن معرفتنا دائمًا غير مكتملة وقوانين الفوضى تحدُّ من قابلية تطبيق تقنيات التقدير ...»

فقالت نيكول وهي تعتدل مستندةً على مرفقها: «افترض أن هناك أفرادًا أو مجموعاتٍ لا تعرف الرياضيات، لكنها تستطيع بطريقةٍ ما «رؤية» أو «الشعور» بالقوانين والحالة المبدئية التي ذكرتها. ألن يكون بإمكانهم بالاعتماد على الحدس أن يحلُّوا على الأقل جزءًا من المعادلات، ويتنبئوا بالمستقبل بالاستبصار الذي لا نستطيع وضع نموذجٍ له أو قياسه؟»

فقال ريتشارد: «هذا ممكن، لكن تذكري أن الافتراضات غير العادية تتطلَّب ...»

قالت نيكول مُتمِّمةً عبارته: «... أدلَّة غير عادية. أعلم هذا.» ثم سكتَت للحظة. وأردفت: «إذن ما هو القدر؟ هل هو شيء يختلقه البشر بعد الحقيقة؟ أم هو شيء حقيقي؟ وإذا كان القدر موجودًا كمفهوم، فكيف نشرحه بمساعدة قوانين الفيزياء؟»

فقال لها ريتشارد: «أنا لا أفهمك يا حبيبتي.»

فقالت نيكول: «إنه أمر محير لي أيضًا. هل أنا ما أنا عليه لأن السبب — كما أكَّد لي أومه عندما كنت صغيرة — أن قدري أن أسافر دائمًا في الفضاء؟ أم أنا ما أنا عليه بسبب جميع خياراتي الشخصية ومهاراتي التي عمدت إلى تنميتها؟»

فضحك ريتشارد مرةً أخرى. وقال: «أنتِ الآن تتطرقين لواحدةٍ من أهم الألغاز الفلسفية، الخلاف حول معرفة الله بكل الأمور في مقابل إرادة الإنسان الحرة.»

قالت نيكول وهي تفكر بعمق: «لم أقصد ذلك. كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أبعد عن ذهني فكرة أن كل ما حدث في حياتي لم يكن مفاجأةً لأومه.»

٧

كان إفطار يوم رحيل البشر وليمة كبيرة. إذ قدمت لهم كائنات الأوكتوسبايدر أكثر من اثنَي عشر صنفًا مختلفًا من الفواكه والخضراوات، بالإضافة إلى حبوب حارة سميكة، تُصنع، طبقًا لما يقوله آرشي وإيلي، من الأعشاب الطويلة التي توجد إلى شمال محطة الطاقة. وبينما كانوا يأكلون سأل ريتشارد الأوكتوسبايدر عما حدث لفرخَي المخلوقات الطائرة تامي وتيمي وكذلك بطيخ المَن والكائنات اللاسويقية. لكن الإجابة المترجمة التي تلقَّاها كانت غامضةً إلى حد ما ولم تكن مرضيةً له، إذ قيل له إنهم جميعًا بخير.

فقال ريتشارد بأسلوبه الجاف المعهود، بعد أن أصبح يشعر بألفة مع مضيفه الفضائي، حتى إنه لم يجد داعيًا لأن يكون شديد التهذيب: «اسمع يا آرشي. إن اهتمامي بهذه الكائنات ليس اهتمامًا عاديًّا. لقد أنقذتها وربيتها منذ ميلادها بنفسي. وأودُّ أن أراها ولو لوقتٍ قصير ... وعلى أي حالٍ أعتقد أنني أستحق إجابةً أكثر وضوحًا على سؤالي.»

فوقف آرشي، وسار بتمهل إلى خارج الغرفة، ثم عاد بعد بضع دقائق. وقال: «رتبنا لك أن ترى المخلوقات الطائرة بنفسك في وقتٍ لاحق اليوم، أثناء رحلة عودتنا إلى أصدقائك. أما الكائنات الأخرى فاثنتان من البيض تكوَّن الفرخان بداخلهما، وهما الآن في مرحلة طفولة القطنمل. ونحن نراقب نموَّهما عن كثب في الجانب الآخر من المدينة، ولا يمكنك زيارتهما.»

أشرق وجه ريتشارد. وقال: «تكوَّن في اثنتَين منهما أجنة! كيف أمكنكم فعل ذلك؟»

فترجمت إيلي ما يقوله آرشي ببطء: «إن بيض الكائنات اللاسويقية يجب أن يوضع في سائلٍ نتحكم في درجة حرارته لمدة شهرٍ من أشهركم، قبل أن تبدأ عملية تطور الجنين. ويجب الحفاظ على درجة الحرارة ضمن نطاق صغير جدًّا — أقل من درجة واحدة بمقاييسكم — بالمقدار الأمثل لنمو القطنمل. وإلا فلن تحدث عملية النمو والتطور.»

هب ريتشارد واقفًا. صاح قائلًا: «إذن فهذا هو السر. تبًّا كان يجب أن أكتشف هذا. كان لديَّ الكثير من الإشارات؛ مثل الظروف داخل موطنها واللوحات التي أروني إياها ...» بدأ يجوب الغرفة. ثم قال وهو يُدير ظهره لآرشي: «لكن كيف عرفَت كائنات الأوكتوسبايدر هذا؟»

ترجمت إيلي لآرشي ما قاله والدها. فأجاب بسرعة: «حصلنا على معلوماتٍ من موطن الأوكتوسبايدر الآخر، شرحت سجلاتها عملية تحول الكائنات اللاسويقية بالكامل.»

بدا الأمر لريتشارد أكثر سهولةً مما ينبغي. فساورَته شكوك أن زميله الفضائي لا يخبره الحقيقة كاملة. كان ريتشارد يستعد لطرح المزيد من الأسئلة، عندما دخل دكتور بلو إلى الغرفة يتبعه ثلاثةٌ من كائنات الأوكتوسبايدر، يحمل اثنان منهم جسمًا سداسيًّا كبيرًا مغلفًا في مادة تشبه الورق.

فسأل ريتشارد: «ما هذا؟»

فأجابته إيلي: «إنه حفل وداعنا الرسمي. بالإضافة إلى هدية من سكان المدينة.»

سأل أحد كائنات الأوكتوسبايدر الجديدة إيلي إذا كان من الممكن أن يتجمع كل البشر في الطريق بالخارج، لإقامة حفل الوداع لهم. فجمع البشر أغراضهم وساروا عبر الرواق إلى الخارج حيث كانت الإضاءة أقوى. فوجئت نيكول بما رأته. ففيما عدا كائنات الأوكتوسبايدر التي خرجت معهم من الغرفة كان الشارع خاويًا تمامًا. وبدت ألوان الحدائق أقل إشراقًا، كما لو أنها كانت أكثر إشراقًا منذ يومَين عندما وصل ريتشارد ونيكول؛ بسبب جميع الأنشطة التي كانت تحيط بها.

فسألت نيكول إيلي: «أين ذهب الجميع؟»

فأجابتها ابنتها: «إن هذا الهدوء متعمد. فلم تشأ كائنات الأوكتوسبايدر أن تسبب لكما صدمة أخرى.»

وقفت كائنات الأوكتوسبايدر الخمسة في صف في منتصف الطريق، وخلفها مباشرة المبنى الهرمي. ووازن كائنا الأوكتوسبايدر إلى اليمين المغلف السداسي الشكل بينهما. كان أكبر من حجمهما. ووقف البشر الأربعة في صف مقابلها أمام أبواب المدينة مباشرة. ثم تقدم الأوكتوسبايدر الذي كان يقف في المنتصف — والذي قدمته إيلي على أنه «مسئول الأمثلية» (بناءً على وصف آرشي لمهام ذلك المسئول) — خطوة إلى الأمام كي يتحدث.

عبَّر مسئول الأمثلية عن امتنانه لريتشارد ونيكول وإيلي وإيبونين، وتضمن ذلك توجيه شكر شخصي لكلٍّ منهم، وقال إنه يتمنى أن يكون ذلك اللقاء القصير هو «الأول في سلسلة طويلة» تهدف إلى زيادة فَهْم كلٍّ من النوعَين للآخر. ثم أوضح القائد أن آرشي سيعود مع البشر، ليس فقط لضمان استمرار واتساع مجال التواصل بينهما، لكن أيضًا ليثبت للبشر الآخرين وجود ثقةٍ متبادلة بين النوعَين.

وعندما سكت المسئول للحظات، تقدم آرشي إلى المنطقة بين الصفَّين ورحبت به إيلي لينضم إلى قافلتهم المسافرة. ثم أزاح كائنا الأوكتوسبايدر اللذان يقفان على اليمين الستار عن الهدية، التي كانت رسمًا مفصلًا رائعًا للمشهد الذي رآه ريتشارد ونيكول لحظة

دخولهما إلى مدينة الزمرد. كان الرسم واقعيًّا للغاية حتى إن نيكول صُدمت للحظات. وبعد بضع لحظاتٍ اقترب البشر جميعًا من الرسم لدراسة تفاصيله. فوجدوا جميع الكائنات الغريبة موجودة في الصورة، بما في ذلك ثلاثة الكائنات المتموجة ذات اللون الأزرق، الذين ذكَّرَت قرونُ استشعارها الطويلة المستقيمة ذات العقد الخارجة من جسدها؛ نيكول كيف فقدت توازنها في اليوم السابق.

وبينما تفحصت نيكول الرسم وفكرت في طريقة تنفيذه، تذكرت حالة شبه الإغماء التي تعرضت لها عندما عايشت المشهد الحقيقي. وتساءلت في نفسها: «هل كانت تلك هواجس تنتابني وتحذرني من خطرٍ ما؟ أم إنها شيء آخر؟» ثم نظرت بعيدًا عن الرسم، ورأت كائنات الأوكتوسبايدر تتحدث فيما بينها. وفكرت: «ربما كان ذلك نفاذ بصيرة، نوبة إدراك لحظي لشيء أعلى من مستوى فهمي. قوة أو طاقة لم يختبرها أي بشر.» وسرت في جسدها قشعريرة باردة عندما بدأت أبواب مدينة الزمرد تفتح.

دائمًا ما كان ريتشارد يهتم بإطلاق أسماء على الأشياء. وبعد أقل من دقيقة من فحص الكائنَين اللذَين كانوا سيمتطونهما، أطلق عليهما اسم «نعامصور».

فقالت له نيكول لإغاظته: «لكنه ليس اسمًا مبتكرًا يا حبيبي.»

فقال: «ربما لا يكون كذلك، لكنه وصف مثالي لهما. إنهما يشبهان نعامة عملاقة لها وجه ورقبة ديناصور آكل للعشب.»

كان للكائنَين أربع أرجل تشبه أرجل الطيور، وجسد ناعم الملمس مغطًّى بالريش في وسطه جزء أجوف له حواف يمكن أن يجلس فيه أربعة من البشر بارتياح، وله رقبة طويلة يمكنها أن تمتدَّ ثلاثة أمتارٍ في أي اتجاه. ونظرًا لأن طول أرجله متران تقريبًا، فكان من السهل أن تصل الرقبة إلى الأرض المحيطة دون صعوبة.

كان كائنا النعامصور سريعَين بصورة مدهشة. فامتطى آرشي وإيلي وإيبونين أحدهما، وربطوا اللوحة السداسية بأحد جانبَيه بنوعٍ من الحبال، وركب ريتشارد ونيكول وحدهما على النعامصور الآخر. لم يكن على ظهرهما لجام أو أي وسيلة أخرى واضحة للتحكم فيهما، لكن قبل أن ترحل المجموعة من مدينة الزمرد، قضى آرشي عشر دقائق تقريبًا «يتحدث» إلى الكائنَين.

فقالت إيلي: «إنه يشرح لهما الطريق بالكامل. ويحدد لهما ماذا يفعلان في حالة وقوع حادث.»

فسألها ريتشارد: «حادث من أي نوع؟» فهزَّت إيلي كتفَيها.

في البداية تمسَّك ريتشارد ونيكول «بالريش» الذي يُحيط بالتجويف الذي يجلسان فيه، لكن بعد بضع دقائق استرخيا. كانت الرحلة هادئة للغاية تخللها اهتزازات بسيطة. وقال ريتشارد بعد أن اختفت مدينة الزمرد من مجال الرؤية: «هل تظنين أن هذه الحيوانات تطورت بصورة طبيعية لتصبح بهذا الشكل، مع وجود هذا الجزء المجوَّف المناسب على ظهورها؟ أم إن مهندسي جيناتٍ من الأوكتوسبايدر هجَّنوها بطريقةٍ ما كوسيلة للنقل؟»

فأجابته نيكول: «لا يساورني شكٌّ في هذا الأمر. فأنا أعتقد أن معظم الأشياء الحية التي قابلناها، وهذا يتضمن بالطبع تلك الأشياء الملتوية السوداء التي زحفت شاقَّةً طريقها عبر جلدي، صممتها كائنات الأوكتوسبايدر للقيام بوظيفةٍ محددة. كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟»

فقال ريتشارد: «لكن لا يعقل أن تكون هذه الكائنات مُصممة بالكامل. فهذا يعني وجود تكنولوجيا فائقة، أكثر تقدمًا مما يمكن أن نتخيله.»

فقالت نيكول: «لا أعلم يا حبيبي. ربما تكون كائنات الأوكتوسبايدر قد سافرت إلى الكثير من الأنظمة الكوكبية المختلفة، وعثرت في كل مكان على أشكال حياة يمكنها تغييرها قليلًا لتناسب نظامها التكافلي الضخم. لكن لا يمكنني أن أقبل أبدًا فكرة أن هذا الكائن الحي الرائع نتاجٌ للتطور الطبيعي فحسب.»

كان هناك ثلاث يراعاتٍ عملاقة ترشد كائنَي النعامصور وركابهما الخمسة. وبعد مرور ساعتَين وصلت القافلة إلى بحيرةٍ شاسعة تمتد جنوبًا وغربًا. فجثم الكائنان على الأرض حتى يتمكن آرشي والبشر الأربعة من النزول.

وقال آرشي للآخرين: «سنتناول الغداء ونحتسي بعض الماء هنا.» ثم ناول إيلي حاوية ممتلئة بالطعام، ثم قاد كائنَي النعامصور إلى البحيرة. سارت نيكول وإيبونين في اتجاه بعض النباتات الزرقاء التي تنمو على حافة الماء تاركتَين ريتشارد وإيلي وحدهما.

قال ريتشارد وهما يتناولان طعامهما: «أقل ما توصف به براعتك في تعلم لغتها هي أنها مذهلة.»

فضحكت إيلي. وقالت: «أخشى أنني لست بالمهارة التي تظنها. فكائنات الأوكتوسبايدر تتعمد قول جمل بسيطة كي أفهمها. وتتحدث ببطء بشرائط عريضة. لكنني أحرز تقدمًا ... هل تدرك أنها لا تستخدم لغتها «الحقيقية» عندما تتحدث إلينا؟ بل تستعمل صورة مشتقة منها.»

فسألها ريتشارد: «ماذا تعنين؟»

«شرحت الأمر لأمي عندما كنا في مدينة الزمرد. أعتقد لم تتح لها الفرصة لتخبرك بالأمر.» ثم ابتلعت الطعام قبل أن تستمر في الحديث قائلة: «إن لغتها «الحقيقية» تتكوَّن من أربعة وستين رمزًا لونيًّا كما ذكرت من قبل، لكن أحد عشر رمزًا منها يصعب علينا فَهْمها. فثمانية منها توجد في الجزء دون الأحمر من ألوان الطيف المرئي، والثلاثة الأخرى في الجزء فوق البنفسجي. لذا فبإمكاننا تمييز ثلاثة وخمسين رمزًا فقط من رموزها بوضوح. وكانت هذه مشكلة حقيقية في البداية. لكن لحسن الحظ خمسة من الأحد عشر رمزًا عبارة عن رموز توضيحية. وعلى أي حال طورت كائنات الأوكتوسبايدر من أجلنا ما يمكن أن نطلق عليه لهجة جديدة من لغتها، تستخدم فيها الأطوال الموجية للألوان التي يمكننا رؤيتها فقط. ويقول آرشي إن هذه اللهجة الجديدة أصبحت تُدرَّس بالفعل في بعض مساقاتهم التعليمية المتقدمة ...»

فقال ريتشارد: «هذا مذهل. هل تعنين أنها «عدلت» لغتها لتناسب إمكانياتنا الجسدية المحدودة.»

«ليس بالضبط يا أبي. فإنها لا تزال تستخدم لغتها الحقيقية عند التحدث فيما بينها. لهذا لا أستطيع أن أفهم دائمًا ما تقوله. وعلى أي حال تطورت هذه اللهجة الجديدة، وتتحسن الآن كي تسهل عملية التواصل معنا لأقصى درجة ممكنة.»

انتهى ريتشارد من تناول غدائه. وكان على وَشْك أن يطرح على إيلي سؤالًا آخر عن لغة الأوكتوسبايدر عندما سمع نيكول تنادي. كانت تهتف من على بعد خمسين مترًا قائلة: «ريتشارد، انظر إلى السماء باتجاه الغابة.»

مد ريتشارد عنقه وظلل عينَيه بيدَيه. رأى في الأفق طائرَين يحلقان باتجاههم. ولسببٍ ما تأخر إدراك ريتشارد للطائرَين حتى سمع صوت الصياح المألوف. فقفز وجرى باتجاه المخلوقَين الطائرَين. هبط تامي وتيمي — اللذان أصبحا طائرَين بالغَين — من السماء إلى جواره. كان ريتشارد سعيدًا للغاية وطائراه يصرخان بلا توقف، ويحكان الجزء السفلي الناعم الملمس من بطنَيهما به.

بدا الطائران في صحةٍ جيدة. ولم يكن هناك أيُّ نظرة حزن في عيونهما الضخمة المعبرة. وبعد دقائق قليلة، ابتعد تيمي عنه فجأة وصرخ بصوت عالٍ ثم حلَّق في السماء. وعاد في غضون دقائق قليلة، ومعه رفيقة ذات ريش ناعم برتقالي اللون لم يرَ ريتشارد مثله قط. فشعر ريتشارد ببعض الحيرة، لكنه أدرك أن تيمي يحاول أن يقدِّم له أنثاه.

استمر لمُّ الشمل مع المخلوقات الطائرة لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة. ثم شرح آرشي أن البحيرة الضخمة تمدُّ كائنات الأوكتوسبايدر بنصف احتياجاتها من المياه العذبة تقريبًا، وبعدها أصرَّ على أن تستأنف القافلة رحلتها. وعندما رحلت المخلوقات الطائرة الثلاثة كان ريتشارد ونيكول في التجويف الخاص بهما على ظهر النعامصور بالفعل. وظلت تامي تحوم فوقهما لتودعهما وتسببت بالطبع في إزعاج الكائن الذي يركبانه. وفي النهاية لحقت بشقيقها ورفيقته في رحلتهما باتجاه الغابة.

ظل ريتشارد هادئًا بصورة غريبة، عندما كانت القافلة تتجه إلى الشمال أيضًا باتجاه الغابة. فقالت نيكول: «إنهما يعنيان كثيرًا لك، أليس كذلك؟»

فأجابها زوجها: «بلى بالطبع. بقيت وحيدًا تمامًا لا أحد معي سواهما لوقت طويل. اعتمد تيمي وتامي عليَّ ليبقيا على قيد الحياة ... ربما كان تكريس نفسي لإنقاذ حياتَيهما أول عملٍ يخلو من الأنانية أقوم به طوال حياتي. وهو ما كشف لي أبعادًا جديدة من القلق والسعادة.»

فاقتربت نيكول منه وأمسكت يده. وقالت برفق: «كانت حياتك العاطفية ملحمةً خاصة، كل جزءٍ منها متنوع تنوع الرحلة الفعلية التي قمت بها.»

قبلها ريتشارد. ثم قال: «أنت لم تطردي جميع أشباحي بعد. ربما سأصبح بمساعدتك إنسانًا جيدًا في غضون عشر سنوات أخرى.»

فقالت نيكول: «إنك لا توفي نفسك قدرها.»

فقال ريتشارد بابتسامة عريضة مغيرًا نبرة الحوار: «أنا أوفي «عقلي» قدره. هل تدرين فِيمَ يفكر الآن؟ من أين جاءت المخلوقة الطائرة البرتقالية البطن؟»

بدت الحيرة على نيكول. أجابته: «من الموطن الثاني. أخبرتنا بنفسك أنه لا بد من وجود ما يقرب من ألف نسمة هناك قبل غزو قوات ناكامورا الموطن. ربما أنقذت كائنات الأوكتوسبايدر بعضها أيضًا.»

فقال ريتشارد معترضًا: «لكنني عشت هناك لأشهر. ولم أرَ مخلوقًا طائرًا برتقالي البطن. ولو واحدًا. كنت سأتذكر.»

«ما الذي تحاول قوله؟»

«لا شيء. إن تفسيرك يتفق تمامًا مع مبدأ نصل أوكام (الذي ينص على أنه إذا كان لدينا نظريتان لتفسير شيء واحد، فإن البسيطة بينهما هي الصحيحة). لكنني بدأت أشك أن أصدقاءنا الأوكتوسبايدر لديها أسرار لم تتحدث معنا بشأنها بعد.»

وصلت القافلة إلى الكوخ الجليدي الكبير الذي لا يبعد عن البحر الأسطواني أكثر من عدة ساعات. لكن الكوخ الصغير المتوهج لم يكن موجودًا. ترجل آرشي والبشر الأربعة. وفك الأوكتوسبايدر وريتشارد اللوحة السداسية ووضعوها بجانب الكوخ. ثم أخذ آرشي كائنَي النعامصور جانبًا وأعطاهما تعليمات العودة إلى وطنهما.

سألت نيكول: «ألَا يمكنهما البقاء قليلًا؟ سيسعد الأطفال كثيرًا بوجودهما.»

أجابها آرشي: «للأسف لا يمكن ذلك. إننا لا نملك الكثير منها، وعليها طلب كبير.»

ومع أن إيبونين وإيلي وريتشارد ونيكول كانوا مرهقين من الرحلة، فقد كانوا مبتهجين للغاية لالتئام الشمل الوشيك. وقبل مغادرة الكوخ الجليدي استخدمت إيبونين ثم إيلي المرآة وعدلتا من هيئتهما. ثم قالت إيبونين: «من فضلكم جميعًا، سأطلب منكم معروفًا واحدًا. لا تقولوا شيئًا عن شفائي لأحد حتى أحظى بفرصة كي أخبر ماكس على انفراد. أريد أن يكون هذا الخبر مفاجأتي له.»

وحينما كانوا يهبطون السلم الأول، ويدخلون إلى الرواق الذي يؤدي إلى أعلى السلم الكبير، قالت إيلي بعصبية: «أتمنى أن تتعرف عليَّ نيكي.» انتاب الجميع الهلع لوهلة إذ خَشُوا أن يكون الآخرون نائمين، حتى أجرى ريتشارد بعض الحسابات بواسطة خوارزميته، وطمأنهم أن النهار في منتصفه الآن تحت قبة قوس القزح.

وصلوا جميعًا إلى المساحة المفتوحة أعلى السلم، ونظروا إلى الأرضية الدائرية أسفلهم. كان التوءمان كيبلر وجاليليو يلعبان ويطارد كلٌّ منهما الآخر، ونيكي تشاهدهما وتضحك. وكانت ناي وماكس يفرغان الطعام من قطار بدا أنه وصل حديثًا. ولم تستطع إيبونين التحكم في نفسها. فصرخت: «ماكس، ماكس!»

كان ماكس كمن أصابته رصاصة. أسقط ما كان بيده من طعام واستدار باتجاه أعلى السلم. فرأى إيبونين تلوح له، فاندفع كجواد سباق أصيل في اتجاه السلم الأسطواني. ولم يمر أكثر من دقيقتَين عندما وقف ماكس أعلى السلم، وطوق إيبونين بذراعَيه.

وقال وهو يرفعها نصف متر تقريبًا عن الأرض، ويحتضنها بقوة: «كم اشتقت إليكِ أيتها الفرنسية!»

٨

كان بإمكان آرشي القيام بجميع أنواع الخدع بالكرات الملونة. فكان بإمكانه الإمساك باثنتين في الوقت نفسه ثم إلقاؤهما في اتجاهَين مختلفَين. حتى إنه كان بإمكانه قذف

الكرات الست في الوقت نفسه باستخدام أربع من لوامسه؛ إذ كان يحتاج إلى اللوامس الأربع الباقية على الأرض ليحفظ توازنه. كان الأطفال يحبون أن يؤرجح ثلاثتهم في الوقت نفسه. ولم يبدُ أن آرشي يسأم أبدًا من اللعب مع أطفال البشر.

في البداية بالطبع كان الأطفال خائفين من الزائر الفضائي. وكانت نيكي الصغيرة حذرةً بصورة خاصة في التعامل معه؛ بسبب الرعب الذي شعرت به عند اختطاف والدتها. مع أن إيلي حاولت أن تطمئنها مرارًا وتكرارًا أن آرشي ودود. أما بينجي فكان أول من لعب مع آرشي. فلم يكن التوءمان منظمَين بصورة تمكنهما من الاشتراك في ألعاب معقدة؛ لذا سر بينجي عندما اكتشف أن آرشي مستعد بسعادةٍ أن يشاركه في لعبة مطاردة، أو لعبة مراوغة بالكرة كما يحب أن يلعبها بينجي.

أما ماكس وروبرت فكانا منزعجين من وجود آرشي. وفي الواقع في غضون ساعة من وصول البشر الأربعة والأوكتوسبايدر، واجه ماكس ريتشارد ونيكول في غرفة نومهما. قال بغضب: «أخبرتني إيبونين أن الأوكتوسبايدر اللعين سيعيش معنا هنا. هل فقدتما صوابكما؟»

فقالت له نيكول: «فكر في آرشي على أنه سفير يا ماكس. فكائنات الأوكتوسبايدر تود أن تتواصل معنا بانتظام.»

«لكن كائنات الأوكتوسبايدر هذه هي نفسها التي اختطفت ابنتك وصديقتي، واحتجزتهما رغمًا عنهما لأكثر من شهر ... هل تعنين أننا «سنتناسى» تلك التصرفات تمامًا؟»

بادلت نيكول ريتشارد نظرة سريعة، ثم أجابته: «هناك أسباب وجيهة لعمليتَي الاختطاف. كما أنها أحسنت معاملتهما ... فلمَ لا تتحدث إلى إيبونين بهذا الشأن؟»

فقال ماكس: «إن إيبونين لا تقول شيئًا سوى مدح الأوكتوسبايدر. كما لو أنها تعرضت لعملية غسيل مخ ... ظننت أنكما ستكونان أكثر منطقية.»

حتى بعد أن أخبرت إيبونين ماكس أن كائنات الأوكتوسبايدر عالجتها من فيروس «آر في ٤١»، ظل يساوره الشك. قال: «إذا كان ذلك صحيحًا، فهذا أفضل خبر سمعته منذ أن ظهرت الآليتان الصغيرتان في المزرعة، وأكدتا لي أن نيكول وصلت إلى نيويورك بسلام. لكنني لا أزال أواجه صعوبةً في تصديق أن تلك الوحوش ذات الأرجل الثماني تحسن إلينا. أريد دكتور تيرنر أن يفحصكِ جيدًا. وإذا أخبرني أنكِ تعافيت، يمكنني حينها أن أصدق.»

أما روبرت تيرنر فكان عدائيًّا تجاه آرشي بوضوحٍ منذ البداية. ولم يفلح أي شيء قالته نيكول أو إيلي في تخفيف مشاعر الغضب التي راودته منذ اختطاف إيلي عنوة. وكذلك جُرِحَ كبرياؤه المهني نتيجة السهولة الشديدة التي عولجت بها إيبونين.

فقال لإيلي في ثاني ليلة لهما بعد عودتهما: «إنك تتوقعين الكثير كالعادة يا إيلي. لقد عدت إلى هنا وجعبتك مليئة بالأخبار المثيرة عن تلك الكائنات الفضائية التي اختطفتك بعيدًا عن نيكي وعني، ثم تتوقعين مني أن أصدقها على الفور. هذا ليس عدلًا. أحتاج إلى وقت كي أفهم وأستوعب كل ما تخبرينني به ... ألا تدركين أن اختطافك آلمني أنا ونيكي؟ لقد سببت لنا تلك المخلوقات التي تريدين مني أن أصادقها جروحًا نفسية ... لا يمكنني أن أغير وجهة نظري بين عشية وضحاها.»

كما أن إعلان إيلي لزوجها عن التغيرات الجينية التي أصابت الحيوانات المنوية الخاصة بأبيها؛ أزعجه، مع أنه فسر سبب تحدي جينات زوجته للتصنيف في الفحوصات التي أجراها عليها زميله إد ستافورد في عدن الجديدة.

فقال لها: «كيف يمكنك أن تكوني بهذا الهدوء بعد أن اكتشفت أنك هجينة؟ ألا تفهمين ما يعنيه ذلك؟ عندما غيرت كائنات الأوكتوسبايدر حمضك النووي لتحسين قدرتك البصرية وجعل تعلم لغتها أسهل، فإنها تلاعبت بشفرة جينية قوية تطورت طبيعيًّا على مدار ملايين السنين. من يدري ما التغيرات التي قد تطرأ عليك أو على الأجيال اللاحقة من استعداد للإصابة بالأمراض، أو عجز، أو تغيرات سلبية في الخصوبة؟ من المحتمل أن تكون كائنات الأوكتوسبايدر قد تسببت عن جهل في هلاك جميع أحفادنا.»

لم يكن بإمكان إيلي تهدئة زوجها. وعندما بدأت نيكول تعمل مع روبرت على التحقُّق مما إذا كانت إيبونين قد شُفيت من فيروس «آر في ٤١»، لاحظت أن روبرت كان يتخذ موقفًا عدائيًّا في كل مرة تبدي فيها استحسانًا لآرشي أو لكائنات الأوكتوسبايدر.

وبعد أسبوع من وصول المجموعة واسَت نيكول ابنتها قائلة: «يجب أن نمهل روبرت المزيد من الوقت. إنه لا يزال يشعر أن كائنات الأوكتوسبايدر تعدت عليه، ليس فقط باختطافك لكن أيضًا بإفساد جينات ابنته.»

«هناك مشكلة أخرى يا أمي. أشعر أن روبرت يغير بصورة غريبة. فهو يرى أنني أقضي وقتًا طويلًا مع آرشي. ولا يستطيع تقبُّل حقيقة أن آرشي لا يستطيع التواصل مع أحدٍ آخر ما لم أكن موجودةً لأفسر ما يقول.»

«كما قلت لك، يجب أن نتحلى بالصبر. في النهاية سيتقبل روبرت الوضع.»

لكن كان لنيكول شكوكها التي لم تبُح بها لأحد. فكان روبرت عاقد العزم على أن يجد بقايا فيروس «آر في ٤١» في جسد إيبونين، وبعد أن أثبتت الفحوصات التي أجراها واحدًا تلو الآخر، باستخدام معداته غير المتطورة نسبيًّا التي نقلها معه؛ غياب أي أثرٍ للفيروس في جسدها، ظل يطلب إجراء المزيد من الفحوصات. في حين كانت وجهة نظر نيكول المهنية أن إجراء المزيد من الفحوصات لن يجدي نفعًا. ومع وجود احتمال ضئيل للغاية أن يكون الفيروس ضلل الجميع، ولا يزال موجودًا في مكان ما في جسد إيبونين، فقد شعرت نيكول أنه من المؤكد عمليًّا أن إيبونين تعافت.

وفي اليوم الذي تلا اعتراف إيلي لوالدتها بأن روبرت يغار من آرشي، حدث خلاف بين الطبيبَين. فعندما اقترحت نيكول إنهاء إجراء فحوصات على إيبونين وإعلان أنها سليمة، صدمها زوج ابنتها باقتراح فتح تجويف صدر إيبونين، وأخذ عينة مباشرة من الأنسجة المحيطة بقلبها.

سألته نيكول: «هل حدث من قبل أن واجهتك حالة أتت فيها جميع الفحوصات الأخرى سلبية، بينما ظل الفيروس نشطًا في منطقة القلب؟»

فقال: «فقط عندما يكون الموت وشيكًا والقلب قد تدهور بالفعل. لكن هذا لا يمنع حدوث الموقف نفسه في وقت مبكر في دورة المرض.»

صُعقت نيكول من رده. ولم تناقش روبرت لأنها رأت من تصلب عضلاته أنه قرر بالفعل الخطوات التالية. قالت في نفسها: ستكون عملية قلب مفتوح من أي نوع مخاطرة كبيرة، حتى لو كان من يجريها محترفًا. أي خطأ قد يحدث في هذه البيئة قد يؤدي إلى الوفاة. أرجوك يا روبرت عد إلى رشدك. إن لم تفعل فسأضطر إلى معارضتك حفاظًا على حياة إيبونين.

بعد أن أوصى روبرت بإجراء عملية القلب بوقت قصير، طلب ماكس أن يتحدث إلى نيكول على انفراد. وقال لها: «إن إيبونين خائفة، وأنا كذلك ... لقد عادت من مدينة الزمرد تشعُّ حياةً وحيويةً أكثر من أي مرةٍ رأيتها فيها. وأخبرني روبرت في البداية أن الفحوصات ستستغرق يومَين. وامتدَّ الأمر إلى أسبوعَين تقريبًا، والآن يقول إنه يريد أن يأخذ عينة نسيج من قلبها ...»

فقالت نيكول بكآبة: «أعلم هذا. أخبرني ليلة أمسِ أنه سينصح بإجراء عملية قلب مفتوح.»

فقال لها ماكس: «ساعديني من فضلك يا نيكول. أريد أن أتأكد أنني أفهم الحقائق جيدًا. فحصتما دمها أنت وروبرت عدة مرات، كما فحصتما أنسجة من عدة أجزاء من جسدها، كانت توضح من قبل أحيانًا وجود كميات صغيرة من الفيروس في جسدها، وكانت نتائج جميع تلك العينات سلبية بشكل قاطع؟»

فقالت نيكول: «هذا صحيح.»

«أليس من الصحيح أيضًا أنه في كل مرة فُحصت فيها إيبونين، منذ أن اكتشفت إصابتها بفيروس «آر في ٤١» لأول مرة قبل سنوات، كانت عينات دمها تُشير إلى وجود الفيروس؟»

«بلى.»

«لماذا يريد روبرت إذن إخضاعها لعملية؟ هل لأنه لا يريد أن يصدق أنها شُفيت تمامًا؟ أم إنه فقط حريص بصورة زائدة؟»

«لا يمكنني الإجابة نيابة عنه.»

ثم نظرت إلى وجه صديقها، وعلمت جيدًا ماذا سيكون سؤاله التالي، وماذا ستكون إجابتها عليه. قالت في نفسها: «جميعنا نضطر إلى اتخاذ قراراتٍ صعبة على مدار حياتنا. في شبابي كنت أتجنب، قدر الإمكان، وضع نفسي في موقف يضطرني إلى اتخاذ مثل تلك القرارات. أما الآن فقد صرت أدرك أن تجنبها يجعل الآخرين يقررون نيابة عني. وفي بعض الأحيان يكون قرارهم خاطئًا.»

سألها ماكس: «إذا كنت أنت الطبيب المسئول يا نيكول، هل كنت ستجرين العملية لإيبونين؟»

فأجابته نيكول بحرص: «لا. أثق أن كائنات الأوكتوسبايدر نجحَت في علاج إيبونين، وأنه من غير المبرر المجازفة بإجراء عملية.»

فابتسم ماكس وقبل صديقته على جبينها. ثم قال: «شكرًا لك.»

استشاط روبرت غضبًا. أخذ يذكر الجميع أنه كرس أكثر من أربع سنوات من حياته لدراسة هذا المرض بالتحديد، ومحاولة إيجاد علاج له، وأنه يعلم عن فيروس «آر في ٤١» بلا شك أكثر منهم جميعًا مجتمعين. وتساءل كيف أمكنهم أن يثقوا بعلاج كائنات فضائية أكثر من مهارته الجراحية؟ كيف يمكن لوالدة زوجته — التي لا تتعدى معرفتها بالمرض ما علمها هو إياه — أن تجرؤ على الاختلاف معه في الرأي؟ ولم ينجح أحد في تهدئته، ولا حتى إيلي التي صرفها عنه في النهاية بعد عدة مشادات كلامية.

ولمدة يومَين رفض روبرت الخروج من غرفته. ولم يُجِب ابنته نيكي عندما قالت له: «أحلامًا سعيدة يا أبي» قبل أن تخلد لنوم القيلولة في النهار أو تذهب للفراش ليلًا. كانت عائلته وأصدقاؤه منزعجين بشدة بالعذاب الذي يشعر به، لكنهم لم يعرفوا كيف يخففوا عنه آلامه. وطُرح موضوع استقراره العقلي في العديد من المناقشات. واتفق الجميع على أن روبرت بدا غريبًا منذ هروبهم من عدن الجديدة، وأن سلوكه أصبح أغرب وغير متوقع بعد اختطاف إيلي.

وأسرَّت إيلي لوالدتها أن روبرت يعاملها «بغرابة» منذ أن عادت. فقالت في حزن: «إنه لم يقترب مني ولو مرة واحدة. وكأنه يشعر أن تلك التجربة دنستني ... ويظل يطرح أسئلة غريبة مثل: «إيلي هل أردت أن تُختطفي؟»»

أجابتها نيكول: «أشعر بالأسف حياله. إنه يحمل عبئًا عاطفيًّا ثقيلًا منذ أن كان في تكساس. كل ما جرى له يفوق احتماله. كان يجب علينا أن ...»

فقاطعتها إيلي: «لكن ماذا بإمكاننا أن نفعل الآن؟»

فقالت نيكول: «لا أعلم يا حبيبتي. لا أعلم.»

حاولت إيلي أن تمضي ذلك الوقت العصيب في مساعدة بينجي على تعلم لغة الأوكتوسبايدر. إذ كان أخوها غير الشقيق مفتونًا للغاية بكل شيءٍ يخص الكائنات الفضائية، بما في ذلك الرسم السداسي لمدينة الأوكتوسبايدر الذي أحضروه معهم من مدينة الزمرد. فكان بينجي يحدق في الصورة عدة مرات في اليوم، ولا يفوت فرصة لطرح أسئلة عن المخلوقات المدهشة التي يصورها الرسم. وكان آرشي يجيب بواسطة إيلي بصبر عن كل أسئلة بينجي.

وقرَّر بينجي بعد أن بدأ يلعب مع آرشي بانتظامٍ أنه يريد تعلُّم بعض العبارات من مفردات الأوكتوسبايدر على الأقل. علم بينجي أن آرشي يستطيع قراءة الشفاه، فأراد أن يثبت للأوكتوسبايدر أن «البشري البطيء الفهم» يمكنه إذا وجد ما يحفزه، أن يفهم من لغة الأوكتوسبايدر ما يمكِّنه من الاشتراك في حوارٍ بسيط.

فبدأت إيلي وآرشي يعلمان بينجي الأساسيات. فتعلَّم ألوان الأوكتوسبايدر لقول «نعم» و«لا» و«من فضلك» و«شكرًا لك» دون أدنى صعوبة. كما كانت الأعداد سهلةً إلى حد ما؛ لأن الأعداد الأصلية والأعداد الترتيبية كانت في الأساس سلسلة من لونَين أساسيَّين، هما الأحمر القاني والأخضر الزيتوني، يستخدمان في نمطٍ ثنائي ويظهران في تسلسل الجملة بلون وردي توضيحي. لكن كان صعبًا على بينجي إدراك أن الألوان المنفردة ليس لها

معنًى. فعلى سبيل المثال الشريط البني المائل للحمرة يمثل الفعل «يفهم» إذا تبعه اللون البنفسجي الزاهي ثم لون توضيحي، لكن إذا تبع الشريط البني المائل للحمرة الذي يليه لون بنفسجي زاهٍ لون قرمزي، فإن الشريط الثلاثي يعني «نباتًا مزهرًا».

كما لا تعدُّ الألوان المفردة حروفًا هجائية بالمعنى الحرفي. ففي بعض الأحيان كان عرض شرائط الألوان — عند مقارنته بغيره في سلسلة أطول تحدد معنى كلمة واحدة — يغير المعنى تمامًا. فالشريط البني الذي يميل إلى الحمرة يتبعه البنفسجي الزاهي يعني «يفهم» فقط، إذا كان عَرْض الشريطَين متساويًا تقريبًا. أما إذا تبع شريط اللون البني المائل للحمرة شريط بنفسجي زاهٍ ضِعْفه في العرض تقريبًا، فتصبح الكلمة هي «سعة».

بذل بينجي جهدًا كبيرًا في تعلُّم اللغة، وكان يكرِّر ما يلزم بحماسةٍ فائقة. أسعدت تلك الحماسة للتعلم إيلي، في وقتٍ كانت فيه شديدة القلق حيال كيفية حل الأزمة مع روبرت.

في بداية اليوم الثالث من الحبس الانفرادي الذي فرضه روبرت على نفسه، وصل القطار في مكانه المعتاد — كما هو متوقع — حاملًا معه مؤنهم من الطعام والماء التي تكفيهم لمدة نصف أسبوع. لكن هذه المرة كان هناك اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر على متنه. وترجَّلا عن القطار وأجريا مع آرشي حوارًا مفصلًا. فتجمعت العائلة وهي تتوقع سماع أخبار غير عادية.

أبلغهم آرشي أن «قوات البشر عادت إلى نيويورك، وتحاول كسر القفل المؤدِّي إلى مخبئنا. إنها مسألة وقت فقط حتى تكتشف أنفاق القطار.»

فسألته نيكول: «ماذا نفعل الآن؟»

فقال آرشي: «إننا نود أن تأتوا وتعيشوا معنا في مدينة الزمرد. توقَّع زملائي حدوث ذلك وانتهوا بالفعل من تصميم جزءٍ مخصصٍ لكم في المدينة. ومن الممكن أن يكون جاهزًا في غضون أيامٍ قليلة.»

فسأله ماكس: «ماذا لو أننا لا نريد أن نذهب؟»

تشاور آرشي لبعض الوقت مع زميلَيه. ثم قال: «يمكنكم البقاء هنا وانتظار القوات. سنمدكم بأكبر كمية ممكنة من الطعام، لكننا سنبدأ في تفكيك القطار فور إخلاء جميع رفاقنا في الجانب الشمالي من البحر الأسطواني.»

واستمر آرشي في الحديث لكن إيلي توقفت عن الترجمة. وطلبت منه أن يعيد العبارات القليلة الأخيرة التي قالها عدة مرات، قبل أن تلتفت إلى أصدقائها وعائلتها شاحبة الوجه.

قالت مترجمة كلامه: «للأسف نحن الأوكتوسبايدر يجب أن نهتم بمصلحتنا. ولهذا فإن من يقرِّر منكم ألَّا يأتي معنا يجب أن نمسح ذاكرته خلال المدة القصيرة السابقة، ولن يتذكر أي أحداثٍ وقعت في الأسابيع القليلة الماضية بالتفصيل.»

فأطلق ماكس صفيرًا. وقال: «ماذا حدث إذن للحديث عن الصداقة والتواصل. عندما تسوء الأمور تلجأ كل الأجناس إلى استخدام القوة.»

ثم توجَّه إلى إيبونين وأمسك يدها. فنظرَت إليه بحيرةٍ وهو يجذبها إلى حيث تقف نيكول. ثم قال ماكس لنيكول: «هلا تزوجيننا؟»

ارتبكت نيكول. وسألته: «الآن؟»

فأجابها: «نعم، في هذه اللحظة. إنني أحبُّ هذه المرأة الواقفة بجانبي، وأريد أن أهنأ بشهر عسل معها في ذلك الكوخ الجليدي بالأعلى، قبل أن تنفتح علينا أبواب الجحيم على مصراعَيها.»

فاعترضت نيكول: «لكنني لست مؤهلة ...»

فقاطعها ماكس: «لكنكِ أفضل خيار متاح. هيا، على الأقل حاولي.» فتهلَّل وجه العروس التي لم تتفوه بكلمة.

فقالت نيكول بتردُّد: «ماكس باكيت، هل تقبل السيدة إيبونين زوجة لك؟»

فأجابها ماكس: «نعم أقبل، وكان يجب أن أفعل ذلك قبل أشهر.»

«وهل تقبلين يا إيبونين، هذا الرجل ماكس باكيت زوجًا لك؟»

«طبعًا يا نيكول بكل سرور.»

فجذب ماكس إيبونين إليه وقبلها بعاطفة جياشة. وقال وهو يتجه معها إلى السلم: «الآن يا صديقي آرشي، إذا كنت تتساءل فأعتزم أنا وفرنسيتي الجميلة الذهاب معك إلى مدينة الزمرد التي تتحدث هي عنها كثيرًا. لكننا سنختفي لمدة أربع وعشرين ساعة أو أكثر، حسب قدرة إيبونين على التحمل، ولا نريد أن يزعجنا أحد.»

وسارا بحيويةٍ إلى السلم الأسطواني واختفيا. وعندما انتهت إيلي تقريبًا من شرح ما حدث مع ماكس وإيبونين لآرشي، ظهر العروسان أعلى السلم ولوحا بأيديهما. ثم ضحك الجميع وهم يرون ماكس يجذب إيبونين من يدها إلى الممر.

جلست إيلي وحدها وهي تسند ظهرها إلى الحائط في الضوء الخافت. وفكرت في نفسها: «إما الآن وإما لا، يجب أن أحاول مرة أخرى.»

وتذكرت الحوار الغاضب الذي دار قبل ساعات. كان روبرت قد قال لها بمرارة: «بالطبع تريدين الذهاب مع صديقك الأوكتوسبايدر آرشي. وتتوقعين أن تصطحبي نيكي معك؟»

فأجابته دون محاولة لإخفاء دموعها: «إن الجميع سيقبلون الدعوة. من فضلك تعالَ معنا يا روبرت. إنهم جنسٌ لطيف ولديه حسٌّ أخلاقي عالٍ.»

فقال لها: «أجرَوْا لكم جميعًا عمليات غسيل مخ. وخدعوكِ بطريقة ما لتصدقي أنهم أفضل من جنسك.» ثم نظر إليها بامتعاض وهو يكرر: «جنسك. يا لها من مزحة! أظن أنكِ أوكتوسبايدر قدر ما أنت بشرية.»

فقالت إيلي: «هذا ليس صحيحًا يا حبيبي. أخبرتك عدة مرات أن التغييرات التي أجريت عليَّ كانت طفيفة ... إنني بشرية مثلك بالضبط.»

ثم صرخ روبرت فجأة: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا تركتكِ تقنعينني بالقدوم إلى نيويورك من الأساس؟ كان يجب أن أبقى حيث كنت محاطًا بأشياء أفهمها.»

ومع أنها توسَّلت إليه كثيرًا، فقد ظلَّ على عناده، وأصرَّ أنه لن يذهب إلى مدينة الزمرد. بل بدا سعيدًا بصورة غريبة لأن كائنات الأوكتوسبايدر ستمحو ذاكرته عن المدة القصيرة السابقة. فقال وهو يضحك بمرارة: «ربما ستُمحى ذكرياتي الخاصة برجوعك. ولن أتذكَّر أن زوجتي وابنتي هجينتان، وأن أقرب أصدقائي لا يحترمون قدراتي المهنية.» ثم استكمل: «أجل، سيكون بإمكاني نسيان هذا الكابوس الذي عشته الأسابيع القليلة الماضية، وسأتذكر فقط أنكِ اختُطفت مني، كما حدث مع زوجتي الأولى، وأنا لا أزال أحبك حبًّا جمًّا.»

ظل روبرت يذرع الغرفة غاضبًا. حاولت إيلي أن تهدئه وتبث الطمأنينة في نفسه. لكنه صرخ وهو يبتعد عنها كي لا تلمسه: «لا، لا. فات الأوان. أنا عانيت الكثير من الآلام. لا يمكنني تحمل المزيد.»

وفي الساعات الأولى من المساء، حاولت إيلي استشارة والدتها فيما يجب أن تفعله. لكن نيكول لم تستطع مواساة إيلي بأي طريقة. في حين وافقتها على أنه يجب ألَّا تَيْئس، وحذرتها أن لا شيء في سلوكيات روبرت يُشير إلى أنه من المحتمل أن يغيِّر رأيه.

قصدت إيلي آرشي — بناءً على اقتراح نيكول — وطلبت منه معروفًا. ترجَّته أنه إذا أصر روبرت على عدم الذهاب معهم، فهلا اصطحبه آرشي أو أي أوكتوسبايدر آخر إلى المخبأ، حيث سيجده البشر الآخرون بسرعة؟ وافق آرشي على مضض.

وفي النهاية قالت إيلي لنفسها وهي تنهض لتقف على قدمَيها: «إنني أحبك يا روبرت. ونيكي تحبك أيضًا. ونريدك أن تأتي معنا؛ لأنك زوجي ووالدها.» ثم التقطت نفسًا عميقًا ودخلت غرفة نومها.

بكى الجميع حتى ريتشارد وهم يرون روبرت تيرنر يغمغم ببضع كلمات، ويسير ببطء خلف آرشي في اتجاه القطار على بعد عشرين مترًا بعد أن أحتضن زوجته وابنته للمرة الأخيرة. كانت نيكي تبكي بكاءً خفيفًا لكنها لم تدرك ما يحدث بالفعل. كانت أصغر من أن تفهم.

استدار روبرت ولوح بيده ثم دخل القطار. وخلال بضع ثوانٍ كان القطار يشقُّ طريقه مسرعًا في النفق. وبعد أقل من دقيقة واحدة، حطمت صرخات السعادة التي انطلقت من أعلى السلم الأسطواني الصمت الكئيب الذي خيم على المكان.

فصاح ماكس قائلًا: «أنتم بالأسفل هناك، من الأفضل أن تكونوا مستعدين لحفل كبير.»

فنظرت نيكول عاليًا أسفل القبة، واستطاعت بالرغم من تلك المسافة والضوء الخافت أن ترى ابتسامتَين مشرقتَين على وجهَي العروسَين. فقالت في نفسها وقلبها حزين على الخسارة التي لحقت بابنتها: «هكذا هي الحياة، حزن وفرح. وفرح وحزن. أينما وُجد البشر. على الأرض. أو في عوالم جديدة وراء النجوم. الآن وإلى الأبد.»

مدينة الزمرد

١

توقَّفت العربة التي تسير دون سائقٍ في ميدان دائري، يتفرَّع منه خمسة شوارع في اتجاهاتٍ مختلفة. وخرج من العربة امرأة سمراء بيضاء الشعر ومرافقها الأوكتوسبايدر تاركَين السيارة خاوية. وبعدما سار الأوكتوسبايدر ومرافقته البشرية ببطء بعيدًا عن الميدان، رحلت العربة بعد أن خبت أنوارها الداخلية.

تقدَّمت نيكول ودكتور بلو براعة عملاقة، وهما يسترسلان في حديثهما في الظلام شبه الدامس الذي خيَّم على المكان. حرصت نيكول في حديثها على أن تضغط على كل كلمةٍ تقولها، حتى لا يجد صديقها الفضائي أي صعوبة في قراءة شفتَيها. وكان دكتور بلو يُجيبها بعباراتٍ بسيطةٍ يعرف أن نيكول ستفهمها بمساعدة شرائط عريضة من الألوان.

وعندما وصلا إلى أول منزل من المنازل الأربعة البيضاء، التي تتكوَّن من طابق واحد وتقع في نهاية طريق مسدود، رفع الأوكتوسبايدر إحدى لوامسه عن الأرض وصافح نيكول. أجابته بابتسامة شاحبة: «طابت ليلتك. لقد كان يومًا حافلًا … شكرًا لك على كل شيء.»

بعد أن دخل دكتور بلو بيته، سارت نيكول إلى نافورة شرب عامة على هيئة جزيرة في وسط الشارع، وشربت من أحد الصنابير الأربعة التي ينبثق منها تيار متواصل من الماء في مستوى الخصر. سقط بعض الماء الذي لمس وجه نيكول مرة أخرى عائدًا إلى الحوض، مما تسبب في حدوث موجة من النشاط في الحوض الضحل. وبالرغم من الضوء الخافت، فقد استطاعت نيكول أن ترى الكائنات السابحة تندفع جيئة وذهابًا. قالت في نفسها: «ينتشر عمال النظافة في كل مكان، ولا سيما عندما يكون البشر في الجوار. سيجري تطهير الماء الذي لمس وجهي في ثوانٍ.»

ثم استدارت واقتربت من أكبر المنازل الثلاثة المتبقية في الطريق المسدود. وعندما اجتازت عتبة منزلها طارت اليراعة سريعًا عبر الشارع عائدة إلى الميدان. وفي الرواق نقرت نيكول على الحائط برفق مرة واحدة، وخلال ثوانٍ قليلة ظهرت في الممر أمامها يراعة أصغر من السابقة تشع ضوءًا خافتًا. مرت نيكول بأحد حمامَي الأسرة، ثم وقفت أمام باب غرفة بينجي. سمعت صوت غطيطه العالي. ظلَّت نيكول تراقب ابنها النائم دقيقةً كاملة تقريبًا، ثم استأنفت سيرها في الرواق إلى غرفة النوم الرئيسية التي يشاركها فيها زوجها.

كان ريتشارد نائمًا أيضًا. لم يردَّ على تحية نيكول الهادئة. خلعت حذاءها وغادرت الغرفة. وعندما وصلت إلى غرفة المكتب، نقرت على الحائط مرتَين فازدادت الإضاءة. وكانت غرفة المكتب مزدحمة بالقطع الإلكترونية الخاصة بريتشارد، التي طلب من كائنات الأوكتوسبايدر أن تجمعها له على مدار عدة أشهر. ضحكت نيكول في نفسها وهي تشقُّ طريقها عبر الفوضى إلى مكتبها. قالت في نفسها: «دائمًا ما يعمل في أحد ابتكاراته. على الأقل سيكون ابتكار المترجم مفيدًا للغاية.»

جلست نيكول على كرسي مكتبها وفتحت الدرج الأوسط، وأخرجت كمبيوترها المحمول، الذي وفرت له كائنات الأوكتوسبايدر أخيرًا أنظمة طاقة وتخزين فرعية بديلة. وبعد أن اختارت فتح دفتر اليوميات من القائمة، بدأت تكتب على لوحة المفاتيح، وتنظر من حين لآخر إلى الشاشة الصغيرة لتقرأ ما كتبت.

اليوم ٢٢١

وصلتُ إلى المنزل متأخرة. كان الجميع نائمين كما توقعت. أردت أن أخلع ملابسي وأتسلل إلى الفراش بجوار ريتشارد، لكن هذا اليوم كان استثنائيًّا للغاية، حتى إنني شعرت أنني مرغمةٌ على الكتابة، والأفكار والأحاسيس لا تزال حية في ذهني.

تناولتُ طعام الإفطار مع العائلة البشرية بأكملها — كما هو الحال دائمًا — بعد ساعة واحدة تقريبًا من الفجر. وتحدثت ناي عما سيفعله الأطفال في المدرسة قبل أن يغفوا لوقت طويل، وأخبرتنا إيبونين أن الحرقة في معدتها وغثيان الوحم اللذين شعرت بهما سكنا، واشتكى ريتشارد من أن «عباقرة علم الأحياء» (يقصد بالطبع مضيفونا كائنات الأوكتوسبايدر) مهندسو إلكترونيات متوسطو المستوى. حاولت أن أشارك في الحوار، لكن قلقي المتزايد وترقُّبي للاجتماع المقرر عقده هذا الصباح مع أطباء الأوكتوسبايدر ظلَّ يشغل تفكيري.

كان القلق يسيطر عليَّ عندما وصلت إلى غرفة المؤتمرات في المبنى هرمي الشكل بعد الإفطار مباشرة. كان دكتور بلو وأصدقاؤه الأطباء متعجلين، وبدءوا على الفور في مناقشات طويلة، عما توصلوا إليه من الفحوصات التي أجروها على بينجي. لكن فَهْم المصطلحات الطبية أمر صعب في لغة المرء الأصلية، فضلًا عن لغةٍ غريبة؛ كان من المستحيل عليَّ في بعض الأوقات أن أتابع ما يقولون بألوانهم. وكنت أطلب منهم في كثيرٍ من الأحيان أن يُعيدوا ما قالوا.

لم يستغرق التوصل إلى إجابات حاسمة وقتًا طويلًا. توصلت كائنات الأوكتوسبايدر قطعًا إلى موضع الاختلاف بين تسلسل جينات بينجي وتسلسل الجينات البشري العادي. واتفقت أن سلسلة الجينات في الكروموسوم ١٤ بالتحديد هي مصدر الإصابة بمتلازمة ويتينجهام. لكنها اعتذرت عن عدم وجود إمكانية — كاستخدام شيء فسرته بأنه زرع جين — لعلاج هذه المشكلة. قال أطباء الأوكتوسبايدر إن الأمر شديد التعقيد، ويتعلق بالكثير من سلاسل الأحماض الأمينية، وإنهم لا يتمتعون بخبرة كبيرة في علاج البشر، فهناك احتمالات كثيرة جدًّا لأن يحدث شيء سيئ للغاية …

بكيت عندما فهمت ما يخبرونني به. هل كنت أتوقع غير ذلك؟ هل ظننت أنه، بطريقة ما، قد تنجح القدرة الطبية المعجزة التي حررت نيكول من لعنة فيروس «آر في ٤١»، في علاج العيب الذي وُلد به بينجي؟ أدركت في خضم شعوري باليأس أنني كنت آمل فعلًا في أن تحدث معجزة، مع أن عقلي أدرك بوضوح الفرق الشاسع بين العيب الخِلْقي والفيروس المكتسب. بذل دكتور بلو قصارى جهده لمواساتي. لكنني تركت العنان لدموع الأم بداخلي أمام كائنات الأوكتوسبايدر، لعلمي أنني سأحتاج إلى كامل قوتي عندما أعود إلى المنزل لأخبر الآخرين.

عرفت ناي وإيبونين النتيجة فور أن رأتا وجهي. ناي تحب بينجي بشدة ولا تتوقف عن مدح إصراره على التعلم رغم العقبات التي يواجهها. في الواقع بينجي مذهل. فهو يقضي ساعات طويلة في غرفته يجتهد في استذكار دروسه، مجاهدًا لأيام كي يستوعب مفهومًا في الكسور أو الأرقام العشرية، يمكن لطفل موهوب في التاسعة من عمره أن يتعلمها في نصف ساعة. والأسبوع المنصرم امتلأ بينجي فخرًا وهو يريني كيف يمكنه إيجاد المقام المشترك الأصغر لجمع الكسور ١ / ٤ و١ / ٥ و١ / ٦.

في الواقع ناي هي معلمته الأساسية. أما إيبونين فكانت صديقته. لذا أحزنها الأمر أكثر من الآخرين هذا الصباح. فقد كانت واثقة — نظرًا لنجاح الأوكتوسبايدر في علاجها بسرعة كبيرة — أن مشكلة بينجي أيضًا ستحل بمساعدة سحرهم الطبي. لكن هذا لن يحدث. أجهشت إيبونين بالبكاء لوقتٍ طويل هذا الصباح، حتى إنني قلقت على سلامة طفلها. لكنها ربتت على بطنها المنتفخ وطلبت مني ألَّا أقلق. وضحكت وقالت وهي تبكي إن رد فعلها على الأرجح نتيجة النشاط الزائد للهرمونات في جسدها.

أما الرجال الثلاثة فبدا عليهم الضيق، لكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم. فقد غادر باتريك الغرفة بسرعة دون أن يقول أي شيء. وعبر ماكس عن إحباطه بوابل الألفاظ البذيئة. أما ريتشارد فقد عبس وهز رأسه بأسًى.

كنا قد اتفقنا جميعًا قبل أن تبدأ الفحوصات، ألَّا نخبر بينجي شيئًا عن الهدف الحقيقي وراء كل الفحوصات التي أجرَتها عليه كائنات الأوكتوسبايدر. هل يمكن أن يكون قد علم؟ هل يمكن أن يكون حدسه قد أخبره بما يحدث؟ ربما. لكن عندما أخبرته هذا الصباح أن كائنات الأوكتوسبايدر توصلت إلى أنه شابٌّ يتمتع بصحة جيدة، لم أرَ في عينَيه ما يشير إلى أنه يعي ما يحدث. وبعد أن ضممته إلى صدري بقوة، وأنا أحارب فيضانًا آخر من الدموع يهدِّد بتدمير ذلك القناع الذي رسمته على وجهي، عُدت إلى غرفتي وسمحت للأسى الذي أشعر به حيال إعاقة ابني أن يغلبني مرة أخرى.

أنا واثقة أن ريتشارد والدكتور بلو تآمرا عليَّ ليُبقيا ذهني منشغلًا بقية اليوم. فلم يمرَّ على وجودي بغرفتي أكثر من عشرين دقيقة، عندما سمعت طرقات خفيفة على الباب. أخبرني ريتشارد أن دكتور بلو في الردهة، ومعه عالمان آخران من كائنات الأوكتوسبايدر ينتظرونني في غرفة المؤتمرات. هل نسيتُ أنه من المقرر تقديم عرض مفصل لي عن النظام الهضمي في أجساد كائنات الأوكتوسبايدر اليوم؟

كان النقاش مع كائنات الأوكتوسبايدر شائقًا للغاية، حتى إنني تمكنت مؤقتًا من نسيان أن إعاقة ابني أصعب من أن تتعامل معها. أراني زميلي دكتور بلو رسومات تشريحية معقدة لأحشاء الأوكتوسبايدر، موضحة جميع الأعضاء الرئيسية في النظام الهضمي. ورُسم ذلك الرسم على نوعٍ من الورق السميك أو

الجلد، ووُضع على طاولةٍ كبيرة. وشرحت لي كائنات الأوكتوسبايدر بلغة الألوان الرائعة — التي تتحدث بها — كل شيءٍ يحدث للطعام داخل أجسادها.

أغرب ما تتسم به عملية الهضم في الأوكتوسبايدر هو وجود الكيسَين الكبيرَين، أو منطقتَي التخزين في نهايتَي النظام. فكل شيءٍ تأكله كائنات الأوكتوسبايدر يذهب مباشرةً إلى كيس امتصاص، حيث يمكنه البقاء حتى ثلاثين يومًا. وجسد الأوكتوسبايدر نفسه هو الذي يحدد تلقائيًّا — بناءً على مستوى نشاط الفرد — معدل استخدام الطعام المخزن في الكيس، وتحليله كيميائيًّا، وتوزيعه على الخلايا من أجل الحصول على الطاقة.

وعلى الجانب الآخر يوجد كيس الفضلات، الذي تفرغ فيه جميع المواد التي لا يستطيع جسد الأوكتوسبايدر تحويلها إلى طاقة مفيدة. وعلمت أن كل كائن أوكتوسبايدر في صحةٍ جيدة لديه حيوان صغير يعيش دائمًا في ذلك الكيس. وشاهدت أحد الكائنات الصغيرة التي تشبه الحيوانات المتعددة الأرجل، التي تبدأ حياتها بيضة متناهية الصغر يضعها سلفها في جسد الأوكتوسبايدر المضيف. ويكون ذلك الحيوان من الحيوانات التي تقتات على كل شيء. ويستهلك تسعة وتسعين بالمائة من الفضلات التي تفرغ في الكيس أثناء الشهرَين — بزمن البشر — اللازمَين لوصوله إلى مرحلة البلوغ. وعند البلوغ يضع بيضتَين جديدتَين، واحدة منهما فقط يتكون بداخلها كائن جديد، يترك للأبد جسد الأوكتوسبايدر الذي كان يعيش بداخله.

ويوجد كيس الامتصاص خلف الفم وأسفله مباشرة. كائنات الأوكتوسبايدر نادرًا ما تأكل، لكنها تلتهم كمياتٍ كبيرةً من الطعام عندما تفعل. ودار بيننا نقاش طويل حول عاداتها في الأكل. وكانت اثنتان من الحقائق التي أخبرني بها دكتور بلو مذهلتَين للغاية؛ أولًا أنه إذا فرغ كيس الامتصاص في جسد أوكتوسبايدر فإنه سيموت على الفور في أقل من دقيقة، وثانيًا أن طفل الأوكتوسبايدر يجب أن يتعلم مراقبة مخزون الطعام في جسده. أمر لا يصدق! إنه لا يعرف بغريزته متى يكون جائعًا! وعندما رأى دكتور بلو الذهول الذي ارتسم على وجهي ضحك، والضحك في لغتهم سلسلة غير منتظمةٍ من شرائط الألوان القصيرة، ثم طمأنني سريعًا أن الموت من الجوع المفاجئ ليس سببًا للكثير من حالات الوفاة بين كائنات الأوكتوسبايدر.

بعد أن غفوت لثلاث ساعات (فلا يزال من الصعب عليَّ إكمال يوم من أيام الأوكتوسبايدر الطويلة دون أن أحظى بقسطٍ من النوم، ولم ينجح في التخلي عن هذه القيلولة سوى ريتشارد)، أخبرني دكتور بلو أنه نظرًا لاهتمامي الشديد بعملية هضم الطعام داخل أجسادها، قررت أن تريني سمتَين غير عاديتَين في نظامها الحيوي.

ركبت مع كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة العربة، مرَّت عبر إحدى البوابتَين خارج المنطقة المخصصة لنا، واجتازت مدينة الزمرد. وظننت للحظةٍ أن هذه الرحلة الميدانية مخطط لها أيضًا؛ للتخفيف من حدة الإحباط الذي أشعر به بشأن بينجي. وذكرني دكتور بلو ونحن في الطريق أن كائنات الأوكتوسبايدر جنس متعدد الأشكال، وأن هناك ستة أشكال مختلفة لكائنات الأوكتوسبايدر البالغة التي تعيش على متن سفينة راما الفضائية. (كان من الصعب عليَّ متابعة ما يقول بتركيز؛ فبعد أن خرجنا من منطقتنا رأيت أنواعًا متعددة من المخلوقات الساحرة إلى جوار العربة وفي الشارع، بما في ذلك العديد من الفصيلة نفسها التي رأيتها في الدقائق القليلة الأولى التي قضيتها في مدينة الزمرد.) وقال لي دكتور بلو بألوانه: «تذكري أن أحد المؤشرات المحتملة لذلك الاختلاف هي الحجم.»

ولم تكن هناك طريقةٌ لإعدادي لما رأيته بعد ذلك بعشرين دقيقة. نزلنا من العربة أمام مستودع كبير. ووجدنا عند كل طرف من أطراف المبنى العديم النوافذ كائنَين هائلَي الحجم من كائنات الأوكتوسبايدر، تبدو عليهما السذاجة يصل قُطر رأس كلٍّ منهما إلى عشرة أمتار على الأقل، وجسداهما يبدوان كمنطادَين صغيرَين، ولوامسهما طويلة ذات لون رمادي قاتم، وليست سوداء وذهبية كالمعتاد. أخبرني الدكتور بلو أن هذا الشكل بالتحديد لديه وظيفة واحدة فقط؛ أن يكون مستودع طعام للمستوطنة.

قال دكتور بلو: «وكل «مخزن طعام» (وفقًا لترجمتي لألوان دكتور بلو) يمكنه تخزين كمية طعامٍ تكفي لملء عدة مئاتٍ من الأكياس التي تكفي حيوان أوكتوسبايدر بالغًا. ونظرًا لأن أكياس الامتصاص داخل أجسادنا تكفي لتخزين طعام يكفي ثلاثين يومًا، أو خمسة وأربعين يومًا في حالة اتباع نظامٍ غذائي يقلِّل من استهلاك الطاقة، فإنكِ بالطبع تدركين ضخامة المخزون الذي يحمله اثنا عشر كائنًا من هذه.»

وبينما كنت أراقب، اقترب خمسة من كائنات الأوكتوسبايدر من أحد إخوانها الضخام وتحدثوا إليه بالألوان. وفي غضون ثوانٍ انحنى الكائن للأمام وخفض رأسه إلى الأرض تقريبًا، ولفظ خليطًا سميكًا من فمه الضخم الواقع مباشرة أسفل عدساته البيضاء. فتجمعت كائنات الأوكتوسبايدر الخمسة العادية الحجم حول الخليط الذي لفظه، وتناولته بلوامسها.

قال دكتور بلو: «إننا نمارس هذه العملية عدة مرات يوميًّا مع كل مخزن طعام منها. فلا بد لهذه الكائنات أن تتدرب لأنها ليست ذكية. وربما لاحظت أن أيًّا منها لا يتحدث بالألوان، فهي لا تتمتع بأي قدرة على التواصل اللغوي، وقدرتها على الحركة محدودة للغاية. فقد صُممت جيناتها بحيث تكون لديها قدرةٌ على تخزين الطعام بكفاءة، والاحتفاظ به لأوقات طويلة، ولفظه لإطعام سكان المستوطنة عند الطلب.»

كنت لا أزال أفكر في الكائنات المخزنة للطعام، عندما وقفت العربة أمام ما علمت أنه مدرسة لكائنات الأوكتوسبايدر. وقلت ونحن نجتاز الفناء إن المبنى الكبير يبدو مهجورًا. فقال أحد الأطباء الآخرين شيئًا عن أن المستعمرة لم يجرِ فيها «ترميمات حديثة»، تبعًا لما فهمته من ألوانه، لكنني لم أتلقَّ تفسيرًا واضحًا عما يعنيه بملاحظته.

وفي أحد أطراف مبنى المدرسة، دخلنا مبنًى صغيرًا لا يوجد به أثاث. وفي الداخل كان هناك فردان بالغان من كائنات الأوكتوسبايدر، وما يقرب من عشرين صغيرًا، يصل حجم أحدهم إلى نصف حجم الأوكتوسبايدر البالغ. واتضح من النشاط الممارس في الفصل تكرار تأدية أحد التدريبات. لكنني لم أستطع متابعة الحوار بين الطلاب والمعلمين؛ نظرًا لأن الصغار يستخدمون كامل أحرف لغتهم، بما في ذلك الألوان فوق البنفسجية وتحت الحمراء، وأيضًا لأن «حديث» الصغار لم يتدفَّق في شرائط منتظمة أنيقة كالتي تعلمت قراءتها.

شرح دكتور بلو أن ما نراه هو «درس قياس» حيث يتدرب الصغار على تقييم صحتهم، بما في ذلك تقدير كمية الطعام الموجودة في أكياس الامتصاص في أجسادهم. وبعد أن أخبرني دكتور بلو أن تعلم «القياس» جزء لا يتجزأ من منهج التعليم المبكر للصغار، وسألته عن سبب عدم انتظام شرائط ألوان الصغار. فأخبرني أن هؤلاء الطلاب صغار للغاية، لم يتجاوزوا مرحلة «اللون الأول»، وبالكاد يستطيعون التعبير عن أفكار واضحة.

وبعد أن عدنا إلى غرفة المؤتمرات، طرحوا عليَّ عددًا من الأسئلة عن أنظمة الجهاز الهضمي البشري. كانت الأسئلة شديدة التعقيد (ناقشنا على سبيل المثال دورة حمض السيتريك المعروفة باسم دورة كريبس خطوة خطوة، وناقشنا نقاطًا أخرى في الكيمياء الحيوية البشرية التي كنت بالكاد أتذكرها)، وذهلت مرة أخرى عندما أدركت أن كائنات الأوكتوسبايدر تعلم عنا أكثر مما نعلم عنها. وكالعادة لم أكن مضطرةً أن أعيد إجابةً مرتَين.

يا له من يوم حافل! بدأ بألم اكتشاف أن كائنات الأوكتوسبايدر لن يكون بإمكانها مساعدة بينجي. وفي وقت لاحق تذكرت مرونة النفس البشرية، عندما أخرجني حافز الرغبة في تعلم المزيد عن كائنات الأوكتوسبايدر من يأسي. وما زال يذهلني مقدار المشاعر التي نمتلكها نحن البشر، وكيف يمكننا أن نتغير ونتكيف سريعًا.

كنت أنا وإيبونين نتحدث الليلة السابقة عن حياتنا هنا في مدينة الزمرد، وكيف أن ظروف المعيشة غير العادية التي نعيشها ستؤثر على سلوك الطفل الذي تحمله. وفي مرحلة ما هزت إيب رأسها وابتسمت. قالت: «أتعلمين ما المدهش في الأمر؟ أننا هنا مجموعة معزولة من البشر تعيش في مكان غريب، داخل سفينة فضاء عملاقة تنطلق في اتجاه غير معلوم ... ومع ذلك فإن أيامنا هنا مليئة بالضحك والمرح والحزن والإحباط، بالضبط كما لو كنا على كوكب الأرض.»

قال ماكس: «قد تبدو هذه مثل كعكة الوافل، وملمسها كذلك عندما تضعينها في فمك، لكن طعمها يختلف تمامًا عن طعم كعكة الوافل.»

فقالت إيبونين وهي تضحك: «ضع عليها المزيد من الشربات. ومرر لي الصحن.»

ناول ماكس الكعكة لزوجته بالجهة الأخرى من المائدة. وقال: «تبًّا يا فرنسيتي، في الأسابيع القليلة الماضية كنت تأكلين كل ما تقع عليه عيناك. ولو لم أكن أعرفك جيدًا لظننت أنك وذلك الطفل الذي لم يولد لديكما «أكياس امتصاص»، مثل تلك التي أخبرتنا نيكول عنها.»

قال ريتشارد وهو مشتت الذهن: «ولو وُجدت لثبت أنها ستكون مفيدة. يمكنك ملء معدتك مسبقًا بالطعام، وعدم قطع العمل لأن معدتك امتلأت على آخرها.»

قال كيبلر من الطرف الآخر للمائدة: «هذه الحبوب هي الأفضل. أؤكد لكم أن هرقل كان سيحبها ...»

قاطعه ماكس بصوت منخفض وهو ينظر من طرف المائدة إلى الآخر: «بمناسبة الحديث عنه، ما الهدف من وجود هذا الكائن أو هذا الشيء؟ إن ذلك الأوكتوسبايدر اللعين يظهر كل صباح بعد الفجر بساعتَين ويظلُّ معنا. وإذا كان الأطفال يتعلَّمون مع ناي فإنه يجلس في آخر الغرفة ...»

صاح جاليليو: «إنه يلعب معنا يا عم ماكس. إن هرقل مسلٍّ جدًّا. وهو يفعل كل ما نطلبه منه ... بالأمس تركني أستخدم مؤخرة رأسه ككيس ملاكمة.»

قالت نيكول وهي تتناول الطعام: «طبقًا لما يقوله آرشي فإن هرقل مراقب رسمي. فكائنات الأوكتوسبايدر تشعر بالفضول تجاه كل شيء. إنها تريد معرفة كل شيء عنا، وأبسط تفاصيل حياتنا اليومية العادية.»

أجابها ماكس: «هذا رائع، لكن لدينا مشكلة بسيطة. عندما تذهبون أنت وإيلي وريتشارد لا يفهم أيٌّ من الموجودين هنا ما يقوله هرقل. صحيح أن ناي تعرف بعض العبارات البسيطة لكن لا شيء مما يقول. فبالأمس على سبيل المثال عندما كان الجميع نائمين، تبعني ذلك الهرقل إلى الحمام. أنا لا أعرف شعوركم حيال الأمر، لكنه من الصعب عليَّ قضاء حاجتي على مسمع من إيبونين حتى. ومع وجود كائن فضائي يحملق فيَّ على بعد أمتار قليلة، أُصيبَت عضلتي العاصرة بالشلل.»

سأله باتريك وهو يضحك: «لماذا لم تطلب من هرقل أن يبتعد؟»

أجابه ماكس: «لقد فعلت. لكنه ظل يحملق فيَّ والشريط يدور حول عدساته، وظل يعيد نفس نمط الألوان غير المفهوم تمامًا لي.»

قالت إيلي: «هل تتذكر نمط الألوان. ربما أخبرك بما كان هرقل يقوله.»

أجابها ماكس: «ماذا! بالطبع لا أتذكر. إلى جانب أن الأمر لا يشكِّل فارقًا الآن ... فأنا لا أحاول قضاء حاجتي هنا.»

فانفجر التوءمان ضحكًا، في حين قطبت إيبونين جبينها في وجه زوجها. أما بينجي الذي لم يقُل الكثير على الإفطار، فقد استأذن للانصراف.

سألته نيكول: «هل أنت بخير يا عزيزي؟»

أومأ برأسه وترك غرفة الطعام متجهًا إلى غرفة نومه.

سألت ناي بهدوء: «هل يعرف شيئًا؟»

هزت نيكول رأسها بسرعة، والتفتت إلى حفيدتها. سألتها: «هل انتهيت من تناول إفطارك يا نيكي؟»

أجابتها الصغيرة: «نعم يا جدتي.» ثم انصرفت وتبعها كيبلر وجاليليو بعد لحظات.

وفور أن خرج الأطفال قال ماكس: «أظن أن بينجي يعرف أكثر مما نعتقد جميعًا.»

أجابته نيكول برفق: «قد تكون محقًّا. لكن عندما تحدثت إليه أمس لم أجد ما يشير إلى أنه ...» ثم بترت عبارتها، والتفتت إلى إيبونين. وقالت: «بالمناسبة، كيف حالك هذا الصباح؟»

أجابتها إيبونين: «بخير حال. كان الطفل نشطًا للغاية قبل الفجر. وظل يركلني بقوة لمدة ساعة تقريبًا، وكنت أراقب قدمه تتحرك في بطني. وحاولت أن أجعل ماكس يتحسس واحدة من ركلاته لكنه لم يتحمل ذلك.»

«لماذا تتحدثين عن ذلك الجنين بصيغة المذكر يا فرنسيتي، في حين أنكِ تعرفين جيدًا أنني أريد فتاة تشبهك ...»

قاطعته إيبونين: «لا أصدقك على الإطلاق يا ماكس باكيت. أنت تقول فقط إنك تريد فتاة حتى لا تصاب بالإحباط. فلا شيء سيسعدك أكثر من ولد تربيه ليصبح رفيقك ... بالإضافة إلى أن الإشارة بالمذكر هو الأمر المعتاد، عندما يكون نوع الطفل غير معروف أو محدد.»

قال ماكس بعد أن رشف رشفة من المشروب الذي يشبه القهوة: «وهذا يجعلني أطرح سؤالًا آخر على أصدقائنا خبراء كائنات الأوكتوسبايدر.» ثم رمق إيلي بنظرة تبعها بأخرى إلى نيكول. وقال وهو يضحك: «هل تعرف أيٌّ منكما ما هو جنس أصدقائنا الأوكتوسبايدر، على فرض أن لهم جنسًا؟ لم أرَ شيئًا على أجسادها العارية يمكن أن يمنحنا فكرةً عن جنسها ...»

هزَّت إيلي رأسها نفيًا. وقالت: «أنا لا أعلم حقًّا يا ماكس. أخبرني آرشي أن جيمي ليس ابنه وليس ابن دكتور بلو أيضًا، على الأقل ليس من الناحية البيولوجية البحتة؟»

قال ماكس: «إذن لا بد أنه متبنًّى. لكن هل آرشي الذكر ودكتور بلو الأنثى؟ أم العكس؟ أم إن جيراننا زوجان مثليان يربيان طفلًا؟»

قال باتريك: «ربما لا يكون لدى كائنات الأوكتوسبايدر ما نطلق نحن عليه جنسًا.»

سأل ماكس: «إذن من أين تأتي كائنات الأوكتوسبايدر الجديدة؟ هي حتمًا لا تخرج من العدم.»

قال ريتشارد: «إن كائنات الأوكتوسبايدر متقدمة جدًّا بيولوجيًّا، فربما يكون لديها نظام تكاثر سيبدو لنا سحرًا.»

قالت نيكول: «سألت دكتور بلو عن عملية التكاثر في جنسه عدة مرات. لكنه قال إنه أمر معقد، لا سيما أنها كائنات متعددة الشكل، ووعد بشرح العملية لي بعد أن أفهم الجوانب الأخرى للطبيعة البيولوجية لأجسادها.»

قال ماكس وابتسامة عريضة تعلو وجهه: «لو كنت كائن أوكتوسبايدر، لتمنيت أن أكون واحدًا من تلك الكائنات الضخمة القذرة التي رأتها نيكول بالأمس. أليس من الرائع أن تكون وظيفتك الوحيدة في الحياة هي الأكل على نحو متواصل، وتخزين الطعام لجميع إخوانك؟ يا لها من حياة! كنت أعرف ابن مزارع يربي الخنازير في آركنسو يشبه ذلك الكائن المخزن. غير أنه كان يحتفظ بكل الطعام لنفسه. لم يشاركه ولو مع الخنازير ... أظن أن وزنه كان يقارب ثلاثمائة كيلوجرام عندما مات وهو في الثلاثين من عمره.»

انتهت إيبونين من تناول كعكة الوافل. وقالت وهي تتظاهر بالامتعاض: «إن السخرية من ممتلئي القوام في حضور سيدةٍ حامل تصرفٌ يفتقر إلى الكياسة.»

أجابها ماكس: «تبًّا يا إيب، أنت تعلمين أن لا شيء من هذا الهراء ينطبق علينا هنا. نحن هنا كحيوانات حديقة حيوان مدينة الزمرد، ونحن عالقون بعضنا مع بعض هنا. لا يهتم البشر بشكلهم إلا إذا خشوا مقارنتهم بأحدٍ آخر.»

استأذنت ناي للانصراف. قالت: «لا يزال لديَّ بعض التحضيرات قبل أن أبدأ دروس اليوم. ستبدأ نيكي دروس الحروف الساكنة؛ إذ نجحت في تمارين حفظ الحروف الهجائية.»

قال ماكس: «من شابهت أمها فما ظلمت.» وبعد أن غادر باتريك غرفة الطعام تاركًا ريتشارد وزوجته وماكس وزوجته وإيلي على مائدة الطعام، انحنى ماكس إلى الأمام وعلى وجهه ابتسامةٌ عابثة. وقال: «هل عيناي تكذبان أم إن باتريك يقضي وقتًا أطول مع ناي مما كان يفعل عندما وصلنا هنا؟»

قالت إيلي: «أعتقد أنك محق يا ماكس. لاحظت الشيء نفسه. وأخبرني أنه يشعر بأنه مفيد في مساعدة ناي في التعامل مع بينجي والأطفال. فأنت وإيبونين مستغرقان تمامًا في أموركما وفي التفكير في الطفل القادم، ووقتي موزع بالكامل بين نيكي وكائنات الأوكتوسبايدر، وأمي وأبي مشغولان طوال الوقت ...»

قال ماكس: «إنك لا تفهمين ما أعنيه يا سيدتي. إنني أتساءل إن كان هناك زواج آخر وشيك.»

سأله ريتشارد كما لو أن الفكرة ترد على ذهنه للمرة الأولى: «باتريك وناي؟»

قالت نيكول: «نعم يا عزيزي.» ثم ضحكت وقالت: «إن ريتشارد ينتمي إلى طائفة العباقرة التي تتمتع بمهارات قوة الملاحظة في أشياء محددة فقط. فلا يفوته أدق تفاصيل أيٍّ من ابتكاراته مهما كان ضئيلًا. لكن تفوته ملاحظة التغيرات الواضحة التي تطرأ على سلوكيات الأشخاص. أذكر ذات مرة في عدن الجديدة، عندما بدأت كيتي ترتدي فساتين تتسع فيها فتحة العنق ...»

سكتت نيكول. فلا يزال من الصعب عليها التحدث عن كيتي دون أن تغلبها مشاعرها.

قالت إيبونين: «لاحظ كيبلر وجاليليو أن باتريك موجود معهم كل يوم. وتقول ناي إن جاليليو بدأ يغار منه.»

سألت نيكول: «وماذا تقول ناي عن اهتمام باتريك؟ هل هي سعيدة بذلك؟»

أجابتها إيبونين: «أنت أدرى بطبيعة ناي. إنها دائمًا لطيفة، وتهتم بالآخرين. أظن أنها قلقة من تأثير أي علاقة ممكنة بينها هي وباتريك على التوءمَين.»

التفتت العيون كلها إلى الزائر الذي ظهر على الباب. وقال ماكس وهو يترك المقعد ويقف: «انظروا من حضر. صباح الخير يا هرقل. يا لها من مفاجأة سارة! كيف يمكننا أن نساعدك هذا الصباح؟»

خطا الأوكتوسبايدر إلى غرفة الطعام والألوان تتدفق حول رأسه. فقالت إيلي: «يقول إنه جاء ليساعد ريتشارد في المترجم الآلي الذي يخترعه. لا سيما فيما يخص الألوان التي تقع خارج نطاق رؤيتنا.»

٢

كانت نيكول تحلم. رأت نفسها ترقص على أنغام موسيقى أفريقية حول نيران مخيم في غابة غير كثيفة بساحل العاج. كان أومه هو الذي يقود الرقصة. كان يلبس الرداء الأخضر الذي ارتداه عندما ذهب لزيارتها في روما، قبل إطلاق سفينة الفضاء نيوتن بأيام قليلة. وكان جميع أصدقائها من البشر الموجودين معها في مدينة الزمرد، بالإضافة إلى معارفهم الأربعة المقربين من كائنات الأوكتوسبايدر، يرقصون في الدائرة حول نيران المخيم. كان كيبلر وجاليليو يتشاجران. وكانت إيلي ونيكي متشابكتَي الأيدي. وكان الأوكتوسبايدر هرقل يرتدي الزي الأفريقي الأرجواني الفاتح. وكان بطن إيبونين بارزًا أمامها وكانت حركتها ثقيلة. سمعت نيكول اسمها يُنادَى من خارج الدائرة. هل هي كيتي؟ وأخذت دقات قلبها تتسارع وهي تجاهد للتعرف على الصوت.

«نيكول. إنني أعاني انقباضات.» قالت إيبونين هذه الجملة وهي تقف إلى جوار فراش نيكول.

فاعتدلت نيكول ونفضت الحلم عن رأسها. وسألتها تلقائيًّا: «ما معدل تكرارها؟»

أجابتها إيبونين: «إنها غير منتظمة. يحدث انقباضان متتاليان يفصلهما خمس دقائق، ثم لا يحدث شيء لمدة نصف ساعة.»

قالت نيكول في نفسها: «إنها على الأرجح انقباضات براكستون هيكس أو المخاض الكاذب. فلا يزال أمامها خمسة أسابيع قبل أن تكتمل فترة حملها.»

قالت نيكول وهي تضع رداءها: «تعالَي واستلقي على الأريكة. أخبريني عندما يأتيكِ الانقباض التالي.»

كان ماكس ينتظر مع إيبونين في غرفة المعيشة، بعد أن انتهت نيكول من غسيل يدَيها. وسألها: «هل ستضع الطفل؟»

قالت نيكول: «في يومٍ ما، لكن ليس الآن على الأرجح.» ثم بدأت تضغط برفقٍ على بطن إيبونين وهي تحاول تحديد مكان الطفل.

وأثناء ذلك كان ماكس يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطواتٍ سريعة. غمغم: «أنا مستعد الآن لقتل أي شخص لأحصل على سيجارة.»

عندما شعرت إيبونين بانقباضٍ آخر، لاحظت نيكول أن هناك ضغطًا خفيفًا على عنق الرحم غير المتسع. وشعرت بالقلق لأنها لم تكن متيقنةً من موضع الطفل. قالت بعد أن حدث انقباضٌ آخر بعد ست دقائق: «أنا آسفة يا إيب. أظن أن هذه انقباضات المخاض الكاذب. وهي نوع من التمرين لجسدك على الولادة، لكنني قد أكون مخطئة ... فلم أتعامل قط مع حالة حمل في هذه المرحلة دون أجهزة مراقبة لتساعدني.»

سألتها إيبونين: «بعض النساء يلدْنَ مبكرًا، أليس كذلك؟»

«بلى. لكنها حالات نادرة. فواحد في المائة فقط تقريبًا من الأمهات اللائي يُرزقْنَ بأطفال للمرة الأولى يضعْنَ قبل أكثر من أربعة أسابيع من ميعاد ولادتهن. وغالبًا ما يكون ذلك بسبب مشكلة ما. أو ربما الوراثة ... هل تعرفين إذا كنت أنت أو أيٌّ من أشقائك وُلد مبكرًا؟»

هزَّت إيبونين رأسها نفيًا. وقالت: «لا أعرف أي معلومات قط عن عائلتي الحقيقية.»

قالت نيكول في نفسها: «أكاد أجزم أن تلك انقباضات المخاض الكاذب ... ليتني أستطيع التيقُّن ...»

طلبت نيكول من إيبونين أن ترتديَ ملابسها وتعود إلى منزلها. وقالت لها: «سجِّلي مواعيد هذه الانقباضات. والمهم حقًّا هو الفترات التي تفصل بينها. فإذا بدأت تحدث بانتظامٍ كل أربع دقائق تقريبًا دون أن يفصل بينها وقت طويل، تعالَي إليَّ مرة أخرى.»

سأل ماكس نيكول همسًا بينما كانت إيبونين ترتدي ملابسها: «هل من المحتمل أن تكون هناك مشكلة؟»

«هذا مستبعد يا ماكس، لكن الاحتمال قائم.»

سألها ماكس: «ما رأيكِ أن نطلب مساعدة أصدقائنا عباقرة علم الأحياء؟ سامحيني لو أن في الأمر إساءة إليك، إنني فقط ...»

قالت نيكول: «لقد سبقتك في التفكير في هذا الأمر يا ماكس. وقررت بالفعل أن أستشير دكتور بلو في الصباح.»

كان ماكس بالفعل متوترًا، قبل أن يفتح الدكتور بلو ما أطلق عليه ماكس «وعاء الحشرات». قال للطبيب وهو يضع يدَيه برفقٍ على اللامسة التي تحمل بها الأوكتوسبايدر الوعاء: «انتظر قليلًا يا دكتور. هل تمانع أن تشرح لي ما ستفعله قبل أن تُخرج هذه الكائنات؟»

كانت إيبونين ترقد على الأريكة في غرفة معيشة منزل عائلة باكيت. كانت عارية تغطي أغلب جسدها ملاءتَان جاء بهما الأوكتوسبايدر. كانت نيكول ممسكة بيد إيبونين أغلبية الدقائق العديدة التي استغرقتها كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة في إعداد المعمل المتنقل. ثم سارت نيكول لتقف إلى جوار ماكس حتى تترجم له ما يقوله دكتور بلو.

ترجمت نيكول قائلة: «دكتور بلو ليس خبيرًا في هذا المجال. لكنه يقول إن أحد الكائنَين الآخرين سيشرح تفاصيل العملية.»

وبعد حوارٍ قصير بين كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة، تنحَّى دكتور بلو جانبًا وتقدم كائن آخر ليقف في مواجهة نيكول وماكس مباشرة. ثم أخبرها دكتور بلو أن هذا الأوكتوسبايدر — الذي وصفه بأنه «مهندس تصوير» — بدأ حديثًا يتعلم اللهجة المبسطة من لغة الأوكتوسبايدر، التي تستخدم للتواصل مع البشر. وقال لها: «قد يكون من الصعب قليلًا فهمه.»

قالت نيكول بعد عدة ثوانٍ عندما بدأت شرائط الألوان تتدفق حول رأس المهندس: «يطلق على هذه الكائنات الضئيلة في الوعاء ... كائنات التصوير رباعية الأطراف، أعتقد أن هذه ستكون ترجمة مقبولة ... وعلى أي حالٍ إنها آلات تصوير حية متناهية الصغر

ستزحف داخل جسد إيبونين وتلتقط صورًا للطفل. وكل كائنٍ منها لديه إمكانية ... عدة ملايين من الصور الفوتوغرافية التي يمكن توزيعها على ما قد يصل إلى خمسمائة واثنتَي عشرة صورة في كل نيليت. بل يمكنها أيضًا عرض صورٍ متحركة إذا أردت.»

ثم تردَّدت والتفتَت إلى ماكس. وقالت: «إنني أبسطُ كل ما يقول، أتمنى أن يكون هذا مناسبًا لك. إنه يشرح أمورًا فنية للغاية وجميعها بالرياضيات الخاصة بالأوكتوسبايدر. وكان المهندس يشرح في الجزء الأخير كل الطرق المختلفة التي تساعد المستخدم على تحديد الصور، كان ريتشارد سينبهر بهذا الأمر بشدة.»

سأل ماكس: «هلَّا تذكرينني بطول النيليت؟»

أجابته نيكول: «ثمانٍ وعشرون ثانية تقريبًا. أطلق ريتشارد أسماءً على جميع الوحدات الزمنية. فالنيليت أقصر وحدة قياس زمني في زمن الأوكتوسبايدر: وهناك ثمانية نيليتات في كل فينج، وثمانية فينجات في كل وُدِن، وثمانية وُدِنات في كل تيرت، وثمانية تيرتات في يوم الأوكتوسبايدر. وحسب ريتشارد يومها فوجده يساوي اثنتين وثلاثين ساعة وأربع عشرة دقيقة وأكثر من ست ثوانٍ بقليل.»

قال ماكس بهدوء: «أنا سعيد أن هناك مَن يفهم كل هذا.»

عادت نيكول لتواجه مهندس التصوير واستمر الحوار. قالت مترجمة ببطء: «كل واحد من كائنات التصوير الرباعية الأطراف يدخل منطقة الهدف المحددة، ويلتقط الصور ثم يعود إلى معالج الصور، وهو ذلك الصندوق الرمادي هناك على الحائط، حيث «يفرغ» صوره، ويتلقى مكافأته ثم يعود إلى الطابور.»

قال ماكس: «ماذا؟ ما نوع المكافأة؟»

قالت نيكول: «في وقت لاحق يا ماكس.» إذ كانت تجاهد لتفهم عبارة طلبت من الأوكتوسبايدر أن يعيدها. ثم صمتت لعدة ثوانٍ قبل أن تهز رأسها وتلتفت إلى دكتور بلو. وتقول: «أنا آسفة، لكنني لا أزال لا أفهم تلك الجملة الأخيرة.»

تبادل كائنا الأوكتوسبايدر الحديث بسرعة بلغتهما، ثم واجه مهندس التصوير نيكول وعاد ليحدثها. قالت في النهاية: «حسنًا، أعتقد أنني فهمت ... ماكس، إن ذلك الصندوق الرمادي نوع من أنواع الأجهزة قابل للبرمجة للتحكم في البيانات، فهو يخزن البيانات في خلايا حية، ويعد المخرجات من كائنات الصور الرباعية للعرض على الحائط، أو في أي مكان نود أن نرى الصور فيه، وفقًا للبروتوكول المختار ...»

قاطعها ماكس: «لديَّ فكرة. هذا الأمر برمته يفوق استيعابي ... إذا كنت أنت مقتنعة أن تلك الوسيلة لن تؤذي إيب بأي طريقة، فلنبدأ العمل.»

فهم دكتور بلو ما قاله ماكس. وعند أول إشارة من نيكول خرج هو ورفيقاه من منزل عائلة باكيت، وأحضروا ما بدا أنه درج مغطًّى من العربة التي تقف بالخارج. ثم قال دكتور بلو لنيكول: «يوجد في هذه الحاوية مجموعة تتكون من عشرين أو ثلاثين من أصغر الكائنات من فصيلتنا، شكل آخر وظيفته الأساسية هي التواصل مباشرة مع الكائنات الرباعية، والكائنات المتناهية الصغر الأخرى التي تجعل النظام يعمل. في الواقع إنها ستدير العملية.»

فُتح الدرج وبدأت كائنات الأوكتوسبايدر الصغيرة التي يبلغ طولها بضعة سنتيمترات تندفع إلى وسط الغرفة. قال ماكس متلعثمًا من فرط حماسته: «تبًّا، هذه هي ... هذه هي الكائنات التي رأيتها أنا وإيبونين في المتاهة الزرقاء في المخبأ على الجانب الآخر من البحر الأسطواني.»

وشرح دكتور بلو: «هذه الكائنات القزمة تتلقى منا التعليمات، ثم تنظم العملية بالكامل. وهي التي ستبرمج الصندوق الرمادي. والآن كل ما نحتاج إليه للبدء هو أن تحددا نوع الصور والمكان الذي تريدان رؤيتها فيه.»

أظهرت الصورة الكبيرة الملونة على حائط غرفة معيشة آل باكيت، صورة جنين ذكر جميل مكتمل النمو، يملأ تقريبًا رحم والدته بالكامل. فظل ماكس وإيبونين يحتفلان لمدة ساعة منذ أن ميزا أن طفلهما الذي لم يولد ذكر. وفي وقتٍ لاحقٍ من فترة بعد الظهيرة وبعد أن تعلمت نيكول كيفية تحديد ما تريد أن تراه، تحسَّنت كفاءة الصور بصورةٍ ملحوظة. وأصبحت الصورة على الحائط بضعف الحجم البشري العادي واضحة للغاية.

سألت إيبونين: «هل يمكنني أن أراه وهو يركل مرة أخرى؟»

قال مهندس التصوير شيئًا للقزم القائد، وفي أقل من نيليت أعيد بث الجزء الخاص بطفل آل باكيت وهو يركل لأعلى في بطن والدته.

هتف ماكس: «انظروا إلى قوة ساقَيه!» كان قد بدأ توتره يخف. وبعد أن تغلب على الصدمة التي أصابته عند رؤية الصورة المبدئية، أصابه القلق إزاء كل الأشياء التي تحيط بابنه في الرحم. لكن نيكول هدأت الأب الجديد بأن أخبرته أن هذه الأشياء هي الحبل السري والمشيمة، وطمأنته أن كل شيء طبيعي.

سألت إيبونين بعد انتهاء إعادة العرض: «هل هذا يعني أنني لن أضع طفلي قريبًا؟»

أجابتها نيكول: «لا. أظن أن أمامك خمسة أو ستة أسابيع. فغالبًا ما يصل الطفل البكر متأخرًا قليلًا. ومن المحتمل أن تشعري بهذه الانقباضات المتقطعة منذ الآن وحتى وقت الولادة، لكن لا تقلقي حيالها.»

شكرت نيكول دكتور بلو بشدة، وكذلك فعل ماكس وإيبونين. ثم جمعت كائنات الأوكتوسبايدر كل الأدوات البيولوجية وغير البيولوجية المكونة لمعملها المتنقل. وعندما رحلت الأوكتوسبايدر اجتازت نيكول الغرفة وأمسكت بيد إيبونين. وسألت صديقتها: «هل أنت سعيدة؟»

أجابتها إيبونين: «بالطبع. ومطمئنة أيضًا. ظننت أن شيئًا ما ليس على ما يرام؟»

قالت نيكول: «كلا. كان إنذارًا كاذبًا فحسب.»

واتجه ماكس إليهما وضم إيبونين إلى صدره. كان وجهه يشع سعادة. تراجعت نيكول قليلًا، وراقبت المشهد الرقيق بين صديقيها. قالت في نفسها: «لا يتحاب الزوجان بقدر ما يتحابان قبل ولادة طفلهما الأول.»

همَّت نيكول بمغادرة المنزل. فقال ماكس: «انتظري دقيقة. ألا تريدين معرفة الاسم الذي سنطلقه عليه؟»

أجابته نيكول: «بالطبع.»

فقال ماكس بفخر: «ماريوس كلايد باكيت.»

وأضافت إيبونين: «ماريوس كان فتى أحلام إيبونين المتشردة في مسرحية «البؤساء»، وكنت أشتاق لأن يكون في حياتي ماريوس طوال ليالي الوحدة الطويلة التي قضيتها في دار الأيتام. وكلايد على اسم شقيق ماكس في آركنسو.»

قالت نيكول مبتسمة وهي تستدير لمغادرة المنزل: «إنه اسم رائع.» ثم كررت: «اسم رائع.»

لم يتمكن ريتشارد من إخفاء سعادته، عندما عاد إلى المنزل في وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم. وقال لنيكول بأعلى صوت ممكن: «قضيت لتوي ساعتَين في غاية الروعة في غرفة المؤتمرات مع آرشي وكائنات الأوكتوسبايدر الأخرى. أرتني الجهاز بالكامل الذي استخدمَته معكِ ومع إيبونين في وقتٍ مبكر اليوم. إنه مذهل، يا له من نبوغ لا يصدقه عقل! لا إنها عبقرية، هذا هو المصطلح الأفضل، أخبرتك بذلك منذ البداية، إن كائنات الأوكتوسبايدر عباقرة في علم الأحياء.

هل تتخيلين ... لديها كائنات حية هي في الواقع آلات تصوير، ومجموعة أخرى من الحشرات الميكروسكوبية التي تقرأ الصور وتخزن كل بيكسل بدقة، ونظام تحكم جيني خاص يتحكم في العملية، وكمية محدودة من الإلكترونيات — عند الضرورة — لتنفيذ مهام التحكم في البيانات البسيطة ... كم استغرقها من آلاف السنوات لتفعل كل هذا؟ ومن صممه منذ البداية؟ إنه لأمر يدهش العقول!»

ابتسمت نيكول لزوجها وقالت: «هل رأيت ماريوس؟ ما رأيك؟»

استمر ريتشارد في الصراخ قائلًا: «رأيت كل الصور التي التُقطت بعد ظهر اليوم. هل تعرفين كيف تتواصل كائنات الأوكتوسبايدر القزمة مع كائنات الصور الرباعية؟ إنها تستخدم نطاق أطوال موجية خاصًّا يقع في أقصى طرف الألوان فوق البنفسجية في سلسلة الألوان. هذا صحيح. وأخبرني آرشي أن هذه الحشرات الصغيرة وكائنات الأوكتوسبايدر القزمة لديها في الواقع لغة مشتركة. وهذا ليس كل شيء. فبعض كائنات الأوكتوسبايدر القزمة تعرف نحو ثماني لغات مختلفة من لغات الأجناس الميكروسكوبية. آرشي نفسه يستطيع التواصل مع أربعين جنسًا آخر، خمسة عشر منها باستخدام ألوان كائنات الأوكتوسبايدر الأساسية، والباقي باستخدام مجموعةٍ من اللغات تتضمن الإشارات والمواد الكيميائية، وأجزاء أخرى من سلسلة الألوان الكهرومغناطيسية.»

وقف ريتشارد صامتًا لدقيقة في وسط الغرفة. ثم قال: «هذا أمر لا يصدق يا نيكول، فعلًا لا يصدق.»

وكان على وشك أن يبدأ حديثه الذاتي مرة أخرى، عندما سألته نيكول عن طريقة تواصل كائنات الأوكتوسبايدر العادية مع الكائنات القزمة. قالت: «لم أرَ قط أي أنماط ألوان على رءوس الكائنات القزمة اليوم؟»

أجابها ريتشارد وهو يعود ليقطع الغرفة بخطوات سريعة مرة أخرى: «يدور الحوار بالكامل بينها بالألوان فوق البنفسجية.» وفجأة استدار وأشار إلى منتصف جبهته. وقال: «نيكول، إن تلك العدسة في منتصف الشق لديها تلسكوب حقيقي، قادر على تلقي المعلومات بأي طول موجي. إنه أمر مذهل. تمكنت الأوكتوسبايدر بطريقة ما من تنظيم جميع أشكال الحياة هذه في نظام تكافلي كبير، يفوق تعقيده أي شيء يمكننا استيعابه على الإطلاق ...»

جلس على الأريكة بجوار نيكول. وقال وهو يُريها ذراعَيه: «انظري، لم يَزُل أثر القشعريرة بعد. إن هذه الكائنات تبهرني ... من الجيد أنها ليسَت عدائية.»

نظرَت نيكول إلى زوجها وهي تقطب جبينها. وقالت: «لمَ تقول هذا؟»

«بإمكانهم حشد جيشٍ من مليارات أو تريليونات الجنود. أراهنك أن بإمكانها أن تتحدث إلى نباتاتها! رأيت بنفسك كيف أخافت ذلك الشيء في الغابة بسرعة ... تخيلي ما سيكون عليه الوضع لو كان عدوك يستطيع التحكم في البكتيريا والفيروسات ويجعلها تطيعه. يا لها من فكرة مخيفة!»

ضحكت نيكول وقالت: «ألا تظن أن ذهنك ابتعد كثيرًا؟ فكونها صممت جينيًّا مجموعة من آلات التصوير الحية لا يعني بالضرورة ...»

فقال ريتشارد وهو يهب واقفًا من جلسته على الأريكة: «أعلم. لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في التطور المنطقي لما رأيناه اليوم ... نيكول، اعترف لي آرشي أن الغرض الوحيد من تلك الكائنات القزمة هو التعامل مع عالم الكائنات المتناهية الصغر. فتلك الأقزام قادرة على رؤية أشياء في صغر الميكرومتر، أي واحد على ألف من المِلِّيمتر ... والآن طبقي هذه الفكرة على مقادير أسية عديدة. تخيلي أن فصيلة تتضمن أشكالها أربع أو خمس علاقات مشابهة للعلاقة بين كائن الأوكتوسبايدر العادي والقزم. حينها لن يكون التواصل مع البكتيريا أمرًا مستحيلًا.»

قالت نيكول في هذه اللحظة: «ريتشارد، أليس لديك ما تقوله حول أن ماكس وإيبونين سيرزقان بولد؟ وأن ابنهما يبدو صحيحًا معافًى؟»

وقف ريتشارد صامتًا لثوانٍ قليلة. ثم قال بخجل: «إنه أمر رائع. أظن أنني يجب أن أزورهما في المنزل المجاور وأهنئهما.»

قالت نيكول وهي تلقي نظرة على واحدة من الساعات الخاصة التي صنعها ريتشارد لهما: «يمكنك على الأرجح أن تنتظر حتى بعد العشاء.» كانت الساعة تعلن التوقيت الزمني للبشر في إطار زمن الأوكتوسبايدر.

أردفت: «إن باتريك وإيلي ونيكي وبينجي لدى ماكس وإيبونين منذ ساعة، بعد أن مر بهما دكتور بلو ومعه بعض الصور المطبوعة للصغير ماريوس في الرحم.» ثم ابتسمت. وقالت: «وكما يمكن أن تقول أنت: سيعودون إلى المنزل في غضون فينج.»

٣

انتهت نيكول من تنظيف أسنانها، ثم حدقت في صورتها التي تنعكس في المرآة. وقالت في نفسها: «إن جاليليو على حق. أنا امرأة عجوز.»

وبدأت تلمس وجهها بأصابعها، وتدلك بصورة نظامية التجاعيد التي انتشرت في كل مكان. وسمعت صوت بينجي والتوءمين وهم يلعبون في الخارج، ثم نادى عليهم باتريك وناي للدخول إلى المدرسة. وقالت في نفسها: «لم أولد عجوزًا. بل مر عليَّ وقت كنت أذهب فيه أنا أيضًا إلى المدرسة.»

وأغلقت نيكول عينيها وهي تحاول أن تتذكر شكلها عندما كانت فتاة صغيرة. لكنها لم تستطِع أن تستحضر صورة واضحة لنفسها وهي طفلة. بل تداخلت صور كثيرة من السنوات التي تخللت المرحلتين، وشوشت الصورة التي تحتفظ بها نيكول في ذاكرتها لنفسها وهي فتاة صغيرة تذهب إلى المدرسة.

وفي النهاية عادت لتفتح عينيها وتحدِّق إلى الصورة في المرآة. ورسمت في عقلها صورةً لنفسها بعد التخلص من كل التجاعيد والانتفاخات بوجهها. وغيرت لون شعرها وحاجبيها من اللون الأبيض إلى الأسود الداكن. وفي النهاية رأت نفسها فتاة جميلة في الحادية والعشرين من عمرها. فشعرت لوقت قصير بشوق شديد لأيام الشباب. وقالت في نفسها متذكرة: «كنا صغارًا، وكنا نعتقد أننا لن نموت قط.»

أطل ريتشارد برأسه من ركن الحمام. وقال: «سأعمل أنا وإيلي مع هرقل في غرفة المكتب. لم لا تنضمين إلينا؟»

أجابته نيكول: «أمهلني بضع دقائق.» وبينما كانت تضفي بعض اللمسات على شعرها، فكَّرت في نمط الحياة اليومية للبشر في مدينة الزمرد. في الصباح يجتمعون عادةً جميعًا لتناول طعام الإفطار في غرفة طعام منزل عائلة ويكفيلد. ثم تنتهي مدرسة الصغار قبل الغداء. ثم ينام الجميع القيلولة فيما عدا ريتشارد، وهي الطريقة التي يتكيفون بها مع يوم كائنات الأوكتوسبايدر الذي يزيد عن يوم البشر بثماني ساعات. وبعد الظهيرة في معظم الأيام، يكون ريتشارد ونيكول وإيلي مع كائنات الأوكتوسبايدر، يتعلمون المزيد عنها أو يشاركونها خبراتهم عن كوكب الأرض. أما الأربعة الكبار الباقون فيقضون الوقت كله تقريبًا مع بينجي والأطفال في الجزء الخاص بهم في نهاية الطريق المسدود.

ثم وجدت نيكول نفسها فجأة تتساءل: «وإلى أين يأخذنا كل هذا؟ كم عامًا سنكون ضيوفًا على كائنات الأوكتوسبايدر؟ وماذا سيحدث عندما تصل راما إلى وجهتها؟»

جميعها أسئلة لا تعرف لها نيكول إجابة. حتى ريتشارد بدا أنه توقف عن القلق إزاء ما يحدث خارج مدينة الزمرد. إنه مستغرق بكيانه بالكامل مع كائنات الأوكتوسبايدر ومشروع الترجمة الخاص به. وطلب من آرشي أن يمده ببيانات ملاحة فضائية كل شهرين

تقريبًا. وفي كل مرة كان ريتشارد يبلغ الآخرين — دون أي مقدمات — أن راما لا تزال تتجه نحو نجم تاو سيتي.

فكرت نيكول في نفسها: «نحن — مثل الصغير ماريوس — قانعون بحياتنا في هذا الرحم الذي نعيش فيه. وما دام العالم الخارجي لا يفرض نفسه علينا فإننا لا نطرح الأسئلة المربكة.»

تركت نيكول الحمام وسارت في الرواق إلى غرفة المكتب. وجدت ريتشارد يجلس على الأرض بين هرقل وإيلي. كان يقول: «إن الجزء السهل من العملية هو تتبع نمط الألوان وتخزين الترتيب في جهاز المعالجة. أما الجزء الصعب في عملية الترجمة، فهو تحويل ذلك النمط تلقائيًّا إلى جملة مفهومة.»

التفت ريتشارد إلى هرقل ببطءٍ شديد. وقال له: «نظرًا لأن لغتكم رياضية بحتة، وكل لون فيها له نطاق أنجستروم مقبول سابق التحديد، فإن كل ما سيفعله جهاز الاستقبال هو التعرف على تدفق الألوان وعرض الشرائط. ومن ثم نكون قد حصلنا على جميع مكونات المعلومة. ونظرًا لأن القواعد شديدة الدقة، فلن يكون من الصعب صياغة لوغاريتم بسيط للحماية من الخطأ، لاستخدامه مع كائنات الأوكتوسبايدر الصغيرة السن أو التي تتحدث بعدم اكتراث، في حالة حدوث خطأ في أي لون إلى يمين أو إلى يسار سلسلة الألوان.»

«لكن تحويل ألوان كائنات الأوكتوسبايدر إلى كلمات عملية معقدة جدًّا. إن قاموس الترجمة مباشر بصورة كافية. ويمكن بسهولة ترجمة كلمة بكلمة التوضيح المناسبة لها. لكن من المستحيل تقريبًا القيام بالخطوة التالية — ألا وهي تحويلها إلى جمل — بدون تدخل من العنصر البشري.»

علقت إيلي على حديث والدها قائلة: «يرجع هذا إلى أن لغة الأوكتوسبايدر مختلفة في الأساس عن لغتنا. فكل شيء فيها محدد كمًّا وكيفًا لتقليل احتمالات سوء الفهم. لا يوجد فيها مجال للاستنتاج أو اللبس بسبب اختلاف بسيط. انظر كيف يستخدمون الضمائر «نحن» و«هم» و«أنت». فالضمائر دائمًا مميزة بألوان توضيح رقمية، ذات نطاقات مختلفة إذا كان هناك شك. فلن تجد كائن أوكتوسبايدر يقول «بضعة وُدنات» أو «عدة نيليتات»، بل دائمًا ما يستخدم رقمًا، أو نطاقًا رقميًّا لتحديد طول المدة بصورة أدق.»

قال هرقل بألوانه: «من وجهة نظرنا هناك أمران في لغة البشر في غاية الصعوبة. الأول: هو غياب التحديدات الدقيقة، مما يؤدي إلى وجود كم هائل من المفردات. والآخر: هو استخدامكم للأساليب غير المباشرة في التواصل … فلا أزال أجد صعوبة في فهم ماكس لأنه في معظم الوقت لا يعني ما يقوله حرفيًّا.»

وفي تلك اللحظة قالت نيكول لريتشارد: «لا أدري كيف يمكن عمل ذلك على كمبيوترك، لكن بطريقة ما يجب أن تعكس الترجمة جميع المعلومات التي تحدد الكم في كل عبارة من عبارات الأوكتوسبايدر. فتقريبًا كل فعل أو صفة تستخدمها يرتبط بها موضح رقمي. على سبيل المثال كيف ترجمت إيلي عبارة «في غاية الصعوبة» و«كم هائل من المفردات»؟ ما قاله هرقل بلغة الأوكتوسبايدر هو كلمة «صعب» وذكر معها العدد خمسة لتوضيحها وقال «مفردات كثيرة» مع الرقم ستة كتوضيح للفظة «كثيرة». الغرض من جميع الألوان التوضيحية لصفات المقارنة هو توضيح مدى قوة الصفة. ونظرًا لأن نظام الأوكتوسبايدر الرقمي الأساسي ثُماني، فإن نطاق صفات المقارنة يقع بين رقمَي واحد وسبعة. لو أن هرقل استخدم الرقم سبعة لتوضيح كلمة صعب، لكانت إيلي ستترجمها «صعبة بدرجة مستحيلة». أما إذا استخدم الرقم اثنين للتوضيح في العبارة نفسها، فربما تترجمها «صعبة بصورة طفيفة».

فقال ريتشارد وهو شارد الذهن يعبث بجهاز معالجة صغير: «الأخطاء في مدى قوة الصفات — مع أهميتها — لن تؤدي على الإطلاق إلى سوء فهم. لكن الفشل في ترجمة موضحات الفعل بصورة صحيحة موضوع آخر ... كما استنتجت مؤخرًا من الاختبارات المبدئية. فلنأخذ على سبيل المثال الفعل البسيط «يذهب» في لغة الأوكتوسبايدر، وهو يعني كما تعرفون أن يتحرك دون مساعدة، ودون وسيلة نقل. فالشريط الأحمر القاني الأرجواني الأصفر الليموني الذي يتساوى فيه عرض كل لون يعبر عن عشرات الأفعال في اللغة الإنجليزية، بدءًا من الأفعال التي تعني «يسير» إلى «يتجول» و«يتهادى» و«يجري» و«يعدو بسرعة».»

قالت إيلي: «هذه هي النقطة التي كنت أتحدث عنها لتوي. لا توجد ترجمة دون تفسير كامل لجميع ألوان التوضيح. ولهذا الفعل بالتحديد تستخدم الأوكتوسبايدر اثنين من ألوان التوضيح لتحديد السرعة. فإن لديها ثلاثًا وستين سرعة مختلفة لتوضيح سرعة الفعل «يذهب» ... ولتعقيد الأمور أكثر فإنها قد تستخدم لونًا توضيحيًّا للنطاق أيضًا؛ ومن ثم قد تحمل عبارة «هيا بنا نذهب» أكثر من ترجمة.»

فقطب ريتشارد جبينه وهز رأسه.

سألته إيلي: «ما الأمر يا أبي؟»

أجابها: «إنني محبط. إذ كنت آمل أن أنتهي من نسخة مبسطة من المترجم بحلول هذا الوقت. لكنني افترضت أن فحوى ما يقال يمكن تحديده دون الانتباه لجميع ألوان

التوضيح. أما إضافة جميع شرائط الألوان القصيرة، فسيزيد من مساحة الذاكرة المطلوبة ويبطئ من عملية الترجمة كثيرًا. قد لا أتمكَّن أبدًا من تصميم مترجم فوري.»

سأله هرقل: «وما المشكلة في هذا؟ لماذا تهتم لهذه الدرجة بهذا المترجم؟ إن إيلي ونيكول تفهمان لغتنا جيدًا.»

قالت نيكول: «ليس تمامًا. إيلي هي الوحيدة بيننا التي تتقن لغتكم. أما أنا فلا أزال أتعلم الجديد كل يوم.»

أجاب ريتشارد على هرقل قائلًا: «مع أنني بدأت هذا المشروع في الأصل تحديًا ووسيلة لإجبار نفسي على الاعتياد على لغتكم، فقد تحدثت أنا ونيكول الأسبوع الماضي عن أهمية وجود المترجم. فهي تقول — وأنا أوافقها على هذا — إن جماعتنا التي تعيش هنا في مدينة الزمرد تنقسم إلى مجموعتَين. إيلي ونيكول وأنا من ناحية، وقد جعلنا حياتنا أكثر إثارة بسبب زيادة الاحتكاك والتواصل مع جنسكم. أما الباقون ومن ضمنهم الأطفال فلا يزالون منعزلين تقريبًا. وفي النهاية إذا لم يجد الآخرون وسيلةً للتواصل معكم، فإنهم سيصبحون غير راضين وتعساء أو كلَيهما. والمترجم الآلي الجيد هو المفتاح الذي سيفتح آفاقًا جديدة لحياتهم هنا.»

كانت الخريطة مجعدة وممزقة في بضعة أماكن. فساعد باتريك ناي على فردها ببطء، وتثبيتها على حائط غرفة الطعام في منزلها التي تضاعف حجمها لتصبح فصلًا للأطفال.

سألت ناي: «نيكي، هل تتذكرين ما هذه؟»

أجابتها الطفلة الصغيرة: «بالطبع يا سيدة ناي. إنها خريطتنا لكوكب الأرض.»

«بينجي، هل يمكنك أن ترينا أين وُلد والداك وأجدادك؟»

تمتم جاليليو لكيبلر بصوت مسموع: «ليس مجددًا. لن يجيب الإجابة الصحيحة أبدًا. إنه شديد الغباء.»

فجاءه الجواب حادًّا: «جاليليو واتانابي، اذهب إلى غرفتك واجلس على فراشك لمدة خمس عشرة دقيقة.»

قال بينجي وهو يتجه نحو الخريطة: «لا بأس يا ناي. اعتدت الأمر.»

وقف جاليليو — الذي يبلغ سبع سنوات بأعمار أهل الأرض — بجوار الباب ليرى إذا كان عقابه سيُخفف. لكن والدته وبخته قائلة: «ماذا تنتظر؟ أمرتك أن تذهب إلى غرفتك.»

وقف بينجي بهدوء أمام الخريطة لما يقارب عشرين ثانية. وقال في النهاية: «وُلدت أمي هنا في فرنسا.» ثم تراجع مبتعدًا عن الخريطة لوقت قصير، وأشار إلى الولايات المتحدة على الجانب المقابل من المحيط الأطلنطي. ثم قال: «وأبي وُلد هنا في بوسطن في أمريكا.»

همَّ بينجي بالعودة إلى مكانه. لكن ناي حثَّته على الاستمرار قائلة: «ماذا عن أجدادك؟ أين وُلدوا؟»

قال بينجي ببطء: «إن والدة أمي — أي جدتي — وُلدت في أفريقيا.» وحدَّق في الخريطة لعدة ثوانٍ ثم قال: «لكنني لا أتذكر مكانها على الخريطة.»

قالت نيكي الصغيرة على الفور: «أنا أعرف يا سيدة ناي. هل أخبر بينجي؟»

استدار بينجي، ونظر إلى الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسود الحالك. وارتسمَت على محياه ابتسامة. ثم قال: «يمكنكِ أن تخبريني يا نيكي.»

نهضت الطفلة من مقعدها واجتازت الغرفة. ووضعَت إصبعها على غرب أفريقيا. وقالت بفخر: «إن والدة جدتي وُلدت هنا في هذا البلد الأخضر الذي يُطلَق عليه اسم ساحل العاج.»

قالت ناي: «أحسنت يا نيكي.»

قال بينجي: «أنا آسف يا ناي. كنت أستذكر دروس الكسور بجدٍّ ولم يتوفر لديَّ وقت لمذاكرة الجغرافيا.» وتبعت عيناه ابنة أخته ذات السنوات الثلاث وهي تعود إلى مقعدها. وعندما استدار ليواجه ناي مرة أخرى، كانت وجنتاه مبللتَين بالدموع. قال: «ناي، لا أشعر برغبةٍ في الدراسة اليوم ... أظن أنني سأعود إلى منزلي.»

قالت ناي برفق: «حسنًا يا بينجي.» اتجه بينجي إلى الباب. همَّ باتريك بالذهاب إليه، لكن ناي أشارَت له بألَّا يفعل.

خيَّم هدوء غير مريح على غرفة الدراسة لمدة دقيقة تقريبًا. ثم سأل كيبلر في النهاية: «هل حان دوري؟»

أومأت إليه ناي برأسها. فاتجه الصبي إلى الخريطة. وقال: «وُلدت أمي هنا في تايلاند في مدينة لامفون. وهنا أيضًا وُلد والدها. أما جدتي لأمي فوُلدت أيضًا في تايلاند، لكن في مدينة أخرى اسمها شيانج ساين. ها هي بجوار الحدود الصينية.» ثم أخذ كيبلر خطوةً واحدةً إلى الشرق، وأشار إلى اليابان.

قال: «وُلد والدي كينجي واتانابي وأبواه في مدينة كيوتو اليابانية.»

ثم ابتعد الصبي عن الخريطة، وبدا كأنه يجاهد لقول شيء. فسألته ناي: «ما الأمر يا كيبلر؟»

قال الصبي الصغير بعد صمت آلمه: «أمي، هل كان أبي رجلًا سيئًا؟»

قالت ناي مصعوقة: «ماذا؟» ثم انحنت لتصل إلى مستوى ابنها ونظرت في عينيه مباشرة. وقالت: «كان أبوك إنسانًا رائعًا ... كان ذكيًّا وحساسًا ومحبًّا وخفيف الظل؛ شخصًا لا يجود الزمان بمثله. إنه ...»

اضطرت ناي أن تسكت. إذ شعرت أن مشاعرها على وشك الانفجار. فوقفت وحدقت في السقف للحظة، ثم استعادت رباطة جأشها. ثم قالت: «كيبلر، لماذا تسأل هذا السؤال؟ كنت تحب أباك حبًّا جمًّا. كيف أمكنك ...»

«أخبرنا العم ماكس أن السيد ناكامورا من اليابان. ونحن نعرف أنه رجل سيئ. وجاليليو قال إنه نظرًا لأن أبي جاء من المكان نفسه ...»

لكن قاطعته صرخة ناي الهادرة التي أخافت الأطفال: «جاليليو. تعال إلى هنا فورًا.»

فجاء الطفل يركض إلى الغرفة، ونظر إلى أمه نظرة حائرة.

«ماذا قلت لشقيقك عن والدك؟»

قال جاليليو محاولًا أن يبدو بريئًا: «ماذا تقصدين؟»

«أخبرتني أن أبي قد يكون رجلًا سيئًا لأنه جاء من اليابان مثل السيد ناكامورا ...»

«حسنًا، أنا لا أتذكر أبي جيدًا. وكل ما قلته هو أنه من المحتمل ...»

احتاجت ناي كل ما تتمتع به من قدرة على التحكم في النفس كي تمنع نفسها من صفع جاليليو. فأمسكت بالصبي من كتفَيه. وقالت: «أيها الصبي، إذا سمعتك تقول كلمة واحدة ضد والدك مرة أخرى ...»

ولم تستطع إنهاء جملتها. لم تعرف بمَ تهدِّده أو ماذا تقول بعد ذلك. وشعرت فجأةً أن كل ما مرَّت به في حياتها يجتاح كيانها بقوة.

وفي النهاية قالت لولدَيها: «اجلسا من فضلكما، واستمعا إليَّ جيدًا.» ثم أخذت نفسًا عميقًا، وقالت وهي تُشير بيدها: «هذه الخريطة على الحائط توضح جميع البلدان على كوكب الأرض. وفي كل أمةٍ يوجد جميع أنواع البشر، بعضهم سيئ، وبعضهم طيب، وأغلبهم مزيجٌ معقدٌ من الطيبة والشر. فلا يوجد في بلدٍ واحد طيبون فقط أو أشرار فقط. نشأ والدكما في اليابان. وكذلك السيد ناكامورا. وأنا أتفق مع العم ماكس أن السيد ناكامورا رجل شرير جدًّا. لكن كونه شريرًا ليس له علاقة بأنه ياباني. أما والدكما السيد كينجي واتانابي الذي كان يابانيًّا بدوره، فكان من أفضل الرجال. ويؤسفني حقًّا أنكما لا تتذكرانه، ولم تعرفاه على حقيقته ...»

سكتت ناي لدقيقة. ثم قالت بصوت أرق وكأنما تحدِّث نفسها: «لن أنسى والدكما أبدًا. لا أزال أذكره وهو عائد إلى منزلنا في عدن الجديدة في وقت متأخر من اليوم. اعتدتما أنتما الاثنان أن تصيحا في صوتٍ واحد وهو داخل إلى المنزل: «مرحبًا يا أبي، مرحبًا يا أبي.» فكان يقبلني ويرفعكما معًا بين ذراعَيه، ثم يصطحبكما إلى الأرجوحة في الفناء الخلفي للمنزل. وكان دائمًا صبورًا وحنونًا مهما كان يومه مرهِقًا ...»

ثم خفت صوتها تمامًا. وانهمرت الدموع من عينَيها، وشعرت بجسدها بدأ يرتجف. فاستدارت لتواجه الخريطة. ثم قالت: «انتهت الدراسة اليوم.»

بعد مرور نصف ساعة، وقف باتريك بجوار ناي يشاهدان التوءمَين ونيكي يلعبون بكرة زرقاء كبيرة في الطريق المسدود. قالت ناي: «أنا آسفة يا باتريك. لم أتوقع أن ...»

أجابها الشاب: «لم تفعلي شيئًا لتعتذري عنه.»

قالت ناي: «بل فعلت. قبل سنوات وعدت نفسي ألَّا أظهر مثل هذه المشاعر أمام كيبلر وجاليليو. لا يمكنهما أن يفهما.»

قال باتريك بعد صمت قصير: «لقد نسيا الأمر بالفعل. انظري إليهما. إنهما مستغرقان تمامًا في اللعب.»

وفي تلك اللحظة دارت بين الصبيَّين مشاحنة عادية. وكالمعتاد كان جاليليو يحاول أن يكسب الكثير من المميزات في لعبة ليس لها قواعد خاصة. كانت نيكي تقف إلى جوار الصبيَّين تتابع كل كلمة من جدالهما.

نادت ناي عليهم قائلة: «أيها الولدان. كُفَّا عن ذلك. إذا لم تلعبا دون شجارٍ فستدخلان إلى المنزل.»

وبعد ثوانٍ قليلة، كانت الكرة الزرقاء تقفز في الشارع في اتجاه الميدان، والأطفال الثلاثة يركضون وراءها بمرح. سألت ناي باتريك: «هل تود احتساء شراب؟»

«نعم، من فضلك ... هل لا يزال لديك بعض من عصير البطيخ الأخضر الخفيف، الذي أحضره هرقل الأسبوع المنصرم؟ كان شهيًّا للغاية.»

أجابت ناي وهي تنحني نحو الخزانة الصغيرة التي يحتفظون فيها بالمشروبات الباردة. وقالت: «بالمناسبة، أين هرقل؟ لم أرَه منذ عدة أيام.»

ضحك باتريك. وقال: «وظَّفه العم ريتشارد للعمل بدوام كامل في مشروع المترجم. وإيلي وآرشي يقضيان معهما كل يوم بعد الظهيرة.» ثم شكر ناي على العصير.

ارتشفت ناي رشفة من كوب عصيرها وسارت عائدة إلى غرفة المعيشة. وقالت: «أعلم أنك أردت مواساة بينجي هذا الصباح. وتعمدت أن أوقفك لأنني أعرف شقيقك جيدًا. إنه يعتز بكرامته جدًّا. ولا يريد أن يشفق عليه أحد.»

قال باتريك: «فهمت ذلك.»

«أدرك بينجي هذا الصباح إلى حدٍّ ما أن نيكي الصغيرة — التي لا يزال يراها طفلة — سرعان ما ستتفوق عليه في المدرسة. وهذا الإدراك أصابه بصدمة، وذكَّره مرة أخرى بقدراته المحدودة.»

كانت ناي في تلك اللحظة تقف أمام خريطة الأرض التي لا تزال مثبتة على الحائط. وقالت: «لا يوجد شيء على هذه الخريطة يمثل لك أهمية، أليس كذلك؟»

أجابها باتريك: «نوعًا ما. رأيت الكثير من الصور والأفلام بالطبع، وعندما كنت في عمر التوءمين اعتاد أبي أن يحدثني عن بوسطن، وعن لون أوراق الشجر في نيو إنجلاند في فصل الخريف، والرحلة التي قام بها إلى أيرلندا مع والده. لكن ذكرياتي أنا في أماكن أخرى، مثل المخبأ في نيويورك الذي لا تزال ذكرياتي عنه حية، والسنة الرائعة التي قضيناها في النود.» ثم صمت للحظة. وقال: «والرجل النسر! يا له من كائن! إنني أتذكره أكثر مما أتذكر أبي.»

سألته ناي: «هل تعتبر نفسك إذن من أهل الأرض؟»

أجابها باتريك: «هذا سؤال شيق.» ثم أنهى شرابه وأكمل: «أتعلمين! إني لم أفكر في الأمر من قبل ... بالطبع أعتبر نفسي بشريًّا. لكن من أهل الأرض؟ لا أظن هذا.»

مدت ناي يدها ولمست الخريطة. وقالت: «مسقط رأسي هو مدينة لامفون، لو كانت أكبر قليلًا لظهرت هنا جنوب مدينة تشانج ماي مباشرة. في بعض الأحيان لا يبدو لي أنه من الممكن أن أكون قضيت طفولتي هناك.»

دارت أصابع ناي على الخطوط التي تحدد تايلاند وهي تقف بهدوء بجوار باتريك. ثم قالت: «في ليلة سابقة سكب جاليليو كوبًا من الماء على رأسي، عندما كنت أساعدهما على الاغتسال، وفجأةً راودَتني ذكريات حية للغاية عن الأيام الثلاثة التي قضيتها في مدينة تشانج ماي مع أقربائي، عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري ... كان ذلك أثناء مهرجان سونجكران في شهر أبريل، والجميع في المدينة يحتفلون بالسنة التايلندية الجديدة. فكانت هناك مواكب تسير وخطابات تُلقى — والأمور المعتادة عن جميع ملوك سلالة تشاكري، منذ أن أعدَّت مركبة راما الفضائية الأولى الشعب التايلاندي للدور المهم الذي سيقومون به في العالم — لكن أكثر ما أتذكره بوضوح هو التجول في المدينة ليلًا، على ظهر شاحنة

كهربية مع قريبتي أوني وأصدقائها. وفي كل مكان ذهبنا إليه كنا نسكب دلوًا من الماء على أحدهم، وكانوا هم يسكبون علينا دلوًا أيضًا. وكنا نضحك ونضحك.»

سألها باتريك: «ولمَ كان الجميع يسكبون الماء؟»

قالت ناي وهي تهزُّ كتفَيها: «نسيت السبب الآن، الأمر يتعلق بالاحتفال. لكن التجربة نفسها ومشاركة الضحك مع الآخرين، وشعوري وملابسي مبتلة تمامًا، وانهيال دلو آخر من الماء عليَّ فجأة؛ هو ما أذكره بالتفصيل.»

ثم عاد الصمت ليخيم عليهما مرة أخرى، وناي تمد يدها لتنزل الخريطة من فوق الحائط. ثم قالت وهي مستغرقة في التفكير: «أظن أن كيبلر وجاليليو لا يعتبران نفسَيهما من أهل الأرض أيضًا.» ثم لفَّت الخريطة بحرص شديد. وقالت: «وربما تكون دراسة جغرافيا كوكب الأرض وتاريخه مضيعةً للوقت.»

قال باتريك: «لا أظن هذا. فماذا سيدرس الأطفال غير ذلك؟ إلى جانب أننا جميعًا ينبغي أن نعرف من أين أتينا.»

ثم أطلَّت عليهما في غرفة المعيشة ثلاثة وجوه صغيرة من الرواق. سأل جاليليو: «ألم يَحِن موعد الغداء بعد؟»

أجابته ناي: «لقد اقترب.» ثم قالت وهي تسمع أقدامهم الصغيرة تدبُّ على أرض الرواق: «اذهبوا واغتسلوا أولًا ... كلٌّ على حدة.»

ثم التفتت فجأة ورأت باتريك يحدِّق فيها بطريقةٍ غريبة. ابتسمت. وقالت: «أنا سعيدة أنك قضيت معنا هذا الصباح.»

ومدت ذراعَيها وأمسكت بيدَي باتريك بين يدَيها. وقالت وعيناها تلتقي بعينَيه: «كنت نِعم العون لي مع بينجي والأطفال في الشهرَين الأخيرَين. وسيكون من الحمق ألَّا أعترف أنني لم أعُد أشعر بالوحدة، منذ بدأت تأتي إلى هنا كل صباح.»

اقترب باتريك خطوةً منها، لكنها قبضت على يدَيه بحزمٍ ليبقى في مكانه، وقالت برفق: «ليس بعد. لا يزال الوقت مبكرًا للغاية.»

٤

بعد أقل من دقيقةٍ من إعلان مجموعات اليراعات العملاقة في قبة مدينة الزمرد بداية يوم جديد، كانت نيكي الصغيرة في غرفة جدَّيها. كانت تقول: «لاح الصباح يا جدتي. سيأتون من أجلنا قريبًا.»

فاستدارت نيكول على جانبها واحتضنت حفيدتها. وقالت للفتاة المتحمسة: «لا يزال أمامنا ساعتان يا نيكي، جدك لا يزال نائمًا ... لمَ لا تعودين إلى غرفتك وتلعبين بلعبك حتى نستحم؟»

وعندما غادرت الفتاة المحبطة أخيرًا، كان ريتشارد يجلس على الفراش ويحكُّ عينَيه. فقالت له نيكول: «إن نيكي لم تتحدث عن شيءٍ طوال الأسبوع الماضي إلا عن هذا اليوم. إنها دائمًا في غرفة بينجي تنظر إلى الرسم، وأطلقت هي والتوءمان أسماءً على جميع الحيوانات الغريبة.»

ثم مدَّت نيكول يدها لتمسك بفرشاة الشعر بجوار سريرها وهي شاردة الذهن. وتساءلت: «لماذا يصعب على الأطفال الصغار استيعاب مفهوم الوقت؟ فمع أن إيلي صنعَت لها نتيجة، ووضعت خطًّا على كل يومٍ يمر، فنيكي تسألني كل صباح إذا كان «اليوم هو اليوم المنتظر»».

قال ريتشارد وهو ينهض من الفراش: «إنها متحمسة. جميعنا كذلك. وآمل ألَّا نصاب جميعًا بخيبة أمل.»

أجابته نيكول: «كيف ذلك؟ أخبرني دكتور بلو أننا سنرى مشاهد أكثر روعةً من تلك التي رأيتها أنا وأنت عندما دخلنا المدينة للمرة الأولى.»

قال ريتشارد: «أظن أن الحيوانات الغريبة جميعها ستكون بالخارج بأعداد كبيرة. وبالمناسبة هل تفهمين بمَ تحتفل كائنات الأوكتوسبايدر؟»

«إلى حدٍّ ما ... أظن أن أقرب نظير له هو عيد الشكر الذي يُحتفل به في أمريكا. وتطلق كائنات الأوكتوسبايدر على هذا اليوم اسم «عيد النِّعم». إنها تخصص يومًا للاحتفال بجودة حياتها ... أو على الأقل هذا ما شرحه لي دكتور بلو.»

همَّ ريتشارد ليدخل إلى الحمام للاستحمام، لكنه عاد ليطلَّ برأسه إلى الغرفة. وسألها: «هل تظنين أنها دعتنا للمشاركة في هذا اليوم؛ لأنك أخبرتها عن النقاش الذي دار بين أفراد عائلتنا على الإفطار قبل أسبوعَين؟»

«أتقصد عندما قال باتريك وماكس إنهما يتمنيان العودة إلى عدن الجديدة؟»

أومأ ريتشارد برأسه.

أجابته نيكول: «نعم. أظن أن كائنات الأوكتوسبايدر أقنعت نفسها أننا جميعًا سعداء هنا. ودعوتنا لحضور احتفالها جزء من محاولتها دمجنا في مجتمعها.»

قال ريتشارد: «أتمنى لو أنني انتهيت من صنع جميع أجهزة المترجم. فحتى الآن ليس لديَّ سوى اثنين ... ولم أختبرهما بدقة. هل أعطي الثاني لماكس؟»

قالت نيكول وهي تزاحم زوجها على باب الحمام: «ستكون هذه فكرة جيدة.»
سألها: «ماذا تفعلين؟»
أجابته وهي تضحك: «سأنضم إليك، إلا إذا كنت أكبر سنًّا من أن ينضم إليك أحد.»

جاء جيمي من المنزل المجاور ليخبرهم أن العربة التي سيستقلونها جاهزة. وكان جيمي الأصغر بين جيرانهم كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة (فكان هرقل يعيش وحده على الجانب الآخر من الميدان)، وكانت علاقته بالبشر أقل من زملائه. أوضح «راعيا» جيمي — آرشي ودكتور بلو — أن جيمي منخرط إلى حد بعيد في دراسته، وأنه مقبل على مرحلة مهمة في حياته. ومع أن جيمي بدا من النظرة الأولى يشبه كثيرًا كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة البالغة التي قابلتها العائلة بانتظام، فإنه أصغر قليلًا من الآخرين، وكانت الشرائط الذهبية في لوامسه أخف لونًا منها بصورة طفيفة.

ولوقت قصير واجه البشر صعوبة في اختيار الملابس التي سيرتدونها في احتفال الأوكتوسبايدر، لكنهم سرعان ما أدركوا أن ملابسهم ليست ذات أهمية على الإطلاق. فلا يضع أيٌّ من الكائنات الفضائية في مدينة الزمرد شيئًا على جسده، وهي حقيقة علقت عليها كائنات الأوكتوسبايدر كثيرًا. وعندما اقترح ريتشارد ذات مرة — على سبيل المزاح في الأغلب — أن يستغني البشر أيضًا عن ملابسهم وهم في مدينة الزمرد قائلًا: «عندما تكون في روما ...» أدرك الجميع على الفور أهمية الملابس للراحة النفسية للبشر. فقالت إيبونين ملخصة مشاعر الجميع: «لن أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بالخجل الشديد وأنا عارية بينكم، وأنتم أعز أصدقائي.»

سار الوفد المؤلف من عناصر مختلفة؛ أحد عشر بشريًّا وزملائهم الأربعة من كائنات الأوكتوسبايدر في الشارع متجهين إلى الميدان. وكانت إيبونين التي يثقلها الحمل تسير في آخر الموكب ببطء، وهي تضع إحدى يديها على بطنها. فضلت السيدات أن ترتدي ملابس جميلة، حتى إن ناي ارتدت رداءها الحريري التايلندي الملون الذي تزينه ورود زرقاء وخضراء، لكن الرجال والأطفال — فيما عدا ماكس (الذي كان يرتدي قميصه الغريب المميز لسكان جزيرة هاواي الذي احتفظ به لارتدائه في المناسبات الخاصة) — كانوا يرتدون قمصانًا خفيفة وسراويل جينز، التي كانت زيهم المعتاد منذ أول يوم وصلوا فيه إلى مدينة الزمرد.

على الأقل كانت جميع ملابسهم نظيفة. في البداية كان العثور على وسيلة لتنظيف الملابس مشكلة كبيرة لهم. لكن فور أن شرحوا مشكلتهم لآرشي، لم تمر سوى بضعة

أيام حتى قدم لهم كائنات يطلق عليها «درومو» في حجم الحشرات تنظف الملابس تلقائيًّا.

استقلت المجموعة العربة في الميدان. وقبل أن تصل إلى البوابة التي تمثل حدود المنطقة المخصصة للبشر، توقفت وصعد على متنها اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر لم يروهما من قبل. وحاول ريتشارد استخدام مترجمه لترجمة الحوار الذي دار بعد ذلك بين دكتور بلو والوافدين الجديدين. قرأت إيلي الترجمة التي تظهر على شاشة الجهاز وهي واقفة خلف أبيها، وهنأته على دقة الترجمة. كانت الترجمة جيدةً إلى حدٍّ ما، لكن سرعتها كانت بطيئة للغاية، على الأقل بمعدل السرعة العادية التي يدور بها الحوار بين الأوكتوسبايدر. فترجمة جملة واحدة تظهر في الوقت الذي تُقال فيه ثلاث جمل، مما جعل ريتشارد يعيد ضبط الجهاز باستمرار. فإنه بالطبع لن يستفيد كثيرًا من حوار يفقد فيه جملتَين من كل ثلاث جمل.

وفور أن عبروا البوابة، كان المشهد مزيجًا من الأشكال الغريبة والألوان الزاهية. وظلَّت عينا نيكي مفتوحتَين عن آخرهما وهي تسمي مع بينجي والتوءمَين — بالكثير من الصراخ — معظم الحيوانات التي كانت في لوحة الأوكتوسبايدر. كانت الشوارع الواسعة تعجُّ بحركة المرور. فلم يكن هناك الكثير من وسائل المواصلات التي تتحرَّك في كلا الاتجاهَين على قضبان مثل الحافلات الكهربية فحسب، بل أيضًا ظهرَت كائنات من مختلف الأنواع والأحجام تسير على أقدامها، وكائنات تستقل مركبات بإطارات مثل الدراجات العادية والدراجات الأحادية العجلة، ومن حين لآخر تمرُّ مجموعة من الكائنات المختلفة على ظهر نعامصور.

كان ماكس — الذي خرج لأول مرةٍ منذ وصوله من المنطقة المخصصة للبشر — يضمِّن تعليقاته على ما يلاحظه كلمات مثل «تبًّا» و«سحقًا» وغيرها من الألفاظ الأخرى التي طلبت منه إيبونين التخلص منها قبل أن يولد ابنهما. ولم يبدأ ماكس في القلق على سلامة إيبونين، حتى دخلت بعض الكائنات الغريبة الجديدة إلى العربة في أول محطة تتوقف فيها العربة خارج البوابة. اتجه أربعة من الوافدين الجدد على الفور نحو إيبونين، لفحص المقعد الخاص الذي ثبتته كائنات الأوكتوسبايدر لها في أيامها الأخيرة من الحمل. وقف ماكس إلى جوارها ليحميها، وهو يتمسك بأحد القضبان العمودية المنتشرة في العربة التي يبلغ طولها عشرة أمتار.

وكان اثنان من الركاب الجدد من نوع أطلق عليه الأولاد «السلطعونات المخططة»؛ وهي كائنات ملونة باللونين الأحمر والأصفر لها ثماني أرجل في حجم نيكي تقريبًا، ولها

أجساد دائرية مغطاة بصدفة صلبة ولها مخالب مخيفة الشكل. بدأ الكائنان على الفور بحك قرون استشعارهما في إحدى ساقي إيبونين العاريتين أسفل ثوبها. كان الكائنان يشعران بالفضول فقط، لكن الإحساس الغريب الذي راود إيبونين وشكل الكائنين الغريب جعلا فرائصها ترتعد من الخوف. فقام آرشي الذي كان يقف على الجانب الآخر من إيبونين بمدِّ إحدى لوامسه بسرعة، ودفع الكائنَين بعيدًا عنها برفق. فتراجع أحد السلطعونَين المخططَين على أرجله الأربع الخلفية، وحرَّك مخالبه في الهواء أمام وجه إيبونين، وعلى الأرجح قال شيئًا يهدِّد به إيبونين باستخدام قرون استشعاره التي تهتزُّ بسرعة. وبعد لحظةٍ واحدةٍ مد آرشي اثنتَين من لوامسه، ورفع بهما السلطعون العدواني من أرضية العربة ووضعه في الشارع بالخارج.

لكن ذلك المشهد غيَّر من الحالة المزاجية للبشر. ففي حين ترجمت إيلي لماكس وإيبونين شرح آرشي لما حدث، هرع التوءمان إلى ناي يحتميان بها، ومدت نيكي ذراعيها لجدها كي يحملها.

قال آرشي لأصدقائه من البشر: «هذا النوع من الكائنات ليس ذكيًّا، وقد واجهنا صعوبة في التعامل هندسيًّا مع ميوله العدوانية. والكائن الذي أخرجته من العربة بالتحديد تسبب في مشكلات من قبل. والكائن المسئول عن الوصول بأداء هذا النوع من الكائنات إلى المستوى الأمثل علَّم عليه بالفعل، لعلكم لاحظتم النقطتَين الخضراوَين في مؤخرة الصدفة. من المؤكد أن ذلك الانتهاك الأخير سيقضي بفصله.»

عندما انتهت إيلي من الترجمة، تفحص البشر الكائنات الفضائية الأخرى على متن العربة؛ بحثًا عن أي نقاط خضراء أخرى. وعندما تيقنوا أن الكائنات الأخرى مسالمة شعر الكبار ببعض الراحة.

ثم سأل ريتشارد آرشي والعربة تقترب من محطة أخرى: «ماذا قال ذلك الشيء؟»

أجابه آرشي: «إنه رد فعل تهديدي معتاد من الحيوانات التي تتمتع بذكاء محدود. فحركات قرون استشعاره تبث رسالة فظة، ليس بها سوى قدر ضئيل من المعلومات.»

استمرت العربة في اجتياز الشارع الواسع لمدة ثمانية أو عشرة نيليتات، وتوقفت مرتين لاستقبال ركاب إضافيين، بما في ذلك ستة كائنات أوكتوسبايدر ونحو عشرين كائنًا آخر يمثلون خمسة أنواع مختلفة من الكائنات. فهناك أربعة كائنات لونها أزرق أرجواني ذات رءوس نصف دائرية، تبدو وكأنها تحتوي على مخٍّ متموج، جثمَت إلى اليمين قبالة ريتشارد

الذي ظل يحمل نيكي. وتجمعت قرون الاستشعار الثمانية ذات العقد الممتدة لأعلى باتجاه قدم نيكي، وأصبحت متشابكة، كما لو أنها تتواصل. وعندما حركت الفتاة البشرية قدمها حركة خفيفة، تراجعت قرون الاستشعار بسرعة إلى الكتلة الغريبة التي تمثل مجموع أجساد الكائنات الفضائية الغريبة.

بحلول ذلك الوقت كانت العربة مزدحمة للغاية. وقام حيوان لم يره البشر من قبل — وصفه ماكس بعد ذلك بدقة بأنه يشبه السجق البولندي له أنف طويل وست أرجل قصيرة — برفع جسده على أحد القضبان العمودية، وجذب حقيبة النقود الصغيرة التي تحملها ناي بكفَّيه الأماميَّتَين. لكن جيمي تدخل قبل أن يحدث مكروه للحقيبة أو ناي، وبعد بضع ثوانٍ ركل جاليليو الكائن بقوة مما جعله يفقد قدرته على التمسك بالقضيب. وبرر الصبي ذلك بأنه ظن أن الكائن يستعد لاختطاف الحقيبة مرة أخرى. فتراجع الكائن إلى جزء آخر من العربة، وظلَّت عينه الوحيدة مثبتةً بحذر على جاليليو.

فقال ماكس بابتسامةٍ عريضةٍ وهو يداعب شعر الصبي: «من الأفضل أن تتوخَّى الحذر. وإلا فستضع كائنات الأوكتوسبايدر نقطتَين خضراوَين على مؤخرتك.»

اصطفَّت على جانبَي الشارع العريض مبانٍ يتكون بعضها من طابق واحد والآخر من طابقَين، جميعها تقريبًا مزينة بأشكال هندسية ألوانها زاهية، وأكاليل الزهور زاهية الألوان والأوراق تزين أبواب المنازل وأسطحها. وعلى حائط طويل — أخبر هرقل ناي أنه الجدار الخلفي للمستشفى الرئيسية — توجد لوحة جدارية ضخمة مستطيلة الشكل، يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار وطولها إلى عشرين مترًا، تصوِّر أطباء الأوكتوسبايدر وهم يتولون رعاية جرحاهم، ويساعدون كائنات أخرى عديدة تعيش في مدينة الزمرد.

أبطأت العربة قليلًا وبدأت تصعد منحدرًا. ثم عبرت جسرًا يبلغ طوله عدة مئاتٍ من الأمتار، يمتدُّ عبر نهرٍ واسع أو قناة بها قوارب، وكائنات أوكتوسبايدر تمرح وكائنات بحرية أخرى غير معروفة. شرح لهم آرشي أنهم يدخلون وسط مدينة الزمرد، حيث تقام جميع الاحتفالات الكبيرة، وحيث يعيش ويعمل «أهم» القادة. وقال وهو يشير إلى مبنًى ثُماني الأضلاع يبلغ طوله نحو ثلاثين مترًا: «وهناك توجد المكتبة ومركز معلوماتنا.»

وإجابة عن سؤال ريتشارد، قال آرشي إن القناة أو الخندق يحيط «بالمركز الإداري» تمامًا. وقال: «ولا يُسمح إلا لكائنات الأوكتوسبايدر بالدخول إلى هذه المنطقة، فيما عدا المناسبات الخاصة مثل اليوم، أو لغرض رسمي يوافق عليه القادة.»

وقفت العربة في سهل واسع منبسط إلى جوار مبنًى بيضاوي يشبه الاستاد أو قاعة خارجية. قالت ناي لباتريك، بعد أن ترجَّلوا عن العربة، إنها شعرت برُهاب الأماكن المغلقة

في الجزء الأخير من رحلتها أكثر مما شعرت به في أي وقت، منذ أن كانت على متن قطار كيوتو في ساعة الذروة، أثناء رحلتها للقاء عائلة كينجي.

قال باتريك وهو يهزُّ كتفَيه: «على الأقل في اليابان كنت محاطةً ببشر مثلك … أما هنا فالمكان غريب للغاية. شعرت أنهم جميعًا يتفحصونني بأعينهم. فاضطررت أن أغلق عينَي وإلا كنت سأفقد صوابي.»

وعندما ترجَّلوا وبدءوا يتحركون في اتجاه الاستاد، سار البشر في مجموعةٍ محاطين بأصدقائهم الأربعة من كائنات الأوكتوسبايدر، بالإضافة إلى الاثنين الآخَرين اللذَين استقلَّا العربة قبل أن تغادر المنطقة المخصَّصة للبشر. كانت كائنات الأوكتوسبايدر الستة تحمي نيكول والآخرين من حشود الكائنات الحية التي تندفع في جميع الاتجاهات. بدأت إيبونين تشعر بدوارٍ بسبب المناظر التي تراها والروائح التي تستنشقها وكذلك بسبب السير؛ لذا حرص آرشي أن يوقف الموكب كل خمسين مترًا تقريبًا. وفي النهاية عبروا إحدى البوابات، وقادت كائنات الأوكتوسبايدر البشر إلى المكان المخصَّص لهم.

كان هناك مقعد واحد في القسم المخصص للبشر. في الواقع ربما جلست إيبونين على المقعد الوحيد في الاستاد كله. رأى ماكس وباتريك، وهما ينظران حول الجزء العلوي من المدرج باستخدام نظارات ريتشارد المكبرة، كائنات كثيرة تستند إلى الأعمدة الرأسية الثابتة، أو تتمسك بها في كل مكانٍ في المدرج المكشوف ذي الشرفات، ولكن لم تكن هناك أي مقاعد في أي مكان آخر.

كانت الحقائب القماشية التي يحملها آرشي وبعض كائنات الأوكتوسبايدر الأخرى؛ تأسر انتباه بينجي. كانت الحقائب المتماثلة بيضاء اللون تميل إلى الصفرة في حجم حقيبة اليد التي تحملها السيدات. وتتدلَّى مما يمكن أن يطلق عليه مستوى الورك في جسد الأوكتوسبايدر، ومعلقة حول الرأس بشريط بسيط. ولم يحدث من قبل أن رأى أيٌّ من البشر كائن أوكتوسبايدر يضع حلًى. لاحظ بينجي الحقائب على الفور، وسأل آرشي عنها عندما كانا يقفان معًا في الميدان. وافترض بينجي أن آرشي لم يفهم سؤاله في ذلك الوقت، وقد نسي بينجي نفسه الأمر حتى وصل إلى الاستاد، ورأى الحقائب الأخرى المشابهة.

كان آرشي غامضًا على غير عادته عندما شرح الغرض من تلك الحقائب. واضطرت نيكول أن تطلب من الأوكتوسبايدر أن يعيد ألوانه قبل أن تترجم لبينجي ما قيل. قالت له: «يقول آرشي إنها أداة قد يُحتاج إلى استخدامها لحمايتنا في حالة الطوارئ.»

سأل بينجي: «أداة من أي نوع؟» ولكن آرشي كان ابتعد بالفعل لعدة أمتار، وبدأ يتحدث مع أوكتوسبايدر آخر في جزء متاخم لهم.

عُزل البشر عن الكائنات الأخرى بوسيلتين؛ أولًا بشريطين من الحبال المعدنية المشدودة حول الأعمدة الرأسية من أعلاها وأسفلها خارج المكان المخصص لهم، وثانيًا بحمايتهم من كائنات الأوكتوسبايدر (أو «الحراس» كما أطلق عليهم ماكس) الذين تمركزوا في المنطقة الخالية بين الكائنات المختلفة. إلى يمين البشر ظهرت مجموعة من عدة مئات من الكائنات الفضائية التي لديها ست أذرع مرنة، وهي نفس الكائنات التي شيدت السلم الأسطواني أسفل قبة قوس قزح. وإلى يسار وأسفل البشر، على الجانب الآخر من منطقة واسعة خاوية، ما يقرب من ألف من حيوانات بنية اللون قصيرة ممتلئة الجسم، تشبه سحلية الإجوانا لها ذيل طويل مستدق وأسنان بارزة. كانت في حجم القطط المنزلية.

كان واضحًا للعيان أن الاستاد بالكامل مقسمٌ بحدود فاصلة. فكل نوع من الكائنات يجلس مع بني جنسه. والأهم من هذا أنه لم يوجد أي كائنات الأوكتوسبايدر فيما عدا «الحراس» بالجزء العلوي. فالخمسة عشر ألفًا من كائنات الأوكتوسبايدر (وفقًا لتقدير ريتشارد) الحاضرة لتشاهد، تجلس في الجزء السفلي.

فسر آرشي الأمر قائلًا بعدما ترجمت إيلي كلامه: «هناك عدة أسباب للفصل، أولًا سيبثُّ كلام مسئول الأمثلية بثلاثين أو أربعين لغة في الوقت نفسه. وإذا أمعنتم النظر فسترون أن كل جزء منفصل لديه جهاز — ها هو جهازكم على سبيل المثال، وهو ما يطلق عليه ريتشارد مكبر الصوت — يُذيع ما يقال بلغة الكائنات التي تسمعه. ظللنا نعمل على مدار أيام لإعداد الخطاب الذي سيقوله مسئول الأمثلية والترجمة المناسبة. ونظرًا لأن كائنات الأوكتوسبايدر بجميع أشكالها تفهم لغتنا القياسية المعتمدة على الألوان، فإنها جميعًا تجلس في الأسفل حيث لا يوجد جهاز ترجمة ...»

«دعوني أُرِكم ما أتحدث عنه. انظروا إلى هناك»، قالها آرشي وهو يمد إحدى لوامسه، ثم استأنف: «هل ترَون تلك المجموعة من السلطعونات المخططة؟ هل ترون السلكَين الرأسيَّين الضخمين على تلك المنضدة، في مقدمة الجزء الخاص بهم؟ عندما يبدأ مسئول الأمثلية في الحديث ستنشط تلك الأسلاك، وتعرض ما يقول القائد بلغة قرون الاستشعار.»

وعلى مسافة بعيدة في الأسفل، أعلى ما بدا مثل حقل مغمور في استاد على كوكب الأرض، يوجد غطاء كبير به شرائط ملونة معلق من دعامات ملحقة بأسفل الجزء السفلي.

سألت إيلي أباها: «هل يمكنك أن تقرأ المكتوب عليها؟»

قال ريتشارد وهو لا يزال مذهولًا من عظم المشهد الذي يراه: «ماذا؟»

قالت إيلي وهي تشير إلى الأسفل: «هناك رسالة على الغطاء. اقرأ الألوان.»

قال ريتشارد: «صحيح.» وقرأ ببطء: «النعمة هي الطعام والماء والطاقة والمعلومات والتوازن و...» ما الكلمة الأخيرة؟»

قالت إيلي: «أعتقد أن ترجمتها هي «التنوع».»

سألت إيبونين: «ماذا تعني هذه الرسالة؟»

«أعتقد أننا سنكتشف بأنفسنا.»

وبعد بضع دقائق، بعد أن أخبر آرشي البشر أن سببًا آخر لعزل الكائنات المختلفة بعضها عن بعض، يرجع للتأكد من الإحصاءات السكانية التي تجريها كائنات الأوكتوسبايدر، طوى أربعة أزواج من الحيوانات السوداء العملاقة غطاء أرض الاستاد على عمودَين طويلَين سميكَين. وبدأ كل زوجَين عملية الطي من الطرفَين المتقابلَين لمنتصف الساحة، ثم تحركا باتجاه أطراف الاستاد، وهما يلفان الغطاء حول الأعمدة للكشف عن الأرض بأكملها.

وفي الوقت نفسه هبطت مجموعة إضافية من اليراعات من أعلى الاستاد، حتى لا يتمكن كل المشاهدين من رؤية الفواكه والخضراوات والحبوب الوفيرة المجمعة في مئات الأكوام في كلتا نهايتَي الحقل فقط، بل أيضًا رؤية مجموعتي الكائنات المتنوعة التي تجلس في مناطق منفصلة على جانبي وسط الملعب. كانت المجموعة الأولى من الكائنات الغريبة تسير في دائرة كبيرة على سطح عادي يغطيه التراب. وكانت مربوطة بعضها ببعض بحبال من نوع ما. وإلى جوارها حوض كبير من المياه، بداخله ثلاثون أو أربعون نوعًا مختلفًا من الكائنات المربوطة بعضها ببعض أيضًا تسبح في دائرة كبيرة.

وفي منتصف الملعب تمامًا، منصة مرتفعة عن الأرض لا يوجد عليها سوى بعض الصناديق السوداء المتفرقة، وبها منحنياتٌ تهبط في اتجاه المنطقتَين المتاخمتَين. وبينما كان الجميع يشاهدون، خرج أربعة من كائنات الأوكتوسبايدر من الدائرة في حوض السباحة، وصعدوا إلى المنصة. وترك أربعة آخرون المجموعة التي تسير على السطح المغطى بالتراب، وانضموا إلى زملائهم. ثم وقف أحد هؤلاء الثمانية على صندوق في منتصف المنصة، وبدأ يتحدَّث بالألوان.

«لقد اجتمعنا هنا اليوم ...» أجفل البشر عندما سمعوا الصوت يخرج من مكبر الصوت. وبدأت نيكي الصغيرة تبكي. في البداية كان من الصعب للغاية فهم ما يسمعونه لأن الصوت يضغط على كل مقطع لفظي بالطريقة نفسها، والأصوات — مع أنها تُنطق

بحرص — غير صحيحة، كأنها تصدر عن شخص لم يسمع قط أي بشري يتحدث. كان ريتشارد مشدوهًا. وعلى الفور تخلى عن محاولته استخدام مترجمه الفوري، وانحنى لدراسة آلة الأوكتوسبايدر.

استعارت إيلي منظار ريتشارد المعظم حتى تتابع الألوان بسهولة أكبر. ومع أنها اضطرَّت أن تخمن بعض الكلمات التي تصدر بألوان تفوق نطاقها البصري، فقد كان أسهل عليها أن تشاهد بدلًا من التركيز على ما تصدره الأداة الصوتية التي قدمتها كائنات الأوكتوسبايدر.

وفي نهاية المطاف، تمكَّن البشر البالغون من الاعتياد إلى حدٍّ ما على الإيقاع والنطق اللذين يصدرهما الصوت الغريب، وفهموا معظم ما يُقال. وأشار الأوكتوسبايدر مسئول الأمثلية إلى أن الأمور تسير على ما يرام في عالمهم الزاخر بالخيرات، وأن النجاح المستمر لمجتمعهم المتنوع المعقد ينعكس في تنوع أصناف الطعام الموجودة على الساحة. وقال الصوت عبر الآلة: «ما كان من الممكن أن نحصل على هذه الخيرات المتنوعة دون التعاون الوثيق بين الأنواع المختلفة من الكائنات.»

وفي وقت لاحق من حديثه القصير أثنى مسئول الأمثلية على الأداء المتميز للكائنات المختلفة. وذكر أجناسًا عديدة بعينها، فعلى سبيل المثال كان من الواضح أن إنتاج المادة التي تشبه العسل عمل مميز، إذ حلقت نحو اثنتَي عشرة يراعةً عملاقةً فوق الجزء الخاص بالخنافس ذات الأنوف البارزة لبعض الوقت. وبعد مرور ثلاثة فينجات على بدء حديث القائد، شعر البشر بالتعب من مشقة الاستماع إلى ذلك الصوت الغريب، وتوقفوا عن متابعة الحديث تمامًا. لذا شعروا بالدهشة عندما ظهرت اليراعات العملاقة فوق رءوسهم، وقدمتهم إلى الجماهير الفضائية. فتوجهت إليهم آلاف العيون الغريبة لنصف نيليت.

سأل ماكس إيلي التي استمرت في ترجمة الألوان: «ماذا قال عنا؟» كان ماكس يتحدث إلى إيبونين، أثناء الجزء الأخير من حديث مسئول الأمثلية.

«قال إننا جُدُد في المدينة، وإنهم ما زالوا يتعرفون على قدراتنا. ثم ذكر عدة أرقام تصفنا ولا شك بطريقة ما، لم أفهم ذلك الجزء.»

بعد أن قدَّم مسئول الأمثلية نوعَين آخرَين من الكائنات، بدأ يلخِّص النقاط الأساسية في حديثه. وفجأة دوت صرخات نيكي المذعورة على الصوت الغريب وهي تنادي: «أمي، أمي.» فبينما كان كبار البشر مستغرقين بكيانهم في متابعة الحديث والمشهد المحيط بهم، تسلَّقت نيكي فوق الحاجز المنخفض حول الجزء الخاص بهم، ودخلت إلى المساحة المفتوحة التي

تفصلهم عن كائنات الإجوانا. ومن الواضح أن الأوكتوسبايدر هرقل الذي يحرس المنطقة لم يلاحظ ذلك هو الآخر، حيث إنه لم يدرك أن إحدى كائنات الإجوانا قد حشرت رأسها في الفجوة بين الحبلَين المعدنيَّين اللذَين يحيطان بالجزء الخاص بها، وجذبت فستان نيكي بأسنانها الحادة.

وقد أصاب الرعب الذي ملأ صوت الطفلة الجميع بالشلل للحظةٍ فلم يتحرك أيٌّ منهم، فيما عدا بينجي. تحرك بينجي على الفور وقفز فوق الحاجز وهُرع لمساعدة نيكي وهو يضرب الإجوانا على رأسها بكل ما أوتي من قوة. فترك الكائن الفضائي المذعور فستان نيكي. ولكن لم ينته الأمر عندئذٍ. بل تبعته جلبة كبيرة. هُرعت نيكي إلى أمها لترتمي بين ذراعَيها، ولكن قبل أن يصل هرقل أو آرشي إلى بينجي، اقتحم الكائن الفضائي الغاضب بجسده في الفتحة وعبر من خلالها وقفز على ظهر بينجي. صرخ بينجي من الألم الرهيب الذي شعر به عندما غرس ذلك الكائن أسنانه في كتفه، فبدأ بينجي يضرب بجسده محاولًا رمي الكائن عن ظهره. وبعد بضع ثوانٍ سقط الكائن على الأرض فاقد الوعي تمامًا. وعلى ظهره نقطتان خضراوان واضحتان عند النقطة التي يلتقي فيها ذيله بباقي جسده.

حدث كل هذا في أقل من دقيقة. ولم يقاطع حديث القائد، بل لم يشعر أحد بهذه الحادثة، فيما عدا الأجزاء المحيط بهم مباشرة. ولكن نيكي كانت ترتعب من الخوف ولا سبيل لتهدئتها، وجرح بينجي غائر، وإيبونين بدأت تعاني انقباضات. وأسفلهم كائنات الإجوانا الغاضبة تحاول التخلص من الحبال المعدنية المحيطة بها، متجاهلة تهديد كائنات الأوكتوسبايدر العشرة الذين انتقلوا إلى الفراغ بين النوعين المختلفين من الكائنات.

فقال آرشي للبشر إن الوقت قد آن ليرحلوا. ولم يجادله أحد. فاصطحبهم هو إلى خارج الاستاد على عجل وإيلي تحمل ابنتها التي تبكي، ونيكول تضع بعصبية على جرح بينجي مطهِّرًا أخرجته من حقيبتها الطبية.

اعتدل ريتشارد ليستند على مرفقه عندما دخلت نيكول إلى غرفة نومهما. وسألها: «هل هو بخير؟»

قالت نيكول وهي تتنهد بعمق: «أعتقد هذا. ولكني لا أزال قلقة من احتمال وجود كيماويات سامة في لعاب ذلك الكائن. وقد كان الدكتور بلو عونًا حقيقيًّا لي. فقد شرح لي أن كائنات الإجوانا غير سامة، ولكنه يوافق على أننا يجب أن نحترس من احتمال إصابة بينجي بالحساسية ... وسنحدد في اليوم أو اليومَين القادمَين ما إذا كنا نواجه مشكلة.»

«وماذا عن الألم؟ هل هدأ قليلًا؟»

«بينجي يأبى أن يشتكي. أظن أنه فخور بنفسه حقًّا — كما يجب أن يكون — ولا يريد أن يقول شيئًا ينقص من لحظة احتفاله بأنه بطل العائلة.»

صمت ريتشارد لبرهة. ثم سأل: «وماذا عن إيبونين؟ هل لا تزال تعاني انقباضات؟»

«كلا لقد توقفت الانقباضات مؤقتًا. ولكنها إذا وضعت في اليوم أو اليومين القادمين، فإن ماريوس لن يكون الطفل الأول الذي يدفعه الأدرينالين إلى الخروج إلى العالم.»

بدأت نيكول تخلع ملابسها. وقالت: «إن إيلي هي من يعاني أكثر من الجميع ... فتقول إنها أمٌّ سيئة وإنها لن تسامح نفسها أبدًا؛ لأنها لم تراقب نيكي وتحرسها بصورة أفضل ... ومنذ بضع دقائق رددت الكلام نفسه الذي قاله ماكس وباتريك. وكانت تتساءل في صوت عالٍ هل من الممكن أن نعود جميعًا إلى عدن الجديدة ونجرب حظنا مع ناكامورا. «لمصلحة الأطفال» على حسب قولها.»

انتهت نيكول من خلع ملابسها وصعدت إلى الفراش. وقبلت ريتشارد قبلة سريعة ثم وضعت يديها خلف رأسها. وقالت: «ريتشارد، لدينا موضوع خطير هنا ... هل تظن أن كائنات الأوكتوسبايدر «ستسمح» لنا بالعودة إلى عدن الجديدة؟»

فقال بعد صمت قصير: «لا. على الأقل ليس جميعنا.»

قالت نيكول: «أخشى أنني أوافقك الرأي. ولكني لا أريد أن أخبر الآخرين بهذا. ربما من الأفضل أن أطرح السؤال على آرشي مرة أخرى.»

«سيراوغ في الإجابة كما فعل في المرة الأولى.»

رقدا على الفراش متشابكي الأيدي لعدة دقائق. ثم سألته نيكول عندما لاحظت أن عينَيه لا تزالان مفتوحتَين: «ما الذي تفكِّر فيه يا حبيبي؟»

قال: «اليوم. في كل ما حدث اليوم. إني أسترجعه بالكامل في ذهني، كل مشهد لا يصدق فيه. إنني الآن رجل عجوز وذاكرتي ليست قوية كما كانت يومًا، فأحاول استخدام بعض أساليب تنشيط الذاكرة ...»

ضحكت نيكول. وقالت: «أنت لا تصدق. ولكني أحبك على أي حال.»

٥

كان ماكس ثائرًا. قال: «أنا من جهتي لا أريد أن أبقى في هذا المكان دقيقة واحدة أخرى. لم أعد أثق بهم. اسمع يا ريتشارد؛ أنت تعرف جيدًا أنني على حق. هل رأيت السرعة التي

أخرج بها آرشي ذلك الشيء الأنبوبي من حقيبته، عندما قفزت الإجوانا الفضائية على ظهر بينجي؟ لم يتردَّد ثانية في استخدامه. وكل ما سمعته هو صوت فففففف، وعلى الفور كانت تلك السحلية ميتة أو مصابة بالشلل. كان من الممكن أن يفعل الأمر نفسه مع أيٍّ منا إن أسأنا التصرف.»

فقال ريتشارد: «ماكس، أعتقد أنك تبالغ في ردة فعلك.»

«حقًّا؟ وهل أبالغ في ردة فعلي أيضًا عندما أقول إن ما رأيناه أمس أكد في ذهني فقط مدى عجزنا؟»

فقاطعته نيكول: «ماكس، ألا تظن أن هذا أمر يُستحسن أن نناقشه في وقتٍ آخر، عندما لا نكون منفعلين إلى هذه الدرجة؟»

فأجابها ماكس بلهجة قوية: «كلا. لا أظن هذا … أنا أريد مناقشة هذا الأمر الآن، هذا الصباح. لهذا طلبت من ناي أن تقدم للأطفال طعام الإفطار في منزلها.»

فقالت نيكول: «ولكنك لا تقترح بالطبع أن نرحل في هذه اللحظة، وإيبونين على وَشْك أن تضع في أي لحظة.»

فقال ماكس: «بالطبع لا. ولكني أظن أننا يجب أن ننجو بأنفسنا من هنا بمجرد تمكنها من السفر. يا إلهي! ما نوع الحياة التي يمكن أن نحياها هنا على أي حال يا نيكول؟ إن نيكي والتوءمين يرتعدون خوفًا الآن. وأُراهن أنهم لن يرغبوا في الخروج من المنطقة المخصصة لنا لعدة أسابيع، وربما للأبد … وحتى هذا لا يجيب عن السؤال الأكبر: ما الهدف الأساسي من إحضار كائنات الأوكتوسبايدر لنا إلى هنا؟ هل رأيت كل تلك الكائنات في الاستاد أمس؟ ألم يتكون لديك انطباع أنها جميعًا تعمل لدى كائنات الأوكتوسبايدر بطريقة أو بأخرى؟ أليس من المحتمل أن نجد لنا أيضًا مكانًا في نظامها عما قريب؟»

تحدثت إيلي للمرة الأولى منذ أن بدأ الحوار. قالت: «كنت أثق دائمًا بكائنات الأوكتوسبايدر. ولا زلت أثق بها. فلا أعتقد أن لديها خطة خبيثة كي تجعلنا جزءًا من نظامها الكلي بطريقة لا نقبل بها. ومن ناحية أخرى، لقد اكتشفت شيئًا أمس، أو بالأحرى ذكرني به ما حدث أمس. فبوصفي أمًّا تقع على كاهلي مسئولية توفير بيئةٍ لابنتي تنشأ فيها نشأة صحية وتتاح أمامها سبل السعادة … ولكني لم أعُد أظن ذلك ممكنًا هنا في مدينة الزمرد.»

نظرت نيكول إلى إيلي بدهشةٍ وسألتها: «إذن فأنتِ أيضًا تودين الرحيل؟»

«نعم يا أمي.»

دارت نيكول بعينَيها على الجالسين حول المائدة. ورأت في تعبيرات وجه إيبونين وباتريك أنهما يوافقان ماكس وإيلي. فتساءلت: «هل يعرف أيٌّ منكم موقف ناي من هذا الأمر؟»

احمرَّ وجه باتريك خجلًا بعض الشيء، عندما نظر ماكس وإيبونين إليه، كأنهما يتوقعان أن يتولى هو الإجابة عنها. فقال بعد صمت: «لقد تحدثنا في هذا الأمر ليلة أمس. ووجدت ناي مقتنعةً منذ فترة أن الحياة المتاحة أمام الأطفال، وهم معزولون في المنطقة المخصصة لنا، محدودة للغاية بصورة لا تسمح لهم بالنمو. ولكنها قلقة أيضًا لا سيما بعد ما حدث أمس من أن هناك مخاطر كبيرة محدقة بالأطفال، إذا حاولنا أن نعيش خارج المنطقة المخصصة لنا في مجتمع كائنات الأوكتوسبايدر.»

فقالت نيكول وهي تهز كتفَيها: «أظن أن هذا يحسم الأمر. سأتحدَّث إلى آرشي عن رحيلنا في أول فرصة تتسنَّى لنا.»

كانت ناي راوية قصص بارعة. فكان الأطفال يحبُّون أيام الدراسة التي تعفيهم فيها من الأنشطة المدرسية، وتروي لهم قصة. وفي الواقع، كانت ناي تقص عليهم أساطير إغريقية وصينية في أول يومٍ ظهر هرقل لمراقبتهم. وقد أطلق الأطفال هذا الاسم على كائن الأوكتوسبايدر بعد أن ساعد ناي على تغيير ترتيب أثاث الغرفة.

وكان لمعظم القصص التي تقصها ناي عليهم بطل. ونظرًا لأن نيكي كانت لا تزال تتذكر الكائنات الآلية البشرية في عدن الجديدة، فقد كان الأطفال يهتمون أكثر بسماع قصص عن ألبرت أينشتاين، وأبراهام لينكولن، وبنيتا جارسيا أكثر من القصص عن الشخصيات التاريخية، أو الأسطورية التي ليس لديهم أيُّ ارتباطٍ شخصي بها.

وفي صباح اليوم التالي للاحتفال بعيد النِّعم، كانت ناي تقص عليهم كيف استغلت بنيتا جارسيا شهرتها الكبيرة إبان المراحل الأخيرة من الفوضى الكبرى؛ لمساعدة ملايين الفقراء في المكسيك. وقد أثرت قصة شجاعة بنيتا في تحدي حكومة الأقلية والشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات في المكسيك؛ في نيكي التي ورثت عن أمها وجدتها عاطفتهما. فأعلنت أن بنيتا جارسيا هي بطلها.

صحَّح لها كيبلر الذي يتحرَّى الدقة دائمًا: «بطلتك.» ثم قال الصبي بعد مرور ثوانٍ قليلة: «وماذا عنك يا أمي؟ هل كان لديك بطل أو بطلة في صغرك؟»

ومع أن ناي كانت في مدينة كائنات فضائية، وعلى متن سفينة فضائية غريبة عن كوكب الأرض على بعد مسافةٍ سحيقةٍ من مسقط رأسها، مدينة لامفون في تايلاند، فقد

حملتها ذاكرتها مدة خمس عشرة أو عشرين ثانية استثنائية عائدة بها إلى طفولتها، فرأت نفسها بوضوحٍ وهي ترتدي فستانًا قطنيًّا متواضعًا، وتسير حافية القدمَين إلى داخل المعبد البوذي؛ لتعبر عن إجلالها وتقديرها للملكة كاماتيفي. ورأت ناي أيضًا الرهبان في ملابسهم ذات اللون البرتقالي الضارب إلى الصفرة، واعتقدت أنها تستطيع للحظةٍ أن تستنشق رائحة البخور الصاعدة من الدير، أمام تمثال بوذا الأكبر بالمعبد.

فأجابته وهي مأخوذة إلى حد بعيد بتأثير ذكريات الماضي: «نعم، لقد كان لديَّ بطلة ... الملكة كاماتيفي، ملكة هاريبونتشاي.»

فسألتها نيكي: «من هي يا سيدة ناي؟ هل كانت مثل بنيتا جارسيا؟»

فبدأت ناي تقص عليهم: «ليس بالضبط. فالملكة كاماتيفي كانت شابةً جميلة تعيش في مملكة المون في جنوب الهند الصينية قبل ألف عام. وكانت عائلتها ثرية وعلى علاقة وثيقة بملك المون. ولكن كاماتيفي التي كانت على قدرٍ كبيرٍ من العلم لم يتح لسيدة في ذلك الوقت، كانت تتوق إلى القيام بشيء مختلف وغير تقليدي. وذات يوم عندما كانت في التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها زار عرافٌ المملكة ...»

فسألها كيبلر: «ما معنى عراف يا أمي؟»

فابتسمت ناي. وأجابت: «شخص يتوقع المستقبل، أو على الأقل يحاول ذلك.

على أي حال، قال هذا العرَّاف للملك إن هناك أسطورة قديمة تقول إن شابة جميلة من نسل المون كريمة الأصل، ستذهب إلى الشمال عبر الغابات إلى وادي هاريبونتشاي، وتقوم بتوحيد جميع القبائل المتناحرة في هذه المنطقة. وقال ذلك العرَّاف أيضًا إن هذه السيدة ستؤسِّس مملكةً تضاهي في عظمتها عظمة مملكة المون، وستشتهر في أمصارٍ كثيرة بحكمها الرشيد. وقد روى العراف هذه القصة في أثناء مأدبة مقامة في بلاط الملك، وكانت كاماتيفي تستمع إليه. فعندما انتهت القصة، تقدمت الشابة إلى ملك المون وأخبرته أنها لا بد أن تكون هي السيدة التي تتحدث عنها الأسطورة.

ورغم معارضة والدها، قبلت كاماتيفي ما قدمه لها الملك من نقود ومؤن وأفيال، مع أن الطعام كان سيكفيها فقط للأشهر الخمسة التي ستقطعها عبر الغابة إلى أرض هاريبونتشاي. وكانت تعلم أنه إذا لم تقبل قبائل الشمال بها ملكة لهم، ستُجبر على بيع نفسها كجارية. ولكن الخوف لم يزر نفسها ولو لحظة واحدة.

وبالطبع تحققت الأسطورة وقبلتها قبائل الوادي ملكة لها، وحكمت هي سنوات طويلة فيما يعرف في التاريخ التايلندي بالعصر الذهبي للهاريبونتشاي. وعندما تقدم

العمر بكاماتيفي، قسمت مملكتها بدقة إلى قسمَين متساويَين ومنحتهما لابنَيها التوءمَين. ثم اعتزلت العالم إلى دير بوذي لتتعبد فيه وتشكر الرب على محبته وعنايته. قد ظلت كاماتيفي محتفظةً برجاحة عقلها وبصحتها، حتى ماتت عن تسعة وتسعين عامًا.»

ولأسباب لم تفهمها ناي، شعرت بأن عاطفة جياشة تجتاحها وهي تحكي القصة. وعندما انتهت منها، كانت لا تزال ترى في عقلها صورة اللوحات على جدران المعبد في لامفون التي تجسد حكاية كاماتيفي. وقد كانت ناي مستغرقة بكل كيانها في قصتها، حتى إنها لم تلاحظ أن باتريك ونيكول وآرشي قد دخلوا جميعهم إلى الفصل، وجلسوا على الأرض خلف الأطفال.

بعد عدة دقائق قال آرشي ونيكول تترجم ما يقول: «لدينا الكثير من القصص المشابهة التي نقصها نحن أيضًا على صغارنا. ومعظمها قصص قديمة للغاية. ولكن هل هي حقيقية؟! هذا الأمر لا يهم أي أوكتوسبايدر في الواقع. فهذه القصص تسلي الأطفال وتعلمهم وتلهمهم.»

فقالت ناي لآرشي: «أنا واثقة أن الأطفال سيحبون سماع إحدى قصصكم. في الواقع جميعنا سنحب ذلك.»

لم يقل آرشي شيئًا لبرهة. وكان سائل عدساته شديد النشاط يتحرك جيئة وذهابًا، وكأنه يفحص بدقة البشر المحدقين به. وفي النهاية، بدأت الشرائط الملونة تتدفَّق من الشق وتدور دورةً كاملةً حول رأسه الرمادي. ثم بدأ يروي: «في سالف العصر والأزمان، في عالم بعيد يتمتع بموارد وفيرة وجمال يفوق الوصف، كانت جميع كائنات الأوكتوسبايدر تعيش في محيطٍ شاسع. وعلى اليابسة كانت هناك كائناتٌ كثيرة أحدها ...»

قاطعته نيكول وقالت له وللآخرين: «أنا آسفة، لا أدري كيف أترجم تتابع الألوان التالي.»

فاستخدم آرشي عدة جمل جديدة محاولًا تعريف الكلمة بأسلوب آخر. فقالت نيكول في نفسها: «تلك التي انقرضت قبل ... حسنًا على الأرجح ليس من الضروري في القصة أن تكون كل كلمة صحيحة مائة بالمائة ... سأطلق عليهم «السلف».»

استمرَّت نيكول في ترجمة ما يقول آرشي: «على يابسة هذا الكوكب الجميل كان هناك الكثير من الكائنات، تفوق عليهم في الذكاء إلى حد بعيد السلف. فقد صمموا مركبات تحلق في الجو واستكشفوا جميع الكواكب والنجوم المجاورة لهم، بل وتعلموا كيف يخلقون حياةً

من مواد كيميائية بسيطة في أماكن لم تكن بها حياة من قبل. وغيروا طبيعة اليابس والمحيطات بمعرفتهم التي لا يتصورها عقل.

وحدث أن قرَّر السلف أن كائنات الأوكتوسبايدر لديها قدرات وإمكانات هائلة غير مستغلة لم يكشف عنها النقاب، في السنوات الطويلة من حياتها في الماء، فبدءوا يعلمون كائنات الأوكتوسبايدر كيف ينمون إمكاناتهم الدفينة ويستغلونها. وبمرور السنوات، أصبحت كائنات الأوكتوسبايدر، بفضل السلف، هي ثاني أذكى كائنات على الكوكب ونشأت بينهم وبين السلف علاقات معقدة ووثيقة.

وفي أثناء ذلك، ساعد السلف كائنات الأوكتوسبايدر على تعلُّم العيش خارج المياه، عن طريق استخلاص الأكسجين من هواء الكوكب الجميل مباشرة. فبدأت مستعمرات كاملة من كائنات الأوكتوسبايدر تقضي حياتها بأكملها على اليابسة. وفي يوم من الأيام، بعد لقاء مهم بين قادة السلف وقادة كائنات الأوكتوسبايدر، أُعلن أن جميع كائنات الأوكتوسبايدر ستصبح كائنات برية وستتخلى عن مستوطناتها في المحيطات.

وهناك على عمق سحيق من سطح البحر، كانت هناك مستوطنة واحدة صغيرة من كائنات الأوكتوسبايدر، لا يزيد تعداد سكانها عن ألف نسمة، يديرها مسئول تطوير محلي رأى أن كبار قادة الجنسَين لم يحسنوا اتخاذ القرار. فعارض الإعلان، مع أن الآخرين نبذوه هو ومستوطنته، ولم يكن لهم نصيب في الهبات السخية التي كان السلف يقدمونها، واستمر هو والكثير من الأجيال التي تبعته في العيش في عزلتهم وحياتهم البسيطة في قاع المحيط.

ثم حدث أن حلت نكبة مروعة على الكوكب، وأصبح من المستحيل العيش على اليابسة. فماتت الملايين والملايين من الكائنات، ولم ينجُ سوى كائنات الأوكتوسبايدر التي ظلت تعيش تحت الماء، طوال آلاف السنوات التي أتت فيها النكبة على الأخضر واليابس على سطح الكوكب.

وأخيرًا، عندما عادت الحياة إلى الكوكب، وغامر عدد قليل من كائنات الأوكتوسبايدر التي عاشت في المحيط بالخروج إلى اليابسة، لم يجدوا أحدًا من جنسهم، ولا من السلف. لقد كان لدى ذلك مسئول الأمثلية المحلي الذي عاش قبل آلاف السنوات قدرةٌ على تبصر المستقبل. ولولا تصرفه ذلك، لانقرضت جميع كائنات الأوكتوسبايدر. ولهذا حتى اليوم لا تزال كائنات الأوكتوسبايدر الذكية تحتفظ بقدرتها على العيش في البر والبحر.»

أدركت نيكول في بداية القصة أن آرشي كان يسرُّ إليهم بشيءٍ يختلف تمامًا عن أي شيءٍ أخبرهم به من قبل. هل كان ذلك بسبب الحوار الذي دار بينهم صباح ذلك اليوم،

عندما أخبرت آرشي أنهم يريدون العودة إلى عدن الجديدة في أسرع وقت بعد أن يولد ابن آل باكيت؟ لم تكن متيقنة من هذا. ولكنها كانت تعرف أن الأسطورة التي قصها عليهم آرشي تخبرهم أشياء عن كائنات الأوكتوسبايدر، ما كان البشر ليكتشفوها بأي صورة أخرى.

فقالت نيكول وهي تمس آرشي برفق: «لقد كانت رائعة حقًّا. لا أعرف إذا كان الأطفال قد استمتعوا بها ...»

فقال كيبلر: «أعتقد أنها قصة رائعة. لم أكن أعرف أنه بإمكانكم التنفس تحت الماء.»

قالت ناي: «بالضبط مثل الطفل وهو جنين في رحم أمه.» في تلك اللحظة اندفع ماكس باكيت وهو منفعل إلى الغرفة.

قال: «تعالَي بسرعة يا نيكول. لا يفصل الانقباضات عن بعضها سوى أربع دقائق فقط.»

التفتت نيكول إلى آرشي وهي تنهض. وقالت: «رجاءً، أخبر الدكتور بلو أن يحضر مهندس التصوير ونظام رباعيات الأطراف المُصورة. بسرعة!»

كان من المذهل حقًّا مشاهدة عملية ولادة من الخارج والداخل في الوقت نفسه. وكانت نيكول تعطي تعليماتٍ لكلٍّ من إيبونين والأوكتوسبايدر مهندس التصوير عبر الدكتور بلو. فكانت تهتف لإيبونين: «تنفسي، يجب أن تتنفسي أثناء الانقباضات.» وتقول للدكتور بلو: «حركهم إلى مكان أقرب، إلى أسفل قناة الولادة، وزد الإضاءة قليلًا.»

كان ريتشارد مبهورًا للغاية بما يرى. حيث كان يقف بعيدًا عند أحد أركان غرفة النوم، وعيناه تتنقلان جيئة وذهابًا بين الصور على الحائط وكائني الأوكتوسبايدر ومعداتهما. وكان ما يظهر في الصور يُعرَض متأخرًا بمعدل انقباضةٍ كاملة عما يحدث على الفراش. وفي نهاية كل انقباضة، كان الدكتور بلو يعطي نيكول قطعة لاصقة صغيرة دائرية الشكل؛ لتلصقها على الجزء الداخلي من أعلى فخذ إيبونين. وفي غضون ثوانٍ، تسرع طفيليات التصوير الضئيلة التي كانت داخل جسد إيبونين، خلال الانقباضة الأخيرة إلى القطعة اللاصقة، وتتسلق الطفيليات الجديدة منها إلى قناة الولادة. وتظهر مجموعة أخرى من الصور على الحائط بعد تأخير يستغرق عشرين أو ثلاثين ثانية لمعالجة البيانات.

أما ماكس، فقد كان يقود الجميع إلى حافة الجنون. عندما كان يسمع صرخة إيبونين أو أنينها، كما كانت تفعل من حين إلى آخر قرب ذروة كل انقباضة، يسرع إلى جوار الفراش ويمسك بيدها. ويقول لنيكول: «إنها تتألم بشدة يا نيكول. يجب أن تفعلي شيئًا لمساعدتها.»

وبين الانقباضات عندما كانت إيبونين تقف إلى جوار الفراش بناءً على نصيحة نيكول؛ كي تجعل الجاذبية الصناعية تساعدها في عملية الولادة، كانت حالة ماكس تسوء أكثر فأكثر. فصورة ابنه الذي لم يولد بعد وهو محشور في قناة الولادة يجاهد للخروج بعناء من ضغط الانقباضة السابقة؛ تجعله يفقد صوابه. وقال ماكس بعد انقباضة أكثر حدة من سابقاتها: «يا إلهي، انظروا، انظروا. رأسه عالق. اللعنة، لا توجد مساحة كافية له. لن تكتب له الحياة.»

قبل لحظات قليلة من خروج ماريوس كلايد باكيت إلى العالم، اتخذت نيكول قرارَين مهمَّين. أولًا، قررت أن الصبي لن يولد دون قدر من المساعدة. وسيكون من الضروري أن تفتح جزءًا بسيطًا في قناة الولادة حتى تهدئ من الألم وتخفف من التمزق المصاحبين للولادة. وثانيًا، يجب أن يخرج ماكس من غرفة النوم قبل أن يفقد رشده تمامًا، ويفعل شيئًا قد يعيق عملية الولادة.

قامت إيلي بناءً على طلب نيكول بتعقيم المشرط. فنظر ماكس إلى المشرط وعيناه متسعتان عن آخرهما. وسأل نيكول: «ماذا ستفعلين بهذا الشيء؟»

فقالت نيكول بهدوء في الوقت الذي شعرت فيه إيبونين بقدوم انقباضة أخرى: «ماكس، إنني أحبك جدًّا، ولكني أريدك أن تغادر هذه الغرفة، من فضلك. ما سأفعله الآن سيسهل مجيء ماريوس، ولكنه لن يبدو جيدًا ...»

لم يتحرك ماكس من مكانه. فوضع باتريك الذي كان يقف عند باب الغرفة يده على كتف صديقه، وإيبونين تبدأ في الأنين مرة أخرى. كان رأس الطفل يضغط بوضوح على الفتحة المهبلية. فبدأت نيكول تجري الفتح بالمشرط. فصرخت إيبونين في ألم. وجنَّ جنون ماكس الذي صاح بمجرد أن رأى الدماء: «لا. لا ... اللعنة ... اللعنة.»

فصاحت نيكول بحزم آمر وهي تنتهي من إجراء الفتح: «الآن ... اخرج الآن.» كانت إيلي تمسح الدماء بأسرع ما يمكنها. فأدار باتريك ماكس باتجاهه واحتضنه وقاده إلى غرفة المعيشة.

فحصت نيكول الصورة على الحائط بمجرد ظهورها. ووجدت أن ماريوس الصغير في وضعٍ ممتاز. ففكرت في نفسها برهة قصيرة: «يا لها من تكنولوجيا رائعة! إنها ستغير عملياتٍ الولادة بالكامل.»

ولكن لم يكن لديها وقت للاسترسال في أفكارها. فقد كانت انقباضة جديدة تبدأ. مدت نيكول يدها وأمسكت بيد إيبونين. وقالت: «قد تكون هذه هي انقباضة الولادة. أريدك

أن تدفعي بكل ما أوتيت من قوة. طوال الانقباضة بأكملها.» وأخبرت نيكول الدكتور بلو أنهم لن يحتاجوا إلى مزيد من الصور.

صرخت نيكول وإيلي معًا: «ادفعي.»

ظهرت قمة رأس الطفل. ورأوا خصلات صغيرة من الشعر البني الفاتح.

فقالت نيكول: «مرة أخرى. ادفعي مرة أخرى.»

فقالت إيبونين وهي تنتحب: «لا أستطيع.»

«بل يمكنك ... ادفعي.»

قوست إيبونين ظهرها والتقطت نفسًا عميقًا، وبعد لحظاتٍ اندفع ماريوس الوليد بين يدَي نيكول. وكانت إيلي جاهزةً بالمقص لقطع الحبل السري. وبدأ الطفل يبكي بصورة طبيعية دون الحاجة إلى حثِّه على ذلك. فهرول ماكس إلى الغرفة.

أنهت نيكول مسح السوائل المتخلفة وربطت الحبل السري، وأعطت الوليد لأبيه الفخور. وقالت: «لقد وصل ابنك.»

قال ماكس المرتبك الذي شع وجهه سعادة: «يا إلهي ... يا إلهي ... ماذا أفعل الآن؟» وكان يحمل الطفل وكأنه هشٌّ كالزجاج ونفيس كالماس.

فقالت نيكول وهي تبتسم: «يمكنك أن تقبله. وستكون هذه بداية جيدة.»

فأحنى ماكس رأسه وقبَّل ماريوس برفق. فقالت إيبونين: «ويمكنك أن تحضره إلى هنا للقاء أمه.»

انهمرت دموع السعادة لتغرق وجنتي الأم الجديدة، عندما نظرت إلى ابنها عن قرب للمرة الأولى. ساعدت نيكول ماكس كي يضع الطفل على صدر إيبونين. ثم قال ماكس وهو يعتصر يد إيبونين: «آه يا فرنسيتي الجميلة، كم أحبك ... كم أحبك حبًّا جمًّا.»

هدأ ماريوس — الذي كان يبكي دون توقف منذ لحظة ولادته — عندما استقر في مكانه الجديد فوق صدر أمه. وأخذت إيبونين تربت بحنان بيدها الأخرى على وليدها الجديد. وفجأة انفجرت عينا ماكس بالدموع. وقال: «شكرًا لك يا حبيبتي إيبونين. شكرًا لك يا نيكول. شكرًا لك يا إيلي.»

وأخذ ماكس يشكر كل من في الغرفة مرارًا وتكرارًا وكائني الأوكتوسبايدر معهم. وللدقائق الخمس التالية، كان ماكس عبارةً عن آلة حية للعناق. فلم ينجُ من أحضانه المتنَّة أحد ولو كائني الأوكتوسبايدر.

٦

طرقت نيكول برفق على الباب، ثم أطلت برأسها داخل الغرفة. وقالت: «معذرة. هل يوجد أحد مستيقظ هنا؟»

تقلب كلٌّ من إيبونين وماكس، ولكن دون أن يفتح أيهما عينيه لتحية نيكول. في حين كان ماريوس الصغير نائمًا نومًا هنيئًا بين أبوَيه. وبعد برهةٍ تمتم ماكس: «كم الساعة الآن؟»

فقالت نيكول: «خمس عشرة دقيقة بعد الموعد المحدد لفحص ماريوس. سيعود الدكتور بلو بعد قليل.»

تأوه ماكس ووكز إيبونين بمرفقه. وقال لنيكول: «ادخلي.» كان ماكس يبدو مرهقًا للغاية. وكانت عيناه حمراوين ومنتفختين وأسفلهما متورم. سألها وهو يتثاءب: «لماذا لا ينام الرضع أكثر من ساعتين متواصلتين؟»

وقفت نيكول على الباب. وقالت: «بعضهم يفعل يا ماكس ... ولكن هذا الأمر يختلف من طفل لآخر. فبعد الولادة مباشرة، يتبع الأطفال عادةً الوتيرة نفسها التي كانوا يشعرون معها بالراحة وهم في الرحم.»

اعتدلت إيبونين بصعوبة. وقالت: «علام المشتكى؟ ما عليك سوى الاستماع إلى بعض البكاء وتغيير الحفَّاظة من حين لآخر، ثم تعود لتنام ... أما أنا فيجب أن أظل مستيقظة وهو يرضع ... هل حاولت قط أن تنام وهناك طفل صغير يرضع من ثدييك؟»

فقالت نيكول وهي تضحك: «ما هذا؟ هل فقد الوالدان الجديدان فرحتهما بالمولود بعد أربعة أيام فقط؟»

فقالت إيبونين وهي ترغم نفسها على الابتسام وهي ترتدي ملابسها: «ليس صحيحًا. ولكن يا إلهي! كم أنا متعبة!»

فقالت نيكول: «هذا طبيعي. لقد مر جسدك بعملية كبيرة. تحتاجين إلى الراحة. وكما أخبرتك أنت وماكس بعد ميلاد ماريوس بيومٍ واحد، عندما أصررتما على إقامة حفل، أن الطريقة الوحيدة كي تحصلي على كفايتك من النوم في أول أسبوعَين، هي أن تكيفي جدولك اليومي مع جدوله.»

فقال ماكس: «أنا أوافقك.» ثم ترنح مغادرًا الغرفة ومعه ملابسه متجهًا إلى الحمام.

نظرت إيبونين إلى الحفَّاظة المستطيلة الشكل، ذات اللون الأزرق الفاتح التي أخرجتها نيكول لتوها من حقيبتها. وقالت: «هل هذه واحدة من الحفَّاظات الجديدة؟»

فأجابتها نيكول: «نعم. لقد أدخل مهندسو كائنات الأوكتوسبايدر بعض التحسينات الإضافية عليها. وبالمناسبة لا يزال عرضهم الخاص بكائنات التنظيف مطروحًا. إنهم لا يملكون شيئًا للتعامل مع بول ماريوس، ولكن طبقًا لحساباتهم مع وجود هذه الكائنات فإنه سيتغوط فقط ...»

فقاطعتها إيبونين: «يعارض ماكس الفكرة تمامًا. ويقول إن الصبي الصغير لن يكون فأر تجارب لكائنات الأوكتوسبايدر.»

فعقبت نيكول: «لن أصف الأمر بالتجربة. فكائنات التنظيف الخاصة التي صمموها، ما هي إلا نسخة معدلة تعديلًا طفيفًا من الكائنات التي تنظِّف حماماتنا منذ ستة أشهر. ثم فكري في المتاعب التي ستتجنبينها ...»

فقالت إيبونين بحزم: «لا، ولكن اشكري كائنات الأوكتوسبايدر على أي حال.»

عندما عاد ماكس، كان يرتدي ملابسه التي سيقضي بها اليوم، ولكنه لم يحلق ذقنه بعد. فقالت له نيكول: «ماكس، أريد أن أخبرك بأمر قبل أن يعود الدكتور بلو. لقد دار أخيرًا بيني وبين آرشي حوار طويل حول رحيلنا إلى عدن الجديدة. وعندما شرحت لآرشي أننا جميعًا نريد الرحيل، وحاولت إعطاءه بعض الأسباب لهذا، قال إنه ليس من سلطته الموافقة على رحيلنا.»

فسألها ماكس: «ماذا يعني هذا؟»

«قال آرشي إنه أمر يرجع إلى مسئول الأمثلية.»

فقال ماكس: «آها! إذن لقد كنت محقًّا طوال هذه الفترة. إننا سجناء هنا ولسنا ضيوفًا.»

«كلا، ليس كذلك إن كنت قد فهمت ما قاله آرشي فهمًا صحيحًا. لقد أخبرني أن هذا الأمر «يمكن الإعداد له إذا كان ضروريًّا» ولكن مسئول الأمثلية وحده يفهم «جميع العوامل» المتعلقة بالموضوع بصورة كافية تجعله يتخذ قرارًا مدروسًا.»

فقال ماكس متذمرًا: «المزيد من هراء كائنات الأوكتوسبايدر.»

فأجابته نيكول: «لا أظن هذا. فقد شجعني هذا الحديث في الواقع ... ولكن آرشي قال إننا لن نستطيع تحديد موعد للاجتماع مع مسئول الأمثلية، حتى تنتهي «مراسم الاختيار» ... هذا ما كان جيمي منشغلًا به طوال الوقت. ومن الواضح أنها تقام كل عامين تقريبًا وتحضرها المستوطنة بالكامل.»

فسأل ماكس: «ومتى تنتهي مراسم الاختيار هذه؟»

«بعد أسبوع. وقد تلقيت أنا وريتشارد وإيلي دعوة للمشاركة في بعض فعاليات المراسم الليلة ... ويبدو الأمر مثيرًا للاهتمام.»

فقالت إيبونين لماكس: «لن أستطيع أنا وماريوس الرحيل قبل عدة أسابيع على أي حال. لذا لن يضيرنا الانتظار أسبوعًا واحدًا.»

في تلك اللحظة، طرق الدكتور بلو الباب. ثم دلف إلى غرفة النوم ومعه الجهاز المتخصص الذي سيستخدم في فحص ماريوس. نظر ماكس بارتياب إلى الحقيبتَين المصنوعتَين من البلاستيك، والحاويتَين لكائناتٍ ملتويةٍ تشبه المكرونة المعدة بحبر حيوان الحبار.

سألها وقد اكفهر وجهه: «ما هذه الأشياء اللعينة؟»

انتهت نيكول من رص أدواتها على المنضدة إلى جوار الفراش. وقالت وهي تبتسم: «ماكس، لمَ لا تذهب إلى الحجرة المجاورة لخمس عشرة الدقيقة القادمة؟»

فعقد ماكس ما بين حاجبَيه. وقال: «ماذا ستفعلون بصغيري؟ هل ستلقونه في الزيت المغلي؟»

فضحكت نيكول وقالت: «لا. ولكن من حين لآخر قد يبدو الأمر وكأننا نفعل ذلك.»

حملت إيلي نيكي الصغيرة واحتضنتها. فتوقفت الفتاة عن البكاء قليلًا. وقالت إيلي: «ستخرج أمك مع جدك وجدتك وآرشي والدكتور بلو. وسنعود بعدما تأوين إلى الفراش. ستكونين بخير هنا مع السيدة ناي وبينجي والتوءمين ...»

فقالت نيكي في صوت حزين: «لا أريد أن أبقى هنا. أريد الذهاب مع أمي.» ثم طبعت قبلة على وجنة إيلي. وتطلعت إليها في ترقب.

وعندما وضعت إيلي الطفلة مرة أخرى على الأرض بعد بضع ثوان، عبس وجه نيكي الجميل وبدأت تنتحب. ثم صرخت عندما سارت أمها متجهة إلى الباب: «لا أريد ...»

هزت إيلي رأسها في أسف، والخمسة يسيرون في اتجاه الميدان. وقالت: «أتمنى لو أعلم ما ينبغي أن أفعله من أجلها. فمنذ تلك الحادثة في الاستاد وهي ملتصقة بي ...»

فقالت نيكول: «قد تكون هذه مرحلة طبيعية. فالأطفال يتغيرون بسرعة كبيرة في سنها. كما أن نيكي لم تعُد هي بؤرة الاهتمام منذ ولادة ماريوس.»

فقالت إيلي بعد بضع ثوان: «أظن أن المشكلة أكبر من هذا.» ثم التفتَت إلى نيكول. وقالت: «للأسف يا أمي أعتقد أن إحساس نيكي بعدم الأمان يرتبط أكثر بغياب روبرت، وليس بوصول ماريوس.»

فقال ريتشارد: «ولكن مرَّ أكثر من عامٍ على رحيل روبرت.»

فأجابته إيلي: «لا أظن أن هذا يصنع فارقًا. فلا بد أن نيكي لا تزال تذكر كيف كان يبدو الأمر، عندما كان لديها والدان. والأمر بالنسبة إليها على الأرجح كما لو أنني تركتها أولًا ثم تركها روبرت. لا عجب إذن في أنها لا تشعر بالأمان.»

مسَّت نيكول ابنتها برفق. وقالت لها: «ولكن يا إيلي، إن كنت محقة، فلماذا تتصرف الآن فقط بهذا الشكل؟»

فأجابتها إيلي: «لا أعلم عن يقين. ربما ذكَّرتها حادثة الإجوانا بمدى هشاشتها ... ومدى فقدانها لحماية والدها.»

سمعوا صوت بكاء نيكي العالي من خلفهم. فقالت إيلي وهي تتنهد: «أيًّا كان ما يزعجها، أتمنى أن تتخطاه سريعًا. فعندما تبكي بهذا الشكل، أشعر أن سكينًا حادًّا يمزق قلبي.»

لم تكن هناك عربة تنتظرهم في الميدان. وواصل آرشي والدكتور بلو السير متجهين نحو المبنى الهرمي الشكل، حيث يعقد البشر وكائنات الأوكتوسبايدر اجتماعاتهم عادة. وشرح لهم الدكتور بلو قائلًا: «إن هذه أمسية خاصة، وهناك كثير من الأشياء التي يجب أن نطلعكم عليها قبل أن نغادر المنطقة المخصصة لكم.»

سألتها نيكول وهم يدلفون إلى المبنى: «أين جيمي؟ كنت أظن أنه سيذهب معنا. وبمناسبة هذا الحديث، ماذا حدث لهرقل؟ إننا لم نره منذ الاحتفال بعيد النعَم.»

وبينما كانوا يصعدون الدرج معًا إلى الطابق الثاني من المبنى الهرمي، أخبرهم الدكتور بلو أن جيمي مع زملائه المشاركين في مراسم الاختيار ذلك المساء، أما هرقل فقد «تولى مهمة أخرى.»

فقال ريتشارد مازحًا: «يا إلهي، إنه لم يودعنا حتى.»

فاعتذر كائنا الأوكتوسبايدر، اللذان لم يتعلما بعد فهم الدعابات البشرية، عن سوء سلوك هرقل. وذكرا أنه لن يعيش كائن أوكتوسبايدر بعد ذلك بين البشر للمراقبة اليومية.

فسألهما ريتشارد وهو لا يزال يمزح: «هل طرد هرقل من عمله لسبب ما؟» فتجاهل الكائنان سؤاله تمامًا.

ثم دلفوا إلى غرفة الاجتماعات نفسها التي تعرفت فيها نيكول على عملية الهضم لدى كائنات الأوكتوسبايدر. وكانت هناك عدة أوراق ضخمة من الورق الفاخر، أو جلود الحيوانات في ركن الغرفة مواجهة للحائط، وقد خطَّت عليه كائنات الأوكتوسبايدر رسوماتهم ومخططاتهم. وطلب الدكتور بلو من ريتشارد ونيكول وإيلي الجلوس.

ثم قال لهم آرشي: «إن ما سترونه في وقت لاحق الليلة، لم يره من قبلُ أيٌّ كائن غير كائنات الأوكتوسبايدر، منذ إنشاء هذه المستوطنة على متن راما. إننا سنصطحبكم معنا كمحاولةٍ لزيادة كفاءة التواصل بين الجنسَين. ومن المهم أن تفهموا — قبل أن نغادر هذه الغرفة ونتجه إلى «الموطن البديل» — ما سترَونه، وتدركوا السلوك المتوقع منكم.»

واصل الدكتور بلو مضيفًا: «لا يجب تحت أي ظرف أن تقاطعوا المراسم، أو تحاولوا التفاعل مع أي شخص أو أي شيء تجدونه طوال الطريق، سواء في الذهاب أو العودة. ويجب أن تتبعوا تعليماتنا في كافة المواقف. فإذا لم يكن بإمكانكم قبول هذه الشروط أو لا تريدون قبولها، يجب أن تخبرونا الآن ولن نصطحبكم معنا.»

نظر البشريون الثلاثة بعضهم إلى بعض في قلق. وقالت نيكول بعد صمت: «إنكم تعرفوننا جيدًا. وأرجو ألَّا تطالبونا بفعل شيء يخالف قيمنا أو مبادئنا. فلا يمكننا ...»

قاطعها آرشي: «ليس هذا من شأننا. إن كل ما نطلبه منكم ببساطةٍ هو أن تكونوا مشاهدين صامتين، مهما كان ما ترونه أو تمرون به. فإذا شعرتم بالارتباك أو بالخوف، ولم تستطيعوا لسببٍ ما تحديد مكان أيٍّ منا، فالزموا الجلوس أينما كنتم، وضعوا أيديكم إلى جانبكم، وانتظروا حتى نأتي.»

ساد الصمت لحظة قصيرة. ثم استأنف آرشي حديثه: «لا يسعني أن أؤكد لكم أكثر من ذلك على مدى أهمية سلوككم الليلة. لقد اعترض معظم القادة الآخرين عندما طلبت السماح لكم بالحضور. وقد شهدت أنا شخصيًّا والدكتور بلو على قدرتكم على الالتزام.»

فسأله ريتشارد: «هل حياتنا في خطر؟»

فأجاب آرشي: «على الأرجح لا. ولكن من الممكن أن تكون كذلك. وإذا فشلت الأمور الليلة بسبب أي شيء يفعله أحدكم، فأنا لست واثقًا ...» وعلى غير المعتاد من كائنات الأوكتوسبايدر، لم ينهِ آرشي عبارته.

وهنا سألته نيكول: «هل تخبرنا أن طلبنا العودة إلى عدن الجديدة يرتبط على نحوٍ ما بهذا؟»

فقال آرشي: «إن علاقتنا المتبادلة قد وصلت إلى مرحلة مختلفة. وبمشاركتنا إياكم جزءًا حساسًا من مراسم الاختيار، فإننا نحاول الوصول إلى مستوًى جديد من التفاهم. ومن هذا المنطلق، فإن الإجابة عن سؤالكِ هي نعم.»

قضت المجموعة نصف تيرت تقريبًا، أي ساعتَين بتوقيت البشر، في قاعة المؤتمرات. بدأ آرشي بشرح ماهية مراسم الاختيار، فأخبرهم الأوكتوسبايدر أن جيمي ورفاقه قد أتمُّوا

مرحلة المراهقة من حياتهم وهم على وَشْك الانتقال إلى مرحلة البلوغ. وبوصفهم يافعين، كانت هناك قيودٌ مفروضة على حياتهم، ولم يكن مسموحًا لهم أن يتخذوا أي قرارات مهمة. وفي نهاية مراسم الاختيار، سيتخذ كلٌّ من جيمي وكائنات الأوكتوسبايدر الصغار الآخرين قرارًا غاية في الأهمية، قرارًا سيُغير حياتهم تغييرًا جذريًّا. والهدف من مراسم الاختيار، بل جزء كبير من السنة السابقة للبلوغ، هو إمداد مراهقي الأوكتوسبايدر بمعلوماتٍ تساعدهم على اتخاذ ذلك القرار المهم.

وواصل آرشي: «سيتم الليلة نقل جميع اليافعين إلى الموطن البديل لمشاهدة ...»

في البداية لم تعرف أيٌّ من إيلي أو نيكول كيف تترجم إلى الإنجليزية ذلك الشيء الذي سيراه شباب كائنات الأوكتوسبايدر. وفي النهاية، بعد نقاشٍ بينهما وعدد من العبارات التوضيحية من الدكتورة بلو وآرشي، قرَّرت السيدتان أن أفضل ترجمةٍ لما قاله آرشي هي «مسرحية أخلاقية».

حاد الحديث عن الموضوع عدة دقائق تالية، حيث أخذ كلٌّ من الدكتور بلو وآرشي يشرحان، إجابة عن أسئلة البشر، أن الموطن البديل هو منطقة خاصة من عالم كائنات الأوكتوسبايدر ليست أسفل القبة. فقال آرشي: «هناك مستوطنة أخرى جنوب مدينة الزمرد يختلف بها نمط الحياة تمامًا عن نمط حياتنا. يعيش ما يقرب من ألفَين من كائنات الأوكتوسبايدر هناك في الوقت الحالي، بالإضافة إلى حوالَي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف كائن آخرين يمثلون اثني عشر جنسًا من الكائنات المختلفة. حياتهم فوضوية وغير منظمة. فلا توجد فوق رءوس كائنات أوكتوسبايدر الموطن البديل قبة لحمايتهم، وليس لديهم مهام محددة يقومون بها، ولا أنشطة محددة للتسلية، ولا يتاح لهم الوصول إلى المعلومات في المكتبة، وليس لديهم طرقات أو منازل فيما عدا تلك التي بنوها هم لأنفسهم، ويبلغ متوسط أعمارهم عشر متوسط أعمار كائنات الأوكتوسبايدر الطبيعية التي تعيش في مدينة الزمرد تقريبًا.»

تذكَّرت إيلي كيف أن ناكامورا شيد منطقة أفالون، للتعامل مع المشكلات التي يريد سكان المستوطنة في عدن الجديدة نسيانها. وظنَّت أنه قد يكون الموطن البديل مكانًا مشابهًا لها.

فسألت: «لماذا تم إجبار هذا العدد الكبير من أبناء جنسك — أكثر من عشرة بالمائة منهم إذا كانت حساباتي دقيقة — على العيش خارج القبة؟»

فرد الدكتور بلو: «لم يُجبَر أيُّ أوكتوسبايدر طبيعي على العيش في الموطن البديل. إنهم يعيشون هناك لأنهم هم من اختاروا ذلك.»

فسأل البشريون الثلاثة في صوتٍ واحد تقريبًا: «ولكن لماذا؟»

اتجه الدكتور بلو إلى ركن الغرفة وجلب بعض المخططات. استخدم كائنا الأوكتوسبايدر المخططات بصورة مكثفة في أثناء الحوار الطويل التالي. في البداية شرحا لهم أنه قبل مئات الأجيال، توصَّل علماء الأحياء إلى تحديد العلاقة التي تربط بين النشاط الجنسي والعديد من الخصائص السلوكية، أهمها على الإطلاق الطموح الشخصي، والعدوانية، والدفاع عن الموطن، والشيخوخة. وقد توصَّلوا إلى ذلك الاكتشاف، في أثناء فترةٍ من تاريخ كائنات الأوكتوسبايدر، كان قد بدأ فيها التحول إلى نظام التطوير أو الأمثلية الذي يطبقونه. ولكن رغم افتراض موافقة الجميع على تنظيم أفضل من الناحية النظرية لمجتمع كائنات الأوكتوسبايدر، فقد حال نشوب الحروب والنزاعات القبائلية والأعمال الفوضوية الأخرى المستمرة دون هذا التحول. ولذا افترض علماء الأحياء في ذلك الوقت أن مجتمعًا عديم النشاط الجنسي، أو مجتمعًا تكون فيه نسبة ضئيلة فقط هي التي تمارس نشاطًا جنسيًّا، سيكون قادرًا على الالتزام بمبادئ التحول إلى النمط الأمثل، الذي تأتي فيه رغبات الفرد في المرتبة بعد مصلحة المستوطنة بأسرها.

وقد تلا ذلك سلسلة من الصراعات بدا أنها لن تنتهي؛ فأقنعت جميع كائنات الأوكتوسبايدر التي تتطلع إلى المستقبل في تلك الحقبة، أن حلم الحياة المثلى ما هو إلا حلم عبثي ما لم يتوصلوا إلى طريقة أو وسيلة، لمقاومة النزعة الفردية التي تعوق، ولا شك، قبول النظام الجديد. ولكن ما الذي يمكن فعله؟ وتعاقب العديد من الأجيال قبل أن يتوصلوا إلى اكتشاف عبقري. فقد توصلت الأبحاث إلى أن هناك مواد كيميائية خاصة، في محصولٍ يشبه قصب السكر يطلق عليه باريكان، تبطئ النضوج الجنسي في كائنات الأوكتوسبايدر. وخلال عدَّة قرون من الزمان، نجح المهندسون المتخصصون في مجال الهندسة الوراثية في تخليق شكلٍ مغايرٍ من الباريكان وإنتاجه؛ بحيث إذا تناولته كائنات الأوكتوسبايدر بانتظام فسيمنع عندها عملية النضوج الجنسي من الأساس.

وقد حقَّقت الحالات والمستوطنات التي اختبر عليها الاكتشاف نجاحًا يفوق ما كان يحلم به علماء الأحياء وعلماء السياسة التقدميون. وقد كانت كائنات الأوكتوسبايدر غير الناضجة جنسيًّا أكثر استجابة للمفاهيم العامة لعملية التحول إلى نظام الأمثلية. بالإضافة إلى هذا، تأخر التقدم في السن بطريقة ما في كائنات الأوكتوسبايدر التي تناولت الباريكان. وقد توصَّل علماء الأوكتوسبايدر سريعًا إلى أن التقدم في العمر يرتبط بآلية الساعة البيولوجية نفسها، التي ترتبط بها عملية البلوغ، وفي الواقع، إن الإنزيمات التي

تجعل الخلايا لا تتجدَّد بصورةٍ سليمة في كائنات الأوكتوسبايدر الأكبر سنًّا، لم تنشط إلا بعد فترةٍ معينةٍ تعقب النمو الجنسي.

وأكَّد آرشي والدكتور بلو أن مجتمع كائنات الأوكتوسبايدر مرَّ بتغيراتٍ سريعة، بعد هذه الاكتشافات الهائلة. فقد أحكم نظام الأمثلية قبضته على شتى مناحي الحياة. وبدأ علماء الاجتماع في مجتمع كائنات الأوكتوسبايدر يضعون تصورًا لمجتمعٍ تكون فيه كائنات الأوكتوسبايدر خالدةً تقريبًا، أي لا تفنى إلا من جراء الحوادث أو الإخفاق المفاجئ لعضوٍ أساسي وخطير في الجسم. وهكذا، انتشرَت كائنات الأوكتوسبايدر العديمة النشاط الجنسي في كل المستعمرات، وكما توقَّع علماء الأحياء لم يعُد هناك وجود تقريبًا للطموح الشخصي والعدوانية.

وواصل آرشي: «حدثت كل هذه الوقائع قبل عدة أجيال مضت، وهي في المقام الأول خلفية لكم لتفهموا ماهية مراسم الاختيار. ودون الدخول في تفاصيل الفترة التاريخية المعقدة بين المرحلتَين، سيلخص لكم الدكتور بلو أين نقف اليوم في مستوطنتنا بالتحديد.»

فأخذ الدكتور بلو بزمام الحديث وقال: «كل أوكتوسبايدر قابلتموه حتى الآن تأخر نموه الجنسي بفضل الباريكان، فيما عدا الأقزام والكائنات المُخزنة للطعام فهما محايدا الجنس إلى الأبد. وقبل سنوات عدة خلت، كانت ملكة واحدة فقط من كائنات الأوكتوسبايدر هي من يمكنها إنجاب أطفال، قبل أن يُفشي عالم أحياء فاسد كيفية استحداث نوع مختلف من النشاط الجنسي في نوعنا باستخدام الهندسة الوراثية.

وكان هناك جنسان بين كائنات الأوكتوسبايدر البالغة العادية، ولكن الفرق الجوهري الوحيد بينهما هو أن أحدهما فقط لديه القدرة على تلقيح ملكة من الملكات إن كان قد وصل إلى البلوغ الجنسي. أما الكبار البالغون جنسيًّا فيدخلون في علاقة حميمة بهدف المتعة فقط، ولكن نظرًا لأن هذه العلاقة لا ينتج عنها أطفال، أصبحت الفروق بين الجنسين غير واضحة. وفي الواقع، كانت العلاقات التي تستمر فترة طويلة في المستوطنة أكثر شيوعًا بين أفراد الجنس الواحد؛ نظرًا لأنهم يتفقون في المشاعر ووجهات النظر المشتركة.

أما الآن، فقد أصبح الموقف أكثر تعقيدًا. ففي نوعنا، وبفضل عبقرية أجدادنا في مجال الهندسة الوراثية، تستطيع الأنثى الناضجة إنجاب وليدٍ عقيمٍ له متوسط عمر قصير وقدرات محدودة نوعًا ما، من خلال علاقة جنسية مع ذكر أوكتوسبايدر ناضج. إنكم لم ترَوا أيًّا من هذه الكائنات بعد؛ لأنها تعيش وفقًا لقرار صادر في الموطن البديل.»

توقف الدكتور بلو عن الحديث. فاستكمل آرشي: «بعد مراسم الاختيار مباشرة، يقرر كل مواطن صغير في المستوطنة ما إذا كان يريد أن يكون ناضجًا جنسيًّا. فإذا كانت

الإجابة لا، فإن هذا الأوكتوسبايدر الصغير يعهد إلى مسئولي الأمثلية والمستوطنة ككل بحياته الجنسية. وهذا هو ما فعلته الدكتورة بلو، وهي أنثى بالمناسبة، وما فعلته أنا منذ زمن طويل. وطبقًا لقانون كائنات الأوكتوسبايدر، يمكن للفرد القيام باختيار حياته الجنسية بعد مراسم الاختيار مباشرة، دون أن تترتب أي عواقب على ذلك. ولا يتساهل القادة مع أولئك الذين يُقرِّرون الخضوع لعملية تحويل جنسي دون إذن صريح من المستوطنة، بعد أن تم التنظيم لحياتهم العملية بوضوح والتخطيط لها.»

عادت الدكتورة بلو تتحدث. قالت: «وكما شرحنا لكم الليلة، قد يبدو أنه من غير المحتمل أن يختار أوكتوسبايدر صغير المرور بالنضوج الجنسي مبكرًا. وعلى أي حال، حرصًا على تحقيق العدل، يجب أن نشير إلى أن هناك أسبابًا مقنعة، على الأقل في عقول بعض شباب الأوكتوسبايدر، تجعلهم يختارون أن يكونوا من سكان الموطن البديل. أولها وأهمها هو أن أنثى الأوكتوسبايدر تعرف أن فرصها في الإنجاب تنخفض كثيرًا، إذا اختارت أن تظلَّ عديمة الجنس بعد مراسم الاختيار. ويذكرنا تاريخنا أنه في حالة الطوارئ فقط سيُطلب من عددٍ كبيرٍ من هذه الإناث إنجاب صغار. وبصفة عامة، فإن القدرات المحدودة لهذا النوع من النسل وعدم استطاعته التكاثر، يجعلانه غير مرغوب فيه، من وجهة نظر المستوطنة بأكملها، بالطبع فيما عدا حالة الحاجة إلى أعدادٍ كبيرةٍ من كائنات الأوكتوسبايدر لدعم البنية التحتية للمجتمع.

وبعض شباب الأوكتوسبايدر لا يحبون نظامنا الصارم ومجرى حياتنا النمطي في مدينة الزمرد، ويريدون حياة يكون بإمكانهم فيها اتخاذ كافة قراراتهم. أما البعض الآخر، فيخشون أن يجعلهم مسئولي الأمثلية يعملون في مهن غير مناسبة لهم. وجميع من يختارون النضج الجنسي المبكر يرون في الموطن البديل مكانًا مثيرًا يتمتعون فيه بالحرية، ومليئًا بالمغامرة ومتع الحياة. ويُسقِطون من اعتباراتهم ما يتخلون عنه ... وفي لحظات السعادة الغامرة المؤقتة تكون طبيعة حياتهم أكثر أهمية لهم من الفترة الزمنية التي سيعيشونها ...»

وعلى مدار الحوار الطويل، طرح ريتشارد ونيكول وإيلي كثيرًا من الأسئلة. وبمرور الوقت بدأ البشر الثلاثة يشعرون بالارتباك التام. فقد كان حجم المعلومات أكثر مما يمكنهم استيعابه في نقاش واحد.

عندما أشار آرشي إلى أنهم قد تأخروا في الرحيل، قال ريتشارد فجأة: «انتظر لحظة، أنا آسف ... هناك شيء أساسي في هذا ما زلت لا أفهمه. لماذا يُسمح لهم بالاختيار من الأساس؟

لماذا لا يقرر المسئولون أن جميع كائنات الأوكتوسبايدر ستتناول الباريكان دائمًا، وستظل عديمة الجنس حتى تحتاج المستوطنة إلى أجيال جديدة؟»

أجابه آرشي: «هذا سؤال جيد جدًّا، وإجابته معقدة. ولكني سأبسِّطها لك قدر الإمكان لضيق الوقت، وأقول لك إن جنسنا يؤمن بالسماح بقدر من حرية الاختيار. وأيضًا، كما سترى الليلة، هناك بعض الوظائف التي لا تناسب سوى سكان الموطن البديل، والتي تستفيد منها المستوطنة بأكملها.»

٧

بعد أن غادرت وسيلة التنقل التي يستقلونها المنطقة المخصصة للبشر، سلكت طريقًا مختلفًا عن ذلك الذي سلكته عندما أقلَّتهم إلى الاستاد في يوم الاحتفال بعيد النِّعم. ففي هذه المرة، أخذت تسير في شوارع خافتة الإضاءة في أطراف المدينة. ولم تقابل المجموعة في طريقها أيًّا من المشاهد المزدحمة النابضة بالحياة التي رأوها في رحلتهم السابقة. وبعد عدة شوارع، اقتربت العربة من بوابة كبيرة مغلقة تشبه كثيرًا تلك التي دخلوا منها إلى مدينة الزمرد أول مرة.

حضر اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر وأنعما النظر في العربة. وقال لهما آرشي شيئًا بلغة الألوان، فعاد أحدهما إلى ما يبدو أنه نظير مركز الحراسة لديهم. ومن على بعد، رأى ريتشارد الألوان تومض على حائط مسطح. فقالت الدكتورة بلو: «إنها تراجع الأمر مع السلطات. فقد وصلنا في غير موعدنا المتوقع؛ ومن ثم لم يعُد كود الخروج صالحًا.»

خلال عدة نيليتات من الانتظار، دخل الأوكتوسبايدر الآخر إلى العربة وفتشها بإمعان. لم يتعرَّض أيٌّ من البشر من قبل لهذه الاحتياطات الأمنية الصارمة في مدينة الزمرد، ولا حتى في الاستاد. وقد ازداد قلق إيلي عندما قام ضابط الأمن بفتح حقيبتها لرؤية ما بداخلها دون استئذان. ثم أعاد الضابط حقيبة إيلي وترجَّل عن العربة. ثم فُتحت البوابة وتحركت العربة مارة أسفل القبة الخضراء، ثم توقَّفت في الظلام بعد أقل من دقيقة.

كانت العربة محاطة في المرأب الذي توقفت فيه بثلاثين أو أربعين عربة تقريبًا. شرحت لهم الدكتورة بلو وهم يهبطون من العربة وينضم إليهم يراعتان: «هذه المنطقة يطلق عليها مقاطعة الفن. وهذه المنطقة وحديقة الحيوان، التي لا تبعد كثيرًا عن هنا، هما المنطقتان الوحيدتان في الموطن البديل اللتان يتردد عليهما أيٌّ من كائنات الأوكتوسبايدر التي تعيش في مدينة الزمرد كما يحلو له. ولا يوافق القادة على الكثير من طلبات الزيارة

للمناطق السكنية بالموطن البديل، التي توجد إلى الجنوب — والواقع أن الفرصة الوحيدة التي يحظى بها معظم كائنات الأوكتوسبايدر لإلقاء نظرةٍ مستفيضةٍ على الموطن البديل؛ هي الجولة التي يقومون بها في الأسبوع الأخير من مراسم الاختيار.»

كان الهواء أكثر برودة بكثير مما كان عليه في مدينة الزمرد. فبدأ آرشي والدكتورة بلو كلاهما يسيران بسرعة لم يرَ البشر أي كائن أوكتوسبايدر يتحرك بها من قبل. ثم استدار إليهم آرشي وقال: «يجب أن نسرع وإلا فسنتأخر.» فاضطر البشر الثلاثة إلى الركوض كي يلحقوا بخطاهما السريعة.

وعندما اقتربا من منطقةٍ مضاءةٍ على بعد ثلاثمائة مترٍ تقريبًا من العربة، تحرَّك آرشي والدكتورة بلو إلى نهايتَي الصف الذي يشكله مرافقوهم البشريُّون الثلاثة، فأصبح الخمسة يسيرون جنبًا إلى جنب. وقالت الدكتورة بلو: «إننا سندخل ميدان الفنانين؛ حيث يقدم سكان الموطن البديل أعمالهم الفنية من أجل المقايضة.»

فسألتها نيكول: «ماذا تعنين بالمقايضة؟»

فأجابتها الدكتورة بلو: «يحتاج الفنانون إلى أموال للطعام وغيره من ضرورات الحياة. فيعرضون أعمالهم الفنية على سكان مدينة الزمرد الذين لديهم فائضٌ من المال.»

وبقدر ما كانت نيكول تود متابعة الحديث، فقد شتت انتباهها على الفور المجموعة المذهلة من الأشياء غير العادية، والأكشاك المؤقتة، وكائنات الأوكتوسبايدر والحيوانات الأخرى التي كانت أول ما وقعت عليها عيناها في ميدان الفنانين. وكان الميدان عبارة عن ساحة ضخمة يبلغ طول أحد جانبَيه سبعين أو ثمانين مترًا، وكان الميدان مواجهًا للمسرح — وجهتهم — ويفصلهما شارعٌ واسعٌ. مد كلٌّ من آرشي والدكتورة بلو عند طرفَي الصف إحدى لوامسهما على ظهور البشر، حتى أصبح الخمسة يتحركون مثل كيان واحد في الميدان الصاخب.

صادفت المجموعة عددًا من كائنات الأوكتوسبايدر تحمل أشياء تود مقايضتها. وقد تأكد ريتشارد ونيكول وإيلي سريعًا مما أخبرهم به آرشي في أثناء الاجتماع المطول، ولا سيما أن سكان الموطن البديل لا يلتزمون بتفاصيل اللغة الرسمية، التي تستخدمها كائنات الأوكتوسبايدر في مدينة الزمرد. فلم تكن هناك شرائط ملونة منمقة تتدفق حول رءوسهم، بل أنماط متتابعة فوضوية من بقع الألوان ذات الأحجام المختلفة اختلافًا كبيرًا. دنا منهم أحد الباعة الجائلين، لكنه تسبب في أن ترتعد إيلي من الخوف، عندما لف إحدى لوامسه حول ذراعها لجزءٍ من الثانية قبل أن يزيحها آرشي عن الطريق. فقبض آرشي على المعتدي

بثلاثٍ من لوامسه، وقذفه بخشونة بعيدًا عن الطريق في اتجاه أحد كائنات الأوكتوسبايدر الذي يحمل حقيبة قماشية فوق كتفه. وقد أوضحت لهم الدكتورة بلو أن هذه الحقيبة تعني أن الأوكتوسبايدر ضابط شرطة.

كانت نيكول تسير بخطًى سريعة وحولها الكثير والكثير من الأشياء لتراها، لدرجة أنها وجدت نفسها تحبس أنفاسها. ومع أنه لم تكن لديها أدنى فكرةٍ ما الذي يمكن فعله بهذه الأشياء الكثيرة التي تُعرض للمقايضة في الميدان، فقد كانت تستطيع التعرف على اللوحات المرسومة لجميع الحيوانات المختلفة التي تعيش في مدينة الزمرد، أو التماثيل المنحوتة لها، أو الأشكال الصغيرة المصنوعة على الخشب، أو مادة مشابهة له، وقد أعجبت بها إعجابًا كبيرًا. وفي جزء من الميدان، كانت تُعرَض لوحات من القماش الفاخر مطبوع عليها أنماط ملونة، شرحت لها الدكتورة بلو فيما بعد عندما دخلوا إلى المسرح، أن هذا الشكل الخاص من الفن على هذه النماذج يمثل مزيجًا، كما فهمت من لغة البشر، بين فن الشعر وفن الخط.

وقبل أن يعبروا الشارع مباشرة، التقطت عينا نيكول مشهدًا على حائط على بعد عشرين مترًا إلى يسارها، وهو عبارة عن لوحة جدارية ضخمة جميلة بصورة تخلب الألباب. كانت الألوان قوية ولافتة للأنظار، كانت اللوحة بأكملها عمل فنان يفهم جيدًا أسس التصميم وما يفتن العيون. كما كانت المهارة الفنية مثيرةً للإعجاب أيضًا، ولكن ما بهر نيكول حقًّا كان المشاعر التي تفيض بها أجساد ووجوه كائنات الأوكتوسبايدر والمخلوقات الأخرى التي تصوِّرها اللوحة.

تمتمت نيكول لنفسها وهي تشرئب بعنقها لتقرأ العنوان الذي كُتب بلغة الألوان بعرض الجزء العلوي من اللوحة الجدارية: «انتصار الأمثلية». وكان الرسم يصوِّر سفينة فضائية، يتصدر نجم في أحد أجزاء خلفيتها وفي الجزء الآخر محيط يعجُّ بالكائنات الحية، وكذلك غابة وصحراء في الزاويتين المتقابلتين. لكن العنصر الرئيسي في الرسم كان كائن أوكتوسبايدر عملاق يحمل هراوة ويقف فوق كومة من ثلاثين حيوانًا مختلفًا، كانت تتلوَّى في الغبار أسفل لوامسه. إلا أن قلب نيكول كاد يقفز من صدرها، عندما رأت أن واحدة من تلك الكائنات التي يسحقها كائن الأوكتوسبايدر امرأةٌ بشرية شابة، لها بشرة داكنة وعينان ثاقبتان وشعر قصير متموج.

فصرخت فجأة في الآخرين: «انظروا! هناك! على اللوحة الجدارية.»

وفي تلك اللحظة، كان هناك حيوان ما صغير الحجم يزعج البشر ويلتف حول أقدامهم. فنجح في تشتيت انتباه الجميع. وقد أبعد كائنا الأوكتوسبايدر الحيوان، وقادا الصف مرة

أخرى باتجاه المسرح. وبينما كانت نيكول تسير في الشارع، عادَت بعينيها لتُلقي نظرةً سريعة خلفها على اللوحة؛ كي تتأكَّد من أنها لم تكن تتخيَّل وجود امرأةٍ شابةٍ في الصورة. مع بُعد المسافة أصبح وجه السيدة وملامحها غير واضحَين، ولكن كانت نيكول واثقة من أنها رأت وجهًا بشريًّا في العمل الفني. وسألت نفسها وهم يدلفون إلى المسرح. ولكن كيف يمكن هذا؟

كانت نيكول تستمع غير منتبهةٍ إلى حديث ريتشارد مع آرشي، عن عزمه استخدام المترجم الذي صنعه في أثناء العرض المسرحي، وهي مشغولة الذهن تفكر فيما اكتشفته. وبعد أن اتخذوا مجلسهم في الصف الخامس من الصفوف المحيطة بخشبة المسرح، لم تنظر نيكول حتى عندما أشارت الدكتورة بلو بإحدى لوامسها إلى يسارهم؛ حيث يجلس جيمي وباقي كائنات الأوكتوسبايدر الذين أقيمَت مراسم الاختيار من أجلهم. وفكرت نيكول في نفسها: «لا بد أنني مخطئة.» وكانت تسيطر عليها رغبة قوية في أن تركض عائدةً إلى الميدان لتتحقَّق مما رأته. ثم تذكرت ما قاله آرشي عن ضرورة اتباع تعليماتهم بدقة، خاصة ذلك المساء. وقالت لنفسها في حين كانت ثلاث يراعات كبيرة تطير لتحلِّق فوق خشبة المسرح في المنتصف: «أنا واثقة من أنني رأيت وجه امرأة في ذلك الرسم. ولكن إذا كان هذا صحيحًا، فماذا يعني ذلك؟»

لم يكن هناك أيُّ فترات استراحة أثناء العرض المسرحي الذي استمر أكثر قليلًا من وُدنَين. كانت المشاهد مستمرة ويقف واحد أو أكثر من الممثلين من كائنات الأوكتوسبايدر على خشبة المسرح المضاءة طيلة الوقت. ولم تكن هناك أي أدوات أو ملابس مسرحية. وفي بداية المسرحية، تقدمت «الشخصيات» السبع الرئيسية وقدمت نفسها باختصار، فكانوا يتكونون من صغيرَين سيشتركان في مراسم الاختيار، أحدهما ذكر والأخرى أنثى، ومجموعتَين من الآباء بالتبنِّي لكلٍّ منهما، وذكر من سكان الموطن البديل كانت ألوانه الجميلة الزاهية تنتشر حتى نهاية لوامسه عندما يتحدث.

ومن الدقائق الأولى من زمن المسرحية بعد بدايتها، اتضح أن الصغيرَين كانا صديقين حميمين لسنوات وأنهما اختارا النضوج الجنسي المبكر معًا، رغم النصائح الرشيدة من آبائهما بالتبني. وفي أول حوار تناجي فيه الأنثى نفسها قالت: «أرغب في إنجاب طفل من الزواج برفيقي الحبيب.» أو هكذا ترجم ريتشارد ما قالته. وقد كان سعيدًا بأداء جهاز الترجمة الخاص به الذي تحسن كثيرًا، وبعد أن تذكر أن كائنات الأوكتوسبايدر صماء، أخذ يتحدث من حين لآخر في أثناء العرض.

اجتمع آباء كليهما في منتصف المسرح وعبروا عن قلقهم مما يمكن أن يحدث عندما يواجه الطفلان بالتبني للمرة الأولى «المشاعر الجديدة القوية» التي تصاحب التحول الجنسي. ولكنهم على أي حال، حاولوا أن يكونوا عادلين، واعترفوا أنهم لا يستطيعون إعطاءهما نصيحة بناءً على تجربة حقيقية؛ لأنهم اختاروا ألَّا يصبحوا ناضجين جنسيًّا بعد مراسم الاختيار الخاصة بهم.

وفي منتصف المسرحية، كان كائنا الأوكتوسبايدر الشابان معزولين في زاويتين متقابلتين من خشبة المسرح، واستنتج المشاهدون من المؤثرات الضوئية من اليراعات، بالإضافة إلى بعض الجمل القصيرة من ممثلي كائنات الأوكتوسبايدر؛ أن كلًّا منهما قد توقَّف عن تناول الباريكان وكان وحيدًا في «موطن انتقالي».

وفي مشهد لاحق، سار الاثنان المتحولان على خشبة المسرح وتقابلا في المنتصف، حيث كانت أنماط الألوان في حوارهما قد تغيَّرت بالفعل. وكان لهذا التغيير تأثيرٌ كبير، بغضِّ النظر عن أن مَن قام به ممثلون؛ فالألوان التي استخدمها كلٌّ منهما كانت أكثر سطوعًا مما كانت عليه قبل التحول، كما أن الشرائط المنمقة الثابتة التي كانت تميز المحادثات السابقة بين الشابَّين؛ أصبحت تحمل بعض التصميمات المختلفة المثيرة للاهتمام أيضًا الخاصة بكلٍّ منهما. وكان حولهما على المسرح في تلك اللحظة ستةٌ آخرون من كائنات أوكتوسبايدر — يتضح من لغتهم أنهم من سكان الموطن البديل — واثنان من الحيوانات التي لها شكل النقانق البولندية يطاردان أي شيء يجدانه. من الواضح أن الصغيرين قد انتقلا إلى الموطن البديل.

ثم ظهر من الظلام المحيط بخشبة المسرح ذكر الموطن البديل الذي قدَّم نفسه في بداية المسرحية. قام الممثل أولًا بعرض رائع مستخدمًا الشرائط الرأسية والأفقية الملونة، التي تتحرَّك في كلا الاتجاهَين، ثم صنع بها موجة تتقدم وأشكالًا هندسية أيضًا، بل إن انفجارات تشبه الألعاب النارية باستخدام الألوان بدأت في مواقع مختلفة حول رأسه. وهذا العرض باهر الألوان الذي قام به الوافد الجديد خلب لب الأنثى الشابة، ونجح في استمالتها وجعلها تتخلَّى عن أقرب أصدقاء طفولتها. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، كان من الواضح أن المتطفِّل ذا الألوان الرائعة هو والد الطفل الذي تحمله الأنثى الشابة في كيسها الأمامي، إلا أنه تركها جالسةً وحيدةً وبائسةً في زاوية خشبة المسرح، ترسل شريطًا بعد شريط من الشرائط غير المنتظمة ذات الألوان التي لا معنى لها.

وفي هذا المشهد من المسرحية، دخل ذكر الأوكتوسبايدر الذي اختار النضوج جنسيًّا في المشاهد الأولى، مندفعًا إلى دائرة الضوء، ورأى حبيبته تجلس بائسةً مع طفلها، فقفز

مبتعدًا إلى الجزء المظلم المحيط بخشبة المسرح. وبعد لحظاتٍ عاد مع الذكر الزاهي الألوان الذي غرَّر بصديقته، واشتبك الاثنان في صراعٍ عنيف لكنه مشوق في منتصف خشبة المسرح. ولمدة فينج كامل، كانت الشرائط الملونة المعبرة عن الشتائم تتزاحم حول رأسيهما، وهما يتضاربان ويتصارعان ويشتبكان ويخنق كلٌّ منهما الآخر. وفي النهاية، انتصر الأوكتوسبايدر الفتيُّ وظل الآخر راقدًا بلا حَراك على خشبة المسرح بعد انتهاء المعركة. أكد الحزن الذي عبر عنه البطل والبطلة في جملهما الأخيرة على أن المغزى الأخلاقي من المسرحية واضحٌ كالشمس. وعندما انتهت المسرحية، نظر ريتشارد إلى نيكول وإيلي وقال وابتسامة عريضة لا صلة لها بالموقف تعلو وجهه: «إنها واحدة من المسرحيات المأساوية التي تنتهي بموت الجميع، مثل عطيل.»

وتحت إشراف مرشدي المشاهدين من كائنات الأوكتوسبايدر، الذين كانوا جميعهم من رجال الشرطة، غادر الصغار الذين أقيمت مراسم الاختيار من أجلهم المسرح أولًا، ثم تبعهم آرشي والدكتورة بلو ورفاقهم من البشر. توقف الموكب المنظم بالخارج بعد دقائق قليلة، وشكل حلقة محتشدة حول ثلاثة كائنات أخرى من الأوكتوسبايدر الذين كانوا في منتصف الشارع. شعر ريتشارد ونيكول وإيلي بلوامس أصدقائهم القوية تحيط بهم، وهم يتحركون إلى مكانٍ يستطيعون منه رؤية ما يحدث. كان اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر في منتصف الشارع يحملون هراواتٍ ويحملون حقائب الشرطة، في حين كان الثالث جاثمًا بينهما يبثُّ رسالة ملونة في شرائط عريضة غير منتظمة تقول: «من فضلكم ساعدوني!»

قال أحد رجال الشرطة في شرائط واضحة ومنتظمة: «كائنة الأوكتوسبايدر هذه فشلت باستمرار في الحصول على أموال، منذ أن جاءت إلى الموطن البديل بعد مراسم الاختيار الخاصة بها قبل أربع دورات. وفي الدورة السابقة، تلقَّت تحذيرًا بأنها أصبحت مستنزِفًا غير مقبول لمواردنا المشتركة، ومؤخرًا قبل يومَين من الاحتفال بعيد النِّعم، تلقَّت أمرًا بأن تتقدم لإنهاء حياتها. ومنذ ذلك الوقت وهي تختبئ بين أصدقائها في الموطن البديل ...»

وفجأة اندفعت كائنة الأوكتوسبايدر، وقفزت محاولة الهرب بين المتفرجين في المكان الذي كان البشر يقفون فيه. فتقهقر الجمع وسقطت إيلي على الأرض في خضم الفوضى الناتجة؛ إذ كانت أقرب شخص إلى النقطة التي حاولت كائنة الأوكتوسبايدر الهروب منها. وفي أقل من نيليت كانت الشرطة قد تمكنت من السيطرة على الهاربة، بمساعدة آرشي وعددٍ من الشباب الذين أقيمت مراسم الاختيار من أجلهم.

وقال ضابط الشرطة عندئذٍ: «إن التخلف عن التقدم لعملية إنهاء حياة مزمعة لهو أسوأ جريمة يقترفها أوكتوسبايدر. وعقابها هي الإعدام الفوري فور إلقاء القبض عليه.»

ثم أخرج أحد ضابطي الشرطة عددًا من الكائنات المتلوية، التي تشبه الدود من الحقيبة التي يحملها على كتفه. فقاومت كائنة الأوكتوسبايدر الخارجة عن القانون في أول مرة حاول فيها ضابطا الشرطة وَضْع الكائنات التي تشبه الدود داخل فمها عنوة. إلا أنه بعد أن ضربها كلٌّ من ضابطي الشرطة مرتَين بالهراوة، انهارت كائنة الأوكتوسبايدر التي حكم عليها بالهلاك بين آسريها. ولم تستطع إيلي التي استعادَت توازنها قبل ذلك أن تكبت صرخة الذعر التي انطلقت من بين شفتَيها، عندما دخلت الكائنات الصغيرة فم كائنة الأوكتوسبايدر، وبدأت تتقيأ. وسريعًا ما سقطت كائنة الأوكتوسبايدر صريعة.

لم يتفوه أيٌّ من البشر بكلمة وهم يعبرون الميدان جنبًا إلى جنب مع آرشي والدكتورة بلو، ثم دلفوا إلى المرأب حيث كانت العربة تنتظرهم. وفي ذلك الوقت، كانت نيكول مصعوقةً تمامًا مما رأته، حتى إنها لم تتذكر أن تلقي نظرة على الرسم الذي ظنت أنه يتضمن وجهًا بشريًّا.

في منتصف الليل، سمعت نيكول التي لم تستطع الخلود إلى النوم ضوضاء في غرفة المعيشة. فنهضت من فراشها بهدوء وارتدت ثوبها. وجدت إيلي تجلس على الأريكة في الظلام. فجلست نيكول إلى جوار ابنتها وأمسكت بيدها.

قالت إيلي: «لم أستطع الخلود إلى النوم يا أمي. ما زلت أتذكر تفاصيل كل ما حدث اليوم، لا يستطيع عقلي أن يتقبل ذلك. أشعر وكأني قد تعرضت للخيانة.»

فقالت نيكول: «أعلم يا إيلي. وأنا أيضًا يراودني الشعور نفسه.»

فقالت إيلي: «كنت أظنُّ أنني أعرف كائنات الأوكتوسبايدر. لقد كنت أثق بهم. بل وكنت أرى أنهم أسمى منا في كثيرٍ من النواحي، ولكن بعد ما رأيته الليلة ...»

واصلت نيكول: «لا أحد منا يتقبل القتل. حتى ريتشارد روعه الأمر في البداية. ولكن عندما أوينا إلى الفراش، أخبرني أنه واثق من أن ما حدث في الشارع أعد بعنايةٍ خصوصًا من أجل الشباب الذين أقيمت مراسم الاختيار من أجلهم. وقال أيضًا إننا يجب أن نكون حذرين ولا نقفز إلى كثير من الاستنتاجات، أو نترك عواطفنا تسيطر على أفعالنا جراء حادث واحد منفصل ...»

«لم أرَ من قبلُ كائنًا عاقلًا يُقتل بأم عيني. وماذا كانت جريمتها؟ لم تتقدم لينهوا حياتها؟»

«إننا لا نستطيع الحكم عليهم كما نحكم على البشر. فكائنات الأوكتوسبايدر كائنات مختلفة للغاية ولها نظام اجتماعي مستقل تمامًا، قد يكون أكثر تعقيدًا من نظامنا. نحن

لا زلنا في بداية فهمهم ... هل نسيتِ أنهم عالجوا إيبونين من فيروس أر في-٤١؟ وسمحوا لنا باستخدام التكنولوجيا الخاصة بهم عندما كنا قلقين بشأن ولادة ماريوس؟»

فأجابتها إيلي: «لا، لم أنسَ.» ثم صمتَت لثوانٍ وعادت لتقول: «أتعلمين يا أمي أنني أشعر الآن بالإحباط نفسه الذي كنت أشعر به كثيرًا في عدن الجديدة، عندما كنت لا أتوقف عن التساؤل كيف للبشر القادرين على فعل كثير من الأشياء الطيبة أن يتقبلوا طاغية مثل ناكامورا. والآن يبدو الأمر وكأن كائنات الأوكتوسبايدر يمكنها أن تكون سيئة مثل البشر تمامًا، ولكن بطريقتها الخاصة ... هناك الكثير من الأمور المتضاربة في كل مكان ...»

حاولت نيكول أن تواسي ابنتها بضمها بين ذراعَيها. قالت في نفسها: «لا توجد إجاباتٌ بسيطة يا بنيتي.» ومر أمام عينَيها شريط سينمائي لأحداث تلك الليلة التي لا تصدَّق، بما في ذلك تلك النظرة الخاطفة التي تعتقد أنها رأت فيها امرأةً بشرية مجهولة في اللوحة الجدارية التي رسمها الأوكتوسبايدر. فسألت نفسها: «ماذا كان ذلك أيتها العجوز؟ هل كان ذلك الوجه موجودًا حقًّا، أم إن عقلك المنهك واسع الخيال صوَّرها لكِ ليثير حيرتك؟»

٨

انتهى ماكس من حلاقة ذقنه، وغسل عن وجهه باقي المادة التي تشبه كريم الحلاقة. وبعد لحظات سحب السدادة لينصرف الماء من الحوض الحجري. وبعد أن جفف ماكس وجهه جيدًا بمنشفة صغيرة، التفت إلى إيبونين التي كانت تجلس خلفه على الفراش ترضع ماريوس.

فقال ضاحكًا: «حسنًا يا فرنسيَّتي الجميلة، يجب أن أعترف أنني متوتر للغاية. فلم أقابل في حياتي مسئول أمثلية من قبل.» ثم سار ليقف إلى جانبها. واستكمل حديثه: «ذات مرة عندما كنت في مدينة ليتل روك في اجتماعٍ للمزارعين، جلست إلى جوار حاكم آركنسو أثناء مأدبة الطعام ... شعرت حينها أيضًا ببعض التوتر.»

فابتسمت إيبونين. وقالت: «من الصعب عليَّ أن أتخيلك وأنت متوتر.»

وقف ماكس صامتًا لثوانٍ يراقب زوجته وابنه الرضيع. وأصدر الصبي صوتًا خافتًا يشبه هديل الحمام وهو يرضع. فسألها ماكس: «إنكِ تستمتعين حقًّا بعملية الرضاعة هذه، أليس كذلك؟»

أومأت إيبونين برأسها بالإيجاب. وقالت: «إنها متعةٌ تختلف عن أي متعة أخرى مررت بها في حياتي. إنه الإحساس بـ… لا أعلم في الواقع التعبير المناسب — ربما «مشاركة الطعام» تكون قريبة … إنه إحساس لا يوصف.»

هزَّ ماكس رأسه. وقال: «إن حياتنا نحن مدهشة، أليس كذلك؟ ففي الليلة السابقة عندما كنت أغير حفَّاظة ماريوس، فكرت أننا نشبه ملايين الأزواج من البشر المفتونين بأول مولودٍ لهم … ولكن خارج هذا الباب توجد مدينة فضائية يُديرها نوع من الكائنات …» لم يكمل ماكس حديثه.

قالت إيبونين: «إن إيلي تبدو مختلفة منذ الأسبوع الماضي. لقد فقدت بريقها وتتحدث عن روبرت أكثر من ذي قبل …»

فقال ماكس معلقًا: «لقد روَّعتها عملية الإعدام. وإنني لأتساءل هل النساء بطبيعتهن أكثر حساسية منا تجاه العنف. أتذكر بعد زواج كلايد ووينونا أنه أحضرها إلى المزرعة، حيث رأتنا أول مرة نذبح خنزيرَين، فشحب وجهها كالموتى. لم تقُل شيئًا ولكنها لم تأتِ لتشاهد ذلك مرة أخرى.»

فقالت إيبونين وهي تنقل ماريوس ليرضع من ثديها الآخر: «لم تتحدث إيلي كثيرًا عن تلك الليلة. وهذا ليس من شِيَمها.»

«سأل ريتشارد آرشي عن الحادثة أمس، عندما طلب منه المكونات لصنع أجهزة الترجمة لباقي المجموعة … وطبقًا لما يقوله ريتشارد، فقد كان ذلك الأوكتوسبايدر اللعين مراوغًا ولم يمنحه إجاباتٍ شافية. حتى إنه لم يؤكد على ما قالته الدكتورة بلو لنيكول عن سياسة إنهاء الحياة الأساسية لديهم.»

فقالت إيبونين: «إنه أمر مرعب جدًّا، أليس كذلك؟» ثم عقدت ما بين حاجبيها. واستأنفت: «إن نيكول تصرُّ على أنها جعلت الدكتورة بلو تعيد شرح هذه السياسة لها عدة مرات، حتى إن نيكول جرَّبت عدة جمل مختلفة بالإنجليزية في حضور الدكتورة؛ كي تتأكد من أنها قد فهمت ما تعنيه فهمًا صحيحًا.»

فقال ماكس وهو يرغم نفسه على الابتسام: «إنها بسيطةٌ تمامًا، حتى بالنسبة إلى مزارع. إذا كان إجمالي إسهامات أي أوكتوسبايدر بالغ للمستوطنة، على مدار فترة زمنية محددة من الوقت، لا يساوي على الأقل الموارد الأساسية اللازمة لإبقائه حيًّا، فإنه يدرج في قائمة الكائنات التي سيتمُّ التخلُّص منها. وإذا لم يصحح القيمة السالبة في فترةٍ محددة، تنفذ عملية الإعدام فورًا.»

قالَت إيبونين بعد صمتٍ لم يدُم طويلًا: «طبقًا لما تقوله الدكتورة بلو، إن مسئولي الأمثلية هم من يفسِّرون السياسات. وهم من يقرِّرون قيمة كل شيء ...»

فقال ماكس وهو ينحني ليربت على ظهر ولده: «أعلم ذلك، وأظن أن هذا هو أحد أسباب قلق ريتشارد ونيكول بشأن اليوم. لم يقُل أيُّ شخص شيئًا صراحةً، ولكننا نستهلك موارد كثيرة منذ فترة طويلة، ولا أرى أننا قدمنا إسهامات لهم.»

«هل أنت جاهز يا ماكس؟» جاءه صوت نيكول وقد أطلت برأسها من الباب. ثم واصلت: «إن الجميع في الخارج بجوار النافورة.»

انحنى ماكس وقبَّل إيبونين. وسألها: «هل سيكون بإمكانِك أنت وباتريك العناية ببينجي والأطفال؟»

فأجابته إيبونين: «بالطبع. إن بينجي لا يحتاج جهدًا للاعتناء به، وباتريك كان يقضي وقتًا طويلًا للغاية مع الأطفال مؤخرًا، حتى إنه أصبح متخصصًا في رعايتهم.»

فقال ماكس وهو يلوح لها مودعًا: «أحبك يا فرنسيَّتي الجميلة.»

كانت هناك خمسة مقاعد خارج منطقة عمليات مسئولة الأمثلية. وعندما شرحت نيكول كلمة «مكتب» لآرشي والدكتورة بلو للمرة الثانية، أصر كائنا أوكتوسبايدر آخران يرافقانهم على أن «منطقة عمليات» ترجمة أفضل للمكان؛ حيث تعمل مسئولة الأمثلية.

قال آرشي معتذرًا: «في بعض الأحيان تتأخر مسئولة الأمثلية. فقد تجبرها أمور غير متوقعة في المستوطنة على الخروج عن جدول مواعيدها.»

فقال ريتشارد لماكس: «لا بد أن هناك شيئًا غير عادي يجري. فالدقة في المواعيد إحدى أهم سمات كائنات الأوكتوسبايدر.»

انتظر البشر الخمسة في صمت، وكان كلٌّ غارقًا في أفكاره. وأخذ قلب ناي يخفق بسرعة كبيرة. كانت خائفة ومتشوقة في الوقت ذاته. وتذكرت أنها مرت بشعور مماثل من قبل، عندما كانت في المدرسة تنتظر مقابلتها الرسمية مع الأميرة سوري ابنة ملك تايلاند، بعد أن فازت ناي بالجائزة الأولى في منافسة تعليمية على مستوى البلاد.

بعد دقائق قليلة، دعاهم أحد كائنات الأوكتوسبايدر إلى الغرفة المجاورة، وهناك أخبروهم أن مسئولة الأمثلية وبعض مستشاريها سينضمون إليهم في غضون لحظاتٍ قليلة. وكانت الغرفة الجديدة تحتوي على نوافذ شفافة؛ حيث كان بإمكانهم رؤية كل ما يدور من حولهم. وقد ذكَّر المكان الذي يجلسون فيه ريتشارد بمنطقة التحكم في

منشأة طاقة نووية، أو ربما بسفينة فضائية على متنها بشر. فكانت أجهزة الكمبيوتر الخاصة بكائنات الأوكتوسبايدر منتشرة في كل مكان وكذلك شاشات المراقبة، وكان هناك أخصائيون فنيون من كائنات الأوكتوسبايدر يعملون عليها. وقد طرح ريتشارد سؤالًا على آرشي عن شيء يجري في منطقة بعيدة، ولكن قبل أن تتسنَّى له فرصة الإجابة، دلف ثلاثةٌ من كائنات الأوكتوسبايدر إلى الغرفة.

وقف البشر الخمسة في رد فعل لا إرادي. وقدَّم لهم آرشي مسئولةَ الأمثلية ونائبها المسئول عن مدينة الزمرد ورئيس قوات الأمن. فمدَّ كلٌّ من الكائنات الثلاثة إحدى لوامسه للبشر وصافحهم. ثم أشار آرشي إلى البشر بالجلوس وبدأت مسئولة الأمثلية تتحدَّث فور جلوسهم.

فقالت: «نعلم أنكم طلبتم، عبر ممثِّلنا، أن يُسمح لكم بالعودة إلى عدن الجديدة؛ لتعيشوا مرة أخرى مع أفراد فصيلتكم الموجودين على متن راما. وهذا في الواقع لم يُثر دهشتنا مطلقًا؛ لأن المعلومات التي جمعناها تشير إلى أن الكائنات العاقلة التي لديها مشاعر قوية، يتكون لديها، بعد العيش فترةً في مجتمع من الكائنات الفضائية، إحساسٌ بأنها لا تنتمي إلى ذلك المجتمع، وكذلك شوق للعودة إلى العالم الذي تألفه أكثر. وما نود أن نفعله هذا الصباح هو أن نقدم لكم بعض المعلومات الإضافية، التي من الممكن أن تؤثر على طلبكم بالسماح لكم بالعودة إلى عدن الجديدة.»

طلب آرشي من البشر أن يتبعوا مسئولة الأمثلية. فسارت المجموعة خلال غرفة مشابهة للغرفتين اللتين جلسوا فيهما، ثم دخلوا إلى غرفة مستطيلة بها اثنتا عشرة شاشة منتشرة على جدران الغرفة، على مستوى نظر كائنات الأوكتوسبايدر.

قالَت مسئولة الأمثلية عندما دخلوا جميعًا إلى الغرفة: «لقد كنا نراقب عن كثب التطورات في الموطن الخاص بكم، قبل وقت طويل من هروبكم. وهذا الصباح نود أن نطلعكم على بعض الأحداث التي لاحظناها مؤخرًا.»

وما هي إلا لحظة واحدة حتى اشتعلت الشاشات على الجدران. وكان كلٌّ منها يحمل مقطعًا من صورٍ متحركةٍ من الحياة اليومية بين البشر الباقين في عدن الجديدة. لم تكن جودة الصورة ممتازة، ولم يستمر أي مقطع فيديو أكثر من بضعة نيليتات، ولكن لا يمكن أن تخطئ عين ما يظهر على الشاشات.

ولعدة ثوانٍ خيم الصمت على البشر، ووقفوا جميعًا بلا حراك مندهشين يحدقون في الصور التي تظهر على الحائط. وعلى إحدى الشاشات ظهر ناكامورا وهو يرتدي زي القادة العسكريين اليابانيين القدامى، ويخطب في جموع حاشدة في الميدان بالمدينة

الرئيسية. ويحمل صورة كبيرة مرسومة باليد لأوكتوسبايدر. ومع أن الفيلم كان صامتًا، فقد كان من الواضح من قسمات وجهه وصور العامة أنه يحرض الجميع على التصرف بعدوانية مع كائنات الأوكتوسبايدر.

فقال ماكس وعيناه تتحركان من شاشة إلى أخرى: «اللعنة.»

وعقبت نيكول: «انظروا هنا. إنه السوق في سان ميجيل.»

في أفقر قرية من قرى عدن الجديدة الأربع، كان هناك اثنا عشر شخصًا من القوقازيين والآسيويين تبدو عليهم سيماء العنف، يلفون رءوسهم بشرائط رياضة الكاراتيه، ويضربون أربعة شبَّان داكني البشرة على مرأًى ومسمعٍ من اثنين من رجال شرطة عدن الجديدة، وحشد من حواليَ عشرين قرويًّا يبدو الأسى على ملامحهم. ثم حملت كائنات آلية، من تلك التي تحمل وجوه تياسو ولنكولن، الأجسادَ المهشمة الدامية بعد أن تعرَّضت لضرب مبرح، ووضعوها على متن عربة كبيرة ثلاثية العجلات.

وعلى شاشةٍ أخرى، كان هناك مقطع فيديو لحشد يرتدي ملابس راقية، معظمهم من البيض والشرقيين، يصلون لحضور حفل أو مهرجان في ملهى ناكامورا الفخم. وجذبتهم إلى الكازينو الأضواء الساطعة المعلقة فوقه لافتة ضخمة مكتوب عليها «يوم تقدير المواطنين»، وتعلن أن كل من يرتاد الحفل سيحصل على اثنتَي عشرة تذكرةً مجانية من تذاكر اليانصيب، للاحتفال بهذه المناسبة. وعلى جانبَي اللافتة توجد صورتان ضخمتان لناكامورا، تظهرانه من أعلى رأسه وحتى صدره وهو يبتسم مرتديًا قميصًا أبيض ورابطة عنق.

أما الشاشة على الجدار خلف مسئولة الأمثلية، فقد كانت تعرض صورةً من داخل سجن المدينة الرئيسية. فكانت مجرمة ملونة الشعر أُلقِيَ القبض عليها لتوِّها، يزجُّ بها في الزنزانة التي تضم مدانين آخرين. وكان من الواضح أن الوافدة الجديدة تشتكي من الزحام، ولكن ضابط الشرطة دفعها إلى الزنزانة وهو يضحك. وعندما عاد إلى مكتبه، التقطت الكاميرا صورتَين على الحائط خلفه، واحدة لريتشارد والأخرى لنيكول كتب تحت كلٍّ منهما كلمة «مكافأة» بحروف ضخمة تجذب الأنظار.

انتظرت كائنات الأوكتوسبايدر في صبر، وعيون البشر تنتقل من شاشة إلى أخرى. كان ريتشارد لا ينفك يسأل وهو يهز رأسه: «كيف بحق السماء؟» ثم فجأةً انطفأت الشاشات.

قالت مسئولة الأمثلية: «لقد جمعنا ثمانية وأربعين مقطعًا لنعرضها عليكم اليوم، وجميعها من شرائط المراقبة للأيام الثمانية الماضية في عدن الجديدة. وسيكون مع مختص الأمثلية الذي تسمونه آرشي قائمةٌ بالمقاطع التي صنفت تبعًا للمكان والوقت والحدث

الجاري. ويمكنكم قضاء ما تشاءون من الوقت هنا تشاهدون هذه المقاطع، وتتناقشون فيما بينكم، وتطرحون أسئلةً على كائنَي الأوكتوسبايدر اللذَين اصطحباكم إلى هنا. ولكن للأسف، لديَّ مهام أخرى لأقوم بها ... إذا أردتم بعد الانتهاء من المشاهدة أن تتحدثوا معي مرة أخرى، فسأحرص على أن أدبِّر وقتًا لذلك.»

رحلت مسئولة الأمثلية يتبعها مساعداها. وجلست نيكول على واحدٍ من المقاعد. كانت شاحبة الوجه واهنة الجسد. فاتجهت إليها إيلي. سألتها: «هل أنت بخير يا أمي؟»

فأجابتها نيكول: «أظن هذا. بمجرد أن بدأ عرض مقاطع الفيديو شعرت بألم حاد في صدري — على الأرجح بسبب الدهشة والانفعال — ولكنه سكن الآن.»

فسألها ريتشارد: «أتودين العودة إلى المنزل ونيل قسط من الراحة؟»

فقالت نيكول بابتسامتها المعتادة: «أتمزح؟ ما كنت لأفوت هذا العرض حتى لو كنت سأسقط صريعة في منتصفه.»

ظلوا يشاهدون الأفلام الصامتة لمدة ثلاث ساعات تقريبًا. كان واضحًا من لقطات الفيديو أنه لم تعد هناك أي حرية للمواطنين في عدن الجديدة، وأن معظم سكان المستوطنة كانوا يجاهدون كي يعيشوا على الكفاف. لقد أحكم ناكامورا قبضته على البلاد وسحق جميع صور المعارضة. إلا أن المستوطنة التي يحكمها مأهولة بأناس بؤساء وتعساء.

في البداية كان البشر يشاهدون المقطع نفسه معًا، ولكن بعد عرض ثلاثة أو أربعة مقاطع، اقترح ريتشارد أنه من غير المجدي على الإطلاق أن يشاهدوا مقطعًا واحدًا جميعًا. فقال ماكس: «إنك تتحدث مثل مسئول أمثلية حقيقي.» ولكنه وافق على رأيه.

كان هناك مشهد تظهر فيه كيتي لوقت قصير. وكان ذلك المشهد قد التقط في وقت متأخر من الليل في فيجاس. كانت العاهرات قد بدأن عملهن في الشوارع خارج أحد الملاهي الليلية. اقتربت كيتي من واحدة من النساء، ودار بينهما حوارٌ قصير عن موضوع غير معروف، ثم اختفَت من الشاشة. وقد لاحظ ريتشارد ونيكول أن كيتي تبدو نحيفةً للغاية بل ضامرة أيضًا. وطلبا من آرشي أن يُعيد المقطع عدة مرات.

كانت هناك سلسلة أخرى من المقاطع مخصصة للمستشفى في المدينة الرئيسية. ولم يحتج المشاهدون إلى كلمات ليفهموا أن هناك عجزًا في أدوية مهمة، ونقصًا في عدد الأطباء، ومشكلات في الأدوات التي تحتاج إلى إصلاح. وقد كان أحد أكثر المشاهد المؤثرة مشهدًا يصور موت سيدةٍ شابةٍ تبدو من أحد شعوب البحر المتوسط، قد تكون يونانية، وذلك بعد عملية ولادةٍ مؤلمةٍ كان الطفل فيها يواجه قناة الولادة بمؤخرته. وقد كانت غرفة الولادة

مضاءةً بالشموع، وأجهزة الفحص، التي كان من الممكن أن تحدِّد المشكلات التي تواجه المرأة وتنقذ حياتها إلى جوار الفراش، مطفأة دون سببٍ واضح.

ظهر روبرت تيرنر في كل مكان في المقطع الخاص بالمستشفى. وعندما رأته إيلي لأول مرة يسير في الردهات، أجهشت في بكاء حار. وظلت تبكي على مدار المشهد ثم طلبت على الفور أن يعاد عرضه. ولم تُبد أي تعليق إلا وهي ترى المشهد للمرة الثالثة. فقالت: «إنه يبدو منهك القوى ومستغرقًا بكيانه في العمل. لم يتعلم قط كيف يعتني بنفسه.»

وعندما أصبحوا جميعًا منهكين عاطفيًّا مما رأوه، ولم يطلب أيٌّ منهم إعادة عرض أي مقطع آخر، سألهم آرشي عما إذا كانوا يريدون لقاء مسئولة الأمثلية مرة أخرى. فقالت نيكول معبرة عن رأي الجميع: «ليس الآن. إننا لم نحظَ بوقتٍ لاستيعاب ما رأيناه.»

فسألت ناي هل بإمكانهم اصطحاب بعض لقطات الفيديو إلى منازلهم في مدينة الزمرد. وقالت: «أودُّ أن أشاهدَها مرة أخرى بروية. وسيكون من الرائع أن نريها لباتريك وإيبونين.» فاعتذر لها آرشي، وقال إن هذه اللقطات لا تعرض إلا في أحد مراكز الاتصالات الخاصة بكائنات الأوكتوسبايدر.

وفي أثناء عودتهم إلى المنطقة المخصصة لهم، أوضح ريتشارد لآرشي أن مترجمه الفوري يعمل بكفاءة. وكان ريتشارد قد أنهى اختباراته النهائية عليه في اليوم السابق للاجتماع مع مسئولة الأمثلية. ويستطيع ذلك المترجم التعاملَ مع لغة كائنات الأوكتوسبايدر الأصلية، واللغة التي أعدوها خصوصًا لتتوافق مع مجموعة الألوان التي يستطيع البشر رؤيتها. وقد اعترف له آرشي أنه منبهرٌ بهذا العمل.

وأضاف ريتشارد في صوت أعلى حتى يسمعه رفاقه: «بالمناسبة، هل بوسعك إخبارنا كيف تمكنتم من الحصول على كل مقاطع الفيديو؟»

لم يتردد آرشي في الإجابة عليه. وقال: «بواسطة رباعيات الأطراف المُصورة الطائرة. وهي نوع أكثر تقدمًا وأصغر كثيرًا في الحجم.»

ترجمت نيكول ما قاله آرشي لماكس وناي. فتمتم ماكس بصوت خافت: «تبًّا.» ثم نهض وسار إلى الطرف المقابل من المركبة وهو يهزُّ رأسه بعنف.

قال ريتشارد لنيكول: «إنني لم أرَ ماكس مكتئبًا أو متوترًا بهذا الشكل من قبل.»

فأجابته: «ولا أنا.» كان ريتشارد ونيكول يمارسان رياضة المشي بعد ساعة من تناول طعام العشاء مع عائلتهما وأصدقائهما. وكانت يراعة وحيدة تحلق فوق رأسَيهما، وقد أخذا يسيران جيئةً وذهابًا من الميدان إلى نهاية الطريق المسدود.

سألها ريتشارد وهما يسيران حول النافورة مرة أخرى: «هل تظنين أن ماكس سيغير رأيه بشأن الرحيل؟»

فأجابت نيكول: «لا أعلم. أظن أنه لا يزال مصدومًا. إنه يمقت حقيقة أن كائنات الأوكتوسبايدر تستطيع رؤية كل شيء نقوم به. ولهذا يصر على أنه هو وعائلته سيعودون إلى عدن الجديدة حتى إذا قرر الجميع البقاء هنا.»

«هل تسنت لك فرصة الحديث إلى إيبونين وحدكما؟»

«أحضرت إيبونين ماريوس إليَّ أول أمس بعد أن استيقظنا من النوم مباشرة. وبينما كنت أضع عقارًا طبيًّا على الالتهاب الجلدي الذي تسببه الحفَّاظة، سألتني ما إذا كنت قد ذكرت لآرشي أنهم يريدون الرحيل. وكانت تبدو خائفة.»

أخذا يمشيان بخطًى سريعةٍ داخلين الميدان. ودون أن يتوقف ريتشارد، أخرج قطعة قماش صغيرة ومسح العرق عن جبينه. قال وكأنه يتحدث إلى نفسه كما يتحدث إلى نيكول: «لقد تغيَّر كل شيء.»

فأجابته نيكول: «أنا واثقة من أن هذا كله جزءٌ من خطة كائنات الأوكتوسبايدر. لم يُرونا هذه الشرائط ليوضحوا لنا أن الأمور ليسَت على ما يرام في عدن الجديدة فحسب. بل إنهم يعلمون رد فعلنا بعد أن نحظى بوقت لتقييم الدلالة الحقيقية لما رأيناه.»

سار الاثنان في صمت عائدَين باتجاه منزلهما المؤقت. وفي دورتهما التالية حول النافورة، قال ريتشارد: «إذن فهل يراقبون كل شيءٍ نقوم به، حتى هذا الحوار الذي يدور بيننا؟»

فأجابته نيكول: «طبعًا. هذه هي الرسالة الأساسية التي نقلتها لنا كائنات الأوكتوسبايدر، عندما سمحوا لنا بمشاهدة لقطات الفيديو ... أي إنه ليست لدينا أسرار. والهروب أمر مستحيل. إننا في قبضتهم دون فكاك منها ... قد لا يؤيدني أحد في هذا الاعتقاد، ولكني ما زلت لا أصدق أنهم يعتزمون إيذاءنا ... بل إنهم قد يسمحون لنا بالعودة إلى عدن الجديدة ... في النهاية.»

فقال ريتشارد: «هذا لن يحدث أبدًا. إنهم بهذا سيكونون قد أهدروا كثيرًا من الموارد دون مقابل يذكر، وهو موقف يتعارض تمامًا مع سياسة الأمثلية. كلا لا أوافقك الرأي؛ أنا واثق من أن كائنات الأوكتوسبايدر ما تزال تحاول إيجاد المكان المناسب لنا في كامل نظامها.»

سار ريتشارد ونيكول بأسرع ما يمكنهما في دورتهما الأخيرة. ختماها عند النافورة ثم احتسيا شربة ماء. وسألها ريتشارد: «كيف حالك الآن؟»

فأجابته نيكول: «بخير. لا ألم أو ضيق في التنفس. وعندما فحصتني الدكتورة بلو أمس، لم تجد أنني أصبت بأي أمراض جديدة. كل ما في الأمر أن قلبي قد تقدم في العمر وأصابه الوهن ... يجب أن أتوقع الإصابة بأمراض من حين إلى آخر.»

بعد بضع لحظات، قال ريتشارد وهما يغسلان وجهيهما: «إنني أتساءل ما الدور الذي سنؤديه في عالم كائنات الأوكتوسبايدر؟»

فرمقت نيكول زوجها بنظرة عجلى. وقالت: «ألست أنت من سخر مني منذ عدة أشهر خلت، عندما خلصت إلى استنتاجات عن دوافعهم؟ كيف يمكنك أن تكون متأكدًا الآن من أنك تفهم ما تحاول كائنات الأوكتوسبايدر القيام به؟»

فقال ريتشارد وابتسامة عريضة تعلو وجهه: «لست متأكدًا من ذلك. ولكن من الطبيعي أن نفترض أن جنسًا من الأجناس العليا سيكون منطقيًّا.»

أيقظ ريتشارد نيكول من سباتها في منتصف الليل، وقال: «أنا آسف لإزعاجك يا حبيبتي، ولكن لديَّ مشكلة.»

فسألته نيكول وهي تجلس على الفراش: «ما الأمر؟»

فقال ريتشارد: «إنها مشكلة مخجلة. لذا لم أذكرها لكِ من قبل ... لقد بدأت في اليوم التالي لعيد النِّعم. ظننت أنها ستنتهي من تلقاء نفسها، ولكن الأسبوع الماضي أصبح الألم لا يحتمل.»

فقالت نيكول وهي تشعر ببعض السخط؛ لأنه أقضَّ عليها مضجعها: «ما الأمر يا ريتشارد، ادخل إلى صلب الموضوع. ما الألم الذي تتحدث عنه؟»

«في كل مرة أتبول فيها، أشعر بذلك الاحتراق ...»

حاولت نيكول أن تمنع نفسها من التثاؤب وهي تفكر. ثم سألته: «وهل أصبحت تتبوَّل أكثر من المعتاد؟»

«نعم ... كيف علمت؟»

«كان من المفترض أن يُمسك أخيل من غدة البروستاتا عندما غُمر في نهر ستيكس. إنها ولا شك أضعف نقطة في جسد الذكور. نم على وجهك ودعني أفحصك.»

فقال ريتشارد: «الآن؟»

فأجابته نيكول وهي تضحك: «إذا كنت تستطيع إيقاظي من سبات عميق بسبب ما تشعر به من ألم، فإن أقل ما تفعله هو أن تضغط على أسنانك وأنا أحاول التأكد من صحة تشخيصي المبدئي.»

كانت نيكول والدكتورة بلو تجلسان معًا في منزل الأخيرة. وعلى أحد الجدران كانت هناك أربع صور التقطتها طفيليات التصوير. وقالت الدكتورة بلو: «الصورة على أقصى اليسار توضح التضخم، كما كان يبدو في ذلك الصباح قبل عشرة أيام، عندما طلبت مني التأكد من تشخيصك. الصورة الثانية هي صورة مكبرة بنسبة كبيرة لخليتَين من الورم. والخلل المصابة به الخلية — ما تطلقين عليه مرض السرطان — هو ذلك الموضح بالصبغ الأزرق.»

ابتسمت نيكول ابتسامة شاحبة. وقالت: «إنني أعاني مشكلةً في إعادة توجيه استيعابي. إنكِ لا تستخدمين أبدًا الألوان التي تعني كلمة «مرض» عندما تصفين مشكلة ريتشارد، والكلمة التي تستخدمينها هي «خلل».»

أجابتها الدكتورة بلو: «المرض في نظرنا هو قصور في أداء عضوٍ ما، يسبِّبه عامل خارجي مثل البكتيريا أو فيروس عدواني. أما عدم الانتظام في كيمياء الخلية الذي يؤدي إلى تكون خلايا غير سليمة، فهو نوع مختلف من الحالات المرضية. ففي علومنا الطبية، الخطة العلاجية تختلف في الحالتين. وهذا السرطان في حالة زوجك يرتبط بالتقدم في العمر بصفة عامة، أكثر من ارتباطه بأمراض مثل الالتهاب الرئوي أو الجهاز الهضمي.»

مدَّت الدكتورة بلو إحدى لوامسها في اتجاه الصورة الثالثة. وقالت: «هذه الصورة توضح الورم منذ ثلاثة أيام، بعد أن حملت الأجسام الميكروبيولوجية التي ابتكرناها المواد الكيميائية الخاصة، ونثرتها بعناية على مكان الخلل. وقد بدأ التضخُّم يقلُّ بالفعل لأن إنتاج الخلايا الخبيثة قد توقف. وفي الصورة الأخيرة التي التقطت هذا الصباح، عادَت البروستاتا في جسد ريتشارد إلى شكلها الطبيعي مرة أخرى. وحالًا، ماتت جميع خلايا السرطان الأولى ولم يتكوَّن غيرها.»

فسألتها نيكول: «إذن فهل هو بخير الآن؟»

أجابتها الدكتورة بلو: «نعم على الأرجح. لا يمكن أن نكون واثقين تمامًا من هذا؛ لأننا ما زلنا لا نملك بعدُ جميعَ البيانات التي نحتاجها عن دورة حياة الخلايا في أجسادكم. فخلاياكم تتمتَّع ببعض الخصائص الفريدة، كما هو الحال دائمًا في الكائنات التي مرَّت بتطورٍ مغاير للتطور الذي مرت به أيٌّ من الكائنات الأخرى التي فحصناها من قبل، والتي قد تسمح بتكرار حدوث الخلل مرةً أخرى. وعلى أي حال، بناءً على تجربتنا مع كثيرٍ من الكائنات الحية الأخرى، يمكنني أن أقول إن تكوُّن ورم آخر في البروستاتا بعيد الاحتمال.»

شكرَت نيكول زميلتها كائنة الأوكتوسبايدر. وقالت: «إنه أمر لا يصدق، لَكَمْ سيكون رائعًا لو نُقلت معرفتكم الطبية بطريقة ما إلى الأرض!»

اختفت الصور من فوق الحائط. وقالت الدكتورة بلو: «كان سيظهر العديد من المشكلات الاجتماعية. إذا كنت قد فهمت ما أخبرتني به في نقاشاتنا عن كوكبكم الأم. فإذا لم يمُت أفراد جنسكم بسبب الأمراض أو خلل الأعضاء، فسيزداد متوسط العمر المتوقع بصورةٍ كبيرة. وقد واجه جنسنا خللًا مشابهًا بعد العصر الذهبي لعلم الأحياء، بعدما تضاعف متوسط عمر الأوكتوسبايدر في غضون أجيالٍ قليلة فقط. ولم نتوصَّل إلى أي توازنٍ مجتمعي إلا بعد تطبيق نظام الأمثلية بصرامة؛ ليكون هو نظامنا في الحكم. ولدينا الكثير من الأدلَّة التي تؤكِّد أنه دون السياسات الحكيمة الخاصة بإنهاء الحياة والإمداد بأعضاء جدد، فإن الموطن المأهول بمواطنين خالدين يمرُّ بحالةٍ من الفوضى بعد فترة قصيرة نسبيًّا.»

اشتعل اهتمام نيكول بالحديث فقالت: «أنا أدرك ما تقولينه إدراكًا كاملًا، من الناحية النظرية على الأقل. فإذا كان الجميع خالدين أو نحو ذلك، والموارد ستنتهي بعد فترة معينة، فإن السكان قريبًا ما سيأتون على الطعام المتاح، وستعجُّ بهم أماكن المعيشة المتوفرة. ولكن يجب أن أعترف، خاصة وأنا عجوز، أن فكرة «سياسة إنهاء الحياة» هذه تثير رعبي.»

فقالت الدكتورة بلو: «في تاريخنا القديم، كان هيكل مجتمعنا مشابهًا لهيكل مجتمعكم، وكانت جميع سلطات اتخاذ القرار تقريبًا في أيدي أكبر أفراد جنسنا سنًّا. ولهذا كان وضع قيود على إمداد المجتمع بأفراد جدد، بعد أن ازداد متوسط العمر المتوقع للفرد زيادة كبيرة، أسهل من اللجوء إلى مسألة إنهاء الحياة الصعبة هذه. ولكن بعد مرور فترة زمنية قصيرة، بدأ المجتمع العجوز يصاب بالجمود. وكما سيوضح لك آرشي أو أي قائد مطلع، زاد معدل الرجعية في مجتمعنا زيادةً ضخمةً للغاية، حتى إن جميع الأفكار الجديدة أصبحت تقابل بالرفض. وانهارت هذه المستوطنات الهرمة، ليس لسببٍ إلا لأنها لم تستطع التعامل مع الظروف المتغيرة في العالم من حولها.»

«وهنا بدأت سياسة الأمثلية؟»

فأجابتها الدكتورة بلو: «أجل. فإذا آمن كل فرد بمبدأ أن مصلحة المستوطنة ككل لها الثقل الأكبر في سلسلة أولوياته العليا، فإنه سريعًا ما سيتضح أن عمليات إنهاء الحياة المنظمة عنصر أساسي من الحل الأمثل للمشكلة. وبإمكان آرشي أن يريك بالأرقام حجم الكارثة، من وجهة نظر المستوطنة ككل، عندما تُهدَر كميات هائلة من موارد سكان المستوطنة على هؤلاء المواطنين الذين تكون إسهاماتهم قليلة، بالمقارنة بغيرهم من المواطنين. وتستفيد المستوطنة الاستفادة القصوى من توظيف أموالها في الأعضاء الأصحاء المتمتعين بعمرٍ مديد، وبهذا يكون هناك احتمالٌ أكبر لأن تجنيَ المستوطنة مقابلًا لهذا الاستثمار.»

أعادت نيكول على الدكتورة بلو بعض العبارات الأساسية التي وردت في حديثها؛ كي تتأكد من أنها فهمت ما تعنيه بالضبط. ثم صمتت لنيليتين أو ثلاثة. ثم قالت في النهاية: «أظن أنه حتى مع تأخر تقدمكم في العمر عن طريق تأخير النضوج الجنسي، ومع قدراتكم الطبية المذهلة، يصبح في وقتٍ ما الإبقاء على حياة أوكتوسبايدر كبير في السن، طبقًا لبعض المعايير، مكلفًا بصورة تمنع هذا الأمر.»

فأجابتها الدكتورة بلو: «بالضبط. بإمكاننا جعل الفرد خالدًا تقريبًا. ولكن هناك ثلاثة عوامل رئيسية تجعل من إطالة الحياة بصورة زائدة، في غير مصلحة المستوطنة بالمرة. أولًا، كما ذكرت أنت، تزداد تكلفة مجهود إطالة الحياة زيادةً كبيرة، عندما يبدأ كل نظام فرعي بيولوجي أو عضو في العمل بكفاءة أقل من كفاءته المثلى. ثانيًا، عندما يصبح وقت كائن الأوكتوسبايدر مُستهلكًا أكثر وأكثر في مجرد البقاء على قيد الحياة، ينخفض قدر الطاقة التي قد يمتلكها للمشاركة في مصلحة المستوطنة انخفاضًا كبيرًا. ثالثًا، يأتي وقت في حياة كل أوكتوسبايدر يجعل فيه كم الخبرات التي مر بها على مدار حياته، من تعلُّم أشياء جديدة أمرًا صعبًا للغاية، وقد أثبت القادة علماء الاجتماع صحة هذه النقطة المثيرة للجدل قبل سنوات كثيرة، مع أنه لبضع سنين بعد أن تبدأ سرعة البديهة والقدرة على التعلم في الانحدار، فإن الحكمة التي تراكمت على مر السنين تعوِّض — فيما يختص بالمستوطنة — اضمحلال القوى العقلية إلى حدٍّ بعيد. حتى في حالة الأوكتوسبايدر الذي يتمتع بصحة جيدة فإن هذه المرحلة من العمر، التي يطلق عليها المسئولون «بداية محدودية المرونة»، تشهد انخفاضًا في قدرته على الإسهام للمستوطنة.»

«إذن فمسئولو الأمثلية هم من يحدِّدون وقت إنهاء الحياة؟»

قالت الدكتورة بلو: «نعم، ولكني لا أعلم تحديدًا كيف يفعلون هذا. هناك فترة اختبار قبل ذلك في أثنائها يدرج الأوكتوسبايدر على قائمة إنهاء الحياة، ويُمنَح بعض الوقت لكي يحسن من ميزان استهلاكه وإسهاماته. وهذا الميزان، إذا كنت أفهم تفسير آرشي، يتابع كل كائن أوكتوسبايدر عن طريق مقارنة إسهاماته بالموارد اللازمة لإبقائه حيًّا. وإذا لم يتحسن الميزان بين النسبتَين، يتحدد موعد لإنهاء حياته.»

سألتها نيكول وهي ترتعد رغمًا عنها، وقد تذكرت عندما واجهت هي حكمًا بالإعدام: «وماذا يكون رد فعل أولئك الذين يتم اختيارهم لإنهاء حياتهم؟»

فأجابتها الدكتورة بلو: «تختلف ردود أفعالهم. فبعضهم لا سيما أولئك الذين يواجهون مشكلات صحية، يقبلون حقيقة أنه لن يكون بإمكانهم تدارك رصيدهم غير

المرضي، ويخططون لموتهم بأسلوبٍ منظم. أما البعض الآخر فيلتمس النصح من أحد مختصي الأمثلية، ويطلب منه تحديد مهام جديدة تتاح له فيها إمكانية أعلى لتحقيق المعدلات المطلوبة منهم ... وهذا ما فعله هرقل قبل وصولكم مباشرة.»

خيَّم الصمت على نيكول لحظة. وسرت قشعريرة باردة في جسدها. ثم قالت بعد أن استجمعت شجاعتها: «هل ستخبرينني بما حدث مع هرقل؟»

فأجابتها الدكتورة بلو: «لقد تلقَّى تأنيبًا شديدًا لأنه لم يوفر لنيكي الحماية المناسبة في يوم الاحتفال بعيد النِّعم. فنُقل لأداء مهمة أخرى، وأخبره القائد المسئول عن عمليات إنهاء الحياة أنه لا توجد طريقة ممكنة للتعويض عن التقييم السلبي الكبير الذي حصل عليه في عمله الأخير. فطلب هرقل عملية إنهاء مبكرة وفورية.»

شهقت نيكول. رأت أمام عينيها كائن الأوكتوسبايدر الودود، وهو يقف في نهاية الشارع المسدود يقذف بالكثير من الكرات ليلتقطها مرة أخرى، مما أدخل السرور على الأطفال. قالت في نفسها: «والآن مات هرقل. فقط لأنه عجز عن أداء مهمته. هذا أمر قاسٍ يخلو من الرحمة.»

نهضت نيكول وشكرت الدكتورة بلو مرة أخرى. وحاولت أن تقنع نفسها أنها يجب أن تبتهج لأن زوجها قد شُفي من سرطان البروستاتا، ولا تهتم بموت أوكتوسبايدر قليل الأهمية. ولكن ظلت صورة هرقل تلاحقها. وقالت في نفسها: «إنهم جنس مختلف تمامًا من الكائنات. لا تحكمي عليهم بالمعايير البشرية.»

وبينما كانت على وشك مغادرة منزل الدكتورة بلو، شعرت نيكول فجأة برغبة لم تستطع مقاومتها في أن تعرف معلومات عن كيتي. وتذكرت أنها بعد أن رأت كيتي في حلم كان كالحقيقة قبل وقت قريب، استيقظت من نومها وتساءلت إن كانت سجلات كائنات الأوكتوسبايدر ستتيح لها مشاهدة المزيد عن حياة كيتي في عدن الجديدة.

فقالت وهي تقف على الباب: «دكتورة بلو، أود أن أطلب منك معروفًا. إنني في الواقع لا أدري هل ينبغي أن أطلبه منك أم من آرشي ... ولا أدري حتى إذا كان ما سأطلبه ممكنًا.»

فسألتها كائنة الأوكتوسبايدر عن الخدمة التي تريدها.

فقالت نيكول: «كما تعلمين، لي ابنة أخرى ما زالت تعيش في عدن الجديدة. وقد رأيتها في أحد مقاطع الفيديو التي عرضَتها علينا مسئولة الأمثلية الشهر المنصرم في مشهدٍ قصير جدًّا ... أتوق بشدةٍ إلى أن أعرف ما الذي يجري في حياتها.»

٩

في أثناء حوارٍ دار في اليوم التالي بين آرشي ونيكول، أخبرها أنه لم يُوافَق على طلبها لترى لقطات الفيديو التي تظهر فيها ابنتُها. ومع ذلك، كانت نيكول تصرُّ على الأمر وتنتهز كلَّ فرصة تكون فيها وحدَها مع آرشي أو الدكتورة بلو لتكرِّر طلبَها. ونظرًا لأن أيًّا منهما لم يُشِر قط إلى أنه لا توجد صورٌ خاصة بحياة كيتي في عدن الجديدة في ملفاتهما، فقد كانت نيكول واثقةً من أن لقطات الفيديو موجودة. وأصبحت مشاهدةُ هذه البيانات هاجسًا يطاردها.

قالت نيكول لريتشارد في وقتٍ متأخر ذات ليلة بعد أن أويا إلى الفراش: «تحدَّثت أنا والدكتورة بلو اليوم عن جيمي. لقد قرَّر أن ينضم إلى برنامج إعداد مسئولي الأمثلية.»

فقال لها ريتشارد بصوتٍ ناعس: «هذا جيد.»

«وقد قلت للدكتورة بلو إنها محظوظة، بوصفها أمًّا؛ لأنها تستطيع المشاركةَ في الأحداث في حياة طفلها ... ثم أخبرتُها مرةً أخرى بقلقنا لأننا لا نعلم إلا القليل جدًّا عمَّا حدَث لكيتي ...» ثم استطردت في صوتٍ أعلى قليلًا: «ريتشارد، إن الدكتورة بلو لم تَقُل اليوم إنني لن أستطيعَ رؤية لقطات الفيديو الخاصة بكيتي. هل تظن أن هذا يمثِّل تغيرًا في موقفهم؟ هل إلحاحي سيجعلهم يمتثلون لطلبي؟»

لم يُجِب عليها ريتشارد في البداية. ولكن بعد أن حثَّته نيكول قليلًا، اعتدل وجلس في الفراش. وقال: «ألا يمكننا الخلودُ إلى النوم هذه الليلة فقط دون مناقشةٍ أخرى عن كيتي وشرائط الفيديو اللعينة التي تمتلكها كائنات الأوكتوسبايدر؟ يا إلهي! إنك لم تتحدثي يا نيكول عن شيءٍ آخرَ على مدارِ أسبوعين. أنت تفقدين توازنك النفسي ...»

فقاطعته نيكول بنبرةِ دفاع: «كلا لم يحدُث. كلُّ ما في الأمر أنني قلِقة على ما حدث لابنتنا. أنا واثقة من أن كائنات الأوكتوسبايدر لديها الكثير والكثير من مقاطع الفيديو التي يمكن أن تضعها معًا وتجعلنا نشاهدها. ألا تريد أن تعرف أنت أيضًا؟»

فقال ريتشارد وهو يتنهَّد بعمق: «بالطبع أريد أن أعرف. ولكن هذا النقاش دار بيننا عدة مرات من قبل. ما الفائدة من الخوض فيه مرةً أخرى في هذه الساعة؟»

قالت نيكول: «لقد أخبرتك. أنني شعرت بتغيُّر في موقفهم اليوم. فالدكتورة بلو لم ...»

قاطعها ريتشارد بغضب: «لقد سمِعتك، ولا أظن أن ذلك يعني شيئًا. فالدكتورة بلو على الأرجح سئِمت من مناقشة هذا الموضوع مثلي.» ثم هزَّ ريتشارد رأسه. وقال: «اسمعي يا نيكول، إن مجموعتنا الصغيرة تمرُّ بظروفٍ صعبة ... ونحتاج بشدة إلى قدْرٍ

من الحكمة والعقلانية منك. فماكس يتذمَّر كلَّ يوم من تطفُّل كائنات الأوكتوسبايدر على حياته الخاصة، وإيلي تزداد حزنًا وكآبةً يومًا بعد يوم، عدا في اللحظات النادرة التي تجعلها فيها نيكي تبتسم؛ والآن وفي وسط كلِّ هذا، يعلن باتريك أنه وناي يريدان الزواج ... ولكن هاجس كيتي وشرائط الفيديو يستبد بك تمامًا حتى إنك لا تستطيعين إسداءَ النُّصح لأي شخص آخر.»

رمقت نيكول ريتشارد بنظرة حادة ثم استلقَت على ظهرها. ولم تُجِب على تعليقه الأخير.

قال ريتشارد بعد دقيقة واحدة: «رجاءً لا تغضبي مني يا نيكول. إن كلَّ ما أطلبه منك هو أن تكوني موضوعية في سلوكياتك كما أنت عادةً فيما يخص تصرُّفات الآخرين.»

فأجابته نيكول: «أنا لست غاضبة، ولا أتجاهل الجميع. وعلى أي حال، لماذا يجب أن أكون دائمًا الشخصَ المسئول عن سعادة عائلتنا الصغيرة؟ لماذا لا يلعب أحدٌ آخرُ دورَ ربة الأسرة من حين لآخر؟»

فقال ريتشارد: «لأنه لا يوجد شخصٌ آخر يتمتَّع بما تتمتَّعين به. لطالما كنتِ أقربَ صديقة للجميع.»

فقالت نيكول: «حسنًا، وقد تعبت الآن. ولديَّ مشكلة خاصة بي، «هاجس» على حسب قولك ... وبالمناسبة يا ريتشارد إن عدمَ اهتمامك الواضح هذا يصيبني بخيبةِ الأمل. لقد كنت أظن دائمًا أن كيتي هي طفلتك المفضَّلة ...»

فقال ريتشارد بسرعة: «هذا ليس عدلًا يا نيكول. لا شيء سيسعدني أكثرَ من أن أعرف أن كيتي بخير ... ولكن هناك أشياء أخرى في ذهني.»

لم ينبِس أيٌّ منهما ببنت شَفَة لدقيقة تقريبًا. ثم قال ريتشارد بنبرةٍ أرقَّ من ذي قبل: «أخبريني يا عزيزتي، لماذا أصبحت كيتي بهذه الأهمية فجأةً؟ ما الذي تغيَّر؟ إنني لا أتذكَّر أنكِ كنتِ قلقة عليها بهذا الشكل اللامعقول من قبل.»

فقالت نيكول: «لقد طرحتُ هذا السؤال على نفسي. لم أجِد له إجابةً شافية. ولكني أعلم أنني كنت أحلُم بكيتي كثيرًا مؤخرًا، حتى قبل أن نراها في شرائط الفيديو، وأنه كانت لديَّ رغبةٌ ملحَّة في التحدُّث إليها ... وأيضًا عندما أخبرتني الدكتورة بلو أن هرقل قد مات، أول ما تبادر إلى ذهني هو أنه يجب أن أرى كيتي مرةً أخرى قبل أن أموت ... أنا لا أعلم السبب حقًّا، ولا أعلم أيضًا ماذا أريد أن أقول لها، غير أني أرى أن هناك فجوة كبيرة جدًّا في علاقتي بكيتي ...»

مرةً أخرى خيَّم الصمت على غرفةِ نومهما فترةً طويلة. ثم قال ريتشارد: «أنا آسف لأنني كنت متبلِّد المشاعر بعض الشيء معك.»

قالت في نفسِها: «لا بأس يا ريتشارد. لم تكن تلك هي المرة الأولى. ولن تكون الأخيرة. لكن حتى أفضل الزيجات تعاني سوءَ التواصل أحيانًا.»

اقتربت نيكول من زوجها وربَّتت عليه. وقالت وهي تطبع قبلةً على وجنته: «وأنا أقبل اعتذارك.»

فوجئت نيكول حين رأت آرشي في وقتٍ مبكِّر للغاية من الصباح. وقد غادر باتريك وناي وبينجي والأطفال لتوهم للذهاب إلى البناية المجاورة لبدء اليوم الدراسي. لم يكن باقي كبار العائلة قد انتهوا من تناول إفطارهم بعدُ عندما ظهر الأوكتوسبايدر في غرفة طعام منزل ريتشارد ويكفيلد.

وقد كان ماكس فظًّا معه. إذ قال: «عفوًا يا آرشي، ولكننا لا نستقبل زائرين قبل أن نتناول قهوةَ الصباح، أو أيًّا كان ذلك الشيء اللعين الذي نحتسيه مع طعام الإفطار كلَّ يوم، أو على الأقل الأشخاص الذين نستطيع رؤيتهم.»

نهضَت نيكول عن المائدة عندما استدار الأوكتوسبايدر للمغادرة. وقالت: «لا تُعِر ماكس أيَّ اهتمام؛ فهو يعاني حالةً مزاجية سيئة بصورة مستمرة.»

فقفز ماكس من فوق مقعده وهو يحمل واحدةً من عبوات الحبوب التي أوشكت على النفاد. وحرَّكها في الهواء في اتجاه ثم في اتجاه آخر، وكأنه يملؤها هواءً قبل أن يغلقها بإحكامٍ ويعطيها لآرشي. قال بصوتٍ عالٍ: «هاك بعض رباعيات الأطراف المصوَّرة. أم أنها تتحرَّك أسرعَ مما يمكنني التقاطها.»

لم يردَّ آرشي. وشعرَ باقي البشر بالارتباك والخجل. عاد ماكس إلى مكانه إلى المائدة بجوار إيبونين وماريوس. ثم قال وهو يواجه الأوكتوسبايدر: «اللعنة يا آرشي، أظن أنك قريبًا ستضع عليَّ نقطتين من تلك النقاط الخضراء. أم أنك ستكتفي بإصدار أمرٍ لإنهاء حياتي.»

فصاح ريتشارد: «ماكس. لقد تخطيت كلَّ الحدود ... على الأقل فكِّر في زوجتك وابنك.»

فقال ماكس: «هذا ما كنت أفكِّر فيه شهرًا يا صديقي. أوَتعلم يا ريتشارد؟ هذا المُزارع من آركنسو لا يستطيع إيجادَ أي شيء يمكنه فِعله ليغيِّر من ...» وخفَت صوته. ثم فجأةً صدم أحدَ المقاعد بقبضته بعنف. وصرخ: «اللعنة! أشعر أنني عديم الفائدة.»

بدأ ماريوس يبكي. فهبَّت إيبونين من فوق مقعدها مبتعِدةً بطفلها، ولحِقت بها إيلي لمساعدتها. اصطحبت نيكول آرشي معها إلى الرَّدهة تاركةً ريتشارد وماكس وحدَهما. فانحنى ريتشارد وهو جالس في الجهة المقابلة من المائدة. وقال برفق: «أظن أنني أعرف ما تشعر به يا ماكس، وأنا متعاطف معك ... ولكنَّ موقفنا لن يتحسَّن إذا وجَّهنا الإهانات لكائنات الأوكتوسبايدر.»

فقال ماكس وهو يتطلَّع إلى ريتشارد: «ما الفَرق الذي قد يحدِثه هذا؟ إننا سجناء هنا، وهذا واضح. لقد سمحت بأن يُولد ابني في عالمٍ سيكون سجينًا فيه إلى الأبد. أيَّ نوعٍ من الآباء أكون؟»

وفي حين كان ريتشارد يحاول تهدئةَ ماكس، كانت نيكول تتلقَّى من آرشي الرسالةَ التي كانت تسعى إليها أسابيعَ. فقد قال لها الأوكتوسبايدر: «لقد حصلنا على تصريحٍ لك لاستخدام مكتبة البيانات اليوم. لقد جمعنا لقطات فيديو تظهر فيها ابنتُك كيتي من ملفاتنا القديمة.»

وقد جعلت نيكول آرشي يعيد رسالته بالألوان كي تتأكَّد من أنها فهمته بصورةٍ صحيحة.

لم يتبادل آرشي ونيكول الحديثَ والعربةُ تقلُّهما دون أن تتوقَّف على الإطلاق خلال مدينة الزمرد إلى المبنى الطويل الذي يضم مكتبةَ كائنات الأوكتوسبايدر. لم تُعر نيكول المشاهدَ التي في الشارع خارجَ العربة أيَّ اهتمام. كانت مستغرِقة تمامًا في مشاعرها وأفكارها عن كيتي. وأخذ ذهنها يَعرض عليها لحظاتٍ هامة من حياتها، واحدة تلو الأخرى، عندما كانت كيتي طفلة. وفي أبعدِ ذكرى داعبت ذهن نيكول، عاشت مرةً أخرى مشاعرَ الرعب التي شعرت بها عندما نزلت إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر قبل سنوات، ثم مشاعر السعادة عندما وجدت ابنتها المفقودة ذات الأعوام الأربعة. وفكَّرت نيكول في نفسها: «لقد كنت دائمًا مفقودة يا كيتي. بطريقةٍ أو بأخرى. لم أستطِع قط أن أبقيَك في أمان.»

شعرت نيكول بقلبها يخفق بقوة عندما قادها آرشي في النهاية إلى غرفةٍ خاوية لا يوجد بها سوى مقعد ومكتب ضخم وشاشة عرض على الحائط. أشار آرشي إلى نيكول بالجلوس على المقعد. وقال: «قبل أن أريك كيف تستخدمين الجهاز، هناك شيئان أودُّ أن أطلِعك عليهما. أولًا، أريد أن أجيب رسميًّا، بصفتي المسئول عن جماعتكم، عن الطلب الذي تقدَّم به بعضُكم للعودة إلى الانضمام لأفراد جنسكم في عدن الجديدة.»

سكت آرشي. وحاولت نيكول جمْعَ شَتات نفسها. فقد كان من الصعب عليها أن تخرج كيتي من عقلها مؤقتًا ولكنها كانت تعلم أنها يجب أن تمنح ما يوشك آرشي على قوله تركيزَها الكامل. فباقي أفراد المجموعة سينتظرون منها تقريرًا مفصلًا.

بعد لحظات قليلة استأنف آرشي حديثه قائلًا: «أخشى أنه لا يمكن لأيٍّ منكم الرحيل في المستقبل القريب. ولا يجوز لي أن أطلعك على أكثرَ من أنَّ مسئولة الأمثلية قد نظرت في الأمر بنفسِها في اجتماعٍ لكبار القادة، ولكن قوبل طلبُكم بالرفض لأسباب أمنية.»

صعِقَت نيكول لكلام آرشي. لم تكن تتوقَّع هذه الأخبار، ليس في هذا الوقت بالذات. لقد أخبرت الجميعَ أنها ترى أنهم سيسمحون لهم …

فقالت وهي تقاوم الدموعَ التي تجاهد للانهمار من عينيها: «إذن فماكس محقٌّ. إننا سجناؤكم هنا.»

فقال آرشي: «لكِ أن تفسِّري القرار بناءً على فهْمك أنت. ولكن يمكنني أن أقول لك حسب درجة فهمي للغتكم إن مصطلح «سجين»، الذي كان ماكس يستخدمه كثيرًا في الآونة الأخيرة، ليس صحيحًا.»

فقالت نيكول بغضب وهي تهُبُّ من مقعدها: «إذن أعطني كلمةً أفضل، وبعض التفسير من فضلك. أنت تعلم ماذا سيقول الآخرون …»

فأجابها آرشي: «لا أستطيع. لقد نقلت لك رسالتنا كاملة.»

أخذت نيكول تقطع الغرفةَ في خطًى سريعة ومشاعرها تتأرجح بقوةٍ ما بين الغضب والإحباط. لقد كانت تعلم ماذا سيكون ردُّ فعل ماكس. الجميع سيغضبون. حتى ريتشارد وباتريك سيذكِّرانها بأنها كانت مخطئة. فكَّرت في نفسها: «ولكن لماذا لا يشرحون السبب؟ هذا ليس من شيَمِهم.» شعرت نيكول بألمٍ خفيف في قلبها فهوَت بجسدها على مقعدها.

ثم قالت بعد صمت: «وما الأمر الثاني الذي أردتَ أن تخبرني به؟»

قال آرشي: «لقد عمِلت شخصيًّا مع مهندسي البيانات لإعداد ملفات الفيديو التي ستشاهدينها الآن … ومن خلال معرفتي بالبشر، وبك أنت تحديدًا، أظن أنكِ إذا رأيتِ هذه اللقطات، فإنها ستسبِّب لك أسًى شديدًا. لذا فأود أن أطلبَ منك أن تعيدي النظر في قرارك.»

اختار آرشي كلماتِه بحرص شديد؛ لأنه دون شكٍّ يفهم أهميةَ لقطات الفيديو لنيكول. وقد كانت رسالته واضحة. ففكَّرت نيكول في نفسِها: «ما سأراه الآن سيسبِّب لي الحزن. ولكن ما الخيارات المتاحة أمامي؟ لا شيء أو الحزن؟ سأختار الحزن.»

وبعد أن شكرت نيكول آرشي على اهتمامه وأخبرته أنها تود رؤيةَ لقطات الفيديو على أي حال، دفع آرشي المقعد الذي كانت تجلس عليه إلى أمام المكتب وأوضح لها كيف تتحكَّم في البيانات. وقد ترجمت كائنات الأوكتوسبايدر شفرةَ الوقت إلى أرقامٍ بلغةِ البشر من حيث الأيام السابقة لليوم الذي تشاهد فيه، وكانت هناك أربع سرعات يمكن لنيكول عرضُ الصور بها تشمل أربع وحدات قياس من وحدات قياس كائنات الأوكتوسبايدر، تتراوح ما بين سرعة تساوي ثُمن الزمن الحقيقي إلى ضعف السرعة العادية بأربع وستين مرة.

وقال آرشي: «البيانات الخاصة بكيتي كاملة تقريبًا عن الأشهر الستة الأخيرة بزمنكم. والإجراء التقليدي المتَّبع لدينا في عملية إدارة البيانات هو تصنيف البيانات القديمة وضغطها تبعًا لأهميتها. وتوضح الملفات الضخمة عن كيتي أهمَّ الأحداث التي مرَّت بها في العامين الأخيرين، ولكن من النادر وجود بيانات عن الفترة التي تسبق هذا.»

مدَّت نيكول يدَها إلى أزرار التحكُّم. وبحثت عن أحدث البيانات عن ابنتها فرأت وجهَ كيتي يظهر على الشاشة. وشعرَت بآرشي يربِّت على كتفها. وعندما التفتت قال لها الأوكتوسبايدر: «يمكنك استخدامُ هذا المكان وأجهزته لباقي اليوم، ولكن ليس أكثر من لذلك ... ونظرًا لأن الكمية المتاحة من البيانات ضخمة، أقترح عليك أن تعرضيها بسرعةٍ كبيرة كي تحدِّدي أكثرَ الأحداث أهميةً لك.»

التقطت نيكول نفَسًا عميقًا، واستدارت لتواجه الشاشة.

شعرت نيكول وكأنها ذرفت دموع عينيها كافة. فكانت عيناها متورمتين لا تكاد تستطيع أن تفتحهما من سيل الدموع المنهمر الذي لا يتوقَّف. لقد رأت نيكول كيتي وهي تحقِن نفسَها بمخدِّر الكوكومو ستَّ مرات على الأقل، ولكن عندما رأت ابنتها مرةً أخرى وهي تربط حبلًا مطاطيًّا حول عضدها وتحقن الإبرة في الوريد المنتفخ، وجدت دفعة جديدة من الدموع المحرقة طريقها إلى عينيها.

لقد كان ما رأته نيكول على مدارِ ما يقرُب من عشر ساعات أسوأ بكثيرٍ من أفظعِ كوابيسها حتى إنها انهارت تمامًا. ومع أنه لم يكن هناك صوتٌ يصحب الصور، فقد كان من السهل على نيكول أن تفهمَ الإطارَ العام لحياة كيتي. بادئ ذي بدء، ابنتُها مدمنةُ مخدِّرات بائسة. فكانت تأوي إلى شقَّتها الفاخرة إما وحدَها أو مع أصدقائها أربع مرات يوميًّا على الأقل، أو أكثر إذا لم تكن الأمور تسير على ما يرام معها، وتستخدم أدواتِ الحقن بالمخدِّرات الأنيقة التي كانت تحتفظ بها في صندوقٍ كبير مغلَق في غرفة الملابس بمنزلها.

كانت كيتي خلابةً وبعد أن تتعاطى جرعةَ المخدِّرات مباشرة. فتجدُها ودودةً ولطيفة ومفعمة بالحيوية وتبدو عليها الثقة بالنفس. ولكن إذا زال مفعول المخدِّر وهي لا تزال في إحدى حفلاتها تتحوَّل كيتي بسرعةٍ إلى مجرد ساقطة عدوانية لا تتوقف عن الصراخ، وينتهي بها الحال في كثير من الليالي وحدَها في شقَّتها مع حقنة المخدِّر.

أما مهنة كيتي الرسمية فهي إدارةُ أعمال العاهرات في فيجاس. وفي ذلك المنصب كانت كيتي أيضًا مسئولة عن استقطاب الساقطات الجدد. في البداية، لم يصدِّق قلب نيكول المفطور ما تراه عيناها. ولكن أجبرها مشهدٌ طويل دنيء — تظهر فيه كيتي — على الاعتراف لنفسها أن ابنتها عديمةُ الأخلاق والمبادئ؛ حيث بدأ المشهد بكيتي وهي تنسج خيوطَها حول فتاة إسبانية مراهقة جميلة لكنها فقيرة في سان ميجيل، وانتهى بالفتاة بعد أيام قليلة محظيةً عابرة لأحد رؤساء شركات ناكامورا الأثرياء بعد أن أصبحت ترتدي أفخرَ الملابس والحلي.

وبعد أن ظلَّت نيكول تشاهد لقطات الفيديو ساعاتٍ طويلة، دخل عليها آرشي وعرض عليها أن يُحضِر لها شيئًا تأكله. ولكنها رفضت. فقد كانت تعلم أنها في حالتها العصبية هذه لن تستطيع الاحتفاظَ بأي طعام في مَعِدتها.

لماذا ظلَّت نيكول تشاهد المقاطعَ طَوال هذا الوقت؟ لمَ لمْ تطفئ أجهزةَ التحكم وتغادر الغرفة؟ ستطرح نيكول هذه الأسئلةَ على نفسِها فيما بعدُ. وقد استنتجت نيكول بعد أن فكَّرت في الأمرِ فيما بعدُ أنه بعد مرور الساعات القليلة الأولى من بدء عرض مقاطع الفيديو، كانت تبحث، على الأقل دون وعي منها، عن علاماتٍ ما تشيرُ إلى وجودِ أي بارقة أمل في حياة كيتي. فإنه لم يكن من طبيعتها أن تسلِّم دون برهان بأن ابنتها فاسدةٌ بالفطرة. كانت تتوق بشدة إلى رؤيةِ شيء في شرائط الفيديو يوحي إليها أنَّ مستقبل كيتي قد يكون مختلفًا.

وجدت نيكول ضالتها في نهاية المطاف، شيئان في حياة كيتي التعيسة أقنعا نيكول بطريقةٍ أو بأخرى أنهما إشارتان إلى أن ابنتها قد تخرج عن نمط حياتها المدمِّر هذا يومًا ما. ففي نوبات الاكتئاب الشديد التي كانت تتعرَّض لها، والتي كانت تحدُث كثيرًا عندما لا تتوافر لديها المخدِّرات، كانت كيتي تدخل في حالة هستيريا مؤقتة فتحطِّم كلَّ ما تصل إليه يداها في شقَّتها. كل شيء فيما عدا صورتَي ريتشارد وباتريك اللتين تحتفظ بهما في إطارين. وفي نهاية نوبات غضبها الجنونية، عندما تنفد طاقتها، كانت تُخرِج الصورتين من ثيابها وتضعهما برفقٍ على فراشها. ثم ترقد إلى جوارهما لتبكي عشرين أو ثلاثين

دقيقة. ورأت نيكول أن هذا السلوك المتكرِّر يشير إلى أن كيتي لا تزال تُكنُّ في قلبها بعضَ الحب لعائلتها.

أما بريق الأمل الثاني الذي رأته نيكول، فهو فرانتس باور، نقيبُ الشرطة الذي كان رفيق كيتي الدائم. ولم تفهم نيكول علاقتهما الغريبة؛ ففي إحدى الليالي تجدهما يشتبكان في شجار سوقي عنيف، ثم في الليلة التالية تجد فرانتس يقرأ لها شِعر راينر ماريا ريلكا قبل الانغماس في علاقة حميمة مفعمة بالنشاط تستمر ساعاتٍ طِوالًا، ولكنها استنتجت مما تراه في شرائط الفيديو أن فرانتس يحب كيتي بطريقته الغريبة، وأنه لم يكن يوافق على إدمانها للمخدرات. ففي أثناء شجارهما في إحدى المرات، أمسك فرانتس بما تملِكه كيتي من مخدرات وهدَّد بإلقائه في المرحاض. فجُنَّ جنون كيتي تمامًا، وهاجمت فرانتس بفرشاة شعر بوحشية.

استمرَّت نيكول ساعةً تعقُبها ساعةٌ في مشاهدة المقاطع في محاولةٍ لفهْم حياة ابنتها المأساوية. وعلى مدار اليوم الطويل، عادت نيكول تمرُّ على لقطات الفيديو الأقدم، ووجدت بعضَها يرجع إلى الأيام الأولى لإدمانها للمخدِّرات. واكتشفت أن ابنتها كانت على علاقةٍ مشينة بناكامورا نفسه، وأن طاغيةَ عدن الجديدة كان يمدُّها بالمخدِّرات بانتظام عندما كانا على علاقة.

كانت نيكول حينها قد فقدَت الإحساسَ بما حولها. وكانت مستنزَفة عاطفيًّا للغاية، حتى إنها لم تَعُد تقوى على الحَراك من مكانها. وعندما أغلقت أجهزة التحكُّم في النهاية، وضعت رأسها على المكتب، وأخذت تبكي بضع دقائق أخرى ثم سقطت في سُبات عميق. وبعد أربع ساعات أيقظها آرشي وأخبرها أنه قد حان وقتُ العودة إلى المنزل.

كان الظلام قد حلَّ. ظلَّت العربة متوقِّفة في الميدان عشرَ دقائق، ولكن نيكول لم تنزل منها بعد. وكان آرشي يقف إلى جوارها.

قالت نيكول وهي تلقي نظرةً سريعة على الأوكتوسبايدر: «لا يمكن أن أخبرَ ريتشارد بما رأيته اليوم. إنه كفيل بالقضاء عليه تمامًا.»

قال آرشي بتعاطف: «أفهم ذلك. تفهمين الآن لماذا اقترحتُ عليك ألا تري شريط الفيديو.»

قالت نيكول وهي تُرخي قبضتَها ببطء عن العمود الرأسي وتُخرج إحدى قدميها من العربة بتراخٍ: «لقد كنت محقًّا، ولكن فات الأوان الآن. ليس بإمكاني محو تلك الصور البشعة العالقة بذهني.»

قال آرشي بمجرد أن نزلا من العربة: «لقد أخبرتني من قبل أنه من الواضح من شرائط الفيديو أن باتريك كان يعرف شيئًا عن نمطِ حياة كيتي قبل هروبه. وقد اختار ألا يخبرك أنتِ وريتشارد عن أسوأ تفاصيل حياتها. فهل القيام بشيء مماثل يُعَد خرقًا لمبادئك الشخصية؟»

قالت نيكول وهي تربِّت على كتفِ آرشي وتحاول الابتسام: «شكرًا لك يا آرشي لأنك تقرأ أفكاري ... لقد صرتَ تفهمُنا جيدًا.»

فقال آرشي معلِّقًا: «نحن أيضًا نواجه بعضَ الصعوبات مع الحقيقة في مجتمعنا. ومن التعليمات الإرشادية الأساسية للقادة الجدد أن يقولوا الحقيقةَ في جميع الأوقات، ويقول علمُ السياسة إنه يُسمح بحجب المعلومات، ولكن لا يُسمح بقول الأكاذيب. ويتحمَّس القادة الصغار للغاية لقول الحقيقة، دون أن يعيروا العواقبَ اهتمامًا ... ولكن في بعض الأحيان لا يتَّفق قول الحقيقة والتعاطف.»

قالت نيكول وهي تتنهَّد بعمق: «أوافقك الرأي يا صديقي الفضائي الحكيم. والآن بعد أحدِ أسوأ الأيام التي مررت بها في حياتي على الإطلاق، أواجه مهمَّتين صعبتين وليس مهمة واحدة. يجب أن أخبرَ ماكس أنه لن يستطيع الرحيلَ من مدينة الزمرد؛ ويجب أن أخبر زوجي ريتشارد أن طفلته المفضَّلة مدمنة مخدرات وقوادة. وأتمنى أن أجد في مكانٍ ما في هذا الجسد العجوز المنهك القوةَ اللازمة للتعامل مع هاتين المهمتين على نحوٍ سليم.»

١٠

كان ريتشارد نائمًا عندما وصلت نيكول إلى المنزل. وقد أسعدها أنها لم تُضطَّر إلى شرح أيِّ شيء من فورها. فارتدَت ملابس نومها بسرعة وتسلَّلت بهدوء إلى الفراش. ولكنها لم تستطِع النوم. فقد ظل عقلها يطوف جيئةً وذهابًا بين الصور الفظيعة التي رأتها ذلك اليوم وبين تفكيرها فيما ستخبر به ريتشارد والآخرين.

وقبل أن تستسلم إلى سبات عميق، رأت نيكول نفسَها تجلس في المدرَّجات المكشوفة في مدينة روان إلى جوار والدها في الميدان الذي أُحرِقت فيه جان دارك قبل ثمانمائة عام. رأت نيكول نفسَها فتاةً في سن المراهقة كما كانت بالفعل عندما اصطحبها والدها إلى هناك ليشاهدا نهايةَ الاحتفال الذي يحيي ذكرى جان دارك. وقد دخلت عربةٌ يجرها ثور وتحمِل جان إلى الميدان وأخذ الناس يصيحون.

فقالت نيكول وهي تصيح رافعةً صوتها فوق صوت الضجيج: «أبي، ماذا عساي أن أفعل لأساعد كيتي؟»

لم يسمع والدها السؤال. فقد كان اهتمامه بالكامل منصبًّا على عذراء أورليانز، أو بالأحرى الفتاة الفرنسية التي تلعب دور جان دارك. شاهدت نيكول الفتاةَ وهي يُشدُّ وَثاقها إلى الوتد. كان لها نفس العينين الثاقبتين الحادتين اللتين عُرفت بهما جان دارك. ثم بدأت الفتاة تتلو صلواتها بهدوءٍ وأحدُ الأساقفة يقرأ عليها حُكم الإعدام الصادر ضدها.

فسألته نيكول مرةً أخرى: «ماذا عن كيتي؟» ولكنها لم تتلقَّ إجابةً مجددًا. سمِعت نيكول لهاثَ الجماهير من حولها في المدرجات عندما أُضرمت النيران في أكوام الخشب المحيطة بجان. فوقفت نيكول مع الحشود وألسنةُ اللهب تنتشر بسرعة حول قاعدة الوتد الخشبي الضخم الذي شُدَّ وَثاقُها إليه. وكانت تسمع بوضوح صلوات القديسة جان وهي تطلب مباركةَ المسيح.

اقتربت النيران أكثرَ من الفتاة. فنظرت نيكول إلى وجهِ الفتاة المراهقة التي غيَّرت مجرى التاريخ وسرَت قشعريرة باردة في جسدها. صرخت: «كيتي! لا! لا!»

حاولت نيكول بكل قوَّتها أن تجِد مخرجًا من المدرجات، ولكن الجماهير كانت تحاصرها من جميعِ الجوانب. ولم تكن بيدها وسيلةٌ لإنقاذ ابنتها التي تحترق. فعادت نيكول لتصرخ مرةً أخرى وهي تدفع الناس من حولها بقوة: «كيتي! كيتي!»

ثم شعرت بذراعين تحيطان بها. استغرقت نيكول بضع ثوانٍ لتدرك أنها كانت تحلُم. ووجدت ريتشارد يحدِّق فيها بقلق. وقبل أن تتفوَّه بكلمة، دخلت إيلي الغرفة بملابسِ النوم هي الأخرى.

سألتها: «هل أنتِ بخير يا أمي؟ لقد كنتُ أتفقَّد نيكي ثم سمعتُك تصرخين باسم كيتي ...»

نظرت نيكول إلى ريتشارد أولًا ثم إلى إيلي. ثم أغمضت عينيها. كانت لا تزال ترى وجهَ كيتي والألم يرتسم على ملامحه والنيران من أسفلها. فتحت نيكول عينيها مرةً أخرى ونظرت إلى زوجها وابنتها وقالت: «إن كيتي تحيا حياةً بائسة»، ثم أجهشت بالبكاء.

لم يكن هناك سبيل لتهدئة نيكول. ففي كلِّ مرة ما إن تبدأ في إخبار ريتشارد وإيلي تفاصيل ما رأته، حتى تجهش بالبكاء مرةً أخرى. ثم قالت بعد أن تمكَّنت أخيرًا من أن تتمالك نفسَها: «أشعر أني محبَطة وعاجزة تمامًا. كيتي في خطرٍ محدِق، ولا يسَعُ أيًّا منَّا أن يفعل شيئًا لمساعدتها.»

تخلَّت نيكول عن خطتها المبدئية بأن تخفِّف من وطأة الأمر على عائلتها؛ فأخبرتهم باختصار عن طبيعةِ حياة كيتي دون حذف أي شيء فيما عدا بعض مغامراتها الجنسية الطائشة. وقد صعِق ريتشارد وإيلي وانفطر قلباهما مما يسمعانه.

وفي أثناء الحوار، قال ريتشارد: «لا أدري كيف تمكَّنت من البقاء هناك ومشاهدة مقاطع الفيديو طوال هذه الساعات. لو كنت مكانك لخرجت في بضع دقائق.»

قالت إيلي وهي تهزُّ رأسَها: «لقد ضاعت كيتي، ضاعت تمامًا.» وبعد بضع دقائق، دخلت نيكي الغرفةَ تبحث عن والدتها. فعانقت إيلي نيكول وأخذت نيكي معها عائدة إلى غرفتهما.

قالت نيكول بعد بضع دقائق قبل أن يعودا إلى النوم: «أنا آسفة يا ريتشارد، لقد فقدتُ صوابي اليوم.»

فقال ريتشارد: «أنا أتفهَّم الأمر. من المؤكد أنه كان يومًا بشِعًا.»

مسحَت نيكول عينيها للمرة المليون. وقالت وهي تجبر نفسَها على رسم ابتسامة باهتة: «أتذكر أنني بكيت بهذا الشكل مرةً واحدة فقط في حياتي. كنت في الخامسة عشرة من عمري. وكان والدي قد أخبرني ذات يوم أنه يفكِّر في التقدُّم لخِطبة تلك المرأة الإنجليزية التي كان يواعدها. لم أكن أحبها؛ فقد كانت باردةً ومتحفِّظة، ولكني رأيت أنه من غيرِ اللائق أن أقول أيَّ شيء سيئ عنها لأبي. غير أنني كنت منهارة. فأخذت بطَّتي البرية، دانوا، وهُرعت إلى البحيرة في بوفوا. وأخذت أجدِّف حتى وصلت إلى منتصفها، ثم رفعت المجدافين إلى المركب ومكثت أبكي عدة ساعات.»

استلقيا في صمتٍ بضع دقائق. ثم مالت نيكول ناحيةَ زوجها وقبَّلته. قالت: «شكرًا على إصغائك إليَّ، كنت أحتاج إلى المؤازرة.»

قال ريتشارد: «الأمر ليس هينًا عليَّ أيضًا. لكني على الأقل لم أرَ كيتي بالفعل، فبدا لي …»

قاطعته نيكول فجأةً قائلة: «يا إلهي! لقد كدتُ أنسى … لقد أخبرني آرشي اليوم أنه لن يستطيع أيٌّ منَّا الرحيل إلى عدن الجديدة. وقال إنها مسألةٌ أمنية … من المؤكَّد أن ماكس سيستشيط غضبًا.»

فقال لها ريتشارد برفق: «لا تقلقي بشأنِ هذا الأمر الآن. حاولي أن تنالي قسطًا من الراحة. وسنتحدَّث عن هذا الأمر في الصباح.»

فارتمت بين ذراعيه وغطَّت في سبات عميق.

صاح ماكس: «لأسباب ماذا؟ أمنية. ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟»

نهض باتريك وناي عن مائدةِ الطعام. وقالت ناي وهي تشير إلى الأطفال كي يتبعوها: «اتركوا طعامكم. يمكننا أن نتناول بعضَ الفواكه والحبوب في الفصل.»

لم يرغب أيٌّ من كيبلر وجاليليو في المغادرة. فقد شعرا أن شيئًا مهمًّا على وشْك أن يُقال. ولم يحرِّكا مقعديهما وينهضا إلا عندما التفَّ باتريك حول المائدة واتَّجه إليهما.

أما بينجي فقد سُمح له بالبقاء بعد أن قطع وعدًا لنيكول بألا يقول شيئًا مما سيدور بينهم على مسامع الأطفال. وقد تركت إيبونين المائدةَ إلى أحدِ أركان الغرفة كي تُرضع ماريوس الذي استيقظ من نومه.

قالت نيكول لماكس بعد أن رحل الأطفال: «لا أعلم ماذا يعني هذا. فآرشي لم يوضح شيئًا.»

فقال ماكس: «حسنًا، هذا رائع حقًّا. لا نستطيع الرحيل، ولن يخبرنا أصدقاؤك القذرون هؤلاء بالسبب. لماذا لم تطلبي مقابلةَ مسئولة الأمثلية هناك على الفور؟ ألا تظنين أنهم يَدينون لنا ببعض التفسير؟»

فأجابت نيكول: «بلى، أرى ذلك. وربما يجب أن نطلب جميعًا لقاءً رسميًّا آخرَ مع مسئولة الأمثلية. أنا آسفة يا ماكس، فلم أتعامل مع الموقف بصورة جيدة ... لقد كنت أستعدُّ لمشاهدة لقطات الفيديو الخاصة بكيتي، وأُصدِقك القول، لقد فاجأني آرشي بالقرار.»

فقال ماكس: «اللعنة! إنني لا ألومك شخصيًّا يا نيكول ... وعلى أي حال، نظرًا لأنني أنا وإيب وماريوس فقط الذين ما زلنا نريد العودةَ إلى عدن الجديدة، فإن مهمتنا نحن أن نستأنف هذا القرار ... وأشكُّ أن مسئولة الأمثلية قد رأت من قبلُ طفلًا بشريًّا في الشهر الثاني من عمره.»

دار بقيةُ الحوار في أثناء الإفطار عن كيتي وما رأته نيكول في اليوم السابق في مقاطع الفيديو. فشرحت لهم مجمل حياة كيتي التَّعسة دون الدخول في الكثير من التفاصيل.

عاد باتريك وأخبرهم أن الأطفال منشغلون في دروسهم. ثم قال مخاطبًا جميعَ الجالسين إلى مائدة الطعام: «لقد تحدثتُ أنا وناي عن العديد من الأمور. أولًا، نود منك يا ماكس أن تحفظ لسانك أكثرَ أمام الأطفال فيما يخص تعليقاتك السلبية عن كائنات الأوكتوسبايدر ... لقد بدءوا يشعرون بالخوف عندما يحضُر آرشي أو الدكتورة بلو؛ فمن الواضح أن سببَ ردودِ أفعالهم هو أنهم استرقُوا السمعَ أثناء المناقشات التي تدور بيننا.»

رفع ماكس رأسَه في استياء، وكان على وشْك أن يبدأ في الرد. فأضاف باتريك بسرعة: «من فضلك يا ماكس، أنت تعلم أنني صديقك ... دعنا لا نتجادل في هذا الأمر. فقط

فكِّر فيما قلتُ وتذكَّر أنه من الممكن أن نظل جميعًا هنا مع كائناتِ الأوكتوسبايدر فترةً طويلة …»

ثم استأنف: «ثانيًا، أشعر أنا وناي، لا سيما في ضوءِ ما سمِعناه هذا الصباح، أنه يجب أن يتعلَّم الأطفال لغةَ كائنات الأوكتوسبايدر. ونود أن يبدءوا ذلك في أسرعِ وقت ممكن … ونرى أننا سنحتاج معنا إلى إيلي أو أمي، بالإضافة إلى كائن أوكتوسبايدر أو اثنين … ليس لتعليم الأطفال فقط، ولكن لجعلهم يشعرون بالأُلفة مرةً أخرى مع مضيِّفينا الفضائيِّين … فقد رحل هرقل منذ شهرين الآن … فهلا تتحدَّثين من فضلك يا أمي مع آرشي بهذا الشأن؟»

فأومأت نيكول برأسها موافقة، فاستأذن باتريك للانصراف قائلًا إنه ينبغي له العودة إلى الفصل. فبادر بينجي بالقول: «لقد أصبح باتريك معلِّمًا جيدًا. إنه صبور للغاية معي ومع الأطفال.»

ابتسمت نيكول ونظرت إلى ابنتها الجالسةِ إلى الجهة المقابلة من مائدة الطعام. وقالت في نفسها: «بالنظر إلى كل شيء، لم يَخِب أملُنا في أولادنا. يجب أن أكون سعيدة بباتريك وإيلي وبينجي. ولا أعذِّب نفسي كثيرًا بشأن كيتي.»

في أحدِ أركانِ غرفةِ نومها، انتهت ناي واتانابي من تأمُّلاتها، وتلت صلاةَ الصباح تبَعًا للتعاليم البوذية، التي كانت جزءًا من طقوسها اليومية منذ أن كانت فتاةً صغيرة في تايلاند. وخرجت إلى غرفةِ المعيشة متجهةً إلى غرفة النوم الأخرى لتوقظ ولدَيها التوءمين، واندهشت عندما وجدت باتريك نائمًا على الأريكة. وكان لا يزال يرتدي ملابسَه وجهاز القارئ الإلكتروني الخاص بها على صدره.

هزَّته برفق. وقالت: «استيقظ يا باتريك، لقد طلع الصبح … وقد نمْتَ هنا طوال الليل.»

فاستيقظ باتريك بسرعة، واعتذر لناي. وأخبرها وهو في طريقه إلى الخروجِ أنَّ لديه عدةَ موضوعات — عن البوذية بالطبع — يود مناقشتها معها ولكنه رأى أنها من الممكن أن تنتظر حتى وقت مناسب. فابتسمت ناي وطبَعت قُبلة رقيقة على وجنته قبل أن تخبره أنها ستحضُر هي والأطفال لتناول طعام الإفطار في غضون نصف ساعة.

قالت ناي لنفسها وهي تراه يبتعد: «إنه شاب يافع ومخلِص. وإنني أستمتع حقًّا بصحبته … ولكن هل من الممكن أن يحل أيُّ شخص محلَّ كينجي ويكون زوجي؟»

وتذكَّرت ناي الليلةَ السابقة. فبعد أن أخلد التوءمان إلى النوم، دار بينها وبين باتريك حوارٌ جادٌّ طويل. فقد أبدى باتريك رغبته في أن يعجِّلا بالزواج. ولكنَّ ناي أجابته أنها لا تريد التعجل، وأنها ستوافق على ميعادٍ محدَّد لعقد الزواج عندما تشعر أنها مرتاحة تمامًا للفكرة. ثم سألها باتريك بعد ذلك بحرجٍ عن إمكانيةِ أن يكون بينهما ما أطلق هو عليه «علاقة جسدية أقوى» وهما ينتظران الزواج. فذكَّرته ناي بأنها أخبرته منذ البداية أنهما لن يتبادلا سوى القُبلات حتى يتزوجا. وكي تهدئ من مشاعره، أكَّدت له أنها تجده جذابًا من الناحية الجسدية، وأنها تتطلع حقًّا ليكون بينهما علاقة حميمة بعد أن يتزوجا، ولكن ستظل «العلاقة الجسدية» ممنوعة في الوقت الحالي طبقًا للأسباب التي ناقشوها عشرات المرات.

تحدَّث الاثنان أغلبَ الأمسية إما عن التوءمين أو عن البوذية. وقد أعربت ناي عن مخاوفها من أنه قد يكون للزواج تأثيرٌ سلبيٌّ على جاليليو، ولا سيما أن الصبيَّ كثيرًا ما يرتدي عباءة حامي والدته. ولكنَّ باتريك قال لناي إنه لا يعتقد أن الاختلافات المتكررة بينه وبين جاليليو ترتبط بالغَيرة. وقال: «إن الصبي يستاء من وجود أي سلطة عليه ويعارض تقويم السلوك ... وعلى العكس من جاليليو، فإن كيبلر ...»

سألت ناي نفسَها عن عدد المرات التي علَّق فيها شخص طَوال السنوات السبع الماضية قائلًا: «وعلى العكس من جاليليو، فإن كيبلر ...» وتذكَّرت حين كان كينجي لا يزال على قيد الحياة وكان الطفلان يبدآن في السير. كان جاليليو يسقط دائمًا ويرتطم بالأشياء. وعلى العكس من جاليليو، فإن كيبلر كان حريصًا ودقيقًا في خطواته. ولم يقع قطُّ تقريبًا.

لم تكن اليَراعات العملاقة قد أعلنت عن بزوغِ فجرِ مدينة الزمرد بعدُ. فتركت ناي لخيالها العِنان مثلما تفعل معظم الوقت بعد أن تنتهيَ من تأملاتها. وانتبهت إلى أنها كانت تعقد كثيرًا من المقارنات مؤخرًا بين كينجي وباتريك. فقالت في نفسها: «هذا ليس عدلًا مني. لا يمكن أن أتزوج باتريك حتى يتوقَّف ذهني عن هذه المقارنات تمامًا.»

ثم عادت لتفكِّر في الليلة السابقة. وابتسمت عندما تذكَّرت حوارهما المتحمِّس عن حياة بوذا. وقالت في نفسها: «ما زال باتريك يتمتَّع بسذاجة الأطفال ومثاليتهم النقية. إنها أحدُ أكثر الأشياء التي أحبُّها فيه.»

فقد قال باتريك تلك الليلة: «إنني معجب بفلسفة بوذا البسيطة ومنهجيته. معجب بها حقًّا ... ولكن لا تزال لديَّ بعض النقاط التي لا أفهمها ... كيف تعبدين رجلًا ترك زوجتَه وابنه وهجرهما ليصبح متسولًا ... ماذا عن مسئوليته تجاه عائلته؟»

فأجابته ناي: «إنك بهذا تُخرِج أفعالَ بوذا من سياقها التاريخي. أولًا، قبل ألفين وسبعمائة عام في شمال الهند، كان التجوُّل في الشوارع والتسول أسلوبًا مقبولًا للحياة. فقد كان هناك بعضٌ ممن يعيشون على هذا النحو في كل قرية والكثير منهم بالمدن. فعندما كان الرجل يريد البحث عن «الحقيقة» تكون أول خطوة طبيعية له هي التبرؤ من كل وسائل الراحة المادية ... إلى جانب أنك نسيت أن بوذا كان ينتمي إلى عائلة ثرية للغاية. أي إنه لم يكن هناك أيُّ شكٍّ لديه في توفر الطعام والمأوى والملبس وضرورات الحياة الأخرى لزوجته ولطفله ...»

لقد تحدَّثا ساعتين تقريبًا ثم تبادلا القُبلات بعضَ الوقت قبل أن تذهب ناي وحدَها إلى غرفةِ نومها. وعندما ألقَت عليه تحيةَ المساء من عند باب غرفتها كان هو قد عاد ليقرأ عن البوذية.

عندما اندفعت اليَراعة العملاقة تغمُر مدينةَ كائنات الأوكتوسبايدر بالضوء، كانت ناي مستغرِقة في التفكير تقول لنفسها: «كم من الصعب أن أشرح التعاليمَ البوذية وارتباطها بالحياة لشخصٍ لم يرَ كوكب الأرض قط ... ولكن حتى هنا، في هذا العالم الفضائي الغريب بين النجوم، لا تزال الرغبات تسبِّب المعاناةَ ولا يزال البشر يبحثون عن السَّكينة الروحية. لهذا ستظل بعضُ عناصرَ من البوذية والمسيحية وغيرهما من الديانات العظيمة التي ظهرت على الأرض باقيةً ما دام البشر موجودين في أي مكان.»

١١

هبَّ ريتشارد من مضجعه بحماسةٍ تفوق حماستَه المعتادة، وأخذ يتحدَّث بسرعة إلى نيكول. قال لها وهو يرتدي ملابسه: «تمنَّي لي حظًّا سعيدًا. لقد أخبرني آرشي أننا سنتغيب طَوال اليوم.»

كان من عادةِ نيكول أنها تستيقظ من نومها ببطء شديد ولا تحب على الإطلاق أيَّ نشاط كبير في الساعات الأولى من الصباح، فتقلبت على فراشها إلى الجهة الأخرى وحاولت أن تستمتع بآخرِ بضع لحظاتٍ من نومها. وفتحت إحدى عينيها قليلًا، وعندما رأت أن المدينة لا تزال مظلمة، أغمضتها مرةً أخرى.

فقال ريتشارد: «إنني لم أشعر بهذه الحماسة منذ أن أحرزت التقدمين الأخيرين في مشروع المترجم. أعلم أن كائنات الأوكتوسبايدر جادين في إيجاد عمل لي ... إنهم فقط يحاولون إيجادَ المهمة المناسبة لي.»

غادر ريتشارد غرفةَ النوم عدةَ دقائق. ومن الضوضاء الصادرة من المطبخ، استنتجت نيكول نصف النائمة أنه يُعِدُّ طعامَ الإفطار لنفسه. ثم عاد وهو يأكل واحدة من الفواكه الضخمة القرنفلية اللون التي أصبحت المفضَّلة لديه. ووقف إلى جوار الفراش يمضغ الطعام بصوتٍ عالٍ.

فتحت نيكول عينيها ببطء ونظرت إلى زوجها. وقالت وهي تتنهَّد: «أظن أنك تنتظر أن أقول لك شيئًا.»

فقال: «نعم. سيكون من اللطيف أن نتبادل المزاح قبل أن أغادر. فقد يكون هذا هو أهم يوم لي منذ أن وصلنا إلى مدينة الزمرد.»

فقالت نيكول: «هل أنت واثق أن آرشي يعتزم العثورَ على عمل لك؟»

فأجابها ريتشارد: «قطعًا. هذا هو الهدف مما سنفعله اليوم. فسيطلعني على بعض نُظمهم الهندسية الأكثرِ تعقيدًا، ويحاول معرفةَ المكان الذي يمكن فيه استغلال مواهبي الاستغلال الأمثل ... أو على الأقل هذا ما أخبرني به بعد ظهر أمس.»

فسألته نيكول: «ولكن لماذا تغادر في هذا الوقت المبكر؟»

«لأن هناك الكثير من الأشياء التي تنتظرني على ما أظن ... وعلى أي حال، أعطني قبلة. سيصل آرشي في غضون بضع دقائق.»

قبَّلت نيكول ريتشارد بصورةٍ روتينية وعادت لتغلق عينيها مرةً أخرى.

كان بنك الأجنة مبنًى ضخمًا مستطيلًا يقع إلى أقصى جنوب مدينة الزمرد، بالقرب من نهاية السهل الرئيسي. وعلى بُعد أقلَّ من كيلومتر من المكان الذي شُيِّد فيه البنك، كانت ثلاثة سلالم، كلٌّ منها يتكوَّن من عشرات الآلاف من الدرجات، تأخذ مَن يعتليها إلى مسرح القطب الجنوبي. وفوق بنك الأجنة، في ظلام راما شبه الحالك، يبدو للعيان بناء القرن الكبير الشاهق والقرون الصغيرة المحيطة به الحادة القمم، التي يفوق حجمُ كلٍّ منها حجمَ أي بناء معماري على كوكب الأرض.

كان ريتشارد وآرشي قد ركِبا نعامصور في أطرافِ مدينة الزمرد. وقَطعا معًا الموطنَ البديل في غضون دقائق، وكان برفقتهما حارسٌ وثلاث يراعات. وعند الأطراف الجنوبية من مملكة كائنات الأوكتوسبايدر، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المباني. ومع أنهما كانا يمران ببعض حقول الحبوب من حين إلى آخر، فإن معظم المنطقة التي سافروا عبْرها في طريقهم إلى الجنوب قد ذكَّر ريتشارد بالنصف الشمالي من مركبة راما الثانية، حتى في ذلك الضوء الخافت، قبل أن يُبنى الموطنان.

دلف ريتشارد وصديقه الأوكتوسبايدر إلى بنكِ الأجنة عبْر بابين شديدي السُّمك قاداهما مباشرةً إلى قاعة مؤتمرات ضخمة. وهناك تعرَّف ريتشارد عددًا آخرَ من كائنات الأوكتوسبايدر الذين كانوا من الواضح يتوقَّعون زيارته. وكان ريتشارد يستخدم مترجمه الخاص وهم يقرءون حركةَ شفتيه، إلا أنه كان يُضطر إلى الحديث ببطء وتمييز كلماته؛ لأنهم لم يكونوا متمرسين في لغةِ البشر بعدُ مثل آرشي.

وبعد بعض الإجراءات الشكلية، قاد أحدُ كائنات الأوكتوسبايدر الاثنين إلى سلسلةٍ من لوحاتِ التحكُّم التي تضم نظيرًا للوحات المفاتيح، مصنوعةٍ من شرائط ألوان كائنات الأوكتوسبايدر. وقالت الأوكتوسبايدر القائدة في المقدِّمة التي افتتحت بها حديثَها: «لدينا تقريبًا عشرة ملايين جنين محفوظ هنا لأكثر من مائة ألف نوع مختلف من الكائنات، وثلاثة أضعاف هذا الرقم من أجنة الكائنات المهجَّنة. ويتراوح متوسط أعمارهم الطبيعية ما بين نصف تيرت إلى عدة ملايين من الأيام، أو ما يقرُب من عشرة آلاف عام بزمن البشر. ويتراوح حجمُ الأفراد البالغين من هذه الفصائل ما بين جزء من نانومتر إلى أحجامٍ عملاقة في حجم هذا المبنى تقريبًا. ونحتفظ بكل جنين هنا فيما نعتقد أنها الظروف المُثلى تقريبًا للحفاظ عليه. وعلى أي حال، إننا نحتاج إلى حوالي ألف بيئة مختلفة، ومزيج من درجات الحرارة والضغط والعوامل الكيميائية المحيطة بالأجنة، لتحقيق مجموعة الظروف المطلوبة.

«ويضم هذا المبنى أيضًا نظامًا مهولًا لإدارة البيانات والمراقبة. ويتحقَّق هذا النظام تلقائيًّا من الظروف في كلٍّ من البيئات المختلفة، ويراقب التطوُّر المبكر لعدة آلاف من الأجنة التي تكون في حالةِ نمو نشط. ويتمتَّع النظام أيضًا بتقنيات أوتوماتيكية لاكتشاف الأخطاء ومعالجتها، ونظام إنذار يعمل وفق متغيرين، كما أنه يسوق الصورَ والفيديو التي يمكن أن تعرِض الحالات أو تصنِّف المعلومات، على الحائط هنا أو في أيٍّ من مناطقِ البحث في الطوابق العليا.»

أخذ عقلُ ريتشارد يعمل بسرعةٍ رهيبة عندما بدأ يفهم بوضوحٍ أكثرَ الغرضَ من بنك الأجنة. وفكَّر في نفسه: «يا لها من فكرة رائعة. كائنات الأوكتوسبايدر تحفظ هنا جميعَ بذور أجناس النباتات وفصائل الحيوانات التي من الممكن أن تحتاج إليها لأي غرض.»

كانت القائدة تقول: «... والاختبارات مستمرة للتأكُّد من سلامة نظامي الحفظ والتخزين، ولتوفير عيناتٍ من أجل تجارب الهندسة الوراثية. وستجد في أي وقتٍ هنا مائتي أوكتوسبايدر تقريبًا من علماء الأحياء مشغولين في تجاربَ على الجينات. والهدف من هذا الكم من التجارب هو إنتاجُ أشكالٍ معدَّلة من الكائنات الحية تحسِّن من إنتاجية مجتمعنا ...»

فقاطعها ريتشارد سائلًا: «هل من الممكن أن تريني مثالًا لهذه التجاربِ على الجينات؟»

فأجابته الأوكتوسبايدر: «بالطبع.» ثم اتجهت إلى لوحة التحكُّم واستخدمت ثلاثًا من لوامسها للضغط على سلسلةٍ من الأزرار الملوَّنة. وقالت وصورة فيديو تظهر على الحائط: «أعتقد أنك قد تعرَّفت إحدى وسائلنا الأساسية لتوليد الطاقة. وكما تعرف فإن فكرتها الأساسية بسيطةٌ إلى حدٍّ كبير. فالكائنات البحرية الدائرية الشكل تولِّد الشحنات الكهربية وتخزِّنها في جسدها. ونحن نحصل على هذه الشحنات من خلال شبكةٍ من الأسلاك التي يجب أن تضغط عليها هذه الكائنات للوصول إلى طعامها. ومع أن هذا النظام مُرضٍ إلى حدٍّ بعيد، فقد أشار مهندسونا إلى أنه من الممكن إدخالُ تعديلات جوهرية عليه إذا ما تغيَّر سلوكُ هذه الكائنات بصورةٍ ما.

«انظر إلى هذه الصورة المقرَّبة التي تعرِض بسرعةٍ عاليةٍ ستةً من المخلوقات البحرية التي تولِّد الطاقة. لاحظ أنه خلال هذه الصورة المتحرِّكة ببطء سيمر كلُّ حيوان من هذه الحيوانات عبْر ثلاث أو أربع دورات لتوليد الشحنات الكهربية وتفريغها. ما هي السِّمة في هذه الدورات التي ستكون أكثرَ أهميةً في نظر مهندس النظام؟»

شاهد ريتشارد الشريطَ بدقَّة. وفكَّر في نفسه: «يخبو توهُّج حيوانات الدولار الرملي بعد تفريغ شحناتها، ولكنها تستعيد كامل توهُّجها في فترةٍ زمنية قصيرة نسبيًّا.»

فقال ريتشارد وهو يتساءل في داخله فجأةً عما إذا كان يمرُّ باختبارٍ من نوعٍ ما: «إذا افترضنا أن التوهُّج هو مقياس للكهرباء المختزنة، فسيكون النظام أكثرَ فعاليةً مع زيادة عدد مرات تناول الطعام.»

فأجابته الأوكتوسبايدر القائدة: «بالضبط.» فأرسل آرشي إليها رسالةً سريعة بالألوان انتهت قبل أن يوجِّه ريتشارد تلسكوب جهاز المترجِم الخاص به إليه. وفي تلك الأثناء، ظهرت صورةٌ مختلِفة على الحائط. فواصلت القائدة: «هنا ثلاثة أشكال معدَّلة جينيًّا من الكائنات البحرية الدائرية التي لا تزال تحت الاختبار والتقييم. وذلك الموجود إلى اليسار هو المرشَّح الأول ليحلَّ محلَّ الكائنات الحالية. ويبلغ عدد المرات التي يتناول فيها هذا النموذجُ المبدئي طعامَه تقريبًا ضِعف عدد المرات التي يأكل فيها الكائن الحالي؛ لكنَّ لديه خللًا في عملية الأيض يزيد من حساسيته للأمراض المعدية بنسبة كبيرة، فنحن نضع في اعتبارنا جميعَ العوامل في التقييم الحالي …»

انتقل ريتشارد من عرضٍ إلى آخر. وصاحبه آرشي طوال الوقت، ولكن في كل مكان كانت مجموعة مختلفة من كائنات الأوكتوسبايدر المتخصصة تنضم إليهما من أجل المحاضرة المختصرة والمناقشة الجماعية التي تتبعها دائمًا. وقد كان أحدُ العروض يركِّز على العلاقات بين بنك الأجنة وحديقة الحيوانات الضخمة التي تحتل مساحةً ضخمة من الموطن البديل، وحاجز الغابات الذي يشكِّل دائرةً كاملة حول راما، على بُعد أقلَّ من كيلومتر شمال مدينة الزمرد. قال المحاضر: «جميع الكائنات الحية في مملكتنا إما تربط بينها علاقة تكافلية نشطة، أو تحت الملاحظة المؤقتة في موطن معزول — في حديقة الحيوان أو الغابة أو — في حالتكم تحديدًا — في مدينة الزمرد نفسِها — أو تُجرى عليهم تجاربُ هنا في بنك الأجنة.»

وبعد أن قطع ريتشارد وآرشي مسافةً طويلة سيرًا مجتازين أكثرَ من رواق، حضرا اجتماعًا مع ستة من كائنات الأوكتوسبايدر يُجرون تقييمًا لاقتراحٍ بإحلالِ سلسلة تكافلية كاملة تتكوَّن من أربعة أنواع مختلفة من الكائنات. وقد كانت السلسلة مسئولة عن إنتاج مادة جيلاتينية تعالج داءً يصيب عدسة كائنات الأوكتوسبايدر تحديدًا. استمع ريتشارد بانبهار في الوقت الذي كانت كائنات الأوكتوسبايدر تُجري مقارنةً بين مؤشراتِ اختبارِ السلسلة التكافلية الجديدة ومؤشرات النظام الموجود بالفعل — وقد شمِلت المقارنةُ استهلاكَ الموارد، ومعدَّلات التكاثر والتفاعل المطلوب من كائنات الأوكتوسبايدر، ومُعامل الخطأ، وإمكانية توقُّع سلوكياتها. وقد انتهى الاجتماع إلى أنه سيُستعان بالسلسلة الجديدة في واحدة من «مناطق» التصنيع الثلاث لعدة مئات من أيام التشغيل، وبعد ذلك سيُنظر في القرار مرةً أخرى.

وفي منتصف يوم العمل، كان من المخطَّط أن يقضيَ آرشي وريتشارد نصفَ تيرت وحدَهما. وبناءً على طلب ريتشارد، فقد أخذا طعامَ الغداء والمشروبات في حقائبهما وركِبا النعامصور واستعانا بيراعتين وخرجا للتجوُّل في السهل الرئيسي وسط الظلام والبرد. وعندما ترجَّل ريتشارد عن النعامصور، أخذ يتجوَّل وذراعاه مبسوطتان أمامه محدِّقًا في فضاء راما.

ثم سأل آرشي: «مَن منكم يكترِث، أو حتى حاول اكتشافَ، أهمية كلِّ هذا؟» ولوَّح بذراعيه في حركة دائرية.

أجابه الأوكتوسبايدر إنه لم يفهم السؤال. فقال ريتشارد وهو يبتسم: «بل إنك تفهمه أيها الماكر. بغض النظر عن هذه الفترة التي خصَّصها قادتُك لنوعٍ مختلِف من النقاش بيننا … ما أريد أنا مناقشته يا آرشي ليس القِسم الذي أحبُّ العمل فيه من أقسام الهندسة

في بنك الأجنة الخاص بكم حتى أشارك «بإسهاماتي» التي ستبرِّر «الموارد» التي أستهلكها لإبقائي على قيد الحياة ... ما أريد التحدُّث بشأنه معك هو ما يحدُث هنا حقًّا. لماذا نحن — البشر والكائنات اللاسويقية وتلك الطائرة وأنتم بمعرض الكائنات الذي لديكم — على متن هذه المركبة الفضائية الغامضة نتجه إلى النجم الذي نطلِق عليه نحن البشرَ تاو سيتي؟»

لزِم آرشي الصمتَ ثلاثين ثانية تقريبًا. ثم قال: «بلَغ أفرادًا من بني جنسنا عندما كانوا في النود، كما كنتم، أن جنسًا أعلى من الكائنات الذكية يحاول تصنيفَ أشكال الحياة في المجرة، مع تركيزٍ خاصٍّ على الكائنات الفضائية. فقمنا بتكوين مستوطنة تمثِّل نموذجًا من حياتنا، كما طُلِب منا، ونقلناها إلى داخل مركبة راما الفضائية هذه حتى يجمعوا المشاهدات المفصَّلة المطلوبة عن جنسنا.»

«أي أنكم يا كائنات الأوكتوسبايدر لا تعرفون أكثرَ مما نعرفه نحن عمَّن وراء هذا المخطط الكبير، أو هدفه؟»

فأجابه آرشي: «كلا. في الواقع نحن نعرف أقلَّ منكم على الأرجح. فلا يوجد أيٌّ من كائنات الأوكتوسبايدر التي قضت وقتًا في نود يعيش معنا هنا. فكما أخبرتك من قبل، مجموعة كائنات الأوكتوسبايدر التي كانت على متن مركبة راما الثانية كانت مختلِفة، كانت نوعًا أقلَّ رقيًّا منَّا. والمعلومات الوحيدة المستقاة من المصدر مباشرةً عن نود والموجودة الآن على متن هذه المركبة الفضائية مصدرها أنت وعائلتك، بالإضافة إلى معلوماتٍ مضغوطة من المحتمل أنها لا تزال موجودة داخل الكائنات اللاسويقية المحدودة السَّعة التي ما زلنا نحتفظ بها في حديقة الحيوانات.»

فقال ريتشارد: «وهذا كلُّ ما في الأمر؟ ألا يطرح أيٌّ منكم المزيدَ من الأسئلة؟»

فأجابه آرشي: «لقد تدرَّبنا في الصبا على ألا نضيعَ وقتًا في الموضوعات التي لن نحصل منها على أي بيانات هامة.»

صمت ريتشارد لحظة. ثم سأله على حينِ غِرة: «كيف تعرف هذه المعلومات كلَّها عن الكائنات اللاسويقية والطائرة؟»

فقال آرشي بعد صمتٍ لم يستمر طويلًا: «أنا آسف يا ريتشارد، ولكن لا يمكنني التحدُّث معك عن هذا الأمر الآن ... والمهمة المنوطة بي في فترة الغداء هذه، كما استنتجتَ أنت، أن أتحقَّق مما إذا كان سيسعدك قبولُ العمل في مجال الهندسة الوراثية في بنك الأجنة، وإذا قبِلت، فأيُّ الأقسام الكثيرة التي رأيتها اليوم يثير اهتمامَك أكثرَ من غيره.»

فقال ريتشارد ضاحكًا: «إنك تغيِّر الموضوع تمامًا.» ثم أضاف «نعم، يا آرشي، إن كلَّ الأقسام رائعة، لا سيما ما أسميه قِسم دائرة المعارف. وأظن أنني أودُّ العمل هناك

— فبهذه الطريقة يمكنني أن أزيد من معرفتي الضئيلة بعلم الأحياء. ولكن لماذا تطرح عليَّ هذا السؤال الآن؟ ألن نرى المزيدَ من «العروض» بعد الغداء؟»

فقال آرشي: «نعم. ولكن تم وضعُ برنامج بعد ظهيرة اليوم ضمِن جدول يومك من بابِ إطلاعك على الصورة الشاملة ليس إلا. فنصف بنك الأجنة مخصَّص لعلم الأحياء الدقيقة. وإدارة هذا النشاط أمرٌ بالغ التعقيد ويتطلَّب التواصل مع الأقزام من كائنات الأوكتوسبايدر. ومن الصَّعب علينا أن نتخيَّلك تعمل في أيٍّ من هذه الأقسام.»

أسفل معمل الميكروبيولوجي الرئيسي كان هناك دور أرضي لا يدخله سوى مَن يحملون تصريحًا خاصًّا. وعندما ذكر آرشي أن عددًا كبيرًا من طفيليات التصوير الطائرة قد أُنتِجت في هذا الدور الأرضي من بنك الأجنة، كاد ريتشارد أن يترجَّاه كي يشاهدَ عملية الإنتاج. فتوقَّفت جولةُ ريتشارد الرسمية مؤقتًا، ووقف في مكانه لا يفعل شيئًا لعدة فينج بينما كان آرشي يحصل على التصريح كي يزورا «حضانة» الطفيليات.

قادهما اثنان آخران من كائنات الأوكتوسبايدر عبْر سلسلةٍ من السلالم الطويلة إلى المنطقة الواقعة تحت الأرض. وقال آرشي لريتشارد: «لقد بُنيت الحضانة أسفلَ مستوى الأرض بمسافةٍ كبيرة عن عَمدٍ لضمان مستوًى أكبر من العزلة والحماية. ولدينا ثلاث منشآت مشابهة موجودة في أماكن متفرقة في موطننا.»

قال ريتشارد في نفسِه عندما خرج هو ورفاقه الثلاثة إلى منصةٍ مرتفعة تُطِل على طابقٍ شاسع مستطيل الشكل: «اللعنة.» فقد تعرَّف ما رآه من فوره. فقد كان هناك على بُعد عدة أمتار أسفلهم، حوالي مائة قَزَم من كائنات الأوكتوسبايدر منتشرين في المكان يؤدون مهامَّ غير معروفة. وكان يتدلَّى من السقف ثماني شبكات مستطيلة الشكل، يبلغ طول كلٍّ منها نحو خمسة أمتار وعرضها مترين، موزَّعة توزيعًا منظمًا في أرجاءِ الغرفة. وأسفل كلٍّ من هذه الشبكات مباشرةً كان هناك جسمٌ بيضاوي الشكل له طبقةٌ خارجية صلبة. وكان كلٌّ من هذه الأجسام الثمانية يشبه حبةَ جوزٍ ضخمة الحجم ومحاطة بنباتات معترشة نامية أو شِباك.

قال ريتشارد بانفعال: «لقد رأيت نموذجًا مشابهًا من قبل. منذ عدة سنوات أسفل نيويورك. لقد كان ذلك قبل أول مواجهة شخصية لي مع أحد أبناء جنسك الآخرين مباشرة. وقد ارتعدَت فرائصي أنا ونيكول.»

فأجابه آرشي: «أظن أني قرأت شيئًا عن هذا الموقف. فقبل أن نُحضِر إيلي وإيبونين إلى مدينة الزمرد، درستُ جميعَ الملفات القديمة عن نوعِكم. وقد كانت بعض البيانات مضغوطة؛ لذا فلم يكن هناك الكثير من التفاصيل عن ...»

فقاطعه ريتشارد قائلًا: «إنني أذكر هذا الموقفَ وكأنه وقعَ أمس. لقد وضعت إنسانين آليَّين صغيري الحجم في نفقٍ صغير واختفيا فيه. ثم دخلا منطقةً مثل هذه وبعد أن تسلَّقا فوق بعض هذه الشبكات، طاردهما أحدُ أبناء نوعك وأمسك بهما ...»

«من المؤكَّد أنهما قد دخلا بطريق الخطأ إلى حضانةِ طفيليات. وقد تصرَّف الأوكتوسبايدر لحمايتهما. الأمر بسيطٌ للغاية ...» ثم أشار آرشي إلى المهندس مرشدهما أنه قد حان الوقت ليلقيَ هو كلمته.

فقال الأوكتوسبايدر المهندس شارحًا: «تقضي ملِكات الطفيليات فتراتِ الحمل في حجيراتٍ خاصة ترتفع فوق مستوى الأرض مباشرة. وتضع كلٌّ ملكة منهن آلاف البيضات. وعندما يصل عددُ البَيض إلى عدة ملايين، يُجمع معًا ويُوضع في إحدى تلك الحاويات البيضاوية الشكل. وتكون درجة حرارة باطن الحاويات مرتفعةً للغاية وهو ما يقلِّل الوقتَ المستغرَق لنمو هذه الطفيليات بنسبةٍ كبيرة. وهذه الشِّباك السميكة حول الحاويات تمتص الحرارة الزائدة حتى تكون ظروف العمل مواتية للأقزام الذين يشرفون على الحضانة ...»

لم يكن ريتشارد يُنصِت بكامل تركيزه. فقد كان اهتمامه الحقيقي منصبًّا على لحظةٍ مرَّ بها قبل سنوات طويلة. قال في نفسه: «الآن لقد اتضح كل شيء. لقد كان ذلك النفق الضئيل خاصًّا بالأقزام.»

«... ومِجسَّات المراقبة داخل الحاويات تحدِّد بالضبط متى تكون الطفيليات جاهزةً للانطلاق خارجها. ويجري غمرُ هذه الشبكات بالمواد الكيميائية المناسِبة قبل أن يفقس البَيض تلقائيًّا بفينجات قليلة. فتطير الملِكات الجديدة أولًا منجذبة إلى العناصر الموجودة بالشبكات، وبعد ذلك تتبعهم أسرابُ الذكور المثارين مخلِّفين سحاباتٍ سوداءَ مرئية رغم حجمهم الصغير. ويجري جمعُ الطفيليات من الشِّباك وتُلحق على الفور بتدريب جماعي ...»

فقال ريتشارد: «رائع جدًّا. ولكن لديَّ سؤال بسيط. لماذا تلتقط الطفيليات لكم هذه الصورَ كلَّها؟»

فأجابه آرشي: «الإجابة المختصرة لهذا السؤال هو أنها قد صُمِّمت جينيًّا على مدارِ آلاف السنوات كي تستجيبَ لتعليماتنا. نحن — المتخصِّصين من أقزامنا — نتحدَّث اللغةَ

الكيميائية التي تستخدمها هذه الطفيلياتُ في التواصل فيما بينها. فإذا نفَّذوا ما يُطلب منهما، فإنها تحصل على طعامها. أما إذا كان أداؤهم مُرضيًا على مدارِ فترةٍ زمنية طويلة، فيسمح لها بممارسة الجنس.»

«كم نسبة الطفيليات التي تنفِّذ توجيهاتكم من المجموعة التي تفقس معًا؟»

فأجابه الأوكتوسبايدر المهندس: «يبلغ معدَّل الفشل للصورة الأولى عشرة بالمائة تقريبًا. ولكن بمجرد تحديد نمط العمل، والتأكيد على وجود مكافأة، ينخفض معدَّل الفشل بنسبة كبيرة.»

فقال ريتشارد في استحسان: «هذا مبهر حقًّا. ربما يكون عِلم الأحياء هذا أعمقَ مما كنت أتخيَّل.»

ناقش ريتشارد وآرشي في طريقهما عائدَين إلى مدينة الزمرد نقاطَ القوة والضَّعف في الأنظمة الهندسية البيولوجية وغير البيولوجية. وقد كان حوارًا علميًّا بحتًا لا يفهمه سوى المتخصصين، ولم يتوصَّلوا منه إلى الكثير من الإجابات الحاسمة. وعلى أي حال، فقد اتفقا أن الوظيفة في قِسم دائرة المعارف، التي تتمثَّل أساسًا في حفظِ كمياتٍ هائلة من المعلومات والتعامل معها وعرْضها، تنفِّذها الأنظمةُ غير البيولوجية بالصورة المثلى.

وبمجرد أن اقتربا من المدينة ذات القبَّة، خبا النور الأخضر فجأة. وعاد الظلام يخيِّم على وسط موطن كائنات الأوكتوسبايدر. وبعد ذلك بوقت قصير، ظهرت يراعتان أخريان كي تمدَّا النعامصور بمزيد من الضوء.

كان يومًا طويلًا، وأصاب ريتشارد النَّصَب. وعندما دلفا إلى أطراف الموطِن البديل، ظن ريتشارد أنه رأى شيئًا يطير عاليًا في الظلام إلى يمينه. فسأل: «ماذا حدَث لتامي وتيمي؟»

فأجابه آرشي: «لقد تزاوج كلٌّ منهما وأنجبا عددًا من الأفرخ ... نحن نعتني بأفرخهما في حديقة الحيوان.»

فقال ريتشارد: «هل يمكنني رؤيتهما؟ لقد أخبرتني ذاتَ مرةٍ قبل بضعة أشهر أن هذا سيكون ممكنًا يومًا ما ...»

فأجابه آرشي بعد صمتٍ قصير: «أظن هذا. وعلى الرغم من أن حديقة الحيوانات منطقةٌ تحتاج تصريحًا لدخولها، فإن الجزء المخصَّص للكائنات الطائرة قريبٌ للغاية من المدخل.»

وعندما وصلا إلى أولِ بناء ضخم في الموطن البديل، ترجَّل آرشي عن النعامصور ودخل إلى المبنى. وعندما عاد قال شيئًا للنعامصور. وعندما بدأت الدابة تغيِّر اتجاهها بعيدًا عن الطريق الرئيسي وتسلك طريقَها في الطرق الأصغر من المنطقة قال: «لقد سُمح لنا بزيارة قصيرة فقط.»

قدَّم آرشي ريتشارد إلى حارس حديقة الحيوانات، الذي قادهما في عربةٍ إلى مجمعٍ على بُعد مائة متر فقط من مدخل الحديقة. وجد ريتشارد كلًّا من تامي وتيمي. تعرَّفاه من فورهما؛ وعبَّرا عن سعادتهما بإطلاقِ أصواتهما التي تردَّد صداها في السماء المظلِمة. ثم قدَّم تامي وتيمي ريتشارد إلى مجموعةٍ جديدة من أفرخ المخلوقات الطائرة. كانت خجولة للغاية ولم تدَعْه يلمسها. ولكن كان لا يزال كلٌّ من تامي وتيمي يحبَّان أن يربِّت الرجل الذي ربَّاهما منذ أن خرجا إلى العالم على أسفل بطنهما الناعم. اجتاحت ريتشارد مشاعرُ قويةٌ وهو يتذكَّر الأيام التي كان هو فيها المصدرَ الوحيد للأمان لهما في المخبأ أسفل نيويورك.

ثم ودَّع ريتشارد الطائرين واستقلَّ العربة مع آرشي وحارس الحديقة. وفي منتصف طريقهم عائدين إلى مدخل الحديقة سمِع ريتشارد صوتًا جعل عقلَه يتأهَّب ويعلن حالةَ الطوارئ، واقشعر له جسدُه بالكامل. فلزم السكون التام وركَّز حواسَّه. فتكرَّر الصوت مرةً أخرى قبل أن تتوقَّف العربة التي لا تصدر صوتًا.

أصرَّ ريتشارد قائلًا لنيكول: «من المستحيل أن أكونَ مخطئًا. لقد سمِعته مرتين. فلا يوجد صوتٌ آخر يشبه صوت بكاء طفل بشري.»

فقالت نيكول: «لا أشكِّك فيما تقول يا ريتشارد. إنني أحاول فقط أن أستبعدَ جميعَ المصادر الممكنة الأخرى للصوت الذي سمِعته على نحوٍ منطقي. فصغار المخلوقات الطائرة يصدِرون صوتًا دقيقًا يشبه قليلًا صوتَ بكاء الأطفال … وعلى أي حال، لقد كنتُ في حديقة حيوان. ومن الممكن أن يكون ذلك صوتَ حيوان آخر.»

فقال ريتشارد: «كلا. أنا أعرفُ ما سمِعت. لقد عشت مع عددٍ كبير من الأطفال وسمِعت كثيرًا من بكائهم على مدار حياتي.»

فابتسمت نيكول. وقالت: «الآن تبادلنا الأدوارَ والمواقف، أليس كذلك يا حبيبي؟ هل تذكر ما أجبتني به حين أخبرتك أنني رأيت وجهَ امرأة في تلك اللوحة الجدارية في الليلة التي ذهبنا فيها لمشاهدة مسرحية كائنات الأوكتوسبايدر؟ لقد سخِرت مني وأخبرتني أن ما أقوله «مضحك» إذا كنت أتذكَّر جيدًا.»

«إذن فما هو التفسير المحتمل؟ هل اختطفَت كائنات الأوكتوسبايدر بشرًا آخرين من أفالون بطريقةٍ ما؟ ولم يخبرونا عنهم قط؟ ولكن كيف يمكن ...»

فسألته نيكول: «هل قلت شيئًا لآرشي؟»

«كلا. لقد كنت مصعوقًا بشدة. وفي البداية كنت مندهشًا أنه أو حارس الحديقة لم يعلِّقا على الصوت، ثم تذكَّرت أن كائنات الأوكتوسبايدر صمَّاء.»

خيَّم عليهما الصمت ثوانيَ ثم قالت نيكول: «لم يكن من المفترض أن تسمع تلك الصرخة يا ريتشارد. لقد وقع مضيِّفونا المثاليون في خطأ لا يتفق مع مثاليتهم.»

فضحِك ريتشارد. وقال: «إنهم بالطبع يسجِّلون هذا الحوار. وبحلول الغد سيعرفون أننا نعرف ...»

فقالت نيكول: «دعنا لا نقُل شيئًا للآخرين. ربما يقرِّرون أن يشاركونا سرَّهم، وبالمناسبة ... متى ستبدأ عملك؟»

فأجابها ريتشارد: «وقتما يحلو لي. لقد أخبرت آرشي أن لديَّ بضعَ مهامَّ خاصةٍ بي عليَّ الانتهاء منها أولًا.»

فقالت نيكول: «يبدو أن يومك كان رائعًا. أما نحن فكان كلُّ شيء هادئًا هنا، فيما عدا شيئًا واحدًا. لقد حدَّد باتريك وناي موعدَ زفافهما ... ثلاثة أسابيع من الغد.»

فقال ريتشارد: «ماذا؟ لماذا لم تخبريني قبل ذلك؟»

فضحِكت نيكول. وقالت: «إنك لم تُتِح لي فرصةً لقد ... أتيتَ إلى هنا تتحدَّث دون توقُّف عن بكاء طفل في حديقة الحيوانات، وعن المخلوقات الطائرة، والطفيليات، وبنك الأجنة ... وقد علِمت من خبرتي بك أنه يجب أن تنتظر أخباري حتى تنتهي من حديثك.»

فقال ريتشارد بعد بضع ثوانٍ: «حسنًا يا أمَّ العريس، ما هو شعورك؟»

فقالت نيكول: «بأخذ كل شيء في الاعتبار، أنا سعيدة ... فأنت تعرف شعوري تجاه ناي ... ولكن ما يؤثِّر فيَّ حقًّا هو أنهما في وقت غريب ومكان غريب لبدء حياة زوجية.»

١٢

كان البشرُ يجلسون في غرفةِ معيشةِ منزل ريتشارد ويكفيلد ينتظرون ظهورَ العروس. وكان باتريك يفرُك يديه في عصبية. فقال له ماكس وهو يقطع الغرفةَ متجهًا إليه ويطوِّقه بذراعه: «تحلَّ بالصبرِ أيها الشاب. ستصل عروسك إلى هنا قريبًا ... فكلُّ امرأةٍ تَود أن تبدوَ في أفضل زينتها يوم زفافها.»

فقالت إيبونين: «أنا لم أكن في أفضلِ زينتي. إنني حتى لا أتذكَّر ماذا كنت أرتدي يوم زفافي.»

فقال ماكس وابتسامةٌ عريضة تزيِّن وجهه: «أنا أتذكر جيدًا يا فرنسيتي الجميلة، لا سيما ما كنت ترتدينه في الكوخ. أتذكَّر أنكِ كنت عاريةً معظم الوقت.»

انفجر الجميع ضاحكين. ودخلت نيكول الغرفة. وقالت: «ستكون ناي هنا في غضونِ دقائق قليلة. فإيلي تساعدها في إدخالِ بعض التحسينات الأخيرة على فستانها.» ثم نظرت حولها. وسألت: «أين آرشي والدكتورة بلو؟»

فأجابتها إيلي: «لقد ذهبا إلى منزلهما وسيعودان سريعًا. فلديهما هديةٌ خاصة للعروس.»

فقال جاليليو في امتعاض: «لا أحبُّ وجودَ هذين الكائنين. إنني أقشعر خوفًا لرؤيتهما.»

قالت إيلي له برفق: «بدءًا من الأسبوع القادم يا جاليليو ستكون معك إحدى كائنات الأوكتوسبايدر في المدرسة طوال الوقت تقريبًا ... وستساعدك على تعلُّم لغتهم.»

قال الصبي بتحدٍّ: «أنا لا أريد تعلُّم لغتهم.»

اتَّجه ماكس ليقف إلى جوار ريتشارد. وقال: «كيف يسير العمل يا صديقي؟ إننا لم نكن نراك كثيرًا في الأسبوعين السابقين.»

فأجابه ريتشارد بحماسة: «إنه يستغرق وقتي بالكامل. فأنا أعمل في مشروع دائرة معارف، حيث أساعدهم على تصميمِ مجموعة جديدة من البرامج لعرض جميع المعلومات الحيوية عن مئاتِ الآلاف من أنواعِ الكائنات التي يحتفظون بها في بنك الأجنة ... فكائنات الأوكتوسبايدر تختزن هذه الثروةَ الهائلة من البيانات في مختبرهم، ولكنهم محدودو المعرفة بصورةٍ تثير الدهشةَ فيما يخص كيفيةَ التعامل مع هذه البيانات بصورة فعَّالة. وقد بدأتُ أمس فقط أعمل على بعضِ بياناتِ اختبارٍ حديثٍ أُجري على مجموعةٍ من الكائنات الميكروبيولوجية التي صُنِّفت، طبقًا لتصنيف كائنات الأوكتوسبايدر للكائنات الحية، تبعًا لمجموعة النباتات والحيوانات التي تعتبر هذه الكائنات الميكروبيولوجية قاتلة لها ...»

توقَّف ريتشارد عن الحديث عندما دخل آرشي والدكتورة بلو معًا، وهما يحملان صندوقًا يصل طوله مترًا، مغلَّفًا بالورق الفاخر الذي يستخدمونه. وضع كائنا الأوكتوسبايدر هديتَهما في أحد الأركان ووقفا في الجهة الأخرى من الغرفة. وبعد دقيقة وصلت إيلي وهي تدندن لحنَ الزفاف الشهير من تأليف مينديلسون. وتبِعتها ناي.

كانت عروس باتريك ترتدي زيَّها التايلاندي الحريري. كانت تزيِّنه بالزهور الصفراء والسوداء الرائعة التي أعطتها كائناتُ الأوكتوسبايدر لإيلي. وقد ثبَّتتهم باستخدام دبابيسَ في أماكنَ تُبرِز فتنتَها في فستانها. فنهَض باتريك ليقف إلى جانب ناي أمام والدته. وأمسك العريس بيد عروسه.

طلب الجميع من نيكول أن تتولَّى هي القيامَ بمراسم الزفاف، وأن تجعلها بسيطةً قدْرَ الإمكان. وبينما كانت تستعد لتبدأ إلقاء كلمتها الموجزة، تدفَّقت فجأةً على ذهن نيكول ذكرياتُ احتفالات زواج أخرى مرَّت بها في حياتها. فرأت ماكس وإيبونين، ومايكل أوتول وابنتها سيمون، وروبرت وإيلي ... وارتعد جسدُ نيكول لا إراديًّا وصوتُ الطلقات النارية يدوي مرةً أخرى في ذهنها. وقالت نيكول لنفسِها وهي تجبر نفسَها على العودة إلى الحاضر: «مرةً أخرى، تجمَّعنا هنا معًا.»

لم تستطِع نيكول التحدُّث. وسيطرت مشاعرها عليها. وقالت لنفسها بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا: «هذا آخرُ زفاف أحضُره. لن يكون هناك آخرُ.»

سالت دمعةٌ على وجنتها اليسرى. فسألتها العروس المرهفة الحس دومًا بهدوء: «هل أنتِ بخير يا نيكول؟» فابتسمت نيكول وأومأت برأسها بالإيجاب.

قالت نيكول: «أصدقائي؛ لقد تجمَّعنا اليوم لنشهد زفافَ باتريك رايان أوتول وناي بواتونج واتانابي ونحتفل به. فدعونا نشكِّل دائرةً حولهم ونشبك أذرعنا لنعبِّر لهم عن حبِّنا وتأييدنا لزواجهما.»

وبينما البشر يكوِّنون دائرةً أومأت نيكول إلى كائنَي الأوكتوسبايدر حتى يشتركا فيها، فوضعا لوامسهما حول البشر الذين يقفون إلى جوارهم.

قالت نيكول بصوتٍ متهدِّج: «هل تقبَل يا باتريك أن تكونَ السيدة ناي زوجتَك وشريكةَ حياتك وتحبَّها وترعاها؟»

فقال باتريك: «نعم، أقبل.»

واستأنفت نيكول: «وهل تقبلين يا ناي هذا الرجل، باتريك، زوجًا لك وشريكًا لحياتك وتحبينه وترعينه؟»

فقالت ناي: «نعم، أقبل.»

«إذن أُعلِنكما زوجًا وزوجة.» تعانَق باتريك وناي وأطلق الجميعُ صيحاتِ السعادة. وضمَّ العروسان الجديدان نيكول إلى أول عِناق لهما وهما زوجان.

سألت نيكول ريتشارد بعد أن انتهى الحفل ورحل الضيوف: «هل سبق أن تحدَّثت إلى باتريك عن الجنس؟»

فقال ريتشارد: «لا. ماكس تطوَّع لهذا ... ولكن هذا لن يكون ضروريًّا. فناي كانت متزوجة من قبل ... عجبًا! لقد كنت متوترة للغاية الليلة. لمَ كل هذا؟»

ابتسمَت نيكول. وقالت: «لقد كنت أفكِّر في حفلات الزفاف الأخرى. زفاف سيمون ومايكل، وزفاف إيلي وروبرت ...»

فقال ريتشارد: «هذا الأخير أودُّ أن أنساه حقًّا. للعديد من الأسباب.»

«في أثناء الاحتفال، ظننت أنني بكيت لأنه سيكون على الأرجح آخرَ حفلِ زفاف أحضُره. ولكن بعدها في أثناء الحفل، فكَّرت في شيءٍ آخر. هل شعرتَ بالضيق من قبلُ يا ريتشارد لأننا لم نحظَ بحفل زواج رسمي؟»

فقال ريتشارد وهو يهزُّ رأسه نافيًا: «كلا. لقد احتفلت بزفافي مع سارة من قبل؛ وهذا يكفي ...»

«لكنك حظيت بزفافٍ ولو مرة. أما أنا فلم أحظَ بذلك قط. لقد أنجبت أطفالًا من ثلاثةِ رجالٍ مختلفين، ولم يُقَمْ لي عرسٌ قط.»

صمت ريتشارد عدة ثوانٍ. ثم قال: «وهل تظنين أنك بكيتِ لهذا السبب؟»

فقالت نيكول: «ربما. لست متأكدة.»

أخذت نيكول تتجوَّل في المكان بينما كان ريتشارد غارقًا في أفكاره. ثم قالت: «ألم يكن تمثال بوذا الذي أهداه كائنا الأوكتوسبايدر لناي رائعًا؟ إنه مصمَّم بمهارة فنية مذهلة ... وكنت أظن أن آرشي والدكتورة بلو يستمتعان بوقتيهما بالفعل معنا. لا أدري لمَ جاء جيمي يستدعيهما في وقت مبكر ...»

سألها ريتشارد فجأة: «هل تودين أن نقيمَ حفل زفاف لنا؟»

فضحِكت نيكول. وقالت: «في سنِّنا هذا؟ إن لدينا أحفادًا.»

«ومع ذلك، لو أن هذا سيجعلكِ سعيدة ...»

«هل تطلب يدي يا ريتشارد ويكفيلد؟»

فقال: «نعم. إنني لا أريدك أن تكوني غيرَ سعيدة لأنك لم تكوني عروسًا قط.»

اجتازت نيكول الغرفةَ وقبَّلت زوجها. وقالت: «سيكون هذا الأمر ممتعًا. ولكن دعنا لا نخطِّط لشيء الآن حتى يستقر باتريك وناي. فلا أريد أن أخطف الأضواء منهما.»

ثم سار ريتشارد ونيكول باتجاه غرفة نومهما وكلٌّ منهما يحيط الآخر بذراعه. ثم تفاجآ بظهور آرشي والدكتورة بلو في طريقهما.

قال آرشي: «يجب أن تأتيا معنا حالًا. هناك حالة طوارئ.»

فردَّت نيكول: «الآن؟ في هذه الساعة؟»

فقالت الدكتورة بلو: «نعم. أنتما الاثنان فقط. مسئولة الأمثلية تنتظركما ... ستشرح لكما كل شيء.»

شعرت نيكول بضرباتِ قلبها تتسارع والأدرينالين يتدفَّق في عروقها. فقالت: «هل سأحتاج إلى معطف؟ هل سنغادر المدينة؟»

لسببٍ ما، كان أولُ ما تبادر إلى ذهن نيكول هو أن ذلك الاستدعاء يرتبط ببكاء الطفل الذي سمِعه ريتشارد بعد زيارته الأولى لبنك الأجنة. فهل ذلك الطفل مريض؟ ربما يحتضر؟ ولكن لمَ لا يتجهون مباشرةً إلى حديقة الحيوان القابعة خارج القبة في الموطن البديل؟

وبالفعل كانت مسئولة الأمثلية ومساعداها ينتظران. وكان بالغرفة مقعدان. وبمجردِ أن جلس ريتشارد ونيكول، بدأت قائدة كائنات الأوكتوسبايدر تتحدَّث بلغة الألوان.

قالت: «إننا على وشْك أن نواجه أزمةً كبيرة قريبًا؛ أزمةً قد تؤدي للأسف إلى حربٍ بين جنسينا.» ثم لوَّحت بإحدى لوامسها وبدأت لقطاتُ الفيديو تظهر على الحائط. فاستأنفت حديثَها: «في وقتٍ مبكر من اليوم، بدأت طائرتا هليكوبتر تنقل قواتٍ بشرية من جزيرة نيويورك إلى أقصى شمال مستوطنتنا، بجوار البحر الأسطواني مباشرةً. وتشير المعلومات التي تنقلها إلينا طفيليات التصوير إلى أن جنسكم لا يُعِدُّ لشن هجوم علينا فحسب؛ ولكن أيضًا إلى أن قائدكم، ناكامورا، قد أقنع الجماهيرَ بأننا أعداؤكم. وقد حصل على تأييد مجلس الشيوخ للإعداد للحرب، وأعد في فترةٍ قصيرة نسبيًّا ترسانةَ أسلحة يمكن أن تسبِّب أضرارًا جسيمة لموطننا.»

سكتت مسئولة الأمثلية بينما كان ريتشارد ونيكول يشاهدان لقطات الفيديو التي توضح القنابل ومدافع بازوكا والمدافع الآلية التي تُصنع في عدن الجديدة.»

ثم واصلت حديثَها قائلة: «قامت مجموعةٌ صغيرة من البشَر بغارات استطلاعية في الأيام الأربعة الماضية على الأرض واستخدمَت طائرتَي الهليكوبتر. وقد اخترقت هذه الحملاتُ الاستطلاعية مجالنا الجوي في عمقِ الجزء الجنوبي حتى وصلت إلى حاجز الغابة، وغطَّت النطاق الأسطواني لموطننا بالكامل. وهناك ما يقرُب من ثلاثين بالمائة تقريبًا من إمدادات الطعام والطاقة والمياه في المنطقة التي نفَّذ فيها البشر عملياتهم الاستطلاعية.

لم تحدُث أيُّ اشتباكات؛ إذ إننا لم نقاوم على الإطلاق الأنشطةَ الاستطلاعية. إلا أننا وضعنا لافتاتٍ في مناطقَ حيوية نخبر بها القوات البشرية، باستخدامِ ما نعرفه من لغتكم،

أنَّ نصفَ الأسطوانة الجنوبي بالكامل هو أرضٌ مملوكة لجنسٍ آخرَ متقدِّم ولكنه مسالم، ونطلب منهم العودةَ إلى موطنهم. ولكنهم تجاهلوا هذه اللافتات.»

وقبل يومين، وقعَت حادثة مزعجة. فبينما كنا نحصُد الحبوب من أحد حقولنا الكبيرة، مرَّت طائرة هليكوبتر فوق الحقل. وهبطت في مكان قريب ليترجَّل عنها أربعة جنود. وأعدَم الجنود الحيوانات الثلاثة التي كانت تحصد الحبوب، دون أي عمل استفزازي من جانبها، وهي الحيوانات ذات الأذرع الست نفسِها التي رأيتماها أنتما — الاثنين — في جولتكما الأولى في موطننا، ثم أضرموا النيران في حقل الحبوب. ومنذ ذلك الحادث، تغيَّر محتوى اللافتات، وأوضحنا أن أيَّ سلوك مماثل من جانبهم سيُعدُّ إعلانًا للحرب.

ومع ذلك، فقد أوضحت تصرُّفاتهم في وقتٍ مبكر من اليوم أنهم لم يعيروا تحذيراتنا اهتمامًا، وأن جنسكم يخطِّط لبدء حرب لا يمكن أن ينتصر فيها. وقد كنت أفكِّر اليوم في إعلان الحرب، وهو حدَث جلل في موطن من مواطن كائنات الأوكتوسبايدر، وله عواقبُ غير متوقَّعة على جميع مستويات المجتمع. إلا أنني قبل إصدارِ هذا القرار الذي لا رجعةَ فيه، استشرت القادةَ الذين أحترم آراءهم.

وقد فضَّل الغالبية العظمى منهم إعلانَ الحرب؛ لأنهم لا يرون أن هناك سبيلًا آخرَ لإقناع إخوانكم البشر بأن الحرب ضدنا ستكون كارثةً عليهم. ولكنَّ الأوكتوسبايدر الذي تطلقون عليه آرشي قدَّم لمجلسي اقتراحًا نرى أن أمامه فرصةً ضئيلة للنجاح. ومع أن المحلِّلين الإحصائيِّين لدينا يقولون إن النتيجة الأرجح هي نشوب حرب، فإن مبادئنا تملي علينا أن نفعل كلَّ ما بوسعنا لتجنُّب الحرب … ولَمَّا كان اقتراح آرشي يتطلَّب اشتراككم في الخطة وتعاونكم، فقد استدعيناكم إلى هنا الليلة.»

توقَّفت مسئولة الأمثلية عن الحديث بالألوان وسارت بخطواتٍ ثقيلة إلى جانب الغرفة. فنظر ريتشارد ونيكول أحدهما إلى الآخر نظرةً عجلى. وسألته هي: «هل تابع المترجِم الخاص بك الحديثَ كلَّه؟»

فأجابها ريتشارد: «أغلبه. وبالطبع أفهم مجملَ الموقف … هل لديك أسئلة؟ أم نقترح أن يمضوا في تنفيذ اقتراح آرشي؟»

أومأت نيكول لآرشي، فتحرَّك صديقهم إلى منتصف الغرفة. وقال: «لقد تطوَّعت للتفاوض شخصيًّا مع قادة البشر في محاولةٍ لمنع هذا الصراع قبل أن يتحوَّل إلى حربٍ شاملة. ولكن لتنفيذ هذا، سأحتاج إلى قدْر من المساعدة. إذا ظهرتُ فجأةً في معسكر الجنود البشر، فسيقتلونني. وحتى إذا لم يفعلوا، فلن يكون لديهم سبيلٌ لفهْمِ ما أقوله لهم. لذا

يجب أن يصحبني بشريٌّ يفهم لغتنا لترجمةِ ما سأقوله بالألوان، وإلا لن تكون هناك طريقةٌ لبدء حوارٍ جادٍّ بيننا ...»

بعد أن أخبر ريتشارد ونيكول مسئولةَ الأمثلية أنهما لا يختلفان مع الفكرة التي يقترحها آرشي، تركت مسئولةُ الأمثلية ومساعداها البشريَّين وصديقَهما الأوكتوسبايدر وحدَهم لمناقشةِ التفاصيل. كانت فكرةُ آرشي بسيطة. سيقصد هو ونيكول المعسكرَ القريب من البحر الأسطواني معًا ويطلبان عقْدَ اجتماع مع ناكامورا وقادة البشر الآخرين. وفي ذلك الاجتماع سيشرح آرشي ونيكول أن كائنات الأوكتوسبايدر جنسٌ مُسالِم لا يطالب بأي أطماع إقليمية بالنصف الشمالي من البحر الأسطواني. وسيطلب آرشي أن ينسحب البشرُ من معسكرهم ويوقفوا غاراتهم الجوية. وكدليل على حسنِ نيةِ كائنات الأوكتوسبايدر — إذا دعتِ الضرورة إلى ذلك — سيعرض عليهم آرشي إمدادَهم بكميات من الطعام والماء لمساعدتهم على تجاوُز الأزمات الحالية التي يمرُّون بها. وستنشأ علاقةٌ طيبة مستمرة بين الجنسين، وسيتم صياغةُ مسوَّدةِ معاهدة لتقنين الاتفاق.

فقال ريتشارد بعد أن انتهى من ترجمةِ ما يقوله آرشي: «يا إلهي. وأنا الذي كنت أظن أن نيكول مثالية!»

لم يفهم آرشي تعليقَ ريتشارد. فشرحت له نيكول بصبرٍ أن قادةَ عدن الجديدة على الأرجح لن يكونوا على الدرجة نفسِها من العقلانية التي يفترضها آرشي فيهم. وقالت لتأكيدِ مدى خطورةِ ما يقترحه آرشي: «من الممكن جدًّا أن يقتلونا نحن الاثنين قبل أن يعطونا فرصةً لنقول أيَّ شيء.»

ظل آرشي مصرًّا على أنهم سيوافقون في نهاية الأمر على ما يقترحه؛ فمنِ الواضح أنه في مصلحةِ البشرِ الذين يعيشون في عدن الجديدة. فقال له ريتشارد بنبرةِ إحباط: «اسمع يا آرشي، ما قلته الآن ليس صحيحًا بتاتًا. هناك كثير من البشر، ومنهم ناكامورا، لا يلقون بالًا على الإطلاق لِما هو في مصلحة المستوطنة. وفي الحقيقة، فإن المصلحةَ العامة للمستوطنة ليست عاملًا في سلسلة الأولويات في عقلهم الباطن الذي يملي عليهم أفعالهم، إذا استخدمت مصطلحك. كلُّ ما يأبهون به هو أنفسهم. كلُّ قرار يتخذونه يتدبرون فيه ليعرفوا ما إذا كان سيضيف إلى سلطتهم ونفوذهم أم لا. وفي تاريخنا، كثيرًا ما تسبَّب قادةٌ في تدمير بلادهم أو مستوطناتهم بسبب محاولاتهم الحفاظ على سلطانهم.»

ولكن كان الأوكتوسبايدر متمسكًا برأيه. إذ أصرَّ قائلًا: «إن ما وصفتموه لتوكم لا يمكن أن ينطبِق على جنسٍ متقدم من الكائنات. فالقوانين الأساسية للتطور تشير بوضوحٍ إلى أن تلك الكائناتِ التي تمثِّل مصلحةُ مجتمعاتها الأهميةَ الكبرى لها؛ تستمر في الوجود أكثرَ من تلك التي يكون فيها الفردُ هو الكيانَ الأهم. فهل تقولان إن البشر حالةٌ شاذة من نوعٍ ما؛ حالةٌ استثنائية أنجبتها الطبيعة وخرقت بها القوانين ...»

قاطعته نيكول قائلة: «حسنًا، هذا مثيرٌ جدًّا للاهتمام. ولكن لدينا عملٌ أكثر إلحاحًا. يجب أن نضع خطةَ عمل محكَمة تخلو من المخاطر ... ريتشارد! إذا كنت لا تؤيد خطةَ آرشي فماذا تقترح؟»

فكَّر ريتشارد عدةَ ثوانٍ. ثم قال: «أعتقد أن ناكامورا قد ورَّط مدينةَ عدن الجديدة في هذه الحرب ضد كائنات الأوكتوسبايدر لعدة أسباب، أحدها هو الحيلولة دون النقد بسبب إخفاق حكومته في القضايا المحلية. ولا أظن أنه سينصرف عن هذا الأمر إلا إذا كان المواطنون جميعًا ضد الحرب، ويؤسفني القول أن هذا لن يحدُث إلا إذا اقتنع المواطنون بأن وقْعَ الحرب عليهم سيكون كارثيًّا.»

فقالت نيكول: «إذن، هل تعتقد أن التهديدات ستكون ضرورية؟»

أجابها ريتشارد: «لن يكون تأثيرها كبيرًا. ولكن ما سيُحدِث التأثيرَ المطلوب هو إظهار القوة العسكرية لكائنات الأوكتوسبايدر.»

فقال آرشي: «أخشى أن يكون هذا مستحيلًا، على الأقل في ظل الظروف الحالية.»

فسأل ريتشارد: «لماذا؟ إن مسئولة الأمثلية تتحدَّث بمنتهى الثقةِ عن الانتصار في الحرب التي قد تنشَب. فإذا هاجمتم ذلك المعسكرَ ودمرتموه تمامًا ...»

فقال آرشي: «الآن أنتم مَن لا يفهمنا. لأن الحرب، أو أي صراع قد يؤدي إلى حالاتِ قتلٍ عَمدٍ ليس هو الطريقة المثلى لحل النزاعات، فإن مستعمرتنا لديها قواعدُ صارمة للغاية تحكُم التصدي للأنشطة العدوانية المنظَّمة. وقد وُضعت ضوابطُ في مجتمعنا تجعل من الحربِ آخرَ حلٍّ يمكن أن نلجأ إليه. فعلى سبيل المثال، ليس لدينا جيشٌ مستعد ولا مخزون من الأسلحة ... وهناك قيودٌ أخرى أيضًا. إذ تُنهَى حياة جميع القادة الذين شاركوا في اتخاذِ قرار الحرب، وكذلك كائنات الأوكتوسبايدر الذين شاركوا في الصراع المسلَّح، بعد انتهاء الحرب مباشرة.»

فقال ريتشارد وهو لا يصدِّق الترجمة: «ماذا؟ هذا غير ممكن!»

فقال آرشي: «بل ممكن. فكما ترى، هذه العوامل تمثِّل عائقًا كبيرًا يمنع المشاركةَ في أي أعمال عدائية غير دفاعية. ومسئولة الأمثلية تعرِف أنها قد وقَّعت على حكمٍ بإعدامها قبل أسبوعين عندما أمرَت ببدء التجهيز للحرب. وكائنات الأوكتوسبايدر الثمانون الذين يعيشون الآن في المكان المخصَّص للإعداد للحرب ويعملون هناك، سيتم إنهاءُ حياتهم إما بعد أن تضع الحربُ أوزارها أو بعد انتهاء التهديد بنشوبها رسميًّا ... أنا نفسي سأُدرَج في قوائم إنهاء الحياة إذا ما أُعلنت الحرب، نظرًا لأنني شاركت في المناقشة اليوم.»

صعِق ريتشارد ونيكول فلم يتفوَّه أيٌّ منهما بكلمة. فاستأنف آرشي: «التبرير الوحيد الممكن للحرب في نظر الأوكتوسبايدر هو تهديدٌ صريح لبقاء المستوطَنة. وبمجرد اكتشافِ ذلك التهديد والتسليم بخطورته، فإن جنسنا يتحوَّل تحولًا تامًّا ويشعل نيرانَ الحرب، دون رحمة، حتى يُقضى على التهديدِ تمامًا أو تُدمَّر المستوطنة ... وقبل أجيال كثيرة مضت، أدرك بعضُ القادة الحكماء أن كائنات الأوكتوسبايدر التي تشترك في القتل والتخطيط للقتل، تتغيَّر نفسيًّا تمامًا نتيجةً للتجارب التي مرَّت بها حتى إنها تصبح خطرًا محدِقًا على إقامة مجتمع سِلمي. ولهذا سنَّت قوانين بإنهاء حياة مَن يشاركون في الحرب.»

كان الصمت لا يزال يخيِّم على ريتشارد ونيكول حتى بعد أن انتهى آرشي من حديثه. وبعد صمتٍ، همَّ ريتشارد بأن يطلب من آرشي الخروجَ من الغرفة حتى يتحدَّث مع زوجته على انفراد، ولكنه سريعًا ما تذكَّر الطفيليات المنتشرة في كل مكان. فقال في النهاية: «نيكول يا حبيبتي، لا أعتقد أن خطةَ آرشي مناسِبة؛ لعدة أسباب. أولها يجب أن أذهب أنا بدلًا منك ...»

وعندما بدأت نيكول تتحدَّث لتقاطعه، أشار هو إليها بيده كي تظلَّ صامتة واستأنف: «لا تقاطعيني. فطَوال فترة زواجنا، خاصة منذ أن غادرنا النود، كنتِ أنتِ دائمًا في المقدمة وتكرِّسين وقتك وجهدك لمصلحة العائلة أو المستوطَنة. والآن حان دوري. وفي هذا الموقف تحديدًا أعتقد أنني مناسبٌ لهذه المهمة المقترحة أكثرَ منك. فيمكنني أن أخيفَ إخواننا البشرَ بأن أقصَّ عليهم مشاهدَ للحروب المبيدة التي شنَّتها كائنات الأوكتوسبايدر.»

فاعترضت نيكول قائلة: «ولكنك لا تتقن لغتَهم. ومن دون مترجِمك الآلي ...»

فقال ريتشارد: «لقد فكَّرت في هذا أيضًا. وأظن أن إيلي ونيكي ينبغي أن تذهبا معي أنا وآرشي. فأولًا، وجودُ طفلة معنا يقلِّل من احتمال أن تقتلنا القواتُ المتقدِّمة بنسبةٍ كبيرة. وثانيًا، إيلي تتقن لغةَ الأوكتوسبايدر جيدًا ويمكن أن تساعدني في حالة عدم وجود المترجِم الخاص بي أو عدم فعاليته. وثالثًا، ولعل هذا هو السبب الأهم، الجريمة الوحيدة التي

يمكن أن ينسِبها ناكامورا وأتباعه لكائنات الأوكتوسبايدر هي اختطاف إيلي. فإذا ظهرت وهي بخيرِ حال وتمدح العدوَّ الفضائي، فسنفسِد عليهم جهودَهم لإعداد الحرب.»

قطَّبت نيكول ما بين حاجبيها. وقالت: «أنا لا أحبِّذ فكرةَ ذهاب نيكي معكم. إنه لخطرٌ شديد عليها. ولن أسامح نفسي أبدًا إذا وقَع مكروه لتلك الطفلة ...»

فقال ريتشارد: «ولا أنا أيضًا، ولكني لا أظن أن إيلي ستذهب من دونها ... ليس أمامنا خططٌ جيدة يا نيكول ... إنما نحن مضطرون لاختيار أقل الخيارات ضررًا.»

وفي توقُّف قصير للحوار بينهما، تحدَّث الأوكتوسبايدر بلغة الألوان. قال لنيكول: «إن ريتشارد مصيب جدًّا في النقاط التي تحدَّث عنها. وهناك سببٌ آخر يجعل من الأفضل بقاءك هنا في مدينة الزمرد؛ فبقيةُ البشر الموجودين هنا سيحتاجون إلى قيادتك في الأيام الصعبة القادمة.»

كان عقل نيكول يعمل بسرعةٍ رهيبة. لم تكن تتوقَّع أن يقترح ريتشارد أن يتطوَّع هو للذهاب. فقالت: «أتقول يا آرشي إنك تؤيد اقتراحَ ريتشارد، بما في ذلك اصطحابُ إيلي ونيكي معكما؟»

فأجابها الأوكتوسبايدر: «نعم.»

فقالت نيكول وهي تلتفت إلى زوجها: «ولكنك يا ريتشارد تعرف مدى كراهيتك لما تُطلِق عليه الهراء السياسي. هل أنت واثق من أنك فكَّرت في هذا الأمر جيدًا؟»

أومأ ريتشارد برأسه. فهزَّت نيكول كتفَيها. وقالت: «حسنًا. سنتحدَّث إلى إيلي. إذا وافقت، فسنبدأ في تنفيذ الخطة.»

رأت مسئولةُ الأمثلية أن الاقتراح المعدَّل أمامه بعضُ فرص النجاح، ولكنها شعرت أنها مجبرة أن تذكِّر الجميع بأنه طبقًا للتحليل المفصَّل الذي قامت به كائنات الأوكتوسبايدر للنتائج المحتملة، فإنه لا يزل هناك احتمالٌ كبير أن يقتل البشريون ريتشارد وآرشي، ولا توجد فرصة كبيرة لنجاة إيلي ونيكي أيضًا. وهنا كاد قلب نيكول يقفز من صدرها عندما ترجمت هذا الجزء من حديث القائدة. فهي لم تقُل شيئًا لا تعرفه نيكول بالفعل، ولكن الأخيرة كانت مستغرِقة في التخطيط والمناقشات حتى إنها لم تفكِّر بعدُ في أيٍّ من النتائج المحتمِلة لقراراتهم.

ولم تتحدَّث نيكول كثيرًا في الوقت الذي كان فيه كبارُ القادة يتَّفقون على خطةٍ زمنية مبدئية. وعندما سمِعت ريتشارد يقول إنه هو وآرشي، سواء صحِبتهما إيلي ونيكي أم لا،

سيغادران مدينةَ الزمرد بعد تيرت من فجر اليوم التالي؛ ارتجف جسدها. وقالت في نفسِها سريعًا: «غدًا. غدًا ستتغيَّر حياتنا مرةً أخرى.»

ظلَّت نيكول صامتةً والعربة تُقِلُّهم عائدين إلى المنطقة المخصَّصة لهم. وفي حين كان ريتشارد وآرشي يتحدَّثان عن كثيرٍ من الموضوعات المختلفة، حاولت هي أن تكبح الخوفَ المتزايد بداخلها. وقد كان هناك صوتٌ بداخلها، صوتٌ لم تسمعه منذ سنوات، يقول لها إنها لن ترى ريتشارد مرةً أخرى بعد الغد. فسألت نفسَها بتأنيب: «هل من المحتمل أن يكون هذا ردُّ فعلٍ غريب من جانبي؟ هل أواجه صعوبةً في أن أترك ريتشارد يلعب هو دور البطل هذه المرة؟»

ورغم محاولات نيكول مقاومةَ هذا الهاجس، فقد ظل يزداد قوةً بداخلها. وتذكَّرت تلك الليلة المريعة قبل سنوات كثيرة وهي في العاشرة من عمرها، عندما كانت في غرفة نومها في المنزل الصغير في شيلي مازاري. واستيقظت من نومها تصرُخ من كابوس عنيف داهمها. كانت تصرخ: «لقد ماتت أمي.»

فحاول والدها أن يهدئها قائلًا إن أمَّها كانت في رحلةٍ تزور عائلتها في ساحل العاج. إلا أنه بعد سبع ساعات وصل إلى منزلهم تلغراف يخبرهم بموت والدتها بالفعل.

في تلك اللحظة، كان ريتشارد يقول: «إذا لم يكن لديكم مخزون من الأسلحة أو جنود مدرَّبون فكيف يمكنكم بحقِّ السماء الإعدادُ لحربٍ بسرعة كافية للدفاع عن أنفسكم؟»

فأجابه آرشي: «لا يمكنني أن أخبرك بهذا. ولكن صدِّقني أنا أعلم يقينًا أن أيَّ صراع في هذا الوقت بين جنسينا قد ينتج عنه الإفناءُ التام لحضارة البشر على متن راما.»

لم تستطِع نيكول تهدئةَ روحها المعذَّبة. فمهما حاولت أن تقنع نفسها بأنها تبالغ في ردِّ فِعلها، فإن المخاوف من الهاجس بداخلها لم تهدأ على الإطلاق. فمدَّت يدَها لتمسك بيدِ ريتشارد. شابك أصابعه بين أصابعها، واستمرَّ في حديثه مع آرشي.

أخذَت نيكول تحدِّق فيه بشدة. وقالت لنفسها: «أنا فخورةٌ بك يا ريتشارد، ولكني خائفة جدًّا أيضًا. ولست مستعدة لفقدانك.»

أوت نيكول إلى فِراشها في ساعة متأخرة جدًّا من الليل. وقد كانت أيقظت إيلي برفقٍ دون أن تزعج نيكي والتوءمين اللذين كانا يبيتان في منزل عائلة ريتشارد ويكفيلد حتى يحظى باتريك وناي بليلةِ زفافهما وحدَهما. وبالطبع كان لدى إيلي الكثيرُ من الأسئلة، فشرح ريتشارد ونيكول لها الخطة، وفي ذلك كلُّ شيء مهم عرفاه من آرشي ومسئولة الأمثلية في

وقتٍ مبكِّر من تلك الليلة. وقد تملَّك الخوف من إيلي أيضًا، ولكنها وافقت في النهاية على أن تصحبَ ريتشارد وآرشي في اليوم التالي.

لم تستطِع نيكول النومَ بعمق في تلك الليلة. وبعد التقلُّب في الفِراش ساعةً تقريبًا بدأت سلسلةً من الأحلام العشوائية القصيرة تداهم عقلها. وفي حُلمها الأخير رأت نيكول نفسَها وهي فتاة في السابعة من عمرها في ساحل العاج، في وسط احتفال بورو الخاص بها. كانت شبه عارية في البحيرة، وأنثى الأسد تطوف خلسةً حول حافتها. فالتقطت نيكول الصغيرة نفَسًا عميقًا وغاصت في الماء. وعندما صعِدت إلى السطح كان ريتشارد يقف على الشاطئ في المكان الذي كانت أنثى الأسد تقف فيه. وقد كان ريتشارد يظهر في حُلمها وهو لا يزال شابًّا وكان يبتسم لها في البداية. ثم رأته نيكول وهو يَشيب بسرعةٍ ليصبح ريتشارد نفسه الذي ينام إلى جوارها في تلك اللحظة. وسمِعت صوتَ أومه في أذنها يقول: «انتبهي جيدًا يا روناتا. وتذكَّري ...»

استيقظت نيكول من نومها. كان ريتشارد نائمًا إلى جوارها في هدوء. فجلست على الفِراش ونقرت بيدها على الحائط نقرةً واحدة. فظهرت يراعةٌ واحدة على الباب لتمدَّ الغرفةَ ببعض الضوء. أخذت نيكول تحدِّق في زوجها. نظرت إلى شعره ولحيته اللذين وخَطَهما الشيبُ فأصبحا رماديي اللون، وتذكَّرت كيف كانا سوداوين. ومرَّ على خاطرها، وقد غمرتها مشاعرُ الحنان، حبُّه لها، وخِفةُ ظلِّه عندما كان يتقرَّب إليها في نيويورك. ثم عبست والتقطت نفسًا عميقًا، وقبَّلت سبابتها. ثم وضعت الإصبع نفسَه على شفتي ريتشارد. لم يشعر بها. ظلَّت نيكول جالسةً في هدوء عدةَ دقائق أخرى تنظر بتمعُّن لكل قَسَمة من قسمات وجهِ زوجها. ثم انهمرت دموعها الهادئة تُغرِق وجنتيها وتسقط من وجهها على الملاءة. قالت: «أحبك يا ريتشارد.»

حرب في راما

١

تقرير رقم ٣١٩

وقت البث: ١٥٦٣٠٧٨٧٢٥٧٤,٢٠٠٩
الوقت منذ إصدار إنذار المرحلة الأولى: ١١١,٩٧٦٦
المراجع: نود ٢٣–٤١٩
مركبة الفضاء ٩٤٧
الكائنات الفضائية ٤٧ ٢٤٩ («ب» و«أ»)
٨٠٦ ٣٢
٦٦٦ ٢

إبَّان الفترةِ الفاصلة السابقة، استمرَّ هيكل مجتمعات الكائنات الفضائية المسافرة ونظامها داخل المركبة الفضائية في التمزُّق. ورغم تحذيرات كائنات الأوكتوسبايدر (الكائنات الفضائية رقم ٦٦٦ ٢) ومحاولاتهم الحميدة لتجنُّب صراع شامل مع البشر (٨٠٦ ٣٢)، فقد ازدادت احتمالات نشوب حرب دامية خلال الفترات القادمة بين الجنسين، ولن تخلِّف إلا قليلًا من الناجين. ومن ثَم فإن الموقف يستوفي كافة الشروط اللازمة لوساطة المرحلة الثانية.

وقد فشِلت جميعُ مساعي الوساطة السابقة، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أن البشَر، وهم الأكثرُ عدائية بين الجنسين، لم يبالوا تمامًا بكافة أساليب الوساطة المختلفة غير المباشرة. عددٌ قليل فقط من البشر هم مَن استجابوا للمحاولات العديدة لتغيير سلوكياتهم العدوانية، وأولئك الذين لم يتجاوبوا مع هذه المحاولات لم يستطيعوا منْعَ الإبادة الجماعية للكائنات الطائرة والكائنات اللاسويقية (٢٤٩ ٤٧، «أ» و«ب») التي اقترفها حكَّامهم.

ومجتمع البشر منظَّم على النحو الهرمي الصارم الذي كثيرًا ما لوحظ في الأجناسِ الموجودة قبل عصر السفر إلى الفضاء. فلا يزال يسيطر عليهم قادةٌ اهتمامُهم الأول هو الاحتفاظ بنفوذهم الشخصي. في حين أن مصلحةَ المجتمع، بل حتى بقاءه، يأتي في المرتبة الثانية في سلسلة الأولويات الخفية للقادة الحاليِّين للبشر، وذلك بعد استمرارِ نظامٍ سياسي يمنحهم سلطةً مطلَقة. ومن ثَم فإن احتمال تجنُّب نشوب صراع واسع النطاق بين البشر وكائنات الأوكتوسبايدر ضئيلٌ بأي مقاييس منطقية.

ولا تزال مجموعةٌ صغيرة من البشر، من بينهم جميعُ أفراد العائلة التي عاشت في نود تقريبًا أكثرَ من عام؛ مقيمةً في المدينة الرئيسية لكائنات الأوكتوسبايدر. وقد أظهر تفاعُلهم مع مضيِّفيهم أنه من الممكن للجنسين أن يعيشا معًا في وفاق. وقد قرَّر مؤخرًا وفدٌ يتكوَّن من هؤلاء البشر وكائن أوكتوسبايدر واحد أن يبذلوا جهودًا مكثَّفة لمنْعِ نشوبِ حرب واسعة النطاق بين الأجناس عن طريق الاتصال بقادة مستوطنة البشر مباشرة. إلا أن احتمالات نجاح هذا الوفدِ ضئيلة للغاية.

حتى تلك اللحظة لم تتَّخذ كائنات الأوكتوسبايدر أيَّ خطوات عدائية صريحة. ولكنهم بدءوا عمليةَ الإعداد لحربٍ ضد البشر. ومع أنهم سيحاربون فقط إذا خلصوا إلى أن بقاءَ وطنهم في خطر، فإن القدرات البيولوجية المتطورة لكائنات الأوكتوسبايدر ستجعل نتيجةَ هذه الحرب محسومةً سلفًا.

أما الشيء غير المؤكَّد فهو ماذا سيكون ردُّ فِعل البشر عندما يحتدِم الصراع ويتكبَّدون خسائر فادحة. ومن المحتمل أن تضع الحرب أوزارها بسرعة، وبمرور الوقت قد يتوصَّل الناجون من الجنسين مرةً أخرى إلى حالةٍ قريبة من توازن القوى. وبناءً على بيانات المراقبة المتاحة عن البشر، فإنَّ هناك احتمالًا لا يُستهان به أن هذا الجنس من الكائنات سيستمر في المعركة حتى يفنَوا جميعًا أو يفنَى معظمهم. ومثل هذه النتيجةِ ستدمِّر جميعَ آثار واحد على الأقل من المجتمعين الفضائيِّين الباقين على متن المركبة الفضائية. وللحيلولةِ دون وقوع هذه العاقبة الوخيمة للمشروع، فإنه من المحبَّذ التفكيرُ مليًّا في وساطة المرحلة الثانية.

٢

استيقظت نيكول على صوتِ الأطفال الثلاثة وهم يلعبون في غرفة المعيشة. وجاءتها إيلي وهي ترتدي لباسَ المنزل إلى باب غرفة نومها لتسألها هل رأت دميةَ نيكي المفضَّلة. فأجابتها نيكول: «أظن أنها تحت فِراشها.»

فعادت إيلي تستأنف حَزْم الحقائب. وكانت نيكول تسمع صوتَ ريتشارد في الحمَّام. فقالت في نفسِها: «لم يَعُد لدينا كثيرٌ من الوقت» في الوقتِ الذي ظهرت فيه فجأةً حفيدتها، تلك الفتاةُ الصغيرة، عند باب الغرفة. قالت وهي تبتسم: «سنغادر أنا وأمي يا جَدتي. سنذهب لنرى أبي.»

فتحَت نيكول ذراعيها أمام الطفلة التي ركضَت لترتمي في أحضانها. وقالت لها: «أعلم يا حبيبتي.» وضمَّتها إلى صدرها بقوةٍ ثم بدأت تربِّت على شَعرها. وقالت: «سأفتقدك كثيرًا يا نيكي.»

وبعد بضع ثوانٍ، دلف التوءمان واتانابي إلى الغرفةِ قافزين. قال جاليليو: «أنا جائع يا سيدة نيكول.»

وأضاف كيبلر: «وأنا أيضًا.»

فتركت نيكول حفيدَتها على مضضٍ وبدأت تسير خارجةً من غرفة النوم. وهي تقول: «حسنًا يا أولاد، سيكون إفطاركم جاهزًا في غضون دقائق قليلة.»

وقبل أن ينتهيَ الأطفال الثلاثة من طعامهم، وصل ماكس وإيبونين وماريوس عند الباب. فقالت نيكي قبل أن تحظى نيكول حتى بفرصةٍ لتحيتهم: «أتعلم يا عم ماكس! سأذهب لأرى أبي.»

مرَّت أربع ساعات بسرعة. شرح خلالها ريتشارد ونيكول كلَّ ما حدَث مرتين: الأولى لماكس وإيبونين، والثانية للعروسين اللذين لا تزال أمارات السعادة ترتسم على ملامحهما من ليلة زفافهما. وعندما اقترب وقتُ رحيل كلٍّ من ريتشارد وإيلي ونيكي، بدأت الإثارة والحيوية اللتان كانتا تميِّزان حديثَ الصباح تخبوان. وبدأ القلق يتملَّك نيكول. قالت في نفسِها: «اهدئي وابتسمي. الحزن لن يسهِّل عليك الأمر.»

كان ماكس أولَ شخص يلقي تحيةَ الوداع. فقال لنيكي: «تعالي إلى هنا أيتها الأميرة الصغيرة وقبِّلي عمَّك ماكس.» فاتَّبعت الفتاة التعليمات بطاعة. ثم نهض هو واجتاز الغرفةَ إلى حيث كانت إيلي تتحدَّث إلى والدتها. وقال لها وهو يعانقها: «اعتني بتلك الفتاةِ الصغيرة

يا إيلي، ولا تدعي هؤلاء الأوغاد يمَسُّون شعرةً منكم.» ثم صافح ريتشارد ونادى التوءمين كي يلحقا به إلى الخارج.

سريعًا ما تغيَّرت الأجواء في الغرفة. ومع أن نيكول قطعت وعدًا عليها بأن تحافظ على رِباطة جأشها، فقد شعرت بهلعٍ شديدٍ عندما أدركت أنها لا تملِك سوى دقائقَ قليلةٍ للوداع. وسار باتريك وناي وبينجي وإيبونين على خطى ماكس، فأخذوا يعانقون الثلاثي المغادرَ ويودِّعونهم.

حاولت نيكول أن تحتضِن نيكي مرةً أخرى، ولكن الطفلة الصغيرة اندفعت تركض إلى الخارج لتلعب مع التوءمين. ودعت إيلي إيبونين واستدارت إلى نيكول. قالت لها وقد أشرق وجهها: «سأفتقدك يا أمي. إنني أحبك كثيرًا.»

جاهدَت نيكول للسيطرة على انفعالاتها. وقالت: «لم يكن من الممكن أن أُرْزق بابنةٍ أفضلَ منك.» وبينما كانتا تتعانقان، همسَت نيكول في أذن ابنتها. قالت: «توخَّي الحذر. هناك الكثير من المخاطر المحدقة.»

فجذبت إيلي نفسَها من حِضن والدتها ونظرت إلى عينيها. والتقطت نفسًا عميقًا. وقالت بحزن: «أعلم يا أمي، وهذا يخيفني. أتمنَّى ألا أخيِّب ظن ...»

فقالت نيكول برفقٍ وهي تربِّت على كتفَي ابنتها: «لن تفعلي. ما عليك سوى أن تذكري ما قاله الجدجد في قصة بينوكيو.»

فابتسمت إيلي. وقالت: «ودائمًا ليكن ضميرك مرشدَك.»

سمِعت نيكول نيكي وهي تصيح: «لقد وصل آرشي!» فتلفَّتت حولها تبحث عن زوجها. وسألت نفسَها في خوف: «أين ريتشارد؟ إنني لم أودِّعه ...» مرَّت إيلي بجوارها مسرعة وهي تتجه إلى الباب حاملة حقيبتين على ظهرها.

كانت نيكول تلتقط أنفاسها بصعوبة. وسمِعت باتريك يقول: «أين العم ريتشارد؟» ثُم صوتًا من غرفة المكتب يجيب: «أنا هنا.»

فقطعت الرَّدهة مهرولةً إلى غرفة المكتب. فوجدت ريتشارد يجلس على الأرض وحوله مكوِّنات الأجهزة الإلكترونية وحقيبة ظهره المفتوحة. فوقفت نيكول عند البابِ ثانيةً تحاول التقاطَ أنفاسها.

سمِعها ريتشارد من خلفه واستدار إليها. قال بهدوءٍ دالٍّ على عدمِ قلقه: «أهلًا يا حبيبتي. ما زلت أحاول معرفةَ عدد المكوِّنات الإلكترونية الاحتياطية التي يجب أن آخذها معي لأجهزة المترجم.»

فقالت نيكول بهدوء: «لقد وصل آرشي.»

فألقى ريتشارد نظرةً سريعة على ساعته. وقال: «أظن أنه قد حان وقتُ الرحيل.» وملأ كفَّه بمجموعة من القِطَع الإلكترونية ووضعها في حقيبةِ ظهره. ثم وقف واتَّجه إلى نيكول.

وهنا صاح باتريك يناديه: «عمي ريتشارد.»

فصاح ريتشارد بدوره مجيبًا: «أنا قادم. دقيقة واحدة.»

وبمجرد أن أحاطَ ريتشارد نيكول بذراعيه، ارتجف جسدُها. فقال هو: «سيكون كل شيء على ما يرام ... هذه ليست المرةَ الأولى التي نفترق فيها.»

تعاظم الخوفُ داخل نيكول إلى درجةٍ كبيرة حتى إنها لم تتمكَّن من التفوُّه بكلمة. وحاولت باستماتةٍ أن تتحلى بالشجاعة، ولكن كان هذا أمرًا مستحيلًا. فقد كانت تعلم أن هذه هي المرة الأخيرة التي ستلمُس فيها زوجها.

ثم وضعت إحدى يديها خلف رأس ريتشارد واقتربت منه قليلًا كي تقبِّله. كم أرادت حينها أن توقِف الزمن، وأن تجعل تلك اللحظةَ تستمر إلى الأبد. ثم التقطت عيناها صورةً لوجه ريتشارد، وطبَعت قُبلة رقيقة على شفتيه.

فقال هو: «أحبك يا نيكول.»

وللحظة، ظنَّت أنها لن تستطيع الردَّ عليه. ولكنها تمكَّنت في النهاية من أن تقول: «وأنا أيضًا أحبك.»

ثم التقط حقيبةَ ظهره ولوَّح لها مودِّعًا. وقفت نيكول عند الباب تراقبه وهو يتَّجه إلى باب المنزل. وسمِعت من داخلها صوتَ أومه وهو يقول: «تذكَّري.»

لم تستطِع نيكي أن تصدِّق حظَّها السعيد. فأمامها عند بوابة مدينة الزمرد مباشرةً، كان هناك نعامصور ينتظرهم، كما قال آرشي بالضبط. وبينما كانت والدتها تغلِق سحَّابة معطفِها كانت هي تتحرَّك بنفادِ صبرٍ لا تطيق الانتظار. وقالت: «هل يمكنني أن أطعمَه يا أمي؟ هل يمكنني هذا؟ هل يمكنني؟»

ومع أن النعامصور كان قابعًا على الأرض، فقد كان على ريتشارد أن يساعد نيكي في الصعودِ على ظهره. فقالت الفتاة الصغيرة بمجرد أن استقرَّت على موضع الجلوس: «شكرًا لك يا جَدي.»

قال آرشي لريتشارد وإيلي وهم يسيرون في الطريق عبْر الغابة: «لقد حدَّدنا وقت التنفيذ بدقةٍ متناهية. فسنصل إلى المعسكر في الوقت الذي ستبدأ فيه جميع القوات في تناول طعام الإفطار. هكذا سيرانا الجميع.»

فسأله ريتشارد: «كيف سنعرف تحديدًا وقتَ ظهورنا؟»

«هناك بعضُ الطفيليات نتحكَّم فيها من الحقول في أقصى الشمال. وبعد أن يستيقظ الجنود ويتجوَّلون خارج خيامهم، سيحلق سريعًا صديقك الطائر تيمي وهو يحمل رسالةً مكتوبة تعلن عن وصولنا الوشيك ليلقيها فوق رءوسهم في الظلام. وستشير رسالتنا إلى أن هناك يراعاتٍ ستكون في مقدِّمتنا وأننا سنلوِّح بعلمٍ أبيض، كما اقترحت.»

لاحظت نيكي أن هناك بعضَ العيون الغريبة تحدِّق إليهم من ظلام الغابة. فقالت لوالدتها: «أليس هذا ممتعًا؟» ولكن إيلي لم تُجِبْها.

أوقف آرشي النعامصور على بُعد كيلومتر تقريبًا جنوب معسكر البشر. وبدت المصابيح وغيرها من مصادر الإضاءة خارجَ الخيام البعيدة أمامهم وكأنها نجوم متلألئة في ذلك الظلام. وهنا قال آرشي: «يجب أن يُسقِط تيمي الرسالة الآن.»

كانوا يتحرَّكون بحذرٍ شديد في الظلام عدة ساعات، ولا يريدون الاستعانةَ باليراعات لتجنُّب احتمال ملاحظة القوات لوجودهم في وقتٍ مبكِّر عما خطَّطوا له. وكانت نيكي نائمةً بهدوء ورأسها في فخذ أمِّها. في حين كان ريتشارد وإيلي متوترين. سأل ريتشارد قبل أن يتوقفوا: «ماذا سنفعل إذا أطلقت القوات النيرانَ علينا قبل أن نقول أيَّ شيء؟»

فأجابه آرشي: «سنعود أدراجنا ونلوذ بالفرار بأسرعِ ما يمكننا.»

فسألته إيلي: «وماذا سيحدُث عندما يطاردوننا بطائرات الهليكوبتر وكشافات البحث؟»

فقال آرشي: «يستغرق النعامصور أربع ودن تقريبًا للوصول إلى الغابة عندما يركض بسرعته القصوى.»

عاد تيمي إلى الفريق وأبلغهم، في حوار قصير من البقبقة والألوان مع آرشي، أنه قد أتمَّ مهمته. ثم ودَّع كلٌّ من ريتشارد وتيمي أحدهما الآخر. وقد عبَّرت عينا الطائر الكبيرتان عن مشاعرَ لريتشارد لم يرَها من قبل، وهو يربِّت على أسفل بطنه. وبعد لحظات قليلة، عندما حلَّق تيمي مبتعدًا باتجاه مدينة الزمرد، أضاءت يراعتان قُرب الطريق واتجهتا صوب معسكر البشر. وكان ريتشارد هو الذي يتقدَّم المجموعة قابضًا بإحكام على العَلم

الأبيض بيده اليمنى. والنعامصور يتبَعه على بُعد خمسين مترًا تقريبًا وعلى ظهره إيلي وآرشي والطفلة النائمة.

كان ريتشارد يرى الجنود بمنظاره عندما كانوا على بُعد أربعمائة متر منهم. وكانت القوات منتشرةً تنظر في اتجاههم. وقد أحصى ريتشارد عددهم فوجدهم ستة وعشرين، منهم ثلاثة شاهرون بنادقهم، واثنان يفحصان الظلام بمنظاريهما.

وكما هو مخطَّط، ترجَّل كلٌّ من إيلي ونيكي وآرشي عن ظهر النعامصور عندما كانوا على بُعد مائتي متر من المعسكر. وتراجع النعامصور في حين تقدَّم أربعتهم باتجاه الجنود البشريِّين. فتذمَّرت نيكي التي لم تكن مستعدةً للاستيقاظ من النوم بعدُ، ولكنها هدأت عندما شعرت بأهميةِ طلب أمها منها أن تلزم الصمت.

كان آرشي يسير بين ريتشارد وإيلي. وكانت نيكي تمسك بيدِ أمها وتعدو كي تَلحقَ بخطواتهما. وبعد أن رأى ريتشارد أنه سيكون بإمكانهم سماعه من هذه المسافة، صاح: «مرحبًا. أنا ريتشارد ويكفيلد. لقد جئنا نعرض عليكم السلام.» ثم لوَّح بالعَلم الأبيض بقوة. وواصل: «إن معي ابنتي إيلي وحفيدتي نيكي وممثلًا عن كائنات الأوكتوسبايدر.»

من المؤكد أنه كان مشهدًا مذهلًا للجنود، فلم يرَ أيٌّ منهم كائن أوكتوسبايدر من قبل. وظهرَ ريتشارد والفريق المصاحِب له من قلبِ ظلام راما في الوقت الذي حامت فيه يراعتان فوق رءوس الجنود.

فتقدَّم أحد الجنود إلى الأمام. وقال: «أنا النقيب إنريكو بيوجي، الضابط المسئول عن هذا المعسكر. وأنا أقبَل استسلامكم بالنيابة عن القوات المسلَّحة لعدن الجديدة.»

نظرًا لأن الجنود لم يعرفوا بوصولهم الوشيك إلى المعسكر إلا قبل وصولهم بأقلَّ من نصف ساعة، لم يُتَح وقتٌ كافٍ أمام سلسلة متخذي القرار في عدن الجديدة لوضع خطة للتعامل مع السجناء. فبمجرد أن تأكَّد النقيب بيوجي من أن وفدًا يتكوَّن من رجل وسيدة وطفلة وأوكتوسبايدر فضائي يقترب من معسكره بالفعل، اتصل بالقيادة في نيويورك عبْر اللاسلكي مرةً أخرى وطلب منهم تعليماتٍ حول ما يفعلونه بعد ذلك. فطلب منه العقيد المسئول عن الحملة أن «يتحفَّظ على السجناء في مكانٍ آمن»، و«يستعدَّ لتلقي أوامرَ أخرى».

وقد توقَّع ريتشارد أن أيًّا من الضباط لن يقومَ بأي تصرُّف ذي أهمية حتى يستشيروا ناكامورا شخصيًّا. وكان قد أخبر آرشي في أثناء رحلتهما الطويلة على متن النعامصور أنه سيكون من الضروري استغلالُ أي وقت يُتاح أن يقضوه مع الجنود في المعسكر لبدء إثبات كذِبِ الدعاية التي كانت حكومة عدن الجديدة تنشرها.

فبعد أن تم تفتيشُ السجناء وتجمهر الجنود حولهم، قال ريتشارد بصوتٍ عالٍ: «هذا الكائن هو ما نطلق عليه أوكتوسبايدر. وجميع كائنات الأوكتوسبايدر شديدةُ الذكاء، وفي بعض الجوانب هي أكثرُ ذكاءً منَّا، ويعيش خمسة عشر ألفًا تقريبًا منهم في نصف الأسطوانة الجنوبي الذي يمتد من هنا إلى قاعدة تجويف القطب الجنوبي. وأنا وعائلتي نعيش في مملكتهم منذ أكثرَ من عام، وهذا بمحضِ إرادتنا، وقد وجدنا أن كائنات الأوكتوسبايدر جنسٌ يتمتَّع بحسٍّ أخلاقي ويحب السلام. وقد أتيت أنا وابنتي إيلي مع هذا الممثِّل عن كائنات الأوكتوسبايدر، الذي نطلق عليه آرشي؛ لنحاولَ إيجاد طريقةٍ لوقف المواجهة العسكرية بين الجنسين.»

فسأل أحدُ الجنود إيلي: «ألستِ أنتِ زوجة الدكتور روبرت تيرنر. تلك التي اختطفَتها كائنات الأوكتوسبايدر؟»

فأجابته إيلي بصوتٍ واضح: «بلى أنا. ولكني لم اختَطَف بمعنى الكلمة. لقد أرادت كائنات الأوكتوسبايدر التواصلَ معنا، ولكنها لم تستطِع هذا. فأخذتني لأنها رأت أنني بإمكاني تعلُّم لغتهم.»

فسألها جندي آخرُ غير مصدِّق لكلامها: «هل يتحدَّث ذلك الشيء؟»

حتى تلك اللحظة كان آرشي صامتًا كما كان مخططًا. لذا حدَّق فيه الجنود بذهولٍ عندما بدأت الألوان تتدفَّق من الجانب الأيمن للشق وتدور دورات كاملة حول رأسه. فقالت إيلي مترجمةً ما قال: «إن آرشي يلقي عليكم التحية. ويطلب من كلٍّ منكم أن يفهم أنه لا يود هو أو أيُّ فرد من جنسه إيذاءكم. كما يريدني أن أخبركم أنه يستطيع قراءةَ حركات الشفاه وسيسعده أن يجيبَ عن أي أسئلة قد تطرحونها.»

فقال جندي متعجبًا: «هل هذا حقيقي؟!»

وفي تلك الأثناء، كان النقيب بيوجي يقف بعيدًا عنهم لا يملِك فِعل أي شيء، ويقدِّم وصفًا حيًّا للموقف عبْر جهاز اللاسلكي للعقيد في نيويورك. فكان يقول: «نعم يا سيدي، ألوان على رأسه ... جميع الألوان يا سيدي: أحمر، أزرق، أصفر ... مستطيلة الشكل، كمستطيلات متحركة، تدور حول رأسه ثم يتبعها المزيد ... ما هذا؟ تلك السيدة، زوجة الطبيب يا سيدي ... يبدو أنها تفهم ما تعنيه هذه الألوان ... كلا يا سيدي، لا يوجد حروف ملوَّنة، فقط شرائط ملوَّنة ...

الكائن الفضائي يتحدَّث إلى الجنود الآن يا سيدي ... كلا يا سيدي، إنهم لا يستخدمون الألوان ... طِبقًا لما تقوله تلك السيدة، يستطيع الأوكتوسبايدر قراءةَ حركات الشفاه ...

مثل شخصٍ يعاني إعاقةً في السمع يا سيدي ... الأسلوب نفسه حسب ظني ... مهما كان، فإنه يجيب بالألوان وزوجة الطبيب تترجمُ ما يقول ...

كلا، لا يحملون أسلحةً من أي نوع يا سيدي ... لكنْ معهم كثيرٌ من لعب الأطفال، والملابس والأشياء الغريبة الشكل التي يقول السجين ريتشارد ويكفيلد إنها مكوِّنات إلكترونية ... لُعَب أطفال يا سيدي، قلت لُعَب أطفال ... لدى الطفلة كثيرٌ من لُعَب الأطفال في حقيبة ظهرها ... كلا، ليس لدينا جهاز فحص هنا ... حسنًا، يا سيدي ... هل لديك أدنى فكرة كم من الوقت قد ننتظر يا سيدي؟»

في الوقت الذي تلقَّى فيه النقيب بيوجي أخيرًا أوامرَ بإرسال السجناء إلى نيويورك على متن إحدى طائرات الهليكوبتر، كان آرشي قد نجح في ترْك انطباع قوي في نفوس جميع الجنود بالمعسكر. وقد بدأ الأوكتوسبايدر استعراضَ قدراته العقلية المذهلة بضربِ أرقامٍ تتألَّف من خمسة أو ستة أعداد في رأسه.

وقد سأل أحد الجنود الصِّغار السن: «كيف نعرف أن هذا الأوكتوسبايدر يخبرنا بالإجابة الصحيحة؟ فكلُّ ما يفعله هو عرض شريط من الألوان.»

فأجابه ريتشارد ضاحكًا: «ألم تتأكَّد بنفسك يا صديقي من الإجابة باستخدام الآلة الحاسبة الخاصة بالملازم أن الرقم الذي قالته ابنتي كان صحيحًا؟ هل تظن أنها قد حسَبت النتيجة في عقلها هي؟»

فقال الشاب: «آه، نعم. فهمتُ ما تعنيه.»

أما ما خلَب لُبَّ الجنود حقًّا فكان ذاكرةَ آرشي الاستثنائية. حيث كتب أحدُ الجنود، بناءً على طلب ريتشارد، قائمةً تحتوي على سلسلة من عدة مئات من الأرقام على ورقة، ثم قرأها على آرشي رقْمًا تلو الآخر. وأعادهم الأوكتوسبايدر عليهم مرةً أخرى عبْر إيلي، دون أن يرتكب أيَّ أخطاء. وقد ظنَّ بعض الجنود أن الأمرَ ينطوي على خدعةٍ ما؛ فربما يرسل ريتشارد إشاراتٍ مشفرة إلى آرشي. ولكن عندما كرَّر آرشي هذا الإنجازَ تحت ظروف مُحكَمة للغاية تمنع أيَّ مساعدة خارجية، اقتنع جميع مَن شكَّكوا فيه.

عندما وصلت الأوامر بنقل السجناء إلى نيويورك كان الجوُّ العام في المعسكر يتَّسم بالهدوء والألفة. لقد حقَّق الجزء الأول من خطتهم نجاحًا لم يتوقَّعوه قط. ومع ذلك، فقد كان ريتشارد عصبيًّا عندما صعدوا على متن الهليكوبتر لعبور جزء من البحر الأسطواني.

مكَث السجناء في نيويورك ساعةً تقريبًا فحسب. وقد استقبلهم حراسٌ مسلَّحون عند مهبط الطائرة الهليكوبتر في الميدان الغربي، وصادروا حقائبَ ظهرهم رغم اعتراضاتِ ريتشارد ونيكي العالية، واصطحبوهم إلى الميناء. وقد حمَل ريتشارد نيكي بين ذراعيه. وبالكاد وجد وقتًا لينظر بإعجابٍ إلى ناطحات السَّحاب التي تلوح فوق رءوسهم في الظلام، والتي كانت دائمًا ما تثير إعجابه.

كان اليخت الذي عبَر بهم النصف الشمالي من البحر الأسطواني مشابهًا لزوارق التنزُّه التي يستخدمها ناكامورا ورجاله في بحيرة شكسبير. ولم يتفوَّه أيٌّ من الحراس بكلمةٍ لهم في أثناء عبورهم البحر. فهمست نيكي لجَدها وهي تضحك بعدما لم يُلقِ أحدهم بالًا للأسئلة العديدة التي ألقَتها: «جَدي، ألا يعرف هؤلاء الرجالُ كيف يتحدثون؟»

كانت هناك مركبةٌ مخصَّصة للطُّرق البرية تنتظرهم على رصيفِ سفنٍ أُنشئ حديثًا من أجل الأنشطة الجديدة في نيويورك ونصف الأسطوانة الشمالي. وقد شقَّ البشر فتحةً في جدار الحاجز الجنوبي في منطقةٍ متاخمة لموطن المخلوقات الطائرة/اللاسويقية، وبنَوا مرسى سفنٍ ضخمًا، وقد بذلوا في ذلك مجهودًا شاقًّا وتكبَّدوا نفقات ضخمة.

وقد تساءل ريتشارد في البداية عن السبب الذي لم يجعل الطائرة الهليكوبتر تُقِلُّه هو ورفاقه مباشرةً إلى عدن الجديدة. ولكن بعد قليل من التفكير، توصَّل إلى استنتاجٍ صحيح، وهو أن هناك حدًّا أقصى للارتفاع الذي تصل إليه طائراتُ الهليكوبتر التي صُنعت على عُجالة بسبب الارتفاع الشاهق للجدار الحاجز الذي يمتدُّ مسافة كبيرة حتى المنطقة التي تبدأ فيها الجاذبية الصناعية الناتجة عن دوران مركَبة راما في الانخفاض بدرجةٍ كبيرة. وهذا بالإضافة إلى احتمال عدم توافر طيارين مهرة. ففكَّر ريتشارد في نفسه وهو يستقل المركبة: «هذا يعني أن البشَر يجب أن ينقلوا جميعَ عتادهم وجنودهم إما عن طريق هذا الرصيف أو عن طريق الخندق والنفق أسفل الموطن الثاني.»

كان قائدُ مركبتِهم آلي جارسيا. ويسير أمامهم وخلفهم مركبتان أخريان على متنهما بشرٌ مسلَّحون. وقد انطلقت المركبات الثلاث بسرعة كبيرة تشقُّ ظلامَ السهل الرئيسي.

كان ريتشارد يجلس على المقعد الأمامي إلى جوار السائق، بينما جلس كلٌّ من آرشي وإيلي ونيكي في المؤخرة. استدار ريتشارد في مقعده وأخذ يذكِّر آرشي بأن هناك خمسةَ أنواع من الكائنات الآلية في عدن الجديدة، فقاطعه الجارسيا الآلي. قال له: «فلينظر السجين ويكفيلد إلى الأمام ويصمت.»

فقال ريتشارد بلا مبالاة: «أليس هذا سخيفًا بعضَ الشيء؟»

فسحب الجارسيا الآلي ذراعه اليمنى بعيدًا عن عجلةِ قيادة المركبة وبظهر يده صفعَ ريتشارد بقوة على وجهه. وكرَّر مرة أخرى بينما كان ريتشارد يتمالك نفسه من عنف الصفعة: «انظر إلى الأمام، واصمت.»

بدأت نيكي تبكي بعد ذلك اللجوء المفاجئ إلى العنف. فحاولت إيلي أن تهدِّئها وتطمئنها. فقالت الفتاة الصغيرة: «أنا لا أحبُّ هذا السائق يا أمي، لا أحبه.»

كان الظلام يخيِّم على عدن الجديدة بعد أن اقتيد السجناء عبْر نقطة التفتيش عند مدخل الموطن. ووُضع آرشي والبشر الثلاثة في عربة كهربائية مفتوحة يقودها جارسيا آلي آخرُ. وقد لاحظ ريتشارد على الفور أن الجو بارد في عدن الجديدة كما كان في راما تقريبًا. أخذت العربة تقفز وهي تشقُّ طريقها الذي كان في حالةٍ مزرية، واتجهت شمالًا إلى ما كان يومًا محطةَ قطار قرية بوسيتانو. وكان هناك خمسة عشر أو عشرون شخصًا يرابطون حول نيران موقدة على الأرصفة الأسمنتية المحيطة بالمحطة القديمة. كما كان هناك ثلاثة أو أربعة آخرون متمددون ونائمون، يتخذون من صناديق الورق المقوَّى والملابس البالية أغطيةً لهم.

فسألت نيكي والدتها: «ماذا يفعل هؤلاء الناس يا أمي؟» ولكن إيلي لم تُجِب لأن الجارسيا الآلي التفت بسرعة ورمقها بنظرة عدوانية.

كان بإمكانهم رؤيةُ أضواء فيجاس المبهرة أمامهم عندما انعطفت العربة إلى اليسار في حركة حادة إلى زقاق سكني في منطقةٍ مبانيها من الخشب، كانت يومًا جزءًا من غابة شيروود. توقَّفت العربة فجأةً أمام منزل ريفي ضخم يمتد أفقيًّا أمامهم. واقترب من العربة رجلان شرقيان مسلَّحان بمسدَّسات وخناجر. وأشارا إلى ركَّاب العربة كي يخرجوا منها، وبعد ذلك أمرا الآلي بالانصراف. ثم قال أحدهما: «تعالوا معنا.»

دخل آرشي وزملاؤه البشر إلى المنزل، واصطحبهم الحارسان ليهبطوا سلسلةً طويلة من السلالم إلى قبوٍ لا نوافذ له. ثم قال الرجل الثاني: «هناك طعام وماء على المائدة.» ثم استدار وبدأ يصعد درجات السُّلم.

فقال ريتشارد: «انتظِر لحظة. حقائبنا ... حقائبنا ... إننا نحتاج إلى حقائبنا.»

فقال الرجل بنفاد صبر: «سنعيدها إليكم بمجرَّد أن يتم فحصُ محتوياتها بدقة.»

فسأله ريتشارد: «ومتى سنقابل ناكامورا؟»

فهزَّ الرجل كتفيه ووجهه يخلو من أيِّ تعبير. ثم صعِد درجات السُّلم مسرعًا.

٣

مرَّت الأيام ببطء شديد.

في البداية لم يكن بمقدور ريتشارد أو إيلي أو نيكي معرفةُ الوقت، ولكنهم سريعًا ما اكتشفوا أن كائنات الأوكتوسبايدر لديها ساعةٌ داخلية دقيقة دقةً مذهلة، حيث يضبطونها ويُدخِلون عليها تحسيناتٍ في أثناء تعليمهم وهم صِبية. وبعد أن وجَّهوا آرشي إلى استخدام وحدات التوقيت البشري (وقد استخدم ريتشارد التعليقَ الذي كثيرًا ما يستخدمه: «عندما تكون في روما، افعل كما يفعل الرومان …» كي يقنع آرشي بأن يتخلى، على الأقل مؤقتًا، عن وحدات التيرت والودن والفينج والنيليت)، اكتشفوا، عن طريقِ استراق النظر إلى ساعة الحارس الرقمية عندما يُحضِر لهم الطعام والماء، أن دقةَ ساعة آرشي الداخلية لا تحيد عن التوقيت الصحيح إلا بمقدارٍ أقلَّ من عشر ثوانٍ كلَّ أربع وعشرين ساعة.

وجدت نيكي سلواها في سؤالِ آرشي باستمرار عن الوقت، ونتيجةً لذلك تعلَّم ريتشارد ونيكي، بعد تَكرار الملاحظة، كيف يقرءون ألوانَ آرشي الخاصةَ بوحدات قياس الوقت والأرقام الصغيرة. بل إنه مع مرور الأيام، حسَّنت المناقشات الدائمة في القبو من قدرة ريتشارد على فهْم لغة كائنات الأوكتوسبايدر بوجهٍ عام. ومع أن مهارته في فهْم معاني شرائط الألوان لم تكن متقدمةً بعدُ مثل إيلي؛ فبعد أسبوع واحد كان بإمكان ريتشارد أن يتجاذب أطرافَ الحوار مع آرشي بيسرٍ دون الحاجة إلى إيلي لتترجِم له.

وكان البشر ينامون على حشيةٍ يابانية على الأرض. وكان آرشي يخلُد إلى النوم في وضعٍ مُلْتوٍ خلفهم خلال الساعات القليلة التي ينامها كل ليلة. وكان أحد الرجلين الشرقيَّين يجدِّد لهم مخزونهم من الطعام مرةً واحدة كلَّ يوم. ولم يفوِّت ريتشارد فرصةً واحدة لتذكير الحارسَين أنهم لا يزالون ينتظرون حقائبهم ولقاءهم الشخصي مع ناكامورا.

وبعد مرورِ ثمانية أيام لم يَعُد الاستحمام بتمريرِ الإسفنجة على الجسد في حوضِ الاستحمام المتاخِم لحمَّام القبو مُرضيًا. فطلب ريتشارد منهم السَّماح باستخدام مرشَّة ماء وبعض الصابون. وبعد عدةِ ساعات حملوا إليهم حوضَ غسلِ ملابس كبير. فاستحم كلٌّ من البشر الثلاثة، على الرغم من أن نيكي في البداية كانت تعارض بصورةٍ أثارت دهشتَهم خَلْع ملابسها كاملة أمام آرشي. وبعد الاستحمام شعر كلٌّ من ريتشارد وإيلي بأنهما أفضل حالًا حتى إنهما بدآ يتشاركان بعضَ التعليقات المتفائلة. فقال ريتشارد: «لا يمكنه الاحتفاظ بوجودنا سرًّا إلى الأبد. لقد رآنا عددٌ كبير من الجنود … ومن المستحيل ألا يقولوا شيئًا، بغض النظرِ عن أوامر ناكامورا.»

وأضافت إيلي بابتهاج: «أنا واثقة أنهم سيأتون من أجلنا قريبًا.»

ولكن بنهاية الأسبوع الثاني من سجنِهم، خبا ذلك التفاؤل المؤقَّت. فبدأ ريتشارد وإيلي يفقدان الأمل. إلى جانب أن نيكي أصبحت مصدرَ إزعاج وهي تخبرهم دائمًا أنها تشعر بالملل وتشتكي أنه ليس لديها ما تفعله. فبدأ آرشي يروي على نيكي قصصًا حتى يشغَل تفكيرها. وقد كانت «أساطيره» عن كائنات الأوكتوسبايدر تسعد الفتاةَ الصغيرة (وقد دارت بينه وبين إيلي مناقشةٌ طويلة حول المعنى الدقيق لهذه الكلمة قبل أن يقبِّلها في النهاية).

وترجمةُ إيلي للأساطير كانت تبدأ دائمًا بالعبارات التي اعتادت الفتاة أن تسمعها في بداية القصص الخيالية قبل الخلودِ إلى النوم. فكان آرشي يبدأ القصةَ قائلًا: «في سالف العصر والأوان ...» فتبدأ الفتاة تصيح في ترقُّب.

سألته الفتاة الصغيرة بعد واحدة من هذه القصص: «كيف كان يبدو شكلُ السلف يا آرشي؟»

فأجابها آرشي: «إن الأساطير لم توضِّح هذا قط. لذا أظن أنه بإمكانك تخيُّل أيِّ صورةٍ تريدينها لهم في ذهنك.»

سألته بعد قصةٍ أخرى: «هل هذه قصةٌ حقيقية؟ أمَا كانت كائنات الأوكتوسبايدر لتغادر كوكبَها لو لم يصحبها السلفُ إلى الفضاء أولًا؟»

فأجابها آرشي: «هذا ما تقوله الأساطير. فهي تقول إن كلَّ ما كنَّا نعرفه تقريبًا حتى خمسين ألف عام مضت، قام السلف بتعليمنا إياه.»

وفي إحدى الليالي بعد أن أخلدت نيكي إلى النوم، سأل ريتشارد وإيلي آرشي عن أصلِ هذه الأساطير. فأجابهما الأوكتوسبايدر: «إنها متداولة منذ عشرات آلاف السنين بزمنكم. وتحوي أقدَمُ السِّجلات الموثَّقة التي تركها جنسنا كثيرًا من القصص التي قصصتُها على مسامعكم في الأيام القليلة الماضية ... وهناك العديد من الآراء المختلِفة عن مدى واقعية هذه الأساطير ... والدكتورة بلو تؤمن أنها دقيقةٌ كقصص، وعلى الأرجح نتاجُ عملِ قاصٍّ بارع — من سكان الموطن البديل بالطبع — لم يجِد مَن يقدِّر عبقريتَه حقَّ قدْرِها في زمنه.»

وأجاب آرشي عن سؤالٍ آخرَ من أسئلة ريتشارد قائلًا: «إذا صدَّقنا هذه الأساطير، فقد كنَّا — نحن كائناتِ الأوكتوسبايدر — منذ سنواتٍ بعيدة، كائناتٍ بسيطةً تركب البحر، ولم يتمخَّض التطوُّر الطبيعي لنا إلا عن الحدِّ الأدنى من الذكاء والوعي. وقد كان السلف هم مَن اكتشفوا إمكاناتنا، عن طريقِ وضْع رسمٍ توضيحي للخريطة الجينية لدينا، وهم أيضًا مَن حوَّلونا على مدارِ أجيال كثيرة إلى ما أصبحنا عليه عندما وقَعت الكارثة الكبرى.»

فسألته إيلي: «ماذا حدَث للسلف بالضبط؟»

«هناك كثير من الروايات عن هذا الأمر، وبعضها متناقِض. فبعضها يقول إن معظَم السلف أو جميعهم الذين كانوا يعيشون على الكوكب الأساسي الذي كنَّا نعيش معهم عليه؛ يُرجَّح أنهم قد لقوا حتفَهم في الكارثة. وتقول بعض الأساطير إن لهم بعضَ القواعد الاستيطانية البعيدة حول النجوم القريبة، التي استمرَّت موجودة عدةَ مئات من الأعوام، ولكنها أيضًا ما لبِثت أن زالت في نهاية الأمر. وتقول إحدى الأساطير إن السلف قد استمروا في العيش والازدهار في نظمٍ نجمية أخرى بيئتها مناسبة لهم أكثر، وأصبحوا أكثرَ الكائنات العاقلة تَعدادًا بالمجرة. ولكننا لا نعلم الحقيقة. كلُّ ما نعلمه علمَ اليقين هو أن الجزءَ اليابس من كوكبنا الأساسي كان غيرَ صالح للعيش عليه سنواتٍ كثيرة جدًّا؛ وأنه عندما غامرت حضارة كائنات الأوكتوسبايدر بالخروج من الماء مرةً أخرى، لم يكن هناك أيٌّ من السلف على قيد الحياة.»

عندما امتدَّت الأيام إلى أسابيع، أصبح للرباعي المقيم في القبو إيقاعٌ يوميٌّ. ففي كل صباح، قبل أن تستيقظ نيكي وإيلي، كان آرشي وريتشارد يتجاذبان أطرافَ الحديث حول عددٍ كبير من الموضوعات ذات الاهتمام المشترك. أصبحت قدرةُ آرشي على قراءة الشفاه حينها لا غبارَ عليها تقريبًا، ووصل فهْم ريتشارد للغةِ ألوانِ كائناتِ الأوكتوسبايدر مرحلةً كافية، حتى إنه كان نادرًا ما يَطلب من الأوكتوسبايدر أن يعيد ما قال.

وكان كثيرٌ من حواراتهم عن العلم. وكان آرشي مفتونًا بتاريخ تطوُّر العلوم بصورةٍ خاصة عند الجنس البشري؛ فأراد أن يعرف تواريخَ التوصُّل إلى الاكتشافات، ودوافع بحثهم أو تجاربهم في المقام الأول، والنظرياتِ غيرَ الدقيقة أو المتعارضة المفسِّرة للظواهر التي طُرحت جانبًا نتيجةَ مستويات الفهم الجديدة لهذه الظواهر.

قال آرشي في صباحِ أحد الأيام: «إذن فالحرب هي التي سرَّعت من تطوُّر علم الطيران والفيزياء النووية عند جنسك.» ثم أضاف بعد مرور بضعِ ثوانٍ: «يا له من مفهوم مذهل! ... لا يمكنك أن تدرك مدى ذهولي لتعرُّفي، ولو بصورةٍ غيرِ مباشرة، على عمليةِ فهْمِكم التدريجية للطبيعة ... إن تاريخنا مختلف تمامًا. ففي البداية، كان جنسنا جاهلًا تمامًا. وبعد ذلك بوقتٍ قصير نشأ نوعٌ جديد من كائنات الأوكتوسبايدر، نوعٌ ليس بإمكانه التفكيرُ فحسب، وإنما ملاحظة العالَم وفهْم ما يراه أيضًا. وقد كان لدى معلِّمينا وصانعينا، السلف، تفسيرٌ لكل شيء. ومن ثَم كانت مهمتنا بوصفنا جنسًا من الكائناتِ بسيطةً تمامًا. فقد

تعلَّمنا قدْرَ استطاعتنا من معلِّمينا. وبطبيعة الحال، لم يكن في معرفتنا مفهومُ التجربة والخطأ المستخدَم في العلوم. ومن ثَم، فلم تكن لدينا أدنى فكرةٍ على الإطلاق عن كيفية تكوُّن أيٍّ عنصر من العناصر المشكِّلة لثقافة من الثقافات. لقد أتاحت لنا عبقريةُ السلف الهندسية تخطِّي مئات الملايين من السنين من التطوُّر.

ومما لا شك فيه أننا لم نكن مستعدين على الإطلاق للاعتناء بأنفسنا بعد أن وقعت الكارثة الكبرى. وطبقًا للأساطير التي تتناول الجوانبَ التاريخية بصورةٍ أعمق، كان نشاطنا الفكري الأساسي لمئات الأعوام التي تلت هو جمعَ كلِّ ما نستطيع العثور عليه أو تذكُّره من المعلومات الخاصة بالسلف وفهْمها. وفي الوقت نفسِه، مع غياب رُعاتنا عنَّا الذين يمنحوننا الخطوطَ الإرشادية فيما يختصُّ بالأخلاقيات، تعرَّضنا لانتكاسةٍ اجتماعية. وعِشنا فترةً طويلة جدًّا من التساؤلات عما إذا كانت كائنات الأوكتوسبايدر الجديدة العاقلة التي صنعَها السلف ستستمر في الحياة أم لا ...»

كان ريتشارد مذهولًا بفكرةِ ما أطلق هو عليه «الجنس المستعير للتكنولوجيا». فقال لآرشي في صباح أحد الأيام بنبرة الإثارة التي دائمًا ما تميِّز صوتَه عند التوصُّل إلى اكتشاف: «لم أتخيَّل قط أنه من الممكن أن يكون هناك جنس من الكائنات يسافر عبْر الفضاء ولم يستنبط قوانينَ الجاذبية بمفرده، ولم يستنتج القوانين الأساسية للفيزياء بعد سلسلةٍ طويلة من التجارب، مثل: خصائص الطيف الكهرومغناطيسي. إنها فكرة تُشدِه العقل ... ولكن الآن بعد أن فهمتُ ما أخبرتني به، يبدو هذا طبيعيًّا. فإذا قابل الجنس «أ»، وهو جنس متقدِّم يسافر عبْر الفضاء، الجنس «ب»، وهو جنسٌ ذكي ولكنه يأتي بعد الجنس الأول على سُلَّم التقدم التكنولوجي، يبدو من المنطقي تمامًا افتراضُ أنه بعد التواصل بين الجنسين، فإن الجنس «ب» سيتخطَّى درجات سُلَّم التقدُّم التي تفصِل بين الجنسين ...»

ففسَّر له آرشي قائلًا: «بل إن حالتنا في تفردُّها تتجاوز ما تقول. فالنموذج الذي تصِفه يبدو طبيعيًّا إلى حدٍّ بعيد، وقد تكرَّر مراتٍ عديدة، وفقًا لتاريخنا والأساطير. فأكثريةُ الكائنات التي تسافر عبْر الفضاء قد «استعارت حضارتها»، على حدِّ تعبيرك، والقلة تطوَّرت تطورًا طبيعيًّا. وانظر على سبيل المثال المخلوقاتِ الطائرةَ والمخلوقات اللاسويقية. فنظامُها التكافلي، الذي اكتسبته دون أي تدخُّل خارجي، كان موجودًا بالفعل منذ آلاف السنوات في نظامٍ نجمي لا يبعُد كثيرًا عن كوكبنا الأم عندما زارهم السلفُ أولَ مرة في رحلة استكشافية. وعلى الأرجح لم تكن المخلوقات الطائرة والمخلوقات اللاسويقية لِتطوِّر إمكانياتِ السفر عبْر الفضاء وحدَها أبدًا. ولكن بعد لقاء السلف ورؤية أول مركبة

فضائية في حياتهم، طلبوا منهم الحصولَ على التكنولوجيا اللازمة التي تمكِّنهم من السفر عبْر الفضاء وحصلوا عليها بالفعل ...

موقفُنا يختلِف بصفةٍ عامة، وقَطعًا استعرْنا من علمِهم أكثرَ بكثيرٍ من هذه المخلوقات. فإذا كانت أساطيرنا صحيحة، فإن السلف كانوا يسافرون عبْر الفضاء عندما كنا نحن كائناتِ الأوكتوسبايدر دون وعي على الإطلاق. وفي تلك الحِقبة لم نكن حتى قادرين على استيعابِ فكرةِ الكوكب، فضلًا عن فكرةِ الفضاء المحيط به. وقد حدَّدت قدرَنا الكائناتُ المتقدمة التي شاركتنا عالَمَنا. فقد أدرك السلف القدرات الكامنة في تكويننا الجيني. وباستخدام مهارتهم في الهندسة الوراثية، أدخلوا على جنسنا تحسيناتٍ وجعلونا كائناتٍ عاقلة، وأشركونا في معلوماتهم، وخلقوا ثقافةً متقدمة على أرضٍ ربما لم يكن من الممكن أن تنشأ عليها ثقافة ...»

تكوَّنت علاقةٌ قوية بين ريتشارد وآرشي نتيجةَ الأحاديث الصباحية الدائمة بينهما. فقد جمع بين الاثنين حبُّهما الجارف للمعرفة، مع عدمِ وجودِ ما يعكِّر صفوَ هذه العلاقة. وقد ساعد كلٌّ منهما الآخرَ على زيادةِ فهْمه له، ومن ثَم إثراء تقديرهما المتبادَل لعجائب الكون.

كانت نيكي تستيقظ في غالبيةِ الأيام قبل إيلي. وبعد أن تنتهي الفتاة من تناول طعام الإفطار، تنتقل المجموعة إلى المرحلة الثانية من جدولهم اليومي. ومع أن نيكي كانت تلعب من حينٍ لآخر بعضَ الألعاب مع آرشي، فقد كانت تقضي أغلبَ ما يمكن أن نطلِق عليه صباحها في حضورِ صفٍّ دراسي غير رسمي. وكان لديها ثلاثة معلِّمين. فكانت مع إيلي تقرأ قليلًا وتتدرَّب على بعض عمليات الجمع والطرح الأساسية. وكان جَدها يتحدَّث إليها عن العلوم والطبيعة، وكان آرشي يلقِّنها دروسًا عن السلوكيات الأخلاقية والآداب. كما تعلَّمت أيضًا الحروف الهجائية للغة كائنات الأوكتوسبايدر، وكذلك بعض العبارات البسيطة. وكانت أيضًا تستوعب لغةَ الألوان بسرعةٍ كبيرة، وهو ما عزاه الآخرون إلى جيناتها المعدَّلة وذكائها الفطري.

وقال آرشي لريتشارد وإيلي صباحَ أحد الأيام أثناء مناقشةٍ عن التعليم: «يقضي صغارنا وقتًا طويلًا من فترة دراستهم في مناقشة دراسات حالة تثير مشكلاتٍ أخلاقية مهمة ويقومون بتفسيرها. ويتم اختيارُ مواقفَ من الحياة كأمثلة، على الرغم من أنه يتم تعديل الوقائع الحقيقية تعديلًا طفيفًا لإبراز الموضوعات المهمة، ويُطلب من صغار الأوكتوسبايدر تقييمُ مدى إمكانية تقبُّل الاستجابات الممكنة المختلفة. ويقومون بهذا في مناقشاتٍ مفتوحة.»

فسأله ريتشارد: «وهل هذا يتم بعرضِ مفهومِ النمط الأمثل للحياة على الصِّغار في سنٍّ مبكرة؟»

فأجابه آرشي: «ليس بالضبط. فما نحاول القيام به هو إعداد الشباب للمهمة الفعلية للحياة، التي تتضمَّن التفاعل الدائم مع الآخرين، مع توفُّر كثير من الخيارات الأخلاقية. ويُشجَّع كلٌّ منهم بشدة لاستخدام دراسات الحالة لإكسابه منظومةَ قيمه. فجنسنا يؤمن بأن المعرفة لا توجد في الفراغ. فلا تكون هناك أهميةٌ حقيقية لهذه المعرفة إلا عندما تكون جزءًا لا يتجزأ من أسلوب الحياة ...»

وقد كانت دراسات الحالة التي يعرضها آرشي على نيكي بسيطة، ولكنها تناقش مشكلاتٍ أخلاقية تهذِّب من الشخصية. وقد غطَّت أولَ ثمانية دروس الموضوعاتِ الأساسيةَ، مثل: الكذب والعدل والتحيُّز والأنانية. وقد كانت استجابات الفتاة للمواقف تستند في الغالب إلى أمثلةٍ من حياتها هي.

وقد قالت نيكي في أحدِ الدروس: «جاليليو دائمًا يقول أو يفعل أيَّ شيء يرى أنه سيجعله يحصل على ما يريد. فما يريده أكثرُ أهميةً له من أيِّ شيء آخر ... أما كيبلر فيختلف عنه. إنه لا يدفعني إلى البكاء أبدًا.»

كانت نيكي تنام قليلًا بعد الظهيرة. وفي أثناءِ فترة نومها كان ريتشارد وإيلي وآرشي كثيرًا ما يتبادلون التعليقات والآراء التي تلقي ضوءًا على أوجهِ التشابه والاختلاف بين الجنسين. وقد قالت إيلي في أحدِ الأيام، بعد حوارٍ حيوي عن الكيفية المناسبة التي ينبغي أن تتعامل بها الكائناتُ الذكية الحسَّاسة مع الأعضاء من مجتمعها ذوي السلوكيات المعادية للمجتمع: «إذا كنتُ أفهم مجتمعكم فهمًا صحيحًا، فإنه أقلُّ تسامحًا بكثيرٍ من مجتمعنا ... فمن الواضح أن هناك «أسلوبًا مفضَّلًا للحياة» يمليه مجتمعكم. ومَن لا يعتنقون هذا النموذج المفضَّل من كائنات الأوكتوسبايدر لا يُنبَذون في الحال فحسب، ولكن يُحرمون أيضًا من المشاركة في كثيرٍ من أنشطة الحياة، و«تُنهَى حياتهم» بحيث يقضون وقتًا أقصرَ من العمر الطبيعي ...»

فأجابها آرشي قائلًا: «في مجتمعنا، الأشياءُ المقبولة دائمًا واضحة، لا مجالَ لِلَّبس كما هو الحال في مجتمعكم. ومن ثَم فإن الأفراد في مجتمعنا يحدِّدون اختياراتهم مع وعي كامل بالعواقب. وبالمناسبة، إن الموطن البديل ليس مثل السجون لديكم. إنه مكانٌ يمكن لكائنات الأوكتوسبايدر، وغيرها من الكائنات أيضًا، أن تعيش فيه دون التقيُّد بالنظام الصارم والنمط الأمثل للحياة الضروريان للتطوُّر المستمر للمستعمَرة واستمرار وجودها.

وبعض سكان الموطن البديل يعيشون حتى يتقدَّم بهم العمر كثيرًا، ويحيون حياةً سعيدة إلى حدٍّ كبير ...

ويبدو أن مجتمعكم، وهذا على حدِّ ملاحظتي، لا يفهم التعارضَ الجوهري بين الحرية الشخصية والمصلحة العامة. فيجب الموازنةُ بين الاثنين بحرص. فلا يمكن أن يُكتب لجماعةٍ الحياة، فضلًا عن الازدهار، إلا إذا كانت المصلحة العامة للمجتمع ككل أكثرَ أهميةً من الحرية الفردية ... انظر إلى توزيع الموارد على سبيل المثال. كيف يمكن لأي شخص أيًّا كانت درجةُ ذكائه أن يبرِّر، بالنسبة للمجتمع ككل، أن يحشد عددٌ قليلٌ من الأشخاص ثرواتٍ مادية ضخمة ويدَّخرونها، في حين أن الباقي لا يملكون حتى الطعام أو الملبس أو ضروريات الحياة الأخرى؟»

وفي ذلك القبو، لم يكن آرشي متحفظًا في حديثه أو مراوغًا كما كان في بعض الأحيان في مدينة الزمرد. فقد تحدَّث بصراحة عن جميع جوانب حضارته، وكأن المهمةَ المشتركة التي كان ينفِّذها مع زملائه من البشر قد حرَّرته بطريقةٍ ما من جميع القيود. فهل كان آرشي يبعث برسالةٍ عن قصد إلى البشَر الآخرين الذين من المؤكد أنهم كانوا يراقبون ذلك الحوار؟ ربما. ولكن كم من الحديث فهمه رجال ناكامورا وهم لا يعرفون شيئًا عن لغةِ الألوان؟ كلا، لقد كان آرشي على الأرجح يعرف، أكثرَ من أيٍّ من البشر، أن موته وشيكٌ، وأراد أن تكون أيامُه الأخيرة مستنفرة للآخرين، وذات معنًى قدْرَ الإمكان.

وذات ليلة قبل أن يأويَ ريتشارد وإيلي إلى الفِراش، قال آرشي إن لديه أمرًا «شخصيًّا» يود أن يطلعهم عليه. فقال: «أنا لا أريد أن أفزعكم، ولكنني قد استهلكت تقريبًا جميعَ زادي من الباريكان الموجودِ في مخزني الداخلي المؤقت. فإذا بقينا هنا وقتًا أطولَ من هذا ونفد الباريكان، فسأبدأ، كما تعرفون، في النضوج جنسيًّا. ووفقًا لما ورد في ملفاتنا، سأصبح أكثرَ عدوانية وحبًّا للتملُّك في ذلك الوقت. أتمنى ألا أصبح ...»

فقال ريتشارد ضاحكًا: «لا تقلق. لقد تعاملت مع مراهقين من قبل. ويمكنني أن أتعامل كما ينبغي مع أوكتوسبايدر متقلِّبِ المزاج.»

في صباح أحدِ الأيام طلب الحارس الذي يُحضِر لهم الطعام والماء من إيلي أن تُعِدَّ نفسَها والفتاة للرحيل. فسألته إيلي: «متى؟»

فأجابها الحارس: «بعد عشر دقائق.»

فسألته إيلي: «إلى أين سنذهب؟»

ولكنَّ الحارس لم يُجِب عليها واعتلى درجات السُّلَّم حتى اختفى.

وبينما كانت إيلي تبذل قصارى جهدها لإنعاشِ نفسِها ونيكي، راجعت مع ريتشارد وآرشي ما ستقوله إذا تمكَّنت من مقابلة ناكامورا أو أي قائدٍ آخرَ من قادة عدن الجديدة.

وقد شدَّد عليها والدها وهو يهمس لها بسرعةٍ في أحد أركان الغرفة: «لا تنسي أنه لا بأس في أن نقول إن كائنات الأوكتوسبايدر كائناتٌ محبَّة للسلام، ولكننا لن نستطيع منْعَ قيام أي حرب إلا إذا أقنعنا ناكامورا أنه لا يستطيع الانتصارَ في أي صراع مسلَّح معها. ويجب أن تؤكدي أن تقنياتهم متقدِّمة أكثر منَّا بمراحل.»

«ولكن ماذا لو سألوا عن التفاصيل؟»

«لن يكون من المتوقَّع منك أن تكوني على علمٍ بأي تفاصيل. أخبريهم أنني يمكنني أن أمنحهم جميعَ التفاصيل.»

تم اصطحاب إيلي ونيكي في عربةٍ كهربية إلى مستشفى المستوطنة في المدينة الرئيسية. ثم أُدخلوا بسرعة عبْر مدخل الطوارئ إلى مكتبٍ صغير معقَّم به مقعدان وأريكة أو فِراش يُستخدم لفحص المرضى، وبعض الأجهزة الإلكترونية المعقَّدة. جلست إيلي ونيكي بمفردهما عشر دقائق قبل أن يدلِف الدكتور روبرت تيرنر إلى الغرفة.

كان التقدُّم الكبير في العمر باديًا عليه. قال وهو يبتسم وينحني إلى أسفلَ باسطًا ذراعيه: «مرحبًا يا نيكي. تعالي إلى حِضن والدك.»

تردَّدت الفتاة لحظةً ثم ركضت قاطعةً الغرفةَ إلى والدها. فالتقطها روبرت ورفعها إلى أعلى وأخذ يؤرجِحها وهي بين ذراعيه. وقال: «من الجيد أن أراك مرةً أخرى يا نيكي.»

وقفَت إيلي في مكانها وانتظرت. وبعد عدةِ ثوانٍ وضَع روبرت ابنتَه مرةً أخرى على الأرض ونظر إلى زوجته. وسألها: «كيف حالك يا إيلي؟»

فأجابته إيلي، وهي تشعر فجأةً بالارتباك: «بخير. كيف حالك أنت يا روبرت؟»

قال: «مثلك تقريبًا.»

ثم تقابلا في منتصفِ الغرفة وتعانقا. وحاولت إيلي أن تقبِّله قُبلة حانية، ولكن ما إن تقابلت شفاههما حتى أدار روبرت وجهه. وشعرت هي بالتوتر الذي يسري في جسده.

فسألته إيلي برفق: «ما الأمر يا روبرت؟ ماذا حدث؟»

فأجابها: «لقد أثقلت كاهلي بالعمل، كالمعتاد.» ثم تحرَّك إلى جوارِ فِراش الفحص. وقال: «هلَّا خلعتي ملابسك يا إيلي ورقدتي هنا من فضلك؟ أريد أن أتأكد أنك على ما يرام.»

سألته إيلي وهي لا تصدِّق نفسَها: «الآن يا روبرت؟ قبل حتى أن نتحدَّث عما حدَث لنا في الأشهر التي افترقنا فيها؟»

فقال روبرت وهو يحاول الابتسام: «أنا آسف يا إيلي. أنا مشغول جدًّا الليلة. هناك نقصٌ شديد في فريق العمل بالمستشفى. لقد طلبت منهم أن يفرجوا عنك بناءً على وعدٍ مني بأن ...»

كانت إيلي قد دارت حول الفِراش لتقفَ بالقرب من زوجها. والتقطت يدَه وقالت برفق: «روبرت، أنا زوجتك. وأحبك. لم يرَ كلٌّ منَّا الآخرَ منذ أكثر من عام. فمن المؤكد أن بإمكانك إيجاد دقيقة ...»

اغرورقت عينا روبرت بالدموع. فاجتاحها الخوفُ فجأة: «ما الأمر يا روبرت؟ أخبرني.» وفكَّرت في نفسِها في رعب: «لقد تزوَّج من أخرى.»

فقال هو فجأةً بصوتٍ عالٍ: «ما الذي حدَث لك يا إيلي؟ كيف تخبري أولئك الجنود أنك لم تُختطفي وأن كائنات الأوكتوسبايدر ليست عدوانية؟ لقد جعلتِ مني أضحوكة. لقد سمعني كلُّ مواطن في عدن الجديدة في التليفزيون وأنا أصِف تلك اللحظة الرهيبة التي اختُطِفتِ فيها ... إنني أتذكَّر تمامًا كلَّ ما حدَث ذلك اليوم ...»

تراجعت إيلي إلى الخلفِ في البداية عندما بدأ روبرت يصرُخ فيها. وكانت ترى بوضوحٍ الألمَ الذي يشعر به وهي تقف تستمع إليه ولا تزال ممسكة بيده. فقالت: «لقد قلت هذا يا روبرت لأني كنتُ، وما زلت، أحاول فِعلَ ما بوسعي لمنعِ أي صراع بيننا وبين كائنات الأوكتوسبايدر ... وأنا آسفة إذا كان ما قلته قد سبَّب لك ألمًا.»

فقال روبرت بمرارة: «لقد أجرَت كائناتُ الأوكتوسبايدر عمليةَ غسيل مخٍّ لك يا إيلي. لقد تأكَّدت من هذا بمجرد أن أراني رجالُ ناكامورا التقارير. لقد تلاعبوا بعقلك بطريقةٍ ما، حتى إنك لم تعودي تعرفين الحقيقة.»

كانت نيكي قد بدأت تبكي بصوتٍ منخفض عندما رفع روبرت صوتَه للمرة الأولى. ولم تفهم سببَ الخلاف بين والديها، ولكنها عرفت أن الأمور بينهما ليست على ما يُرام. فبدأت تبكي وتلتصق بساق أمِّها.

فقالت إيلي محاوِلةً تهدئتها: «لا بأس يا نيكي. إنني أتحدَّث أنا ووالدك فحسب.»

عندما رفعت إيلي عينيها إلى أعلى، كان روبرت قد أخرج قلنسوةَ جمجمةٍ شفافة من أحد الأدراج وأمسكها بيده. فسألته بعصبية: «هل ستكشف عليَّ بمخطِّط كهربية الدماغ؛ كي تتأكَّد من أنني لم أصبح واحدةً منهم؟»

فأجابها روبرت: «إنه ليس أمرًا مضحكًا يا إيلي. لقد كانت جميعُ نتائج مخططات كهربية الدماغ الخاصة بي غريبة منذ أن عُدت إلى عدن الجديدة. ولا أستطيع أنا أو طبيبُ المخ والأعصاب في فريق عملي هنا معرفةَ السبب. بل ويقول إنه لم يرَ قط من قبلُ مثلَ هذه التغيرات الجذرية في نشاط مخٍّ بشري، فيما عدا في حالة الإصابة الشديدة بالمخ.»

فقالت إيلي وهي تعود لتمسك بيده: «روبرت. لقد زرعَت كائناتُ الأوكتوسبايدر كائنًا حيًّا دقيقًا ليمحوَ ذاكرتك عندما رحلت. وذلك لحماية أنفسهم. قد يكون هذا جزءًا من تفسير الموجات المخية الغريبة لديك.»

فنظر إليها روبرت وقتًا طويلًا دون أن يتحدَّث. ثم قال: «لقد اختطفوك. وتلاعبوا بمخي ... يا تُرى ما الذي فعلوه بابنتنا؟ كيف تدافعين عنهم؟»

خضعت إيلي لفحصِ كهربية الدماغ ولم تُظهِر النتائجُ أيَّ خلل أو اختلاف كبير عن فحوصات المخ العادية التي كانت تخضع لها في الأيام الأولى للمستوطنة. وكان يبدو الارتياحُ الصادق على وجهِ روبرت. ثم أخبر إيلي أن ناكامورا وحكومته مستعدُّون لإسقاط جميع التهم عنها، وسيتركونها تعود إلى منزلها مع نيكي إذا أمدَّتهم بمعلوماتٍ عن كائنات الأوكتوسبايدر، وبالطبع على أن تظلَّ تحت الإقامة الجبرية بمنزلها مؤقتًا. فكَّرت إيلي في الأمر بضع دقائق ثم وافقت.

فابتسم روبرت واحتضنها سريعًا ثم قال: «هذا جيد. ستبدئين غدًا ... وسأخبرهم أنا بذلك على الفور.»

وكان ريتشارد قد حذَّر إيلي وهم على ظهرِ النعامصور أن ناكامورا قد يحاول استغلالَها بطريقةٍ ما؛ أغلب الظن لتبرير استمراره في الإعداد للحرب. وكانت إيلي تعرِف أنه بالموافقة ظاهريًّا على مساعدةِ حكومةِ عدن الجديدة، فإنها تسير في طريقٍ محفوف بالمخاطر. قالت في نفسِها وهي تسترخي في حوض استحمام دافئ: «لا بد أن أحرص على ألا أقولَ أيَّ شيء يمكن أن يؤذي ريتشارد أو آرشي. أو يمنح ناكامورا الأفضليةَ في حرب محتملة.»

في البداية لم تشعر نيكي بالألفة في غرفتها القديمة، ولكن بعد ساعة تقريبًا من اللهو بلُعَبها، بدا الرضا التامُّ عليها. فدلفت إلى الحمَّام، حيث كانت إيلي تستحم، ووقفت إلى جوار حوض الاستحمام. وسألت أمَّها: «متى سيعود أبي إلى المنزل؟»

فأجابتها إيلي: «إنه سيتأخر يا حبيبتي. سيعود بعد أن تأوي إلى الفِراش.»

فقالت الفتاة: «إنني أحبُّ غرفتي يا أمي. إنها أفضلُ كثيرًا من ذلك القبو القديم.»

فأجابت إيلي: «يسعدني هذا.» فابتسمت الفتاة الصغيرة وغادرت الحمَّام. فالتقطت إيلي نفسًا عميقًا. وفكَّرت في نفسها: «ما كان الأمر ليجدي أيَّ نفعٍ إذا رفضتُ التعاون وأعادونا إلى القبو.»

٤

لم تكن كيتي قد انتهت من زينتها عندما سمِعت صوتَ جرس الباب. فالتقطت نفسًا عميقًا من السيجارة المشتعلة في منفضة السجائر إلى جوارها ثم ضغطت على زر «التحدُّث». وقالت: «مَن الطارق؟»

فجاءها الجواب: «إنه أنا.»

«ماذا تفعل هنا في منتصف النهار؟»

فردَّ عليها النقيب فرانتس باور: «لديَّ بعض الأخبار الهامة. دعيني أدخل.»

فالتقطت نفَسًا عميقًا من سيجارتها ثم سحقتها في المنفضة. ووقفت تلقي نظرةً على نفسِها في المرآة الكبيرة التي تُظهِر جسدَها بالكامل. وعدَّلت من هيئة شعرها قليلًا قبل أن تعود الطَّرقات على الباب.

فقالت كيتي وهي تدعوه إلى دخول الغرفة: «من الأفضل أن يكون الأمر مهمًّا حقًّا يا فرانتس، وإلا فستنال عقابًا قاسيًا. فأنت تعلم أن لديَّ مجلسًا تأديبيًّا مع اثنتين من الفتيات في غضون دقائقَ قليلة، وأنا أكره أن أتأخَّر عن موعدي.»

علَت وجهَ فرانتس ابتسامةٌ عريضة. قال: «هل ضبطتهما تسرقان مرةً أخرى؟ يا إلهي يا كيتي! سأكره حقًّا أن تكوني أنت رئيستي في العمل.»

فنظرت كيتي إليه بنفادِ صبر. وقالت: «ما الأمر؟ ما هذا الشيء الأكثرُ أهميةً من أن تخبرني به عبْر الهاتف؟»

بدأ فرانتس يسير في أرجاء غرفة المعيشة. وقد كانت الغرفة مصمَّمة بأسلوبٍ ينِمُّ عن ذوق رفيع، وبها أريكة كبيرة لونها أبيض وأسود، وأريكة أخرى صغيرة تكفي شخصين، ومقعدان متشابهان، والعديد من التحف الفنية على كلٍّ من منضدة الغرفة الصغيرة ومنضدة القهوة. سألها: «شقتك لا تحوي أجهزةَ تنصُّت، أليس كذلك؟»

فقالت كيتي: «أخبرني أنت يا ضابط الشرطة.» ثم أضافت وهي تنظر إلى ساعتها: «والآن فرانتس، في الحقيقة ليس لديَّ ...»

فقال فرانتس: «هناك معلوماتٌ موثوق بها تشير إلى أن والدك هنا في عدن الجديدة الآن.»

فقالت كيتي: «ماذا؟ كيف هذا؟» بدا عليها الذهول. جلست على الأريكة ومدَّت يدها لتلتقط سيجارةً أخرى من فوق منضدة القهوة.

«أحدُ الملازمين في فرقتي صديقٌ مقرَّب من أحد حراس والدك. وقد قال له إن ريتشارد وأحد كائنات الأوكتوسبايدر محتجزان في قبو منزل سري لا يبعُد كثيرًا عن هنا.»

فاجتازت كيتي الغرفةَ والتقطت سماعةَ الهاتف. وقالت عبْرها: «دارلا! أخبري لورين وأتسوكو أن موعد اليوم قد أُلغي ... لقد طرأ شيء ملحٌّ ... أخبريهما أنه سيكون في الساعة الثانية من ظهر الغد ... نعم، هذا صحيح ... لقد نسيت ... اللعنة! ... حسنًا، اجعليه في الحادية عشرة صباحًا ... لا، بل الحادية عشرة والنصف. فلا أريد أن أستيقظ في وقتٍ مبكِّر للغاية.»

عادت كيتي إلى أريكتها والتقطت سيجارتها. وأخذت منها نفَسًا عميقًا ثم نفثت الدخان حلقاتٍ فوق رأسها. وقالت: «أريد أن أعرف كلَّ شيء سمِعته عن والدي.»

أخبر فرانتس كيتي أن والدها وشقيقتها إيلي وابنةَ شقيقتها وكائن أوكتوسبايدر، طبقًا لمصادره، ظهروا فجأةً وهم يحملون عَلمًا أبيضَ في معسكر الجنود عند الضفة الجنوبية للبحر الأسطواني منذ شهرين تقريبًا. وأخبرها أن الوضع كان هادئًا، بل إنهم أخذوا يمزحون مع الجنود، على حدِّ تعبير فرانتس. وقد قال والدها وشقيقتها للجنود إنهم جاءوا مع ممثلٍ عن كائنات الأوكتوسبايدر ليروا أيمكنُ تجنُّب نشوبِ صراع بين الجنسين من خلال المفاوضات أم لا. وقد أمر ناكامورا بأن يظلَّ الأمر برُمَّته طيَّ الكتمان واحتجزهم ...

كانت كيتي تقطع الغرفةَ جَيئة وذهابًا بخطًى سريعة. ثم قالت في سعادة: «إن والدي ليس حيًّا يُرزق فحسب، بل هنا أيضًا في عدن الجديدة ... هل أخبرتك من قبلُ يا فرانتس أن أبي أذكى إنسانٍ وُجِد على الإطلاق؟»

ضحِك فرانتس. وقال: «عشرات المرات. وأنا لا أتخيَّل كيف يمكن أن يكون هناك شخصٌ أكثرُ ذكاءً منك.»

لوَّحت كيتي بيدها. وقالت: «إنني مقارنةً به بلهاءُ. لطالما أحببته حبًّا جمًّا. كان بإمكاني الإفلاتُ بأي شيء أرتكبه دون عِقاب.» ثم توقَّفت عن خطاها السريعة والتقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها. ولمعت عيناها وهي تنفُث الدخان. وقالت: «فرانتس. يجب أن أرى أبي ... يجب أن أراه.»

فقال هو: «هذا مستحيلٌ يا كيتي. بل من المفترضِ ألا يعرف أحدٌ أنه هنا من الأساس. من الممكن أن أُفصل من عملي، أو يحدُث لي ما هو أسوأ، إذا ما اكتشف أحدٌ أنني أخبرتك ...»

فقالت كيتي وهي تجتاز الغرفةَ وتجذِبه من كتفيه: «إنني أرجوك يا فرانتس. أنت تعلم أنني أكره أن أطلبَ معروفًا من أحد ... ولكنَّ هذا الأمر شديد الأهمية لي.»

كان فرانتس سعيدًا أن كيتي تطلُب منه هذه المرة شيئًا. ولكنه مع ذلك أخبرها الحقيقة. قال: «كيتي، إنكِ ما زلت لا تفهمين. هناك مجموعة من الحرَّاس المسلَّحين مرابطةٌ حول المنزل طَوال الوقت. وثمَّة أجهزةٌ تنصُّت مزروعة في القبو بالكامل تعرِض ما يجري فيه صوتًا وصورةً على شاشات. لا يوجد سبيل إلى ذلك.»

فقالت كيتي بنبرةٍ قوية: «هناك دائمًا سبيلٌ ما، إذا كان هناك شيءٌ على قدْر كبير من الأهمية.» ثم اتجهت إليه وداعبته. ثم قبَّلته بقوة وهي تقول: «إنك تحبني يا فرانتس. أليس كذلك؟»

فأجابها فرانتس وهي تبتعد عنه بعد أن نجحت في إثارة مشاعره: «بالطبع أحبك يا كيتي. ولكني لست مجنونًا.»

فسارت كيتي إلى غرفتها وعادت بعد أقلَّ من دقيقة تحمل رِزْمتين من النقود. وقالت وهي تلقي النقود على مائدة القهوة: «سأرى أبي يا فرانتس، وأنت ستساعدني ... يمكنك رشوةُ أيِّ شخص تشاء بهذه النقود.»

سال لعابُ فرانك عندما رأى النقود، فقد كانت أكثرَ من كافيةٍ مقارنةً بما تطلبه كيتي. فقال مازحًا: «وماذا ستقدِّمين لي؟»

فقالت كيتي: «ماذا سأقدِّم لك؟ ماذا سأقدِّم لك؟» ثم اصطحبته من يده وقادته إلى غرفة النوم. وقالت بنبرةٍ حازمة: «الآن أيها النقيب باور، انزعُ ملابسك، وارقدْ على ظهرك. وسترى ما سأقدِّمه لك.»

كان في شقة كيتي غرفةُ ملابس ملحَقة بغرفة نومها. فدلفت هي إليها وأغلقت البابَ خلفها. واستخدمت مفتاحًا لتفتح صندوقًا كبيرًا مزخرفًا أعلى الرَّف، وسحبَت منه إحدى الحقن الممتلئة التي حضَّرتها في وقتٍ مبكر من ذلك اليوم. ورفعت كيتي رداءها وربطت عِصابةً محكَمة حول فخِذِها باستخدام أنبوب صغير أسود اللون. وانتظرت لحظةً حتى ميَّزت بوضوحٍ وعاءً دمويًّا بين الجروح العديدة في فخذها ثم غرست الحقنةَ بمهارة فيه. وبعد أن دفعت السائل بالكامل في مجرى دمِها، انتظرت ثواني قليلةً حتى يبدأ المفعول السحري للمخدِّر ثم أزاحت العِصابة.

«ماذا عساي أن أفعل وأنا أنتظر؟»

فقالت: «ستجد شِعر ريلكا في قارئي الإلكتروني بالألمانية والإنجليزية. وأنا سأوافيك في غضونِ دقائقَ قليلة.»

شعرت كيتي أنها تحلِّق في السماء. فبدأت تدندن لحنًا راقصًا وهي تلقي بالحقنة بعيدًا وتعيد العِصابة إلى الصندوق. ثم تجرَّدت من ملابسها ونظرت إلى نفسِها في المرآة، بعد أن وضعت ملابسَها على مقعدِ المزينة في كومةٍ صغيرة. وفتحت درجًا كبيرًا وأخرجت منه عِصابة للعين.

دلفت كيتي إلى غرفة النوم. فثبَّت فرانتس عينيه على جسدها الرشيق. قالت له كيتي: «متِّع عينيك، فهذا كلُّ ما ستراه اليوم.»

واقتربت منه بتلقائية وقبَّلته وهي تغطي عينيه. وتأكَّدت من أن العِصابة مُحكمة ثم نهضت عن الفراش. فسألها فرانتس: «ماذا سيحدُث الآن؟»

أجابته كيتي قائلة: «انتظر وسترى»، وهي تفتش في درجٍ كبير أسفل مزينتها. كان الدرج يضم مجموعةً من الممتلكات الشخصية، بما في ذلك أدواتٍ إلكترونية من كل الأنواع ومستحضرات غسول وأقنعة وغيرها. فاختارت كيتي زجاجةً صغيرة بها سائل مرطِّب وعلبة بودرة بيضاء وسلسلة من بضع خرزات معلَّقة في خيط رفيع.

انضمت كيتي إلى فرانتس على الفِراش وهي تدندن وتضحك، وبدأت تمرِّر يديها على صدره. التصقت به وقبَّلته بقوة، ثم اعتدلت جالسة. وضعت السائل المرطِّب على يديها وفركتهما ثم باعدت بين ساقيه، وزحفت على بطنه وبدأت تدلِّك السائل المرطِّب على المواضع الحسَّاسة من جسده.

تنهَّد فرانتس وقال لها مستحسنًا بعد أن بدأ مفعولُ السائل المرطِّب: «هذا رائع.»

نثرت كيتي البودرةَ على الأجزاء الحسَّاسة من جسده. كان في غاية لذته. ظلَّت تداعبه برفق بضعَ دقائق. ثم توقَّفت فجأة. وبعد ذلك عادت تداعبه مجددًا، ثم توقَّفت مرة أخرى.

صاح بها فرانتس: «لا تتوقفي الآن.»

قالت له كيتي وهي تضحك: «كرِّر بعدي. أقسم ...»

صرخ فرانتس قائلًا: «أقسم لك بأي شيء تطلبينه. لكن لا تتوقفي.»

فأكملت «أقسم أن ترى كيتي ويكفيلد والدها خلالَ الأيام القليلة القادمة.»

وحينما كرَّر فرانتس القَسم الذي لقَّنته إياه كافأته. حتى شعر أنه في قمة سعادته ونشوته.

لم يرُق لإيلي المحقِّقان اللذان يستجوبانها. فقد كان كلاهما جافًّا، ولا يعرف المزاح، وتعاملا معها بازدراء شديد. وقد قالت لهما في نبرة ساخطة عندما طرحا عليها أحدَ الأسئلة في اليوم الأول من التحقيق: «إذا أصررتما على طرحِ الأسئلة نفسِها مرارًا وتكرارًا، فهذا لن يفلح أيها السادة ... أعرف أنكم طلبتم مني إمدادكم بمعلوماتٍ عن كائنات الأوكتوسبايدر ... ولكن حتى الآن جميعُ الأسئلة التي تكرِّرونها تخصُّ أمي وأبي؛ فهي بعيدة تمامًا عن الموضوع.»

فقال الرجل الأول: «سيدة إيلي، إن الحكومة تحاول جمْعَ كافة المعلومات عن هذه القضية. لقد كان والدك ووالدتك هاربَين عدة ...»

فقاطعته إيلي: «اسمعني، لقد أخبرتكما من قبلُ أنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق عن كيفيةِ تركِ أيٍّ من والديَّ لعدن الجديدة. أو توقيت ذلك أو سببه. وليست لديَّ أي معلومات عما إذا كانت كائنات الأوكتوسبايدر قد ساعدتهم على الهرب بأي طريقة. الآن، إذا لم تكونوا مستعدين لتغيير موضوع الأسئلة ...»

فقال الرجل الثاني وعيناه تبرقان: «لستِ أنت، يا سيدتي الصغيرة، مَن يقرِّر الأسئلة المناسبة في هذا التحقيق. ربما أنتِ لا تدركين مدى خطورة موقفك. إننا سنعفيك من المحاكمة — بتهمةٍ خطيرة، إن توخَّيت الدقَّة — فقط إذا تعاونتِ معنا تعاونًا كاملًا.»

فسألته إيلي: «وهل لي بمعرفة التهمة الموجَّهة إليَّ؟ إنني أشعر بالفضول لمعرفة ذلك ... فلم أكن مجرمةً من قبلُ.»

فقال الرجل الأول: «يمكن اتهامك بالخيانةِ العظمى. ومساعدة العدوِّ عمدًا في فترة إعلان الحرب.»

فأجابته إيلي وقد بدأت تشعر بالخوف: «هذه تهمة مضحكة. ليس لديَّ أدنى فكرة عمَّا تتحدَّث عنه.»

«هل تنكرين أنك في أثناء الفترة التي قضيتها مع الكائنات الفضائية، منحتِهم بمحض إرادتك معلوماتٍ عن عدن الجديدة قد تكون مفيدةً لهم في الحرب؟»

فأجابته إيلي وهي تضحك بعصبية: «طبعًا فعلتُ. لقد أخبرتهم بكلِّ ما يمكنني قوله عن المستوطنة. وقد بادلوني المعلومات. فأطلعوني على جميع المعلومات المشابهة الخاصة بهم.»

فكتب كلٌّ منهما بعضَ العبارات سريعًا على الأوراق أمامهما. تساءلت إيلي في داخلها: «كيف أصبحا هكذا؟ كيف يمكن أن يتحوَّل طفل فضولي يملأ الدنيا بالضَّحك إلى شخصٍ ناضج متجهِّم وعدواني على هذا النحو؟ أهي التنشئة أم الوراثة؟»

وقالت إيلي عندما طرحا عليها سؤالًا آخرَ: «انظرا أيها السيدين، هذا الأمر لا يسير على ما يرام بالنسبة إليَّ. وأود أن نأخذ استراحةً كي أنظِّم أفكاري. وقد أدوِّن بعضَ الملاحظات قبل أن نعودَ إلى التحقيق ... لقد تصوَّرت تحقيقًا مختلفًا تمامًا، تحقيقًا أكثرَ هدوءًا ...»

وافق الرجلان على الاستراحة. فسارت إيلي في الرواق إلى حيثُ كانت جليسةُ أطفال حكومية تعتني بنيكي. وقالت لها: «يمكنك الذهابُ الآن يا سيدة آدامز. لقد توقَّفنا لتناول الغداء.»

رأت نيكي القلقَ الذي يرتسم على وجهِ أمِّها فسألتها: «هل ضايقك هذان الرجلان يا أمي؟»

ابتسمت إيلي بعد صمت. وقالت: «يمكنك قولُ هذا يا نيكي. يمكنك قولُ هذا.»

أنهى ريتشارد جولتَه الأخيرة وهو يمارس رياضةَ المشي في أرجاء القبو، واتجه إلى حوض الاستحمام في ركن الغرفة. ولكنه توقَّف أولًا عند المنضدة كي يحتسيَ جُرعة ماء سريعًا. أما آرشي، فقد كان لا يزال راقدًا بلا حَراك على الأرض وراء فراش ريتشارد. فقال له ريتشارد وهو يمسح العَرق بالمنشفة: «صباح الخير. هل أنت جاهزٌ لتناول طعام الإفطار؟»

فأجابه الأوكتوسبايدر بالألوان: «لستُ جائعًا.»

فقال ريتشارد بمرح: «لا بد أن تأكل شيئًا. أنا أتَّفق معك أن الطعام يبدو بشعًا، ولكنك لن تستطيع العيشَ على الماء وحدَه.»

لم يتحرَّك آرشي أو يقُل شيئًا. فمنذ أن نفدَ مخزونه من الباريكان قبل أيام عديدة، كان الأوكتوسبايدر يميل إلى العزلة. فلم يَعُد ريتشارد يستطيع إشراكَه معه في حواراتهما الشائقة المعتادة، وأصبح قلِقًا على صحة الأوكتوسبايدر. فوضع ريتشارد بعضَ الحبوب في وعاء، ونثر بعضَ الماء عليه وحمله إلى صديقه. وقال له برفق: «هاك طعامًا، حاوِل أن تأكل قليلًا منه.»

فرفع آرشي اثنتين من لوامسه وأمسك بالوعاء. وعندما بدأ يأكل، اندفع شريطٌ برتقالي برَّاق من الشِّق في رأسه وتحرَّك نصف المسافة التي تقطعها الأشرطة إلى إحدى لوامسه الأخرى قبل أن يختفيَ سريعًا.

فسأله ريتشارد: «ماذا كان هذا؟»

فأجابه آرشي: «تعبير عن المشاعر.» وقد صحِبت إجابته مجموعة أخرى من الألوان غير المنتظمة.

فابتسم ريتشارد. وقال: «حسنًا، أيُّ نوع من المشاعر؟»

بعد التوقُّف وقتًا طويلًا، أصبحت شرائط آرشي الملوَّنة أكثرَ تنظيمًا. وقال: «أظن أنكم تطلِقون على هذا الشعور اكتئابًا.»

فسأله ريتشارد: «هل هذا ما يحدُث عندما ينتهي مفعول الباريكان؟»

لم يُجِبه آرشي. فعاد ريتشارد إلى المائدة وأعدَّ لنفسه وعاءَ حبوب كبيرًا. ثم عاد ليجلس إلى جوار آرشي على الأرض. وقال برفق: «لن يضرك التحدُّث عن الأمر. فليس لدينا شيءٌ آخرُ لنفعله.»

أدرك ريتشارد من حركةِ عدسة آرشي أن الأوكتوسبايدر يفحصه جيدًا. فتناول ريتشارد عدةَ ملاعق ممتلئة من طعامه قبل أن يبدأ آرشي الحديثَ.

فقال الأوكتوسبايدر: «في مجتمعنا، يجري اصطحابُ الذكور والإناث الصِّغار الذين يمرُّون بالنضوج الجنسي بعيدًا عن أنشطةِ الحياة اليومية التي يقومون بها، ويُوضعون في بيئةٍ مناسبة تمامًا لهذه المرحلةِ مع أشخاصٍ مرُّوا بهذه العملية من قبل. ويُشجَّعون على الحديثِ عمَّا يشعرون به، كما نُطمئنهم أن هذه المشاعرَ المعقَّدة الجديدة التي يمرون بها طبيعيةٌ للغاية. وأنا الآن أفهمُ سببَ ضرورة برنامج الاعتناء المكثَّف هذا.»

توقَّف آرشي دقيقةً وابتسم له ريتشارد في تعاطف. ثم عاد الأوكتوسبايدر يستكمل حديثه قائلًا: «لأول مرة منذ أن كنتُ صغيرًا للغاية، لم تقبَل مشاعري سيطرةَ عقلي عليها في الأيام الأخيرة السابقة. في أثناء التدريب على نظام الأمثلية، تعلَّمنا مدى أهميةِ فحصِ جميع الأدلة المتاحة جيدًا، والتخلُّص من أي شعور بالمحاباة قد يكون سببُه استجاباتٍ عاطفية شخصية عند اتخاذ أي قرار. ولكن مع قوة المشاعر التي أمرُّ بها في الوقت الحالي، سيكون من المستحيل تقريبًا أن أتجاهلها وأضعها في مرتبةٍ دنيا.»

فضحِك ريتشارد. ثم قال: «رجاءً لا تُسئ فهْمي يا آرشي، أنا لا أضحك على ما تقوله، ولكنك وصفت الآن ما يشعر به معظمُ البشر طَوال الوقت، في عبارةٍ استخدمتَ فيها تحليل كائنات الأوكتوسبايدر. قليلون فقط منَّا استطاعوا التحكُّم في «الاستجابات العاطفية الشخصية» التي نريد الإقدامَ عليها. ولعل تلك هي المرةُ الأولى التي تستطيع فهْمَنا بحق، إذا كنت تفهم ما أعنيه.»

فقال آرشي: «إنه أمرٌ بشِع. فأنا ينتابني شعورٌ قوي بالخسارة، أفتقد الدكتورة بلو وجيمي، وفي الوقت نفسِه، شعور بغضبٍ هادر تجاه ناكامورا لأنه يحتجزنا سجناءَ …

وأخشى أن غضبي قد يدفعني إلى إتيانِ بعضِ السلوكيات التي لا تتَّفق مع نمطنا الأمثل للحياة.»

فقال ريتشارد: «ولكنَّ المشاعر التي تصِفها لا ترتبط — على الأقل لدى البشر — بالنشاطِ الجنسي. فهل للباريكان مفعولٌ مهدِّئ يلطِّف من حِدة المشاعر كافة؟»

أنهى آرشي إفطارَه قبل أن يجيب. قال: «أنا وأنت كائنان مختلِفان تمامًا، وكما ذكرتُ من قبلُ، من الخطير أن تتصوَّر أن فكرةً في جنسٍ ما تنطبق على الجنس الآخر … إنني أتذكَّر مناقشاتنا الأولى عن البشرِ في لقاء القادة بعد أن هربتم من موطنكم … وفي منتصف الاجتماع، أكَّدت مسئولةُ الأمثلية أنه يجب ألا ننظر إلى جنسكم من منظورنا. بل يجب أن نراقبَكم بعنايةٍ ونجمع عنكم معلوماتٍ ونربط بين ما يتَّفق منها، دون أن نضفيَ عليها صِبغتنا …

وأظن أنَّ هذا كلَّه نوعٌ ما من التمهيد لِما أوشِك أن أخبرَك به الآن. ومع ذلك، في رأيي الشخصي، استنادًا إلى جميع ملاحظاتي للبشر، الرغبةُ الجنسية لديكم هي القوة المحرِّكة التي تقف وراء جميع الانفعالات العميقة لدى جنسكم … فنحن، كائنات الأوكتوسبايدر، نعاني فجوةً في مرحلةِ النضوج الجنسي. حيث نتحوَّل من كائناتٍ عديمة الجنس إلى كائناتٍ تمارس النشاطَ الجنسي في مدة قصيرة للغاية. أمَّا في البشر، فتكون هذه العمليةُ أبطأَ بكثير وأقلَّ وضوحًا. فالهرمونات الجنسية موجودةٌ لديكم بكميات مختلِفة منذ وقت مبكِّر من تطوُّركم وأنتم أجنة. وأنا أقول بأنه من الممكن أن نعزوَ انفعالاتكم اللاإرادية كافةً إلى هذه الهرمونات الجنسية، وقد أخبرتُ مسئولة الأمثلية بهذا. وأيُّ بشري لا يمارس أيَّ نشاط جنسي قد يكون قادرًا على اتباعِ نمطِ التفكير الأمثل مثل أي أوكتوسبايدر.»

فقال ريتشارد بحماسةٍ وهو يهبُّ على قدميه ويبدأ في السير بخطًى سريعة في الغرفة: «يا لها من فكرةٍ مثيرة للاهتمام! إذن فأنت تلمِّح إلى أنه حتى سلوكيات مثل رفضِ طفلٍ أن يلعب أحدٌ بلُعبته، على سبيل المثال، ترتبط بطريقةٍ ما بحياتنا الجنسية؟»

فأجابه آرشي: «ربما. ولعل جاليليو يمارس حُبَّ التملُّك الذي سيظهر مع نضوجه الجنسي في الكِبَر عندما يرفض أن يلعب كيبلر بإحدى لُعَبه … وبالتأكيد فإن حُبَّ الولد الصغير لأمِّه أو حُبَّ البنت الصغيرة لأبيها مؤشرٌ مبكِّر خاص بالسلوك بعد البلوغ …»

وهنا توقَّف آرشي عن الحديث؛ حيث إن ريتشارد قد أولاه ظهره وبدأ يزيد من سرعة خطاه في الغرفة. ثم عاد بعد بضع لحظات وجلس مرةً أخرى على الأرض إلى جوار الأوكتوسبايدر وقال: «أنا آسف. لقد كنتُ أفكِّر في أمرٍ ما الآن، أمرٍ فكَّرتُ فيه قليلًا في وقت

مبكر من صباح اليوم عندما كنا نتحدَّث عن التحكم في انفعالاتنا ... هل تتذكَّر حوارنا السابق الذي رفضتَ فيه أنتَ فكرةَ الإله التي يؤمن بها كلُّ شخص حسب معتقَدِه، على أنها «شذوذ مصاحِبٌ لعملية التطور»، وهو ضروري لجميع الأجناس الناشئة التي تمرُّ بمرحلة التطور كجسر مؤقَّت تعبُر منه من مرحلة الوعي الأوَّلي بالعالم إلى عصر المعلومات؟ هل غيَّرت التطوراتُ الأخيرة التي تمرُّ بها فكرتَك عن الإله؟»

اندفعت مجموعةٌ من الشرائط العريضة المتعددة الألوان لتغطي معظمَ الجزء العلوي من جسد الأوكتوسبايدر، التي يعرف ريتشارد أنها ضحِكات. ثم قال آرشي: «أنتم أيها البشرُ تشغَلون تفكيركم للغاية بفكرة الإله هذه. حتى مَن هم مثلك يا ريتشارد الذين يعترفون أنهم لا يؤمنون، لا يزالون يقضون وقتًا أكثرَ من اللازم يفكرون في هذا الموضوع أو يناقشونه ... وكما شرحتُ لكم قبل أشهر مضت، نحن، كائناتِ الأوكتوسبايدر، نضع المعلوماتِ في المرتبة الأولى، كما علَّمنا السلف ... ولا توجد معلوماتٌ مؤكَّدة تشير إلى وجودِ أي إله، ولا سيما إله يلعب دورًا في تنظيمِ ما يجري كلَّ يوم في الكون ...»

فقاطعه ريتشارد قائلًا: «إنك لم تفهم سؤالي بالضبط، أو ربما لم أَصُغْه أنا بأسلوبٍ يجعله مفهومًا ... ما أريد أن أعرفه هو هل تفهم، في حالتك الجديدةِ الأكثرِ انفعالًا هذه، السببَ الذي يجعل الكائناتِ العاقلةَ الأخرى تختلق وجودَ إله يؤمن به كلُّ فرد حسب عقيدته ويجد فيه سلواه، وأيضًا يفسِّر جميعَ الأمور الأخرى التي لا يفهمها؟»

فضحِك آرشي مرةً أخرى بدفعة من الألوان. وقال: «إنك شديدُ الذكاء يا ريتشارد. تريدني أن أؤكد ما تظنه، وهو أن الإله أيضًا مفهومٌ له علاقة بالانفعالات، وُلد نتيجةً لِتوقٍ لا يختلف عن الرغبة الجنسية. ومن ثَم يكون مفهوم الإله أيضًا مردُّه إلى الهرمونات الجنسية ... ولكن لا يمكنني الإقرارُ بتلك الفكرة. فأنا لا أملِك ما يكفي من المعلومات. ولكن يمكنني القولُ بناءً على ذلك الاضطرابِ الذي أشعر به داخلي هذه الأيام أنني أفهم كلمةَ «توق» التي كانت لا تعني شيئًا لي من قبلُ ...»

بدا آرشي ذلك الصباح كما كان يبدو من قبل، فابتسم ريتشارد. كان سعيدًا به. كان ذلك الحوارُ مثل تلك الحوارات التي كانت تدور بينهما يوميًّا قبل أن يفرَغ مخزونُ آرشي من الباريكان. قال ريتشارد فجأة: «إن كان لا يزال بإمكاننا التحدُّث مع جميع أصدقائنا في مدينة الزمرد، فإن هذا سيكون من الرائع، أليس كذلك؟»

أدرك آرشي ما كان ريتشارد يشير إليه بهذا السؤال. لقد كان كلاهما حريصًا من البدايةِ ألا يذكرَ وجودَ طفيليات التصوير أبدًا أو حتى يشير إلى أن كائنات الأوكتوسبايدر

لديها نظامٌ استخباراتي لجمعِ المعلومات. فلم يريدا تحذيرَ ناكامورا وحرَّاسه. وعندها شاهد ريتشارد شرائطَ الألوان تخرج من الأوكتوسبايدر بغزارة وتلفُّ حول رأسه، فتابعه بصمت. ومع أن الأوكتوسبايدر لم يكن يستخدم اللغةَ التي اشتُقَّت خصوصًا للتواصل مع البشر، فقد كان ريتشارد يفهم لبَّ الرسالة التي كان ينقلها.

فبعد إلقاءِ التحيةِ الرسمية على مسئولة الأمثلية والاعتذار عن عدمِ نجاح المهمة، أرسل آرشي رسالتين شخصيتين؛ رسالةً قصيرة إلى جيمي وأخرى أطولَ إلى الدكتورة بلو. وفي الرسالة التي بثَّها إلى رفيقة عمره، تدفَّقت شرائطُ الألوان المتنوِّعة خارجةً عن النمط المحدَّد لرسالة آرشي. وقد كان ريتشارد، الذي أصبح يعرف رفيقه في القبو جيدًا في الشهرين اللذين قضاهما معًا، مذهولًا ومتأثرًا بالعرْض الجميل للمشاعر الذي لا تكبِّله أيُّ قيود.

وعندما انتهى آرشي، اقترب منه ريتشارد ووضع يدَه على ظهرِ الأوكتوسبايدر. وسأله: «هل تشعر بتحسُّن الآن؟»

فأجابه آرشي: «إلى حدٍّ ما. ولكني أشعر أنني أسوأ أيضًا في الوقت نفسِه. فقد أصبحت الآن أدركُ أكثرَ من أي وقت مضى أنني قد لا أرى الدكتورة بلو أو جيمي مرةً أخرى ...»

فقاطعه ريتشارد قائلًا: «في بعضِ الأحيان أتخيَّل ما سأقوله لنيكول إذا كان باستطاعتي التحدُّث إليها عبْر الهاتف.» ثم أكمل بكلماتٍ نطقها بوضوح وهو يبالغ في حركاتِ فمه لإيضاح الكلمات: «أنا أفتقدُك بشدة يا نيكول، وأحبك من كل قلبي.»

لم يكن ريتشارد يتمتَّع بخيالٍ خصب في أحلامه. ولهذا لم تكن الأصواتُ الخارجية على الأرجح تتداخل مع حُلم يراه. لذا، فعندما سمِع صوتًا ما، ظن أنه حركةُ أقدام تتسلل بالأعلى في منتصف الليل، فاستيقظ بسرعة.

كان آرشي نائمًا. فنظر ريتشارد حوله وأدرك أن الضوءَ الذي يُضاء ليلًا في الحمَّام قد أُطفئ. وعندما اشتعل قلقُه، أيقظ رفيقه الأوكتوسبايدر.

فسأله آرشي بالألوان: «ما الأمر؟»

فهمس ريتشارد: «لقد سمِعت صوتًا غريبًا بالأعلى.»

كان صوتُ الباب الذي يقود إلى سُلَّم القبو يُفتح ببطء. وسمِع ريتشارد صوتَ أقدامٍ تسير بخفة، ثم أخرى أعلى السُّلم. فحاول جاهدًا أن يشق الظلام بعينيه، ولكنه لم يرَ شيئًا في الظلام الحالك.

فقال آرشي وقد التقطت عدستُه الموجات الحرارية تحت الحمراء للقادمين: «إنهما امرأة وضابط شرطة. لقد توقَّفا في هذه اللحظة على الدرجة الثالثة من السُّلم.»

ففكر ريتشارد في نفسه: «سيقتلوننا.» واجتاحت موجةٌ عاتية من الخوف كِيانه، واقترب بجسده أكثرَ إلى آرشي. ثم سمِع صوتَ باب القبو وهو يُغلق ببطء، ثم صوتَ خطواتٍ تهبِط السُّلم.

فهمس: «أين هما الآن؟»

فقال آرشي: «لقد هبطا السُّلم. إنهما قادمان ... أظن أن الفتاة هي ...»

فسمِع ريتشارد صوتًا من ماضيه. نادى الصوت: «أبي. أين أنت يا أبي؟»

فقال: «يا إلهي! إنها كيتي!» ثم أضاف بصوتٍ مرتفع للغاية محاولًا أن يسيطرَ على سعادته: «أنا هنا.»

طاف شعاعُ ضوء صغير منبعِث من مصباح يدوي على الحائط خلف فراشه وانتهى به المطاف على وجهه المزيَّن بلحية. وبعد ثوانٍ قليلة تعثَّرت كيتي بآرشي وسقطت بكيانها كلِّه بين ذارعي أبيها.

أخذت تقبِّله وتحتضنه، والدموع تسيل أنهارًا على وجنتيها. وقد كان الموقفُ بأكمله يذهل ريتشارد حتى إنه لم يستطِع في البداية الإجابةَ عن أيٍّ من أسئلة كيتي. ثم قال في النهاية: «نعم ... نعم، أنا بخير. لا أصدِّق أنه أنت ... كيتي، يا إلهي! كيتي ... آه، نعم، تلك الكتلة الرمادية هناك، تلك التي ركلتِها منذ لحظةٍ هي صديقي ورفيقي في السِّجن الأوكتوسبايدر آرشي ...»

وبعد عدة ثوانٍ، صافح ريتشارد رجلًا بقوة في الظلام قدَّمته كيتي إليه على أنه «صديقها». ثم قالت كيتي على عُجالة بعد عدة دقائق من الحديث عن عائلتهما: «ليس لدينا كثيرٌ من الوقت. لقد أعطبنا شبكةَ الكهرباء التي تغذي هذه المنطقة السكنية بالكامل، وسيجري إصلاحُ العَطَب قبل وقتٍ ليس بالطويل.»

فسألها ريتشارد: «هل سنهرُب؟»

فقالت كيتي: «لا. فإنهم سيُلقون القبضَ عليك ولا شكَّ ويقتلونك ... لقد أردت فقط أن أراك ... عندما سمِعت إشاعةً تقول إنك محتجز في مكانٍ ما في عدن الجديدة ... آه يا أبي، لَكَمِ اشتقت إليك! إنني أحبُّك حبًّا جمًّا ...»

أحاط ريتشارد ابنتَه بذراعيه وضمَّها إليه وهي تبكي. قال في نفسِه: «لقد صارت نحيفةً للغاية، كادت تصير شبحًا.» قال لها: «وأنا أيضًا أحبُّك يا كيتي.» ثم أضاف وهو

يبتعِد عنها قليلًا: «أمسكي بالمصباح، سلِّطي الضوءَ على وجهك ... أريد أن أرى عينيك الجميلتين.»

فقالت كيتي وهي تعود لتدفنَ نفسَها في صدره: «كلا يا أبي. لقد أصبحتُ عجوزًا وَخَطَ الزمنُ صروفَه على وجهي ... أريد أن تتذكَّرني كما كنت. لقد عشتُ حياةً عصيبة ...»

قاطعها صوتُ الرجل في الظلام يقول: «إنهم لن يتركوك هنا أكثرَ من هذا على الأرجحِ يا سيد ويكفيلد. فكلُّ شخص تقريبًا في المستوطنة سمِع قصة ظهورك في معسكر الجنود.»

فقالت كيتي بعد صمتٍ لم يدُم طويلًا: «هل أنتَ بخير يا أبي؟ هل يحضُرون لك طعامًا مناسبًا؟»

«أنا بخير يا كيتي ... لكننا لم نتحدَّث عنكِ أنت. في أيِّ مهنة تعملين؟ هل أنت سعيدة؟»

فقالت بسرعة: «لقد حصلت على ترقيةٍ أخرى. وشقَّتي الجديدة جميلة ... يجب أن تراها ... ولديَّ صديقٌ يعتني بي.»

فقال ريتشارد وفرانتس يذكِّر كيتي بأنهما يجب أن يرحلا: «أنا سعيد للغاية. لقد كنتِ دائمًا الأذكى بين أطفالي ... وتستحقين قدْرًا من السعادة.»

ثم فجأةً أخذَت كيتي تجهش بالبكاء وهي تضع رأسَها على صدرِ أبيها. وقالت: «أبي، من فضلك ضُمَّني إلى صدرك يا أبي.»

فأحاط ريتشارد ابنتَه بذراعيه. وسألها برفق: «ما الأمر يا كيتي؟»

فقالت: «أنا لا أريد الكذبَ عليك. فأنا أعمل لدى ناكامورا قوادةً للعاهرات. وأنا مدمنةُ مخدرات ... مدمنة مخدرات بائسة لا أملَ في علاجي.»

أخذت كيتي تبكي وقتًا طويلًا. ضمَّها ريتشارد إلى صدره بقوةٍ وربَّت على ظهرها. قالت كيتي عندما رفعت رأسها في النهاية: «ولكني أحبك يا أبي. لقد أحببتك، وسأحبُّك دائمًا ... أنا آسفة حقًّا لأني قد خيَّبت ظنَّك فيَّ.»

فقال فرانتس بحزم: «كيتي، يجب أن نذهبَ الآن. إذا عادت الكهرباء ونحن لا نزال في هذا المنزل، فسنكون في ورطة كبيرة.»

فقبَّلت كيتي والدها بسرعة على شفتيه وداعبت لحيته بحنانٍ بأصابعها مرةً أخيرة. وقالت: «اعتنِ بنفسك يا أبي. ولا تفقد الأملَ أبدًا.»

كان شعاع المصباح اليدوي عبارة عن خيط رفيع من الضوء يتقدَّم الزائرَين وهما يجتازان الغرفةَ سريعًا، حتى وصلا إلى درجات السُّلم. فقالت كيتي: «وداعًا يا أبي.»

فقال ريتشارد وهو يسمع صوتَ قدمَي ابنته تركضان معتليةً السُّلم: «وأنا أحبُّك أيضًا يا كيتي.»

٥

كان الأوكتوسبايدر الراقدُ على الفِراش فاقدًا الوعي. فناولت نيكول الدكتورة بلو الوعاءَ البلاستيكي الصغير الذي طلبته منها الطبيبة الفضائية، وشاهدتها وهي تضع الكائناتِ المتناهيةَ الصِّغر على السائل الأسود المائل للخضرة الذي يغطي الجُرح المفتوح. وفي أقلَّ من دقيقة اختفى السائل، وخيَّطت زميلتُها الأوكتوسبايدر الجُرح ببراعة باستخدام السنتيمترات الخمسة الأولى من ثلاث من لوامسها.

قالت الدكتورة بلو بالألوان: «هذا آخرُ مريض نراه اليوم، وشكرًا يا نيكول على مساعدتك كالعادة.»

سار الاثنان معًا خارجَ غرفة العمليات إلى الغرفة المتاخمة. ولم تكن نيكول قد اعتادت بعدُ عمليةَ التطهير. فالتقطت نفسًا عميقًا قبل أن تخلع رداءها الواقي وتضع ذراعيها في إناءٍ كبير مليء بالعشرات من الحيوانات التي تشبه الحشرةَ اللاحسةَ السُّكر. وقاومت نيكول اشمئزازها وهذه الأشياء المقزَّزة تتسلَّق ذراعيها ويديها.

قالت الدكتورة بلو: «أعلم أن هذه العملية ليست لطيفةً بالنسبة إليك، ولكننا في الوقت الحالي ليس لدينا خيارٌ آخر، حيث إن مخزون الماء بالشمال قد تلوَّث بسبب القصف … ولا يمكننا المخاطرةُ بتعريضك لأي شيء قد يكون سامًّا لك.»

فسألتها نيكول بينما كانت الدكتورة بلو تنتهي من تنظيف نفسِها: «هل تم تدميرُ كلِّ شيء في شمال الغابة؟»

أجابتها الأوكتوسبايدر: «تقريبًا. ويبدو أن المهندسين البشر قد انتهوا الآن من إدخال تعديلات على طائرات الهليكوبتر. وتخشى القائدة المُثلى من أنهم سيقومون بأولى طلعاتهم الجوية فوق الغابة خلال أسبوع أو اثنين.»

«ولم تصِلْكم أيُّ ردود على الرسائل التي أرسلتموها؟»

«ولا رد. إننا نعلم أن ناكامورا قد قرأها … ولكن البشر ألقَوا القبضَ على آخرِ رسول أرسلناه بالقرب من محطة الطاقة وقتلوه … مع أنه كان يحمل عَلمًا أبيض.»

تنهَّدت نيكول. وتذكَّرت شيئًا قاله لها ماكس الليلةَ السابقة عندما عبَّرت عن دهشتها من أن ناكامورا يتجاهل جميع الرسائل. فقد صرخ ماكس قائلًا بغضب: «بالطبع

سيتجاهلها؛ إن ذلك الرجل لا يفهمُ سوى لغة القوة ... وجميع هذه الرسائل الغبية تقول إن كائنات الأوكتوسبايدر ترغب في السلام وأنها ستكون مجبرةً على الدفاع عن نفسِها إذا لم يتوقَّف البشر ... والتهديدات الأخرى بالرسائل ليس لها أي معنًى. ما الذي سيظنه ناكامورا وقوَّاته وطائراته تتحرَّك دون أن يعوقَها أيُّ شيء وتدمِّر كلَّ ما تقابله؟ ألم تفطِن مسئولة الأمثلية إلى أيِّ شيء عن البشر؟ يجب أن تجرَّ كائنات الأوكتوسبايدر جيشَ ناكامورا إلى معركة ...»

فأجابته نيكول: «هذه ليست طريقتَهم. فهم لا يورِّطون أنفسَهم في مناوشاتٍ أو حروبٍ محدودة. إنهم يقاتلون فقط إذا تعرَّض وجودُهم للخطر ... وقد أوضحت الرسائل هذا بدقةٍ متناهية، وطالبت ناكامورا مرارًا وتكرارًا بأن يتحدَّث إلى ريتشارد وآرشي ...»

وفي المستشفى، كانت الدكتورة بلو تتحدَّث بالألوان إلى نيكول. فهزَّت الأخيرة رأسها لتعودَ إلى أرض الواقع. وكانت الأوكتوسبايدر تسألها: «هل ستنتظرين بينجي اليوم، أم ستذهبين مباشرةً إلى مركز المعلومات؟»

نظرت نيكول إلى ساعتها. وقالت: «أظن أني سأذهب الآن. فعادةً ما يستغرق استيعابُ جميع البيانات التي ترسلها طفيلياتُ التصوير عن اليومِ السابق ساعتين ... فأمورٌ كثيرة تجري الآن ... من فضلك، أخبري بينجي أن يقولَ للآخرين إنني سأعود إلى المنزل وقتَ تناوُل العشاء.»

سارت نيكول خارجةً من المستشفى بعد بضعِ دقائق واتَّجهت إلى مركزِ المعلومات. ومع أن النهارَ بمدينة الزمرد لم ينقضِ بعدُ، فقد كانت شوارعها مهجورة تقريبًا. مرَّت نيكول بثلاثة من كائنات الأوكتوسبايدر يُهرعون على الجانب الآخر من الشارع واثنين من السرطانات الآلية التي كانت تبدو غريبةً على المكان. وكانت الدكتورة بلو قد أخبرت نيكول أنهم يسندون أعمالَ جمعِ القُمامة في مدينة الزمرد إلى السرطانات الآلية.

فكَّرت نيكول في نفسها: «لقد تغيَّرت المدينة كثيرًا منذ إصدار مرسوم الإعداد للحرب. فقد تحوَّل معظم كائنات الأوكتوسبايدر البالغة إلى منطقة الحرب. ولم نرَ من قبلُ أيَّ كائن آلي بالمدينة منذ شهرٍ مضى، حيث إنه من المفترَض أن معظم الكائنات الخدمية نُقلت إلى مكانٍ آخر. ويظن ماكس أنهم أنهَوا حياةَ كثير منهم بسبب النقص في الموارد. إن ماكس يظن سوءًا بكائنات الأوكتوسبايدر دائمًا.»

وكانت نيكول عادةً ما تصحَب بينجي بعد العمل إلى محطة العربات. كما كان ابنها يساعد أيضًا في المستشفى بسبب نقص عدد العاملين به. ونظرًا لأن بينجي أصبح أكثرَ

وعيًا بما يحدُث في مدينة الزمرد، أصبح من الصعب جدًّا على نيكول أن تخفي عليه مدى خطورة موقفهم.

وقد سألها بينجي الأسبوع السابق: «لماذا يحارب شعبنا ضد كائنات الأوكتوسبايدر، ألا يعلمون أنها لا تريد إيذاءَ أحد؟»

فأجابته نيكول: «إن سكان مستوطنة عدن الجديدة لا يفهمون كائناتِ الأوكتوسبايدر. ولم يسمحوا لآرشي وعمِّك ريتشارد أن يشرحا لهم أيَّ شيء.»

فقال بينجي بصوتٍ أجشَّ: «إذن فهم أكثرُ غباءً مني.»

كانت الدكتورة بلو وغيرها من كائنات الأوكتوسبايدر في فريق العمل بالمستشفى الذين لم يتولَّوا مهامَّ أخرى بسبب الحرب، كانوا معجبين جدًّا ببينجي. في البداية، عندما تطوَّع للمساعدة، كانت لديهم تحفُّظات عما يمكن أن يفعله بقدراته المحدودة، ولكن بمجرد أن تشرح له نيكول أيَّ مهمة بسيطة، ويعيد هو عليها ما يجب أن يفعله، فإنه لم يكن يرتكب خطأً البتة. وقد كان مصدرَ عونٍ ولا سيما في القيام بالمهام الشاقة، بفضل جسده القوي اليافع، وهي ميزةٌ مهمة جدًّا، حيث لم يَعُد كثيرٌ من الكائنات الأكبر حجمًا موجودًا بالجوار.

وبينما كانت نيكول تسير في اتجاهِ مركز المعلومات، وجدت نفسَها تفكِّر في كلٍّ من بينجي وكيتي. وفي خيالها، أخذت نيكول تتنقل جيئةً وذهابًا بين صور الاثنين. وقالت في نفسها: «إننا الآباء غالبًا ما نقضي وقتًا طويلًا نركِّز على الإمكانات العقلية لأطفالنا بدلًا من السِّمات الحقيقية لهم. فالمهم حقًّا ليس مدى ذكاء الطفل، وإنما ماذا قرَّر هو أن يفعل بهذا الذكاء. لقد حقَّق بينجي نجاحًا لم نكن حتى لنحلُم به، بسببِ ما هو عليه حقًّا في داخله. أما كيتي، فلم أكن أتخيَّل في أسوأ كوابيسي …»

قطعَت نيكول حبلَ أفكارها وهي تدلف إلى المبنى. ولوَّح لها أحدُ الحراس الأوكتوسبايدر بالسلام فابتسمت له. وعندما وصلت إلى غرفة العرْض المعتادة، فوجئت أن مسئولةَ الأمثلية كانت بانتظارها. فقالت الأوكتوسبايدر القائدة: «لقد أردتُ أن أستغلَّ هذه الفرصة لأشكركِ على الإسهامات التي تقدمينها في هذه الفترة الحرِجة، ولأطمئنكِ أننا سنعتني بجميع أفراد عائلتكِ وأصدقائكِ الموجودين هنا في مدينة الزمرد وكأنهم من أبناء جنسنا، بغض النظر عما سيحدُث في الأسابيع القليلة القادمة.»

اتَّجهت مسئولة الأمثلية لمغادرة الغرفة. فسألتها نيكول: «إذن فالموقف يتدهور، أليس كذلك؟»

فأجابتها الأوكتوسبايدر: «بلى. بمجرد أن يبدأ البشر في التحليق فوق الغابة، سنُضطر إلى الرد عليهم.»

عندما غادرت مسئولة الأمثلية الغرفة، جلست نيكول أمام لوحة التحكُّم لتتصفح بيانات طفيليات التصوير الخاصة باليوم السابق. لم يكن مسموحًا لنيكول أن تدخل إلى جميعِ المعلومات القادمة من عدن الجديدة، ولكن كان مسموحًا لها أن تستدعي الصورَ الخاصة بالأنشطة اليومية لجميع أفراد عائلتها. فكانت نيكول ترى كلَّ يوم ما يحدُث في القبو لريتشارد وآرشي، وكيف أن إيلي ونيكي بصدد التكيُّف مع الحياة في عدن الجديدة مرةً أخرى، وماذا كان يحدُث في عالم كيتي.

وبمرور الوقت، كانت نيكول تتوقَّف تدريجيًّا عن مشاهدة كلِّ ما يخُص كيتي؛ فقد كان الأمر شديدَ الإيلام لها. وعلى النقيض تمامًا، كانت رؤية حفيدتها نيكي مصدرَ سعادة كبيرة لها. وقد استمتعت نيكول بصورةٍ خاصة بمشاهدة نيكي في الأيام التي تذهب فيها الفتاة الصغيرة بعد الظهيرة إلى ملعبِ أطفال بوفوا للَّعِب مع الأطفال الآخرين في القرية. ومع أن الصور كانت دون صوت، كانت نيكول تسمع داخلها صيحاتِ سرور الأطفال وابتهاجهم ونيكي والأطفال الآخرون يقعون على الأرض بعضهم فوق بعض وهم يحاولون اللَّحاق بكرة القدم التي تُفلِت منهم.

وقد كان قلبُ نيكول ينفطِر ألَمًا من أجل إيلي. وعلى الرغم من جهود ابنتها البطولية، فلم يحالفها الحظ في إنقاذ زواجها. لقد ظلَّ روبرت مستغرِقًا في إدمانه لعمله، متذرِّعًا بحاجة المستشفى إليه كي يبقى بعيدًا عن مواجهة المشاعر كافة، حتى مشاعره هو شخصيًّا. وكان روبرت أبًا صالحًا مع نيكي ولكنه كان يكبح مشاعره، ونادرًا ما يُظهِر أيَّ بهجة حقيقية. كما أنه لم يُقِم علاقةً حميمة مع إيلي، ولم يتحدَّث عن الأمر إلا مرة واحدة عندما قال إنه «ليس مستعدًّا» حين تحدَّثت هي إليه في هذا الأمر وهي تبكي بعد ثلاثة أسابيع من عودتها إليه.

أثناء جلسات العرْض الطويلة التي كانت تقضيها نيكول وحدَها، كثيرًا ما كانت تتساءل هل من الممكن للوالدين أن يراقبا أبناءهما وهم واقعون في مأزقٍ دون أن يسألا أنفسهما ماذا كان بوسعهما أن يفعلا كي يجنِّبوهم ذلك. وقالت في نفسها بأسًى وهي تستعرض صورةَ أيلي وهي تبكي بهدوء أثناء الليل: «تربية الأبناء مغامرةٌ غير مضمونة عواقبها. لكن ما أعرفه يقينًا هو أن المرء لن يقتنع أبدًا بأنه بذل أقصى وُسعه لأجل أبنائه.»

وكانت نيكول دائمًا ما تترك مشاهدةَ الجزء المتعلِّق بريتشارد حتى النهاية. ومع أنها لم تنفُض عن ذهنها قطُّ هاجس أنها لن تمسَّ زوجها مرةً أخرى، فإنها لم تترك تلك المشاعرَ تنتقص من السعادة اليومية التي تشعر بها وهي تطَّلع على حياته في القبو في عدن الجديدة. وكانت تستمتع بمناقشاته مع آرشي خاصة، مع أنه كان يصعُب عليها كثيرًا قراءةُ شفتيه. وقد ذكَّرتها نقاشاتهما بالأيام الخوالي، بعد فِرارها من سجن عدن الجديدة عندما كانت هي وريتشارد لا يتوقَّفان عن الحديث في كل شيء. وكانت رؤيةُ ريتشارد تترك نيكول دائمًا في حالةٍ معنوية مرتفعة وتجعلها أكثرَ قدرة على التغلُّب على وحدتها.

أما لقاء ريتشارد بكيتي بعد طول انفصال فقد كان مفاجأةً لنيكول. فهي لم تكن تتابعُ حياةَ كيتي عن قُرب بما يكفي لتعرفَ أن ابنتها وفرانتس قد نجحا في وضعِ خطةٍ لتأمين زيارة قصيرة لريتشارد. ونظرًا لأن طفيليات التصوير كانت تلتقط صورًا لما يمكن أن تراه عينُ الإنسان وما لا يمكن أن تراه، فقد رأت نيكول ذلك اللقاءَ بصورةٍ أوضح من المشاركين فيه. وقد أثَّر فيها كثيرًا سلوك كيتي في ذلك اللقاء، بل وتأثَّرت أكثرَ باعترافها المفاجئ لأبيها أنها مدمنة مخدرات (الذي شاهدته نيكول مرارًا وتكرارًا بعرْضٍ بطيء للغاية كي تتأكَّد من أنها تقرأ حركات شفتَي كيتي قراءةً صحيحة). وتذكَّرت نيكول أنها قد قرأت في مكانٍ ما أن الخطوة الأولى لتجاوُز أيِّ مشكلة هي الاعتراف لشخص تحبُّه بوجود هذه المشكلة.

وقد أغرقت دموعُ السعادة عينَي نيكول وهي تستقل العربةَ الخاوية تقريبًا عائدةً إلى الجزء المخصَّص للبشر في مدينة الزمرد. ومع أن العالم الغريب حولها كان يتداعى إلى حالةٍ من الفوضى، فقد كانت نيكول متفائلةً بشأن كيتي.

كان باتريك والتوءمان بالخارج عندما ترجَّلت نيكول عن العربة في نهاية الشارع. وقد أدركت وهي تقترب منهم أن باتريك كان يحاول حلَّ واحدٍ من الخلافات التي لا تُحصى بين التوءمين.

وكان كيبلر يقول: «إنه يغشُّ دائمًا. وقد أخبرته أنني لن ألعبَ معه مرةً أخرى فضربني.»

فأجاب جاليليو: «إنه يكذب. لقد ضربته لأنه كان يلوي قسماتِ وجهه لإغاظتي … إن كيبلر فاشل تمامًا. إذا رأى أنه لن يربح، يظن أنه لا مشكلة في الانسحاب.»

فرَّق باتريك بين الولدين، وأجلسهما في ركنَين متقابلين من المنزل، ووجهُ كلٍّ منهما إلى الحائط، عقابًا لهما. ثم استقبل والدته بالعِناق والتقبيل.

فقالت نيكول وهي تبتسم لابنها: «لديَّ أخبارٌ عظيمة. لقد استقبل ريتشارد زائرًا مفاجئًا اليوم، إنها كيتي!»

بالطبع أراد باتريك أن يعرف كلَّ تفاصيل زيارة أخته لريتشارد. فلخَّصت له نيكول ما رأت، وأقرَّت أنها قد شجَّعها كثيرًا اعترافُ كيتي بأنها مدمنة للمخدرات. فحذَّرها باتريك قائلًا: «لا تحمِّلي سلوكها أكثرَ من حجمه. فكيتي التي أعرفها تفضِّل الموتَ على الحياة من دون مخدِّر الكوكومو.»

استدار باتريك وكان على وشْك أن يخبر التوءمين أنه بإمكانهما العودةُ لاستئناف لَعِبهما، عندما انطلق صاروخان يشقَّان السماء، وانفجرا ليحدِثا كرتَي ضوء حمراوين زاهيتين أسفلَ القبة مباشرة. وبعدها بلحظاتٍ غرقت المدينة في ظلامٍ دامس. فقال باتريك: «هيا يا أولاد. يجب أن ندلِف إلى الداخل.»

وقال لنيكول وهما يتبَعان كيبلر وجاليليو إلى داخل المنزل: «هذه هي المرة الثالثة اليوم.»

«لقد قالت الدكتورة بلو إنهم يطفئون أنوارَ المدينة في الوقت الذي تحلِّق فيه أي طائرة هليكوبتر في نطاق عشرين مترًا فوق قمم أشجار الغابة. إن كائنات الأوكتوسبايدر لا تريد تحت أي ظرفٍ أن تخاطر بكشف مكان مدينة الزمرد.»

فسألها باتريك: «هل تظنين أن آرشي وعمَّ ريتشارد ستُتاح لهما الفرصة للقاء ناكامورا؟»

فأجابته نيكول: «أشكُّ في هذا. فلو أنه سيقابلهما، لفعل من قبلُ.»

ألقَت إيبونين وناي التحيةَ على نيكول وعانقتاها. تحدَّثت السيدات الثلاث مدة قصيرة عن إطفاء الأنوار. كانت إيبونين تضع ماريوس الصغير على فخِذها. وقد كان الصبي سمينًا بشوشَ الوجه، ودائمًا ما يسيل لعابُه ليغرِق وجهَه. مسحت إيبونين وجهَه بمنشفة حتى تستطيع نيكول تقبيله.

ثم جاء صوت ماكس يقول من خلفها: «آه، ملِكةُ العبوس تقبِّل الآن أميرَ اللُّعاب.»

فالتفتت نيكول وعانقت ماكس. وسألته بمرح: «مَن تكون ملِكة العبوس هذه؟»

فأعطاها ماكس كوبًا يحتوي على سائل شفاف. وقال: «هاكِ يا نيكول، أريدك أن تحتسي هذا، إنه ليس شراب التكيلا، ولكنه أفضلُ بديلٍ تمكَّنت كائنات الأوكتوسبايدر من

صنعِه بالاعتماد على طريقةِ التحضير التي منحتهم إياها ... إننا جميعًا نأمُل أن تستعيدي روح الدعابة قبل أن تفرُغي من شرابك.»

فقالت إيبونين: «بربِّك يا ماكس. لا تجعل نيكول تظن أننا جميعًا نشترك معك في هذا ... لقد كان الأمر برُمَّته فكرتك أنت. كلُّ ما قلناه أنا وباتريك وناي هو أن نيكول كانت جادة جدًّا مؤخرًا.»

فقال ماكس لنيكول وهو يرفع كوبَه ويصدِمه بكوبها: «الآن يا سيدتي، أود أن أقترح نَخبًا ... نَخبَنا جميعًا، نحن مَن لا نملك أيَّ سيطرة على مستقبلنا. أتمنى أن نتحابَّ فيما بيننا، وتجمعنا الضحكات حتى النهاية، متى أتت وكيفما كانت.»

لم ترَ نيكول ماكس ثمِلًا من قبل أن تدخل السِّجن. وبعد إلحاحه احتست هي جُرعة بسيطة من الشراب. فشعرت بحرقةٍ في حلقِها ومريئها وملأت الدموع عينيها. فقد كان الشراب يحتوي على نسبةٍ عالية من الكحول.

ثم قال ماكس وهو يفتح ذراعيه وكأنه يتحدَّث على خشبة المسرح: «قبل عشاء الليلة، سنلقي نكاتٍ من نكاتِ المزرعة ... فهذا سيوفِّر لنا جميعًا الجوَّ المرِح الذي نحتاج إليه بشدة. وستبدئين أنت يا نيكول دي جاردان ويكفيلد بإلقاء النِّكات، بوصفك قائدتَنا، لكونك المَثل الأعلى إن لم يكن بالانتخاب.»

فنجحت نيكول في رسمِ ابتسامة على شفتيها وقالت معترِضة: «ولكني لا أعرف أيًّا من نِكات المزرعة.»

فشعرت إيبونين بارتياحٍ عندما رأت أن سلوكَ ماكس لم يصدِم نيكول. فقالت: «لا بأسَ يا نيكول، فلا أحدَ منَّا يعرف أيًّا من نِكات المزرعة ... ماكس يعرف من النِّكات ما يكفينا جميعًا.»

وبعد لحظاتٍ قليلة بدأ ماكس يروي: «ذاتَ مرة كان هناك فلاحٌ من أوكلاهوما له زوجةٌ سمينة اسمها صفَّارة. وقد أُطلق عليها هذا الاسم لأنها في ذُروة الجِماع مع زوجها كانت تغلِق عينيها، وتضم شفتيها وتصدِر صوتًا يشبه الصَّفير.»

تجشأ ماكس. فأخذ التوءمان يضحكان عليه. شعرَت نيكول بالقلق ورأت أنه قد لا يناسب الطفلين أن يسمعا قصةَ ماكس، ولكنها رأت ناي تجلس خلفهما وتضحك معهما. فقالت لنفسها: «اهدئي يا نيكول. لقد أصبحت فعلًا مِلكة العبوس.»

استكمل ماكس: «وفي إحدى الليالي، اندلع شجارٌ كبير بين المُزارعِ وزوجته، وأخلدَت صفَّارة إلى النوم مبكرًا وهي تستشيط غضبًا. فجلس المُزارع وحدَه إلى المائدة يحتسي بعض

التكيلا الفاخرة. ومع مرور الأمسية، شعر المُزارع بالنَّدم لأنه كان وغدًا عنيدًا مع زوجته، وبدأ يعتذر إليها بصوتٍ عالٍ.

وفي ذلك الوقت، عرفَت العجوزُ صفَّارة التي ازداد غضبها لأنه أيقظها من نومها؛ أن زوجَها بعد أن ينتهيَ من شرابه سيدخل إلى غرفة النوم ويحاول أن يختتمَ اعتذاره بعلاقةٍ حميمة معها. وفي حين كان المُزارع ينتهي من احتساء زجاجة التكيلا، تسلَّلت هي خارج المنزل وذهبت إلى حظيرةِ الخنازير، وحملَت أصغرَ إناث الخنازير حجمًا وأحدثَها سنًّا وعادت بها إلى غرفة نومهما.

وعندما دخل المُزارع الثَّمِل بعد ذلك إلى غرفةِ النوم المظلِمة يترنَّح ويُنشِد أحدَ ترانيمه المفضَّلة، كانت زوجته تراقبه من زاوية الغرفة، وكانت أنثى الخنزير على الفراش. فخلع المُزارع ملابسه وقفز تحت الغطاء. وجذب أنثى الخنزير من أذنيها وقبَّلها في شفتيها. فأطلقت صوتًا حادًّا وابتعد المُزارع عنها على الفور. وقال: «ما هذا يا حبيبتي؟! هل نسيتِ أن تنظفي أسنانك الليلة؟»

فاندفعت زوجته من ركنِ الغرفة وبدأت تضربه بالمقشة على رأسه ...»

انفجر الجميع ضحِكًا. وكان ماكس مستمتعًا بشدةٍ بنكتته حتى إنه لم يكن يستطيع أن يتمالك نفسَه. نظرت نيكول حولها. وقالت في نفسِها: «ماكس محقٌّ. نحن بحاجة إلى الضحك. لقد كنا متوترين طوال الوقت مؤخرًا.»

قال ماكس: «... كان أخي كلايد يعرف من نِكات المزرعة أكثرَ من أي شخص آخر قابلته في حياتي. وقد كانت هذه النِّكات هي سبيله إلى التقرُّب من وانونا، أو هكذا قال. وقد اعتاد كلايد أن يخبرني أن المرأة وهي تضحك تكون أقربَ ما يكون إلى الوقوع في غرام الرجل ... وعندما كنا نذهب لاصطياد البط مع الفتيان الآخرين، كنا نفشل في اصطياد ولو بطةً واحدة لعينة. حينها كان كلايد يقصُّ علينا هذه النِّكات، وكنا نحن نضحك ونحتسي الخمر ... وبعد قليل ننسى لماذا استيقظنا من نومنا في الخامسة صباحًا لنخرج في البرد ونجلس هكذا ...»

توقَّف ماكس عن الحديث وخيَّم صمتٌ لم يستمر طويلًا على الغرفة. ثم عاد هو ليقول بعد توقُّفه القصير: «اللعنة. لوهلة تخيَّلت أنني عُدت إلى آركنسو.» ثم وقف. وقال: «أنا حتى لا أعرف الآن أيُّ طريقٍ يقود إلى آركنسو من هنا، أو كم مليار كيلومتر تبعُد عن هنا ...» ثم هزَّ رأسه في أسًى. واستكمل: «في بعض الأحيان، عندما أحلُم، ويكون الحُلم نابضًا بالحياة، أظن أن الحُلم هو الحقيقة. وأصدِّق أنني قد عُدت إلى آركنسو. ثم عندما

أستيقظ أشعر أني تائه، وأظن لثوانٍ أن هذه الحياة التي نحياها هنا في مدينة الزمرد هي الحُلم.»

فقالت ناي: «الأمرُ نفسه يحدُث معي. فمنذ يومين حلَمت أنني أؤدي تأمُّلات الصباح في هاونج برو في منزل عائلتي في لامفون. وبينما كنت أتلو صلواتي، أيقظني باتريك. وأخبرني أنني كنتُ أتحدَّث وأنا نائمة. ولبضع ثوانٍ، لم أكن أعلم مَن هو ... كان أمرًا مخيفًا حقًّا.»

وبعد صمتٍ طويل قال ماكس: «حسنًا.» ثم التفَت إلى نيكول وقال: «أظن أننا مستعدون لسماعِ أخبار اليوم. فماذا لديكِ لتخبرينا به؟»

فأجابته نيكول وهي تبتسم: «لقد كانت مقاطعُ الفيديو التي التقطَتها طفيلياتُ التصوير غريبةً للغاية. للدقائق القليلة الأولى، كنت واثقةً من أنني دخلت إلى قاعدةِ البيانات الخطأ ... فقد كانت كلُّ صورة تلو الأخرى تعرِض خنزيرًا أو دجاجةً أو شابًّا ثمِلًا من أبناء مَزارع أوكلاهوما يحاول أن يتقرَّب من فتاة صغيرة جميلة ... وفي مجموعةِ الصور الأخيرة، رأيت مزارعًا يحاول أن يشرب التكيلا ويأكل الدجاج المقلي، ويضاجع حبيبته، كل هذا في الوقت نفسه ... وهو ما جعلني أعتقد أن الدجاج كان لذيذًا جدًّا. هل هناك أحدٌ غيري يشعر بالجوع؟»

٦

قالت نيكول للدكتورة بلو: «أظن أنهم اطمأنوا بعضَ الاطمئنان بعد ما أخبرتني به مسئولةُ الأمثلية. وبالطبع كان لدى ماكس شكوكه ... فهو لا يصدِّق أن الاعتناء بنا سيكون على قائمةِ أولوياتكم إذا ما تأزَّم الموقف.»

فأجابتها الأوكتوسبايدر: «هذا غيرُ محتمَل مطلقًا. فأي تصعيد للأعمال العدائية سيُقابل بردٍّ لا قِبلَ لهم به ... هناك كثيرٌ من كائنات الأوكتوسبايدر يضعون خططَ الحرب منذ شهرين تقريبًا.»

فسألتها نيكول: «إذن، فكلُّ فردٍ من جنسكم شارك في التخطيط للحرب أو شنِّها سيتم إنهاءُ حياته عندما تنتهي الحرب؟ هل فهمتُ أنا ما قيل فهمًا صحيحًا؟»

فأجابتها الدكتورة بلو: «نعم، ولكنهم لن يموتوا جميعًا على الفور ... سوف يُخطَرون بأنهم أدرجوا في قائمة إنهاء الحياة ... وسيضع القائد الأمثل الجديد جدولًا دقيقًا بذلك بناءً على احتياجات المستوطنة ومعدَّل إمدادها بعناصرَ جديدة.»

كانت نيكول وزميلتها الأوكتوسبايدر تتناولان طعامَ الغداء معًا في المستشفى. وقد قضَتا الصباحَ تحاولان دون جدوى إنقاذَ حياة اثنين من الكائنات ذات الأذرع الست، تعرَّضا لانفجارٍ عنيف نفَّذته القوات البشرية، عندما كانا يعملان في أحد حقول الحبوب القليلة المتبقية في الجانب الشمالي من الغابة.

وفي أثناء تناولهما الغداء، مرَّ كائن آلي متعدِّد الأرجل ببطء في القاعة إلى جانبهم. ولاحظت الدكتورة بلو أن نيكول تتبَّعت الكائن بعينيها ثواني. فقالت الأوكتوسبايدر: «عندما أتينا إلى راما أولَ مرة وقبل أن نشكِّل فريق كائنات الخدمات بالكامل، استخدمنا الكائناتِ الآلية المتاحة للأعمال الروتينية مثل الصيانة ... والآن نحن بحاجةٍ إلى مساعدتهم مرةً أخرى.»

فسألتها نيكول: «ولكن كيف تعطونهم الأوامر؟ إننا لم نتمكَّن من التواصل معهم قط.»

«تمَّت البرمجة في البرنامج الثابت، في مرحلة التصنيع، ومن ثمَّ فهي تؤدي مهامَّ معينةً لا تتغيَّر. وما كان منَّا في الأيام الأولى إلا أن طلبنا من سكان راما تغييرَ برمجتِهم طبقًا لاستخداماتنا الخاصة ... وذلك باستخدامِ لوحة مفاتيح تشبه تلك التي كنتم تستخدمونها في مخبئكم ... هذا هو الهدف من وجود كافة الكائنات الآلية هنا ... تحويلها إلى خدَم مفيدين للمسافرين على متن راما.»

ففكَّرت نيكول في نفسِها: «حسنًا يا ريتشارد، لقد أخفقنا في فهْم شيءٍ ما على الأقل تمامًا. وفي الواقع، أظن أن الفكرةَ لم ترِد إلى أذهاننا من قبل ...»

استأنفت الدكتورة بلو حديثها: «... لقد أردنا ألا تختلِف مستوطنتنا هنا على متن راما على الإطلاق عن أيٍّ من مستوطناتنا الأخرى؛ لذا فبمجرد أن وجدنا أنه لا حاجةَ إلى الكائنات الآلية، طلبنا التخلُّص منها من موطننا في راما.»

«ومنذ ذلك الوقت لم يكن هناك أيُّ اتصال مباشر على الإطلاق بينكم وبين سكان راما؟»

فأجابتها الدكتورة بلو: «ليس كثيرًا. ولكننا حافظنا على قدرتنا على الاتصال بالمصانع الفائقة التكنولوجيا أسفلَ السطح، وبذلك يمكننا طلبُ تصنيع بعض المواد الخام التي لا توجد في مخازننا ...»

فُتِح بابٌ يُطِلُّ على رواق ودخل منه أوكتوسبايدر. ودار بينه وبين الدكتورة بلو حوارٌ سريع بلغتهم الأصلية باستخدام شرائط ألوان رفيعة للغاية. فهمت نيكول من الحوار كلمتَي «تصريح» و«بعد قليل»، ولم تفهم شيئًا عدا ذلك.

بعد أن رحل الزائر، قالت الدكتورة بلو لنيكول إن لديها مفاجأةً لها. فقالت: «اليوم ستضع إحدى المِلكات بيضها. وقد قدَّر القائمون على خدمتها أن هذا سيحدُث في غضونِ نصفِ تيرت. وقد وافقت مسئولةُ الأمثلية على طلبي بأن تشاهدي أنتِ هذا الحدث ... وطبقًا لمعلوماتي، فأنتِ الكائن الوحيد الذي لا ينتمي إلى جنسنا، فيما عدا السلف بالطبع، الذي سيحظى بامتيازِ مشاهدة وضعِ الملكةِ للبيض ... وأظن أنك ستجدينه ممتعًا جدًّا.»

وفي أثناء انتقالهم بالعربة إلى «موطن المِلكات» الذي كان في جزءٍ من مدينة الزمرد لم تزُرْه نيكول من قبل، ذكَّرتها الدكتورة بلو ببعض الجوانب الاستثنائية في عملية التكاثر لدى كائنات الأوكتوسبايدر. فقالت: «في الظروف العادية، يتم إخصابُ كل مِلكة من المِلكات الثلاث في موطننا مرةً واحدة، من ثلاث إلى خمس سنوات؛ ويُسمح لنسبةٍ ضئيلة فقط من البَيض المخصَّب بالنمو حتى مرحلة النضج. ولكن بسبب الاستعدادات للحرب، أعلنت مسئولة الأمثلية مؤخرًا عن الحاجة إلى تزويد المستوطنة بعناصرَ جديدة. والآن تقوم المِلكات الثلاث جميعها بوضع مجموعة كاملة من البَيض. وقد قام الذكور المحاربون الجدد بتخصيبهن، وهم كائنات الأوكتوسبايدر الذين اختيروا للمشاركة في جهود الحرب، والذين مرُّوا مؤخرًا بمرحلة نموٍّ جنسي. وهذا العمل مهمٌّ للغاية؛ إذ إنه يضمن أن كلًّا من كائنات الأوكتوسبايدر المحاربةِ سيستمر وجوده في الوعاء الجيني بالمستوطنة، ولو بصورة رمزية على الأقل ... وتذكَّري أنهم يعرفون، فورَ اختيارهم جنودًا، أن وقتَ إنهاء حياتهم قد أوشك.»

ففكَّرت نيكول في نفسها: «كلما أظن أن هناك كثيرًا من القواسم المشترَكة بيننا وبين كائنات الأوكتوسبايدر، يحدُث شيء غريب للغاية يذكِّرني بمدى الاختلاف بيننا. ولكن، كما كان ريتشارد يقول: كيف يمكن أن يكون الأمر غيرَ ذلك؟ إنهم نتاجُ عملية غريبة تمامًا عنا.

واستأنفت الدكتورة بلو: «لا تنزعجي لحجم المِلكة ... ورجاءً! يجب ألا تعبِّري عن أيِّ شيء سوى البهجة لما ترينه. فعندما اقترحتُ في البداية أن تشاهدي وضعَ البَيض، اعترض أحدُ أعضاء مجلس مسئولة الأمثلية، وقال إنه من المستحيل أن تقدِّري ما سترينه حقَّ قدْره. وبعض أعضاء المجلس الآخرين أبدَوا قلقَهم من أنه قد يظهر عليك الانزعاجُ أو حتى الاشمئزاز، ومن ثَم تنتقصين من قيمةِ التجربة للحضور من كائنات الأوكتوسبايدر الأخرى ...»

طمأنت نيكول الدكتورة بلو أنها لن تُقدِم على أي فعلٍ غير مناسب أثناء المراسم. وقد شعرَت هي أن كائنات الأوكتوسبايدر قد أغدقتها بمجاملة كبيرة لأنها أشركتها في هذا

الحدث، وكانت تشعر بسعادةٍ كبيرة عندما استقرَّت بهم العربة خارج الجدران المحصَّنة لموطن الملِكات.

كان المبنى الذي دلفَت إليه نيكول بصحبة الدكتورة بلو يشبه القبَّة، وشُيِّد من كتلٍ من الأحجار البيضاء. ويبلغ ارتفاعه من الداخل عشرة أمتار تقريبًا، ويحتل مساحةً تربو على ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع تقريبًا. وكانت هناك خريطةٌ كبيرة بعد الباب مباشرة في المنطقة أسفل القبَّة، وأيضًا رسالةٌ مكتوبة بالألوان تشير إلى المكانِ الذي سيحدُث فيه وضعُ البَيض. تبِعت نيكول الدكتورة بلو والعديد من كائنات الأوكتوسبايدر الآخرين، وهم يعتلون درجاتِ سُلَّم تبِعه سُلَّم آخر، ثم عبْر ممرٍّ طويل. وفي نهايته انعطفوا يمينًا ودلفوا إلى مدرَّج يُطِلُّ على مساحةٍ مستطيلة الشكل يبلغ طولها خمسة عشر مترًا وعرْضها خمسة أو ستة أمتار.

اصطحبت الدكتورة بلو نيكول إلى الصفِّ الأمامي حيث كان هناك حاجزٌ ارتفاعه متر يحمي المشاهدين من السقوط على الأرض التي يرتفعون عنها بأربعة أمتار. وسريعًا ما امتلأت الصفوفُ الخمسة المرتفعة من خلفهم. وكان أمامهم على الجهة الأخرى مدرج مشابه يتَّسع لستين أوكتوسبايدر تقريبًا.

وفي الأسفل، كانت نيكول ترى بِركة من الماء تشبه قناةً تجري بطول الساحة ثم تختفي أسفل مدخل مقوَّس إلى اليمين. وكان هناك ممشًى ضيِّق على كل جانب من جانبي البِركة. وعلى الجانب المقابل، كان الممشى يتَّسع ليتحوَّل إلى مِنصَّة يبلغ عرْضها ثلاثة أمتار تقريبًا، قبل أن تلتقي بالحائط الصخري الذي يشكِّل الجانب الأيسر بالكامل من الغرفة الضخمة. وكان ذلك الحائط، المطلي بكثير من الألوان والتصميمات المختلفة، يحمل ما يقرُب من مائة قضيب أو مسمار فضي بارز، كلٌّ منها يبرُز مسافة متر من المكان الذي وُضع فيه في الحائط. وقد لاحظت نيكول على الفور التشابه بين الحائط والممرِّ العمودي الذي يشبه ماسورةَ البندقية الذي هبطَت عبْره هي وأصدقاؤها داخل مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر أسفل نيويورك.

وفي أقلَّ من عشر دقائق، وبعد أن امتلأ المدرجان، دلفت مسئولة الأمثلية ببطء عبْر باب يُطِلُّ على الساحة ووقفت على الممشى بجانب البِركة، وألقت كلمةً قصيرة. وساعدت الدكتورة بلو نيكول على ترجمةِ حديثِ القائدة المُثلى، وهي تذكِّر المشاهدين أنه على الرغم من أن موعدَ وضعِ البيض لم يحدُث أن عُرف تحديدًا من قبل، فإن المِلكة على الأرجح ستكون مستعدة لدخول الغرفة في غضون عدة فينجات. ثم غادرت مسئولة الأمثلية بعد أن أدلت ببعض التعليقات عن الأهمية الكبيرة للتكاثُر من أجل استمرار المستوطنة.

بدأ الانتظار. كانت نيكول تسلِّي وقتها بمراقبة كائنات الأوكتوسبايدر الواقفةِ في الشرفة المقابلة لها ومحاولة التنصُّت على أحاديثها. لم تفهم إلا قليلًا مما يقال. ذكَّرت نفسها أن الطريق ما زال طويلًا أمامها لإتقان لغتهم الطبيعية.

وبعد فترةٍ طويلة من الانتظار، فتحَت الأبواب الكبرى إلى الطرَف الأيسر من الممشى المقابل، ودلفت الملِكة العملاقة وهي تسير بتثاقُل. وقد كانت ضخمة بالفعل؛ حيث بلغ طولها ستة أمتار على الأقل، ولها جسدٌ هائل منتفِخ يرتفع فوق لوامسها الثماني الطويلة. وتوقَّفت على المنصة وقالت شيئًا ما للحضور. تدفَّقت شرائطُ ألوان كثيرة تدور حول جسدها بالكامل في مشهدٍ بهيج. لم تستطِع نيكول فهْم ما تقوله الملِكة؛ لأنها لم تتمكَّن من متابعة تسلسل شرائط الألوان وهي تندفع من الشق.

استدارت الملِكة ببطء باتجاه الحائط، ومدَّت لوامسها وبدأت عمليةَ التسلُّق الشاقة أعلى القضبان. وطَوال فترة صعودها، كانت دفعات من شرائط الألوان غير المنتظمة تزيِّن جسدَها. افترضت نيكول أنها تعبيراتٌ عن مشاعرها، ربما مشاعر الألم والإجهاد. وعندما نظرَت نيكول حولها، لاحظت أن كائنات الأوكتوسبايدر التي تشاهد الحدَث صامتة، ورءوسهم معتِمة وخاوية من الألوان.

عندما استقرَّت الملِكة في النهاية في منتصف الحائط، لفَّت لوامسها الثماني جميعها حول القضبان وكشفت عن أسفل بطنها ذات اللون الكريمي. في المدة التي عمِلت فيها نيكول في المستشفى أصبح تشريح أعضاء كائنات الأوكتوسبايدر مألوفًا إلى حدٍّ كبير لها، ولكنها لم تتخيَّل قط أن ذلك النسيج الرقيق أسفل بطنها يمكن أن يتمدَّد إلى هذا الحد. وشاهدت نيكول الملِكةَ وهي تهتز قليلًا؛ فتتحرك إلى الأمام وإلى الخلف، وتثِب رويدًا على الحائط الصخري في كل حركة. استمرَّ تعبيرها عن انفعالاتها بالألوان. ووصلت الألوان إلى درجةٍ كبيرة من الكثافة عندما انبثق ما يشبه ينبوعًا من سائلٍ أسود يميل إلى الخضرة من أسفل جسد الملِكة، تبِعه على الفور تدفُّق غزير لأجسام بيضاء مختلفة الأحجام في سائلٍ لزج غليظ القوام.

ذُهلت نيكول أمام ذلك المشهد. وكان هناك بالأسفل ما يقرُب من اثني عشر من كائنات الأوكتوسبايدر على جانبي البِركة يدفعون بسرعةٍ البَيضَ والسائل الذي هبط على الممشيَين إلى الماء. وكان هناك أيضًا ثمانية آخرون من كائنات الأوكتوسبايدر يَسكبون محتويات لم تعرفها لأوعية ضخمة في البِركة. كانت البِركة الآن مليئة بدماء الملِكة الأوكتوسبايدر وبيضها

والسائل الشديد اللزوجة الذي خرج مع البَيض. وفي أقلَّ من دقيقة، تحرَّك المزيج الموجود في البَركة ليجريَ إلى أسفل المدخل المقوَّس إلى اليمين.

لم تكن المِلكة قد غيَّرت موضعها بعدُ. وحالما عادت المياه في البِركة تجري نظيفة، توجَّهت العدسات كلُّها صوب المِلكة. وقد صُعقت نيكول عندما رأت حجم مِلكة الأوكتوسبايدر الجديد وكيف تقلَّص عن ذي قبل. وقدَّرت أن المِلكة قد فقدت نصف وزنها في الجزء من الثانية الذي استغرقه تدفُّق البيض والسوائل المصاحبة له من جسدها. كانت المِلكة لا تزال تنزف، فتسلَّق اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر الطبيعية الحجم القضبانَ ليمدا لها يدَ العون. وعندها، ربَّتت الدكتورة بلو على كتفِ نيكول مشيرةً إلى أنه قد حان وقتُ الرحيل.

جلست نيكول وحدَها في إحدى الغرف الصغيرة في مستشفى كائنات الأوكتوسبايدر تسترجع مشهدَ وضْع البيض في ذهنها مرةً بعد أخرى. لم تكن تتوقَّع أن يترك ذلك الحدَث في مشاعرها أثرًا إلى هذا الحد. وقد كانت نيكول تُتابِع الدكتورة بلو بنصف تركيزها فقط، والأخيرة تشرح لها بعد عودتهما إلى المستشفى أن تلك الأوعية التي أُفرغت على البَيض والسوائل بالبِركة كانت مليئة بحيوانات ضئيلة الحجم تبحث عن أجنة معيَّنة وتقتلها. وقالت إن كائنات الأوكتوسبايدر بتلك الطريقة تتحكَّم في عدد الكائنات المشكِّلة للجيل القادم، بما في ذلك عددُ المِلكات والخَزَنة والأقزام والكائنات المختلفة الأخرى.

وكانت الأم داخل نيكول تجاهد لكي تستنتج كيف سيكون شعورها إذا كانت مِلكة أوكتوسبايدر في أثناء وضع البَيض. شعرت نيكول شعورًا لم تجِد له تفسيرًا أنه تربطها علاقةٌ قوية بذلك المخلوق الضخم الذي زحف متسلقًا القضبان. ففي أثناء الاندفاع السريع للبيض، انقبض رحم نيكول وتذكَّرت الألم والبهجة اللذين شعرت بهما في المرَّات الست التي وضعت فيها. وتساءلت في نفسها: «تُرى ما السرُّ الكامن في عملية الولادة الذي يجمع بين كل الكائنات الحية التي مرَّت بها؟»

تذكَّرت حوارًا دار بينها وبين مايكل أودونل في راما الثانية بعد ولادة سيمون وكيتي، حين كانت تحاول أن تشرح له شعور ولادة طفل. استنتجت في النهاية بعد ساعاتٍ من الحديث أن تلك تجربةٌ لا يمكن نقْلها نقلًا وافيًا من شخص لآخر. قالت حينها: «العالَم منقسم إلى جماعتين. أولئك الذين مروا بتجربة الولادة وأولئك الذين لم يخوضوها.» والآن بعد عشرات السنين ومليارات الكيلومترات، أرادت أن تضيف لملاحظتها. «القواسم المشترَكة

بين الأمهات من البشر والأمهات من غيرهن من الكائنات أكثرُ مما بينهن وبين غير الأمهات من بني جنسهن.»

بينما كانت تفكِّر فيما شهدته، اجتاحت نيكول رغبةٌ قوية في الاتصال بالأوكتوسبايدر المِلكة كي تعرف فيمَ كانت تفكِّر الأم من جنسٍ عاقل آخر، وبمَ كانت تشعر قبل وضع البيض وأثناء وضعه. هل شعرت المِلكة، وسط الألم ودهشة الموقف، بطمأنينةٍ قوية غمرتها؟ هل تخيَّلت صورة أولادها ونسلهم يعمر الدنيا في المستقبل البعيد، دورة الحياة المعجزة؟ هل شعرت بسَكينةٍ عميقة لا تُوصف في الثواني التي تلَت وضْع البيض مباشرة، سَكينةٍ ليست كأي سَكينة عرفتها في حياتها إلا بعد الولادة مباشرة؟

وكانت نيكول تعلم أن ذلك الحوارَ التخيُّلي بينها وبين المِلكة لم يكن من الممكن أن يحدُث. فأغلقت عينيها مرةً أخرى وهي تحاول تذكُّر ترتيب تدفُّقات شرائط الألوان التي رأتها على جسد المِلكة قبل الولادة مباشرة وبعدها. هل كانت تلك الألوان تُطلِع كائناتِ الأوكتوسبايدر الأخرى على شعور المِلكة آنذاك؟ وتساءلت نيكول في نفسها عما إذا كانت كائنات الأوكتوسبايدر قادرةً بصورةٍ ما على التعبير عن مشاعرَ معقَّدة، مثل النشوة بلغة الألوان الثرية أفضل من البشر بلغتهم المحدودة المفردات؟

ولكنها لم تجِد إجابة. وأدركت نيكول أنها تحتاج إلى الحديث إلى صديق مقرَّب، حبذا لو كان ريتشارد. أرادت أن تشارك ما شهدته وشعرت به في موطن مِلكات الأوكتوسبايدر مع أحد. وفي وحشتها تذكَّرت فجأةً بعض أبيات كتبتها بينيتا جارسيا عن ذلك الأمر. ففتحت جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها، وبعد بحث فيه لم يدُم طويلًا، وجدَت القصيدة كاملة:

في أوقاتِ الشك العميق أو الألم المبرِّح،
عندما تقهرني صروفُ الحياة وتطرحني،
أبحث حولي في كل مكان تقع عليه عيني.
أبحث عمَّن مثلي ويعرف ما لا أعي،
أبحث عمَّن يقدِر على أن يهوِّن عليَّ
ما يخيفني ويبكيني ويؤرقني.
قالوا لي لن تُكتب لك النجاةُ على طريقي
إن استمرَّت مشاعري تحكُم أفكاري.

يجب أن أسيطر على مشاعري قبل أن أتخذَ قراري،
وإلا سيكون عليَّ أن أقبَل بما قاسيته في حياتي،
فزمن الأحاسيس ولَّى لا يدركه الرائي.
* * *
كانت هناك أوقاتٌ مضت، لم تكثُر ولكنها قلَّت.
وجدتُ فيها مَن يطيِّب جُرحي ببلسمه الشافي،
ويُنهي ألمي ورهبتي.
إلا أن السنين زادت من علمي.
لآلامي يجب أن أكون أنا الحاوي،
ما يجيش بصدري لن يتجاوز صدري.
وسأعي الدرسَ طَوال حياتي.
وها نحن وحدَنا إلى الرحلة الأخيرة نمضي.
لن يساعدك أحدٌ في يومٍ تكون الفاني،
فلمَ لا تتعلَّم قبل أن تكون من الموت دانيًا،
أن تثق بنفسك ولا تكون على نفسك باغيًا.

قرأت نيكول كلماتِ القصيدة عدةَ مرات. ثم عندما أدركت أن الإنهاك قد نال منها، وضعت رأسها على المنضدة الوحيدة في الغرفة وغطَّت في سبات عميق.

ربَّتت الدكتورة بلو على كتفِ نيكول برفقٍ بإحدى لوامسها. انتبهت نيكول وفتحت عينيها. فقالت الأوكتوسبايدر: «إنك نائمة منذ ساعتين تقريبًا. إنهم ينتظرونك الآن في مركز المعلومات.»

فسألتها نيكول وهي تفرُك عينيها: «ما الذي يحدُث؟ ولماذا هناك مَن ينتظرني؟»

«لقد ألقى ناكامورا خطابًا مهمًّا في عدن الجديدة. وتودُّ مسئولةُ الأمثلية مناقشته معك.»

هبَّت نيكول من مكانها بسرعة، ولكنها مدَّت يدها بعدها لتمسك بالمكتب. وفي غضونِ ثوانٍ قليلة، زال شعورها بالدُّوار. وقالت: «شكرًا لك مرةً أخرى على كل شيء يا دكتورة بلو. سأذهب إلى هناك في غضون دقيقة.»

٧

قال روبرت: «لا أعتقد أنه ينبغي أن نسمح لنيكي بمشاهدةِ هذا الخطاب. سيخيفها بلا شك.»

فأجابته إيلي: «ما سيقوله ناكامورا سيؤثِّر على حياتها بالقدْر نفسه الذي سيؤثِّر به على حياتنا نحن. فإذا كانت تريد المشاهدة، أظن أننا يجب أن نتركها ... ومع كلٍّ، لقد عاشت مع كائنات الأوكتوسبايدر ...»

فقال روبرت محاولًا إقناعها: «ولكنها لن تفهم معنى شيء مما يحدُث. إنها حتى لم تبلغ الرابعة من عمرها بعد.»

ظلا يناقشان الأمرَ دون الوصول إلى حل، حتى قبل دقائق قليلة من الموعد المحدَّد لظهور ديكتاتور عدن الجديدة على شاشة التلفاز. وفي ذلك الوقت، اقتربت نيكي من والدتها في غرفة المعيشة، وقالت الفتاة الصغيرة: «أنا لن أشاهد حتى لا تتشاجري مع أبي.» وهو ما ينِمُّ عن فطنة مدهشة.

كانت إحدى الغرف في قصر ناكامورا قد تحوَّلت إلى استوديو بثٍّ تليفزيوني. وكان ذلك الطاغية عادةً ما يخاطب سكان عدن الجديدة من ذلك الاستوديو. وقد كان خطابه السابق منذ ثلاثة أشهر، وأعلن فيه أن قواته ستنتشر في نصف الأسطوانة الجنوبي لمواجهة «التهديد الفضائي». ومع أن التليفزيون والصحف الخاضعة للحكومة كانت تذيع باستمرار أخبارًا من الجبهة، فإن كثيرًا منها كان ملفَّقًا ويتحدَّث عن «المقاومة الشديدة» من جانب كائنات الأوكتوسبايدر، فقد كان ذلك البثُّ أولَ تصريح علني لناكامورا عن تقدُّم الحرب الدائرة في الجنوب واتجاهها.

وبمناسبة هذه الخُطبة، أمر ناكامورا خيَّاطيه أن يحيكوا له زيًّا عسكريًّا يابانيًّا جديدًا بكامل زينته من السيف والخنجر. وقد أخبر معاونيه أنه يظهر بالزي العسكري الياباني ليؤكِّد على دوره بوصفه «المحارب والحارس الأول» لمواطنيه. وفي يوم البث، ساعده خدمُه في ارتداء حزامين ثقيلين مشدودين حتى يبدوَ في صورة المحارب «الجبار الذي لا يشقُّ له غبار».

وكان السيد ناكامورا يلقي خُطبته وهو واقف يحدِّق مباشرة في الكاميرا. ولم يتغيَّر تجهُّم وجهه قطُّ على مدار الخُطبة بأكملها.

وقد بدأ حديثه قائلًا: «لقد قدَّمنا جميعًا تضحيات في الأشهر الأخيرة؛ كي ندعم جنودنا البواسل في خوضهم الحربَ جنوب البحر الأسطواني ضد عدوٍّ فضائي بغيض لا يعرف

الرحمة. وقد أطلعَنا جهاز مخابراتنا أن كائنات الأوكتوسبايدر، التي وصفها لكم بالتفصيل الدكتور روبرت تيرنر بعد هروبه الشجاع، يخطِّطون لشن هجوم كبير على عدن الجديدة في المستقبل القريب. وفي هذه اللحظة الحرِجة من تاريخنا، يجب أن نشحذَ عزْمَنا ونقف متحدين ضد المعتدي الفضائي.

وينصح قادتنا على الجبهة أن نخترقَ أرضهم إلى خلف حاجز الغابة الذي يحمي الجزءَ الأكبر من موطن كائنات الأوكتوسبايدر، ونحرمهم من الوصول إلى إمداداتهم وعتاد الحرب قبل أن يشنُّوا هجومهم. وقد أدخل مهندسونا، الذين يصِلون الليلَ بالنهار في العمل من أجل بقاء المستوطنة؛ تعديلات على سربِ طائرات الهليكوبتر ستسمح لنا بتنفيذ هذه المهمة. وسنضربهم في المستقبل القريب. وسنُقنِع الفضائيِّين أنهم لا يستطيعون أن يهاجمونا ويفلتوا بفَعلتهم.

وفي غضون ذلك، انتهى محاربونا من تأمين المنطقة من راما الواقعة بين البحر الأسطواني وحاجز الغابة بالكامل. وفي أثناء المعارك العنيفة، دمَّرنا المئات من قوات العدوِّ، بالإضافة إلى محطات المياه والطاقة لديهم. أما خسائرنا نحن فكانت طفيفة؛ ويرجع ذلك في المقام الأول إلى خطط المعارك المتقنة واستبسال قواتنا. ولكن يجب ألا ندَع الإفراط في الثقة بالنفس ينال منَّا. ففي المقابل، إن لدينا كلَّ الأسباب التي تجعلنا نتأكد من أننا لم نخُض بعدُ معركةً مع «قوات الموت» الخاصة التي سمِع عنها الدكتور روبرت عندما كان أسيرًا. ونحن واثقون أن قوات الموت هذه ستكون في طليعةِ جيش العدوِّ إذا لم نتحرك بسرعةٍ لمنع هجومهم على عدن الجديدة. وتذكَّروا، أن الوقت ليس في مصلحتنا. يجب أن نهاجمَ الآن ونقضي تمامًا على قدراتهم الحربية.

هناك أمرٌ آخرُ موجز أودُّ أن أخبركم به الليلة. منذ وقت قريب استسلم لقواتنا في الجنوب الخائنُ ريتشارد ويكفيلد ومعه أوكتوسبايدر. ويقولان إنهما يمثلان القيادةَ العسكرية للكائنات الفضائية، وقد تقدَّموا للتحدُّث معنا عن السلام. وأنا أشكُّ في وجود خدعة هنا، خدعة مثل حصان طروادة، ولكن دوري بوصفي قائدكم هو أن أجريَ محاكمة في هذا الشأن في غضون الأيام القليلة القادمة. واطمئنوا أنني لن أتفاوض على حساب أمننا. وسأطلعكم على نتائجِ هذه المحاكمة قريبًا فور الانتهاء منها مباشرة.»

قالت إيلي: «ولكنك يا روبرت تعرف أن جزءًا كبيرًا مما يقوله ما هو إلا كذب ... فلا وجودَ لقوات الموت، وكائنات الأوكتوسبايدر لم تقاومهم على الإطلاق. كيف تسكت عن هذا الأمر؟ كيف تتركه يَنسب إليك كلامًا لم تَقُله؟»

فأجابها روبرت: «إنها السياسة يا إيلي. الجميع يعرف هذا. ولا أحدَ يصدِّق حقًّا أن ...»

«ولكن هذا يزيد الطينَ بِلة. ألا ترى ما يحدُث؟»

اتجه روبرت ليغادر المنزل. فسألته إيلي: «إلى أين تذهب الآن؟»

فأجابها روبرت: «سأعود إلى المستشفى. فلديَّ زيارات للمرضى.»

لم تستطِع إيلي أن تصدِّق ما تسمعه أذناها. فأخذت تحدِّق في زوجها ثواني قليلة. ثم انفجرت في وجهه. قالت صارخة: «أهذا هو جوابك؟ العمل كما هي العادة. رجل مجنون يعلِن عن خطةٍ أغلبُ الظن أنها ستؤدي إلى قتلنا جميعًا، والأمر في نظرك هو العمل كالعادة ... مَن أنت يا روبرت؟ ألا تأبه لشيء؟»

تحرَّك روبرت باتجاهها في غضب. وقال: «لا تتصرَّفي كما لو كنتِ أكثرَ براءةً مني. إنكِ لستِ دائمًا على صواب يا إيلي، ولا تعرفين عن يقين أننا جميعًا سنُقتل. فلربما تنجح خطة ناكامورا.»

«إنك تخدع نفسَك يا روبرت. إنك تولي كلَّ شيء ظهرَك وتقول لنفسك ما دام عالَمي الصغير لم يتأثَّر، فكل شيء على ما يرام ... ولكنك مخطئ يا روبرت. مخطئ تمامًا. وإذا لم تفعل أيَّ شيء حيال هذا الأمر، فسأفعل أنا.»

فقال روبرت وصوته يرتفع: «وماذا ستفعلين؟ هل ستخبرين العالَم أن زوجك كاذب؟ هل ستحاولين أن تقنعي الجميع أن تلك الكائنات القذرة كائنات مسالِمة؟ لن يصدِّقك أحد يا إيلي ... وسأخبرك أنا بشيء آخر: حالما تفتحين شفتيك للحديث، سيُلقون القبضَ عليكِ ويحاكمونك بتهمة الخيانة. سيقتلونك يا إيلي كما سيقتلون أباك ... هل هذا ما تريدين؟ ألَّا تري ابنتك مرةً أخرى؟»

رأت نيكول في عينَي روبرت مزيجًا من الألم والغضب. خاطبها عقلها سريعًا: «أنا لا أعرف هذا الشخص؛ كيف يمكن أن يكون هذا هو الرجل نفسه الذي قضى آلاف الساعات يرعى المرضى المحتضرين؟ هذا أمرٌ لا يُعقل.»

فآثرت إيلي ألا تقول شيئًا لزوجها في تلك اللحظة. فقال هو بعد صمت: «سأذهب الآن. سأعود إلى المنزل في منتصف الليل تقريبًا.»

سارت إيلي إلى الجانب الخلفي من المنزل وفتحت غرفةَ نيكي. ومن حسن الحظ أن الفتاة كانت قد نامت أثناء جدالهما. وعندما عادت إيلي إلى غرفة المعيشة، كانت مكتئبة بشدة وتمنَّت أكثرَ من أي وقت مضى لو أنها مكثَت في مدينة الزمرد. ولكنها لم تمكُث

هناك، فماذا عساها أن تفعل الآن؟ وقالت لنفسها: «كان الأمر سيكون يسيرًا للغاية، لو لم يكن عليَّ التفكير في نيكي.» ثم هزَّت رأسها في نفي ببطء، وأخيرًا سمحت لعينيها أن تذرف الدموع التي طالما حبستها.

قالت كيتي وهي تدور بجسدها كراقصة الباليه أمام فرانتس: «كيف أبدو؟»

فأجابها: «فاتنة، ساحرة. أجملُ من أي مرة رأيتك فيها من قبل.»

كانت كيتي ترتدي فستانًا بسيطًا أسودَ اللون ملتصقًا بجسدها النحيف. وكان على كلٍّ من جانبي الفستان شريط أبيض واضح. وقد كان مفتوح الرقبة بحيث يظهر عِقدها الذهبي المرصَّع بالماس الذي ترتديه، ولكنه لم يكن مفتوحًا بصورة تجعله غيرَ لائق.

ألقت كيتي نظرةً سريعة على ساعتها. وقالت: «جيد. لأول مرة أنتهي مبكرًا.» واجتازت الغرفة إلى المنضدة وأشعلت سيجارة.

كان الزي الرسمي الذي يرتديه فرانتس مكويًّا وحذاؤه لامعًا. فقال وهو يتبَع كيتي إلى الأريكة: «إذن أعتقد أن لدينا وقتًا لمفاجأتي.» ثم أعطاها عُلبة مُخْملية صغيرة.

فسألته كيتي: «ما هذا؟»

فقال فرانتس: «افتحيها.»

وداخل العُلبة وجدت كيتي خاتم سوليتير. وقال فرانتس بارتباك: «كيتي، هل تقبلين الزواج مني؟»

فرمقت كيتي فرانتس بنظرة سريعة، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه. والتقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها وأطلقت الدخان في الهواء فوقها. وقالت وهي تقف وتطبع قُبلة على وجنته: «أشعر بالإطراء حقًّا يا فرانتس ... ولكن هذا الأمر لن يفلح.» ثم أغلقت العُلبة وردَّت إليه الخاتم.

فسألها فرانتس: «ولمَ لا؟ ألا تحبينني؟»

«بلى أحبُّك ... أظن هذا ... إذا كنت ما زلتِ قادرةً على الحب. ولكننا تحدَّثنا في هذا الأمر من قبلُ يا فرانتس. إنني لست المرأة التي ينبغي أن تتزوجها.»

فقال فرانتس: «ولمَ لا تتركينني أقرِّر هذا الأمر بنفسي يا كيتي؟ كيف تعرفين «نوع المرأة» التي أحتاج إليها؟»

فقالت كيتي وقد بدأت تثور: «انظر يا فرانتس، أفضِّل ألا نتحدَّث عن هذا الأمر الآن. وكما قلت إني شعرت بالإطراء ... ولكني متوترة بالفعل بسبب المحكمة التي ستُعقد

من أجل أبي، وأنت تعلم أنني لا أجيد التعامُل مع الكثير من المواقف العصيبة في آنٍ واحد.»

فقال فرانتس بغضب: «دائمًا ما يكون لديك سببٌ لعدم رغبتك في الحديث عن هذا الموضوع. إذا كنتِ تحبينني، أظن أنني أستحق تفسيرًا. الآن ...»

فبرقت عينا كيتي. وقالت: «تريد تفسيرًا الآن أيها النقيب ... حسنًا، سأمنحك التفسير ... اتبعني من فضلك ...» وقادته كيتي إلى غرفة ملابسها وقالت: «الآن، قفْ هناك وأمعِن النظر جيدًا.»

اتجهت يدُ كيتي إلى خزانة الملابس وجذبت منها حقنةً وقطعة من أنبوب أسود، ورفعت ساقها اليمنى على مقعد المزينة، ورفعت فستانها لتكشف عن مواضع الحقن الواضحة على فخذها، فأشاح فرانتس بوجهه عنها بحركة غريزية.

فقالت كيتي وهي تمدُّ إحدى يديها لتعيد وجهه ليواجهها: «كلا، لا يمكنك أن تشيح بوجهك يا فرانتس ... يجب أن تراني كما أنا حقًّا.»

أرخَت ملابسها السفلية وربطت الأنبوب حول فخذها. ثم ألقت نظرةً سريعة لأعلى كي تتأكدَ أن فرانتس ما زال يشاهدها. كان الألم واضحًا في عينيها. قالت: «ألا ترى يا فرانتس؟ أنا لا أستطيع الزواجَ بك لأني متزوجة بالفعل ... من هذا المخدِّر السحري الذي لا يخيِّب ظني أبدًا ... ألا تفهم؟ لا يمكنك أبدًا أن تنافس كوكومو على قلبي.»

غرست كيتي الحقنةَ في أحد أوردتها وانتظرت عدة ثوانٍ حتى يبدأ مفعول العقَّار. ثم قالت وهي تتحدَّث أسرع: «ستكون زوجًا صالحًا معي لأسابيع قليلة أو حتى لشهور، ولكن عاجلًا أو آجلًا ستصبح فظًّا معي ... وسأستبدلك حينها في قلبي بحبيبي القديم الذي لا يخيِّب ظني.»

ثم مسحَت نقطتي دماء سالتا بمنديل ورقي وتخلَّصت من الحقنة. كان فرانتس يبدو ذاهلًا. فقالت له كيتي وهي تربِّت على وجنته برفق: «ابتهج فإنك لم تخسِر شريكتك في الفراش ... سأكون موجودةً هنا لأشاركك أي متعة جامحة نتمناها ...»

استدار فرانتس ووضع العُلبة المُخملية في أحد جيوب زيه. فسارت كيتي إلى المنضدة لتلتقط نفسًا أخيرًا من السيجارة التي تركتها مشتعلة في المنفضة. وقالت: «والآن أيها النقيب باور، لدينا محاكمة لنَحضُرها.»

عُقدت المحاكمة بقاعة الاحتفالات في الطابق الأرضي من قصر ناكامورا. وقد وُضع ما يقرُب من ستين مقعدًا في أربعة صفوف على طول جدران القاعة من أجل «الضيوف المميزين».

وكان ناكامورا يرتدي الزي العسكري الياباني نفسَه الذي ظهر به على شاشة التلفاز قبل يومين، ويجلس على مقعد ضخم مزيَّن على منصة مرتفعة عن الأرض في إحدى أطراف الغرفة. وإلى جواره كان حارسان يرتديان زي الساموراي أيضًا. وكانت قاعة الاحتفالات نفسُها مزخرفةً بالكامل على الطراز الياباني في القرن السادس عشر، تعزيزًا للصورة التي يحاول ناكامورا خلْقَها لنفسه؛ بصفته الإمبراطورَ الجبار لعدن الجديدة.

وقد أحضر ثلاثةٌ من رجال الشرطة ريتشارد وآرشي اللذين لم يعرفا بأمرِ المحاكمة سوى قبل خروجهما من القبو بأربع ساعات، وأمروهما أن يجلسا على وساداتٍ صغيرة على الأرض على مسافة عشرين مترًا من ناكامورا. وقد لاحظت كيتي أن والدها يبدو تعِبًا، والتقدُّم في السن واضح على ملامحه. فقاومت رغبتها الملحَّة في أن تُهرع إليه وتتحدَّث معه.

أعلن الحاجب المسئول بدءَ المحاكمة، وذكَّر جميعَ الحاضرين أنهم يجب ألا يقولوا أيَّ شيء أو يتدخَّلوا بأي طريقة في إجراءات المحاكمة. وبمجرد أن انتهى الحاجب، وقف ناكامورا واختال في مِشيته وهو يهبط الدرجتين الكبيرتين أسفل مقعده إلى المنصة.

وقال بصوتٍ أجشَّ وهو يسير جيئةً وذهابًا: «لقد عقَدت حكومة عدن الجديدة هذه المحاكمة لتقرِّر ما إذا كان ممثل الأعداء الفضائيِّين مستعد، نيابةً عن جنسه، أن يقبل الاستسلام غير المشروط الذي طلبناه شرطًا ملزِمًا لوقف الأعمال العدائية بين الطرفين. وإذا كان المواطن السابق ريتشارد ويكفيلد، الذي يستطيع التواصلَ مع العدوِّ الفضائي، قادرًا على إقناع المخلوق الفضائي بالقبول بمطالبنا، ومنها التنازل عن جميع عتاد الحرب، والكفُّ عن الإعداد لاحتلالنا، والتنحي عن حُكم أراضيهم كافة؛ فإننا سنكون مستعدين لنكون رحماءَ معه. وفي مقابل خدماته هذه في إنهاء هذا الصراع المرير، لن يكون لدينا اعتراض على تخفيض حُكم الإعدام على السيد ويكفيلد إلى السِّجن مدى الحياة.

ثم رفع ناكامورا صوتَه وهو يقول: «ولكن، إذا كان الخائن المُدان وشريكه الفضائي قد استسلما لقواتنا المنتصرة كجزء من مخطَّطٍ غادرٍ لتقويض رغبتنا الجماعية في عقاب المخلوقات الفضائية لهجماتها العدوانية ضدنا، فإننا حينها سنجعل من هذين الاثنين عبرةً كرسالة واضحة لأعدائنا. إننا نريد أن يعرف قادةُ المخلوقات الفضائية أن مواطني عدن الجديدة يقفون صامدين ضد أهدافهم التوسعية.»

حتى تلك اللحظة كان ناكامورا يخاطب الحضورَ جميعًا. لكنه استدار ليواجه السجينين الجالسين وحدَهما في منتصف قاعة الاحتفالات. وقال: «سيد ويكفيلد، هل الكائن الفضائي الذي يجلس إلى جوارك لديه سلطةُ التحدُّث بالنيابة عن بني جنسه؟»

وقف ريتشارد. وأجاب: «على حدٍّ علمي، نعم.»

«إذن، هل الكائن الفضائي جاهزٌ للتوقيع على وثيقة الاستسلام غير المشروط التي اطلعتم عليها؟»

«لقد استلمنا الوثيقةَ قبل بضع ساعات ولم يُتَح لنا وقتٌ لنتحدَّث عن جميع محتوياتها. شرحت أهم الأجزاء بها لآرشي، ولكني لا أعرف إن كان مستعدًّا للتوقيع أم لا.»

فدوَّى صوتُ ناكامورا وهو يقول مخاطبًا الحضورَ ويلوِّح بورقة في الهواء: «إنهما يماطلان. شروط الاستسلام مكتوبة كلها في تلك الورقة الواحدة.» ثم استدار ليواجه ريتشارد وآرشي مرةً أخرى. وقال: «السؤال يتطلب إجابةً بسيطة. نعم أم لا؟»

تدفَّقت شرائط الألوان حول رأس آرشي وسادت همهمةٌ بين الحضور. انتبه ريتشارد لآرشي، ثم همس بسؤال لزميله الأوكتوسبايدر، وقام بعدها بترجمة إجابة آرشي. نظر إلى ناكامورا. وقال: «إن الأوكتوسبايدر يريد أن يعرف بالضبط ماذا سيحدُث إذا وقَّع على تلك الوثيقة. ما الإجراءات التي ستحدُث وما هو ترتيبها؟ فإن أيًّا من هذا غيرُ مذكور بوضوح في الاتفاقية.»

صمت ناكامورا وقتًا قصيرًا. ثم قال: «في البداية، يجب أن يتقدَّم إلينا جميع جنود الكائنات الفضائية ويسلِّموا أسلحتهم، ويستسلموا لقواتنا الموجودة الآن في الجنوب. ثانيًا، يجب أن تسلِّم حكومة الكائنات الفضائية، أو أيًّا كان نظامُ حكمهم، قائمةً تفصيلية بكل شيء يوجد في موطنهم. ثالثًا، يجب أن يعلنوا لجميع أفراد جنسهم أننا سنحتل موطنَهم، وأنهم جميعًا سيتعاونون مع جنودنا ومواطنينا بكل الطرق.»

دار بين ريتشارد وآرشي حوارٌ قصير آخر. ثم سأل ريتشارد: «وماذا سيحدُث لجميع كائنات الأوكتوسبايدر والحيوانات الأخرى التي تعيش معهم في موطنهم؟»

«سيُسمح لهم باستئناف حياتهم العادية، بالطبْع مع فرضِ بعض القيود عليهم. وستُطبَّق قوانيننا وسيشغَل مواطنونا مناصبَ الحكم في الأراضي المحتلَّة.»

قال ريتشارد: «وستُدخِلون حينها تعديلًا على وثيقة الاستسلام أو ستصوغون لها ملحقًا يضمن حياةَ كائنات الأوكتوسبايدر وأمنَها، وكذلك الحيوانات الأخرى، شريطةَ ألا يخرقوا أيًّا من القوانين المعلَنة في المنطقة المحتلة؟»

ضاقت عينا ناكامورا. وقال: «فيما عدا الكائنات الفضائية التي سنجد أنها مسئولة عن الحرب العدوانية التي شُنت ضدنا، سأضمن شخصيًّا سلامة كائنات الأوكتوسبايدر

التي تطيع قوانينَ الاحتلال ... ولكن ما هذه إلا تفاصيل. ولا حاجة لكتابتها في وثيقة الاستسلام.»

هذه المرة دار حوارٌ طويل بين ريتشارد وآرشي. ومن جانب الغرفة رأت كيتي وجهَ أبيها عن قُرب. وفي البداية ظنَّت أنه مختلف مع الأوكتوسبايدر ولكن فيما بعدُ بدا ريتشارد كأنه قد انصاع لكلام الأوكتوسبايدر، وأذعن له تقريبًا. وكان الأمر وكأن والدها يحاول حفظ شيء ...

وقد كان ذلك التوقُّف الطويل في إجراءات المحاكمة يستثير حَنَق ناكامورا. وبدأ الضيوف المميزون يتهامسون فيما بينهم. وفي النهاية تحدَّث ناكامورا قائلًا: «حسنًا هذا يكفي. ما إجابتك؟»

كانت الألوان لا تزال تتدفَّق حول رأس آرشي. وبعد برهةٍ توقَّفت ألوانه، فتقدَّم ريتشارد خطوةً للأمام باتجاه ناكامورا. وتردَّد وهلةً قبل أن يتحدَّث.

فقال ببطء: «إن كائنات الأوكتوسبايدر تريد السلام، وتود أن تجد سبيلًا لإنهاء هذا الصراع. وإن لم يكونوا جنسًا يتمتَّع بحسٍّ أخلاقي، لكان من الممكن أن يوافق الأوكتوسبايدر على توقيع وثيقة الاستسلام لكسبِ المزيد من الوقت فحسب. ولكن هذا ليس من شيَمِها. إن صديقي الفضائي، واسمه آرشي، لن يعقِد اتفاقيةً نيابةً عن جنسه إلا إذا كان واثقًا من أنها مناسِبة لمستوطنته وأن بني جنسه سيقبلونها.»

سكتَ ريتشارد. فقال ناكامورا بنفاد صبر: «إننا لا نريد خُطَبًا، أجب عن السؤال فقط.»

فقال ريتشارد بصوتٍ أعلى: «لقد أرسلتني كائنات الأوكتوسبايدر أنا وآرشي لنتفاوض على إحلال سلام مشرِّف، وليس للاستسلام دون شرط. فإذا كانت عدن الجديدة لا ترغب في التفاوض وعقدِ اتفاقية تحترم وحدةَ أراضي موطن كائنات الأوكتوسبايدر، فلن يكون لديهم خيار.» ثم صرخ ريتشارد وهو ينظر أمامه وخلفه إلى الضيوف الجالسين على جانبي القاعة: «رجاءً، افهموا أنكم لن تتمكنوا من النَّصر إذا حاربتكم كائناتُ الأوكتوسبايدر بالفعل. إنهم حتى الآن لم يقاوموا على الإطلاق. يجب أن تقنعوا قادتَكم بأن يَعقدوا مباحثات يضعون فيها النقاطَ كافة في اعتبارهم ...»

فصرخ ناكامورا آمرًا: «أقبضوا على السجينين.»

«... أو إنهم سيقضون عليكم عن بكرةِ أبيكم. كائنات الأوكتوسبايدر أكثرُ تقدُّمًا منَّا بمراحل. صدِّقوني. أنا أعلم هذا. لقد عشتُ معهم أكثرَ من ...»

فضرب أحدُ رجال الشرطة ريتشارد على مؤخرة رأسه فسقط على الأرض مدرجًا في دمائه. هبَّت كيتي من مكانها ولكن فرانتس منعَها بكلتا ذراعيه. وعندما أُخرج ريتشارد وآرشي من القاعة كان الأول يمسك بجانب رأسه.

كان ريتشارد وآرشي في زنزانةٍ صغيرة في قِسم شرطة هاكون، على بُعد مسافة ليست بالكبيرة من قصر ناكامورا. سأله آرشي بالألوان: «هل رأسك على ما يُرام؟»

فأجابه ريتشارد: «أظن هذا، مع أنه لا يزال متورِّمًا.»

فسأله آرشي: «سيقتلوننا الآن، أليس كذلك؟»

فأجابه ريتشارد وهو متجهِّم: «على الأرجح.»

فقال آرشي بعد صمتٍ قصير: «شكرًا على المحاولة.»

فهزَّ ريتشارد كتفيه. وقال: «إنني لم أُبلِ بلاءً حسنًا ... على أي حال، أنت مَن يستحق الشكر. فلولا أنك تطوَّعت لهذه المهمة، لكنتَ الآن سالمًا غانمًا في مدينة الزمرد.»

ثم سار ريتشارد إلى الحوضِ في زاوية الزنزانة وغسل قطعةَ القماش التي كان يضعها على جُرح رأسه. وسأله آرشي بعد أن عاد لينضم إليه في مقدمة الزنزانة: «ألم تخبرني أن معظمَ البشر يؤمنون بالحياة الآخرة؟»

فأجابه ريتشارد: «بلى. بعض الناس يؤمنون أن الأرواح تتناسخ وتعود إلى الحياة مرةً أخرى في صورة إنسان آخر أو حتى حيوانٍ ما. والبعض الآخر يؤمن أنه إذا عشتَ حياةً صالحة، فستكون هناك مكافأة، حياة خالدة في مكان جميل يخلو من أي شيء قد يعكِّر صفوهم يسمَّى الجنة ...»

فقاطعه آرشي بألوانه: «وأنت يا ريتشارد، بمَ تؤمن؟»

فابتسم ريتشارد وفكَّر عدة ثوانٍ قبل أن يجيب. «لقد كنت دائمًا أُومن أنه أيًّا كان ما بنا، ذلك الشيء المميز الذي يحدِّد الشخصية الخاصة بكل فرد، فإنه يختفي لحظةَ الموت. وبالطبع فإن المواد الكيميائية المشكِّلة لأجسادنا تدور في الطبيعة لتأخذ أشكالَ كائنات حية أخرى، ولكن لا يوجد استمرار حقيقي، ليس في هيئةٍ ما يُطلِق عليه بعضُ البشر الرُّوح ...»

ثم ضحِك. وقال: «أما الآن، عندما يملي عليَّ المنطِق أنني لا أملك أن أعيش وقتًا طويلًا، أسمع صوتًا بداخلي يترجَّاني أن أعتنق واحدًا من تلك القصص الخيالية عن الحياة الآخرة ... وأنا أعترف أنه أمرٌ سهل ... ولكن مثل هذا الاعتناق في اللحظات الأخيرة لن يتماشى مع الطريقة التي عشتُ بها هذه السنوات كلَّها ...»

سارَ ريتشارد ببطء إلى مقدمة الزنزانة. ووضع يديه على القضبان وحدَّق في الرواق عدة ثوانٍ دون أن يقول شيئًا. ثم استدار ليواجه صاحبه بالسِّجن وسأله برفق: «وماذا تظن كائناتُ الأوكتوسبايدر سيحدُث بعد الموت؟»

«لقد علَّمنا السلفُ أن كل حياة تمتد فترةً زمنية معينة، لها بداية ولها نهاية. وأيُّ مخلوق، على الرغم من أن وجوده معجزة، ليس مهمًّا في الإطار العام لمجريات الأشياء. ما يهم حقًّا طِبقًا لما يقوله السلف هو الاستمرارية والتجدُّد. ومن منظورهم، فإن كل شخص خالد ليس بسبب أي شيء يرتبط بالحياة للأبد، ولكن بسبب أن كل حياة تكون حلقة ربط هامة، إما على المستوى الثقافي أو الجيني أو الاثنين معًا، في ديمومة الحياة التي لا تنتهي أبدًا. عندما أدخل علينا السلف تعديلاتٍ باستخدام الهندسة الوراثية للخروج بنا من الجهل، علَّمونا ألا نهابَ الموت، بل أن نذهب إليه طوعًا تأييدًا منَّا للتجديد الذي سيتبعه.»

«إذن فأنت لا تشعر بالغم أو الخوف وهلاكك وشيكٌ؟»

أجابه آرشي: «نظريًّا. هذه هي الطريقة المقبولة التي يقابل بها مجتمعُنا الموت. ولكن الأمر سيكون أسهلَ بكثير إذا كان الفرد محاطًا وقتَ إنهاء حياته بأصدقائه وبالآخرين الذين يمثِّلون التجديدَ الذي سيبدؤه بموته.»

فسار ريتشارد إليه وأحاطه بذراعه. وقال: «لم يَعُد لدى كلٍّ منَّا الآن سوى الآخر يا صديقي. إلى جانب معرفة الآخرين أننا حاولنا معًا وقْفَ حربٍ ستنتهي على الأرجح بمقتل الآلاف. ليس ثَمة سببٌ أكثر ...»

ثم توقَّف عندما سمِع صوت باب رواق الزنازين يُفتح. وكان هناك ضابط الشرطة بالقِسم ومعه أحد رجاله يقفان بعيدًا في الوقت الذي تقدَّمت فيه أربعة كائنات آلية عبْر الرواق إلى زنزانتهم — اثنان منهما جارسيا والآخران لينكولن — وكانوا جميعهم يرتدون قفازات. لم ينطِق أيٌّ من الآليَّين بكلمة. وفتح أحدُ آليي الجارسيا البابَ ودلفوا جميعًا إلى الزنزانة مع ريتشارد وآرشي. وأغلق النقيب بابَ رواق الزنازين. وبعد لحظاتٍ انطفأت الأنوار، ولعدة ثوانٍ كان هناك صوتُ شجار، ثم صرخ ريتشارد وارتطمَت جثةٌ بقضبان الزنزانة. ثم ساد بعدها هدوءٌ مطبِق.

قالت كيتي وهي تفتح بابَ قِسم الشرطة: «لا تخَف الآن يا فرانتس من أن تستغل رتبتك مع مَن هو أقلُّ منك. إنه مجرد ضابط بقسم شرطة. ولن يخبرك أنك لا يمكنك أن ترى السجناء.»

دخلا إلى القِسم بعد ثانية واحدة أو اثنتين من إغلاق باب رواق الزنازين خلف الآليين. وقال فرانتس في أقوى نبرة رسمية عنده: «أيها النقيب ميازاوا، أنا النقيب فرانتس باور من مركز القيادة ... لقد أتيت لزيارة السجينين.»

فأجابه ضابط الشرطة: «لدي أوامرُ مشدَّدة من أعلى سلطة ألا أسمح لأي شخص بالدخول إلى الزنازين أيها النقيب باور.»

غرقت الغرفة فجأةً في ظلام دامس. فقال فرانتس: «ما الذي يحدُث؟»

فأجابه ميازاوا: «لا بد أن صمَّامًا كهربيًّا قد انصهر. ويسترمارك، اذهب إلى الخارج وتفحَّص مفاتيح الكهرباء.»

سمِع فرانتس وكيتي صرخة. وبعد ما بدا أنه دهر، سمِعا صوت باب رواق الزنازين يُفتح ثم خطَى أقدام. خرج ثلاثة كائنات آلية من الباب الأمامي للقِسم في الوقت الذي بدأت فيه الأنوار تضيء بصورة متقطعة.»

فركضَت كيتي إلى الباب. وصرخت: «انظر يا فرانتس. إنها دماء، هناك دماء على ملابسهم.» ثم استدارت وهي ثائرة للغاية. وقالت: «يجب أن نرى أبي.»

ركضت كيتي أسرعَ من ضبَّاط الشرطة الثلاثة عبْر الرواق. وصرخت عندما اقتربت من الزنزانة ورأت أباها راقدًا على الأرض أمام القضبان: «يا إلهي.» كانت الدماء في كل مكان. ثم أجهشت كيتي بالبكاء وهي تقول: «لقد مات يا فرانتس. مات أبي!»

٨

كانت نيكول قد شاهدت شريطَ الفيديو مرتين قبل ذلك. وعلى الرغم من عينيها المتورمتين وإنهاكها العاطفي التام، فقد طلبت رؤيةَ الشريط مرة أخرى. فناولتها الدكتورة بلو التي كانت بجوارها كوبًا من الماء. وسألتها: «هل أنت متأكدة من طلبك؟»

أومأت نيكول برأسها إيجابًا. قالت في نفسها: «مرة واحدة أخرى فقط. أريد أن أحفظ كلَّ لقطة مهما كانت مريعة في ذاكرتي.»

قالت: «من فضلك ابدئي العَرض من مشهد المحاكمة. بالسرعة العادية حتى تدخل الكائنات الآلية رواقَ الزنازين. ثم أبطئي السرعة إلى الثُّمن.»

كانت نيكول تفكِّر في نفسها وشريط الفيديو يعرض مشهدَ المحاكمة: «لم يشأ ريتشارد البتة أن يلعب دورَ البطل. فهذا لم يكن طبْعه. لقد أراد فقط أن يكون مع آرشي حتى لا أُضطر أنا إلى الذهاب معه.» أجفلت عندما ضرب الحارس ريتشارد وسقط الأخيرُ

على الأرض. ثم قالت لنفسها بينما كان رجال شرطة عدن الجديدة يقودون ريتشارد وآرشي إلى خارج قصر ناكامورا: «لقد كانت هذه الخطة فاشلةً من البداية. وقد عرفت كائناتُ الأوكتوسبايدر هذا. وأنا كنت أعرِف هذا. لمَ لمْ أتحدَّث بعد أن انتابتني تلك الهواجس؟»

طلبت نيكول من الدكتورة بلو أن تقدِّم شريط الفيديو حتى الدقائق الأخيرة. وفكَّرت عندما كان ريتشارد وآرشي يتجاذبان أطرافَ الحديث للمرة الأخيرة: «على الأقل كان كلٌّ منهما إلى جوار الآخر في النهاية. وقد حاول آرشي حمايته ...» ظهرت الكائنات الآلية الأربعة على الشاشة فبدأ العرض يبطئ. ورأت نيكول المباغتةَ المرتسِمة في عيني ريتشارد وهي تتحوَّل إلى الخوف، والآليون يدخلون إلى الزنزانة.

وعندما انطفأت الأنوار، تغيَّرت جودة الصور. فقد كانت الصور التي التقطتها طفيلياتُ التصوير بالأشعة تحت الحمراء تشبه الصورَ السلبية، حيث كانت توضِّح المواضعَ العالية الحرارة في كل إطار من صور مقطع الفيديو. وبدا الآليون مخيفين. بدت عيونهم بارزةً من رءوسهم في الصور بالأشعة تحت الحمراء.

وفي اللحظة التي خيَّم فيها الظلام على الغرفة، جذب أحدُ الآليين الجارسيا ريتشارد من عنقه. ونزع الثلاثة الآخرون قفازاتهم ليكشفوا عن أصابعهم الحادة المسنَّنة وأيديهم التي تشبه حوافَّ السكاكين. فلفَّ آرشي أربعًا من لوامسه القوية حول الجارسيا الآلي الذي يحاول خنْقَ ريتشارد. وعندما انهار جسدُ الجارسيا الآلي وتكوَّم على أرض الزنزانة، هاجم الآليون الثلاثة آرشي بغضب شديد. فحاول ريتشارد أن يساعده في المعركة. ولكن لينكولن آلي أصاب عنقَ آرشي بضربة قاسية من يده كادت تفصل رأس الأوكتوسبايدر. فصرخ ريتشارد عندما أغرقه السائل الداخلي في جسد آرشي. وبخروج آرشي من العَرْكة، فتك الآليون الباقون بريتشارد، وأخذوا يطعنون جسده مِرارًا وتكرارًا بطعنات من أصابعهم. وسقطت جثة ريتشارد لتصطدم بقضبان الزنزانة وانزلقت على الأرض. وسارَ دمُه ودمُ وآرشي، اللذان ظهرا بلونين مختلفين في صور الأشعة تحت الحمراء، سارا معًا مكوِّنين بِركةً من الدماء على أرض الزنزانة.

استمر شريط الفيديو، ولكن نيكول لم تكن تستطيع رؤيةَ شيء أمامها. وفي تلك اللحظة فقط أدركت للمرة الأولى أن زوجَها ريتشارد، الصديقَ المقرَّب الحقيقي والوحيد الذي حظيت به في كِبَرها، قد مات. وعلى الشاشة، كان فرانتس يقود كيتي التي تبكي خارج الزنزانة، ثم أظلمت الشاشة. ولم تتحرَّك نيكول. ظلَّت ساكنة في مكانها بلا حَراك تحدِّق أمامها في المكان الذي كانت الصور تُعرض فيه قبل ثوانٍ قليلة. ولم تكن هناك دموعٌ في

عينيها، ولم يكن جسدها يرتعش، وبدَت مسيطرة تمامًا على نفسها. ولكنها لم تستطِع أن تتحرَّك بعدُ.

أُضيئت غرفةُ العَرض بضوء خفيض. وكانت الدكتورة بلو لا تزال جالسةً إلى جوارها. فقالت نيكول ببطء وقد فوجئت بأن صوتها يبدو وكأنه يأتي من بعيد: «لا أظن أنني قد استوعبت الأمرَ في المرتين الأوليين ... أعني — لا بد أني كنت مصدومة ... وربما ما زلتُ كذلك.» لم تستطِع نيكول أن تستمرَّ في الحديث، وكانت تواجه صعوبةً في التقاط أنفاسها.

فقالت الدكتورة بلو: «أنتِ في حاجة إلى جرعة ماء وقسط من الراحة؟»

فقالت نيكول بوهنٍ وصوتها يتداخل مع صوت أفكارها: «نعم، من فضلك.» وقالت في نفسها: «لقد قُتل ريتشارد. مات ريتشارد. لن أراه مجددًا. لن أتحدَّث إليه أبدًا.» «ماء بارد، إذا كان ذلك ممكنًا.» «لقد رأيته يموت. مرة. مرتين. ثلاث مرات. لقد مات ريتشارد.»

كان هناك كائن أوكتوسبايدر آخرُ في غرفة العَرض. وكان يتحدَّث إلى الدكتورة بلو، ولكن نيكول لم تستطِع متابعةَ ألوانهما. كانت نيكول تفكر: «لقد رحل ريتشارد إلى الأبد. أنا وحيدة.» رفعت الدكتورة بلو كوبَ الماء إلى شفتَي نيكول، ولكنها لم تستطِع أن تشرب. «لقد قُتل ريتشارد.» لم تَعُد ترى شيئًا سوى ظلام دامس.

كان هناك شخصٌ يمسك بيدها. وكانت يده دافئة لطيفة، أخذت تُربِّت على يدها برفق. ففتحت عينيها.

قال لها باتريك بحنان: «مرحبًا يا أمي. هل تشعرين بتحسُّن؟»

أغلقت نيكول عينيها مرةً أخرى. وفكَّرت في نفسها: «أين أنا؟» ثم تذكَّرت. «مات ريتشارد. لا بد أني قد فقدت الوعي.»

فأخذت نيكول تئن دون أن تتحدَّث.

سألها باتريك: «هل تودين احتساء بعضَ الماء؟»

فهمست: «نعم. من فضلك.» كان صوتها يبدو غريبًا.

حاولت نيكول أن تعتدِل جالسةً وتشرب الماء. ولكنها لم تستطِع.

فقال باتريك: «على مهل. لا داعيَ للعجلة.»

بدأ عقل نيكول يعمل: «يجب أن أُخبرَهم. أخبرهم أن ريتشارد وآرشي قد ماتا. وأن طائرات الهليكوبتر قادمة. يجب أن نتوخَّى الحذَر ونحمي الأطفال.» فاستطاعت أن تقول: «ريتشارد.»

فردَّ عليها باتريك: «إننا نعلم يا أمي.»

ففكَّرت نيكول في نفسها: «كيف يعلمون؟ إنني الشخص الوحيد المتبقي هنا ويستطيع أن يقرأ لغةَ الألوان ...»

«لقد تكبَّدت كائنات الأوكتوسبايدر مشقةً كبيرة ليدوِّنوا كلَّ شيء لنا. ولم تكن لغتهم الإنجليزية ممتازة، ولكننا فهِمنا قَطعًا ما كانوا يخبروننا به ... وقد أخبرونا عن الحرب أيضًا.»

فكَّرت نيكول: «جيد. إنهم يعلمون. يمكنني النوم.» وكان هناك صوتٌ لا يزال يتردَّد في عقلها: «لقد مات ريتشارد.»

جاءها صوت ماكس يقول: «من حينٍ لآخر أسمع صوتَ القنابل، ولكن إلى حدِّ علمي فإن أيًّا منها لم يضرب القبَّة. ربما لم يكتشفوا بعدُ مكانَ المدينة.»

فقال باتريك: «ستبدو مظلِمة تمامًا من الخارج. لقد زادوا من سُمك المِظلة الواقية ولا توجد إنارةٌ في الشوارع.»

قال ماكس: «لا بد أن القنابل تسقط على الموطن البديل. لا يمكن أن تخفيَ كائنات الأوكتوسبايدر وجودَه.»

فسأل باتريك: «ماذا تفعل كائناتُ الأوكتوسبايدر؟ هل نعرف حتى ما إذا كانوا يشنُّون هجومًا مضادًّا؟»

فأجابه ماكس: «لا نعرف يقينًا. ولكني لا أستطيع أن أصدِّق أنهم ما زالوا جالسين هنا لا يفعلون شيئًا.»

سمِعَت نيكول وقْعَ خُطًى رقيقة في الرواق. قبل أن تقول ناي: «لقد بدأ الأولاد يعانون حالةً مزعِجة من رُهاب الأماكن المغلقة. هل تظنون أنه لا بأسَ في أن أدَعَهم يلعبون في الخارج؟ لقد رأيت الإشارةَ الضوئية التي تقول إن كل شيء على ما يرام منذ نصف ساعة.»

فقال باتريك: «لا أرى ما يمنع. ولكن أخبريهما أن يدخلا إذا رأيا إشارةً ضوئية أو سمِعا صوتَ أي قنابل.»

فقالت ناي: «سأكون في الخارج معهم.»

فسألها ماكس: «ماذا تفعل زوجتي؟»

فأجابته: «إنها تلقِّن بينجي القراءة. وماريوس نائم.»

«هلا تطلبين منها أن تأتيني بضع دقائق؟»

تقلَّبت نيكول لتنام على جانبها الآخر. وفكَّرت في أن تحاول الاعتدالَ جالسةً، ولكنها شعرَت أنها متعَبة بشدة. ثم بدأت تستغرق في أحلامِ اليقظة وتتذكَّر طفولتها. كانت نيكول الصغيرة تسأل والدها: «كيف يمكن أن أصبح أميرة؟» فأجابها والدها: «إما أن يكون والدك ملِكًا، أو تتخذين من أميرٍ زوجًا لك.» ثم ابتسم وقبَّلها. فقالت: «إذن فأنا أميرة، لأنك بمنزلة ملِك عندي.»

سألت إيبونين: «كيف حال نيكول؟»

فأجابها باتريك: «لقد تقلَّبت في الفراش مرةً أخرى هذا الصباح. وقد أشارت الدكتورة بلو إلى أنها قد تتمكَّن من الجلوس الليلة أو غدًا. وقالت أيضًا إنهم قد تأكَّدوا من أن الأزمة لم تكن شديدة، وأن القلب لم يتضرَّر ضررًا مزمنًا، وأنها تستجيب للعلاج.»

فسأل بينجي: «هل يمكنني رؤيتها الآن؟»

فقالت إيبونين: «كلَّا يا بينجي، ليس بعدُ، إنها ما زالت نائمة.»

قال باتريك: «لقد كانت كائنات الأوكتوسبايدر رائعةً فعلًا، أليس كذلك؟ حتى في خِضَم هذه الحرب، اقتطعوا من وقتهم لكتابة هذه الرسائل الكاملة لنا ...»

قال ماكس: «لقد نجحوا فعلًا في جعْلي أُدرك أنهم كائناتٌ صالحة. لم أكن أظنُّ قط أن هذا ممكن.»

ففكَّرت نيكول في نفسها: «إذن فقد تعرَّضتُ لأزمة قلبية. فلم أفقد وعيي فحسب لأن ريتشارد ...» في البداية لم تستطِع إنهاء الجملة، ثم تواصلت أفكارها: «لـ...أنه قد رحل.»

حلَّقت نيكول بين النوم واليقظة حتى سمِعت صوتًا مألوفًا ينادي اسمَها. فقالت نيكول بسعادة: «أهذا أنت يا ريتشارد؟» فأجابها «نعم يا نيكول.» فقالت: «أين أنت؟ أريد أن أراك» وظهر وجهه يزيِّن سحابةً في منتصف الصورة في حلمها، فقالت هي: «إنك تبدو بحالة رائعة، هل أنت بخير؟» فأجابها ريتشارد: «نعم، ولكن يجب أن أتحدَّث إليك.»

فسألته نيكول: «ما الأمر يا حبيبي؟» فقال هو: «يجب أن تواصلي حياتك بدوني. يجب أن تكوني مثالًا يحذو الآخرون حذوَه.» ثم بدأ وجهه يتغير وأشكال السُّحب تتبدل حول وجهه. فقالت نيكول: «طبعًا، ولكن إلى أين أنت ذاهب؟» لم تَعُد تراه. فجاءها صوته يقول: «وداعًا.» فأجابته: «وداعًا يا ريتشارد.»

عندما استيقظت نيكول المرة التالية، كان ذهنها صافيًا. فجلست على الفراش ونظرت حولها. كان الظلام مخيِّمًا على المكان، ولكنها أدركت أنها في غرفتها في المنزل بمدينة الزمرد.

لم تسمع نيكول أيَّ أصوات. فخمَّنت أن الليل مسدِلٌ أستاره. ورفعت الغطاء عن جسدها ودلَّت ساقيها على حافة الفراش. قالت في نفسها: «حتى الآن، هذا جيد.» رفعت نيكول جسدَها من فوق الفراش لتقف على قدميها ببطء شديد. كانت ساقاها ترتعدان.

كان هناك كوب من العصير على طرَف المنضدة إلى جانب فراشها. فخطَت نيكول خطوتين حذِرتين وهي تتمسك بالفِراش بيدها اليمنى، والتقطت الكوب. كان العصير لذيذًا. وعندما شعرت بالرضا عن نفسها لِما فعلته، بدأت تتجه إلى خزانة الملابس لتحصُل على بعض الملابس. ولكنها شعرت بدُوار خفيف بعد بضع خطوات فاتجهت عائدة إلى الفِراش.

سمِعت صوتَ باتريك يقول: «أمي، أهذه أنت؟» ورأته عند باب الغرفة، ولم تكن ملامحه واضحة لها.

فأجابته: «نعم يا باتريك.»

فقال: «لمَ لا نضيء الغرفة؟» وطَرق على الحائط فطارت يراعةٌ إلى منتصف الغرفة لتنيرها. فقال: «يا إلهي! ما الذي تفعلينه وقد غادرتِ فِراشك؟»

فأجابته نيكول: «لا يمكن أن أظل راقدةً في الفِراش إلى الأبد.»

فقال باتريك وهو يتَّجه إلى جوارها ويساعدها في قطعِ المسافة التي تفصلها عن الفِراش: «ولكن يجب ألا تُجهِدي نفسَك في البداية.»

أمسكت نيكول بذراعه. وقالت: «اسمعني يا بني. ليست لديَّ نية أن أكون عاجزة، ولا أريد أن أُعامل على هذا الأساس. وآمُل أن أعود كما كنت في غضون بضعة أيام، أو أسبوع على الأكثر.»

فقال باتريك وابتسامةٌ قلِقة تعلو وجهه: «حسنًا، يا أمي.»

كانت الدكتورة بلو سعيدةً لشفاء نيكول. وبعد أربعة أيام أخرى تمكَّنت نيكول من قطعِ المسافةِ التي تفصل بين المنزل وموقف العربات سيرًا، والعودةِ مرةً أخرى، وإن كانت تسير ببطء وبمساعدةٍ قليلة من جانب بينجي.

قالت الدكتورة بلو لنيكول في أثناء فحصِها مساء أحد الأيام: «لا تُحمِّلي نفسَك أكثرَ من طاقتها يا نيكول. إنك تُبلين بلاءً رائعًا، ولكنني قلقةٌ عليك ...»

وعندما انتهَت الأوكتوسبايدر وكانت تستعد لمغادرة الغرفة. دخل ماكس عليها وقال إن اثنين من كائنات الأوكتوسبايدر ينتظران عند باب المنزل. فأسرعت الدكتورة بلو خارجةً، وعادت بعد بضع دقائق ومعها مسئولةُ الأمثلية وأحدُ أفراد مجلسها.

في البداية، اعتذرت مسئولةُ الأمثلية لزيارتها المفاجئة ولعدم انتظارها حتى تتعافى نيكول تمامًا. ثم قالت قائدة الأوكتوسبايدر بعدها: «ولكننا في موقفٍ طارئ الآن، ورأينا أننا نحتاج إلى الاتصال بك على الفور.»

شعرَت نيكول بخفقات قلبها تتسارع وحاولت أن تهدئ نفسَها. فقالت: «ماذا حدَث؟»

فقالت مسئولة الأمثلية: «لعلك لاحظت أنه لم يكن هناك أيُّ قصفٍ في الأيام السابقة. فقد أوقف البشر مؤقتًا هجمات طائرات الهليكوبتر في الوقت الذي يدرُسون فيه الإنذار النهائي الذي وجَّهناه إليهم ... فقبْل خمسةِ أيام نقلنا الرسالةَ المكتوبة نفسَها إلى جميع معسكرات البشر الثلاثة. وكانت الرسالة تقول إننا لن نقبَل قصفهم أكثرَ من هذا، وإننا سنستخدم تقنياتنا الأكثرَ تقدُّمًا لشن هجومٍ يحسِم الحرب لمصلحتنا، إذا لم تتوقَّف الأعمال العدائية على الفور ... وتوضيحًا لإمكاناتنا التكنولوجية، فقد ألحقنا بالرسالة وصفًا زمنيًّا مفصَّلًا نيليت بنيليت لكلِّ ما فعله ناكامورا وماكميلان في خلال يومين من أيام عملهما الأسبوعَ المنصرم.

وقد جُن جنون قادة البشر. وساورتهم شكوكٌ أننا قد رشونا بطريقةٍ ما مسئولًا رفيعَ المستوى في الحكومة، وأننا نعرف الآن جميعَ خططهم الحربية. وقد نصح ماكميلان ناكامورا بقبول وقف إطلاق النار والانسحاب من موطننا. ولكن ناكامورا استشاط غضبًا. وطرد ماكميلان وأعاد هيكلة قادته. وقد أسرَّ إلى قائد حراسته أن أي انسحابٍ سيقضي على مكانته في المستوطَنة.

وأول من أمس قال أحدُهم لناكامورا إنَّ ابنتك إيلي قد تعرِف كيفيةَ حصولنا على المعلومات. فاصطحبوها إلى القصر وحقَّق معها ناكامورا بنفسه. في البداية كانت متعاونةً معهم بعض التعاون، وأقرَّت لهم بأننا أكثرُ تقدُّمًا من البشر في مجالاتٍ بعينها. وقالت أيضًا إنها تعتقد أننا بإمكاننا تمامًا الحصول على معلومات عمَّا يحدُث في عدن الجديدة دون أن نستعين بأي جواسيس أو أي من الطُّرق التقليدية التي تستخدمها المخابرات في جمع المعلومات.

ولأنها كانت مباشِرةً للغاية، تكوَّنت لدى ناكامورا قناعة بأنها تعرف أكثرَ مما كانت تخبِره به. فأخذ يطرح عليها الأسئلة عدة ساعات، أسئلة عن عدة موضوعات، بما في ذلك إمكاناتنا العسكرية وجغرافية موطننا. وقد تجنَّبت إيلي بدهاءٍ ذكْرَ أي معلومات خطيرة — فلم تذكر مدينةَ الزمرد قط على سبيل المثال — وأجابته مرارًا وتكرارًا أنها لم ترَ قط أيَّ أسلحة أو حتى أي جنود. ولكن ناكامورا لم يصدِّقها. وفي النهاية، أمر بإلقائها في السِّجن

وتعذيبها. ومنذ ذلك الوقت ظلَّت إيلي صامتةً متحديةً إياهم، مع أنها قد لاقت معاملةً أكثرَ قسوة.»

توقَّفت مسئولة الأمثلية عن الحديث. حيث شحَب وجهُ نيكول والأولى تصف لها سوءَ المعاملة الذي لاقته إيلي. فالتفتت الأوكتوسبايدر القائدة إلى الدكتورة بلو. وقالت: «هل أستكمل حديثي؟»

كان ماكس وباتريك يقفان عند باب الغرفة. لكنهما لم يفهما بالطبع ماذا كانت مسئولة الأمثلية تقول. ولكنهما رأيا امتقاعَ وجهِ نيكول. فدخل باتريك إلى الغرفة. وقال: «إن أمي مريضة بشدة ...»

فقاطعته نيكول وهي تشير إليه أن يبتعد: «لا بأس.» ثم التقطت نفَسًا عميقًا. وقالت لمسئولة الأمثلية: «من فضلك، واصلي.»

استأنفت مسئولة الأمثلية حديثها: «وقد أقنع ناكامورا نفسَه وكِبار قادته في الوقت الحالي أنَّ تهديدنا ما هو إلا خديعة. ويعتقد أنه حتى إذا كانت تقنياتنا متقدِّمة للغاية عنهم في مجالات محدَّدة، فإنه ليست لدينا أيُّ إمكانات عسكرية. وفي اجتماعه الأخير مع مجلسه قبل بضع تيرات، وافق على خطةٍ تقوم على قصفنا باستخدامِ جميع القوى العسكرية المتاحة حتى نستسلم. وستبدأ أولى الغارات المكثَّفة في الصباح.

ولهذا، فقد خلَصْنا على كرهٍ إلى أنه يجب أن نردَّ على هجماتهم. حيث إن التقصير في الرد عليهم قد يعرِّض بقاء المستوطنة للخطر. وقبل أن آتيَ لرؤيتك، أصدرتُ أوامري بتنفيذ «خطة الحرب رقم واحد وأربعين»، وهي واحدة من ردودنا المتوسطة القوة. ولن تؤديَ هذه الخطة إلى الإفناء الشامل لجميع سكان عدن الجديدة، ولكنها ستكون مدمِّرة لهم بما يكفي بحيث تضع الحربُ أوزارها بسرعة. ويقدِّر محلِّلونا أن ما بين عشرين إلى ثلاثين بالمائة من البشر سيَلقون حتفَهم ...»

سكتَت مسئولة الأمثلية حين رأت الألمَ المرتسِم على ملامح نيكول. وطلبَت نيكول شيئًا لتشربه. ثم قالت ببطء بعد أن انتهَت من احتساء كوب الماء: «هل مسموح لنا معرفةُ مزيد من التفاصيل عن الهجوم الذي ستشنُّونه؟»

«لقد اخترنا كائنًا ميكروبيولجيًّا، يشبه كيميائيًّا الإنزيمَ إلى حدٍّ بعيد، الذي يعيق تكاثُر الخلايا في جنسكم. ويمتلك شبابُ البشر الأصحاء دون الأربعين عامًا مناعةً طبيعية قوية بما يكفي للصمود أمام هجوم الكائن عليهم. أما البشر الأكبر سنًّا أو غير الأصحاء فسيَلقون حتفَهم سريعًا. فخلايا أجسادهم لن تستطيع التجدُّد بالصورة السليمة وستتوقَّف

أجسادُهم ببساطةٍ عن تأدية وظائفها ... وقد استخدمنا الدَّم والجِلد وغيرها من الخلايا التي حصلنا عليها منكم جميعًا في مدينةِ الزمرد كي نتحقَّق من صحةِ توقُّعاتنا النظرية. ونحن واثقون إلى حدٍّ بعيد من أن الصغار لن يتعرَّضوا لأي أذًى.»

فقالت نيكول بعد صمتٍ قصير: «إن جنسنا يَعُدُّ الحرب البيولوجية أمرًا غير أخلاقي.»

فعقَّبت مسئولة الأمثلية: «إننا ندرك أن هناك بعضَ أشكال الحروب المقبولة أكثرَ من غيرها. ولكن في منظورنا، جميعُ أشكال الحروب غير مقبولة. إننا نحارب فقط إذا أجبرتنا ضرورةٌ ملحَّة على هذا. ولا يمكننا أن نرى أن مصرع أحدهم بسلاح ناري أو قنبلة أو سلاح نووي أو سلاح بيولوجي سيصنع فارقًا له. إلى جانبِ أننا يجب أن نردَّ العدوان بأي سلاح نملكه.»

خيَّم على الغرفة صمتٌ طويل. ثم تنهَّدت نيكول وهزَّت رأسها في استنكار وقالت في النهاية: «أعتقد أنني يجب أن أشكرك لأنك أخبرتني بما سيحدُث في هذه الحرب الغبية، مع أن شبح سقوط كثير من القتلى يخيفني. كنت أتمنَّى أن يكون هناك سبيلٌ آخر يسفر عن نتيجة مختلفة.»

استعدَّت كائنات الأوكتوسبايدر الثلاثة لمغادرة الغرفة. وكان ماكس وباتريك يطرحان الأسئلةَ على نيكول حتى قبل أن يرحل الزائرون من المنزل، ولكن نيكول قالت بضجر: «انتظرا. استدعيا الآخرين إلى هنا أولًا. فأنا أريد أن أشرح ما أخبرتني به كائناتُ الأوكتوسبايدر مرةً واحدة.»

لم يَغمض لنيكول جَفن. لم تستطِع أن تمنع نفسها من التفكير في الأشخاص الذين سيموتون في عدن الجديدة على الرغم من أنها حاولت جاهدةً أن تصرِف ذهنَها عنهم. كانت تجول في مخيِّلتها وجوهٌ، وجوهٌ لعجائزَ، معظمها لأناسٍ عرفتهم نيكول وعملت معهم في أثناء فترة نشاطها في المستعمَرة.

ثم تساءلت نيكول في نفسها: «وماذا عن كيتي وإيلي؟ ماذا لو أن كائنات الأوكتوسبايدر قد ارتكبت خطأً؟» وارتسمت في ذهنها صورةُ إيلي كما رأتها آخرَ مرة في منزلها مع زوجها وابنتها. ومرَّ على خاطر نيكول خلافاتُ الرأي التي شاهدتها بين إيلي وروبرت. وظل وجه روبرت المتعَب المنهَك ثابتًا في ذهنها. ففكَّرت في نفسها: «وروبرت، يا إلهي. لقد كبُر في السن ولا يعتني بنفسه مطلقًا.»

تقلَّبت نيكول في فِراشها أكثرَ من مرة، وهي تشعر بالإحباط لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا. وفي النهاية قرَّرت أن تعتدل جالسةً في الظلام. وسألت نفسها وهي تفكِّر في روبرت مرةً أخرى: «تُرى هل فات الأوان؟» فكَّرت في روبرت مرةً أخرى. قالت في نفسها: «إنني لا أتفق معه. ولست واثقة حتى من أنه نِعم الزوج لإيلي. ولكنه لا يزال والد نيكي.»

وبدأت بذور خطةٍ تنمو في ذهنها. فانزلقت من فوق فراشها بحذرٍ واجتازت الغرفة إلى خزانة الملابس. ارتدَت ملابسها. قالت في نفسها: «قد لا أتمكَّن من المساعدة. لكني على الأقل سأكون قد حاولت.»

سارت على أطرافِ أصابعها إلى الرَّدهة. فلم تشأ أن توقظ باتريك أو ناي، اللذين كانا ينامان في غرفة إيلي منذ تعرُّضها للأزمة القلبية. وقالت لنفسها: «إنهما سيجعلانني أعود إلى الفِراش.»

وفي الخارج، كان الظلام يخيِّم على مدينة الزمرد كما كان مخيِّمًا على المنزل بالداخل. وقفت نيكول عند باب المنزل وهي تأمُل أن تتكيف عيناها بصورة كافية مع الإضاءة الخافتة حتى ترى المنزلَ المجاور لهم. وفي النهاية تمكَّنت من تحديد بعض الظلال، فخرجت من مقدِّمة المنزل متجهةً إلى اليمين.

كانت تتقدَّم ببطء. تقطع بضع خطوات ثم تتوقَّف لتنظر حولها. استغرق وصولها إلى رَدهة منزل الدكتورة بلو عدة دقائق.

قالت في نفسها: «لو حالفني الحظُّ فستكون نائمةً في الغرفة الثانية على اليسار.» عندما دخلت إلى غرفة نوم الأوكتوسبايدر، طرقَت نيكول برفق على الحائط. فألقت يراعةٌ بضوءٍ خافتٍ على اثنين من كائنات الأوكتوسبايدر ينامان مقترِبَين. كانت الدكتورة بلو وجيمي ينامان وجسداهما ملتصقان معًا، ولوامسهما متشابكة على نحوٍ غير منتظم. فسارت نيكول ووضعت يدَها على أعلى رأس الدكتورة بلو. ولكنها لم تستجِب. فربَّتت عليها بقوةٍ أكبرَ في مرة ثانية، فبدأت عدسة الدكتورة بلو تتحرَّك.

ثم قالت لنيكول بالألوان بعد بضع ثوانٍ: «ماذا تفعلين هنا؟»

فأجابتها: «إنني أحتاج إلى مساعدتك. إنه أمرٌ مهم.»

تحركت الأوكتوسبايدر بحذرٍ شديد محاوِلةً تخليص لوامسها دون إزعاج جيمي. ولكنها لم تنجح؛ إذ استيقظ الأوكتوسبايدر الصغير. فطلبت منه الدكتورة بلو أن يعودَ إلى نومه، وسارت إلى الرَّدهة مع نيكول.

قالت الدكتورة بلو: «يجب أن تكوني في فِراشك الآن.»

فأجابتها نيكول: «أعلم. ولكنها حالةٌ طارئة. أحتاج إلى التحدُّث إلى مسئولة الأمثلية. وأريد منك أن تأتي معي.»

«في هذا الوقت من الليل؟»

فقالت نيكول: «أنا لا أدري كم تبقَّى من الوقت. يجب أن أرى مسئولة الأمثلية قبل أن تبدأ الأسلحة البيولوجية في قتل الناس في عدن الجديدة ... إنني قلِقة على كيتي، وأسرة إيلي أيضًا.»

«نيكي وإيلي لن تتعرَّضا لأي أذًى. وكيتي ليست كبيرة السن حسبما فهمت ...»

فقاطعت نيكول ألوانها: «ولكن أجهزة كيتي تالفةٌ بسبب ذلك الكَم من المخدرات التي تتعاطاها. وعلى الأرجح سيستجيب جسدُها كما لو كان جسد عجوز ... وروبرت منهَك تمامًا من العمل طوال الوقت.»

قالت الدكتورة بلو: «أنا لست واثقةً من أنني أفهم ما تخبرينني به. لماذا تودِّين أن تقابلي القائدة المُثلى؟»

«كي أناشدَها أن تكون هناك معاملةٌ خاصة لكيتي وروبرت، بالطبع على افتراض أن إيلي ونيكي ستكونان بخير. يجب أن تكون هناك طريقةٌ ما بقدراتكم البيولوجية المتقدِّمة تمكِّنكم من استثنائهم وعدم المساس بهما. ولهذا أريدك أن تأتي معي ... كي تقفي إلى صفي.»

لم تقُل الأوكتوسبايدر شيئًا لعدة ثوانٍ. ثم قالت في النهاية: «حسنًا يا نيكول، سأذهب معك. مع أني أظن أنه يجب أن تكوني مُلازمة لِفراشك ... وأشكُّ أن في أيدينا شيئًا لنفعله.»

قالت نيكول وقد نسيت نفسَها لحظةً وعانقت الدكتورة بلو: «شكرًا جزيلًا لك.»

قالت الدكتورة بلو وهما تسيران معًا إلى خارج الباب الأمامي للمنزل: «يجب أن تعديني بشيء. يجب ألا تحمِّلي نفسك ما يفوق طاقتها الليلة ... أخبريني إذا كنتِ تشعرين بالتعب.»

قالت نيكول وهي تبتسم: «بل وسأستند عليك ونحن نسير.»

سارت الاثنتان ببطء في الشارع، وكان الاختلاف بينهما واضحًا. كانت الدكتورة بلو تسند نيكول طَوال سيرهما باثنتين من لوامسها. ومع ذلك فقد نالت أنشطةُ وانفعالات نيكول اليومية من مخزونِ الطاقة الضئيل في جسدها. فشعرت بالإجهاد قبل أن يصلوا إلى موقف العربات.

توقَّفت نيكول للراحة. كانت تسمعها ولكن لم تستطِع تمييزها، ثم بدأت تتضح. فقالت نيكول للدكتورة بلو: «إنها قنابل. الكثير من القنابل.»

قالت الأوكتوسبايدر: «بلغَنا أن نتوقَّع غارات طائرات الهليكوبتر. ولكني أتعجَّب من عدم وجود إشارات تحذير ضوئية ...»

وفجأةً انفجر جزءٌ من القبَّة الواقية فوق رأسيهما متحولًا إلى كرة نارية ضخمة. وبعد لحظات سمِعت نيكول صوتًا يُصِمُّ الآذان. فتعلَّقت بالدكتورة بلو بقوة وحدَّقت في الجحيم المشتعل فوق رأسها. وفي ألسنةِ اللهب حسِبت أنها رأت حطام طائرة هليكوبتر. وكانت أجزاء محترِقة من القبَّة تسقط من السماء، وسقط بعضها على مسافةٍ لا تزيد عن كيلومتر من مكانهما.

لم تستطِع نيكول التقاطَ أنفاسها. ورأت الدكتورة بلو الإجهادَ على وجهها. فقالت نيكول: «لن أتمكَّن من المواصلة إلى مسئولة الأمثلية أبدًا.» ثم تشبَّثت بالأوكتوسبايدر بكلِّ ما تبقَّى لديها من قوة، وقالت لها: «يجب أن تذهبي وتقابلي مسئولة الأمثلية بدوني. بوصفك صديقتي. واطلبي منها — كلا، ترجَّيها — أن تفعل شيئًا من أجل كيتي وروبرت. أخبريها أنه معروف شخصي ... من أجلي.»

فأجابتها الدكتورة بلو: «سأفعل ما بوسعي. ولكن يجب أن أعيدك أولًا ...»

سمِعت نيكول صوتَ باتريك يصرخ من خلفها: «أماه!» وكان يقطع الشارع راكضًا باتجاههما. وعندما وصل إليهما، استقلَّت الدكتورة بلو العربة. فرفعت نيكول عينيها إلى القبَّة في الوقت الذي كانت فيه ريشةٌ من مروحة الهليكوبتر محاطةً بأوراق الشجر المحترقة تسقط من السماء وتتحطَّم بعيدًا.

٩

ألقت كيتي بالحقنة ونظرت إلى نفسِها في المرآة. ثم قالت بصوتٍ مسموع: «هذا أفضلُ كثيرًا ... فلم أعُد أرتجف.» كانت ترتدي الفستان نفسَه الذي ارتدته يوم المحاكمة التي عُقدت لوالدها. وقد اتخذت كيتي ذلك القرارَ أيضًا في الأسبوع الماضي عندما أخبرت فرانتس بما تعتزم فِعله.

أخذت كيتي تدور وتشاهد صورتها في المرآة لتتأكد من زينتها. تساءلت في نفسها: «ما هذا التورُّم في ساعدي؟» فهي لم تلحظ وجودَه من قبل. فعلى ذراعها اليمنى في المنتصف، ما بين مرْفَقها ورُسغها، كان هناك تورُّم في حجم كرة الجولف. فرَكَته كيتي. ووجدته غضًّا عندما ضغطت عليه، ولكنه لم يؤلمها أو يدعوها إلى الحكِّ إلا إذا مسَّته مباشرة.

هزَّت كيتي كتفَيها وسارت إلى غرفة المعيشة. وعلى منضدة القهوة كانت تستقر الأوراق التي أعدَّتها. فأشعلت سيجارة وهي تنظِّم الأوراق. ثم وضعتها في ظرف كبير.

وكانت قد جاءت في صباح ذلك اليوم مكالمةٌ هاتفية من مكتب ناكامورا. وقال الصوتُ الأنثوي الرقيق لكيتي إن ناكامورا يمكن أن يقابلها في الخامسة من بعد ظهرِ ذلك اليوم. وعندما وضعَت كيتي سماعةَ الهاتف، تمالكت نفسها بالكاد. إذ كانت قد فقدَت الأمل في أن تقابله على الإطلاق. قبل ثلاثة أيام، عندما اتصلت كي تحدِّد موعدًا معه «للحديث عن أعمالهما المشتركة»، أخبرها موظَّف الاستقبال أن ناكامورا مشغولٌ للغاية في الإعداد للحرب، ولا يحدِّد مواعيدَ لأي لقاءات لا ترتبط بهذا الأمر.

نظرت كيتي إلى ساعتها مرةً أخرى، فكان لا يزال أمامها خمس عشرة دقيقة قبل أن تصل عقاربُ الساعة إلى الخامسة. وكان السير من شقَّتها إلى القصر يستغرق عشر دقائق فقط. فالتقطت الظرفَ وفتحت باب شقَّتها.

كان الانتظار يدمِّر ثقتَها بنفسها. فقد دقَّت الساعة السادسة ولم يُسمح لكيتي بعدُ بالدخول إلى المكان الخاص بناكامورا في الداخل، وهو الجزء الياباني من القصر حيث يعمل ناكامورا ويعيش. وقد ذهبت إلى الحمَّام مرتين وفي كل مرة تسأل وهي في طريقها عائدة إلى مقعدها إن كانت ستنتظر وقتًا أطول. أجابتها الفتاة الجالسة على المكتب إلى جوار الباب في المرتين بإيماءاتٍ غامضة توحي أنها لا تعلم.

كانت كيتي تجاهد من أجل أن تسيطر على نفسِها. كان مفعول الكوكومو قد بدأ يزول، وكانت تساورها شكوك. وبينما كانت تدخِّن سيجارة في الحمَّام، حاولت أن تنسى قلقَها بالتفكير في فرانتس. وتذكَّرت المرة الأخيرة التي أقاما فيها علاقةً حميمة معًا. كانت عيناه تفيضان حزنًا عندما رحل. فقالت لنفسها: «إنه حقًّا يحبني، يحبني بطريقته الخاصة ...»

وقفت الفتاة اليابانية عند الباب. وقالت لها: «يمكنك الدخول الآن.» فخرجت كيتي من غرفة الانتظار ودلفت إلى الجزء الرئيسي من القصر. وخلعت حذاءها ووضعته على رفٍّ ثم سارت على السجادة اليابانية وهي ترتدي جَوربًا. وألقت عليها ضابطة شرطة تُدعى مارج التحيةَ، وأخبرتها أن تتبَعها.

سارت كيتي خلفَ ضابطة الشرطة وهي تقبِض بيدها على ظرف الأوراق مسافةَ عشرة أمتار أو خمسة عشر مترًا، حتى أُزيح ستارٌ عن يمينهما. وقالت مارج: «تفضَّلي بالدخول.»

كانت هناك ضابطةُ شرطة أخرى، آسيوية ولكن ليست يابانية، تنتظر في الغرفة. وكانت تضع مسدَّسًا في جِراب معلَّقٍ إلى خَصرها. أوضحت لها مارج قائلة: «إن الحراسة حول ناكامورا سان مكثَّفة خاصةً في الوقت الحالي. فمن فضلك اخلعي جميعَ ملابسِك وحليِّك.»

فسألتها كيتي: «جميع ملابسي؟! حتى الداخلية؟»

فأجابتها السيدة الأخرى: «كل شيء.»

طُويت جميعُ ملابس كيتي بشكلٍ أنيق ووُضعت في سلةٍ تحمل اسمها. واستقرَّت الحُلي في صندوق خاص. وبينما كانت كيتي عارية، تفحَّصت مارج جسدها جيدًا، وفي ذلك مواضع عِفَّتها. بل إنها فحصت فمَها من الداخل وهي تخفض لسانها ثلاثين ثانية تقريبًا. ثم سلَّما كيتي زيَّ كيمونو ملوَّنًا باللونين الأزرق والأبيض، وزوجَين من الأحذية اليابانية الخفيفة. ثم قالت مارج: «يمكنك الآن الذهابُ مع بانجورن إلى غرفة الانتظار الأخيرة.»

فالتقطت كيتي الظرفَ وهمَّت بالمغادرة، ولكن ضابطة الشرطة الآسيوية استوقفتها. وقالت: «سيظل كل شيء هنا.»

فقالت كيتي معترِضة: «ولكنَّ هذا اجتماع عمل. وما أريد مناقشته مع السيد ناكامورا يوجد في هذا الظرف.»

فتحت السيدتان الظرفَ وأخرجتا الأوراق. ثم رفعتا كلَّ ورقة على حدةٍ إلى أعلى لتتفحَّصاها، ثم مرَّرتا الأوراق ورقة ورقة عبْر آلة من آلات الفحص. وفي النهاية أعادتا وضْع الأوراق في الظرف، وأشارت إليها المرأة التي تُدعى بانجورن أن تتبَعها.

سارتا إلى غرفة الانتظار الأخيرة خمسة عشر مترًا أخرى عبْر الرواق. وللمرة الثانية كان على كيتي أن تجلس وتنتظر. وكانت تشعر أنها بدأت ترتجف. قالت لنفسها: «كيف ظننتُ أن الأمر سينجح؟ يا لي من غبية!»

وبينما هي جالسة، كانت تتوقُ بشدة إلى جُرعة من مخدِّر الكوكومو. ولم تتذكر أنها أرادت شيئًا من قبلُ إلى هذه الدرجة. طلبت كيتي من بانجورن أن تسمح لها بالذهاب إلى الحمَّام مرةً أخرى، خوفًا من أن تبدأ في البكاء. فاصطحبتها الضابطة إلى الحمَّام. واستطاعت كيتي على الأقل أن تغسل وجهها.

وعندما عادتا كان ناكامورا يقف بنفسه في غرفة الانتظار. قالت في نفسها: «تلك فرصتي.» شعرت أن قلبها سيقفز من صدرها. كان ناكامورا يرتدي زيَّ كيمونو باللونين الأصفر والأسود، منقوشًا بزهور زاهية الألوان. قال وهو يبتسم ابتسامةً حملت رغبته فيها: «مرحبًا يا كيتي. إنني لم أرَك منذ وقت طويل.»

فأجابته بصوتٍ متهدِّج: «مرحبًا يا توشيو سان!»

تبِعته كيتي إلى مكتبه وجلست متربِّعة أمام منضدة منخفضة. كان ناكامورا يجلس أمامها. ظلَّت بانجورن في الغرفة واقفةً بعيدًا في زاوية من الغرفة. فقالت كيتي لنفسها عندما لم تغادِر ضابطة الشرطة: «يا إلهي! ماذا أفعل الآن؟»

قالت كيتي لناكامورا بعد لحظةٍ واحدة وهي تحاول أن تبدوَ طبيعية: «أعتقد أنني تأخَّرت كثيرًا على تقديم تقرير عن العمل.» ثم أخرجت الأوراق من الظرف. وقالت وهي تعطي ناكامورا ورقة: «رغم الحالة الاقتصادية السيئة، فقد تمكَّننا من زيادة أرباحنا بنسبة عشرة بالمائة. وفي هذا الملخَّص سترى أنه برغم انخفاض عائدات فيجاس، فإن الربح من المناطق الصغيرة، حيث تكون الأسعار أقلَّ، قد ازداد زيادةً كبيرة. حتى في سان ميجيل …»

ألقى ناكامورا نظرةً سريعة على الورقة ثم وضعها على المنضدة. وقال: «لست في حاجة لتريني أي بيانات. فالجميع يعرف أنك سيدةُ أعمال بارعة.» ثم مدَّ يده إلى يساره والتقط علبة سوداء لامعة كبيرة الحجم. وقال: «لقد كان أداؤك رائعًا. ولولا هذه الأوقات العصيبة، لكنتِ حصلتِ بلا شك على علاوة كبيرة … وفي الوقت الحالي، أودُّ أن أمنحك هذه الهدية تعبيرًا عن تقديري.»

دفع ناكامورا العلبة عبْر المنضدة نحو كيتي.

قالت وهي تتأمَّل بإعجاب رسوماتِ الجبال والجليد المرصَّعة لغطاء: «شكرًا لك.» كانت العلبة جميلةً للغاية.

فقال وهو يمدُّ يده ويلتقط واحدة من الحلوى المغلَّفة في الوعاء على المنضدة: «افتحيها.»

فتحت كيتي العلبة. كانت مليئة بالكوكومو. فارتسمت على وجهها ابتسامةُ سعادة حقيقية. وقالت: «شكرًا لك يا توشيو سان. إنك لشديد الكرَم.»

فقال وابتسامةٌ عريضة تعلو وجهه: «يمكنك أن تجربيه. لن أعُدَّ ذلك إهانةً لي.»

تذوَّقت كيتي كميةً صغيرة من المسحوق على لسانها. فوجدت أنه عالي الجودة. ودون تردُّد أخذت بعض المسحوق من العلبة بإصبعها الخنصر ورفعته أمام ثقب أنفها الأيسر. وأغلقت الثقب الأيمن واستنشقت المسحوقَ بقوة. ثم التقطت أنفاسها بطيئةً عميقة في حين كان المسحوق يبدأ تأثيره. ثم ضحِكت. وقالت بخلاعة: «واو! إنه عالي الجودة.»

فقال ناكامورا: «كنت أعلم أنك ستحبينه.» ثم ألقى بغلاف الحلوى بكسل إلى سلة المهمَلات الصغيرة بجوار المنضدة. وتذكَّرت كيتي فرانتس وهو يقول لها: «إنه سيكون موجودًا في مكانٍ ما. مكان غير واضح. ابحثي في سلال المهملات. أو خلف الستائر.»

كان ديكتاتور عدن الجديدة يبتسم لها من الجانب المقابل من المنضدة. وسألها: «هل كان هناك شيء آخر؟»

التقطت كيتي نفسًا عميقًا وهي تبتسم. وقالت: «هذا فقط.» ومدَّت جسدها إلى الأمام ووضعت مِرفقيها على المنضدة وقبَّلته في شفتيه. شعرَت كيتي بعد ثوانٍ بيدِ الضابطة الخشنة على كتفيها. فقالت: «هذا تعبير بسيط عن شكري من أجل الكوكومو.»

لم تخطئ كيتي في حكمِها على ناكامورا. فقد كانت نظرةُ الرغبة في عينيه جليةً واضحة. لوَّح مشيرًا لبانجورن أن تبتعد. وقال لها وهو ينهض من جِلسته: «اتركينا وحدَنا.» وقال لكيتي: «تعالي إلى هنا يا كيتي. وامنحيني قُبلة حقيقية.»

تفحَّصت كيتي سلةَ المهملات الصغيرة وهي ترقص حول المنضدة. ولكن لم يكن بها سوى أغلفة الحلوى. ففكَّرت في نفسها: «بالطبع، كان هذا سيبدو واضحًا للغاية. الآن يجب أن أستغلَّ الموقف جيدًا.» وأخذت تثير ناكامورا بقُبلة تليها أخرى. داعبته بلسانها. ثم ابتعدت عنه بسرعة، وهي لا تزال تضحك. فبدأ ناكامورا يتبَعها.

فقالت وهي تتراجع باتجاه الباب: «كلا. ليس بعدُ ... لقد بدأنا لتونا.»

وقف ناكامورا في مكانه وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة. وقال: «لقد نسيتُ كم أنت بارعة. إن هؤلاء الفتيات محظوظات حقًّا لأنك معلِّمتهن.»

قالت كيتي وهي تغلق الباب: «يحتاج الأمر إلى رجلٍ غير عادي كي يُخرِج أفضلَ ما عندي.» ودارت عيناها بسرعة في أرجاء المكتب ووقعتا على سلة مهملات صغيرة أخرى في الركن القصي من الغرفة. فقالت لنفسها بسعادة: «سيكون هذا هو المكان الأمثل.»

فقالت كيتي: «هل ستكتفي بالوقوف هناك يا توشيو أم ستُحضِر لي شيئًا لأشربه؟»

قال ناكامورا وهو يتَّجه إلى خزانة الخمر المصنوعة يدويًّا أسفل النافذة الوحيدة في الغرفة: «طبعًا. ويسكي دون أي إضافات، ألم يكن كذلك؟»

قالت كيتي: «إن ذاكرتك فولاذية.»

فقال ناكامورا وهو يُعِدُّ الشرابَين: «إنني أتذكرك جيدًا. كيف يمكنني أن أنسى في تلك الأيام الألعابَ كلها، خاصة لعبة الأميرة والعبد؛ فقد كانت المفضَّلة لديَّ ... لقد حظينا بوقت ممتع معًا.»

فقالت كيتي في نفسها: «حتى أصررت على أن تُحضِر أخريات. بل وفعلت أشياءَ مثيرة للاشمئزاز أكثر. لقد أعلنتها صريحةً أنني لست كافية.» ثم صاحت فجأةً بلهجة متعجرفة: «أيها العبد! إنني ظمآنة أين مشروبي؟»

انعقد حاجبا ناكامورا بسرعةٍ قبل أن يحمل وجهه ابتسامة عريضة. وقال: «حسنًا يا سمو الأميرة.» ثم أحضر لها الشراب مُطأطئ الرأس. ثم انحنى. وقال بخنوع: «هل تأمرين بشيء آخر يا سمو الأميرة؟»

فأجابته كيتي وهي تأخذ الشراب بيدها اليسرى وتداعبه باليمنى: «نعم.» ورأته يغمض عينيه. فقبَّلته بعنف وهي تستمر في مداعبته.

ثم ابتعدت عنه فجأة. وخلعت رداءها الكيمونو ببطء وهو يراقبها. دنا منها. لكنها أشارت إليه بذراعيها ليقف. وقالت بلهجةٍ آمرة: «الآن أيها العبد، أطفئ هذه الأنوار، وارقُد هناك على ظهرك على السجادة إلى جوار المنضدة.»

أطاع ناكامورا الأمر. فسارت كيتي إلى حيث رقد. وقالت بلهجةٍ ألطف: «الآن، إنك تتذكَّر ما تحتاج إليه أميرتك أليس كذلك؟ ببطء، ببطء شديد، دون أي عجلة.» ثم داعبته وقالت: «أعتقد أنك جاهز ...»

قبَّلت كيتي ناكامورا وهي تداعب وجهه ورقبَته بأصابعها. وهمست في أذنه: «الآن أغلق عينيك وعُدَّ حتى عشرة، ببطء شديد.»

فبدأ هو يَعُد باليابانية وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه: «واحد، اثنان، ثلاثة ...»

وبسرعة مذهلة، اجتازت كيتي الغرفةَ إلى سلة المهملات البعيدة. ودفعت جانبًا بعض الأوراق فوجدت مسدسًا.

«... أربعة، خمسة، ستة ...»

كان قلبها يخفِق بعنف، فالتقطت المسدس واستدارت عائدة إلى ناكامورا.

«سبعة، ثمانية، تسعة ...»

قالت كيتي وهي تلصق فوَّهة المسدس بجبهته: «هذا من أجل ما فعلته بأبي.» ثم جذبت الزناد وناكامورا المذهول يفتح عينيه.

ثم قالت وهي تطلق ثلاث طلقات متتالية بسرعة على أعضائه التناسلية: «وهذا من أجل ما فعلته بي.»

اقتحم الحراسُ باب الغرفة في ثوانٍ. ولكنها كانت سريعة للغاية. فقالت بصوتٍ عالٍ وهي تقحم المسدس في فمِها: «وهذا من أجل ما فعلتِه بنفسك يا كيتي ويكفيلد.»

استيقظت إيلي عندما سمِعت صوت مفاتيح تدور في قُفل زنزانتها. ومسحت عينيها. وسألت: «أهذا أنت يا روبرت؟»

فأجابها: «نعم، يا إيلي.» ودلف إلى الزنزانة وهي تقف على قدميها. أحاط روبرت إيلي بذراعيه واحتضنها بقوة. وقال: «أنا سعيد جدًّا لرؤيتك. لقد أتيت بمجرد أن أخبرني هيربرت أن الحراس تركوا قِسم الشرطة.»

قبَّل روبرت زوجتَه الحيرى. وهو يقول: «أنا آسف جدًّا يا إيلي. لقد كنت مخطئًا، مخطئًا خطأً كبيرًا.»

استغرقت إيلي بضع ثوانٍ حتى تتمالك نفسَها. وسألت: «تركوا القِسم؟! لماذا يا روبرت؟ ماذا يحدُث؟»

قال بأسًى: «فوضى شاملة وعارمة.» بدت عليه الهزيمة بشدة.

فقالت إيلي وقد شعرت بالخوف فجأة: «ماذا تعني يا روبرت؟ نيكي بخير، أليس كذلك؟»

«إنها بخير يا إيلي ... ولكن الناس يموتون جماعات ... ونحن لا نعرف السبب. لقد تدهورت صحةُ إد ستافورد منذ ساعة ومات حتى قبل أن أفحصه ... إنه وباء رهيب من نوعٍ ما.»

ففكَّرت إيلي على الفور: «كائنات الأوكتوسبايدر. لقد بدءوا أخيرًا يردُّون على الهجوم.» واحتضنت زوجَها بقوة وهو يبكي. وبعد عدة ثوانٍ تراجع وقال: «أنا آسف يا إيلي ... لقد عمَّت البلبلة ... هل أنت بخير؟»

«أنا بخير يا روبرت ... فلم يأتِ أحد للتحقيق معي أو لتعذيبي منذ عدة أيام. ولكن أين نيكي؟»

«إنها مع بريان وولش في منزلنا. هل تذكرين بريان، صديقَ باتريك الذي تعرَّفه من خلال الكمبيوتر؟ لقد كان يساعدني في الاعتناء بنيكي منذ أن رحلت ... وجد المسكين والديه جثتَين أول من أمس عندما استيقظ من النوم.»

خرجت إيلي مع روبرت من قسم الشرطة. كان لا يتوقَّف عن الحديث وينتقل من موضوعٍ إلى آخر، ولكن إيلي استطاعت أن تفهم بعض الأشياء من حديثه غيرِ المترابط. ووفقًا لما قاله روبرت، هناك أكثرُ من ثلاثمائة حالة وفاة غامضة في عدن الجديدة في اليومين الماضيين فقط. ولا يبدو أن الأمر قد يتوقف. ثم تمتم هو: «إنه لأمرٌ غريب. لم يمُت سوى طفل واحد ... معظم الضحايا من كبار السن.»

وأمام قسم شرطة بوفوا، كان هناك سيدةٌ في منتصف الثلاثينيات من عمرها تعرَّفت روبرت فتشبَّثت به. وصاحت بصوتٍ حادٍّ قائلة: «يجب أن تأتيَ معي أيها الطبيب على

الفور. لقد فقد زوجي وعيه ... لقد كان جالسًا يتناول طعام الغداء وبدأ يشتكي من صداع. وعندما عُدت من المطبخ، كان قد خرَّ ساقطًا على الأرض ... أخشى أنه قد مات.»

فاستدار روبرت إلى إيلي قائلًا: «أرأيت؟»

فقالت إيلي: «اذهب معها، ثم اذهب إلى المستشفى إذا اضطُررت ... سأذهب إلى المنزل وأعتني بنيكي. وسننتظرك.» ثم مالت عليه وقبَّلته. وكانت على وشْك أن تخبره شيئًا ما عن كائنات الأوكتوسبايدر، ولكن قرَّرت ألا تفعل.

صاحت نيكي: «أمي، أمي!» ثم ركضت مجتازةً الرَّدهة، وقفزت بين ذراعي إيلي. وقالت: «لقد افتقدتك كثيرًا يا أمي.»

فقالت إيلي: «وأنا أيضًا افتقدتك يا ملاكي. ماذا كنت تفعلين؟»

أجابت نيكي: «كنت ألعب مع بريان. إنه رجلٌ لطيف للغاية. إنه يقرأ لي ويعلِّمني جميع العمليات الحسابية.»

ظهر براين وولش الذي كان في بداية العشرينيات من عمره من زاوية الغرفة وهو يحمل كتابًا للأطفال وقال: «مرحبًا يا سيدة إليانور. أنا لا أعرف إن كنتِ تتذكرينني ...»

«بالطبع أتذكَّرك يا بريان. ويمكنك أن تناديني بإيلي فقط ... وأنا أودُّ حقًّا أن أشكرك لأنك ساعدت في الاعتناء بنيكي ...»

«هذا من دواعي سروري يا إيلي. إنها طفلةٌ رائعة ... وقد صرفت ذهني عن التفكير في الكثير من الأمور المؤلمة ...»

قاطعَته إيلي: «لقد أخبرني روبرت عن والديك. وأنا آسفة بشدة لِما حدَث لهما.»

هزَّ بريان رأسه في أسًى. وقال: «لقد كان أمرًا غريبًا للغاية. فقد كانا بصحةٍ ممتازة الليلة السابقة عندما أويا إلى الفراش.» ثم اغرورقت عيناه بالدموع. وقال: «بدت عليهما السَّكينة البالغة ...»

ثم استدار مبتعِدًا وسحبَ منديلًا ليمسح عينيه وقال: «العديد من أصدقائي يقولون إن هذا الوباء، أو أيًّا كان هذا الشيء، بسبب كائنات الأوكتوسبايدر. هل تظنين أنها قد تكون ...؟»

قالت إيلي: «هذا محتمَل. ربما نكون قد ضغطنا عليهم كثيرًا.»

فسألها بريان: «وهل سنموت جميعًا؟»

أجابته إيلي: «لا أعلم. حقًّا لا أعلم.»

وقفا يخيِّم عليهما صمتٌ مطبِق عدة ثوانٍ. ثم قال بريان فجأة: «على الأقل تخلَّصَت شقيقتك من ناكامورا.»

لم تكن إيلي واثقةً من أنها سمِعت ما قيل على نحوٍ صحيح. فسألته: «ما الذي تتحدَّث عنه يا بريان؟»

«ألم تسمعي عمَّا حدَث؟ منذ أربعة أيام اغتالت كيتي ناكامورا ... ثم قتلت نفسَها.»

صُعقت إيلي لما سمِعت. فأخذت تحدِّق في بريان في استنكار تامٍّ. قالت نيكي لوالدتها: «لقد أخبرني أبي عما حدَث لخالتي كيتي أمس. وقال إنه يودُّ أن يكون مَن ينبئني بالخبر.»

لم تستطِع إيلي التفوُّه بكلمة. وكان رأسها يدور. ولكنها تمكَّنت من توديع بريان وشكره مرةً أخرى. ثم جلست على الأريكة. فاعتلتها نيكي إلى جوار والدتها ووضعت رأسها على فخِذها. وجلستا معًا في صمت وقتًا طويلًا.

وفي النهاية سألت إيلي ابنتها: «وكيف كان والدك طَوال المدة التي كنت فيها بعيدًا؟»

فأجابت الفتاة الصغيرة: «بخير. فيما عدا ذلك الورم.»

فسألتها إيلي: «أيُّ ورم؟»

فقالت نيكي: «ذلك الورم على كتفه. إنه بحجم قبضة يدي. لقد رأيته عندما كان يحلِق ذقنه منذ ثلاثة أيام. فقال إنها من المؤكَّد لدغة عنكبوت أو شيء من هذا القبيل.»

١٠

قالت نيكول: «سأذهب أنا وبينجي إلى المستشفى.»

لم يكن الآخرون قد انتهَوا بعدُ من إفطارهم. فقالت إيبونين: «رجاءً اجلسي يا نيكول. على الأقل اشربي قهوتك.»

أجابتها: «شكرًا. لكني وعدتُ الدكتورة بلو بأننا سنذهب مبكرًا اليوم. فهناك كثيرٌ من الإصابات جرَّاء غارة أمس.»

قال باتريك: «ولكنك تثقلين كاهلك بالعمل يا أمي؟ ولا تنالين ما يكفي من النوم.»

قالت نيكول: «هذا يساعدني كي أظلَّ مشغولة. فبهذه الطريقة لا يكون لدي أيُّ وقت للتفكير ...»

قال بينجي وهو يدلِف إلى الغرفة ويعطي نيكول معطفِها: «هيا بنا يا أمي.» وبينما كان يقف إلى جوار أمِّه ابتسم للتوءمين اللذين كانا هادئين على غير عادتهما ولوَّح لهما. فتلاعب جاليليو بملامح وجهه، مما أضحك بينجي وكيبلر.

فور أن غادرت نيكول قالت ناي بحنان: «إنها لم تسمح لنفسها بعدُ بالحزن على موت كيتي. وهذا يقلقني. فعاجلًا أو آجلًا ...»

قالت إيبونين: «إنها خائفة يا ناي. ربما من التعرُّض لأزمة قلبية أخرى. وربما خائفة من أن تفقد صوابها ... إن نيكول ترفض تصديقَ ما حدَث.»

قال ماكس: «ها أنت ذي يا فرنسيتي تعودين إلى التحليل النفسي اللعين مرةً أخرى. لا تقلقوا على نيكول ... إنها أقوى من أيٍّ منا. وستبكي على موت كيتي عندما تكون مستعدة لذلك.»

«لم تذهب والدتي إلى غرفةِ العَرض منذ أن تعرَّضت للأزمة القلبية. وعندما أخبرتها الدكتورة بلو باغتيال كيتي لناكامورا وانتحارها، كنت واثقًا من أن أمي ستود أن ترى بعض شرائط الفيديو ... لترى كيتي للمرة الأخيرة ... أو على الأقل لتطمئن على إيلي ...»

قال ماكس معلِّقًا: «إن أفضل شيء فعلَته أختك في حياتها هو قتْلُها لذلك الوغد. ومهما يكن ما يقوله أي شخص عنها فقد كانت شُجاعة.»

قال باتريك بحزن: «امتلكت كيتي كثيرًا من الصفات الرائعة. لقد كانت عبقرية، وكانت فاتنة ... ولكن كان لديها ذلك الجانب الآخر في حياتها.»

خيَّم صمتٌ قصير على الجلوس إلى مائدة الإفطار. وكانت إيبونين على وشْك أن تقول شيئًا ما عندما بدا ضوء ساطع عند باب المنزل الأمامي، فقالت وهي تهبُّ واقفة: «آه! سأنقل ماريوس إلى المنزل المجاور. ستبدأ الغارات من جديد.»

التفتت ناي إلى جاليليو وكيبلر. وقالت: «انتهيا من طعامكما بسرعةٍ يا أولاد ... سنذهب إلى المنزل الخاص الذي أعدَّه لنا عمُّكم ماكس.»

عبس جاليليو. وقال متذمرًا: «ليس مرة أخرى.»

لم تكن نيكول وبينجي قد وصلا بعدُ إلى المستشفى عندما بدأت أولى القنابل تسقط عبْر القبَّة التي طالها الدمار. وكان البشر يشنُّون غارات مكثفة يوميًّا. وقد دُمِّرَ حتى ذلك الوقت أكثرُ من نصف سقف مدينة الزمرد. وسقطت القنابل على كل جزء من المدينة تقريبًا.

ألقت عليهما الدكتورة بلو التحية، وأرسلت بينجي على الفور إلى منطقة الاستقبال. وقالت لنيكول: «الوضع مريع. لقد توفي أكثرُ من مائتين جرَّاء غارات أمس فقط.»

سألتها نيكول: «وماذا يحدُث في عدن الجديدة؟ كنت أظن أنه الآن ...»

أجابتها الدكتورة بلو: «إن الكائنات الدقيقة تعمل بأبطأ مما توقعنا إلى حدٍّ ما. ولكن ظهر تأثيرها أخيرًا. وتقول مسئولة الأمثلية إن الغارات ستتوقف خلال يوم أو اثنين على الأكثر. وتضع هي ومجلسها الآن خططًا للمرحلة القادمة ...»

قالت نيكول وهي تجبر نفسَها على عدم التفكير كثيرًا فيما يحدُث في عدن الجديدة: «من المؤكد أن سكان عدن الجديدة لن يستمروا في الحرب، ولا سيما بعد موت ناكامورا.»

قالت الدكتورة بلو: «نرى أنه يجب أن نستعد لأي احتمالات. ولكني بالطبع آمُل أن تكوني محقة.»

وفي طريقهما وهما تجتازان الرواق اقتربت منهما أوكتوسبايدر طبيبة أخرى، تلك التي يطلق عليها بينجي اسم بيني، بسبب العلامة الدائرية التي تشبه عملةَ عدن الجديدة الموجودة إلى يمين شقِّ رأسها مباشرة. وصفت بيني للدكتورة بلو المناظر البشعة التي رأتها صباح ذلك اليوم في الموطن البديل. استطاعت نيكول أن تفهم معظمَ ما كانت بيني تقول، ليس لأن الأوكتوسبايدر أعادت ما قالته عدة مرات فحسب، بل لأنها استخدمت عباراتٍ بسيطة للغاية في لغتهم أيضًا.

وأخبرت بيني الدكتورة بلو أن هناك حاجةً شديدة وفورية للأطباء والتجهيزات لمساعدة الجرحى في الموطن البديل. فحاولت الدكتورة بلو أن تشرح لبيني أنه لا يوجد ما يكفي من الأطباء والممرضين لرعاية كل المرضى في المستشفى نفسِه.

قالت نيكول: «يمكنني أن أذهب مع بيني بضع ساعات هذا الصباح، إذا كان ذلك سيساعدكم.»

نظرت الدكتورة بلو نظرةً سريعة إلى صديقتها البشرية. وسألتها: «هل أنتِ واثقة من أنك تستطيعين فِعل هذا يا نيكول؟ إنني أعلم أن الأمر شنيع هناك.»

أجابت نيكول: «إنني أزداد قوةً في كل يوم يمر عليَّ. وأريد أن أكون حيثما تكون الحاجة إليَّ أشد.»

قالت الدكتورة بلو لبيني إن نيكول ستكون قادرةً على مساعدتها في الموطن البديل مدةَ تيرت على الأكثر، على أن تتحمَّل بيني مسئوليةَ إعادة نيكول إلى المستشفى مرةً أخرى. فوافقت بيني وشكرَت نيكول على تطوُّعها للمساعدة.

وما إن استقلَّتا العربةَ حتى شرحت بيني لنيكول ما يحدُث في الموطن البديل.

قالت: «يُنقل الجرحى إلى أي مبنًى لم يُدمر بحيث يُجرى فحصهم ومعالجتهم بأدوية الطوارئ إذا لزم الأمر، ثم يحدَّد موعد لنقلهم إلى المستشفى ... إن الموقف يزداد سوءًا يومًا بعد يوم. العديد من سكان الموطن البديل فقدوا الأمل بالفعل.»

ولعل ما شاهدتاه أثناء رحلتهما بالعربة حملَ القدْر نفسَه من الإحباط. فعلى الضوء الذي تشعه اليراعات القليلة المتناثرة، رأت نيكول الخراب في كل مكان. وكان على الحراس أن يدفعوا جانبًا دستتين من سكان الموطن البديل الذين يثيرون جلبة لدخول المدينة لفتح البوابة الجنوبية، وكان بعضهم مصابين. وبعد أن عبَرت عربتهم البوابة ازدادت مشاهدُ الدمار من حولهما. وكان المسرح الذي شاهدت فيه نيكول وأصدقاؤها المسرحيةَ الأخلاقية قد انهار. وأكثر من نصف المباني بالقُرب من حي الفن قد سُويت بالأرض. بدأت نيكول تشعر بالغثيان. وفجأة أصابت قنبلةٌ أعلى عربتهم مباشرةً.

دفع الانفجار نيكول خارج العربة إلى الشارع. وجاهدت لتقف على قدميها ببطء وهي تشعر بدُوار. وتحطَّمت العربة إلى جزأين منبعجين. ودفنت بيني والأوكتوسبايدر الطبيبة الأخرى تحت الحُطام. حاولت نيكول في عدة دقائق أن تصل إلى بيني، لكنها أدركت في النهاية أنه لا فائدةَ من ذلك. وانفجرت قنبلة أخرى بالقرب منها. فجذبت نيكول حقيبتَها الطبية الصغيرة التي قذف بها الانفجار إلى الشارع بجوارها، وسارت وهي تترنَّح إلى ممر جانبي صغير بحثًا عن مأوًى.

كان هناك أوكتوسبايدر وحيدٌ يرقد دون حَراك في منتصف الممر الجانبي. فانحنت نيكول نحوه وأخرجت مصباحها اليدوي من حقيبتها لتفحصه. ولم يكن هناك أيُّ نشاط في عدسة الأوكتوسبايدر. فأدارت الأوكتوسبايدر على جانبه ورأت على الفور الجرح في مؤخرة رأسه. وكانت كتلة ضخمة من مادة متغضنة قد تسرَّبت من الجُرح إلى الشارع. فارتعد جسدُ نيكول للمشهد، وكادت أن تتقيأ. ونظرت حولها سريعًا بحثًا عن شيء تغطي به الأوكتوسبايدر الميت. إلا أن قنبلةً ضربت مبنًى لا يبعُد أكثرَ من مائتي متر عنها. فنهضت نيكول واستكملت سيرها.

وجدت نيكول بناءً صغيرًا على الجانب الأيمن من الممر، ولكن كان يشغله خمسة أو ستة من الحيوانات الشبيهة بالنقانق البولندية. فطاردتها الحيوانات لتبعدها، وأخذ أحدها يطاردها محاولًا أن يعَضَّ كعبها لمسافة عشرين أو خمسة وعشرين مترًا. وفي النهاية عاد الحيوان وتوقَّفت نيكول كي تلتقط أنفاسها. وقضت بضع دقائق تفحص نفسها، فاكتشفت أنها لم تُصب بجروح خطيرة، ليس إلا بضع كدمات متفرقة، وهو ما أثار دهشتها.

توقَّف القصف فترةً. ساد فيها الموطنَ البديل هدوءٌ مخيف. وأمام نيكول على بُعد مائة متر من مكانها بالشارع يراعة ترف حول مبنًى لم يصبه الدمار. رأت نيكول اثنين

من كائنات الأوكتوسبايدر أحدهما مصاب بوضوح يدخلان المبنى. فقالت في نفسها: «لا بد أن هذا أحد المستشفيات المؤقتة.» وبدأت تسير في اتجاه ذلك المبنى.

وبعد بضع ثوانٍ سمِعت نيكول صوتًا لا تخطئه الأذن، صوتًا خفيضًا جدًّا بالكاد سمِعته. في البداية لم تتعرَّف ماهيةَ الصوت، ولكن في المرة الثانية سمِعت نيكول صوت البكاء، فتوقفت في الشارع فجأة. سرَت قشعريرة باردة في جسدها. وفكَّرت في نفسها وقد تسمَّرت قدماها: «إنه صوتُ بكاء طفل.» ولم تسمع نيكول شيئًا لعدة ثوانٍ. فسألت نفسها: «هل من الممكن أن أكون قد تخيلته.»

جاهدت نيكول لتخترق بعينيها الظلامَ شبه الدامس إلى يمينها، إلى حيث تظن أنه مصدرُ البكاء. واستطاعت أن ترى سياجًا من الأسلاك، سقط أغلبه على الأرض، على بُعد أربعين مترًا في ممرٍّ آخرَ يقطع الممر الذي تقف فيه. نظرت سريعًا مرةً أخرى إلى المبنى المجاور. قالت في نفسها: «الأوكتوسبايدر بالداخل بحاجةٍ لمساعدتي. لكن كيف لي ألا ...» عاد صوت البكاء يدوي في الظلام مرةً أخرى بصوتٍ أوضح هذه المرة، وهو يعلو وينخفض مثل بكاء طفل بشري بائس.

هُرعت نيكول إلى السياج المتداعي. فوجدت لافتةً مهشَّمة مكتوبةً بالألوان ملقاة على الأرض أمامها. انحنت نيكول على ركبتيها والتقطت جزءًا من اللافتة، كُتب عليه بألوانِ كائنات الأوكتوسبايدر «حديقة الحيوانات»، أخذ قلبها يدقُّ بعنف. وتذكَّرت: «لقد سمِع ريتشارد بكاءَ الطفل عندما كان في حديقة الحيوانات.»

وقع انفجارٌ آخرُ على بُعد كيلومتر إلى يسارها ثم آخرُ أقرب إليها. لقد عادت طائرات الهليكوبتر إلى غارةٍ أخرى. وأصبح بكاء الطفل متواصلًا. حاولت نيكول أن تستمر في التحرُّك في اتجاه البكاء، ولكن كانت تتقدَّم ببطء. فقد كان من الصعب عليها تمييزُ صوت البكاء من صوت ضوضاء الانفجارات.

انفجرت قنبلةٌ أخرى أمامها على بُعد أقل من مائة متر. وفي الهدوء الذي تبِع ذلك لم تسمع نيكول شيئًا. فصرخ قلبها: «لا! ليس الآن. ليس بعد أن اقتربت لهذه الدرجة.» ثم دوَّى انفجارٌ آخرُ بعيدًا، تبِعته فترةٌ أخرى من الصمت. وتذكَّرت أنها قالت لريتشارد: «قد يكون نوعًا ما من الحيوانات. فربما هناك في مكانٍ ما من الكون كائنٌ صوته يبدو مثل صوت الطفل البشري.»

لم تسمع نيكول إلا صوت أنفاسها. سألت نفسَها: «ماذا أفعل الآن؟ هل أتابع البحثَ وآمُل بطريقةٍ ما أن ... أم أعود أدراجي ...»

عاد صوت البكاء يشقُّ السكون ليقطع حبلَ أفكارها. فتحرَّكت نيكول بأقصى سرعة جَرؤت عليها. وظلت تقول لنفسها وقلب الأم بداخلها ينفطر من ذلك البكاء اليائس: «كلا! لا مجال للخطأ. لا يمكن أن يكون هناك أيُّ صوت آخر يشبه بكاء الأطفال هكذا.» كان هناك سياج مهدَّم يمر بطول الجانب الأيمن من الممر الضيق. عبَرته نيكول، وفي الظلال أمامها رأت حركةً ما.

كان الطفل الباكي يجلس على الأرض بجوار جسد بشري يخلو من الحياة، على الأرجح والدته. كانت المرأة ترقد ووجهها لأسفل في الوحل. وكانت الدماء تغطي النصفَ السفلي من جسدها. وبعد أن تأكَّدت نيكول سريعًا من أن الأم تُوفيت بالفعل، انحنت بحرص والتقطت الطفلة الصغيرة ذات الشعر الأسود. فاندهشت الطفلة من ذلك التصرُّف، وقاومتها وشقَّت صيحتُها العالية سكون الليل. فوضعتها نيكول على كتفها وأخذت تربِّت برفق على ظهرها. وقالت والطفلة مستمرة في الصراخ: «لا بأس، لا بأس، سيكون كل شيء على ما يرام.»

وفي الضوء الخافت استطاعت نيكول أن ترى ملابسَ الطفلة الغريبة، التي لا تتعدى كيسين من الخيش الثقيل بهما فتحاتٌ في الأماكن المناسبة، وقد كانت ملطَّخة بالدماء. فحصَت نيكول الطفلة سريعًا رغم اعتراضها وضرباتها. بدَت الطفلة الصغيرة بخير، فيما عدا جُرح في ساقها والقاذورات التي تغطي جسدَها بالكامل. وقدَّرت نيكول عمر الطفلة بعام.

وبرفقٍ شديد وضعت نيكول الطفلةَ على قطعة قماش نظيفة أخرجتها من حقيبتها الطبية. وبينما كانت نيكول تنظِّف جسدَ الطفلة شعرت بأنها ترتعش وترتجف في كل مرة تنفجر فيها قنبلة بجوارهما. فحاولت أن تهدئ الطفلة فأخذت تغنِّي لها بعض أغاني هدهدة الأطفال. وبينما كانت نيكول تضمِّد جُرح ساقها توقَّفت الفتاة عن البكاء مؤقتًا وحدَّقت في نيكول بعينيها الزرقاوين الواسعتين في دهشة. ولم تعترض حتى عندما أخذت نيكول قطعةَ تنظيف رطبة وبدأت تمسح الوحل عن جِلدها. وبعدها بقليل عندما كانت نيكول تنظِّف أسفل قميص الفتاة الخيشي وجدت على صدر الفتاة الضئيل عِقدًا صغيرًا مربوطًا بحبل حول رقبتها، مما أثار دهشتها، وبدأت الفتاة تبكي مرةً أخرى.

ضمَّت نيكول الفتاة الباكية بين ذراعيها ونهضت. وأخذت تنظر حولها بحثًا عن كوخٍ أو أي مأوًى وفكَّرت في نفسها: «إنها جائعة ولا شك. لا بد أن هناك بعض الطعام في مكانٍ قريب من هنا.» وكان على بُعد خمسة عشر مترًا صخرةٌ بارزة داكنة اللون، من الواضح أنها كانت تشرف على منطقةٍ مغلقة قبل أن تبدأ غارات القصف، وجدت نيكول أسفلها

وعاءَ ماء كبيرًا وبعضَ الأغراض الصغيرة التي لم تعرف استخدامها، وحاشية نوم رقيقة وأكياس خيش عديدة صُنعت منها ملابس الطفلة والمرأة. لم تجِد أيَّ طعام. حاولت نيكول أن تجعل الفتاة تشرب من الوعاء. ولكن محاولاتها لم تنجح، فطرأت فكرة أخرى على ذهنها.

عادت إلى جثةِ الأم الميتة، وفحصتها لتنتهي إلى أنه لا يزال بعض اللبن موجودًا في ثدي الأم. فمن الواضح أنها قد ماتت لتوها. رفعت نيكول جذع الأم وجلست خلفها على الأرض لتسند جسد الأم على جسدها، ورفعت الطفلة إلى ثدي أمها وشاهدتها وهي تَرضع.

رضعت الطفلة بنهمٍ. وفي منتصف الرَّضاعة أضاء انفجار قنبلة لترى نيكول ملامح وجه الأم. كان الوجه نفسه الذي رأته في الرسم في ميدان الفنانين. فقالت في نفسها: «إذن فإنني لم أكن أتخيل.»

أخلدت الفتاة إلى النوم عندما انتهت من الرَّضاعة. فلفَّت نيكول جسدَها في أحدِ أكياس الخيش المتبقية ووضعتها برفقٍ على الأرض. وبعدها فحصت نيكول الأم الميتة بدقةٍ للمرة الأولى؛ وبناءً على الجروح الغائرة في أسفل وسط المرأة وفخذها الأيمن، استنتجت نيكول أن شظيتين كبيرتين من قنبلة واحدة قد اخترقتا جسدَ المرأة وأنها نزفت حتى الموت نتيجةً لذلك. وفي حين كانت تفحص جُرح الفخذ شعَرت نيكول بنتوء غريب في رِدْف المرأة الأيمن. فدفعها فضولها إلى رفعِ جسد المرأة قليلًا عن الأرض ومرَّرت أصابعها فوق النتوء وحوله. فبدا كأنه جسمٌ صلب زُرِع أسفل جلدها.

أحضرت نيكول حقيبتها الطبية واستخدمت مقصَّها الصغير لتُحدِث فتحًا في أحد جوانب النتوء. وجذبت جسمًا بدا في الضوء الخافت فضي اللون. كان له حجم السيجار الصغير وشكله ويصل طوله إلى اثني عشر أو خمسة عشر سنتيمترًا وقطره سنتيمترين تقريبًا. أدارت نيكول الحائرةُ الجسمَ في يدها اليمنى وحاولت أن تتخيَّل ماهيته. كان أملسَ للغاية ويخلو تمامًا من أي كسور مرئية. قالت نيكول: «إنه على الأرجح جهازُ تمييز من نوعٍ ما لحديقة الحيوانات»، في تلك اللحظةِ انفجرت قنبلةٌ بالقرب منها استيقظت الطفلة النائمة.

كانت القنابل تنهال بكثافةٍ متزايدة من السماء في اتجاه مدينة الزمرد. وبينما كانت نيكول تهدئ الطفلة فكَّرت فيما ينبغي أن تفعله في الخطوة التالية. ارتفعت كرةٌ ضخمة من النار إلى السماء بسرعةٍ عندما أحدثَت واحدة من القنابل المتساقطة انفجارًا أكبرَ على الأرض. وعلى الضوء المؤقت للانفجار تمكَّنت نيكول من أن ترى أنها والطفلة أعلى تلٍّ

صغير، قريب للغاية من مشارف الجزء المتحضِّر من الموطن البديل. وكان السهل الرئيسي يبدأ على بُعد لا يزيد عن مائة متر إلى الغرب.

وقفت نيكول والفتاة على كتفِها. وقد أوشك الإنهاك أن ينال منها تمامًا. فقالت بصوتٍ عالٍ للطفلة وهي تشير في اتجاه السهل الرئيسي: «سنذهب إلى هناك، بعيدًا عن القنابل.» وألقت نيكول ذلك الجسمَ الأسطواني في حقيبتها الطبية. وجذبت كيسين من أكياس الخيش النظيفة وفكَّرت وهي تلقي بهما على كتفيها قائلة لنفسها: «قد يكون لهما نفعٌ في البرد.»

استغرقت نيكول ساعةً وهي تسير مجهَدة بالطفلة وأكياس الخيش حتى تصل إلى بقعة من السهل الرئيسي ظنَّت أنها بعيدة بما يكفي عن القنابل. فرقدت على الأرض على ظهرها وهي تحتضن الطفلة ولفَّت أكياس الخيش حولهما. وسريعًا ما ذهبت في سبات عميق.

استيقظت نيكول على حركة الفتاة. وقد كانت تحلُم أنها تتحاور مع كيتي، ولكنها لم تستطِع تذكُّر ماذا كانتا تقولان. فاعتدلت جالسة وغيَّرت ملابس الطفلة باستخدام قطعة قماش نظيفة من حقيبتها الطبية. حدَّقت الطفلة بفضول في نيكول بعينيها الزرقاوين الواسعتين. فقالت نيكول بابتهاج: «صباح الخير أيتها الفتاة الصغيرة، أيًّا كان اسمك.» فابتسمت الفتاة للمرة الأولى.

لم يعُد الظلام يخيِّم على المكان. فقد كانت أسراب اليراعات تضيء مدينةَ الزمرد من بعيد، وسمحت الفتحات الكبيرة في القبة بنفاذ الضوء لينير المناطق المحيطة من راما. ففكَّرت نيكول عندما رأت الضوء: «لا بد أن الحرب انتهت، أو على الأقل توقَّفت الغارات مؤقتًا. وإلا لما استنارت المدينة إلى هذا الحد.»

قالت نيكول وهي تقف وتمدِّد جسدها بعد أن وضعت الطفلة بحرص على أحد الأكياس النظيفة: «حسنًا يا أجدد أصدقائي، لنرَ المغامرات التي تنتظرنا اليوم.»

بدأت الفتاة تزحف بسرعة على الكيس إلى وحلِ السهل الرئيسي. فالتقطتها نيكول ووضعتها مرةً أخرى على منتصف الكيس. ومرةً أخرى عادت الفتاة لتزحف باتجاه الوحل. فقالت نيكول وهي تضحك وتلتقط الفتاة مرةً أخرى: «توقفي! ها قد أمسكت بك أيتها الصغيرة.»

كان من الصعب على نيكول أن تجمع أغراضهما وهي تحمل الطفلةَ بين ذراعيها. ولكنها نجحت في النهاية وبدأت تسير ببطء في اتجاه العمار. كانوا على بُعد ثلاثمائة متر

تقريبًا من أقرب المباني إليهما في الموطن البديل. وفي أثناء سيرها قرَّرت نيكول أن تذهب إلى المستشفى أولًا لتلتقي بالدكتورة بلو. وعلى افتراض صحة استنتاجها بأن الحرب قد انتهت أو على الأقل توقَّفت مؤقتًا، قرَّرت نيكول أن تقضي الصباح في محاولةِ اكتشاف كل شيء عن الطفلة. أخذت نيكول تضع الأسئلةَ في عقلها: «مَن هما أبواها؟ ومنذ متى اخْتُطِفا من عدن الجديدة؟» كانت غاضبة من كائنات الأوكتوسبايدر. قالت في نفسها: «لمَ لمْ تخبروني أن هناك بشرًا آخرين في مدينة الزمرد؟» وكانت تعتزم أن تسأل مسئولةَ الأمثلية: «كيف يمكنكم الدفاعُ عن الطريقة التي عاملتم بها هذه الطفلةَ ووالدتها؟»

كانت الفتاة، التي استيقظت، تأبى أن تستكين بين ذراعي نيكول. فتعبت نيكول. وقرَّرت أن تتوقف للراحة. وبينما كانت الطفلة تلعب في الوحل، حدَّقت نيكول في الدمار أمامها في الموطن البديل وفي الجزء الذي تراه من بعيد من مدينة الزمرد. وشعرت فجأةً بحزن شديد. وسألت نفسها: «لمَ كل هذا؟» وتكوَّنت في ذهنها صورةُ كيتي ولكنها نحَّتها جانبًا واختارت أن تجلس وتلاعب الطفلة. وبعد خمس دقائق سمِعتا صوت صافرة.

كان الصوت يأتي من السماء، من راما نفسِها. فهبَّت نيكول واقفة على قدميها وخفقات قلبها تتزايد بسرعة رهيبة. شعرت نيكول بألمٍ خفيف في صدرها ولكن ما كان شيء ليقلل من سعادتها. وصاحت للطفلة: «انظري! انظري إلى هناك! في الجنوب!»

في التجويف الجنوبي البعيد كانت هناك شرائط من الضوء الملوَّن تدور حول قمة قرن الكبير؛ ذلك البرج الحلزوني الشاهق الذي يرتفع على طول محور دوران السفينة الفضائية الأسطوانية. اندمجت الشرائط وكوَّنت حلقة حمراء بالقرب من قمة البرج. وبعد لحظات حامت الحلقة الحمراء الضخمة ببطء إلى الشمال على طول محور راما. وأخذ مزيدٌ من الألوان يتراقص حول القرن الكبير حتى كوَّنت الألوان حلقةً ثانية برتقالية اللون تبِعت بدورها الحلقةَ الحمراء إلى الشمال في سماء راما.

استمرَّ صوت الصافرة. ولم يكن الصوت حادًّا أو مزعجًا. وبدا لنيكول كالموسيقى. فقالت للفتاة بابتهاج: «شيء ما سيحدُث، شيء جيد!»

لم يكن لدى الفتاة الصغيرة أدنى فكرة عما يحدُث ولكنها ضحِكت من قلبِها عندما التقطتها نيكول وأخذت تداعبها بقذفها إلى الأعلى. وكانت تلك الحلقات تأسِر عينَ الفتاة. وتكوَّنتا حلقتان إحداهما صفراء والأخرى خضراء لتطوفا سماء راما المظلِمة، ووصلت الحلقة الحمراء في مقدِّمة الحلقات لتوها إلى البحر الأسطواني.

ومرةً أخرى قذفت نيكول الطفلةَ مسافة قدم أو اثنين في الهواء. ولكن هذه المرة خرج عِقد الفتاة من أسفل قميصها وكاد أن يُفلِت من رأسها. فالتقطت نيكول الفتاةَ

واحتضنتها. وقالت: «لقد كدتُ أنسى أمر عِقدك. والآن في هذا الضوء اللطيف، هل لي أن ألقيَ نظرة؟»

ضحِكت الفتاة ونيكول تسحب حبلَ العِقد فوق رأسها. كان في نهاية العِقد قطعةٌ خشب دائرية قطرها أربعة سنتيمترات منحوت عليها رسمٌ لرجل رافع ذراعيه ومحاط من جميع الجوانب بما يبدو أنه نيران. تذكَّرت نيكول أنها رأت نحتًا خشبيًّا مماثلًا قبل عدة سنوات مضت، على مكتب مايكل أوتول في غرفته داخل المركبة نيوتن. فقالت لنفسها وهي تدير النحتَ في يدها: «إنه القديس مايكل قديس سيينا.»

وعلى ظهرِ القطعة الخشبية وجدت الاسم ماريا مكتوبًا بعنايةٍ بحروفٍ صغيرة. فقالت نيكول للفتاة: «لا بد أنه اسمك. ماريا … ماريا.» ولم تكن هناك أيُّ إشارة تدُل على أن الفتاة قد انتبهت للاسم. وبدأت الفتاة تعبس، فضحكت نيكول وعادت لتقذفها إلى الهواء مرةً أخرى.

وبعد بضع دقائق وضعت نيكول الفتاةَ التي تململت أرضًا مرةً أخرى. فعادت ماريا تزحف على الفور إلى الوحل. أبقت نيكول إحدى عينيها على ماريا والأخرى على الحلقات الملوَّنة في سماء راما. أصبح عدد الحلقات ثمانيَ: الزرقاء والبنية والقَرنْفُلية والأرجوانية فوق نصف الأسطوانة الجنوبي، واصطفَّت الأربع الأوليات في السماء فوق الشمال. وعندما اختفت الحلقة الحمراء في التجويف الشمالي تكوَّنت حلقة حمراء أخرى حول قمة القرن الكبير.

فكَّرت نيكول: «مثلما حدَث منذ تلك السنوات الطويلة.» ولكن لم يكن عقلها يركِّز فعليًّا على الحلقات. بل كانت تبحث في ذاكرتها محاوِلةً تذكُّر كل تقرير قُدِّم عن كل الأشخاص المفقودين في عدن الجديدة. وتذكَّرت وقوعَ بعض حوادث للقوارب في بحيرة شكسبير، ومن حين لآخر كان أحد مرضى مستشفى الأمراض العقلية في أفالون يختفي … وفكَّرت: «ولكن كيف من الممكن أن يختفيَ شخصان بهذه الصورة؟ وأين كان والد ماريا؟» كان لديها كثيرٌ من الأسئلة التي أرادت أن تطرحها على كائنات الأوكتوسبايدر.

استمرَّت الحلقات المبهرة تسبح فوق رأسها. فتذكَّرت نيكول ذلك اليوم منذ أمدٍ بعيد، عندما كانت كيتي وهي لا تزال في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها مفتونةً بالحلقات الضخمة في السماء حتى إنها صاحت من فرطِ السعادة. وفكَّرت وهي لا تستطيع كبْح جِماح تفكيرها: «لقد كانت دائمًا أكثرَ أولادي انطلاقًا. وكانت ضحكتها رائعة جدًّا وصادقة جدًّا … لقد كانت لديها إمكاناتٌ رائعة.»

اغرورقَت عينا نيكول بالدموع. مسحتها وأجبرت نفسَها بجهد جهيد على التركيز على ماريا. وكانت الطفلة تجلس على الأرض وتأكل بسعادةٍ من وحل السهل الرئيسي. فقالت نيكول وهي تمس يدَ الفتاة برفق: «كلا يا ماريا. هذا قذر.»

عبس وجه الفتاة الجميل وبدأت تبكي. فكَّرت نيكول على الفور: «مثل كيتي. لم تحتمل قط أن أقول لها لا.» وأخذت ذكرياتها مع كيتي تتدفَّق إلى ذهنها. فرأت نيكول ابنتها أولًا وهي طفلة، ثم مراهقة في وقتٍ مبكر من عمرها في النود، وأخيرًا شابة في عدن الجديدة. وصاحبَ صورَ ابنتها المفقودة ألمٌ شديد اعتصر قلبها وسيطر عليها. وانهمرت الدموع على وجنتيها وبدأ جسدها يرتجف وهي تبكي. وصاحت بصوتٍ عالٍ: «آه يا كيتي! لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»

ودفنت وجهها بين يديها. فتوقَّفت ماريا عن البكاء ونظرت إلى نيكول نظرةً حيرى. فجاءها صوتٌ من خلفها يقول: «لا بأس يا نيكول. سينتهي كل هذا قريبًا.»

ظنَّت نيكول أنها توهَّمت هذا الصوت. استدارت إلى الخلف ببطء. فوجدت الرجل النسر يقترب منها مادًّا ذراعيه.

وصلت الحلقة الحمراء الثالثة إلى التجويف الجنوبي ولم تَعُد هناك أي شرائط ضوئية ملوَّنة حول القرن الكبير. فسألت نيكول الرجل النسر: «هل سيسطع الضوءُ عندما تنتهي الحلقات؟»

فقال: «إن ذاكرتك قوية حقًّا! أنت على حق.»

حملت نيكول ماريا مرةً أخرى بين ذراعيها. وقبَّلت الفتاة برفق على وجنتها، فابتسمت لها. قالت نيكول: «شكرًا على الفتاة. إنها رائعة ... وأنا أفهم ما تخبرني به.»

استدار الرجل النسر ليواجه نيكول. وقال: «ما الذي تتحدثين عنه؟ ليس لنا أيُّ علاقة بالطفلة.»

نظرت نيكول بإمعانٍ في عيني الكائن الفضائي الزرقاوين الغامضتين. إنها لم ترَ قط في حياتها عينين تبثَّان كل هذا الكم من التعبيرات. ولكن نيكول لم تقرأ مؤخرًا ما يقوله الرجل النسر بعينيه. هل يخدعها بشأنِ ماريا؟ هل هو جادٌّ؟ إنها بالطبع ليست مجرد مصادفة أن تكتشف وجود الطفلة بعد وقت قصير من انتحار كيتي ...

تذكَّرت نيكول ريتشارد حين قال لها عندما كانوا في النود: «إنك متعنِّتة للغاية في تفكيرك. صحيح أن الرجل النسر ليس كائنًا بيولوجيًّا مثلك ومثلي لكن هذا لا يعني أنه ليس حيًّا. أوافقك أنه آلي، ولكنه أكثرُ ذكاءً منا ... وأكثر حُنكة بكثير ...»

سألت نيكول الرجل النسر بعد عدة ثوانٍ: «هل كنت تختبئ في راما طوال هذا الوقت؟»

أجابها: «لا.» دون أن يسترسل موضحًا.

ابتسمت نيكول. وقالت: «لقد أخبرتني بالفعل أننا لم نصل إلى النود أو أي مكان مساوٍ له، وأنا واثقة من أنك لم تمرَّ بنا لتلقيَ علينا التحية فحسب ... هل ستخبرني لمَ أنت هنا؟»

قال الرجل النسر: «إنه تدخُّل المرحلة الثانية. لقد قرَّرنا أن نوقف عمليةَ المراقبة.»

قالت نيكول وهي تعود لتضعَ ماريا على الأرض: «حسنًا، لقد فهمت الفكرة. ولكن ماذا سيحدُث الآن بالضبط؟»

قال الرجل النسر: «سيخلد الجميع إلى النوم.»

سألته نيكول: «وبعد أن يستيقظوا ...؟»

«كلُّ ما يمكنني أن أخبرك به هو أن الجميع سينامون.»

خطَت نيكول مبتعدةً باتجاه مدينة الزمرد، ورفعت ذراعيها إلى السماء. لم يَعُد هناك سوى ثلاث حلقات ملوَّنة وجميعها بعيدة فوق نصف الأسطوانة الشمالي. قالت نيكول ولمحة من السخرية تظهر في صوتها: «بدافع الفضول فحسب، وأنا لا أشتكي، أنت تفهم ...» ثم سكتت والتفتت لتواجه الرجلَ النسر. وتابعت: «لمَ لمْ تتدخلوا قبل وقت طويل؟ قبل أن يحدُث كل هذا؟ قبل أن يسقط هؤلاء القتلى كلهم؟» ولوَّحت بيدها باتجاه مدينة الزمرد.

لم يُجِب الرجل النسر على الفور. قال بعد صمت: «لا يمكن أن يكون لديك إرادةٌ حرة وفي الوقت نفسه قوة عليا خيِّرة تحميك من نفسك. لا يمكن أن يملك المرء الاثنين معًا يا نيكول.»

قالت نيكول ونظرةٌ حيرى تعلو وجهها: «عفوًا. هل طرحت سؤالًا دينيًّا على وجه الخطأ؟»

أجابها الرجل النسر: «لم تفعلي. ما يجب أن تفهميه هو أن هدفنا هو أن نضع قائمةً كاملة بجميع الكائنات التي تسافر عبْر الفضاء في هذه المنطقة من المجرة. إننا لسنا قضاة. نحن علماء. لا يعنينا إذا ما كنتم تنزعون بالفطرة إلى إهلاكِ أنفسكم. إنما ما يعنينا هو أن العائد المستقبلي المحتمَل من مشروعنا ذلك لم يَعُد يبرِّر المصادر الهائلة التي خصَّصناها له.»

قالت نيكول: «ماذا؟! هل تقول لي إنكم لا تتدخلون لإيقاف سفك الدماء، ولكن لسبب آخر؟»

قال الرجل النسر: «نعم. ولكنني مضطر إلى تغيير الموضوع لأن وقتنا محدود للغاية. ستسطع الأضواء في غضون دقيقة أو اثنتين. وستنامين بعد ذلك بدقيقة ... فإذا كان لديك شيء تودين أن تخبري الطفلة به ...»

قالت نيكول وقد دبَّ الخوف فجأة في قلبها: «هل سنموت؟»

قال الرجل النسر: «ليس على الفور. ولكني لا أستطيع أن أضمن أن الجميع سيجتازون فترةَ النوم أحياء.»

ألقَت نيكول بجسدها على الوحل إلى جانب الطفلة. كان في فم ماريا كتلة أخرى من الطين، وكان الوحل المبلل يلطخ شفتيها. فمسحت نيكول وجهها برفق شديد وعرضت على الطفلة أن تشرب ماءً من الكوب. ولدهشتها ارتشفت ماريا من الماء ووقع على ذقنها.

ابتسمت نيكول وضحكت ماريا. فوضعت نيكول أصبعَها أسفل ذقن الطفلة ودغدغتها. فتحولت ضحكات ماريا إلى قهقهة، تلك القهقهة النقية العذبة الساحرة التي تميز الأطفال الصغار. كان صوتها غايةً في الجمال ولمس نفْس نيكول بعمق فامتلأت عينا نيكول بالدموع. قالت في نفسها: «لو أن هذا آخر صوت أسمعه فسأكون راضية ...»

فجأة غمر الضوء راما بأسْرها. وكان مشهدًا يوقِع الرهبةَ في النفوس. فقد استحوذ البوق الكبير على السماء فوقهم، ومعه أتباعه الستة المحيطة به، بالإضافة إلى ألواح طائرة ضخمة. فقالت نيكول للرجل النسر: «خمس وأربعون ثانية، أليس كذلك؟»

أومأ الرجل الطائر الفضائي برأسه بالإيجاب. فاتَّجهت نيكول للطفلة والتقطتها. ثم وضعتها على فخذها وقالت: «أعلم أنه لا يوجد أيُّ شيء يُعقل مما حدَث لكِ مؤخرًا يا ماريا، ولكني أريدكِ أن تعرفي أنك كنت مهمةً للغاية في حياتي، وإنني أحبُّك كثيرًا.»

ارتسمت في عينَي الفتاة نظرةُ حكمة مدهشة. وانحنت إلى الأمام وأراحت رأسها على كتف نيكول. ولبضع ثوانٍ لم تعرف نيكول ماذا تفعل. ثم بدأت تُربِّت على ظهرها. وتغني لها بحنان: «نامي يا صغيرتي نامي ... نامي الآن وارتاحي ...»

العودة إلى النود

١

جاءت أحلامُ نيكول قبل سطوع الضوء. أحلامٌ غير مترابطة، صور عشوائية تمتد أحيانًا إلى مجموعات قصيرة تظهر معًا دون هدف أو معنًى واضح. الألوان والأشكال الهندسية هي أولُ ما شاهدته نيكول في الأحلام التي تذكَّرتها. ولم تستطِع أن تتذكر متى بدأت. وفي لحظة من اللحظات فكَّرت للمرة الأولى: «أنا نيكول. لا بد أني لا أزال حية»، ولكن كان ذلك منذ وقت طويل. وبعدها رأت في عقلها مشاهدَ كاملة تتضمن وجوه بعض الأشخاص. تعرَّفت بعضَهم. قالت في نفسِها: «هذا أومه. وهذا أبي.» وفي كل مرة ترى فيها حُلمًا كانت تتيقظ أكثرَ لِما حدث فتزداد حزنًا. ظهر ريتشارد في أحلامها الأخيرة العديدة. وكذلك كيتي. تذكَّرت نيكول: «لقد ماتا. ماتا قبل أن أنام.»

عندما فتحت نيكول عينيها كانت لا تزال لا ترى شيئًا. كان الظلام مخيِّم على المكان. وأخذت نيكول تعي ببطء ما يوجد حولها. فتركت يديها تسقطان إلى جوارها لتشعر أصابعها بالملمس الناعم للفوم المُستخدَم حاشيةً. وتقلَّبت على جانبها لتجد أنها فعلت ذلك دون أن تبذل مجهودًا كبيرًا. ففكَّرت في نفسها: «لا بد أنني عديمة الوزن.» بدأ عقلها يعمل بعد سنوات من السُّبات، ثم سألت نفسها قبل أن تنام مرة أخرى: «ولكن أين أنا؟»

في المرة التالية التي استيقظت فيها نيكول رأت مصدرًا للضوء في الطرَف الآخر للصندوق المغلَق الذي ترقد فيه. فهزَّت قدميها وحرَّرتهما من حاشية الفوم البيضاء، ورفعتهما أمام الضوء. فوجدت قدميها مغطَّاتين بخفٍّ شفاف. ومدَّت جسمها كي ترى هل بإمكانها أن تمس مصدرَ الضوء بأصابع أقدامها، ولكنه كان بعيدًا جدًّا عنها.

وضعت نيكول يديها أمام عينيها. إلا أن الضوء كان خافتًا للغاية لدرجةِ أنها لم تستطِع أن ترى أي تفاصيل؛ فلم ترَ من يديها سوى ظلٍّ داكن. لم توجد مساحة كافية في الصندوق كي تعتدل جالسة، ولكنها تمكَّنت من الوصول إلى سقف الصندوق بإحدى يديها، عندما استندَت بجسدها على الأخرى. ضغطت نيكول أصابعها على حاشية الفوم الناعمة. كان تحتها سطحٌ صلب، سطح خشبيٌّ أو معدنيٌّ على الأرجح.

ولكن ذلك النشاط الطفيف استنفد قواها. فتسارعت أنفاسها ودقَّات قلبها. وأصبح عقلها أكثر وعيًا. فتذكرت نيكول بوضوح في اللحظات الأخيرة قبل أن تخلُد إلى النوم في راما. تذكَّرت: «جاء الرجل النَّسر فور أن وجدت تلك الفتاة الصغيرة في الموطن البديل … إذن فأين أنا الآن؟ وكم من الوقت نِمت؟»

سمعَت نيكول صوت طرقات خفيفة على الصندوق، فعادت ترقد على حاشية الفوم. وفكَّرت في نفسها: «لقد جاء أحدهم. سأحصل قريبًا على إجابات لأسئلتي.» رُفع الغطاء العلوي للصندوق ببطء. فحجبت نيكول الضوءَ عن عينيها بيديها. ثم رأت وجهَ الرجل النسر وسمِعت صوته.

جلس الاثنان معًا في غرفة كبيرة. كل شيء فيها أبيض اللون. الحوائط والسقف والمنضدة المستديرة الصغيرة أمامهما، وحتى المقاعد والكوب والطَّبق والملعقة كانت جميعًا بيضاء. ارتشفت نيكول رشفةً أخرى من الحَساء الدافئ. إن طَعمه يشبه طَعم مرق الدجاج. وإلى يسارها الصندوق الأبيض الذي كانت ترقد فيه إلى جوار الحائط. لم تحوِ الغرفة أيَّ أغراض أخرى.

كان الرجل النسر يقول: «… في مجملها ستة عشر عامًا تقريبًا، بزمن المسافر عبْر الفضاء بالطبع.» ففكَّرت نيكول: «زمن المسافر عبْر الفضاء! إنه المصطلح نفسه الذي استخدمه ريتشارد.»

«… إننا لم نؤخِّر تقدُّمك في السن بالكفاءة نفسِها التي فعلنا بها ذلك من قبل. فقد نفَّذنا استعداداتنا على عجل.»

ومع أن نيكول كانت عديمة الوزن فقد شعرت أن كل نشاط بدني تبذله مجهودٌ شاقٌّ. فلم تقُم عضلاتها بأي نشاط منذ أمدٍ بعيد. وقد ساعدها الرجل النسر أن تسير — وهي تجرُّ قدميها — الخطوات القليلة الفاصلة بين الصندوق والمنضدة. وقد ارتعشت يداها بعض الوقت وهي تشرب الماء وتتناول الحَساء.

سألت الرجل النسر في صوتٍ متردِّد: «إذن أنا أناهز الثمانين من العمر الآن؟»

أجابها المخلوق الفضائي: «تقريبًا. سيكون من المستحيل أن أحدِّد لك سنًّا بعينها.»

حدَّقت نيكول عبْر الطاولة إلى رفيقها. بدا الرجل النسر كما كان دائمًا. عيناه الزرقاوان المائلتان إلى اللون الرمادي على كلا جانبي منقاره الرمادي البارز لم تفقدا شيئًا من قوَّتهما الغامضة. والريش أعلى رأسه لا يزال ناصعَ البياض، في تناقضٍ واضح مع الريش الرمادي الداكن على وجهه وعنقه وظهره. وأصابعه الأربع في كل يد بيضاءُ كالقشدة وخالية من الريش وملساء مثل أصابع الطفل.

فحصت نيكول يديها للمرة الأولى. إنهما تحملان تجاعيد، وتغيَّر لونهما بفعل البقع التي تظهر مع تقدُّم العمر. فقلبت يدها، ومن مكانٍ ما في ذاكرتها سمِعت ضحكة. كان ريتشارد يقول: «ضامر! أليست كلمةً رائعة؟ إنها تعني ذابلًا أكثرَ من كلمة ذابل نفسِها ... أتساءل إن كنت سأعيش حتى تُطلَق عليَّ هذه الكلمة ...» ثم خبَت الذكريات. وحدَّثت نيكول نفسها: «يداي ضامرتان الآن.»

ثم سألت الرجل النسر: «ألا تتقدَّم في العمر أبدًا؟»

أجابها: «كلَّا. على الأقل ليس بالمعنى الذي تستخدمون به أنتم هذه الكلمة للتعبير عنه ... حيث تُجرى صيانة دورية لي واستبدالٌ للأنظمة الفرعية التي ينخفض مستوى أدائها.»

«ومن ثَم فإنك لا تموت أبدًا؟»

تردَّد الرجل النسر للحظة. ثم قال: «هذا ليس دقيقًا تمامًا. فعلى غرار جميع أفراد مجموعتي، لقد صُنعت لهدفٍ محدَّد. إذا لم تَعُد هناك حاجة لوجودي، وحيث إنه لا يمكن إعادةُ برمجتي من جديد بسهولة للقيام بمهمة ضرورية جديدة، فستُفصل الطاقة عني.»

كادت نيكول تضحك، ولكنها تمالكت نفسها، وقالت: «أنا آسفة، أعلم أنه ليس أمرًا مضحكًا ... ولكن اختيارك للكلمات غريب ... فتعبير «فصل الطاقة عني» يبدو مثل ...»

قال الرجل النسر: «إنها أيضًا الكلمة الصحيحة. فداخلي مصادرُ طاقة عديدة متناهية الصِّغر، بالإضافة إلى نظام توزيع طاقة معقَّد. وجميع عناصر الطاقة في الأساس أجزاءٌ مجمَّعة؛ ولهذا فهي قابلةٌ للنقل من واحد من مجموعتي إلى آخرَ. وإذا لم تَعُد هناك حاجة إليَّ فيمكن استخراج العناصر واستخدامها في كائن آخر.»

قالت نيكول وهي تنتهي من شُرب الماء: «مثل عملية زرع الأعضاء.»

أجابها الرجل النسر: «إلى حدٍّ ما. وهو ما يجعلني أنتقل إلى موضوعٍ آخر ... في الواقع لقد توقَّف قلبك مرتين أثناء نومك الطويل، والمرة الثانية كانت بعد وصولنا هنا إلى نظام

النجم تاو سيتي مباشرةً ... وقد تمكَّنا من إبقائك على قيد الحياة باستخدام العقاقير والتنبيه الميكانيكي، ولكن قلبك الآن ضعيفٌ للغاية ... وإذا كنتِ تريدين أن تحيَيْ حياةً نشيطة فترةً طويلة من الزمن فستحتاجين إلى التفكير في إجراء عملية استبدالٍ لقلبك.»

سألته نيكول وهي تشير إلى الصندوق: «ألهذا تركتَني بالداخل تلك الفترة الطويلة؟»

قال الرجل النسر: «ليس لهذا فحسب.» كان قد شرح لها بالفعل أن معظم الآخرين من راما استيقظوا قبلَها بوقت طويل، واستيقظ بعضهم من عام تقريبًا، ويعيشون في مكانٍ آخر مزدحم لا يبعُد كثيرًا عن هنا. ثم استطرد قائلًا: «ولكننا كنا قلقين أيضًا بشأن مدى راحتك في مركبة نجمة البحر المُعدَّلة؛ فقد جدَّدنا تلك المركبة الفضائية على عجل ... وهي لا تضم كثيرًا من سُبل الراحة ... وكنا قلقين عليك أيضًا لأنك أكبرُ البشر سنًّا لدينا ...»

فقالت نيكول لنفسها: «هذا صحيح. لقد قضى هجومُ كائنات الأوكتوسبايدر على كل بشري تخطَّى الأربعين من عمره أو نحو ذلك ... أنا العجوز الوحيدة الباقية.»

توقَّف الرجل النسر عن الحديث لحظة. وعندما عادت نيكول تنظر إلى الكائن الفضائي، وقد حملت عيناه اللتان تأسران كلَّ مَن ينظر إليهما انفعالًا. قال: «كما أنك تتمتعين بمكانة خاصة لدينا. فقد لعبت دورًا أساسيًّا في هذه المهمة ...»

فكَّرت نيكول فجأة، وهي لا تزال تحدِّق في عيني الرجل النسر الساحرتين: «هل من الممكن أن يكون لدى ذلك الكائن الإلكتروني مشاعرُ حقًّا؟ هل كان ريتشارد محقًّا عندما أصرَّ أنه لا توجد أيُّ سِمة من السِّمات الإنسانية لا يمكن نسخها بالهندسة الوراثية؟»

استأنف الرجل النسر: «... لقد انتظرنا أطولَ فترة ممكنة حتى نوقظك كي نقلل إلى الحد الأدنى طولَ الفترة الزمنية التي سيجب عليك قضاؤها في ظروفٍ أقلَّ من المثالية. إلا أننا الآن نستعد لدخول مرحلة جديدة من عملياتنا ... كما ترين، هذه الغرفة قد أُخليت ممن عداك منذ وقت طويل. وفي غضون ثمانية أو عشرة أيام سنبدأ في تفكيك الحوائط. وحتى مجيء ذلك الوقت ينبغي أن تكوني قد تعافيتِ بصورة كافية ...»

سألته نيكول مرةً أخرى عن عائلتها وأصدقائها. فأجابها الرجل النسر: «كما أخبرتك من قبل، لقد نجَوا جميعًا من فترة النوم الطويل بسلام. ولكن التكيُّف على العيش فيما يطلِق عليه صديقك ماكس «الفندق الكبير» لم يكن سهلًا على أي شخص. جميع مَن كانوا معك في مدينة الزمرد، بالإضافة إلى الفتاة ماريا وروبرت، زوج إيلي، قد أُنزلوا في البداية في غرفتين كبيرتين متجاورتين في أحدِ أجنحة مركبة نجمة البحر. وقد أُخبر الجميع أن ترتيبات الإقامة هذه مؤقتة، وأنهم سيُنقلون في النهاية إلى أماكنَ أفضل. ومع ذلك

لم يستطِع كلٌّ من روبرت وجاليليو التكيُّف بنجاح مع الظروف غير المعتادة في الفندق الكبير.»

سألته نيكول بقلق: «ماذا حدَث لهما؟»

«لقد نُقلا، لأسبابٍ اجتماعية، إلى منطقةٍ أخرى أكثر انضباطًا من المركبة الفضائية. نُقل روبرت أولًا. إذ إنه مرَّ بمرحلة اكتئابٍ حادٍّ بعد أن استيقظ من نومه الطويل مباشرةً، ولم يمكنه قط الشفاء منه. وللأسف فقد توفِّي منذ نحو أربعة أشهر ... وجاليليو على ما يرام بدنيًّا، إلا أن سلوكياته غير الاجتماعية قد استمرَّت ...»

شعرت نيكول بأسًى عميق عندما سمِعت خبرَ وفاة روبرت. قالت في نفسها: «مسكينة نيكي، لم تحظَ قط بفرصة لمعرفة والدها ... وإيلي التي لم يسِر زواجها كما تمنَّت ...»

جلست في صمتٍ تسترجع ذكرياتها عن روبرت ترنر. قالت في نفسها: «كنت رجلًا معقدًا يا روبرت؛ موهوبًا ومتفانيًا في عملك. لكنك على مستوى العلاقات الشخصية كنت فاشلًا إلى درجةٍ تثير الدهشة. ربما مات جزء كبير فيك منذ زمن طويل ... في قاعة المحكمة تلك في تكساس، على كوكبٍ يسمَّى الأرض.»

هزَّت نيكول رأسها في أسًى.

قالت للرجل النسر: «أظن أن المجهود الذي بذلته لإنقاذ كيتي وروبرت من سلاح كائنات الأوكتوسبايدر قد ذهب هباءً.»

أجابها الرجل النسر ببساطة: «غير صحيح. فقد كان الأمر مهمًّا لك حينها.»

ابتسمت نيكول ونظرت إلى صديقها الفضائي. قالت في نفسها وهي تكتم تثاؤبها: «حسنًا يا صديقي الفضائي. لا بد أن أقر بأني سعيدة أني عُدت إلى رفقتك مرة أخرى ... صحيح أنك لست حيًّا لكنك تفهم الكائنات الحية بحكمة بالغة.»

قال هو: «دعيني أساعدك في العودة إلى الفراش. لقد استيقظتِ منذ فترة كافية بالنسبة للمرة الأولى.»

كانت نيكول راضيةً للغاية عن نفسها. فقد نجحت أخيرًا في الدوران دورةً كاملة حول محيط الغرفة دون توقُّف.

قال الرجل النسر وهو يذهب ليقف إلى جوارها: «مرحى! إنك تحققين تقدُّمًا مذهلًا. إننا لم نتوقَّع قط أن تتمكني من السير بهذه الصورة الطيبة في هذه الفترة القصيرة.»

قالت وهي تبتسم: «إنني أحتاج بشدة إلى بعض الماء. فهذا الجسد العجوز يعرَق بغزارة.»

أحضر لها الرجل النسر كوبَ ماء من فوق المنضدة. وعندما انتهت من شربِه استدارت إلى صديقها الفضائي. وقالت: «الآن هل ستنفِّذ الجزء الخاص بك من الاتفاق؟ هل لديك مرآة وملابس بديلة في تلك الحقيبة هناك؟»

أجابها الرجل النسر: «نعم. بل أحضرت لك مستحضرات التجميل التي طلبتِها أيضًا ... ولكني أريد أن أفحصك أولًا كي أرى كيفيةَ استجابة قلبك للمجهود.» رفع جهازًا أسودَ صغيرًا أمامها وراقب بعض العلامات التي تظهر على الشاشة الصغيرة. ثم قال: «هذا جيد. كلا! إنه ممتاز ... لا توجد أي مؤشرات غير منتظِمة على الإطلاق. ليس إلا إشارة إلى أن قلبك مجهَد بشدة وهو المتوقَّع في البشر في مثل عمرك.»

قالت نيكول وهي تشير إلى جهاز الفحص: «هل لي برؤيةِ هذا؟» أعطاها الرجل النسر إياه. فقالت: «أظن أن هذا الشيء يستقبل إشارات من داخل جسدي ... ولكن ما هذه الموجات القصيرة والرموز الغريبة على الشاشة بالضبط؟»

«يوجد أكثرُ من ألف مجسٍّ صغير داخل جسدك، أكثر من نصفها في منطقة القلب. وهذه المجسَّات لا تقيس الأداء الحقيقي لقلبك والأعضاء الأخرى فحسب، بل أيضًا تنظِّم المؤشرات الحيوية الأخرى المهمة مثل تدفُّق الدم وتوزيع الأكسجين. بل إن بعض المجسَّات تحسِّن من أداء الوظائف البيولوجية الطبيعية. وما ترينه على الشاشة بياناتٌ ملخَّصة عن الفترة الزمنية التي كنتِ تتدربين فيها. وقد ضُغطت وجرى قياسها عن بُعد عن طريق المعالِج داخلك.»

قطَّبت نيكول ما بين حاجبيها. وقالت: «ربما كان من الأفضل ألا أسأل. ففكرة وجود تلك الأشياء الإلكترونية كلها داخلي غيرُ مريحة إلى حدٍّ ما.»

قال الرجل النسر: «هذه المجسَّات ليست إلكترونية حقًّا، أو على الأقل ليست كذلك حسب استخدام البشر للكلمة. وهي ضرورية للغاية في هذه المرحلة من حياتك. فلو لم تكن داخلك لَما عشت يومًا واحدًا ...»

حدَّقت نيكول في الرجل النسر. وسألته: «ولمَ لمْ تدعني أموت؟ هل هناك هدفٌ من وجودي يبرِّر كل هذا المجهود؟ وظيفةٌ ما من المؤكد أني لا أزال أقوم بها؟»

قال الرجل النسر: «ربما. ولكن ربما ظننا أنك تودين رؤيةَ عائلتك وأصدقائك مرة أخرى.»

قالت نيكول: «إنني أجد صعوبةً في تصديق أن رغباتي تلعب أيَّ دور مهم في النظام الهرمي لقيمكم.»

لم يُجِبها الرجل النسر. وإنما سارَ إلى الحقيبة التي كانت على الأرض إلى جانب المنضدة، وعاد ومعه مرآة وقطعة قماش رطبة وثوب أزرق بسيط وحقيبة مستحضرات تجميل. خلعت نيكول رداء النوم الأبيض الذي ترتديه، ومسحت جسدها بالكامل بقطعة القماش، ثم ارتدَت الثوب الأزرق. وتنفَّست نفسًا عميقًا والرجل النسر يعطيها المرآة. وقالت بابتسامة باهتة: «لست واثقة أنني مستعدة لهذا.»

لم تكن نيكول لتتعرَّف الوجهَ الذي ظهر في المرآة لو لم تكن قد أعدَّت نفسها نفسيًّا له من البداية. فقد بدا لها وجهها كلحافٍ متغضِّن بفعل الانتفاخات والتجاعيد. وقد تحوَّل شعرها بالكامل، بما في ذلك حاجباها ورموش عينيها، إلى اللون الأبيض أو الرمادي. وأول رغبة اجتاحت نيكول هي البكاء لكنها قاومت دموعها ببسالة. قالت في نفسها: «يا إلهي! لقد هرِمت كثيرًا ... أيُعقل أن تكون هذه أنا؟»

وأخذت تبحث، مستعينةً بذاكرتها، في الملامح التي تعكسها المرآة عن بقايا تلك الشابةِ الجميلة كما كانت يومًا. واستطاعت أن تجد هنا وهناك مَسحة من ملامحِ ما كان يُعَد يومًا وجهًا جميلًا، ولكن كان على عينيها أن تعرف أين تنظر تحديدًا. وتألَّم قلب نيكول فجأةً وهي تتذكَّر حادثة بسيطة وقعَت قبل سنوات بعيدة؛ عندما كانت مراهقة تسير في طريق ريفي مع والدها بالقرب من منزلها في بوفوا. كانت هناك امرأةٌ عجوز تتوكأ على عصًا تسير باتجاههما، فطلبت نيكول من والدها أن يعبُرا إلى الجهة الأخرى من الطريق لتجنُّبها.

فسألها والدها: «لماذا؟»

قالت نيكول: «لأنني لا أريد أن أراها عن قُرب. إنها عجوز ودميمة ... إنها تجعل جسدي يقشعر.»

رفض والدها أن يجتاز الشارع وقال لها: «أنت أيضًا ستصبحين عجوزًا يومًا ما.»

فكَّرت نيكول في نفسها: «أنا عجوز ودميمة أيضًا. إنني حتى أقشعر لرؤية نفسي.» وأعادت المرآة إلى الرجل النسر. وقالت بحزن: «لقد حذَّرتني. ربما كان يجب عليَّ أن أسمع نصيحتك.»

قال الرجل النسر: «من الطبيعي أن تُصدمي. فأنتِ لم تري نفسك منذ ستة عشر عامًا. أغلب البشر لا يتقبَّلون التقدم في العمر بسهولة حتى إذا كانوا يتابعونه يومًا بيوم.» ثم مدَّ إليها حقيبة أدوات التجميل.

قالت نيكول بإحباطٍ رافضةً الحقيبة: «لا، شكرًا لك. إنه موقف ميئوس منه. فلا مايكل أنجلو نفسه يمكنه فِعل أي شيء حيال هذا الوجه.»

قال الرجل النسر: «كما تشائين. ولكني ظننت أنك قد تودين استخدامَ مستحضرات التجميل قبل أن يصل زائرك.»

قالت نيكول بانزعاجٍ وسعادة في الوقت نفسه: «زائر! هل لديَّ زائر اليوم؟ مَن هو؟» ومدَّت يدها تلتقط المرآة وأدوات التجميل.

قال الرجل النسر: «أظن أني سأتركها مفاجأةً لك. فسيصل زائرك إلى هنا في غضون بضع دقائق.»

استخدمت نيكول طلاء الشفاه ومسحوق التجميل ومشَّطت شعرها الرمادي ثم سوَّت حاجبيها وانتزعت منهما الشَّعر الزائد. وعندما انتهت ألقَت نظرةً مستنكرة على المرآة. وقالت للرجل النسر ولنفسها أيضًا: «هذا هو كلُّ ما أستطيع فِعله.»

وبعد بضع دقائق فتح الرجل النسر البابَ الموجود على الجانب الآخر من الغرفة وخرج. وعندما عاد كان برفقته كائن أوكتوسبايدر.

ومن الجانب الآخر للغرفة رأت نيكول اللونَ الأزرق الذي يميل إلى الأرجواني يتدفَّق حول الأوكتوسبايدر. قال: «مرحبًا يا نيكول. كيف حالك؟»

صرخت نيكول بسعادة: «الدكتورة بلو!»

رفعت الدكتورة بلو جهازَ الفحص أمام نيكول. وقالت الأوكتوسبايدر الطبيبة: «سأمكثُ هنا معك حتى تستعدِّي للانتقال. فالرجل النسر لديه مهامٌّ أخرى في الوقت الحالي.»

تدفَّقت شرائط الألوان بسرعة على الشاشة الصغيرة. فقالت نيكول وهي تنظر إلى الجهاز بدهشة: «أنا لا أفهم ما يحدُث؛ عندما استخدم الرجل النسر هذا الشيء كانت البيانات تظهر في شكل موجات قصيرة وغيرها من الرموز الغريبة.»

قالت الدكتورة بلو: «هذه هي لغتهم المبتكَرة للتكنولوجيا خاصة. إنها فعَّالة بصورة لا تُصدَّق، وأفضل بكثير من لغة الألوان التي نستخدمها ... ولكن بالطبع لا يمكنني قراءة أيٍّ منها ... إن هذا الجهاز في الواقع يدعَم لغاتٍ متعددة. ويوجد تدعيمٌ للغة الإنجليزية أيضًا.»

سألتها نيكول: «إذن ما اللغةُ التي تستخدمينها عند التواصل مع الرجل النسر وأنا غير موجودة.»

أجابتها الدكتورة بلو: «كلانا يستخدم لغةَ الألوان. إنها تتدفَّق من اليسار إلى اليمين برأسه مارَّة بجبهته.»

قالت نيكول وهي تحاول تخيُّل صورة الرجل النسر والألوان على جبهته: «إنك تمزحين.»

أجابت الأوكتوسبايدر: «مطلقًا! فالرجل النسر مذهل. إنه يبقبق مع المخلوقات الطائرة، ويصرخ ويَصْفِر مع كائنات القطنمل ...»

لم تكن نيكول قد رأت كلمةَ قطنمل في لغة الألوان من قبل. وعندما سألت عن الكلمة شرحَت لها الدكتورة بلو أن ستة من هذه الكائنات الغريبة تعيش الآن في الفندق الكبير، وأن أربعة أخرى على وشْك الخروج من بطيخ المن النامي.

قالت الدكتورة بلو: «مع أن جميع كائنات الأوكتوسبايدر والبشر قد ناموا أثناءَ الرحلة الطويلة، فقد سُمح لبطيخ المن أن ينموَ إلى كائنات قطنمل ثم إلى كائناتٍ لا سويقية. وهي الآن تطوَّرت بالفعل إلى جيلها الثاني.»

أعادت الدكتورة بلو الجهاز إلى المنضدة. فسألتها نيكول: «إذن كيف أُبلي اليوم يا دكتورة؟»

أجابتها الدكتورة بلو: «إنك تزدادين قوة. ولكنك على قيد الحياة الآن بفضل المجسَّات التكميلية التي أُدخلت إلى جسدك. وفي وقتٍ ما يجب أن تفكري في ...»

قالت نيكول: «... استبدال قلبي ... أعلم. قد يبدو كلامي هذا غريبًا، ولكن الفكرة لا تروق لي كثيرًا ... ولا أدري في الواقع سببَ معارضتي إيَّاها ... ربما لأني لم أرَ ما أعيش من أجله ... وأعلم لو أن ريتشارد لا يزال حيًّا ...»

بترَت نيكول حديثها. وللحظة تخيَّلت أنها عادت إلى غرفة العرض وتشاهد اللحظات الأخيرة في حياة ريتشارد بالعرض البطيء. لم تكن فكَّرت في تلك اللحظة منذ أن استيقظت.

قالت نيكول للدكتورة بلو: «هل تمانعين أن أسألك سؤالًا شخصيًّا.»

قالت الأوكتوسبايدر: «كلا، على الإطلاق.»

قالت نيكول: «لقد رأينا موتَ ريتشارد وآرشي معًا، وقد صُدمت أنا حتى إنني لم أستطِع القيامَ بأي شيء ... وقد قُتل آرشي في الوقت نفسه، وكان شريك حياتك كلها. ولكنك جلست إلى جواري تواسينني ... ألم تشعري بأي إحساس بالخسارة أو الحزن لموت آرشي؟»

لم تُجِب الدكتورة بلو على الفور. ثم قالت: «إن جميع كائنات الأوكتوسبايدر مُدرَّبة منذ الميلاد على التحكم فيما تطلِقون عليه أنتم البشرَ انفعالات. وسكَّان الموطن البديل بالطبع عرضةٌ إلى حدٍّ ما لهذه الانفعالات. ولكن الأفراد من بني جنسنا الذين ...»

قاطعتها نيكول برفقٍ وهي تمسُّ زميلتها الأوكتوسبايدر: «مع كامل احترامي، إنني لم أكُن أسألك سؤالًا تحليليًّا من طبيبة لطبيبة. إنه سؤال من صديقة لصديقة.»

انبثقت ببطء مجموعةٌ قصيرة من الشرائط القرمزية اللون ثم تبِعتها أخرى زرقاء غير مرتبطتين حول رأس الدكتورة بلو. ثم قالت: «نعم، لقد شعرتُ بالخسارة. ولكني كنت أعرف أن هذا سيحدُث عاجلًا أو آجلًا. عندما انضم آرشي إلى المجهود الحربي بات إنهاء حياته أمرًا مؤكدًا … بالإضافة إلى هذا، كان واجبي في تلك اللحظة هو مساعدتك.»

فُتح باب الغرفة ودلف الرجل النسر. كان يحمل صندوقًا كبيرًا مليئًا بالطعام والملابس وغيرها من الأشياء المتنوِّعة. وأخبر نيكول أنه أحضر لها سترةَ فضاء وعليها أن تغامر بالخروج من بيئتها المتحكَّم بها في المستقبل القريب.

قالت نيكول مداعِبة: «تقول الدكتورة بلو إنه يمكنك التحدُّث بالألوان. أريدك أن تريني.»

أجابها الرجل النسر بشرائط ألوان رفيعة منتظِمة بدأت على الجانب الأيسر من جبهته وتدفَّقت إلى اليمين: «ماذا تريدينني أن أقول؟»

قالت نيكول ضاحكة: «هذا يكفي. إنك مذهل حقًّا.»

وقفت نيكول على أرضِ المصنع العملاق وحدَّقت في الهرم أمامها. وبعيدًا على يمينها، على مسافةٍ أقل من كيلومتر، مجموعة من الكائنات الآلية المصنَّعة لغرضٍ خاص؛ منها جرَّافتان عملاقتان تبنيان جبلًا شاهقًا. فقالت نيكول عبْر الميكروفون الصغير داخل خوذتها: «لمَ تفعلون هذا كلَّه؟»

أجابها الرجل النسر: «إنه جزء من الدورة القادمة. لقد ارتأينا أن هذه المباني تحديدًا تزيد من إمكانية الحصول على ما نريد من التجربة.»

«إذن فأنتم تعلمون بالفعل شيئًا عن المسافرين الجدد عبْر الفضاء؟»

قال الرجل النسر: «لا أعرف إجابةَ هذا السؤال. فلم تُخَوَّل لي أيُّ مهامَّ مرتبطة بمستقبل راما.»

قالت نيكول وهي غيرُ راضية عن الإجابة: «ولكنك أخبرتنا من قبلُ أنه لا تحدُث أي تغييرات إلا إذا كانت ضرورية …»

قال الرجل النسر: «لا أستطيع مساعدتك في هذه النقطة. تعالي! استقلي المركبة. فالدكتورة بلو تريد إلقاءَ نظرة على الجبل من قُرب.»

بدت الأوكتوسبايدر غريبةَ الشكل في سترة الفضاء الخاصة بها. بل إن نيكول انفجرت ضاحكة عندما رأت الدكتورة بلو أولَ مرة والسترة البيضاء الضيقة تغطي جسدها الرمادي الداكن ولوامسها الثماني. وكانت الدكتورة بلو أيضًا تضع خوذةً شفافة حول رأسها يسهُل عبْرها قراءة ألوانها.

قالت نيكول للدكتورة بلو التي جلست إلى جوارها والمركَبة المفتوحة تتحرك بهم عبْر أرضٍ منبسطة باتجاه الجبل: «لقد كنت مندهشة عندما خرجنا لأول مرة ... كلا، هذا ليس وصفًا قويًّا بصورة كافية ... لقد أخبرتني أنت والرجل النسر أننا في المصنع، وأنني ينبغي أن أستعد لرحلة أخرى، ولكني لم أتوقَّع هذا كلَّه قط.»

تدخَّل الرجل النسر في حديثهما من مقعد السائق أمامهما: «كان الهرم يُبنى حولكِ وأنتِ نائمة. ولولا أننا استطعنا البناء دون إزعاج بيئتك لكنا أيقظناك في وقتٍ أبكر.»

استمرَّت نيكول في الحديث إلى الدكتورة بلو: «ألا يثير هذا الأمر برُمَّته دهشتك؟ ألا تتساءلين عن المخلوقات التي فكَّرت في هذا المشروع الضخم أولًا؟ وخلقت ذكاءً اصطناعيًّا مثل الرجل النسر؟ إنه أمرٌ من المستحيل تقريبًا تخيُّله ...»

قالت الأوكتوسبايدر: «الأمر ليس بهذه الصعوبةِ بالنسبة إلينا؛ تذكَّري أننا لطالما نعلم بوجود مخلوقاتٍ أرقى منَّا. إننا موجودون بصفتنا كائناتٍ عاقلة، لا لسببٍ إلا أن السلف عدَّلوا في جيناتنا. إننا لم نمرَّ بمرحلة في تاريخنا قط اعتقدنا فيها أننا بلغنا قمةَ هرم الكائنات الحية.»

فكَّرت نيكول وهي مستغرِقة في التفكير: «ولا نحن سنعتقد ذلك مرةً أخرى أبدًا. لقد تغيَّر التاريخ البشري بصورة جذرية لا رجوع فيها، أيًّا كانت الأحداث التي آلَ إليها.»

قال الرجل النسر من المقعد الأمامي: «بل ربما تعتقدونه. فقاعدة البيانات لدينا تشير إلى أن بعض الأجناس لم تتأثَّر كثيرًا بالاتصال بنا. لقد صُمِّمت تجاربنا كي تأخذ بعين الاعتبار هذا الاحتمال. فالاتصال معنا يحدُث في أثناء فترة وجيزة من الوقت ومع نسبة ضئيلة من أفراد جنس من الأجناس. ولا يوجد اتصالٌ مستمر إلا إذا اتَّخذ جنسُ الكائنات محلُّ الدراسة خطوةً واضحة لبدئه. وأنا أشكُّ أن الحياة على الأرض في هذه اللحظة تختلف كثيرًا عما كانت ستكون عليه إذا لم تزُر سفينة راما الفضائية نظامَكم الشمسي.»

انحنت نيكول للأمام في مقعدها. وقالت: «هل تعلم ذلك على وجهِ اليقين؟ أم إنك تخمِّن؟»

جاءت إجابة الرجل النسر غامضةً. إذ قال: «لقد تغيَّر تاريخكم بالطبع بظهور راما. فما كان لكثير من الأحداث الجِسام أن تقع لو لم يحدُث أي اتصال. ولكن بعد مائة أو

خمسمائة سنة من الآن ... ما الاختلاف بين ما ستكون عليه الأرض حينها عما كانت ستكون عليه إذا لم نزُرها؟»

قالت نيكول: «ولكن لا بد أن رأي البشر قد تغيَّر. فمن المؤكد أن معرفة أنه يوجد في الكون، أو على الأقل كان موجودًا في حِقبة مبكرة، كائناتٌ ذكية متقدمة لدرجةٍ تمكِّنهم من بناء سفينة فضاء آلية تسافر بين النجوم أكبر من أضخم مدننا على الأرض، لا يمكن طرْحُ هذه المعرفة جانبًا على أنها معلومات غير مهمة ... بل إنها تخلق منظورًا مختلفًا لتجربة البشر على الأرض بالكامل. فلا بد أن تُجرى مراجعة للدين وللفلسفة وحتى المبادئ الأساسية في علم البيولوجيا في ظل ...»

قاطعها الرجل النسر وهو يقول: «أنا سعيد لرؤيةِ أنك على الأقل احتفظتِ بقدرٍ ضئيلٍ من تفاؤلك ومثاليتك على مدارِ هذه السنوات كلها ... ولكن تذكَّري أنه في عدن الجديدة يعرف البشر أنهم يعيشون داخل موطنٍ صمَّمه لهم خاصة كائناتٌ فضائية. وقد قيل لهم من خلالك أنت وغيرك أنهم مراقَبون باستمرار. ومع ذلك، عندما اتضح لهم أن المخلوقات الفضائية، مهما تكن ماهيتها، لا تعتزم التدخُّل في أنشطتهم اليومية، أصبح وجودُ هذه المخلوقات المتقدِّمة لا يمُتُّ لحياتهم بصلة.»

وصلت المركبة إلى سفحِ الجبل. فقالت الدكتورة بلو: «لقد أردتُ المجيء إلى هنا بدافع الفضول. فكما تعلمون لم يكن لدينا أيُّ جبال في مملكتنا على متن راما. ولم يوجد كثير منها في منطقتي على كوكبي الأصلي عندما كنت شابة ... فرأيت أنه سيكون من اللطيف أن أقفَ على قمَّته ...»

قال الرجل النسر: «لقد كلَّفت إحدى تلك الجرافات العملاقة بهذه المهمة. وستستغرق رحلتنا إلى القمة عشر دقائق فقط ... قد تشعران بالخوف في بعض البقاع بسبب انحدار الجبل، ولكنه آمنٌ تمامًا ما دمتم ترتدون أحزمةَ الأمان.»

لم تكن نيكول قد طعنَت في السن بحيث يفوتها الاستمتاع بالتسلُّق المثير. كانت الجرافة في حجم مبنًى إداري، ولكنها لم تحوِ مقاعدَ مريحة للركَّاب، وكانت بعض الصدمات عنيفة جدًّا، ولكن المَشاهد التي ظهرت أمامهم وثلاثتهم يتسلقون تستحق المشقةَ بالفعل.

كان ارتفاع الجبل يزيد عن كيلومتر، ويبلغ محيطه شبه الدائري نحو عشرة كيلومترات. كانت نيكول ترى بوضوح الهرم الذي أقامت فيه عندما قطعت الجرافة ربع المسافة إلى أعلى الجبل. وفي الأفق في جميع الاتجاهات، كانت السماء تعجُّ بمشروعات بناء منعزلة لأغراضٍ غير معروفة.

ففكرَت نيكول في نفسها: «وهكذا يبدأ الأمر من جديد. فسفينة راما هذه بعد أن أُعيد بناؤها ستدخل قريبًا إلى مجموعة أخرى من النُّظم النجمية. وماذا ستجد؟ مَن هم المسافرون عبْر الفضاء القادمون الذين سيسيرون على هذه الأرض؟ أو يتسلقون هذا الجبل؟»

توقفَت الجرافة على سهلٍ واسع قريب للغاية من القمة وترجَّل عنها الركَّاب الثلاثة. كان المشهد خلابًا من هناك. وبينما كانت نيكول تدرُس المشهد تذكَّرت تعجُّبها في رحلتها الأولى إلى داخل راما، عندما هبطت في التليفريك وعالم الكائنات الفضائية الشاسع يمتد أمامها متراميَ الأطراف. ففكرت نيكول مخاطِبةً الرجل النسر في عقلها: «شكرًا لك لأنك أبقيتني على قيد الحياة. لقد كنتَ محقًّا. هذه التجربة وحدَها والذكريات التي أثارتها في ذهني تُعدُّ سببًا أكثرَ من كافٍ لي كي أستمر.»

استدارت نيكول حولها لرؤية باقي الجبل. ورأت شيئًا صغيرًا يطير يدخل ويخرج بين بعض التكوينات الحمراء اللون التي تشبه الشجيرات تبعُد عنها ما لا يزيد عن عشرين مترًا. سارت إليها وأمسكت واحدةً من الكائنات الطائرة في يدها. كانت في شكلِ الفراشة وحجمِها. كانت أجنحتها مزيَّنة برسومات منوَّعة لا يتطابق بعضها مع بعض أو أي مبدأ تصميمي آخرَ استطاعت نيكول تمييزه. ثم تركت إحداها تطير وأمسكت بأخرى. فوجدت أن الرسومات على الفراشة الرامية الثانية مختلِفة تمامًا عن الأولى. ولكنها لا تزال ثرية بالألوان والزخارف.

سار الرجل النسر والدكتورة بلو إلى جوارها. أرتهما نيكول ما تحمِله في يدها. فلم يزِد الرجل النسر على أن قال: «إنها كائنات آلية طائرة.»

نظرت نيكول بإعجابٍ مرة أخرى إلى الكائن الصغير. وتذكَّرت ريتشارد وهو يقول: «هناك شيء مذهل يحدُث كل يوم. ونتذكَّر دائمًا حينها مدى متعة البقاء على قيد الحياة.»

٢

لم تكد نيكول تفرُغ من الاستحمام حتى دخل اثنان من الكائنات الآلية الغرفة. كان أحدهما سرطانًا آليًّا والآخر يشبه شاحنة صغيرة. استخدم السرطان الآلي كلَّاباته القوية بالإضافة إلى مجموعة الأدوات الملحَقة المخيفة الشكل لتقطيع الصندوق الذي كانت نيكول تنام فيه إلى قِطَع يسهُل التعامل معها. ثم كدَّس القِطَع على ظهر الشاحنة. وفي طريقه إلى خارج الغرفة بعدما أمضى فيها أقلَّ من دقيقة جذب السرطان الآلي حوضَ الاستحمام

الأبيض وجميعَ المقاعد المتبقية وكدَّسها فوق الأكوام الموضوعة على ظهر الشاحنة. ثم وضع المنضدةَ على ظهره واختفى من الغرفة الخاوية خلف الشاحنة الآلية.

عدَّلت نيكول من زيِّها. وقالت لرفيقيها: «لن أنسى قط أولَ مرة رأيت فيها سرطانًا آليًّا. كان ذلك على الشاشة الضخمة في مركز التحكُّم في سفينة نيوتن منذ سنوات طوال. وقد ارتعدت فرائصنا جميعًا.»

وبعد عدةِ ثوانٍ قالت الدكتورة بلو: «إذن فاليوم هو اليوم الموعود. هل أنتِ مستعدة للإقامة في فندق جراند؟»

قالت نيكول مبتسِمة: «على الأرجح لا. فمن واقعِ ما قلته أنت والرجل النسر، أظن أنني استمتعت بلحظات العزلة الأخيرة التي قضيتها.»

قال الرجل النسر: «إن عائلتك وأصدقاءك متلهفون للغاية لرؤيتك. لقد زرتُهم أمس وأخبرتهم أنك ستأتين ... ستمكثين مع ماكس وإيبونين وإيلي وماريوس ونيكي. أما باتريك وناي وبينجي وكيبلر وماريا فهم يقيمون في الغرفة المجاورة ... وكما أوضحت لك من قبل في الأسبوع السابق، كان باتريك وناي يعاملان ماريا كما لو أنها ابنتهما بعد أن استيقظ الجميع بوقت قصير ... ويعرفون وقائعَ كيفية إنقاذك لماريا أثناء القصف ...»

قالت نيكول وهي تتذكَّر بوضوحٍ الساعات الأخيرة في مركبة راما الفضائية القديمة: «لا أعرف هل كلمة «إنقاذ» هي الكلمة الدقيقة لما حدَث. لقد أخذتُها لأنه لم يكن هناك أحدٌ آخر كي يعتنيَ بها. وكان أيُّ شخص سيفعل ما فعلتُ.»

قال الرجل النسر: «لقد أنقذتِ حياتها. فبعد أن تركتِ حديقة الحيوانات مع الفتاة بما لا يزيد عن ساعة دمَّرت ثلاث قنابل ضخمة مكانها والقطاعين المتاخمين له. ومن المؤكد أن ماريا كانت ستلقى حتفَها لو لم تجديها.»

قالت الدكتورة بلو: «إنها الآن شابةٌ جميلة وذكية. وقد قابلتها مرة واحدة لوقت قصير قبل عدة أسابيع. وتقول إيلي إن ماريا مفعمةٌ بالحيوية والنشاط بصورةٍ لا تُصدَّق. ووفقًا لما تقول فإن الفتاة هي أول مَن يستيقظ في الصباح وآخرُ مَن يأوي إلى الفراش في المساء.»

لم تستطِع نيكول أن تمنع نفسها من التفكير: «مثل كيتي.» وتساءلت في نفسها أيضًا: «مَن أنتِ يا ماريا؟ ولماذا دخلتِ إلى حياتي في تلك اللحظة بالذات؟»

استمرَّت الدكتورة بلو في حديثها قائلة: «... أخبرتني إيلي أيضًا أن ماريا ونيكي لا تفترقان. تذاكران معًا، وتأكلان معًا، وتتحدَّثان باستمرار عن كل شيء ... وقد أخبرت نيكي ماريا بكل شيء عنك.»

ابتسمت نيكول وقالت: «كيف يمكن هذا؟! فلم تكن نيكي قد بلغت الرابعة من عمرها عندما رأيتها آخرَ مرة. وأطفال البشر لا يحتفظون بذكرياتٍ من هذا العمر المبكر …»

قال الرجل النسر: «بل يفعلون بالتأكيد إذا ناموا خلال الخمسة عشر عامًا التالية لهذه الذكريات. وكيبلر وجاليليو أيضًا يحتفظان بذكرياتٍ تفصيلية عن طفولتهما المبكرة … يمكننا التحدُّث أثناء تنقُّلنا، فقد حان وقت رحيلنا.»

ساعد الرجل النسر نيكول والدكتورة بلو على ارتداء السترات الفضائية. ثم التقط الحقيبةَ التي تضم أغراض نيكول. وقال: «لقد وضعت حقيبتك الطبية هنا مع ملابسك، وكذلك أدوات التجميل التي كنتِ تستخدمينها في الأيام الأخيرة.»

قالت نيكول: «حقيبتي الطبية؟» وضحِكت قائلة: «يا إلهي! لقد كدتُ أنساها … لقد كانت معي عندما وجدت ماريا، أليس كذلك؟ شكرًا لك!»

سار ثلاثتهم إلى خارج الغرفة التي كانت في الدَّور السفلي من الهرم الكبير. وبعد بضع دقائقَ خرجوا عبْر المدخل الكبير المقوَّس للمبنى. وكانت المركبة تنتظرهم في الخارج في ضوء المصنع الساطع. قال الرجل النسر: «سنستغرق نصف ساعة تقريبًا للوصول إلى المصاعد الفائقة السرعة. والمكُّوك مرابط على منصة الإقلاع في الطابق الأعلى.»

وبينما المركبة تنطلق استدارت نيكول ونظرت خلفها. وخلف الهرم يوجد الجبل الشاهق الذي تسلَّقوه قبل ثلاثة أيام. ثم قالت عبْر الميكروفون المثبَّت في خوذتها: «إذن ليست لديك أيُّ فكرة حقًّا عن سبب وجود الفراشات الآلية هناك؟»

قال الرجل النسر: «كلَّا! فالمهمة المخوَّلة لي تشمل دورتك فقط.»

استمرَّت نيكول في التحديق خلفها. ومرَّت العربة بمجموعة من الأعمدة الطويلة عددها عشرة أو اثنا عشر تقريبًا، مرتبطة بأسلاكٍ في أعلاها ومنتصفها وأسفلها. قالت نيكول في نفسها: «سيكون هذا كلُّه جزءًا من راما الجديدة.» وفجأةً خطر على ذهنها أنها على وشْك أن تغادر عالَم راما للمرة الأخيرة. اجتاح كِيانها حزنٌ جارف. وقالت في نفسها: «لقد كانت راما منزلي، والآن سأرحل عنها للأبد.»

قالت نيكول للرجل النسر دون أن تستدير: «هل سيكون من الممكن أن أرى أيًّا من الأجزاء الأخرى لراما قبل أن نغادر للأبد؟»

سألها الرجل النسر: «لماذا؟»

أجابته نيكول: «لست متأكدة بالضبط … ربما لألبثَ ساعة أخرى في بحر ذكرياتي.»

«لقد تمَّت إعادةُ بناء التجويفين ونصف الأسطوانة الجنوبي بالكامل بالفعل. ولن تتعرَّفي إياها، وجُفِّف البحر الأسطواني وأُزيل. حتى نيويورك يُجرى تفكيكُها ...»

فسألته نيكول: «ولكنها لم تُدمَّر تمامًا بعدُ، أليس كذلك؟»

أجابها الرجل النسر: «كلَّا، ليس بعد.»

«إذن فهل يمكننا الذهابُ إلى هناك من فضلك، برهةً قصيرة فقط؟»

قالت نيكول في نفسها: «رجاء سايرْ رغباتِ امرأةٍ عجوز. مع أنها هي نفسها لا تفهم سببًا لها.»

فقال الرجل النسر: «حسنًا، ولكننا سنتأخر. فنيويورك بعيدة عن المصنع.»

كانوا يقفون على حاجزٍ واقٍ بالقرب من قمة إحدى ناطحات السحاب الشاهقة. كان معظم نيويورك قد اختفى؛ فقد تحوَّلت المباني إلى رُكام بفعل القوة الجبارة للكائنات الآلية العملاقة. ولم يتبقَّ سوى عشرين أو ثلاثين مبنًى حول أحد الميادين.

بدأت نيكول تشرح للدكتورة بلو: «كان هناك ثلاثة مخابئ أسفل المدينة. أحدها لنا، والآخر للمخلوقات الطائرة، والثالث سكنَه ذلك الجنس البدائي من أقربائكم ... وقد كنتُ أنا بالأسفل داخل مخبأ المخلوقات الطائرة عندما جاء ريتشارد لينقذني ...» سكتت نيكول. فقد تذكَّرت أنها أخبرت الدكتورة بلو بالقصة من قبلُ وأن كائنات الأوكتوسبايدر لا تنسى أيَّ شيء قط. سألتها: «هل تمانعين أن أكمل؟»

أجابتها الأوكتوسبايدر: «رجاء أكملي.»

«طوال المدة التي قضيناها هنا، لم يعلم أيٌّ منَّا هنا على الجزيرة أن هناك مداخلَ لبعض هذه البنايات. أليس هذا مذهلًا؟ آه! كم أتمنى لو أن ريتشارد لا يزال حيًّا وأمكنني رؤية وجهه عندما فتح الرجل النسر البابَ المُطلَّ على الشكل الثماني الأسطح ... كان سيندهش بشدة ...»

وواصلت نيكول: «على أي حال، عاد ريتشارد إلى راما للعثور عليَّ ... ثم أُغرمنا ببعض، وتوصَّلنا إلى كيفية الهروب من الجزيرة بالاستعانة بالمخلوقات الطائرة ... يا له من وقتٍ رائع! قبل سنوات كثيرة مضت ...»

تقدَّمت نيكول للأمام وأمسكت بالحاجز بكلتا يديها، وأخذت تحدِّق فيما حولها. وفي عقلها ترى نيويورك كما كانت. كانت تفكِّر: «هناك كانت الأسوار. وخلفها البحر الأسطواني ... وفي مكانٍ ما في منتصف ذلك الرُّكام المعدني القبيح كانت الحظيرة والحفرة اللتان كدتُ ألقى حتفي فيهما.»

ولدهشة نيكول انهمرت الدموع فجأةً من عينيها. تدفَّقت زفات وأغرقت وجنتيها. لم تستدِر. وفكَّرت في نفسها: «ولدتُ خمسة من أولادي الستة هناك أسفل تلك الأرض. وخارج مخبئنا وجدنا ريتشارد بعد أن غاب عامَين. كان في غيبوبة.»

كانت الذكريات تتدفَّق على ذهنها واحدة تلو الأخرى، وكلٌّ منها تستدعي معها ألمًا لا تعرف سببه في قلبها وسيلًا جديدًا من الدموع على وجنتيها. ولم تستطِع نيكول إيقافَ هذه الذكريات. في مرة من المرات نزلت إلى مخبأ كائنات الأوكتوسبايدر لتنقذَ ابنتها كيتي، وفي موقفٍ آخر استعادت الشعورَ بالسعادة والابتهاج وهي تحلِّق فوق البحر الأسطواني مربوطةً بلجام بثلاثة من المخلوقات الطائرة على متن طائرة. وفكَّرت نيكول وهي تمسح عينيها بظهر يدها: «لا بد لنا من الموت في نهاية المطاف؛ لأنه لم يَعُد هناك مكانٌ في الدماغ لمزيدٍ من الذكريات.»

وبينما كانت نيكول تحدِّق في المشهد المشوَّه لنيويورك، تحوَّل في عقلها إلى ما كان عليه قبل سنوات، وجالت بخاطرها ذكرى حية لمرحلة هادئة من حياتها. تذكَّرت أمسيةً باردة من ليالي الخريف في وقتٍ متأخر من الليل في بوفوا في آخرِ أيامها على الأرض، قبل أن تذهب هي وجينفياف إلى التزلج في دافوس مباشرة. كانت نيكول تجلس مع والدها وابنتها أمام المدفأة في الفيلا الخاصة بهم. وقد كانت ذاكرةُ بيير أبيها منتعشةً للغاية في ذلك المساء. فقد قصَّ على مسامعِ نيكول وجينفياف لحظاتٍ خاصة كثيرة عندما كان يتودَّد إلى والدة نيكول.

وفي وقت لاحق، عندما أوَتا إلى الفراش، طرحت جينفياف سؤالًا على والدتها. سألتها: «لماذا يتحدَّث جَدي كثيرًا عما حدَث منذ وقت طويل؟»

أجابتها نيكول: «لأن هذا هو المهم له.»

قالت نيكول في نفسِها وهي لا تزال تحدِّق في ناطحات السحاب أمامها: «سامحوني. فلتسامحوني يا كلَّ العجائز الذين تجاهلت قِصصكم. إنني لم أقصد أن أكون وقحة أو أن أتعالى عليكم. إنني فقط لم أفهم ماذا يعني أن يكون المرء عجوزًا.»

تنهَّدت نيكول، وتنفَّست نفسًا عميقًا واستدارت لمُرافقيها. فسألتها الدكتورة بلو: «هل أنتِ بخير؟»

أومأت بالإيجاب. وقالت للرجل النسر بصوت متهدِّج: «شكرًا لك من أجل هذا. أنا مستعدة للذهاب الآن.»

رأت نيكول الأضواء فور أن أقلع المكُّوك من مربطه. ومع أن الأضواء لا تزال على بُعد يزيد على مائة كيلومتر منها، فإنها شكَّلت مشهدًا رائعًا على خلفية الظلام والنجوم البعيدة.

قال الرجل النسر: «لهذا النود رأسٌ إضافي. فهو يتخذ شكل هرم ثلاثي منتظِم، كما أن النود الذي زرته أنت بالقرب من كوكب الشَّعرى لم يكن به وحدة لتخزين المعلومات.»

حدَّقت نيكول من نافذة المكُّوك وهي تحبس أنفاسها. من بعيد بدا لها مشهد ذلك البناء المضيء يدور ببطء من بعيد كالحلم، مثل شيء اختلقه خيالها. كان في كلٍّ من الرءوس الأربعة للهرم الثلاثي كرةٌ ضخمة، تصل بينها ستة ممراتِ تنقُّل مستقيمة. كانت جميع الكرات في الحجم نفسِه بالضبط. وأيضًا الممرات الستة الرفيعة الطويلة التي تربطها ببعض في الطول نفسه بالضبط. ومن تلك المسافة امتزجت مصادرُ الأضواء داخل النود الشفافة، فبدت المنشأة بالكامل وكأنها مصباح ضوئي رباعي عملاق في ظلام الفضاء.

قالت نيكول وهي لا تستطيع العثورَ على أي كلمات أخرى تعبِّر عن الانبهار الذي تشعر به: «إنه لمشهدٌ جميل!»

قالت الدكتورة بلو من جانبها: «يجب أن تري المشهد من سطح المراقبة في جناح إقامتنا. إنه يَشدَه العقول. ونحن قريبون منه بصورة كافية لنرى الأضواء المختلفة داخل الكرات، بل بإمكاننا أن نتابع المركَبات وهي تتحرك بسرعة جيئةً وذهابًا عبْر ممرات التنقل. وبعض المقيمين في الفندق الكبير يمكثون على السطح ساعاتٍ وهم يُلهون أنفسهم بالتفكير في الأنشطة الدائرة والمتمثلة في حركة الأضواء بالداخل.»

شعرت نيكول بقشعريرة تسري في جسدها وهي تحدِّق بصمت في النود. وسمعت صوتًا يأتي من بعيد، صوت فرانشيسكا ساباتيني يتغنَّى بقصيدة درَستها نيكول للمرة الأولى وهي طالبة في المدرسة:

أيُّها النَّمر ذو الفِراء البرَّاق،
في الغابات الظلماء.
مَن ذا الذي يمكنه
أن يصنع ذلك الفِراء المهيب؟

فكَّرت نيكول: «هل مَن خَلق الحَمَل هو مَن خلقك؟» والجسم رباعي الأسطح الذي يشعُّ الأضواء يستمر في الدوران. وتذكرت حوارًا دار في وقتٍ متأخر من الليل بينها وبين مايكل أوتول عندما كانا يقيمان في النود بالقرب من كوكب الشَّعرى. حيث قال: «لا بد أن نطلق

العِنان لمفهومنا حول الإله بعد هذه التجربة. وننفُض عنا قيودَ تصوراتنا البشرية عنه ... فالإله الذي خلق مهندسي النود من المؤكد أنه يضحك من محاولاتنا المثيرة للشفقة كي نؤمن به في إطار مفاهيمنا البشرية المحدودة.»

كانت نيكول مفتونة بالنود. حتى من هذه المسافة البعيدة. وبينما كانت النود تدور ببطء، كانت تكوينات الضوء المختلفة التي يعرضها الشكلُ الرباعي الأسطح تجعل مَن ينظر إليها ينبهر بما يرى. وبينما كانت نيكول تتطلع إلى المنشأة، أخذت تغيِّر وضعها بحيث يكون أحدُ المثلثات الأربعة متساوية الأضلاع التي تشكِّل الأوجه الخاوية سطحًا مستويًا في وضعٍ عمودي على مسار طيران المكُّوك. كانت النود تبدو مختلفة تمامًا، كما لو أنها مسطَّحة لا عمقَ لها. بدا الرأس الرابع الذي كان في الواقع وراء السطح المستوي المقابِل لنيكول بمسافة ثلاثين كيلومترًا كشريط من الضوء في مركز المثلث المواجه لهم.

وعندما غيَّر المكُّوك اتجاهه فجأةً لم تَعُد النود بادية في الأفق. وبدلًا منها استطاعت نيكول أن ترى نجمًا أصفرَ مضيئًا وحيدًا على مسافة بعيدة منهم. قال لها الرجل النسر: «هذا هو تاو سيتي؛ إنه نجمٌ يشبه شمسكم إلى حدٍّ بعيد.»

قالت نيكول: «هل من الممكن أن أسأل: لماذا توجد هذه النود هنا بجوار تاو سيتي؟»

أجاب الرجل النسر: «إنه مكانٌ مؤقت مثالي لدعم أنشطة جمْع البيانات في هذا الجزء من المجرَّة.»

وكزَت نيكول الدكتورة بلو. وقالت مبتسِمة: «هل يتحدَّث مهندسوكم في بعض الأحيان بهذه المصطلحات المتخصصة غير المفهومة بالألوان؟ فقد منحنا مضيِّفنا لتوه إجابةً بدون إجابة.»

أجابتها الأوكتوسبايدر: «إننا كجنس من الأجناس أكثرُ تواضعًا من جنسكم. وهذا على الأرجح يرجع إلى علاقتنا بالسلف. إننا لا نطالب بضرورة فهْم كل شيء.»

شعرت نيكول فجأةً بأن جُلَّ اهتمامها كان متمحورًا حول ذاتها، فقالت للدكتورة بلو في أسلوبٍ اعتذاري: «لقد تحدَّثنا قليلًا جدًّا عن جنسكم منذ أن استيقظت، مع أني أتذكَّر أنك أخبرتني أن قائدتكم المثلى السابقة ومجلسها وجميعَ مَن شارك في شن الحرب قد أُنهيت حياتهم بأسلوبٍ منظَّم. فهل القيادة الجديدة تعمل بصورةٍ جيدة؟»

أجابتها الدكتورة بلو: «تقريبًا، بالنظر إلى صعوبةِ ظروفنا المعيشية. فجيمي يعمل في الدرجة الثانية من مجلس القيادة الجديد، ومشغول جدًّا في نهار يومه. ونحن لم نستطِع الوصولَ إلى أي نوع من التوازن في مستوطنتنا نظرًا لوجود احتكاك دائم بالخارج.»

أضاف الرجل النسر: «يرجع سببُ أغلب هذا الاحتكاكِ إلى البشر على متن السفينة. إننا لم نناقش هذا الموضوع من قبلُ يا نيكول، ولكن ربما يكون الآن الوقت المناسب … لقد فوجئنا من فشلِ بني جنسك في التكيُّف مع العيش مع أجناسٍ مختلفة من الكائنات. قلةٌ قليلة منهم فقط يتقبَّلون فكرةَ أن الأجناس الأخرى قد تكون على المستوى نفسِه من الأهمية والمقدرة مثلهم.»

قالت نيكول: «لقد أخبرتك بهذا بعد أن تقابلنا مباشرةً قبل سنوات. وأوضحت لك أنه لعددٍ مختلف من الأسباب التاريخية والاجتماعية، هناك مجموعةٌ كبيرة من الطُّرق التي يستجيب بها البشر للأفكار والمفاهيم الجديدة.»

أجابها الرجل النسر: «أعلم أنك فعلتِ ذلك، ولكن تجربتنا معكِ ومع عائلتك ضلَّلتنا. فقبل إيقاظنا لجميع الناجين توصَّلنا إلى نتيجة مبدئية مُفادها أن ما حدَث في عدن الجديدة، عندما استحوذ العدوانيون والعسكريون من البشر على السلطة، حالةٌ شاذة يفسرها التركيب السكاني الخاص لسكان المستعمَرة. والآن بعد أن راقبنا التفاعلَ في الفندق الكبير مدة عام توصَّلنا إلى أن لدينا بالفعل مجموعةً من البشر تنطبق عليها كافة الصفات البشرية النموذجية في راما.»

قالت نيكول: «هذا يبدو وكأنه تمهيدٌ لأخبارٍ غير طيبة. هل هناك أشياءُ أخرى أحتاج إلى معرفتها قبل أن أصل؟»

قال الرجل النسر: «لا. نحن نسيطر على الموقف الآن. وأنا واثقٌ من أن زملاءك سيطلعونك على أهمِّ التفاصيل عن تجاربهم … فضلًا عن أن الوضع الحالي مؤقَّت فقط، وهذه المرحلة على وشْك الانتهاء.»

قالت الدكتورة بلو: «في البداية كان جميع الناجين من راما متناثرين في كل مكان من مركبةِ نجمة البحر. وفي كل مكان يوجد بعضُ البشر وبعض كائنات الأوكتوسبايدر وعدد قليل من الكائنات الخدمية التي سُمح بإبقائها على قيد الحياة نظرًا للدور الحيوي الذي تلعبه في نظامنا الاجتماعي. ولكن تغيَّر هذا كلُّه بعد بضعة أشهر؛ نظرًا لاستمرار الأعمال العدائية والعدوانية من جانب البشر في المقام الأول … والآن فإن أماكن العيش لكل جنس قاصرةٌ على منطقة واحدة.

قالت نيكول: «الفصل العنصري! إنه أحدُ الخصائص المميزة لنوعي.»

قال الرجل النسر: «يحدُث التفاعل بين أنواع الكائنات المختلفة الآن في المطعم وفي الأماكن العامة الأخرى في منتصف سفينة نجمة البحر فقط. وعلى أي حال أكثرُ من

نصف البشر لا يتركون المكانَ المخصَّص لهم إلا لتناول الطعام، ويتجنَّبون تمامًا الاختلاطَ بالأجناس الأخرى حتى في ذلك الوقت ... من وجهة نظرنا، فإن البشر يرهبون الغرباء ويكرهون التعاملَ معهم بصورة مذهلة. ولا يوجد كثيرٌ من الأمثلة في قاعدة البيانات لدينا لكائناتٍ مسافرة عبْر الفضاء متخلفة اجتماعيًّا مثل نوعكم.»

انحرف المكُّوك إلى مسارٍ جديد، ومرة أخرى احتل شكلٌ جديد رباعي الأسطح مجالَ الرؤية أمامهم. لقد اقتربوا كثيرًا. كان يمكن تمييزُ مصادرِ ضوءٍ متفرِّقة عديدة داخل الكرات وفي خطوط التنقُّل الرفيعة الطويلة التي تربطها أيضًا. حدَّقت نيكول في المشهد الجميل أمامها وتنهَّدت بعمق. لقد أحبطها الحوار الذي دار بينها وبين الرجل النسر والدكتورة بلو. وفكَّرت في نفسها: «ربما كان ريتشارد محقًّا؛ ربما لا يمكن تغييرُ البشرية إلا إذا مُحيت ذاكرتها بالكامل، وبدأنا من جديد، في بيئةٍ جديدة، وإطار حياة مُحدث.»

كان قلب نيكول يخفق بشدة والمكُّوك يقترب من نجمة البحر، ونصحت نفسَها بألا تقلق بشأن الأمور السخيفة، ولكنها مع ذلك شعرت بعدم الاطمئنان إزاء مظهرها. نظرت إلى المرآة وهي تضع بعضَ اللمسات لتحسين مساحيق التجميل التي تضعها. ولم تستطِع التخفيف من حدةِ قلقها. وحدَّثت نفسها: «إنني عجوز. سيراني الأطفال قبيحة.»

لم تكن سفينة نجمة البحر كبيرة في الحجم مثلما كانت راما. فكان من السهل على نيكول أن تفهم سببَ ازدحامها من الداخل. شرح لها الرجل النسر أن التدخُّل كان خطةً طارئة وأن راما قد وصلت إلى النود، نتيجةً لذلك، قبل عدة سنوات عمَّا كان مخططًا لها مسبقًا. وهذه النجمة بعينها أُعيد بناؤها لتكون فندقًا مؤقتًا لاستضافةِ ساكني راما إلى حين يمكن نقلُهم إلى مكانٍ آخر، وهي مركبة فضائية مهجورة أفلتت بطريقةٍ أو بأخرى من عملية إعادة التدوير.

قال الرجل النسر: «وقد أصدرنا أوامرَ صارمةً أن يكون دخولك سلسًا قدْر الإمكان. فإننا لا نريد إرهاقَ جسدك أكثرَ من اللازم. وقد أعدَّ المكعب الكبير وجيشه الأروقةَ والمناطق العامة التي تقود من محطة إقلاع المكُّوك وهبوطه إلى غرفتك.»

سألت نيكول الرجل النسر: «إذن فإنك لن تذهب معي؟»

أجابها: «كلَّا. لديَّ عملٌ أقوم به في النود.»

قالت الدكتورة بلو: «سأصطحبك عبْر سطح المراقبة حتى مدخل جناح إقامة البشر فقط. بعدها ستواصلين وحدَك. ولحسن الحظ فإن غرفتك ليست بعيدة عن مدخل الجناح.»

ظلَّ الرجل النسر في المكُّوك بينما هبطت نيكول والدكتورة بلو منه. وقد لوَّح لهما الرجل الفضائي الطائر مودِّعًا وهما تدخلان إلى غرفة معادلة الضغط. وعندما انتقلتا بعد بضع دقائق إلى غرفة ملابس كبيرة على الجانب الآخر من الحجرة استقبل نيكول والدكتورة بلو كائنٌ آلي يُطلق عليه المكعَّب الكبير وألقى عليهما التحية.

قال الكائن الآلي العملاق: «مرحبًا يا نيكول دي جاردان ويكفيلد. إننا سعداء بوصولك المرتقب ... من فضلك ارتدي سترة الفضاء الخاصة بك الموجودة على المقعد إلى يمينك.»

كان طول المكعَّب الكبير أقلَّ من ثلاثة أمتار قليلًا، وعرضه نحو مترين ويتكوَّن من كتلٍ مستطيلة مشابِهة لتلك التي يلعب بها أطفال البشر، ويشبه تمامًا الآلي الذي أشرف على اختبارات الهندسة الوراثية التي خضعَت لها نيكول وعائلتها في النود بالقرب من كوكب الشَّعرى قبل سنوات، قبل أن يعودوا إلى النظام الشمسي. كان الروبوت أطولَ من نيكول والأوكتوسبايدر الذي كان يصغُره حجمًا بكثير.

قال المكعب الكبير بصوته الآلي: «مع أني واثقٌ من أنكما لن تسبِّبا أي مشكلات، فإنني أريد أن أذكِّركما بأن جميع الأوامر التي أصدرها أنا أو أيٌّ من الكائنات الآلية المشابِهة الأصغر حجمًا يجب أن تنفِّذاها دون تردُّد. هدفنا هو الحفاظ على النظام في هذه المركبة ... والآن اتبعاني من فضلكما.»

استدار المكعب الكبير مرتكزًا على المفاصل في منتصف جسده، وتقدَّم إلى الأمام على قدمه الأسطوانية الوحيدة. وقال الآلي: «يطلَق على هذه الغرفة الكبيرة سطح المراقبة. وهي عادةً أكثرُ الغرف العامة ازدحامًا. وقد أخليناها مؤقتًا الليلةَ كي نسهِّل عليك الوصول إلى الجناح الذي ستسكنينه.»

توقَّفت نيكول والدكتورة بلو دقيقةً أمام النافذة الضخمة التي تُطِلُّ على النود. كان المشهد رائعًا بالفعل، ولكن لم تستطِع نيكول التركيزَ على جمال معمار الكائنات الفضائية ونظامها المهيب. فقد كانت متلهِّفة لرؤية عائلتها وأصدقائها.

ظلَّ المكعب الكبير على سطح المراقبة في حين سارت نيكول ورفيقتها الأوكتوسبايدر عبْر الرواق الواسع الذي يحيط بالمركبة الفضائية. وقد شرحت الدكتورة بلو لنيكول كيفيةَ تحديد الأماكن التي تتوقَّف فيها عربات الترام. وأخبرت الأوكتوسبايدر نيكول أيضًا أن البشر يعيشون في الجناح الثالث، إذا تحرَّكت في أيٍّ من الاتجاهين من محطة المكُّوك، وتعيش كائنات الأوكتوسبايدر في الجناحين إلى جوارِ المحطة مباشرةً في اتجاه عقارب الساعة. وقالت الدكتورة بلو بألوانها: «والجناحان الخامس والسادس مصمَّمان بصورة

مختلفة. فجميع الكائنات الأخرى تعيش هناك، بالإضافة إلى البشر وكائنات الأوكتوسبايدر التي وُضعت تحت الحراسة.»

سألتها نيكول: «إذن هل جاليليو في سجنٍ من نوعٍ ما؟»

أجابتها الدكتورة بلو: «ليس بالضبط. كلُّ ما في الأمر أن هناك مزيدًا من روبوتات المكعبات الأصغر حجمًا في ذلك الجزء من سفينة نجمة البحر.»

خرجتا الاثنتان من الترام معًا بعد أن قطعتا مسافةً تبلغ نصف المسافة حول سفينة نجمة البحر. وعندما وصلتا إلى مدخل جناح البشر رفعت الدكتورة بلو جهاز الفحص أمام نيكول وقرأت النتائجَ التي ظهرت بألوانٍ على الشاشة. وبالاعتماد على البيانات المبدئية التي رأتها استخدمت الأوكتوسبايدر الأهداب الموجودة أسفل إحدى لوامسها لطلبِ مزيدٍ من المعلومات.

فسألتها نيكول: «هل هناك خطْبٌ ما؟»

قالت الدكتورة بلو: «لقد ازدادت خفقات قلبك عدة مرات في الساعة الأخيرة. لقد أردتُ فقط فحصَ مدى عدم الانتظام في الخفقان وعدد مرات حدوثه.»

قالت نيكول: «أنا منفعلة بشدة. ومن الطبيعي في البشر أن يسبِّب الانفعال ...»

قالت الدكتورة بلو: «أعلم، ولكن الرجل النسر طلب مني أن أكون حريصةً للغاية.»

توقَّفت الألوان عن التدفُّق حول رأس الأوكتوسبايدر عدة ثوانٍ بينما كانت تدرُس البيانات على الشاشة. ثم قالت في النهاية: «أظن أن الأمور بخير، ولكن إذا شعرتِ بأقلِّ ألمٍ في الصدر أو ضيق مفاجئ في التنفس، لا تترددي في الضغط على زر الطوارئ في غرفتك.»

عانقت نيكول الدكتورة بلو. وقالت: «شكرًا جزيلًا لك. لقد كنتِ رائعة معي.»

قالت الدكتورة بلو: «كان هذا من دواعي سروري. وأتمنى أن يسير كل شيء على ما يرام ... غرفتك هي الحادية والأربعون في ذلك الرواق، أعتقد الباب العشرين إلى اليسار. والترام يتوقف كلَّ خمس غرف.»

تنفَّست نيكول نفسًا عميقًا واستدارت. وجدت الترام الأصغر ينتظرها. فجرَّت هي قدمَيها إليه واستقلته بعد أن لوَّحت مودِّعة للدكتورة بلو. وبعد دقيقة أو اثنتين كانت نيكول تقف أمام بابٍ مثل كافة الأبواب مرقوم بواحد وأربعين.

طرقَت نيكول الباب. فُتح على الفور واستقبلتها خمسة وجوه باسمة. قال ماكس بابتسامة عريضة تزيِّن وجهه وهو فاتح ذراعيه: «مرحبًا بك في الفندق الكبير. تعالي إلى هنا وعانقي فتى المزرعة من آركنسو.»

شعرت نيكول بيدٍ تمسك بيدها بمجرد أن دلفت إلى الغرفة. كانت إيلي التي قالت: «مرحبًا يا أمي.» استدارت نيكول ونظرت إلى ابنتها الصغرى. كان شعر إيلي تحوَّل إلى اللون الرمادي عند صدغيها، ولكنَّ عينيها نقيتان ومتلألئتان مثلما كانتا دائمًا.

فقالت نيكول ودموعها تنفجر من عينيها: «مرحبًا يا إيلي.» ولم تكن تلك آخرَ دموع تذرفها نيكول أثناء احتفالهم بلمِّ الشمل ساعاتٍ عديدة. .

٣

كانت الحجرة التي أقامت فيها مجموعة البشر المربعة الشكل يبلغ طول كل جانب من جوانبها سبعة أمتار تقريبًا. بمحاذاة الجدار الخلفي كان يوجد حمَّام مغلق، به حوض استحمام ودش ومرحاض. وإلى جوار الحمَّام خزانة كبيرة مفتوحة تحتوي على جميع ملابسهم وأغراضهم الأخرى. في وقت النوم تُخرَج فُرش النوم من الخزانة وتُوضع على الأرض، ثم تُطوى كلَّ يوم وتُوضع في الخزانة.

في الليلة الأولى نامت نيكول بين إيلي ونيكي، بينما نام ماكس وإيبونين وماريوس في الجانب الآخر من الغرفة بجوار المنضدة والمقاعد الستة التي لم يحوِ جناحهم السكني أيَّ أثاث سواها. كانت نيكول منهكة القوى تمامًا لدرجة أنها غطَّت في سُبات عميق حتى قبل أن تُطفأ الأنوار ويستعد الجميع للنوم. وبعد أن نامت خمس ساعات تقريبًا استيقظت فجأة، وللحظةٍ لم تعرف أين هي بالضبط.

وبينما كانت ترقد في الظلام والصمت من حولها فكَّرت في أحداث الليلة السابقة. ففي أثناء احتفالهم بلمِّ الشمل اجتاحت نيكول مشاعرُ قوية للغاية حتى إنها لم تجد وقتًا لإدراك ردودِ أفعالها تجاه ما كانت تراه وتسمعه. فبعد أن دلفَت نيكول إلى الغرفة مباشرةً ذهبت نيكي إلى الغرفة المجاورة لتنادي الآخرين. وفي الساعتين التاليتين كان في الغرفة المزدحمة أحد عشر شخصًا، يتحدَّث ثلاثة أو أربعة منهم على الأقل طوال الوقت. ودار حوارٌ قصير بين نيكول وكل شخص على حدةٍ خلال الساعتين، وكان من المستحيل لها أن تناقش أي شيء بالتفصيل.

كان الشباب الأربعة، كيبلر وماريوس ونيكي وماريا، خجولين. شكرت ماريا التي تباينت زرقةُ عينيها بشدة مع بشرتها النحاسية وشعرها الأسود الطويل نيكول بشدة لأنها أنقذتها. واعترفت بأسلوبٍ مهذَّب بأنها لا تحمل أيَّ ذكريات من أي نوع عن الفترة التي قضتها من حياتها قبل أن تخلُد إلى النوم. أما نيكي فكانت قلِقة وخجلى في حديثها المنفرد

مع جَدتها. وظنَّت نيكول أنها رأت قدْرًا من الخوف في عيني نيكي، إلا أن إيلي أخبرتها فيما بعد أن ما رأته كان على الأرجح رهبة؛ فقد سمِعت نيكي قصصًا كثيرة عن نيكول فشعرت أنها تقابل أسطورة.

أما الشابان فكانا مهذَّبين ولكنهما متحفِّظان. وقد رأت نيكول في وقتٍ من ذلك المساء كيبلر يحدِّق فيها عبْر الغرفة بحدة شديدة. فذكَّرت نيكول نفسَها أنها أول امرأة عجوز يراها الأولاد. وفكَّرت في نفسها: «يواجه الشباب على وجهِ الخصوص صعوبةً مع النساء العجائز الضامرات. فهذا يحطِّم الصور الجميلة التي رسموها في أذهانهم عن الجنس الآخر.»

أما بينجي فقد رحَّب بوالدته بعِناق قوي. فقد رفعها من فوق الأرض بذراعيه القويتين وهو يصرخ بسعادة: «أمي! أمي!» وأخذ يدور بها ورأسُها مرتفع فوق رأسه. كان بينجي يبدو بخير وقد تفاجأت نيكول عندما رأت أن شَعره قد انحسر عن مقدَّم رأسه وأنه أصبح يشبه الأعمام. ولكنها قالت لنفسها في وقتٍ لاحق إن مظهر بينجي ليس مفاجئًا لهذا الحد؛ فهو في الأربعين من عمره تقريبًا.

وكان استقبال باتريك وناي لها شديدَ الدفء. وبدت إيلي متعَبة، ولكنها قالت إن يومها كان مشحونًا. وشرحت إيلي لنيكول أنها أخذت على عاتقها مهمةَ الحثِّ على إقامة أنشطة اجتماعية بين الأجناس المختلفة من الكائنات في الفندق الكبير. وقالت: «هذا أقلُّ ما يمكنني فِعله لأنني الوحيدة التي أتحدَّث لغة كائنات الأوكتوسبايدر ... وأتمنَّى أن تساعديني عندما تستعيدين قواك.»

تحدَّث باتريك بهدوء إلى نيكول عن قلقه على ناي. فقال: «موضوع جاليليو هذا يفطر قلبَها يا أمي. إنها تستشيط غضبًا لأن المكعبات الآلية، كما نُطلِق عليهم، نقلوا جاليليو من أجنحة الإقامة العادية دون تفسير ودون أي شيء يجعلنا نرى أن ما حدَث «إجراء قانوني». وهي غاضبة أيضًا لأنه لا يُسمح لها بقضاء أكثر من ساعتين معه في اليوم ... وأنا واثق من أنها ستطلب منك المساعدة.»

لقد تغيَّرت ناي. اختفى من عينيها التألق والهوادة، وكانت سلبية على غير طبيعتها، حتى في أول تعليق لها لنيكول. فقد قالت: «إننا نعيش في أسوأ نوع من أنواع الدول البوليسية هنا يا نيكول. أسوأ كثيرًا من وضْعنا في ظل حُكم ناكامورا. وبعد أن تستقري لديَّ كثير من الأمور لأطلعك عليها.»

أما ماكس باكيت وزوجته الفرنسية الحبيبة، إيبونين، فقد تقدَّما في العمر، مثل الآخرين، ولكن كان واضحًا أن حُب أحدهما للآخر ولابنهما ماريوس أعانهما على الحياة

يومًا بيوم. وعندما سألت نيكول إيبونين عما إذا كانت ظروف المعيشة في الغرفة المزدحمة تضايقها، هزَّت الأخيرة كتفيها نافية. وأجابت: «لا. لا تنسي أنني قضيت طفولتي في دار أيتام في ليموج ... بالإضافة إلى أنني سعيدة لمجرد أني على قيد الحياة وأن ماكس وماريوس إلى جواري. فلسنوات ظننتُ أنني لن أعيش حتى أرى الشيبَ يَخِطُ شَعري.»

أما ماكس فقد ظل على طبعه العنيد الذي لا يستطيع كبْحَه. وقد أصبح شَعره هو الآخر أبيض، وفقد قليلًا من رشاقة مِشيته. ولكن أدركت نيكول من عينيه أنه يستمتع بحياته. وفي ذلك المساء قال ماكس لنيكول: «هناك شخصٌ أقابله دائمًا في قاعة التدخين، إنه معجب جدًّا بقصتك ... وقد نجا بطريقة أو بأخرى من الوباء، مع أن زوجته لم تنجُ ...» ثم ابتسم وقال: «على أي حال، أظن أني سأحرص على أن أرتِّب لكما لقاءً عندما يتاح لك وقت فراغ ... إنه أصغر منك قليلًا ولكني لا أظن أن هذه مشكلة ...»

سألت نيكول ماكس عن المشكلات بين البشر وكائنات الأوكتوسبايدر. فقال: «كما تعرفين، لقد نشبت الحرب قبل خمسة عشر أو ستة عشر عامًا، ولكن لا يوجد لدى أيٍّ من البشر أيُّ ذكريات عن الفترة الفاصلة تهدِّئ من غضبه. فكلُّ شخص هنا فقدَ شخصًا ما؛ صديقًا أو قريبًا أو جارًا، في ذلك الوباء الفظيع. وهم لا يستطيعون أن ينسوا سريعًا أن كائنات الأوكتوسبايدر هي السبب في ذلك الوباء.»

قالت نيكول: «ولكن كان ذلك ردًّا على عدوان جيش البشر.»

«ولكن معظم البشر هنا لا يرون الأمر هكذا. ربما يصدِّقون الدعايةَ التي أخبرهم بها ناكامورا وليس تاريخ وقائع الحرب «الفعلية» الذي عرضه صديقك الرجل النسر بعد أن نُقلنا إلى هنا بفترة وجيزة ... والحقيقة هي أن معظم البشر يكرهون كائنات الأوكتوسبايدر ويخافون منها. ولم يقُم سوى عشرين بالمائة فقط من البشر بمحاولاتٍ للاختلاط اجتماعيًّا معهم، أو تعلُّم أي شيء عن كائنات الأوكتوسبايدر، على الرغم من جهود إيلي الشجاعة. ومعظم البشر يمكثون في الجناح المخصَّص لنا ... ولسوء الحظ فإن أجنحةَ المعيشة المزدحمة هنا لا تساعد على التخفيف من حدةِ هذه المشكلة.»

تقلَّبت نيكول في فِراشها. كانت إيلي نائمةً بمواجهتها. كانت عينا إيلي تختلجان وهي نائمة، ففكَّرت نيكول: «إنها تحلُم. أتمنى ألا تكون تحلُم بروبرت.» وفكَّرت مرة أخرى في لمِّ الشمل مع عائلتها وأصدقائها. قالت في نفسها: «أظن أن الرجل النسر كان يعرف ما يفعله عندما أبقاني على قيدِ الحياة. حتى إذا لم يكن لديه مهمةٌ محدَّدة لي لأقُم بها ... فما دُمت قادرة ولست عبئًا عليهم، يمكنني أن أساعدهم هنا.»

قال ماكس لنيكول: «ستكون هذه هي أول تجربة كبرى لك في الفندق الكبير. في كل مرة أذهب إلى المطعم في أثناء الساعات المفتوحة أتذكَّر يوم الاحتفال بعيد النِّعم في مدينة الزمرد ... ستنبهرين بتلك الكائنات الغريبة التي أحضرَتها كائنات الأوكتوسبايدر معها، ولكنني أكون أكثرَ ارتياحًا عندما لا تكون موجودة.»

فسأل ماريوس والده: «ألا يمكننا الانتظارُ حتى يحين وقتُنا يا أبي؟ فكائنات الإجوانا تخيف نيكي. إنها تحدِّق فينا بعيونها الصفراء وتصدِر صوتَ قرقرة كريهًا وهي تأكل.»

قال ماكس: «يا بني، يمكنك الانتظار أنت ونيكي مع الآخرين حتى يحين وقتُ غدائنا المنفصِل إذا أردت. نيكول تودُّ تناوُل الطعام مع جميع النزلاء. فهذه مسألة مبدأ لها ... وسأصحبها أنا ووالدتك للتأكد من أنها تعلم النظام المتَّبع بالمطعم.»

قالت نيكول: «لا تقلق عليَّ. أنا واثقة من أن إيلي أو باتريك ...»

فقاطعها ماكس: «لا تقولي ذلك! سنسعد أنا وإيبونين بصحبتك ... إلى جانب أن باتريك ذهب مع ناي لزيارة جاليليو، وإيلي بالأعلى في غرفة الاستجمام، وبينجي يقرأ مع كيبلر وماريا.»

قالت نيكول: «إنني أقدِّر تفهُّمك يا ماكس. إنه لأمرٌ مهم لي أن يكون أولُ انطباع أتركه جيدًا، ولا سيما في البداية ... لمْ يخبرني الرجلُ النسر ولا الدكتورة بلو كثيرًا من التفاصيل عن المشكلة ...»

فأجابها ماكس: «لا حاجةَ لك أن تشرحي. في الحقيقة بعد أن نِمْت الليلةَ الماضية أخبرتُ فرنسيتي أنني متأكد أنك تودِّين الاندماجَ مع الآخرين.» ثم ضحِك وقال: «لا تنسي أننا نعرفك جيدًا.»

بعد أن انضمَّت إيبونين إليهما خرجوا إلى الرواق. كان خاويًا تقريبًا. وكان عددٌ قليل من البشر يسيرون في الممر على يسارهم، مبتعدين عن مركز مركبة النجم، وهناك رجل وسيدة يقفان معًا عند مدخل الجناح المخصَّص لهم.

انتظر ثلاثتهم وصولَ الترام دقيقتين أو ثلاثة. وعندما اقتربوا من المحطة الأخيرة انحنى ماكس ناحية نيكول. وقال: «هذان الشخصان اللذان يقفان عند مدخل الجناح لا يمضيان وقتًا فحسب ... إنهما ناشطان بارزان في المجلس ... انتهازيان للغاية ويتشبثان برأيهما لأبعد مدًى.»

اتكأت نيكول على ذراع ماكس عندما عرض عليها ذلك وهم ينزلون من العربة. وهمست عندما بدأ الاثنان يتَّجهان إليهم: «ماذا يريدان؟»

فتمتم ماكس بسرعة: «لا أعلم، ولكننا سنكتشف سريعًا.»

قال الرجل: «يوم سعيد يا ماكس! مرحبًا يا إيبونين!» كان رجلًا بدينًا في بداية الأربعينيات من عمره. ونظر إلى نيكول ورسم على شفتيه ابتسامةً دبلوماسية عريضة. وقال وهو يمُدُّ يده لمصافحتها: «لا بد أنك نيكول ويكفيلد، لقد سمعنا جميعًا كثيرًا عنك ... مرحبًا! ... مرحبًا أنا ستيفن كوالسكي.»

وقالت السيدة وهي تتقدَّم إليها أيضًا وتمدُّ يدها باتجاهها: «وأنا رونيه دو بون.»

بعد تبادُل بعض عبارات المجاملة سأل السيد كوالسكي ماكس عمَّا يفعله ثلاثتهم. فأجابه ماكس ببساطة: «إننا نصطحب السيدة نيكول لتناول الغداء.»

قال الرجل بابتسامة كبيرة أخرى: «إننا لا نزال في وقت الغداء الجماعي.» ونظر إلى ساعته. ثم استأنف: «لمَ لا تنتظرون خمسًا وأربعين دقيقة أخرى وسأنضم إليكم أنا ورونيه؟ إننا عضوان في المجلس، كما تعلمون، ونود كثيرًا التحدُّث إلى السيدة نيكول عن أنشطتنا ... وبالطبع سيودُّ المجلس الاستماعَ إليها في المستقبل القريب.»

قال ماكس: «شكرًا للعرض يا ستيفن. ولكننا جائعون. نريد أن نأكل الآن.»

قطَّب السيد كوالسكي ما بين حاجبيه. وقال: «لو كنت مكانك ما فعلتُ هذا يا ماكس. فهناك كثيرٌ من التوتر في هذا الوقت ... فبعد تلك الحادثة بالأمس في حوض السباحة صوَّت المجلس بالإجماع على مقاطعةِ جميع الأنشطة الجماعية لليومين القادمين ... فقد استشاطت إيميلي غضبًا لأن المكعب الكبير أخضع جارلاند للمراقبة ولم يتَّخذ أيَّ إجراء تأديبي من أي نوع ضد الأوكتوسبايدر المعتدي ... وهذه هي المرة الرابعة على التوالي التي تحكُم فيها المكعبات الآلية ضدنا.»

قال ماكس: «بربك يا ستيفن! لقد سمعت القصة على العشاء ليلة أمس ... لقد ظل جارلاند في حمَّام السباحة بعد خمس عشرة دقيقة من انتهاء الوقت المخصَّص للبشر ... وهو الذي اعتدى على الأوكتوسبايدر أولًا.»

قالت رونيه دو بون: «إنه استفزاز متعمَّد. فلم يكن هناك سوى ثلاثة كائنات أوكتوسبايدر في حمَّام السباحة ... ولم يكن هناك سببٌ لوجود أحدهم في الحارة التي كان جارلاند يسبح فيها قاطعًا الحوضَ من بدايته إلى نهايته.»

قال ستيفن: «بالإضافة إلى هذا، وكما ناقشنا في المجلس الليلةَ السابقة، فإن تفاصيلَ هذه الحادثة بالتحديد ليست هي اهتمامنا الرئيسي. فمن الضروري أن نبعث برسالة لكلٍّ من المكعَّبات الآلية وكائنات الأوكتوسبايدر ليعلموا من خلالها أننا متَّحِدون فيما بيننا ... وسيعقد المجلس جلسةً خاصة مرةً أخرى الليلة لوضع قائمة بمظالمنا ...»

بدأ ماكس يغضب. قال بفظاظة: «شكرًا لك لإطلاعنا يا ستيفن. والآن هل تسمح بالابتعاد عن طريقنا؛ فنحن نودُّ أن نذهب لتناول الغداء.»

قال السيد كوالسكي: «إنكم ترتكبون خطأ. فستكونون البشر الوحيدين في المطعم ... ونحن بالطبع سنقدِّم تقريرًا بشأن ما دار بيننا من حوار في اجتماع المجلس الليلة.»

قال ماكس: «امضِ فيما تريد.»

سار ماكس وإيبونين ونيكول إلى الرواق الرئيسي الذي يشكِّل حلقة حول مركز سفينة نجمة البحر. فسألت نيكول: «ما ذاك المجلس؟»

أجابها ماكس: «مجموعة، يمكن القول إنها عيَّنت نفسَها بنفسها تدَّعي أنها تمثِّل جميعَ البشر. في البداية كانوا مصدَر إزعاج فقط ولكن في الشهور القليلة الأخيرة بدءوا يكتسبون قدْرًا من النفوذ ... حتى إنهم جنَّدوا المسكينةَ ناي إلى صفوفهم عندما عرضوا عليها أن يساعدوها في حل مشكلة جاليليو.»

توقَّف الترام الكبير على بُعد عشرين مترًا إلى يمينهم وترجَّل عنه اثنان من الإجوانا؟ فسار إليهما اثنان من المكعبات الآلية، كانا يقفان دون أن يلحظهما أحدٌ على الجانب بعيدًا عنهم، إلى الممر بين البشر والحيوانين الغريبين ذَوَي الأسنان المخيفة. وعندما رجع حيوانا الإجوانا بالقرب منهم وهما يسيران إلى جانب الحائط، تذكَّرت نيكول الهجومَ على نيكي يوم الاحتفال بعيد النعم.

فسألت نيكول ماكس: «لماذا توجد هذه الكائنات هنا؟ أظن أنها تتسبَّب في مشكلات جمة ...»

«لقد شرح المكعَّب الكبير والرجل النسر في موقفين مختلفين لجميع البشر أن الإجوانا ضروريةٌ لعملية إنتاج نبات الباريكان، الذي ينهار من غيره مجتمع كائنات الأوكتوسبايدر ... لم أتابع جميعَ تفاصيل التفسير المستنَد لعلم الأحياء، ولكني أتذكَّر أن بيض الإجوانا الطازج حلقة مهمة في العملية ... وقد شدَّد الرجل النسر مرارًا وتكرارًا على أن الحد الأدنى فقط من حيوانات الإجوانا هو الموجود في الفندق الكبير.»

كان ثلاثتهم بالقُرب من مدخل المطعم، فسألت نيكول: «هل سبَّبت حيوانات الإجوانا مشكلاتٍ كثيرة؟»

قال ماكس: «لا. إنها من الممكن أن تكون خطيرة، كما تعلمين، ولكن إذا نظرتِ سريعًا إلى هذا الهراء كله الذي طرحه المجلس، فستستنتجين أنه لم يكن هناك سوى بضع حوادث فقط بدأت فيها الإجوانا بالهجوم دون أن يستفزَّها أحد ... وقد بدأ البشر معظم المشاجرات ... وقد قتلَ ابننا جاليليو اثنين منهما في إحدى الليالي في المطعم في إحدى نوباته العنيفة.»

لاحظ ماكس ردَّ فعل نيكول القوي لتعليقه الأخير. فقال وهو يهزُّ رأسه في أسف: «لا أريد أن أكون أنا مَن أفصح عن الأسرار، ولكن موضوع جاليليو هذا مزَّق عائلتنا الصغيرة ... وقد وعدت إيبونين أن أدَعكِ تتحدثين إلى ناي أولًا بهذا الشأن.»

كانت المكعبات الآلية الأصغرُ حجمًا قد بُنيت على النمط نفسِه الذي صُمِّم عليه المكعب الكبير. وكان اثنا عشر منهم يقدِّمون الطعام في المطعم، وستة أو ثمانية آخرون يقفون حول منطقة الطعام. وعندما دلفت نيكول وأصدقاؤها كان بالمطعم أربعمائة أو خمسمائة من كائنات الأوكتوسبايدر، بالإضافة إلى مخزنين ضخمين وثمانين تقريبًا من الأقزام يأكلون على الأرض في الزاوية. وقد استدار كثيرون منهم لرؤية ماكس وإيبونين ونيكول يمرون بين الصفوف. وتوقَّف اثنا عشر من كائنات الإجوانا عن تناول الطعام كانوا يجلسون في مكانٍ ليس ببعيد عن صفِّ تقديم الطعام ونظروا إلى البشر بحذر.

فوجئت نيكول لرؤية أصناف الطعام الكثيرة المتاحة. اختارت صِنفًا من السَّمك والبطاطس، بالإضافة إلى بعض ثمار فواكه الأوكتوسبايدر وبعض من عسلهم الذي يشبه طعمُه طعمَ البرتقال لتضعه على خبزها.

وسألت ماكس وهم يجلسون إلى مائدةٍ طويلة لا يجلس إليها أحدٌ غيرهم: «من أين يأتي هذا الطعام الطازج كله؟»

أشار ماكس إلى الأعلى. وقال: «هناك طابَق ثانٍ في سفينة نجمة البحر، وطعام الجميع يُزرع بالأعلى ... إننا نأكل جيدًا، مع أن المجلس قد اشتكى من عدم توافر اللحوم.»

قضمَت نيكول قطعتين من طعامها. فقال ماكس بهدوء وهو ينحني على المائدة: «أظن أنه يجب أن أخبرك أن اثنين من كائنات الأوكتوسبايدر يتجهان إليك.»

استدارت نيكول. ووجدت أن كائنَي أوكتوسبايدر يقتربان منها بالفعل. ولمحت أيضًا بطرَف عينها المكعب الكبير يتقدَّم مسرعًا باتجاه مائدتهم. قال الأوكتوسبايدر الأول بالألوان: «مرحبًا يا نيكول! لقد كنتُ أحدَ مساعدي الدكتورة بلو في مستشفى مدينة الزمرد ... وأردتُ فقط أن أرحِّب بك وأشكرك مرة أخرى على مساعَدتنا ...»

بحثت نيكول دون جدوى عن علامةٍ مميزة في الأوكتوسبايدر. ثم قالت في نبرة ودودة: «أنا آسفة أنا لا أستطيع تذكُّرك بالضبط ...»

فقال الأوكتوسبايدر: «لقد أطلقت عليَّ اسم ميلكي (الأبيض) لأنني في ذلك الوقت كنت أتعافى من عملية في عدستي وكنت أعاني زيادةً في إفراز السائل الأبيض ...»

قالت نيكول بابتسامة: «آه! أجل. أتذكَّرك الآن يا ميلكي ... ألم يدُر بيننا نقاشٌ طويل على الغداء في أحد الأيام عن التقدُّم في العمر؟ وكما أتذكَّر كان يصعُب عليك تصديقُ أننا البشر نظل على قيد الحياة سواء كنا مفيدين أو لا، حتى نموت بأسباب طبيعية.»

أجاب ميلكي: «هذا صحيح. حسنًا إنني لا أريد أن أزعجَك وقتَ تناول غدائك، ولكن صديقي أراد أن يقابلك بشدة.»

قال مرافق ميلكي: «وأشكرك أيضًا لأنك كنتِ عادلة في كل شيء ... وتقول الدكتورة بلو إنك كنتِ قدوة لنا جميعًا ...»

بدأت كائنات أوكتوسبايدر أخرى تنهض من حيث كانت تجلس في المطعم وتصطفُّ خلف الاثنين الأوَّلين. وبدت الألوان التي تعني: «شكرًا لك» متدفِّقة حول رءوس معظمهم. وقد أثَّر هذا الموقف في نيكول كثيرًا. ووقفت، بناءً على اقتراح ماكس، وتحدَّثت إلى طابور كائنات الأوكتوسبايدر. قالت: «شكرًا لكم جميعًا على هذا الترحيب الحار. إنني أقدِّر هذا حقًّا ... وأتمنى أن تُتاح لي فرصةٌ كي أقضيَ وقتًا مع كلٍّ منكم في أثناء إقامتنا هنا معًا.»

اتَّجهت عينا نيكول إلى يمين طابور كائنات الأوكتوسبايدر لترى ابنتها إيلي ومعها نيكي تقف إلى جوارها. قالت إيلي وهي تتقدَّم وتطبع قُبلة على وجنةِ أمها: «لقد أتيتُ فور أن تمكَّنت.» ثم أضافت بابتسامة صغيرة: «كان يجب أن أعرف ...» واحتضنت نيكول بقوة وقالت: «إنني أحبك يا أمي. واشتقت إليك كثيرًا.»

قالت ناي: «لقد شرحتُ للمجلس أنكِ وصلت للتو ولا تدركين تمامًا أهميةَ المقاطعة. وأعتقد أنهم مقتنِعون.»

فتحت ناي البابَ وتبِعتها نيكول إلى منطقة غسل الملابس. وقد بنَت الكائنات الفضائية — التي أعدَّت الفندق الكبير على عجالة — غرفةَ التنظيف المجانية في مكانٍ ليس بالبعيد عن المطعم بالاعتماد على الغسالات والمجففات التي رأوها في عدن الجديدة كأساس لها. كانت هناك سيدتان أخريان في الغرفة الكبيرة. فتعمَّدت ناي استخدامَ المغسلة الموجودة في الجانب البعيد حتى تستطيع التحدُّث إلى نيكول دون أن يسمعهما أحد.

قالت ناي وهي تبدأ في تصنيف الملابس: «لقد طلبت منك أن تأتي معي اليوم لأنني أردتُ التحدُّث إليك بخصوص جاليليو ...» سكتت محاوِلةً أن تغالب مشاعرها. ثم استأنفت: «سامحيني يا نيكول! هذا الموضوع يثير انفعالي بشدة ... لستُ متأكدة ...»

فقالت نيكول برفق: «لا بأس يا ناي. إنني أفهم ... تذكَّري أنني أمٌّ أيضًا.»

استكملت ناي: «إنني يائسة يا نيكول. وأحتاج إلى مساعدَتك ... لم يؤثِّر فيَّ أيُّ شيء حدَث في حياتي ولا حتى مقتل كينجي مثلما أثَّر فيَّ هذا الموقف. إن قلقي على ابني يقتلني ... حتى التأمُّل لا يُشعِرني بأي سكينة.»

قسَّمت ناي الملابس إلى ثلاثة أكوام. ووضعتها في ثلاث غسالات ثم عادت إلى جانب نيكول.

قالت: «حسنًا! سأكون أولَ مَن يعترف بأن سلوك جاليليو لم يكن مثاليًّا ... فبعد فترة النوم الطويل، عندما نُقلنا إلى هنا كان بطيئًا جدًّا في الانخراط مع الآخرين ... ولم يكن يشارك في الفصول التي أعددتها أنا وباتريك وإيلي وإيبونين للأطفال، وعندما فعل لم يكن يؤدي أيًّا من واجباته المنزلية ... كان فظًّا وصعبَ التعامل وكريهًا في تعامله مع الجميع فيما عدا ماريا.

ولم يكن يتحدَّث معي قط عما يشعر به ... والشيء الوحيد الذي كان يبدو أنه يستمتع به هو الذهاب إلى غرفة الاستجمام للقيام بتدريبات بناء العضلات. وبالمناسبة لقد أصبح فخورًا للغاية بقوَّته الجسمانية.»

توقَّفت ناي لحظة. ثم قالت بلهجة اعتذار: «إن جاليليو ليس إنسانًا سيئًا يا نيكول. كلُّ ما في الأمر أنه متخبِّط ... لقد ذهب للنوم وعمره ست سنوات واستيقظ وعمره واحد وعشرون عامًا، بجسدِ شابٍّ ورغباته.»

سكتت ناي. واغرورقت عيناها بالدموع. ثم قالت بصعوبة: «كيف يُتوقَع منه أن يعرف كيف يتصرَّف؟» فمدَّت إليها نيكول ذراعيها، ولكن ناي لم تقترب منها. واستكملت: «لقد حاولت، ولكني لم أستطِع مساعدته. لا أدري ماذا أفعل ... وأخشى أنَّ الأوان قد فات الآن.»

تذكَّرت نيكول ليالي الأرق التي سهرتها في عدن الجديدة عندما كانت تبكي من إحساسها بعدم قدرتها على مساعدة كيتي. فقالت برفق: «إنني أفهم ما تعانيه يا ناي. حقًّا أفهمه.»

قالت ناي بعد توقُّف قصير: «مرة واحدة، واحدة فقط، رأيتُ بسرعةٍ ما يكمُن أسفل ذلك القناع البارد الذي يرتديه جاليليو ويتفاخر به ... كان ذلك في منتصف الليل بعد مشكلته مع ماريا، عندما عاد من جِلسته مع المكعب الكبير. كنا معًا في الممر، نحن الاثنين فقط، وكان ينتحب ويضرب الحائط ... كان يصيح: «إنني لم أكن لأوذيها يا أمي، يجب أن تصدِّقيني. إنني أحب ماريا ... ولكني لم أستطِع أن أوقف نفسي.»

سألت نيكول ناي بعد أن سكتت الأخيرة مرةً أخرى بضع ثوانٍ: «ماذا حدَث بين جاليليو وماريا؟ إنني لم أسمع القصة.»

قالت ناي مندهشة: «آه! كنت واثقةً من أن أحدهم قد أخبرك بهذا الأمر.» وتردَّدَت لحظة. ثم قالت: «قال ماكس حينها إن جاليليو حاول اغتصاب ماريا، وكان من الممكن أن ينجح لو لم يَعُد بينجي إلى الغرفة ويبعده عن الفتاة ... وفيما بعدُ اعترف لي ماكس أنه ربما بالغ عندما استخدم كلمةَ اغتصاب، ولكنَّ تصرُّف جاليليو بلا شك كان خارجًا عن حدود الأدب ...»

وقد أخبرني ابني أن ماريا قد شجَّعته، في البداية على الأقل، لدرجةِ أنهما سقطا على الأرض وهما يُقبِّلان أحدهما الآخر ... وطبقًا لما قاله جاليليو لم ترفض ماريا ما فعله حتى بدأ ينزِع ملابسها الداخلية ... وهنا بدأ الشجار ...»

حاولت ناي تهدئةَ نفسها. ثم قالت: «أما باقي القصة، بصرفِ النظر عمن يقصه، فإنه ليس سارًّا ... اعترف جاليليو بأنه ضرب ماريا عدة مرات بعد أن بدأت تصرخ وأنه ثبَّتها على الأرض وظل يحاول نزعَ ملابسها الداخلية ... وكان قد أغلق الباب. لذا حطَّمه بينجي بكتفه وألقى بنفسه فوق جاليليو بكل قوَّته ... ونظرًا للضوضاء وتحطُّم محتويات الغرفة جاء المكعب الكبير ومتفرجون كثيرون ...»

انهمر فيضٌ آخر من الدموع من عينَي ناي. فقالت نيكول: «لا بد أن الأمر كان فظيعًا.»

قالت ناي: «في تلك الليلة تمزَّقت حياتي إربًا. أدان الجميع جاليليو. وعندما وضع المكعب الكبير جاليليو تحت المراقبة وعاد به إلى الجناح المخصَّص للعائلة، رأى كلٌّ من ماكس وباتريك، وحتى كيبلر شقيقه، أن العقاب مخفَّف للغاية. ومتى أشرت إلى أنه ربما، فقط مجرد احتمال، أن تكون ماريا الصغيرة الجميلة مسئولةً جزئيًّا عما حدث، يقول لي الجميع إنني «جائرة» و«لا أرى الحقائق» ...»

وواصلت ناي كلامها بقسوةٍ لم تخفِها من صوتها: «لقد أدَّت ماريا دورها ببراعة. وقد اعترفت في وقتٍ لاحق أنها تبادلت القُبَل بإرادتها مع جاليليو — وقد فعلا مرتين قبل ذلك على حدِّ قولها — ولكنها أصرَّت على أنها بدأت ترفض قبل أن يجذبها إلى الأرض. وبعد الحادثة مباشرةً ظلت ماريا تبكي ساعةً. وبالكاد كان بإمكانها التحدُّث. فحاول جميعُ الرجال تهدئتها ومعهم باتريك. لقد كانوا جميعًا مقتنعين حتى قبل أن تقول أيَّ شيء أنه لا لوم على ماريا.»

دقَّ صوت أجراس خافت يعلن أن دورة الغسيل قد انتهت. فنهضت ناي ببطء وسارت إلى الغسالات ووضعت الملابس في مجفَّفين.

استأنفت ناي قائلة: «اتفقنا جميعًا على أن ماريا يجب أن تنتقل إلى الغرفة المجاورة مع ماكس وإيبونين وإيلي. وظننت أن الوقت سيشفي الجِراح. ولكني كنت مخطئة. أصبح جاليليو منبوذًا من الجميع في العائلة، فيما عداي. حتى كيبلر لم يكن يتحدَّث إلى شقيقه. كان باتريك لطيفًا معه ولكن بعيدًا عنه ... فانسحب جاليليو أكثرَ وأكثر، وضرب حول نفسه عزلةً، وتوقَّف عن حضور الفصول تمامًا، وبدأ يقضي معظمَ ساعات يومه وحدَه في غرفةِ رفع الأثقال.»

قالت ناي والدموع تعود لتملأ عينيها: «ومنذ خمسة شهور تقريبًا اقتربت من ماريا ورجوتُها أن تساعد جاليليو. وقد كان ذلك مذلًّا يا نيكول؛ وأنا سيدة كبيرة أرجو فتاة مراهقة أن تسدي لي صنيعًا ... في البداية طلبت من باتريك وإيبونين ثم إيلي تباعًا أن يتحدَّثوا إلى ماريا نيابةً عني. إيلي فقط بذلت جهدًا محاولةً التوسُّط، وقد أخبرتني بعد محاولتها أنه من الأفضل أن يكون الطلب مني مباشرة.»

قالت ناي بمرارة: «وافقت ماريا في النهاية على التحدُّث إلى جاليليو، ولكن بعد أن أرغمتني على الاستماع إلى خطبةٍ انفعالية عن كيف أنها لا تزال تشعر «بالانتهاك» جرَّاء هجوم جاليليو. واشترطت أنه يجب أن يسبق الاجتماعَ مع جاليليو اعتذارٌ صريح مكتوب، وأيضًا أن أحضُر أنا شخصيًّا ذلك اللقاء لمنع أي مضايقات لها.»

ثم هزَّت ناي رأسها في أسًى. وواصلت: «والآن أنا أسألك يا نيكول، كيف من الممكن أن تصبح فتاةٌ في السادسة عشرة من عمرها متمرِّسة إلى هذا الحد على الرغم من أنها استيقظت عامين فقط في حياتها كلِّها؟ هناك مَن يرشدها — وفي ظني أنهما ماكس وإيبونين — بما يجب أن تقومَ به. لقد أرادت ماريا أن تذلني وتجعل جاليليو يعاني أقصى قدْر ممكن من المعاناة، وقد نجحت في هذا بالفعل.»

قالت نيكول: «أعلم أن هذا يبدو احتمالًا بعيدًا، ولكني قابلت أشخاصًا يتمتَّعون بمواهبَ طبيعية لا تصدَّق، ويعرفون بحَدْسهم منذ عمر مبكر جدًّا كيف يتعاملون مع أي موقف. وقد تكون ماريا أحدَهم.»

تجاهلت ناي تعليقها. وقالت: «جرى اللقاء بصورةٍ جيدة جدًّا. وكان جاليليو متعاونًا. وقبِلت ماريا الاعتذار الذي كتبه لها، وفي الأسابيع القليلة التي تلت بدا أن ماريا تبذُل جهدًا غيرَ عادي كي تشرك جاليليو في أي شيء يقوم به الشباب ... ولكنه كان لا يزال غريبًا في مجموعتهم، دخيلًا عليهم. وقد لاحظتُ ذلك. وأعتقد أنه هو أيضًا لاحظ ذلك.

ثم في يومٍ ما في المطعم، بينما كان الخمسة يجلسون معًا، وكنت والآخرون قد تناولنا طعامنا في وقتٍ سابق وعدنا إلى غرفنا، جلس اثنان من كائنات الإجوانا على الطرَف الآخر من مائدتهم. ووفقًا لما قاله كيبلر، كان كائنا الإجوانا مثيرَين للاشمئزاز على نحوٍ متعمَّد منهما. فقد خفضا رأسيهما في طبقيهما وأخذا يمتصان بصوتٍ عالٍ تلك الديدان الملتوية التي يحبانها كثيرًا، ثم حدَّقا في الفتاتين، ولا سيما ماريا بأعينهما الصفراء الدائرية. فقالت نيكي ما يفيد أنها لم تَعُد جائعة ووافقتها ماريا على ذلك.

وعندها نهض جاليليو من مقعده، وتقدَّم خطوتين تجاه كائني الإجوانا، وقال: «هيا! ابتعدا من هنا!» أو شيئًا من هذا القبيل. وعندما لم يتحرَّكا تقدَّم خطوةً أخرى باتجاههما. فقفز عليه أحدهما. أمسك جاليليو ذلك الذي قفز عليه من رقبته ونفضه بشدة. فمات جرَّاء كسرِ رقبته. فهاجم الإجوانا الثاني جاليليو مطبِقًا أسنانه القوية على ساعده. وقبل أن تصل المكعبات الآلية لفض الشجار كان جاليليو قد ضرب الإجوانا الآخر حتى الموت على سطح المنضدة.»

بدت ناي هادئة بصورة مثيرة للدهشة عندما انتهت من سردِها. ثم استكملت: «اصطحبوا جاليليو بعيدًا. وبعد ثلاث ساعات جاء المكعب الكبير إلى غرفتنا ليخبرَنا أن جاليليو قد احتُجز إلى الأبد في جزء آخر من المركبة الفضائية. وعندما سألتُ عن السبب أخبرني كبير المكعبات الآلية الإجابة نفسَها التي أتلقَّاها كل مرة منذ أن بدأت ألقي السؤال: «لقد رأينا أن سلوك ابنك غير مقبول».»

أعلنت دقَّات أجراس أخرى قصيرة أن دورة التجفيف قد انتهت. ساعدت نيكول ناي في طي الملابس على الطاولة الطويلة. وقالت ناي: «يُسمح لي برؤيته ساعتين فقط كلَّ يوم، ومع أن كبرياء جاليليو يمنعه من الشكوى فأنا أعرف أنه يعاني ... وقد وضع المجلس اسم جاليليو من بين أسماءِ خمسةِ بشر «محتجزين» دون سببٍ مناسب، ولكني لا أعلم هل ستأخذ المكعبات الآلية مظالمَهم على محمل الجِد.»

توقَّفت ناي عن طي الملابس ووضعت يدها على ساعد نيكول. وقالت: «ولهذا أنا أطلب منك المساعدة. ففي التدرُّج الهرمي للكائنات الفضائية، الرجل النسر أعلى سلطة من المكعب الكبير. ومن الواضح أن الرجل النسر يولِي ما تقولينه عنايةً خاصة ... فهلا تتحدَّثين إليه من فضلك، من أجلي، بشأن جاليليو؟»

قالت نيكول لإيلي وهي تُخرِج أغراضها من الخزانة: «لا يصحُّ إلا الصحيح. كان لا بد أن أكون في الغرفة الأخرى منذ البداية.»

قالت إيلي: «لقد تحدَّثنا عن هذا الأمر قبل أن تأتي. ولكنْ كلٌّ من ناي وماريا قالتا إنه لا بأس في أن تعود الفتاة إلى الغرفة الأخرى حتى تكوني هنا معي أنا ونيكي.»

قالت نيكول: «وإن يكن …» ووضعت ملابسها على الطاولة ثم نظرت إلى ابنتها. وقالت: «أتعلمين يا إيلي، إنني لم آتِ إلى هنا إلا منذ أيام قلائل، ولكنني أتعجَّب بشدة من مدى استغراق الجميع في أمور الحياة اليومية التافهة … وهو ما أراه غريبًا جدًّا. وأنا لا أتحدَّث فقط عن ناي ومخاوفها. فالأشخاص الذين تحدَّثت معهم في المطعم أو في الغرف العامة الأخرى يقضون نسبةً ضئيلة للغاية من يومهم في مناقشةِ ما يحدُث هنا حقًّا. شخصان فقط هما مَن سألاني عن الرجل النسر. وهناك بالأعلى على سطح المراقبة الليلة السابقة، في حين كان عشرة منَّا يحملقون في الشكل الرباعي الأسطح المذهل، لم يسأل أحدٌ أي سؤال عمن صمَّم هذا الشكل، ولأي غرض صمَّمه.»

ضحِكت إيلي. وقالت: «الآخرون هنا منذ عام يا أمي. وقد سألوا هذه الأسئلة جميعها منذ وقت طويل، ولأسابيع كثيرة، ولكنهم لم يتلقوا أيَّ إجابات شافية. إنها الطبيعة البشرية، فعندما لا نستطيع الإجابةَ عن سؤال تصعُب الإجابة عليه نطرده من أذهاننا حتى نحصل على معلومات جديدة.»

جمعت إيلي جميعَ أغراض والدتها. وقالت: «لقد طلبنا من الجميع أن يتركوك وشأنك حتى تحصلي على قسطٍ من الراحة اليوم. لن يأتي أحدٌ إلى الغرفة خلال الساعتين القادمتين. رجاء يا أمي، استغلي هذه الفرصة للراحة … عندما غادرت الدكتورة بلو أمس أخبرتني أن علامات الإنهاك تظهر على قلبك، رغم جميع المجسَّات التكميلية.»

قالت نيكول: «لم يكن السيد كوالسكي سعيدًا بالطبع لوجود كائن أوكتوسبايدر في جناحنا.»

«لقد شرحتُ له الأمر. وكذلك فعل المكعَّب الكبير. لا تقلقي إزاء هذا الأمر.»

قالت نيكول: «شكرًا لك يا إيلي.» وطبعَت قُبلة على وجنة ابنتها.

٤

«هل أنت جاهزةٌ يا أمي؟» ألقت إيلي هذا السؤال وهي تدخل من الباب.

أجابتها نيكول: «أظن هذا، مع أني أشعر أني حمقاء. ففيما عدا اللعبة التي لعبتها أمس معك أنت وماكس وإيبونين، فإنني لم ألعب الورقَ منذ سنوات.»

ابتسمت إيلي وقالت: «لا يهمُّ مدى إجادتك للعب يا أمي. لقد تحدَّثنا في هذا الشأن أمس.»

كان ماكس وإيبونين ينتظران في الرواق عند موقف الترام. وقال ماكس بعد تحية نيكول: «سيكون اليوم ممتعًا للغاية. وأتساءل عن عدد مَن سيأتون غيرنا.»

كان المجلس قد صوَّت في الليلة السابقة على مدِّ المقاطعة مرةً أخرى ثلاثة أيام إضافية. ومع أن المكعب الكبير قد استجاب لقائمة المظالم، بل أقنع كائناتِ الأوكتوسبايدر، الذين يزيد عددهم عن البشر بنسبةِ ثمانية إلى واحد، أن يتركوا وقتًا أطولَ في المناطق العامة ليستخدمها البشر فقط، فقد شعر المجلس أن كثيرًا من ردود الفعل تجاه المظالم لا تزال غير مناسبة.

وكان هناك نقاشٌ أيضًا في اجتماع المجلس عن كيفية تفعيل المقاطعة. وقد أراد بعضُ الحضور من أصحاب الصوت العالي فرْضَ عقوبات على الذين يتجاهلون قرار المقاطعة. وقد انتهى الاجتماع بالاتفاق على أن مسئولي المجلس «سيشركون بفاعلية» البشرَ الذين يستمرون في تجاهل توصيات المجلس بتجنُّب التعامل مع جميع الأجناس الأخرى من الكائنات.

كان الترام في الرواق الرئيسي خاويًا تقريبًا. وهناك ستة من كائنات الأوكتوسبايدر في العربة الأولى منه، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة آخرين إلى جانب اثنين من كائنات الإجوانا جالسَين في العربة الثانية. ونيكول وأصدقاؤها هم البشر الوحيدون على متن الترام.

قالت إيلي: «منذ ثلاثة أسابيع، قبل أن تبدأ تلك المرحلة الأخيرة من التوتر، كان لدينا ثلاثة وعشرون طاولة لدورة لعبة الورق الأسبوعية. كنت أظن أننا نحرز تقدمًا كبيرًا. فقد كان معدَّل حضور اللاعبين الجدد من البشر كلَّ أسبوع خمسة أو ستة.»

سألتها نيكول عندما توقَّف الترام واستقل اثنان من كائنات الأوكتوسبايدر عربتَهم: «كيف طرأت على ذهنك فكرةُ دورة لعبة الورق هذه يا إيلي؟! عندما تحدَّثت إليَّ عن لعب الورق مع كائنات الأوكتوسبايدر أولَ مرة ظننت أنك قد فقدت صوابك.»

ضحِكت إيلي. وقالت: «في البداية، بعد أن استقررنا جميعًا هنا بوقت قصير أدركت أننا نحتاج إلى نشاطٍ ما منظَّم لتشجيع التفاعل بين الأجناس. فالبشر لن يتجهوا إلى أحدِ كائنات الأوكتوسبايدر ويبدءوا الحوار معه من تلقاء أنفسهم، ولا حتى في وجودي أنا أو أحد المكعبات الآلية بوصفنا مترجمين ... بدَت فكرة الألعاب طريقةً جيدة لتشجيع الاندماج. وقد نجحت تلك الفكرة برهةً قصيرة، ولكن سريعًا ما اتضح أنه لا توجد لعبةٌ

يستطيع فيها أبرعُ إنسان أن يضاهي أيًّا من كائنات الأوكتوسبايدر الذكية. حتى المعاقين منها ...»

اقتحم ماكس الحوار قائلًا: «في نهاية الشهر الأول لعبتُ شطرنجًا مع صديقتك الدكتورة بلو ... وأغرَتني بأن تركت لي رُخًّا وبيدقَين قبل بدء المباراة، ومع ذلك فقد هزمتني شرَّ هزيمة ... كان ذلك محبِطًا للغاية ...»

استأنفت إيلي: «كانت الضربة الأخيرة لتلك الجهود هي أولَ دورة في لعبة تكوين الكلمات من الحروف. جميع الجوائز كانت من نصيب كائنات الأوكتوسبايدر، مع أن جميع الكلمات المستخدَمة كانت باللغة الإنجليزية! وهنا أدركتُ أنه لا بد أن أجدَ لعبة لا يتنافس فيها البشر وكائنات الأوكتوسبايدر ضد بعض ...

اتضح أن لعبة الورق هي المثالية. ويتكوَّن كل فريق من إنسان وكائن أوكتوسبايدر. وليس من الضروري للشريكين أن يتحدَّثا معًا، فقد أعددت بطاقات لعب موحَّدة باللغتين، وحتى أقلُّ البشر ذكاءً يستطيع تعلُّم أرقام كائنات الأوكتوسبايدر من واحد إلى سبعة في جلسة واحدة، وكذلك رموزها لمجموعات الورق الأربع ... وقد نجحت اللعبة بصورةٍ لا تُصدَّق.»

هزَّت نيكول رأسها في تعجُّب. وقالت بابتسامة: «لا أزال أرى أنكِ مجنونة. مع أني أعترف أن الفكرة بها لمسةٌ عبقرية أيضًا.»

كان هناك أربعة عشر شخصًا فقط غيرهم في غرفة لعب الورق في المجمع الترفيهي في وقتِ بدء دورة لعب الورق. وقد تعاملَت إيلي مع الموقف جيدًا؛ حيث قرَّرت أن تكون الدورة دورتين منفصلتين، واحدة «للفِرق المختلِطة» كما أطلقت عليها، ومنافسة أخرى لكائنات الأوكتوسبايدر فقط.

كانت الدكتورة بلو هي شريكة نيكول. وقد اتفقتا على اللعب بأسلوبِ مزايدةٍ كبير بخمس بطاقات — وهو أحد أساليبَ ستةٍ أقرَّتها إيلي للعب بها في الدورة — وجلستا إلى طاولةٍ بالقرب من الباب. ونظرًا لأن المقاعد المخصَّصة لكائنات الأوكتوسبايدر كانت أعلى من تلك المخصَّصة للبشر جلست نيكول وشريكتها متقابلتين، عينًا أمامَ عين. أو بالأحرى عينًا أمام عدسة.

لم تكن نيكول قط لاعبةً متميزة في لعب الورق. وقد تعلَّمت أن تلعب أولَ مرة وهي طالبة في جامعة تور عندما شجَّعها والدها على الاشتراك في أنشطةٍ خارج الدراسة الجامعية، حيث كان قلِقًا لأنه لم يكن لديها أصدقاءُ كُثر. وقد لعبت نيكول الورق أيضًا

في عدن الجديدة حيث انتشرت اللعبة بين صفوف السكان في العام الأول بعد الاستقرار. ورغم ميلها الطبيعي للعبة كانت نيكول ترى دائمًا أن اللعبة تستهلك وقتًا طويلًا جدًّا، وأن هناك كثيرًا من الأشياء الأكثر أهمية يمكن القيام بها.

اتضح لنيكول من البداية أن الدكتورة بلو لاعبةُ ورق ممتازة، وكذلك كائنات الأوكتوسبايدر الأخرى التي جاءت إلى الطاولة مع رفاقها من البشر لتشاركَ في الدورة الثنائية. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت الدكتورة بلو تلعب أحدَ أساليب اللعبة الصعبة للغاية، بمهارة وسرعة يد مثل إنسان يحترف لعبة الورق.

قالت نيكول لشريكتها الأوكتوسبايدر بعد أن حقَّقت فوزًا ساحقًا بالإضافة إلى نقطةٍ أخيرة إضافية: «أحسنتِ!»

أجابتها الدكتورة بلو بالألوان: «إنه أمرٌ سهل للغايةِ ما دمت تعرفين مكانَ جميع البطاقات.»

كان من المذهل مشاهدةُ كيف تتعامل كائنات الأوكتوسبايدر مع قواعد اللعبة. إنهم يزيحون البطاقات من فوق طاولات اللعب بآخرِ مِفصلين من لامسة واحدة بمساعدة الأهداب، ثم يرفعون بطاقاتهم أمام عدساتهم بثلاثٍ من لوامسهم، لامسة على كل جانب والثالثة في المنتصف. ولوضع بطاقة على الطاولة يستخدم الأوكتوسبايدر اللامسةَ الأقرب إلى البطاقة التي يريد طرْحَها، ممسكًا بها بين أهدابه وهو يُنزِلها.

اشتركت نيكول والدكتورة بلو في حواراتهما المفعمة بالحيوية والنشاط بين طرحهما للأوراق. وكانت الدكتورة بلو قد أخبرت نيكول لتوها أن مسئولة الأمثلية تشعر بالحَيرة إزاء قرار المجلس الأخير، وذلك في الوقت الذي فُتح فيه بابُ غرفة اللعب ودخل ثلاثة بشر يتبعهم المكعب الكبير وأحد المكعبات الآلية الأصغر.

نظرَت السيدة التي تتقدَّم المسيرةَ نظرةً عجلى حول الغرفة ثم اتجهت نحو طاولة نيكول. عرفت نيكول أنها إيميلي برونسون رئيسة المجلس، وكان قد حان وقتُ دورٍ آخرَ من اللعبة، فانضم إلى نيكول والدكتورة بلو فريقٌ مكوَّن من الأوكتوسبايدر ميلكي وشريكتها وهي سيدة جميلة الملامح في منتصف العمر اسمها مارجريت.

قالت إيميلي برونسون: «عجبي إنها مارجريت يانج! أنا مندهشة لوجودك هنا. لا بد أنكِ لم تعرفي أن المجلس مدَّ المقاطعة الليلة السابقة.»

كان الرجلان اللذان دخلا الغرفةَ مع السيدة إيميلي قد تبِعاها إلى طاولة نيكول، أحدهما هو جارلاند الذي كان طرفًا في حادثة حمَّام السباحة. ووقف ثلاثتهم يحيطون بمارجريت.

أجابت مارجريت وهي تنظر إلى الأرض: «إيميلي ... أنا آسفة! ولكنكِ تعرفين كم أحب لعب الورق.»

قالت السيدة برونسون: «ولكن هناك ما هو أكثرُ أهمية من الألعاب هنا.»

نهضت إيلي من طاولةٍ مجاورة وطلبت من المكعب الكبير وقْفَ الشجار. ولكن إيميلي برونسون كانت سريعة جدًّا. قالت بصوتٍ عالٍ: «إنكم جميعًا تُظهِرون عدمَ الولاء بوجودكم هنا. فإن غادرتم الآن فإن المجلس لن يحاسبكم على هذا الموقف ... ولكن إذا بقيتم بعد تحذيركم فسوف ...»

وهنا تدخَّل المكعب الكبير وأخبر السيدة إيميلي أنها وأصدقاؤها يقاطعون اللعبة. وبينما استدار ثلاثتهم للمغادرة نهض أكثرُ من نصف البشر من مقاعدهم لاتباعهم.

«هذا منافٍ للعقل.» قالتها نيكول بوضوحٍ وقوة مذهلين. كانت تقف في مكانها مستندةً إلى الطاولة بإحدى يديها. استكملت قائلة بالنبرة نفسِها: «عودوا إلى أماكنكم ولا تسمحوا أن يستبدَّ بكم شخصٌ يثير العداء.»

عاد جميع لاعبي الورق إلى أماكنهم. وقالت إيميلي برونسون بغضبٍ من الجانب الآخر للغرفة: «اصمتي أيتها المرأة العجوز. ليس هذا من شأنك.» ثم اصطحبها المكعب الكبير هي ورفاقها إلى خارج الباب.

قالت ماريا: «ليست لديك فكرة عن ماهية هذه الأدوات يا سيدة نيكول، أليس كذلك؟»

أجابتها نيكول: «ظنُّك صحيح يا ماريا. إن لها على الأرجح معنًى خاصًّا لوالدتك. ظننت حينها أن الجسم الأسطواني الفضي المزروع أسفل جلد والدتك نوعٌ من أجهزة التحديد المستخدَمة في حديقة الحيوانات، ولكن نظرًا لأنه لم ينجُ أحدٌ من العاملين بالحديقة، ولم يتبقَّ سوى قليل جدًّا من السجلات، فمن غير المحتمَل أن نستطيع التأكُّد من صحة فرضيتي.»

سألت الفتاة: «ما معنى الفرضية؟»

قالت نيكول: «إنه رأيٌ مبدئي أو تفسير لِما حدَث، عندما لا يكون هناك دليلٌ كافٍ للوصول إلى إجابةٍ شافية. وبالمناسبة يجب أن أخبرك أن لغتك الإنجليزية مثيرةٌ للإعجاب.»

«شكرًا لك يا سيدة نيكول.»

كانتا تجلسان معًا في الرَّدهة العامة بالقرب من سطح المراقبة. وتشربان عصيرَ فواكه. ومع أن نيكول كانت في الفندق الكبير منذ أسبوع بالفعل فتلك هي المرة الأولى التي تتحدَّث فيها على انفراد إلى الفتاة التي وجدَتها وسط أنقاض حديقة الحيوانات قبل ستة عشر عامًا.

سألتها ماريا: «هل كانت أمي جميلةً حقًّا؟»

قالت نيكول: «كانت باهرةَ الجمال، أذكر هذا، مع أني لم أستطِع أن أراها جيدًا في الضوء الخافت. كان لها لون بشرتك نفسُه تقريبًا، أو ربما أفتحُ قليلًا، وكانت متوسطة البِنية. أظن أنها كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريبًا، أو ربما أقل قليلًا.»

سألت ماريا: «ولم يكن هناك أيُّ أثر لأبي؟»

قالت نيكول: «لم أرَ له أيَّ أثر. بالطبع في ظل تلك الظروف لم أُجرِ بحثًا دقيقًا ... من المحتمل أنه كان هائمًا في مكانٍ ما من الموطن البديل بحثًا عن مساعدة. فقد كان السياج الذي يحيط بالجزء المخصَّص لكم قد سُوي بالأرض في القصف. وقد شعرتُ بالقلق عندما استيقظنا في الصباح التالي أنه ربما يكون والدك يبحث عنك، ولكني اقتنعت بعد ذلك، وفقًا لِما رأيته في المأوى الخاص بكم، أنكِ ووالدتك كنتما تعيشان بمفردكما.»

قالت ماريا: «إذن هل تقول فرضيتك إن أبي قد مات بالفعل؟»

أجابت نيكول: «سؤال رائع! لا، ليس بالضرورة ... لم أجزم بهذا في حديثي ... ولكن لم يبدُ لي أن أحدًا آخر عاش في الجزء المخصَّص لكم منذ فترة.»

رشفَت ماريا من كوب العصير، وخيَّم صمتٌ مؤقت عليهما. ثم قالت الفتاة: «لقد أخبرتِني في ليلة سابقة يا سيدة ويكفيلد عندما كنتِ تتحدثين مع ماكس وإيبونين أنكِ افترضتِ أن كائنات الأوكتوسبايدر قد اختطفت والدتي، أو ربما والديَّ معًا، قبل ذلك بكثير، من مكانٍ يُطلق عليه أفالون ... ولكني لم أفهم جيدًا ما كنتِ تقولين ...»

ابتسمت نيكول لماريا وقالت لها: «أنا معجبة جدًّا بأسلوبك المهذَّب يا ماريا. ولكنك ولا شك جزءٌ من العائلة ... ويمكنك أن تخاطبيني بنيكول.» انجرف ذهنُ نيكول للتفكير في عدن الجديدة، وبدا ذلك منذ وقتٍ بعيد مضى، ثم أدركت أن الفتاة تنتظر إجابةً عن سؤالها.

فقالت نيكول: «كانت أفالون مستوطَنة خارج عدن الجديدة تقع في ظلمة وبرودة السهل الرئيسي. شيَّدتها حكومة المستوطَنة في الأصل لتكون حَجْرًا صحيًّا للأشخاص المصابين بفيروسٍ قاتل يُطلق عليه «آر في ٤١». وبعد بناء أفالون أقنع ديكتاتور عدن الجديدة، وهو رجلٌ يُطلق عليه ناكامورا، مجلسَ الشيوخ أن أفالون مكانٌ ممتاز للبشر «غير الأسوياء»، بما في ذلك الذين يعترضون على الحكومة وأولئك الذين يعانون أمراضًا عقلية أو معاقين ذهنيًّا ...»

قالت ماريا معلِّقة: «لا يبدو أنه مكانٌ لطيف.»

فكَّرت نيكول في نفسِها: «لقد ظل بينجي هناك أكثرَ من عام. إنه لا يتحدَّث عن الأمر قط.» وبدأت تشعر بالذنب لأنها لم تقضِ وقتًا كافيًا مع بينجي على انفرادٍ منذ أن استيقظت. وتواصلت أفكارها: «ولكنه لم يشتكِ قط.»

مرةً أخرى كان على نيكول أن تجبر نفسَها على التركيز في حوارها مع ماريا. وقالت لنفسها: «نحن الكبارَ في السن تنجرف أفكارنا في اتجاهاتٍ مختلفة. هذا لأن كثيرًا من الأشياء التي نراها ونسمعها تثير ذكرياتنا.»

قالت نيكول: «لقد تحقَّقت من الأمر بالفعل. ولسوء الحظ مات جميعُ الإداريين في أفالون قبل وقت طويل في الحرب ... وقد وصفتُ والدتَك لبعض الأشخاص الذين قضَوا وقتًا في أفالون، لكن لا يتذكَّرها أيُّ شخص منهم.»

سألت ماريا: «هل تظنين أنها كانت مريضة عقليًّا؟»

أجابتها نيكول: «هذا محتمَل. لكننا لن نعرف يقينًا ... وبالمناسبة إن قلادتك هي أفضلُ خيط يوصِّلنا إلى هوية والدتك. لقد كانت ولا شك تابعةً مخلِصة لطائفة الكنيسة الكاثوليكية التي بدأها القديس مايكل قديس سيينا ... تقول إيلي إن هناك بعضَ المناصرين لها على متن السفينة أيضًا. وأنا أعتزم التحدُّث إليهم عندما يتاح لي الوقت.»

توقَّفت نيكول عن الحديث والتفتت تجاه سطح المراقبة، حيث بدأ اضطرابٌ هناك. كان بعض البشر ومجموعة كبيرة من كائنات الأوكتوسبايدر يشيرون إلى خارج النافذة ويحرِّكون أيديَهم ورءوسهم بقوة لجذب انتباهِ الآخرين، وأسرع بعضُ الأشخاص باتجاه الممر الرئيسي، على ما يبدو لإحضار الباقين ليروا ما يشاهدونه.

غادرت نيكول وماريا الطاولة، واعتلتا السلالمَ إلى سطح المراقبة ونظرتا إلى خارج النافذة الضخمة. بعيدًا عنهم خلف الهرم الثلاثي المضيء، كان توجد مركبةُ فضاء ضخمة مسطَّحة القمة تشبه حاملةَ طائرات تقترب من النود. راقبت نيكول وماريا ما يحدُث عدة دقائق دون أن تتفوَّها بكلمة ومركبة الفضاء الجديدة تقترب لتظهر أمامهم أكبرَ وأكبر.

سألتها ماريا: «ما هذا؟»

أجابتها نيكول: «لست لديَّ أدنى فكرة.»

سرعان ما امتلأ سطح المراقبة بالمشاهدين. وكانت الأبواب تُفتح باستمرار، والبشر وكائنات الأوكتوسبايدر والإجوانا بل اثنان من المخلوقات الطائرة يدخلون إلى الغرفة. وبدأ الحشد يدفع نيكول وماريا.

كانت المركبة ذاتُ القمة المسطحة طويلةً للغاية، أطول حتى من ممرات التنقُّل التي تربط الكرات في النود. كانت عشرات «الفقاعات» الشفافة متناثرة على سطحها. توقَّفت

الحاملة بالقرب من أحدِ القمم الدائرية للنود ومدَّت أنبوبًا شفافًا طويلًا إلى داخل جانب الكرة حيث كان اتساعه مناسبًا لها تمامًا.

ساد الاضطراب سطحَ المراقبة. كانت جميعُ أنواع الكائنات تتدافع، وتتزاحم للاقتراب من النافذة. وثبَ اثنان من الإجوانا إلى أعلى النافذة في ظل انعدام الوزن وسريعًا ما انضم إليهم عشرة أو عشرون من البشر. بدأت نيكول تشعر برُهاب الأماكن الضيقة وحاولت أن تُفسِح لهم الطريق. ولكن لم يكن هناك سبيلٌ تسلُكه وسط الحشود. ظلت تُدفع في جميع الاتجاهات. وأصبحت بعيدةً عن ماريا. وتعرَّضت نيكول لدفعة قوية من مجموعة من الحشد على جانبها جعلتها تصطدم بالحائط. فشعرت بألمٍ حادٍّ في رِدْفها الأيسر على إثر التصادم. وفي الاضطراب الذي نتج، كان من الممكن أن يطأها الحشد أو تتعرَّض لمزيد من الإصابات لولا أن المكعب الكبير والمكعبات الآلية الأخرى اندفعوا بين الحشد المتجمهر واستعادوا النظام.

كانت نيكول تنتفض بقوةٍ عندما وصل إليها المكعب الكبير. كان الألم في رِدْفها لا يُحتمل. ولم تستطِع السير.

قال الرجل النسر: «هذا أحدُ لوازم التقدُّم في العمر. يجب أن تتوخَّي الحذرَ أكثرَ.» كان هو ونيكول وحدهما في شقتها. وكان الآخرون يتناولون إفطارهم.

قالت نيكول: «أنا لا أحب أن أكون ضعيفة. ولا أحب ألا أفعل شيئًا خوفًا من أن أصيبَ نفسي.»

قال الرجل النسر: «سيتماثل رِدْفك للشفاء. ولكنه سيستغرق بعض الوقت. إنك محظوظة أنكِ أُصبتِ بكدمات شديدة فحسب ولم تكن هناك كسور. ففي سنِّك قد يؤدي الرِّدْف المكسور إلى إقعادِ الإنسان للأبد.»

قالت نيكول: «شكرًا للكلمات التي تطمئنني بها.» وارتشفت رشفةً صغيرة من قهوتها. كانت ترقد على حاشيتها ورأسها مرتفع قليلًا فوق عدة وسادات. ثم قالت: «ولكن كفانا حديثًا عني؛ لنتحدَّث عن أمورٍ أهم ... ما أمرُ هذه المركبة المسطحة؟»

قال الرجل النسر: «بدأ البشر الآخرون بالفعل يُطلِقون عليها حاملة. وهذا اسمٌ مناسب تمامًا.»

خيَّم الصمت عليهما برهةً قصيرة. ثم قالت نيكول في صوتٍ متذمِّر: «هيا! هيا! لا تكن متحفظًا معي ... فأنا أرقد هنا مخدَّرة ولا أزال أشعر بالألم ... ليس من اللائق أن أجترَّ منك المعلومات.»

قال الكائن الفضائي: «هذه المرحلة من العملية ستنتهي قريبًا. سيُنقل بعضُكم إلى الحاملة، والبقية إلى النود.»

سألته نيكول: «وماذا سيحدُث عندئذٍ؟ وكيف اتُّخذ القرار بشأن مَن سيُنقل إلى الحاملة ومَن سيُنقل إلى النود؟»

قال الرجل النسر: «لا يمكنني أن أقولَ لك هذا بعدُ، ولكني أخبرِكِ أنك ستذهبين إلى النود ... وإن أخبرتِ أيَّ شخص آخر بما قلتُه لكِ الآن لن أمنحكِ في المستقبل أيَّ معلومات مسبقًا ... إننا نريد أن يكون الانتقال منظَّمًا ...»

قالت نيكول متألمةً وهي تغيِّر من جِلستها قليلًا: «آي! إنك دائمًا تريد أن تكون الأمور منظَّمة ... ويجب أن أخبرك أنك لم تمنحني معلومات مهمة.»

«إنك تعرفين معلوماتٍ أكثرَ من أي شخص آخر.»

عبَست نيكول وهي ترتشف رشفةً أخرى من القهوة: «إنه لشأنٌ مهم حقًّا! وبالمناسبة، هل لديك طبيبٌ حاوٍ هناك في النود يمكنه أن يلوِّح بعصاه السحرية على هذه الكدمة ويجعلها تختفي؟»

قال الرجل النسر: «كلا، ولكن بإمكاننا أن نمنحكِ رِدْفًا جديدًا إذا أردتِ. أو ما أظن أنك ستطلقين عليه رِدْفًا بديلًا.»

هزَّت نيكول رأسها في رفض. وأجفلت عندما صدمَت رِدْفها وهي تضع كوب القهوة على الأرض. وقالت: «إن الكِبَر في السن هذا للعنةٌ.»

قال الرجل النسر: «أنا آسف!» وبدأ يغادر الغرفة: «سأمرُّ بكِ كلما استطعت.»

قالت نيكول: «قبل أن تغادر، هناك مسألةُ عمل أخرى ... ناي أرادت أن أطلبَ منك أن تتوسَّط لجاليليو ... إنها تودُّ أن يعود إلى العائلة.»

قال الرجل النسر وهو يغادر: «لن يكون هناك داعٍ لهذا. فستخرجون جميعًا من هنا في غضون أربعة أو خمسة أيام ... وداعًا يا نيكول! لا تحاولي السير، استخدمي الكرسي المتحرِّك الذي أحضرته لك. فرِدْفك لن يتماثل للشفاء إذا تحاملتِ عليه.»

٥

كان الوقت مبكرًا جدًّا على استيقاظ معظم البشر. كانت نيكول قد قضت بالخارج نصفَ ساعة قبل ذلك الحين في الرواق الطويل تجرِّب أزرارَ التحكُّم على مسند الكرسي المتحرِّك. وقد فوجئت بمدى سرعة الكرسي وهدوء حركته. وبينما تنطلق مسرعةً أمام سلسلة غرف

المؤتمرات التي تقع في منتصف الممر الذي يبلغ طوله كيلومترًا، تساءلت نيكول عن ماهية التكنولوجيا المتقدِّمة الموجودة داخل الصندوق المعدني المغلق أسفل الكرسي. وقالت في نفسِها: «كان ريتشارد سيُعجب بهذا الكرسي، وسيحاول تفكيكه على الأرجح.»

مرَّت نيكول بعدد قليل من البشر في الرُّواق، يحاول معظمهم جرَّ أقدامهم في محاولةٍ منهم لممارسة رياضة السير الصباحية. ابتسمت نيكول واثنان ممن يحاولون ممارسةَ الرياضة يبتعدون بسرعة عن طريقها. وقالت في نفسها: «لا بد أني أبدو غريبةً للغاية؛ امرأةٌ عجوز بيضاء الشعر تقطع الرواق على مقعد متحرك.»

وانعطفت بعد أن وصلت بكرسيها إلى الترام الصغير الذي كان ينقل عددًا قليلًا من الركَّاب باتجاه المناطق العامة لتناول طعام الإفطار مبكرًا. استمرَّت نيكول في الضغط على زرِ زيادة السرعة في مقعدها حتى أصبحت تسير أسرعَ من الترام. فحدَّق فيها ركَّاب الترام بدهشة وهي تسبقهم. فلوَّحت لهم نيكول وابتسمت ابتسامةً عريضة. ولكن بعد بضع لحظات، عندما فُتح باب على بُعد مائة متر أمامها فجأةً وخرجت منه سيدتان إلى الرواق، أدركت نيكول أنه ليس من الآمن لها أن تقودَ بهذه السرعة. فأبطأت من سرعتها، وهي لا تزال تبتسم ابتساماتٍ هادئة جرَّاء الإثارة التي ولَّدتها بداخلها القيادةُ السريعة.

وعندما اقتربت نيكول من غرفتها رأت الرجلَ النسر يقف عند نهاية الجناح حيث يتقاطع مع الممر المحيط بسفينة نجمة البحر. فقادت الكرسي لتقف إلى جواره.

قال الرجل النسر: «يبدو أنك تستمتعين بقيادتك للكرسي.»

قالت نيكول ضاحكة: «أجل. هذا الكرسي لعبةٌ رائعة. لقد كدتُ أنسى الألمَ الذي أشعر به في رِدْفي.»

سألها الرجل النسر: «هل كان نومك أفضلَ ليلة أمس؟»

ردَّت نيكول: «أفضل بكثير، شكرًا لك. كما اتفقنا نِمت على جانبي ورفعتُ رِدْفي المصابَ عن مستوى جسدي. وبالمناسبة، لقد خفَّف أيًّا كان ما أعطيته لي أمس الألمَ كثيرًا.»

لوَّح الرجل النسر باتجاه الرَّدهة على الجانب الآخر من الممر الدائري. وقال: «هيا نذهب إلى هناك. فأنا أودُّ التحدث إليكِ على انفراد.»

قادت نيكول الكرسي عبْر الممر الدائري الرئيسي حتى وصلت إلى الممشى المؤدي إلى الرَّدهة. وأشار إليها الرجل النسر وهو يسير خلفها أن تواصل. كان هناك اثنا عشر كائنًا من الأوكتوسبايدر يجلسون في أنحاء الغرفة. فاختار الرجل النسر ونيكول مكانًا إلى أقصى اليمين، حيث يمكن أن يكونا وحدَهما.

قال الرجل النسر: «لقد أنهت الحاملة تقريبًا مهامَّها في النود. وبعد اثنتي عشرة ساعة من الآن ستتوقف وقتًا قصيرًا بالقرب من هذه المركبة لأخذِ مزيد من المسافرين ... وسأعلن بعد الغداء مَن سيُنقل إلى الحاملة.»

استدار الكائن الفضائي ونظر إلى نيكول مباشرةً بعينيه الزرقاوين الحادَّتين. وقال: «قد لا يسعَد بعضُ البشر بما سأعلنه ... فبعدما اتُّخذ قرارٌ بتقسيم جنسكم إلى مجموعتين منفصلتين اتضح لي على الفور أنه سيكون من المستحيل الوصولُ إلى تقسيمٍ لا يجعل البعض غير سعداء ... وأود أن تساعديني قليلًا في العمل على أن تكون هذه العملية هادئةً قدْر الإمكان.»

تفحَّصت نيكول وجهَ رفيقها الفضائي وعينيه المدهشتين. وتذكَّرت أنها رأت نظرةً مماثلة على وجه الرجل النسر مرةً من قبل. وقالت في نفسها: «هناك في النود عندما طلب مني التصوير بالفيديو.»

سألته نيكول: «ما الذي تريدني أن أقوم به؟»

«لقد قرَّرنا أن نسمح بدرجةٍ من المرونة في هذه العملية. فمع أن جميعَ الأشخاص على قائمة الانتقال إلى الحاملة يجب أن يقبلوا بانتقالهم إلى هناك، فإننا سنسمح لبعضٍ ممن سيُنقلون إلى النود أن يطلبوا إعادةَ النظر في هذا القرار. ولأنه لن يكون هناك أيُّ احتكاك بين سكان المركبتين، في حالة الارتباط العاطفي القوي بين الأفراد، على سبيل المثال، فإننا لا نريد أن نجبر ...»

قاطعته نيكول: «هل تقول لي إن هذا التقسيم قد يمزِّق عائلاتٍ للأبد؟»

أجابها الرجل النسر: «نعم، قد يفعل. ففي بعض الحالات قُرِّر نقلُ الزوج أو الزوجة إلى الحاملة، في حين أن الطرف الآخر بقائمة النود. وبالمثل هناك بعض الحالات سينفصل فيها الآباء عن أبنائهم ...»

قالت نيكول متعجِّبة: «يا إلهي! كيف يمكنك أنت — أو أي شخص — أن تقرِّر اعتباطًا التفريقَ بين زوج وزوجه اختارا أن يعيشا معًا، وتتوقَّع منهما أن يكونا سعيدين؟ ستكونون محظوظين إذا لم تحدُث ثورة عارمة بعد إعلانك.»

تردَّد الرجل النسر بضع ثوانٍ. وقال بعد صمت: «لا يوجد شيءٌ اعتباطي في هذه العملية. فقد أمضينا شهورًا حتى الآن ونحن ندرُس بدقة بياناتٍ هائلة عن كل كائن يعيش في الوقت الحالي على متن نجمة البحر. وتتضمَّن السجلات معلوماتٍ كاملة من السنوات التي قضوها في راما أيضًا، وأولئك المقرَّر نقلُهم إلى الحاملة لا يستوفون، بطريقة أو بأخرى، المعاييرَ الأساسية التي وضعناها للانتقال إلى النود.»

سألته نيكول بسرعة: «وما تلك المعايير بالضبط؟»

أجابها الرجل النسر: «كلُّ ما يمكنني أن أخبرك به الآن هو أن النود ستكون بيئةَ حياة للتواصل بين الأنواع ... والأفراد أصحاب القدرات المحدودة على التكيُّف سيذهبون إلى الحاملة.»

قالت نيكول بعد بضعِ ثوانٍ: «يبدو لي كما لو أن مجموعة من البشر المقيمين بالفندق الكبير قد رُفضوا، لسببٍ ما، ولم «يُقبلوا» ...»

قاطعها الرجل النسر قائلًا: «إذا كنتُ أفهم اختيارَكِ للكلمات فإنكِ تستنتجين أن ذلك التصنيف يقسِّم البشر بناءً على الجدارة. ولكن ليس هذا هو المقصود بالضبط. إننا نؤمن أن أغلبَ مَن في المجموعتين سيصبحون على المدى الطويل أسعدَ في البيئة التي اختيرت لهم.»

قالت نيكول: «حتى بدون أزواجهم أو أطفالهم؟!» ثم قطَّبت ما بين حاجبيها. وقالت: «في بعض الأحيان أتساءل هل راقبتم دوافعَ البشر فعلًا! فالارتباط العاطفي، إن استخدمتُ مصطلحاتكِ، عادةً ما يكون أهمَّ مكوِّن من مكوِّنات السعادة البشرية ...»

قال الرجل النسر: «إننا نعرف ذلك. لقد راجعنا بصورة خاصة كلَّ حالة ستُمزَّق فيها عائلة من العائلات، وقمنا ببعض الترتيبات نتيجةً لذلك. وفي حكمنا على الموقف، فإن الانقسامات التي ستحدُث في العائلات، والتي ليست كثيرةً كما يبدو من هذا الحوار، لها ما يبرِّرها استنادًا إلى بيانات المراقبة.»

حدَّقت نيكول في الرجل النسر وهزَّت رأسها بقوةٍ في استنكار. وقالت: «لمَ لمْ يُذكر ذلك التقسيم من قبلُ؟ إنك لم تُشِر قطُّ ولو مرةً وحدة في جميع النقاشات عن عملية النقل القادمة إلى أنك ستقسِّمنا إلى مجموعتين ...»

«نحن أنفسنا لم نقرِّر هذا الأمر إلا منذ وقت قريب. وتذكَّري أنَّ تدخُّلنا في راما دفعَنا إلى اللجوء إلى خطة طوارئ في مجموعة خططنا الموضوعة ... وعندما اتضح أن نوعًا من الانقسام سيكون ضروريًّا، فلم نُرِد إفساد الوضع الراهن ...»

قالت نيكول فجأةً: «هذا هراء! إنني لن أصدِّق هذا ولو لحظة. إنكم تعرفون ماذا ستفعلون منذ زمن بعيد ... إنكم فقط لم ترغبوا في سماعِ أي اعتراضات ...»

استدارت نيكول مبتعِدة عن رفيقها الفضائي باستخدام أدوات التحكُّم على مسند مقعدها، وقالت بقوة وثبات: «كلا! لن أتواطأ معكَ في هذا الأمر ... وأنا غاضبة لأنك عرَّضت أمانتي للشبهات عندما لم تخبرني بالحقيقة قبل الآن ...»

ضغطت زرَّ السرعة واتجهت نحو الرواق الرئيسي.

قال الرجل النسر وهو يتبعها: «ألا يمكنني فِعل أي شيء لأغيِّر وجهة نظرك؟»

توقَّفت نيكول. وقالت: «أظن أنَّ بإمكاني أن أساعدك في حالة واحدة فقط ... لمَ لا تشرح الاختلافاتِ بين البيئتين وتترك كلَّ فرد من كل نوع يختار بنفسه؟»

قال الرجل النسر: «أخشى أنه لا يمكننا فِعل هذا.»

قالت نيكول وهي تعود إلى تشغيل الكرسي المتحرك: «إذن لن أساعدك.»

كانت نيكول في حالةٍ مزاجية سيئة للغاية عندما وصلت إلى باب غرفتها. وانحنت للأمام على كرسيها وأدخلت مجموعةَ الأرقام السرية لغلق الباب على اللوحة في منتصفه.

وما إن دخلت نيكول إلى الغرفة حتى قال كيبلر: «مرحبًا يا سيدة نيكول! لقد خرج باتريك وأمي للبحث عنك. لقد قلقا عندما لم يجداك في الرواق.»

قادت نيكول الكرسي مارةً بالشاب متجهةً إلى غرفتها. فخرج بينجي من الحمَّام وهو يلفُّ مِنشفة فقط حول جسده. وقال بابتسامة عريضة: «مرحبًا يا أمي!» ثم لاحظ نظرةَ الاستياء على وجه نيكول فأسرع إلى جوارها. سألها: «ما الأمر؟ إنك لم تتعرَّضي لإصابة مرةً أخرى ...؟!»

قالت نيكول: «كلا يا بينجي. أنا بخير. كلُّ ما في الأمر أن حوارًا دار بيني وبين الرجل النسر ضايقني.»

قال بينجي وهو يمسك يدَها: «عمَّ؟»

قالت نيكول بعد تردُّد لوقت قصير: «سأخبرك فيما بعد. بعد أن تجفِّف جسدك وترتدي ملابسك.»

ابتسم بينجي وقبَّل والدته على جبهتها وعاد إلى الحمَّام. عاد الشعور بالهلع الذي راود نيكول في أثناء حديثها مع الرجل النسر يجتاحها. وفكَّرت فجأة: «يا إلهي! لا ليس بينجي. بالطبع لم يكن الرجل النسر يخبرني أننا سنفترق عن بينجي.» وتذكَّرت تعليقَ الرجل النسر عن ذوي «القدرات المحدودة» وبدأت تهلَع. وقالت في نفسها: «ليس الآن. رجاءً ليس الآن. ليس بعد هذا الوقت كلِّه.»

وتذكَّرت نيكول لحظةً خاصة قبل سنوات كثيرة عندما كانت العائلة في النود للمرة الأولى. كانت وحدَها في غرفتها، دخل بينجي الغرفةَ مترددًا ليعرف هل سيرحِّب به للانضمام إلى العائلة في رحلتها وهي عائدةٌ إلى النظام الشمسي. وقد شعر بارتياح شديد عندما علم

أنه لن ينفصل عن والدته. وقالت نيكول لنفسها وهي تتذكَّر أنه انتقل إلى أفالون عندما كانت هي في السجن في عدن الجديدة: «لقد عانى ما يكفي بالفعل. ولا بد أن الرجل النسر يعرف هذا إذا كان درَس جميع البيانات بالفعل.»

رغم محاولاتها المستميتة كي تظلَّ هادئة، لم تستطِع نيكول أن تكبِت مزيجَ الخوف والجزع الذي تصاعد داخلها. وفكَّرت في نفسها بمرارة وهي تخشى الأسوأ من هذا: «كنت أفضِّل أن أموتَ أثناء نومي. لا يمكنني أن أفترق عن بينجي الآن. فهذا سيحطِّم قلبه. وقلبي أنا أيضًا.»

سالت دمعةٌ من عينها اليسرى على وجنتها. سألها كيبلر: «هل أنتِ على ما يرام يا سيدة نيكول؟»

طُرِق الباب. فذهب كيبلر ليفتحه. ودخل باتريك وناي يتبعهما الرجل النسر. قال باتريك وهو يحيِّي أمَّه بقُبلة: «لقد وجدنا صديقك هذا في الرواق يا أمي. وقد أخبرنا أنه كان لديكما اجتماع ... لقد قلقت أنا وناي عليكِ ...»

اقترب الرجل النسر من نيكول وقال: «ثمَّة موضوعٌ آخر أودُّ أن أتحدَّث إليك بشأنه أيضًا. فهلا تأتين معي إلى الخارج دقيقتين، من فضلك؟»

أجابته نيكول: «أظن أنه لا خيارَ أمامي. ولكني لن أغيِّر رأيي.»

وعندما خرجا من الغرفة مرَّ بجوارهما ترام ممتلئ. سألت نيكول بنفادِ صبر: «ما الأمر؟»

«لقد أردتُ أن أُعلِمك أن جميع أنواع الكائنات اللاسويقية، بالإضافة إلى المخلوقات الطائرة الباقية، ستكون في المجموعة التي ستُنقل إلى الحاملة هذا المساء. فإذا كانت هناك رغبةٌ لا تزال بداخلكِ للتفاعل مع الكائنات اللاسويقية، كما أشرتِ من قبلُ في أثناء حوارٍ دار بيننا بعد أن استيقظتِ هنا مباشرةً، وتمرِّين بما وصفَه ريتشارد ...»

قاطعته نيكول وهي تجذب ساعدَه بقوة أدهشته: «أخبِرني شيئًا أولًا.»

وأردفت: «هل ستفرقون بيني وبين بينجي في ذلك التقسيم الذي ستعلِن عنه بعد ظهر اليوم؟»

تردَّد الرجل النسر عدة ثوانٍ، ثم قال في النهاية: «كلا! لن يحدُث هذا. ولكن ليس من المفترض أن أخبرك شيئًا من التفاصيل ...»

أطلقت نيكول تنهيدةَ ارتياح. وقالت ببساطة وهي تحاول الابتسام: «شكرًا لك.»

خيَّم عليهما صمتٌ طويل. ثم بدأ الرجل النسر يقول مرةً أخرى: «لن تستطيعي رؤيةَ الكائنات اللاسويقية بعد ...»

قالت نيكول: «حسنًا، حسنًا. هذه فكرة رائعة. شكرًا جزيلًا لك. أودُّ أن أعبِّر عن تقديري للكائنات اللاسويقية ... بعد أن أتناول إفطاري بالطبع ...»

كان وجود المكعبات الآلية الأصغر حجمًا أكثرَ وضوحًا في جناح مركبة نجمة البحر الذي يضم المخلوقات الطائرة واللاسويقية. وكان الجناح مقسَّمًا إلى عدة مناطق منفصلة بجدرانٍ تمتد من الأرض إلى السقف. كانت المكعبات الآلية تحرُس مداخلَ هذه المناطق ومخارجها، وهي متمركزة أيضًا عند كل محطة ترام.

كانت المخلوقات الطائرة واللاسويقية تعيش في نهاية الجناح، في آخرِ المجمعات المنفصلة. وعندما وصل الرجل النسر ونيكول كان أحد المكعبات الآلية وأحد المخلوقات الطائرة يحرُسان المدخل. تحدَّث الرجل النسر بلغة المخلوقات الطائرة وهو يجيب عن سلسلة من أسئلة المخلوق الطائر. وبعد أن دخلوا إلى المجمع اقترب منهما كائن قطنمل. وبدأ يتحدَّث مع الرجل النسر بصوته العالي التردُّد الصادر من الثقب الدائري الصغير أسفل عينيه البيضاويين الوديعتين بلونهما البني الداكن. تعجَّبت نيكول من دقة إجابات الرجل النسر التي على شكل صفير. وراقبت القطنمل بافتتان أيضًا والزوجين الثانيَين من عيونه، أعلى سويقات ترتفع عشرة أو اثني عشر سنتيمترًا فوق جبهته، يستمر في الدوران على محوره واستطلاع البيئة المحيطة به. وعندما انتهى الرجل النسر من حواره مع القطنمل، ذلك المخلوق السداسي الأرجل الذي يشبه نملةً عملاقة وهو يقف ثابتًا، انطلق المخلوق يجتاز الرواق بسرعة ورشاقة قطة.

قال الرجل النسر: «إنهم يعلمون مَن أنت. وهم مسرورون لأنك أتيت لزيارتهم.»

نظرت نيكول أعلى إلى رفيقها. وقالت: «كيف يعرفونني؟! لقد رأيت أحيانًا بعضًا منهم في المناطق العامة ولم أتعامل معهم قط ...»

«إن زوجك بمنزلة إلهٍ لهذه الكائنات ... فلولاه لما كان أيٌّ منهم موجودًا هنا الآن. إنهم يعرفونك من الصور التي كانت داخل ذاكرته ...»

سألته نيكول: «كيف يمكن ذلك؟! لقد توفِّي ريتشارد منذ ستة عشر عامًا ...»

قال الرجل النسر: «لكنَّ سجلَّ وقائع بقائه معهم وأحداثه محفوظٌ بدقة داخل ذاكرتهم الجمعية. فكل قطنمل يخرج من بطيخة المن الخاصة به يتمتَّع بقدرٍ كبير من المعلومات عن المكوِّنات الأساسية لثقافته وتاريخه ... وعملية تطوُّر الجنين التي تحدُث داخل البطيخة لا تمدُّهم بالتغذية البدنية اللازمة لعملية النمو وتكوين الكائن فقط، بل أيضًا تنقل معلوماتٍ مهمة مباشرة إلى عقول صغار القطنمل أو المقابل لها أيًّا كان.»

قالت نيكول: «هل تقول لي إن هذه الكائنات تبدأ في التعلُّم قبل أن تُولد؟ وإن هناك معارفَ مخزنةً داخل بطيخ المن، التي اعتدتُ أكْلَها، تُزرَع بطريقةٍ ما في عقول القطنمل التي لم تُولَد؟»

أجابها الرجل النسر: «بالضبط. ولا أرى سببًا يجعلك مذهولةً هكذا. فمن الناحية البدنية، هذه الكائنات لا تضاهيكم بأيِّ شكل من الأشكال في التعقيد. وعملية نمو الجنين عند البشر أكثرُ دقةً وتعقيدًا من مثيلتها لديهم. فمواليد البشر يصِلون إلى الدنيا بمجموعة مدهشة من الصفات والإمكانات البدنية. ولكنَّ أطفالكم يعتمدون على الأعضاء الأخرى من جنسِكم لبقائهم على قيد الحياة وتعلُّمهم. أما القطنمل فتُولَد «أذكى» ومن ثَم أكثر استقلالًا، ولكن لديهم إمكانات أقل بكثير للتطوُّر العقلي الإجمالي.»

سمِعا صوتَ صيحة حادة من قطنمل في الرواق على بُعد خمسين مترًا تقريبًا منهما. فقال الرجل النسر: «إنه ينادينا.»

تحرَّكت نيكول للأمام ببطء بكرسيِّها المتحرِّك وثبَّتت السرعةَ على سرعةٍ تساوي سرعةَ خُطى الرجل النسر. وقالت: «لم يخبرني ريتشارد قطُّ أن تلك الكائنات تحتفظ بالمعلومات من جيل إلى جيل.»

قال الرجل النسر: «إنه لم يكن يعلم. لقد اكتشف بالفعل دورةَ التحوُّل لديهم، وأن كائنات القطنمل تنقل المعلومات إلى الشبكة أو النسيج العصبي أو أيًّا كان ما يُطلَق على الشكل النهائي ... ولكنه لم يخمِّن حتى أن أهمَّ عناصر تلك المعلومات الجمعية لديها تُخزَّن في بطيخ المن وتُنقَل إلى الجيل التالي ... ولا داعيَ لأن أقول إن هذه آلية بقاء قوية.»

كان ما يقوله الرجل النسر يخلُب لبَّ نيكول. وقالت في نفسها: «ماذا لو أن أطفال البشر يمكن بطريقةٍ ما أن يولدوا وهم يعرفون بالفعل مبادئَ ثقافتنا وتاريخنا! ماذا لو أن شيئًا مثل المشيمة احتوى على معلوماتٍ كافية في صورة مضغوطة! يبدو هذا مستحيلًا، ولكنه ينبغي ألا يكون كذلك. فإذا كان بمقدور جنسٍ على الأقل من الأجناس ذلك، إذن في النهاية ...»

سألت نيكول وهما يقتربان من القطنمل الذي دعاهما: «ما مقدارُ البيانات التي تنتقل من بطيخ المن إلى المواليد الجدد؟»

«تقريبًا واحد على ألف من واحد بالمائة من المعلومات الموجودة في نموذجٍ ناضج تمامًا كالذي استخدمه ريتشارد. والوظيفة الأساسية للشكل النهائي للنوع هي التحكُّم في

البيانات ومعالجتها وضغطها إلى حُزمة لتضمينها في بطيخ المن ... ولكننا لا نزال ندرُس كيفيةَ عمل عملية التحكم في البيانات ...»

وواصل الرجل النسر: «والشبكة العصبية التي سترينها بعد دقائقَ قليلة كانت في الأساس جزءًا صغيرًا من مادةٍ تحتوي على بيانات مهمة مضغوطة باستخدامِ ما لا بد أنه خوارزمية عبقرية ... وقد قدَّرنا أنه كان في تلك الأسطوانة الصغيرة التي حملَها ريتشارد إلى نيويورك قبل سنوات معلوماتٌ تساوي في حجمها سعةَ ذاكرة مائة مخ بشري ناضج.»

قالت نيكول وهي تهزُّ رأسها في انبهار: «مذهل!»

قال الرجل النسر: «هذه هي البداية فقط. فكلُّ واحدة من بطيخ المن الأربع التي حملها ريتشارد كان بها مجموعتها الخاصة من البيانات المضغوطة. وقد خرج منها جميعًا كائناتُ قطنمل في حديقة حيوانات كائنات الأوكتوسبايدر. والشبكة العصبية الآن تحتوي على جميع الخبرات التي مرُّوا بها في تلك المرحلة أيضًا ... أتوقَّع أنك على وشْك بدء مغامرة.»

أوقفت نيكول الكرسيَّ المتحرك. وقالت: «لمَ لمْ تخبرني بكل هذا في وقتٍ مبكر؟ كان من الممكن أن أقضي مزيدًا من الوقت ...»

قاطعها الرجل النسر: «أشكُّ في هذا. لقد كانت إعادةَ بناء علاقتك بأفراد نوعك على رأس قائمة أولوياتك ... ولا أظن أنكِ كنت جاهزة لهذا قبل الآن.»

قالت نيكول دون ضغينة منها: «لقد كنتَ تتلاعب بي بالتحكُّم فيما أراه وأمرُّ به.»

أجابها الرجل النسر: «ربما.»

كانت نيكول خائفةً للغاية عندما واجهت الشبكة العصبية عن قُرب. كانت هي والرجل النسر معًا في غرفةٍ لا تختلف عن الغرفة التي تسكن فيها في الجناح المخصَّص للبشر. واثنان من كائنات القطنمل يجلسان خلفهما مستندَين إلى الحائط. وتحتل شبكة الكائنات اللاسويقية ما يقرُب من خمس عشرة بالمائة من الغرفة، خلفهما في الزاوية اليمنى. وتوجد فجوةٌ في وسط المادة البيضاء الكثيفة الناعمة تكفي نيكول وكرسيها المتحرك. وقد انصاعت نيكول لطلب الرجل النسر بأن تشمِّر عن ساعديها وترفع رداءها فوق ركبتيها.

قالت بقدرٍ من الذعر: «أظن أنها تتوقَّع مني أن أحرِّك الكرسي إلى ذلك الفراغ وأنها ستحيط جسدي بخيوطها.»

قال الرجل النسر: «أجل. وسيأمر أحدُ كائنات القطنمل الشبكةَ أن تطلق سراحكِ عندما تطلبين ... وسأظل أنا هنا طوال الوقت إذا كان ذلك سيجعلك تشعرين بالراحة.»

قالت نيكول وهي تتباطأ في دخولها: «أخبرني ريتشارد أن الأمر يستغرق وقتًا طويلًا حتى يبدأ أيٌّ تواصل فعلي ...»

أجابها الرجل النسر: «هذه لن تكون مشكلةً الآن. فمن المؤكد أن بعضًا من المعلومات المخزَّنة في الجزء الأصلي كانت بيانات عن الوسائل التي يمكن أن تستخدم في التواصل بصورةٍ فعَّالة مع الكائنات البشرية.»

قالت نيكول وهي تمرِّر يدَها بعصبية في شعرها: «حسنًا إذن، سأدخل. تمنَّ ليَ التوفيق.»

قادت نيكول الكرسيَ إلى الفجوة في الشبكة الناعمة وأطفأت زرَّ التشغيل في الكرسي المتحرك. وفي أقلَّ من دقيقة أحاط المخلوق بنيكول، فلم تستطِع حتى رؤيةَ ملامح جسد الرجل النسر عبْر الغرفة. حاولت نيكول أن تطمئن نفسَها. حين شعرت بمئات الخيوط الصغيرة في البداية ثم بآلاف منها تلتصق بذراعيها وساقيها وعنقها ورأسها، قالت في نفسها: «لن يؤذيني هذا.» وكما توقَّعت، كانت كثافةُ الخيوط أكبرَ حول رأسها. وتذكَّرت وصْفَ ريتشارد. قال: «كل خيط من هذه الخيوط رفيعٌ إلى حدٍّ لا يُصدَّق، ولكن لا بد أن لها أجزاءً دقيقة للغاية في نهايتها. إنني لم أدرك هل دخلت جيدًا داخل الطبقات الخارجية من جلدي حتى حاولت أن أسحب واحدة منها.»

حدَّقت نيكول في مجموعةٍ معينة من الخيوط على بُعد متر من وجهها. وعندما بدأت تلك العُقدة تتجه نحوها ببطء غيَّرت العناصر الأخرى في الشبكة الرقيقة من وضعها. سرَت قشعريرة في جسد نيكول، وتقبَّل عقلها أخيرًا أن الشبكة المحيطة بها كائن حي؟ وما هي إلا لحظات حتى بدأت الصور.

أدركت نيكول من فورها أن الكائن اللاسويقي يقرأ من ذاكرتها. إذ ومضت صورٌ من مرحلة مبكِّرة من حياتها في ذهنها بسرعةٍ مذهلة، ولم يكن أيٌّ منها يستمر وقتًا يكفي ليثيرَ داخلها أيَّ مشاعر. ولم تكن الصور مرتَّبة؛ فمرَّت على ذهنها ذكرى من الطفولة في الغابة خلف منزلها في الضاحية الباريسية شيلي مازار تتبَعها صورةٌ لماريا وهي تضحك من قلبِها على واحدة من نِكات ماكس.

فكَّرت نيكول في نفسها وهي تتذكَّر تحليلَ ريتشارد للوقت الذي قضاه داخل الشبكة العصبية: «هذه هي مرحلة نقل البيانات. إن الكائن ينسخ ذاكرتي إلى ذاكرته بمعدَّل سريع للغاية.» وتساءلت لوقت قصير عمَّا سيفعله الكائن اللاسويقي بكل الصور في ذاكرتها. ثم فجأةً رأت في عقلها صورةً حية لريتشارد نفسِه في غرفةٍ كبيرة على جدرانها لوحةٌ جدارية

كبيرة غير مكتملة. ثم أصبحت الصورة الساكنة في الغرفة مقطعًا متحركًا. كان وضوح الصور المنفردة المكوِّنة للمقطع مذهلًا. شعرَت نيكول كما لو أنها تشاهد تلفازًا ملونًا وُضع في مكانٍ ما في مخِّها. حتى إنها رأت تفاصيلَ اللوحة الجدارية. وبينما تشاهد نيكول المقطعَ جذب كائن القطنمل انتباهَ ريتشارد إلى نقاطٍ محدَّدة في الرسم على الحائط. كان في أنحاء الغرفة اثنا عشر كائن قطنمل أخرى يرسمون أو يَطلون الأجزاء غير المنتهية من اللوحة الجدارية.

كان العمل الفني بديعًا. صُنع كي يمنحَ ريتشارد معلوماتٍ عما يستطيع القيام به لمساعدة المخلوقات الفضائية على البقاء على قيد الحياة. وكان جزءٌ من اللوحة الجدارية كتابًا عن علم الأحياء الخاص بهم، وهو يشرح بالصور الأشكال الثلاثة التي يتخذها نوعُهم (بطيخ المن والقطنمل والكائن اللاسويقي أو الشبكة العصبية) والعلاقات بينها. كانت الصور التي تشاهدها نيكول واضحةً للغاية حتى إنها شعرت أنها قد نُقلت إلى الغرفة التي يوجد بها ريتشارد. ولهذا فقد أجفلت عندما قُطع فجأةً المقطعُ الداخلي الذي تشاهده وقفزت الصورة إلى الوداع الأخير بين ريتشارد وكائن القطنمل الذي يرشده.

كان ريتشارد والقطنمل في نفقٍ أسفل الأسطوانة البنية. وقد تباطأت الصور المتحرِّكة بصورةٍ لم تؤرِّق نيكول عند كل تفصيلة من تفاصيل الوداع الأخير. وبدا وجهُ ريتشارد الذي تزيِّنه لحيةٌ مثقلًا وهو يحمل بطيخات المن الأربع الثقيلة وبيضتين صلبتين للمخلوقات الطائرة، بالإضافة إلى أسطوانة مادة النسيج في حقيبة ظهره. الآن فهمت نيكول لماذا يرون ريتشارد بطلًا عندما رأت التصميم في عينيه وهو يرحل من موطن القطنمل الهالك. وذكَّرت نفسَها: «لقد خاطر بحياته كي ينقذَهم من الانقراض.»

تدفَّق مزيدٌ من الصور على عقلها؛ صور من حديقة حيوانات كائنات الأوكتوسبايدر تسجِّل أحداثًا بعد نمو بطيخ المن الذي حمله ريتشارد معه إلى نيويورك. ورغم وضوح الصور لم تستطِع نيكول التركيزَ على الصور بانتباه؛ فهي لا تزال تفكِّر في ريتشارد. وقالت لنفسها: «إنني لم أسمح لنفسي منذ أن استيقظت أن أشتاق إلى رفقتك، لأني ظننت أن هذا ينِم عن الضَّعف. أما الآن فرؤيةُ وجهك مرةً أخرى بهذا الوضوح وتذكُّري لكل الأشياء التي جمعتنا، يجعلاني أدرك مدى سخفي عندما أجبِر نفسي على عدم التفكير فيك. إذا مات مَن نحب قبْلنا فلمَ لا نجعل استعادةَ ذكرياتِ أهمِّ لحظاتنا مصدرًا مقبولًا للسعادة؟»

برقت صورةٌ لثلاثة من البشر، رجل وسيدة وطفلة صغيرة، في عقل نيكول وأسرَت انتباهها. وكادت أن تصرخ بصوتٍ عالٍ: «انتظر! ارجع إلى هذه الصورة! هناك شيء أودُّ

رؤيته.» ولكن الشبكة العصبية لم تقرأ رسالتها. فاستمرَّت في عرض الصور، فأوقفت نيكول أفكارها عن ريتشارد مؤقتًا وركَّزت باهتمام على الصور التي تظهر على التلفاز في مخِّها.

وبعد أقلَّ من دقيقة رأت الثلاثي مرةً أخرى يسيرون مع حارس حديقة الحيوانات بجانب المنطقة التي تضم القطنمل. إنها ماريا بين ذراعي والدتها. كان والدها، وهو رجلٌ أسمرُ البشرة وسيمُ الوجه أشيبُ الفَودين، يجرُّ إحدى ساقيه كما لو أنها مكسورة. وفكَّرت نيكول: «إنني لم أرَ ذلك الرجل من قبل. لو رأيته لتذكَّرتُه.»

لم تظهر صورٌ أخرى عن ماريا ووالديها. وأوضحت مجموعةُ الصور المعروضة بسرعة في عقل نيكول انتقالَ القطنمل إلى مكان آخر، بعيدًا عن حديقة الحيوانات ومدينة الزمرد في وقتٍ ما قبل أن يبدأ القصف. وافترضت نيكول أن المجموعة الأخيرة من الصور التي عُرضت أمامها لأحداثٍ وقعت في الوقت الذي كان فيه جميع البشر وكائنات الأوكتوسبايدر في راما نائمين. وفكَّرت: «لم يمرَّ وقتٌ طويل بعد ذلك، إذا كنت أفهم دورةَ حياة القطنمل بصورة صحيحة، حتى تحوَّلت الكائنات الأربعة الناتجة عن البطيخ الذي أنقذه ريتشارد إلى مادة شبكية. وأصبحت جميع هذه الذكريات مضمَّنة بداخلها.»

ثم أصبحت الصور في ذهن نيكول مختلفة تمامًا. رأت صورًا لمشاهدَ اعتقدت أنها من كوكب الكائنات اللاسويقية الأصلي، صورًا وصفها لها من قبلُ ريتشارد بسعادةٍ أثناء الوقت الذي قضياه سويًّا بعد هروبها من عدن الجديدة.

كانت نيكول قد وضعت يدَها اليمنى عمدًا بجوار لوحة التحكُّم في كرسيِّها المتحرِّك عندما دخلت إلى الشبكة. وعندما ضغطت على زر التشغيل ثم زر الرجوع للخلف رصدَ الكائن اللاسويقي حركةَ الكرسي الطفيفة من فوره. فتوقَّفت الصور على الفور وبعدها سحب الكائن خيوطه.

٦

في اليوم التالي، قبل ساعة من بدء موعد الغداء، تحوَّل جزءٌ من أحد الجدران في كل غرفة من غرف سفينة نجمة البحر إلى شاشة تلفاز كبيرة. ثم أُخبر المقيمون بها أن هناك إعلانًا مهمًّا سيُبثُّ بعد ثلاثين دقيقة.

قال ماكس لنيكول وهما ينتظران: «هذه هي المرة الثالثة فقط التي نتلقى فيها بثًّا عامًّا. كان الأول بعد أن وصلنا إلى هنا مباشرة، والثاني بعد أن تقرَّر فصلُ أجنحة المعيشة.»

سأل ماريوس: «ما الذي سيحدُث الآن؟»

أجابه ماكس: «أظن أننا سنكتشف تفاصيلَ انتقالنا. على الأقل هذه هي الإشاعة السائدة.»

وفي الوقت المحدَّد ظهر وجهُ الرجل النسر على الشاشة. قال وهو ينقل الرسالة نفسَها في الوقت نفسِه بشرائط ألوان تتحرك عبْر جبهته: «العام الماضي عندما استيقظتم جميعًا ونُقلتم من راما، أخبرناكم أن هذه المركبة لن تكون منزلكم الدائم. إننا الآن على وشْك نقلِكم إلى مكان آخر، حيث ستكون الظروف المعيشية أفضلَ كثيرًا.»

سكتَ الرجل النسر بضعَ ثوانٍ قبل أن يستأنف: «لن تُنقلوا جميعًا إلى المكان نفسِه. سينتقل تقريبًا ثلث المقيمين في نجمة البحر في الوقت الحالي إلى الحاملة، تلك المركبةِ الفضائية الضخمة المسطحة التي تمركزت بالقرب من النود أغلبَ الأسبوع المنصرم. وفي أثناء الساعات القليلة التالية ستنهي الحاملة عملَها في النود وتأتي إلينا. وأولئك الذين سيُنقلون إلى الحاملة سيتحركون الليلة بعد العشاء.

أما بقيتكم فسينتقل إلى النود في غضون ثلاثة أو أربعة أيام. لن يبقى أحدٌ هنا على متن نجمة البحر ... وأود أن أؤكد مرةً أخرى أن وسائل العيش والراحة في كلا المكانين ستكون ممتازة وأفضلَ كثيرًا من الموجودة على متن هذه المركبة.»

سكتَ الرجل النسر نصف دقيقة تقريبًا كما لو كان يسمح ببعض الوقت للمستمعين كي يعبِّروا عن ردود أفعالهم لِما قاله. ثم قال: «عندما ينتهي هذا الاجتماع ستُظهر شاشة التلفاز في كل غرفة على نحو متكرِّر قائمةً بجميع الكائنات على متن السفينة مرتَّبة برقم الغرفة، وستعرض الأماكن التي من المقرَّر الانتقال إليها. قراءة المعلومات على الشاشات بسيطةٌ للغاية. فإذا ظهر اسمك و/أو كود التعريف الخاص بك على الشاشة بحروف سوداء على خلفية بيضاء، فهذا يعني أنك ستُنقل إلى الحاملة. وإذا كان اسمك بحروفٍ بيضاء على خلفية سوداء فستظل هنا الأيامَ القليلة القادمة، وستُنقل في النهاية إلى النود.

ولمعلوماتكم، على متن الحاملة سيكون لكل جنس من الكائنات منطقةٌ مخصَّصة يعيش فيها. ولن يكون هناك اختلاطٌ بين الأنواع فيما عدا بالطبع حالات العلاقات التكافلية. في المقابل ...»

علَّق ماكس بسرعة: «هذا من شأنه أن يسعد قادةَ المجلس. لقد كانوا يثيرون الاضطرابات للفصل التام منذ أشهر ...»

«... ستقتضي الظروف المعيشية في النود تواصلًا وتفاعلًا منتظمَين بين الأجناس ... وقد حاولنا في توزيعنا للأفراد في المكانين أن نضع كلًّا منكم في البيئة التي تناسب شخصيتَه

تمامًا. وقد تحرَّينا الدقةَ في اختياراتنا بالاعتماد على بيانات المراقبة هنا على متن نجمة البحر وفي أثناء السنوات التي قضيتموها في راما ...

من المهم أن تدركوا جميعًا أنه لن يكون هناك أيُّ اتصال بين المجموعتين بعد أن يتم الانتقال. سأصيغ ذلك بعبارةٍ أخرى لضمان عدم حدوث أي لَبْس في الفهم. أولئك الذين سينتقلون إلى الحاملة الليلة لن يروا أبدًا أيًّا من المقيمين هنا مرةً أخرى الذين سيُنقلون إلى النود.

مَن اختِير للانتقال إلى الحاملة يجب أن يبدأ في حزمِ حقائبه على الفور ويجب أن يكون مستعدًّا تمامًا للانتقال قبل أن يأتيَ لتناول العشاء. أما مَن وقعَ عليه الاختيار للانتقال إلى النود ولا يرى أن الاختيار مناسب، فيمكنه أن يطلب إعادةَ النظر في القرار. والليلة بعد أن ينتقل جميع المسافرين الذين اختِيروا للانتقال إلى الحاملة، سألتقي في المطعم بأولئك الذين يفكرون في الانتقال من النود إلى الحاملة ...

وإذا كان لدى أيٍّ منكم أسئلة فسأكون بالمكتب الكبير في الرَّدهة طَوال الساعة التالية ...»

سأل ماكس نيكول: «ماذا قال لك الرجل النسر؟»

أجابته: «الكلام نفسه الذي قاله للعشرين شخصًا الآخرين في الرَّدهة الذين كانوا يسألون السؤال نفسَه. لا يُسمح بتغيير مكان الانتقال لأولئك المقرَّر نقلهم إلى الحاملة ... ستكون إعادة النظر مقصورةً فقط على أولئك المقرَّر نقلهم إلى النود.»

سألت إيبونين: «هل هذا ما جعل ناي ... تنهار؟»

قالت نيكول: «نعم. حتى ذلك الوقت كانت تتمالك نفسَها جيدًا. عندما جاءت في البداية إلى غرفتنا بعد أن عُرضت القوائم أولَ مرة، رأيتها هادئة بصورة ملحوظة ... من الواضح أنها أقنعت نفسَها مبدئيًّا أن اختيار جاليليو كان خطأً كتابيًّا.»

قالت إيبونين: «إنني أفهم ما لا بد أنها تشعر به. وسأعترف أن قلبي كاد يقفز من صدري عندما رأيت أننا جميعًا عدا جاليليو بالقائمة التي ستُنقل إلى النود.»

قال ماكس: «أراهن أن ناي ليست الوحيدةَ الغاضبة من هذا الاختيار.» وقف وبدأ يتجول في أنحاء الغرفة وهو يهزُّ رأسه في أسًى. قال «إنها مشكلة حقًّا. ماذا كنا سنفعل لو كان تقرَّر نقلُ ماريوس إلى الحاملة؟»

أجابته إيبونين بسرعة: «هذا أمرٌ سهل. كنا سنتقدم أنا وأنت بطلب للذهاب مع ابننا.»

قال ماكس بعد صمتٍ لم يدُم طويلًا: «أجل. أظن أنك على حق.»

قالت نيكول: «وهذا ما يناقشه باتريك وناي الآن في الغرفة المجاورة. لقد طلبا من الشباب الخروجَ من الغرفة حتى يستطيعا التحدُّث على انفراد.»

سألته إيبونين: «هل تظن أن ناي يمكنها التعاملُ مع كل هذه الضغوط الإضافية التي ستقع على كاهلها بعد … ما حدَث لها مباشرة؟»

قال ماكس: «ليس لديها خيارٌ في الواقع. فلم يتبقَّ لديهما سوى ساعتين حتى يتخذا قرارهما.»

قالت نيكول: «لقد بدَت لي أفضلَ بكثير منذ عشرين دقيقة. فالمُسكِّن الخفيف بدأ يُحدِث مفعوله … وكان باتريك وكيبلر لطيفين للغاية معها، وأظن أن ناي أخافت نفسَها ولا سيما بعدما انتابتها نوبة الغضب.»

سألتها إيبونين: «هل هاجمت الرجل النسر بالفعل؟»

قالت نيكول: «كلا … لقد قيَّدها أحدُ المكعبات الآلية على الفور عندما صرخت. ولكنها كانت خارجة عن السيطرة … كان من الممكن أن تفعل أيَّ شيء.»

قال ماكس: «اللعنة! إذا أخبرتني عندما كنا نعيش في مدينة الزمرد أن ناي لديها القدرةُ على استخدام العنف، كنت سأعارضك …»

قاطعته نيكول: «فقط مَن كان أبًا أو أمًّا هو مَن يستطيع فقط أن يفهم المشاعر القوية التي تمتلكها الأم عندما يتعلق الأمر بأطفالها. لقد أصيبت ناي بخيبة الأمل شهورًا … أنا لا يمكن أن أتغاضى عن ردةِ فِعلها، ولكني بالتأكيد أتفهَّم …»

سكتت نيكول عندما سمِعت طرقًا على الباب. تكرَّر الطَّرق على الباب، ثم دخل باتريك الغرفةَ بعد بضع ثوانٍ. كان وجهه يفصِح عما يشعر به من قلق. قال: «أمي! أحتاج إلى التحدُّث إليك.»

قال ماكس: «يمكنني أن أخرج أنا وإيبونين إلى الرواق. إذا كان ذلك سيتيح لكما فرصةً للحديث …»

قال باتريك بصعوبة: «نعم، شكرًا لك يا ماكس … سأقدِّر هذا كثيرًا.» لم ترَ نيكول باتريك مضطربًا بهذا الشكل من قبل.

قال باتريك فور أن أصبح وحدَه مع نيكول: «لا أدري ماذا أفعل! فكل شيء يحدُث بسرعة كبيرة … لا أظن أن ناي في كامل قواها العقلية، ولكن لستُ قادرًا على …» خبا صوتُه. ثم قال: «أمي، إنها تريد أن نتقدَّم جميعًا بطلب إعادة نظر في انتقالنا! الجميع!

أنت وأنا وكيبلر وماريا وماكس ... جميعنا ... وتقول إن لم نفعل ذلك فسيشعر جاليليو أننا هجرناه.»

نظرت نيكول إلى ابنها. كان على وشْك البكاء. ففكَّرت نيكول بسرعة: «لم يعِش باتريك فترةً كافية ليتعامل مع أزمةٍ كهذه. لقد عاش مستيقظًا مدةً تزيد قليلًا عن عشر سنوات.»

قالت نيكول برفق: «ماذا تفعل ناي الآن؟»

أجاب باتريك: «إنها تمارس التأمُّل. وتقول إن ذلك سيهدئ روحها وسيضمِّد جِراحها ... ويمنحها القوة.»

«وهل من المفترض أن تقنعنا أنت؟»

«نعم، أظن هذا ... ولكن يا أمي، إن ناي لم تَضَع في اعتبارها أنه قد لا يوافق أحدُنا على ما تقترحه. إنها تعتقد أن ما يجب أن نفعله جميعًا واضحٌ وضوح الشمس.»

كان الألم باديًا على وجه باتريك. فتمنَّت نيكول لو تقترب منه وتربِّت على كتفيه وتُذهِب عنه آلامه كلَّها. ثم سألته بعد فترة من الصمت: «وماذا ترى أن نفعل؟»

قال باتريك وهو يذرع الغرفةَ جَيئة وذهابًا: «لا أعلم. فأنا على غرار الجميع لاحظت فور أن أُعلنت القائمة أن جميع أعضاء المجلس النشطين سيُنقلون إلى الحاملة، وكذلك معظم البشر الذين أُبعدوا من أماكن المعيشة العادية. أما الأشخاص الذين نحبُّهم ونحترمهم، وكذلك جميع كائنات الأوكتوسبايدر فيما عدا بعض سكان الموطن البديل، فسيذهبون إلى النود ... ولكني أتعاطف مع ناي. إنها لا تحتمل فكرةَ عزلِ جاليليو، وإبعاده للأبد عن نظام الدعم الوحيد الذي عرفه في حياته ...»

ارتفع صوتٌ داخل نيكول يسألها: «ماذا ستفعلين لو كنتِ في مكان ناي؟ ألم تشعري بالذعر في وقتٍ سابق من اليوم عندما خشيتِ أن تبتعدي عن بينجي؟»

قال باتريك بتضرُّع: «هلا تتحدَّثين إليها يا أمي بعد أن تنتهي من التأمل؟ ستستمع إليك. لطالما تحدَّثت ناي عن احترامها لحكمتك.»

سألته نيكول: «وهل هناك أيُّ شيء محدَّد تريد مني أن أخبرها به؟»

قال باتريك وهو يعتصِر يديه: «أخبريها ... أخبريها أنه ليس من حقها أن تقرِّر ما هو الأفضل للجميع. يجب أن تركِّز على قرارها هي.»

قالت نيكول: «هذه نصيحة جيدة.» حدَّقت في ابنها. ثم قالت بعد ثوانٍ: «أخبرني يا باتريك، هل قرَّرت ماذا ستفعل لو أن ناي انتقلت إلى الحاملة ولم يفعل أيٌّ منَّا هذا؟»

قال باتريك بهدوء: «نعم، قرَّرت يا أمي. سأذهب مع ناي وجاليليو.»

أوقفت نيكول كرسيها المتحرك في زاويةٍ أمام نافذة المراقبة. كانت وحدَها كما طلبت. لقد كانت فترة بعد ظهيرة ذلك اليوم مفعمةً بالانفعالات لدرجةِ أنها شعرت باستنزاف قواها تمامًا. لقد ظنَّت نيكول في البداية أن لقاءها مع ناي سارَ على ما يرام. فقد استمعت ناي باهتمام إلى نصيحة نيكول، دون أن تعلِّق. لذا فوجئت نيكول تمامًا عندما جاءت ناي بعد ساعة تستشيط غضبًا وواجهتها هي وماكس وإيبونين وإيلي.

قالت ناي: «إن باتريك يقول إنه لن يأتيَ أيٌّ منكم معنا. الآن أرى جزائي مقابل إخلاصي التام لكم طوال هذه السنوات … لقد جررت ولدَيَّ التوءمين من وطنهما بدافع الولاء لكم، يا أصدقائي … وحرَمتُ جاليليو وكيبلر من أن يمرَّا بطفولة عادية لاحترامي وإعجابي بكِ يا نيكول، يا مَثَلي الأعلى … والآن عندما أطلب منكم خدمة …»

قالت إيلي برفق: «إنك غيرُ عادلة في هذا الموقف يا ناي. إننا جميعًا نحبُّك وتروعنا فكرةُ الانفصال عنك أنت وجاليليو للأبد … صدقيني، كنا سنذهب معك أنت وجاليليو إذا تبيَّن لنا أن …»

فقالت ناي وهي تخرُّ على ركبتيها إلى جوار صديقتها وتجهش ببكاء حارٍّ: «إيلي! إيلي! هل نسيتِ تلك الساعات كلها التي قضيتها مع بينجي في أفالون؟ نعم، أعترف أني فعلت هذا بمحض إرادتي، ولكن هل كنتُ سأولي بينجي هذا الاهتمامَ كلَّه لو لم يكن هو شقيقك وأنتِ أقربَ صديقاتي؟ إنني أحبُّك يا إيلي … وأحتاج إلى مساعدتك … من فضلك، رجاء، تعالي معنا. على الأقل أنت ونيكي …»

بكت إيلي أيضًا. وقبل أن ينفضَّ هذا الموقف، لم تكن هناك عينٌ لم تذرف الدموع. وفي النهاية اعتذرت ناي كثيرًا للجميع.

تنفَّست نيكول نفسًا عميقًا وحدَّقت من النافذة. وكانت تعرف أنها تحتاج إلى راحةٍ من ذلك الإجهاد العاطفي كله. وقد شعرت بعد ظهر ذلك اليوم بوخزٍ حادٍّ مرتين في صدرها. وفكَّرت في نفسها: «حتى تلك المجسَّات السحرية جميعها لا تستطيع حمايتي إذا لم أعتنِ أنا بنفسي.»

كانت الحاملة الضخمة متمركزةً على بُعد عدة مئات من الأمتار فقط من نجمة البحر. كانت بناءً هندسيًّا مهيبًا، أكبرَ كثيرًا مما كانت تبدو عليه عندما كانت إلى جوار النود. كانت المركبة واقفةً في وضعٍ جانبي؛ لذا لم يظهر من نافذة نجمة البحر سوى جزء منها. وكانت قمةُ الحاملة سطحًا منبسطًا طويلًا لا يظهر فيه سوى مجموعات من المعدَّات الصغيرة المتناثرة والقباب الشفافة — أو الفقاعات كما كان يُطلق عليها في البداية — المرتَّبةِ على

طولِ السطح المستوي وعرضِه، وبعض القباب الضخمة جدًّا. كانت إحداها، تلك المقابِلة للنافذة مباشرة، ترتفع أكثرَ من مائتي متر فوق السطح المستوي. بينما كانت القباب الأخرى صغيرةً للغاية، وأجزاء من إحدى عشر فقاعة شفافة مرئية من نافذة المراقبة. ومن الممكن رؤيةُ الحاملة بالكامل في وقتٍ مبكِّر من ظهر ذلك اليوم في أثناء اقتراب المركبة، وقد قُدِّر عددُ القباب بثمانٍ وسبعين.

وكان الجزء السفلي من الحاملة مغطًّى بسطح خارجي رمادي لامع. ويمتد أسفل السطح المستوي مسافةَ كيلومتر، وله جوانبُ منحدرة قليلًا وقاعدة دائرية. ومن بعيد بدا الجزء السفلي ضئيلًا مقارنةً بالسطح المستوي الواسع الذي يبلغ طوله أربعين كيلومترًا وعرْضه خمسة عشر كيلومترًا على الأقل. ولكن من مسافة قريبة كان من الواضح أن سَعة ذلك البناء الرتيب الشكل هائلة.

وبينما كانت نيكول تشاهد بافتتانٍ تمدَّدت فجوة صغيرة في جانب الجزء الخارجي الرمادي اللون، أسفل السطح مباشرة، لتتحول إلى أنبوبٍ دائري يخرج من الحاملة. اقترب الأنبوب من سفينة نجمة البحر، ثم بعد بعض التصحيحات الدقيقة الطفيفة التحمَ الأنبوب بحجرة معادَلة الضغط.

ابتسمت نيكول. وقالت في نفسها: «إنه يومٌ آخر مدهش في حياتي المدهشة.» ثم عدَّلت من وضعها على الكرسي فشعرت بألمٍ طفيف في رِدْفها. فكَّرت: «ليت كان بيدي ما أفعله لأجل ناي. لكن إجبار الجميع على التضحية بأنفسهم من أجل جاليليو ليس هو الحل الصائب.»

شعرت نيكول بلمسةٍ على ذراعها فاستدارت إلى جانبها. كانت الدكتورة بلو. قالت الأوكتوسبايدر بالألوان: «كيف تشعرين؟»

أجابتها نيكول: «أفضل الآن. ولكني مررت بلحظاتٍ عصيبة بعد ظهر اليوم.»

فحصت الدكتورة بلو نيكول بجهاز مراقبة نشاط القلب. فقالت لها نيكول: «شعرتُ اليوم بألمٍ شديد مرتين على الأقل. أتذكَّرهما بوضوح.»

درَست الأوكتوسبايدر الطبيبة البيانات التي تظهر بالألوان مضيئةً على الشاشة الصغيرة. وقالت: «لمَ لمْ تتصلي بي؟»

أجابتها نيكول: «فكَّرت في هذا. ولكن كان هناك كثير من الأحداث ... ورأيت أنك قد تكونين مشغولة في ...»

أعطت الدكتورة بلو نيكول قِنِّينةً صغيرة تحتوي على سائلٍ سماوي اللون. وقالت: «اشربي هذا. سيحدُّ من استجابات قلبك للضغوط الانفعالية خلال الاثنتي عشرة ساعة القادمة.»

سألت نيكول: «هل سنظل معًا؟ أنا وأنت بعد أن ترحل الحاملة؟ إنني لم أفحص الجزءَ الخاص بكم من القائمة جيدًا.»

أجابتها الدكتورة بلو: «نعم. خمسة وثمانون بالمائة من جنسنا سيُنقلون إلى النود. وأكثرُ من نصف كائنات الأوكتوسبايدر التي ستُنقل إلى الحاملة من سكان الموطن البديل.»

قالت نيكول بعد أن تجرَّعت السائل: «حسنًا يا صديقتي ماذا تستنتجين من عملية النقل هذه؟»

قالت الدكتورة بلو: «أفضلُ تخمينٍ توصَّلنا إليه هو أن هذه التجربة بالكامل وصلت إلى نقطةِ تفرُّع مهمة، وأنهم سيستخدمون المجموعتين الآن في أنشطة مختلفة اختلافًا جذريًّا.»

ضحكت نيكول وقالت: «هذا ليس استنتاجًا تفصيليًّا.»

وافقتها الأوكتوسبايدر بهدوء قائلة: «صحيح، ليس كذلك.»

كان هناك اثنان وثمانون شخصًا وتسعة من كائنات الأوكتوسبايدر في المطعم عندما عقَد الرجل النسر اجتماعَ إعادة النظر بعد خمس دقائق من رحيل آخر المقيمين في نجمة البحر الذين تقرَّر انتقالهم إلى الحاملة عبْر غرفة معادَلة الضغط؟ وسُمح فقط لأولئك الذين طلبوا إعادةَ النظر بحضور ذلك الاجتماع. وكان كثيرٌ من الأفراد الآخرين من كل جنس لا يزالون موجودين على سطح المراقبة وفي المناطق العامة يتحدَّثون عن موكب الرحيل أو ينتظرون معرفةَ نتيجة اجتماع الرجل النسر.

عادت نيكول إلى مكانها عند نافذة المراقبة. وكانت تجلس على الكرسي المتحرِّك تحدِّق في الحاملة وتفكِّر مليًّا في المشاهد التي رأتها في الساعة الأخيرة. كان معظم الراحلين من البشر في حالةٍ مزاجية مرحة، ويشعرون بسعادةٍ واضحة لأنهم لن يعيشوا بعد ذلك بين كائنات فضائية. هناك بعضُ لحظات الوداع الحزينة عند باب غرفة معادلة الضغط، ولكنها في الواقع قليلةٌ بصورة تثير الدهشة.

سُمح لجاليليو بقضاء عشر دقائق مع عائلته وأصدقائه في المنطقة العامة. وقد طمأنه باتريك وناي بأنهما سينضمان إليه مع شقيقه كيبلر، الذي لا يزال يُعِدُّ حقيبته، في الحاملة قبل أن ينتهيَ المساء، ولكن الشاب لم يبدُ عليه أنه متأثِّر لأي درجة تُذكَر.

كان جاليليو من ضمن آخرِ البشر الذين غادروا مركبةَ نجمة البحر. وتبِعته مجموعة صغيرة من المخلوقات الطائرة وكائنات القطنمل. وقد وُضعت مادة الشبكة العصبية وبطيخ المن المتبقي في صناديقِ شحنٍ كبيرة وحملتها مجموعةٌ من المكعبات الآلية. وقد فكَّرت نيكول عندما استدار آخر المخلوقات الطائرة وأصدر صيحةَ وداع للمشاهدين: «أظن أنني لن أرى نوعكما مرةً أخرى.»

بدأ الرجل النسر الاجتماعَ في المطعم قائلًا: «لقد طلب كلٌّ منكم إعادةَ النظر في المكان الذي تقرَّر انتقاله إليه، وأن يُسمح لكم بتغيير منزلكم المستقبلي من النود إلى الحاملة ... وأود الآن أن أشرح لكم اختلافين إضافيَّين بين بيئتَي المعيشة على متن الحاملة والنود. فإذا كنتم لا تزالون تريدون تغييرَ مكان انتقالكم، بعدما تتدبَّرون في هذه المعلومات الجديدة، فإننا سنستجيب لطلبكم.

كما أخبرتكم بعد ظهر اليوم لن يكون هناك اختلاطٌ بين الأجناس المختلفة من الكائنات على متن الحاملة. سوف يُعزل كلُّ نوع من الكائنات في موطنٍ خاص به، عِلاوة على ذلك، لن يكون هناك تدخُّل من أي نوع من قِبل أي كائنات عاقلة في شئون كل نوع، بما في ذلك الكائنات التي أمثِّلها. الآن أو في أي وقت لاحق. سيكون كل نوع من الكائنات بمفرده تمامًا على متن الحاملة. على النقيض، ستكون الحياة التي تتخالط فيها الأجناس على متن النود خاضعةً للإشراف. ليس إشرافًا قويًّا بقدرِ الموجود هنا على متن نجمة البحر، سيكون هناك قدرٌ من الإشراف. إننا نعتقد أن المراقبة والإشراف ضروريان عندما تعيش الكائنات المختلفة معًا ...

ولعل العامل الثاني الإضافي أكثرهما أهميةً على الإطلاق. لن يكون هناك أيُّ تكاثُر على متن الحاملة. فجميع الأفراد الذين يسكنون الحاملة من جميع الأجناس سيُعقَّمون للأبد. ستتوافر جميعُ الوسائل الضرورية لحياةٍ طويلة وسعيدة لأولئك الذين سيعيشون على الحاملة، ولكن لن يُسمح لأحد بالإنجاب. في حين أنه لن تكون هناك أيُّ قيود على التكاثر في النود ...»

قال الرجل النسر عندما حاول عديدٌ من الأعضاء مقاطعته بطرح الأسئلة: «رجاءً دعوني أنهي كلامي! لدى كلٍّ منكم ساعتان ليقرِّر ... فإذا كنتم لا تزلون تريدون الانتقالَ إلى الحاملةِ ما عليكم سوى إحضار الحقائب التي أعددتموها واطلبوا من المكعَّب الكبير أن يفتح لكم غرفةَ معادَلة الضغط ...»

لم تُفاجأ نيكول عندما غيَّر كيبلر فيما بعدُ رأيَه بشأن الانتقال إلى الحاملة. فقد كان الشاب يواجه صعوبةً في اتخاذِ قراره في البداية ولم يطلب إعادةَ النظر إلا بدافع الولاء لوالدته. ومنذ ذلك الوقت قضى معظمَ فترةَ بعد الظهيرة مع ماريا التي من الواضح أنه يعشقها.

وقد طلب كيبلر مساعدةَ كل شخص في العائلة الكبيرة إذا نشِبَ جدالٌ بينه وبين والدته، ولكن لم يحدُث أيُّ خلاف بينهما. فقد وافقت ناي أنه يجب ألا يُحرم كيبلر من متعة الأبوة. بل اقترحت بنبل أخلاقٍ منها أنه ربما يحتاج باتريك إلى إعادة التفكير في قراره، ولكنَّ زوجها سارع بتوضيح أنها تخطَّت سنَّ الإنجاب وأنه أبٌ بالفعل، بطريقةٍ أو بأخرى لجاليليو وكيبلر.

ترك الجميعُ نيكول وباتريك وناي وكيبلر وحدَهم في إحدى الغرفتين للوداع الأخير. لقد كان يومًا من الدموع والمشاعر الجياشة. وكان أربعتهم منهكين مما عانَوه من انفعالات. إنهما أمَّان تودِّعان ابنيهما للأبد. وكان في الكلمات الأخيرة للأمَّين تماثلٌ يمس الوجدان. فقد طلبت ناي من نيكول أن ترشد كيبلر بحكمتها، وطلبت نيكول من ناي أن تستمر في منح باتريك حبَّها غيرَ المشروط وتؤثِره على نفسها.

ثم رفع باتريك الحقيبتين الثقيلتين وألقاهما على كتفيه. وبينما خرج هو وناي من الباب وقف كيبلر إلى جوار كرسي نيكول المتحرِّك يمسك يدَها الضامرة. ولم يتدفَّق نهر الدموع من عينَي نيكول إلا بعد أن أُغلق الباب. وقالت في نفسها بقلبٍ مفطور: «وداعًا يا باتريك! وداعًا يا جنيفياف وسيمون وكيتي! وداعًا يا ريتشارد!»

٧

تعاقبت الأحلام على نيكول واحدًا تلو الآخر، دون أي فواصلَ بينها أحيانًا؛ فهنري ضحِك عليها لأنها سمراء البشرة، ثم زميل متغطرِس من كلية الطب منعَها من ارتكاب خطأ فادح أثناء عملية عادية لاستئصال لوزتين. وبعدها كانت تسير على شاطئ رملي وسُحب داكنة تحوم فوق رأسها. وهناك شخص صامت يرتدي عباءةً ويشير إليها من بعيد. قالت نيكول لنفسها في الحُلم: «إنه الموت.» ولكنها كانت دعابة قاسية من هذا الشخص. فعندما وصلت إليه ولمست يدَه الممدودةَ خلع ماكس باكيت عباءته وضحِك.

ثم كانت نيكول تزحف على ركبتيها العاريتين في أنبوبٍ أسمنتي مظلِم أسفل الأرض. كانت ركبتاها تنزفان. قال صوت كيتي: «أنا هنا!» فسألت نيكول بخيبةِ أمل: «أين أنت؟»

قال بينجي: «أنا خلفك يا أمي.» ثم بدأت المياه تملأ الأنبوب. قالت نيكول: «لا أستطيع إيجادَهما. لا أستطيع مساعدتهما.»

كانت نيكول تسبح بصعوبة. أتت موجةٌ قوية في الأنبوب. جرفتها بعيدًا وحملتها إلى الخارج وكوَّنت الموجة خليجًا صغيرًا في غابة. علِقَت ملابس نيكول في شجيرة فوق البحيرة. نهضت وأخذت تنظِّف نفسها. ثم بدأت تسير في طريق من الطرق.

حلَّ الظلام عليها. وسمعت نيكول أصوات بضعة طيور ورأت القمرَ فوقها عبْر الفواصل هنا وهناك بين الأشجار الباسقة. كان الطريق ينعطف يمينًا تارةً ويسارًا تارة أخرى. وصلت إلى ملتقَى طرقٍ. فسألت نيكول نفسَها في الحُلم: «أيَّ طريق أسلك؟» قالت جنيفياف وهي تظهر من بين أشجار الغابة وتأخذ بيدها: «تعالي معي.»

سألتها نيكول: «ماذا تفعلين هنا؟» ضحِكت جنيفياف: «يمكنني أن أطرح عليك السؤال نفسَه.»

كانت كيتي الصغيرة تسير على الطريق متجهةً إليهما. وقالت وهي تمدُّ يدَها إلى يدِ نيكول الأخرى: «مرحبًا يا أمي. هل تمانعين أن أسيرَ معك؟» أجابتها نيكول: «على الإطلاق.»

أصبحت أشجار الغابات كثيفةً من حولهما. وسمِعت نيكول صوتَ خطواتٍ خلفها فاستدارت وهي لا تزال تسير. ابتسم لها باتريك وسيمون ردًّا على ابتسامتها. قالت سيمون: «أوشكنا أن نصل.» فسألت نيكول: «إلى أين نذهب؟» أجابتها ماريا: «أنتِ حتمًا تعرفين يا سيدة نيكول. فأنتِ مَن طلبت منَّا أن نأتي.» كانت الفتاة تسير الآن بجوار باتريك وسيمون.

وصلت نيكول والشباب الخمسة قطعةَ أرض صغيرة خاليةً من الأشجار. كان يتوسَّطها نيرانُ معسكر مشتعلة. ظهر أومه من خلف النيران من الجانب الآخر للنيران ودار حولها ليستقبلهم. وبعد أن شكَّلوا دائرةً جديدة حول النيران ألقى الكاهن رأسَه للخلف وبدأ ينشد بلغة السنوفو. وبينما كانت نيكول تشاهد الكاهن بدأ وجهُ أومه يتساقط ليكشف عن جُمجمته المخيفة. رغم ذلك ظل الإنشاد مستمرًّا. صرخت نيكول: «لا! لا! لا! لا!»

قال بينجي: «أمي! استيقظي يا أمي … إنك تحلُمين حُلمًا مزعجًا.»

مسحت نيكول عينيها. واستطاعت أن ترى مصباحًا على الجانب الآخر من الغرفة. وقالت: «كم الساعة يا بينجي؟»

أجابها بابتسامة: «لقد تأخَّر الوقت يا أمي. ذهب كيبلر لتناول الإفطار مع الآخرين … وأردنا أن ندَعَك تنامين.»

قالت نيكول وهي تتحرَّك برفق على حاشيتها: «شكرًا لك يا بينجي.» شعرت بألمٍ في رِدفها. ودارت بعينيها في أنحاء الغرفة وتذكَّرت أن باتريك وناي قد ذهبا. «للأبد!» حدَّثتها نفسُها وهي تقاوم عودةَ الشعور بالأسى.

سألها بينجي: «هل تودين الاستحمام؟ يمكنني أن أساعدك في خلعِ ملابسك وأحملك إلى مرشة المياه.»

نظرت نيكول للأعلى إلى ابنها الذي بدأ الصلع يجتاح رأسَه. فكَّرت في نفسِها: «كنتُ مخطئةً حين قلِقت عليك. ستكون بخير من دوني.» قالت له: «شكرًا لك يا بينجي. سيكون ذلك لطفًا منك.»

فقال وهو يفكُّ أزرارَ رداء أمه: «سأحاول أن يكون ذلك برفق. ولكن من فضلك أخبريني إذا آلمتُك.»

عندما أصبحت نيكول عاريةً تمامًا حملها بينجي بين ذراعيه وبدأ يسير إلى الحمَّام. ولكنه توقَّف بعد خطوتين. فسألته نيكول: «ما الأمر يا بينجي؟»

ابتسم بينجي في ارتباك وقال: «إنني لم أفكِّر في الخطة جيدًا يا أمي. كان يجب أن أضبطَ حرارةَ الماء أولًا.»

فاستدار وأعاد نيكول مرةً أخرى إلى حاشيتها واتَّجه إلى الحمَّام. سمِعت نيكول صوت تدفُّق المياه.

وناداها: «تحبين المياه دافئةً، أليس كذلك؟»

أجابته نيكول: «هذا صحيح.»

عاد بينجي والتقطها بعد بضع ثوانٍ. وقال: «وضعت منشفتَين على الأرض حتى لا تكون صلبة أو باردة عليك.»

قالت نيكول: «شكرًا لك يا بني.»

كان بينجي يتحدَّث إليها بينما هي جالسة على المنشفتين على أرض الحمَّام، تاركةً الماء المنعش يتدفَّق على جسدها. أحضر لها الصابون والشامبو عندما طلبتهما. وعندما انتهت ساعد بينجي والدتَه في تجفيف جسدها وارتداء ملابسها. ثم حملها إلى كرسيها المتحرك.

قالت نيكول وهي تستقر على كرسيها: «انحنِ إليَّ هنا من فضلك.» ثم طبَعت قُبلة على وجنته وضغطت على يده. وقالت وهي لا تستطيع إيقافَ الدموع التي تتكوَّن في عينيها: «شكرًا لك على كل شيء يا بينجي. لقد كنتَ خير عون لي.»

وقف بينجي إلى جوار والدته متهلِّل الوجه وقال: «إنني أحبُّك يا أمي. ومساعدتك تجعلني سعيدًا.»

قالت نيكول وهي تضغط على يده مرةً أخرى: «وأنا أيضًا أحبُّك يا بني. والآن هل ستنضم إليَّ لتناول الإفطار؟»

قال بينجي وهو لا يزال يبتسم: «هذا ما كنتُ أعتزمه.»

قبل أن ينتهيَ نيكول وبينجي من تناول الطعام اتَّجه الرجل النسر إليهما في المطعم. وقال: «سأنتظرك أنا والدكتورة بلو في غرفتك. فإننا نريد أن نجريَ عليك فحصًا بدنيًّا شاملًا.»

عندما عادت نيكول ومعها بينجي كانت الأجهزة الطبية المعقَّدة قد نُصبت بالفعل في الغرفة. حقنت الدكتورة بلو مزيدًا من المجسَّات الدقيقة مباشرةً في صدر نيكول، وبعدها حقنتها بمجموعة أخرى من المجسَّات في منطقة الكلى. تبادل الرجل النسر والدكتورة بلو الحديثَ بلغة الألوان الأصلية لكائنات الأوكتوسبايدر طَوال الفحص الذي استمر نصفَ ساعة. وكان بينجي يساعد والدته عندما يُطلب منها الوقوف أو الاستدارة. وكان مبهورًا تمامًا بقدرة الرجل النسر على التحدُّث بلغة الألوان.

سأل بينجي الرجلَ النسر في وقتٍ ما من الفحص: «كيف تعلَّمت أن تفعل هذا؟»

أجاب الرجل النسر: «من الناحية الفعلية أنا لم أتعلَّم شيئًا ... فقد وضع مصمِّمي نظامَين فرعيَّين متخصصَين في هيكلي؛ أحدهما يسمح لي بترجمة ألوان كائنات الأوكتوسبايدر والآخر يجعل شرائطَ الألوان تتدفَّق على جبهتي.»

أصرَّ بينجي: «ألم تذهب إلى مدرسة أو شيء من هذا القبيل؟»

أجابه الرجل النسر ببساطة: «لا.»

ثم سأله بينجي بعد مرور عدةِ ثوانٍ عندما استأنف الرجل النسر والدكتورة بلو حديثهما عن حالة نيكول: «هل يستطيع مصمِّموك أن يفعلوا بي مثل ذلك؟»

استدار الرجل النسر ونظر إلى بينجي. فقال بينجي: «أنا بطيء للغاية في التعلُّم. سيكون من الرائع لو استطاع أحدهم وضْعَ كل المعلومات في مخي فقط.»

قال الرجل النسر: «إننا لا نعرف تمامًا بعدُ كيف نفعل هذا.»

عندما انتهى الفحص طلب الرجل النسر من بينجي أن يجمع أغراض نيكول كافةً. فسألت نيكول: «إلى أين سنذهب؟»

قال الرجل النسر: «سنذهب في نزهة على متن المكُّوك؛ فأنا أودُّ أن أناقش حالتك الصحية معكِ بالتفصيل وأصطحبك إلى المكان الذي يمكن التعامل فيه مع أي حالة طارئة.»

«ظننتُ أن السائل الأزرق وجميع المجسات داخل جسدي ستكفي لـ...»

قال الرجل النسر مقاطعًا إياها: «سنتحدَّث عن هذا الأمر فيما بعد.» وأخذ حقيبةَ نيكول من بينجي وقال: «شكرًا لك على ما قمتِ به لمساعدتنا.»

قالت نيكول عبْر ميكروفون خوذتها بينما المكُّوك يقترب من منتصف المسافة بين سفينة نجمة البحر والنود: «دعني أتأكَّد من أني فهمت النقاش الذي دار في النصف ساعة الأخيرة. لن يستمرَّ قلبي في العمل أكثرَ من عشرة أيام على أقصى تقدير، رغم الوسائل الطبية المتقدمة كافةً، وكليتاي تمرَّان في الوقت الحالي بفشلٍ وظيفي مميت، وكبدي يُظهِر علاماتِ تدهور شديد. هل هذا ملخَّص شامل لِما قلت؟»

قال الرجل النسر: «إنه كذلك.»

أرغمت نيكول نفسَها على الابتسام. وسألت: «ألا توجد أخبارٌ جيدة؟»

«لا يزال عقلك يعمل بصورةٍ مثيرة للإعجاب، والكدمة على رِدْفك ستتعافى، إذا لم تقتلك الأمراض الأخرى أولًا.»

قالت نيكول: «وأنت تقترح عليَّ أن أدخل اليوم إلى المنشأة المناظِرة للمستشفى عندكم هناك في النود، وأستبدل قلبي وكليتيَّ وكبدي بآلاتٍ متقدمة يمكنها القيامُ بالمهام نفسِها؟»

قال الرجل النسر: «قد تحتاج بعض الأعضاء الأخرى إلى استبدالها أيضًا ما دمتِ ستخضعين لعملية كبيرة. فالبنكرياس يتعرَّض للقصور من حين لآخر، وجهازك التكاثري بالكامل غيرُ صالح للعمل تمامًا ... ويجب أن تفكِّري في عملية استئصالٍ كاملة للرحم.»

كانت نيكول تهزُّ رأسها في استنكار. قالت: «ومتى يصبح هذا كلُّه لا معنًى له؟! مهما كان ما ستفعله الآن، إنها مسألةُ وقت فحسب حتى تتوقف أعضاءٌ أخرى. ما الأعضاء التي ستتوقف بعد ذلك؟ رئتاي؟ أو ربما عيناي؟ هل ستُجري لي عمليةَ نقلِ مخ إذا لم أعُد قادرة على التفكير؟»

أجابها الرجل النسر: «يمكننا ذلك.»

صمتَت نيكول دقيقةً تقريبًا ثم قالت: «قد لا تجد معنًى لِما سأقوله لك لأنه بالطبع ليس كلامًا منطقيًّا ... ولكني لا أشعر بالارتياح تجاه فكرة أن أصبح كائنًا هجينًا.»

سألها الرجل النسر: «ماذا تعنين؟»

قالت: «متى لا أعود نيكول دي جاردان ويكفيلد؟ إذا استُبدِل قلبي ومخي وعينيَّ وأذنيَّ بآلاتٍ، فهل سأظل نيكول؟ أم سأصبح شخصًا آخرَ، أو شيئًا آخر؟»

قال الرجل النسر: «هذه الأسئلة لا تمُتُّ إلى الموضوع بِصلة. إنك طبيبة يا نيكول، تأمَّلي حالة المريض بانفصام الشخصية الذي يجب أن يتناول عقاقير بانتظام لتغيير وظائف المخ، فهل سيظل ذلك الشخص كما كان حقًّا؟ إنه السؤال الفلسفي نفسه، ليست إلا درجة مختلفة من التغيير.»

قالت نيكول بعد صمتٍ قصير آخر: «أفهم وجهةَ نظرك. ولكن هذا لا يغيِّر شعوري ... أنا آسفة! إذا كان لديَّ خيار، وأنت جعلتني أعتقد أن لديَّ خيارًا فسأرفض ... على الأقل اليوم.»

حدَّق الرجل النسر في نيكول ثواني. ثم أدخل مجموعةً مختلفة من الإحداثيات في نظام التحكم في المكُّوك. فغيَّرت المركبة اتجاهها.

سألت نيكول: «هل سنعود إلى نجمة البحر؟»

قال الرجل النسر: «لا، ليس في الحال. أريد أن أريك شيئًا آخر أولًا.» ثم مدَّ المخلوق الفضائي يدَه إلى الحقيبة المثبَّتة حول وسطه وأخرج منها أنبوبًا صغيرًا يحتوي على سائلٍ أزرق وجهازٍ غيرِ معروف. وقال: «أعطيني ذراعكِ من فضلك. فأنا لا أريدك أن تموتي قبل أن ينقضيَ ظُهر هذا اليوم.»

عندما اقتربوا من «الوحدة السكنية» في النود، اشتكَت نيكول للرجل النسر من الأسلوب «غير الصريح» الذي جرى التعامل به في تقسيم سكان نجمة البحر إلى مجموعتين. فقالت نيكول: «كالعادة، لا يمكن اتهامك بالكذب، ولكن بحجب معلومات خطيرة.»

قال الرجل النسر: «في بعض الأحيان، لا يُتاح لنا طُرق ترضي الجميعَ لإنجازِ مهمة من المهام. وفي هذه الحالات نختار الإجراءَ الذي سينتج عنه أقلُّ قدر من الاستياء ... ماذا توقَّعت منَّا أن نفعل؟ نخبر المقيمين من البداية أننا لن نستطيع الاعتناءَ بكل شخص للأبد، جيلًا بعد جيل؟ كانت الفوضى ستعمُّ المكان ... بالإضافة إلى هذا لا أظن أنك قدَّرتنا حقَّ قدْرنا. لقد أنقذنا آلاف الكائنات من راما، كان معظمهم سيموت في صراع بين الأجناس لولا تدخُّلنا ... تذكَّري أنه سيُسمح للجميع، بما في ذلك أولئك الذين نُقلوا إلى الحاملة، باستكمال حياتهم.»

صمتَت نيكول. وكانت تحاول تخيُّل ما ستكون عليه الحياة على متن الحاملة دون تكاثر. فنقل إليها عقلها سيناريو ما سيحدُث في صورته المحتمَلة في المستقبل البعيد، عندما لن يكون هناك سوى بضعة أشخاص باقين على قيد الحياة. وقالت: «لم أكن لأتمنى أن أكون آخرَ فرد يبقى على قيد الحياة على متن الحاملة.»

قال الرجل النسر: «كان هناك جنسٌ من الكائنات في هذا الجزء من المجرة قبل ثلاثة ملايين عام وازدهرت حضارتهم لكونهم مسافرين عبْر الفضاء مليون عام تقريبًا. كانوا مهندسين عباقرةً وشيَّدوا مبانيَ من أروع المباني التي وُجدت في الكون على الإطلاق. وبسطوا نطاق نفوذهم سريعًا حتى سيطروا على منطقةٍ تغطي أكثرَ من عشرين نظامًا نجميًّا. كان ذلك النوع من الكائنات متعلِّمًا ومرهف الحس وحكيمًا. ولكنه ارتكب خطأً واحدًا فادحًا ...»

فسألت نيكول: «وما هو؟»

«كان نظير الجينوم لديهم يحتوي على مقدارٍ من المعلومات أكبرَ من الموجود في الجينوم الخاص بكم بكثير جدًّا. كان نتيجة أربعة مليارات سنة من التطوُّر الطبيعي وشديد التعقيد. وكانت تجاربهم الأولية مع الهندسية الوراثية، على الكائنات الأخرى وعلى أنفسهم، ناجحةً تمامًا. وظنوا أنهم يفهمون ما يفعلون. ولكن دون معرفتهم كانت قوة الجينات التي تنتقل من جيل إلى جيل تتدهور ببطء ... وعندما فهِموا أخيرًا ما فعلوه بأنفسهم كان الأوان قد فات. ولم يحتفظوا بأي عينات لخلاياهم قبل أن يتلاعبوا فيها من الأيام الأولى، قبل أن يبدءوا في تعديل جيناتهم. ولم يكن بإمكانهم تصحيحُ ما فعلوا. ولم يكن بوسعهم فعلُ أي شيء.»

ثم قال: «تخيَّلي، ليس أن تكوني آخرَ عضو في مجموعتك على متن سفينة فضاء معزولة مثلما هو الحال على متن الحاملة فحسب، بل أن تكوني آخرَ الناجين من جنس من الكائنات كان ثريًّا في تاريخه وفنه ومعرفته ... وتضم دائرةُ معارفنا كثيرًا من القصص المشابهة يحوي كلٌّ منها مثالًا عمليًّا واحدًا على الأقل.»

تحرَّك المكُّوك عبْر منفذ مفتوح في جانب الوحدة السكنية الكروية الشكل، وتوقَّف برفقٍ أمام جدار من الجدران. وانتشرت مساندُ أوتوماتيكية على كل جانب لمنعِ المركبة من الانجراف. وعلى جانب الركَّاب مهبط في المكُّوك يؤدي إلى ممرٍّ يقود بدوره باتجاه مركز مجمع وسائل المواصلات.

ضحِكت نيكول. وقالت: «لقد كنت منهمكةً تمامًا في الحوار حتى إني لم ألقِ نظرةً على هذه الوحدة من الخارج.»

قال الرجل النسر: «ما كنتِ لتشاهدي شيئًا جديدًا.»

ثم استدار الكائن الفضائي إلى نيكول وفعل شيئًا غريبًا. فقد قطعَ المسافة إليها بالمكُّوك وأمسك كلتا يديها المكسوَّتين بقفازين. وقال: «في أقلَّ من ساعة ستمرين بشيء سيذهلك ويثير انفعالك. في البداية خطَّطنا لأن تكون هذه النزهة مفاجأةً تامة لك؟ ولكن في ظل حالتك الصحية الضعيفة، لا يمكن أن نخاطرَ باحتمال تحميل جسدك أكثرَ من طاقته بتعريضه لانفعالات ... ولهذا قرَّرنا أن نخبرك أولًا بما أنتِ على وشْك القيام به.»

شعرت نيكول بخفقات قلبها تتسارع، وفكَّرت في نفسها: «ما الذي يتحدَّث عنه؟ ما الأمر الذي قد يكون غير عادي بهذا الشكل؟»

«سنستقل سيارةً صغيرة ستقطع عدة كيلومترات داخل هذه الوحدة. وفي نهاية هذه الرحلة القصيرة ستلتقين مرةً أخرى بابنتك سيمون ومايكل أوتول.»

صرخت نيكول وهي تنزِع يدَيها من يدَي الرجل النسر وتضعهما على جانبي خوذتها: «ماذا؟! هل سمِعت ما قلت بصورة صحيحة؟! هل قلت إنني سأرى سيمون ومايكل؟»

أجاب الرجل النسر: «نعم. يا نيكول من فضلك اهدئي.»

قالت نيكول متعجبة ومتجاهلة تعليقه: «يا إلهي! لا أصدِّق هذا. لا أستطيع أن أصدِّق ... أتمنى ألا يكون ذلك مزحة قاسية من نوعٍ ما ...»

«أؤكد لك أنه ليس كذلك ...»

سألت نيكول: «ولكن كيف من الممكن أن يكون مايكل لا يزال على قيد الحياة؟ لا بد أنه بلغ من العمر مائة وعشرين عامًا على الأقل الآن ...»

«لقد ساعدناه بسحرنا الطبي، كما تطلقين عليه.»

بكت نيكول وهي تقول: «سيمون! آه يا سيمون! هل يمكن هذا؟ هل يمكن هذا؟»

تأخَّرت دموع نيكول بسبب صدمتِها. لكنها الآن كانت تنهمر من عينيها. ورغم ألمِ رِدْفها وخوذتها الفضائية الثقيلة، كادت نيكول تقفز من مقعدِها كي تعانق الرجل النسر. وقالت له: «شكرًا لك، شكرًا لك. لا يمكنني أن أخبرك كم يعني لي هذا الأمر.»

ثبَّت الرجل النسر كرسيَّ نيكول على السُّلم المتحرك وهما يهبطان إلى منتصف مجمع وسائل المواصلات الرئيسي. وألقت نظرةً سريعة على محيطها. كانت المحطة مطابِقةً لتلك التي

تذكَّرت رؤيتَها في النود بالقرب من كوكب الشِّعرى. كان طولها عشرين مترًا تقريبًا وتمتد في شكل دائرة، وهناك ستة من الأرصفة المتحركة تحيط بمنتصف المجمع. وكلٌّ منها يمتد إلى نفق مقبَّب مختلف يقود بعيدًا عن المجمع، ويوجد مبنيان متعدِّدا الطوابق فوق الأنفاق إلى اليمين.

سألت نيكول وهي تتذكَّر نزهةً لها مع كيتي وسيمون عندما كانتا صغيرتين: «هل تقلع القطارات التي تسافر بين الوحدات هناك بالأعلى؟»

أومأ الرجل النسر برأسه بالإيجاب. ودفع الكرسيَّ المتحرك إلى أحد الأرصفة المتحركة وغادرا مركز المحطة. وقطعا مسافةَ عدة مئات من الأمتار في نفقٍ من الأنفاق قبل أن يتوقَّف الرصيف المتحرك. ثم قال الرجل النسر: «يجب أن تكون عربتنا إلى اليمين مباشرةً في الرواق الأول.»

كان هناك مقعدان بالعربة الصغيرة التي تُفتح من أعلى. رفع الرجل النسر نيكول إلى مقعد الراكب، ثم طوى الكرسي المتحرِّك ليتخذ شكلًا مضغوطًا لا يزيد حجمُه عن حجم حقيبة صغيرة ثم وضعه في حقيبة داخل العربة. وبعد ذلك بوقت قصير تحرَّكت العربة للأمام عبْر متاهة من الممرات العديمة النوافذ ذات اللون الأصفر الفاتح. كانت نيكول هادئةً على نحوٍ غير عادي، وتحاول أن تقنع نفسَها أنها بالفعل على وشْك أن ترى ابنتها التي تركتها في نظام نجمي آخر قبل سنوات طويلة.

بدت الرحلة داخل الوحدة السكنية كما لو أنه لا نهاية لها. وفي نقطةٍ ما توقَّفت العربة، وأخبر الرجل النسر نيكول أنه بإمكانها أن تخلع خوذتها؟ وسألته: «هل نحن قريبان؟»

أجابها: «ليس بعد، ولكننا بالفعل في المجال الجوي المخصَّص لهم.»

وصادفا مرتين كائناتٍ فضائية مذهلة في مركباتٍ تتحرَّك في الاتجاه المقابل، ولكن نيكول كانت منفعلة بشدة لدرجة أنها لم تستطِع أن توليَ أيَّ شيء انتباهَها فيما عدا ما يحدُث داخل ذهنها. كانت لا تصغي تقريبًا إلى ما يقوله الرجل النسر. تعالت داخلها أصواتٌ تقول: «اهدئي!» ولكن ردَّ عليه صوتٌ آخر: «لا تكن سخيفًا، أنا على وشْك أن أرى ابنةً لم أرَها منذ أربعين عامًا. لا يمكن أن أبقى هادئة.»

كان الرجل النسر يقول: «كانت حياتهم غيرَ عادية مثلما كانت حياتك بالضبط. وكانت مختلفة، بالطبع، مختلفة تمامًا. عندما اصطحبنا باتريك لرؤيتهما في وقتٍ مبكِّر من صباح اليوم ...»

سألته نيكول فجأة: «ماذا قلت؟! هل قلت إن باتريك رآهما هذا الصباح؟ اصطحبت باتريك لرؤية والده؟»

قال الرجل النسر: «نعم. لطالما خطَّطنا للمِّ الشمل هذا، ما دام كل شيء يسير وفقًا لما هو مخطَّط له ... ونظريًّا لم يكن أيٌّ منكما سيرى سيمون ومايكل وأبناءهما ...»

تعجَّبت نيكول: «أبناؤهما! لديَّ مزيد من الأحفاد!»

«... إلا بعد أن تستقروا في النود، ولكن عندما طلب باتريك إعادةَ النظر في انتقاله ... كان الأمر سيصبح شديدَ القسوة إذا تركناه يرحل للأبد دون أن يرى أباه الذي أنجبه ...»

لم تستطِع نيكول السيطرةَ على نفسِها أكثرَ من هذا، فاتجهت إلى الرجل النسر وقبَّلته على وجنته المكسوة بالريش. وقالت: «وكان ماكس يقول إنك لا تعدو أن تكون آلةً باردة. يا له من مخطئ! شكرًا لك ... نيابةً عن باتريك، أشكرك ...»

كانت نيكول ترتعش من فرطِ السعادة. وبعد دقيقة لم يَعُد بإمكانها التنفس. فأوقف الرجل النسر العربةَ الصغيرة بسرعة.

قالت نيكول وهي تستيقظ من سُبات عميق: «أين أنا؟»

قال الرجل النسر: «إننا نقف بالعربة داخل المنطقة المغلقة التي يعيش فيها مايكل وسيمون وعائلتهما.»

«إننا هنا منذ أربع ساعات، وأنتِ كنتِ نائمة.»

سألته نيكول: «هل تعرَّضت لأزمة قلبية؟»

«ليس بالضبط ... ما هو إلا قصورٌ حادٌّ في وظائف القلب. فكَّرت في اصطحابك على الفور إلى المستشفى، ولكني رأيت أن أنتظرَ حتى تستيقظي. إلى جانب أنه لديَّ معظم الأدوية نفسِها الموجودة بالمستشفى هنا ...»

نظر الرجل النسر إليها بعينيه الزرقاوين الحادتين. وقال: «ماذا تريدين أن تفعلي يا نيكول: تزورين سيمون ونيكول كما هو مخطَّط؟ أم تعودين إلى المستشفى؟ إنه خيارك، ولكن افهمي ...»

قاطعَته نيكول بتنهيدةٍ وقالت: «أعلم، يجب أن أحرص على ألا أنفعل بشدة ...» ثم ألقَت نظرة عجلى على الرجل النسر. وقالت: «أريد أن أرى سيمون حتى إذا كان ذلك آخر شيء أفعله في حياتي ... هل يمكن أن تعطيني عقَّارًا ما يهدئني ولكن لا يجعلني بلهاء أو يجعلني أنام؟»

قال الرجل النسر: «لن يساعدك سوى مهدئ متوسط القوة فقط لو أنك عملت على احتواء انفعالك.»

قالت نيكول: «حسنًا. سأبذل قصارى جهدي.»

اتجه الرجل النسر بالسيارة إلى طريقٍ ممهَّد تصطف أشجار طويلة على جانبيه. وفي أثناء القيادة تذكَّرت نيكول الخريف الذي قضته مع والدها في نيو إنجلاند عندما كانت مراهقة. كانت الأوراق على الأشجار حمراء وذهبية وبنية.

قالت نيكول: «إنه لمنظر جميل!»

انعطفت السيارة في منحنًى ومرَّت بسياجٍ أبيضَ يحيط بمنقطة مليئة بالأعشاب؟ كان هناك أربعة خيول في المكان المحاط بالسياج. ومراهقان من البشر يسيران بينها؟ فقال الرجل النسر: «الأطفال حقيقيون. أما الخيول فمصطنعة.»

وأعلى تل لم يكن شديدَ الانحدار منزلٌ أبيض ضخم يتكوَّن من طابقين وله سطح أسود مائل. ودلف الرجل النسر بالعربة إلى طريقٍ دائري خاص بالمنزل، وأوقف العربة. وبعد لحظةٍ فُتح الباب الأمامي للمنزل وخرجت منه سيدةٌ طويلة جميلة داكنة البشرة بدأ الشيبُ يزحف إلى شعرها.

وصرخت سيمون وهي تسرع نحو العربة: «أماه!»

لم تكد نيكول تفتح بابَ العربة حتى ارتمت سيمون بين ذراعي والدتها. وأخذت السيدتان تتعانقان وتقبِّل إحداهما الأخرى. وفاضت دموعهما أنهارًا. ولم تستطِع أيٌّ منهما التحدُّث.

٨

قالت سيمون وهي تضع فنجانَ القهوة على الطاولة: «كانت زيارة باتريك حلوةً ومرة في الوقت نفسه. ومكث هنا أكثرَ من ساعتين ولكنهما مرَّتا كدقيقتين.»

كان ثلاثتهم يجلسون إلى طاولةٍ تُطِل على الأرض الخضراء المحيطة بالمنزل وتشكِّل دائرةً حوله. حدَّقت نيكول برهةً من النافذة في المشهد الريفي أمامها. قال مايكل: «إن المشهد يخدع الرائي بصريًّا وينسيه المكان، ولكنه خداعٌ جيد جدًّا ... ولولا أنكِ تعرفين الحقيقة لظننتُ أنك في ماساتشوستس أو جنوب فيرمونت.»

قالت نيكول: «قد كان هذا العشاء بأكمله مثل حُلم. إنني لم أتقبَّل بعدُ أن ما مررتُ به يحدُث حقًّا.»

قالت سيمون: «لقد شعرنا بهذا الأمر الليلةَ السابقة عندما قيل لنا إننا سنرى باتريك هذا الصباح ... لم يَغمض لي جَفن أنا أو مايكل.» ثم ضحِكت وقالت: «وفي ساعةٍ ما من الليل أقنعنا أنفسنا أننا سنقابل باتريك «مزيفًا»، وفكَّرنا في أسئلة نطرحها لا يمكن أن يجيب عنها أحدٌ غير باتريك الحقيقي.»

قال مايكل: «إن مهاراتهم التكنولوجية عظيمة. وإذا أرادوا أن يصنعوا باتريك آليًّا، وخداعنا بأنه باتريك الحقيقي، فسيصعُب علينا أن نتأكد من الحقيقة.»

قالت سيمون: «ولكنهم لم يفعلوا. لقد عرفتُ في غضون دقائق أنه باتريك الحقيقي ...»

سألتها نيكول: «كيف بدا لك؟ ففي خضم الارتباك الذي ساد في اليوم الأخير، لم تتسنَّ لي فرصةُ التحدث إليه كثيرًا.»

قالت سيمون: «إنه متقبِّل للأمر في الغالب، ولكنه كان متأكدًا أنه اتخذ القرارَ الصحيح. وقال إنه سيحتاج على الأرجح إلى أسابيعَ قبل أن يتعافى من كافة الانفعالات التي مرَّ بها في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة.»

قالت نيكول: «هذا ينطبق علينا جميعًا.»

خيَّم صمتٌ قصير على الجالسين إلى المائدة. ثم سألت سيمون: «هل أنتِ متعَبة يا أمي؟ أطلعنا باتريك على مشكلاتك الصحية، وعندما تلقينا الرسالة بعد ظهر اليوم بأنك تأخرتِ ...»

قالت نيكول: «نعم، إنني متعبة بعض الشيء. ولكني لم أستطِع النوم ... على الأقل ليس على الفور ...» ثم أبعدت كرسيها المتحرك عن المائدة وخفضت مستوى مقعدها. وقالت: «أودُ استخدام حمَّام السيدات.»

قالت سيمون وهي تقفز من مكانها: «بالطبع. سآتي معك.»

اصطحبت سيمون والدتها عبْر رواق طويل له أرضية من خشب مصطَنع. وقالت نيكول: «إذن فلديك ستة أطفال يعيشون معك هنا، منهم ثلاثة حملتهم بنفسك؟»

قالت سيمون: «هذا صحيح، أنجبت أنا ومايكل ولدين وفتاتين «بالطريقة الطبيعية» كما تطلقين عليها ... توفِّي أول الأولاد، دارين، وهو في السابعة من عمره ... إنها قصة طويلة، إذا كان لديكِ وقتٌ فسأخبرك بها غدًا، والطفلان الباقيان نشآ من أجنةٍ في المعامل ...»

وصلتا إلى باب حمَّام السيدات. وسألت نيكول: «هل تعلمين عددَ الأطفال الذين أنتجهم الرجل النسر وزملاؤه من بويضاتك؟»

أجابتها سيمون: «لا. ولكنهم أخبروني أنهم أخذوا أكثرَ من ألف بيضة سليمة من مبيضيَّ.»

وفي طريقهما عائدتين إلى غرفة الطعام شرحت سيمون أن جميع الأطفال الذين وُلدوا «بالطريقة الطبيعية» عاشوا حياتَهم بالكامل معها هي ومايكل. وجاء أزواجهم من منيٍّ مايكل وبويضاتها، وقد اخْتِيروا بناءً على تقنية مضاهاة شاملة للجينات طوَّرتها الكائنات الفضائية.

سألت نيكول: «إذن فقد كانت زيجاتٍ مرتَّبة؟»

قالت سيمون: «ليس بالضبط.» ضحكت. ثم قالت: «قُدِّم كلُّ طفل طبيعي إلى عدة أزواج محتملين، جميعهم اجتازوا الفحص الجيني.»

«ولم تقابلي أنتِ مشكلات مع أحفادك؟»

أجابت سيمون: «لا شيء «ملحوظ إحصائيًّا» على حدِّ تعبير مايكل.»

وعندما وصلتا إلى غرفة الطعام كانت المائدة خاوية. فأخبرهما مايكل أنه نقل ركوةَ القهوة والفناجين إلى غرفة المكتب. شغَّلت نيكول أزرار التحكم في كرسيها المتحرك وتبِعتهما إلى غرفة مكتب ضخمة مصمَّمة على الطراز المفضَّل لدى الرجال، لها أرففٌ خشبية سوداء للكتب ومدفأة بها نيران مشتعلة.

سألت نيكول: «هل النيران حقيقية؟»

قال مايكل: «نعم، إنها حقيقية بالفعل.» وانحنى للأمام في مقعده المريح. وقال: «كنتِ تسألين عن الأبناء، إننا نود أن تقابليهم بالطبع، ولكننا لم نشأ أن نثقل عليك ...»

قالت نيكول وهي ترتشف رشفةً من فنجان قهوة معدٍّ لتوه: «إنني أفهم، وأوافقكما ... وبالطبع ما كنا لنحظى بذلك العشاء الذي تناولناه بروية وتبادلنا فيه المعلومات لو أن هنا ستة أشخاص آخرين ...»

قالت سيمون: «ولا تنسي الأربعة عشر حفيدًا.»

نظرت نيكول إلى مايكل وابتسمت. وقالت: «أنا آسفة يا مايكل، ولكنك أكثرُ جزء من هذه الأمسية لا أستطيع تصديقه. وكلما نظرت إليك توقَّف عقلي عن العمل. إنك تكبُرني بأربعين عامًا، ولا يبدو أنك تجاوزت الستين عامًا بيوم واحد، وبالطبع تبدو أصغرَ مما تركناك على النود! كيف يمكن هذا؟!»

قال: «إن تقنياتهم سحرٌ بمعنى الكلمة. لقد أعادوا كلَّ جزء مني للعمل: قلبي ورئتيَّ وكبدي والجهازين الهضمي والإخراج، واسْتُبْدِل معظم الغدد الصماء بنظائرَ أصغر حجمًا وأكثر كفاءة وظيفية، وقد استُبدل بعضها عدة مرات. وقد دعموا عظامي وعضلاتي وأعصابي وأوعيتي الدموية جميعها بملايين الأجهزة الميكروسكوبية المزروعة، التي لا

تضمن القيامَ بالوظائف الحيوية فحسب، بل أيضًا في الكثير من الحالات، تضمن تجديدَ شباب الخلايا الهرِمة من الناحية الكيميائية البيولوجية. وجِلدي ما هو إلا مادة خاصة أتقنوا صنْعَها حديثًا وتتمتع بجميع الخصائص الجيدة لجِلد البشر الحقيقي، ولكنها لا تشيخ أو تكوِّن بَثرات أو شامات ... أذهب مرةً كلَّ عام إلى مستشفاهم وأغيب عن الوعي يومين، وعندما أستيقظ أصبح رجلًا جديدًا بمعنى الكلمة.»

قالت نيكول ضاحكة: «هل تمانع أن تأتيَ إلى هنا وتدعني ألمسك؟ لن أَشبِك يدي في يدك أو شيئًا من هذا القبيل، ولكن بالطبع بإمكانك أن تفهم أن ما تخبرني به يصعُب تصديقه.»

اجتاز مايكل أوتول الغرفةَ ونزل على ركبتيه إلى جانب الكرسي المتحرِّك. فمدَّت نيكول يدَها ولمست الجِلد على وجهه. كانت بشرةُ وجهه ناعمة ولينة مثل بشرة شاب. وكانت عيناه صافيتين ومشرقتين. فسألت نيكول: «ومخُّك يا مايكل؟ ماذا فعلوا لمخِّك؟»

ابتسم. لاحظت نيكول أنه لا توجد تجاعيدُ في جبهته. قال: «كثير من الأشياء. عندما بدأت ذاكرتي تخونني جدَّدوا الحُصين بدماغي. بل أضافوا إليه نسيجًا صغيرًا من عندهم، كي يزيدني قدرةً على حد قولهم ... وقبل عشرين عامًا وضعوا بدماغي أيضًا ما وصفوه بأنه «نظام تشغيل أفضل» لتحسين عمليات التفكير لديَّ ...»

كان مايكل على بُعد أقلَّ من متر منها. انعكس ضوء نار المدفأة على وجهه. وفجأة اجتاح سيلٌ من الذكريات عقلَ نيكول. وتذكَّرت كيف كانا صديقين مقرَّبين على متن راما، وعلاقتهما الحميمة أيضًا عندما رحل ريتشارد وظنَّا أنه فُقِد. ثم مسَّت وجهه مرةً أخرى. وسألته: «وهل لا تزال مايكل أوتول. أم إنك أصبحت شيئًا آخر: نصف بشري ونصف كائن فضائي؟»

وقف دون أن يقول أيَّ شيء وسار عائدًا إلى مقعده. كان مايكل يتحرَّك كرياضي وليس كرجلٍ يزيد عمره عن مائة وعشرين عامًا. وقال: «لا أعلم كيف أجيب عن سؤالك. إنني أتذكَّر بوضوح جميعَ تفاصيل طفولتي في بوسطن، وكلَّ مرحلة مهمة في حياتي أيضًا. على حدِّ علمي لا أزال كما أنا تقريبًا ...»

وأضافت سيمون: «ما زال مايكل مهتمًّا للغاية بالدِّين وخلْق الكون أيضًا. ولكنه تغيَّر بعض الشيء؛ فجميعنا نتغير نتيجةً لتجاربنا في الحياة ...»

قال مايكل: «لا أزال متمسكًا بالمذهب الكاثوليكي، وأتلو صلواتي اليومية ... ولكن بطبيعة الحال تغيَّرت نظرتي إلى الإله، والبشرية أيضًا، تغييرًا جذريًّا بما رأيته أنا وسيمون ... في المقابل لقد زادت قوة إيماني ... في المقام الأول بسبب الحوار المستنير مع ...»

توقَّفَ وألقى نظرة عبْر الغرفة إلى سيمون. قالت: «في السنوات الأولى يا أمي عندما كنت أنا ومايكل فقط على متن النود بالقرب من كوكب الشِّعرى، كانت هناك صعوباتٌ كثيرة ... فلم يكن لدينا شخصٌ آخر للتحدُّث إليه فكنا نتحدث معًا فقط ... كنت لا أزال فتاةً وكان مايكل رجلًا ناضجًا ... لم أستطِع مناقشة الفيزياء أو الدِّين أو موضوعاته العديدة المفضَّلة الأخرى معه ...»

قال مايكل: «لم تكن هناك مشكلاتٌ كبيرة، كما تفهمين. ولكننا كنا نشعر بنوعٍ غريب من الوحدة ... كانت حياتنا معًا رائعة ومحفوفة بالسعادة ... لكننا نحن الاثنين أردنا شيئًا آخر، شيئًا إضافيًّا ...

وقد شعرَت المخلوقاتُ الذكية — أو أي اسم يمكن أن نطلقه على القوة التي كانت تعتني بنا — التي تحكم النود بالمشكلةِ التي نواجهها. وأدركت أيضًا أن الرجل النسر لا يستطيع الإيفاءَ باحتياجات كلٍّ منا. لذا فقد صنعت لكلٍّ منَّا رفيقًا أشبهَ بالرجل النسر نوعًا ما.»

قالت سيمون: «لقد كانت لمحةً عبقرية خلَّصتنا من التوتر العاطفي الذي كان يهدِّد زواجنا المثالي. فالقديس مايكل ...»

قاطعها مايكل قائلًا: «دعيني أنا أخبرها رجاء. ذات ليلة بعد عامين تقريبًا من رحيلك أنت والآخرين، كانت سيمون في غرفة نوم بالشقة تُرضِع كاتيا، سمعنا طرقاتٍ على الباب ... ظننت أنه الرجل النسر ... ولكن عندما فتحت الباب وجدتُ شابًّا أسودَ الشعر مموَّجه، أزرق العينين يقف عند الباب، ويشبه القديس مايكل قديس سيينا تمامًا. وأخبرني أن الرجل النسر لن يتواصل معنا بعد ذلك، وأنه سيكون الوسيط الجديد بيننا وبين الكيان الذكي الذي يحكم النود ...»

قالت سيمون: «جاء القديس مايكل وفي جَعبته مجموعةٌ ضخمة من المعلومات عن تاريخ الأرض والمذهب الكاثوليكي وعلم الفيزياء وجميع الموضوعات الأخرى التي كنت أجهلها تمامًا ...»

قال مايكل وهو ينهض من مقعده: «بالإضافة إلى هذا، كان مستعدًّا للإجابة عن الأسئلة عما يدور حولنا في النود ... هذا لا يعني أن الرجل النسر لم يكن كذلك، ولكن القديس مايكل كان أكثرَ حميمية وأقرب لنا. كان يبدو كما لو أنهم أرسلوه، أو أرسله الله، ليكون رفيقًا لي نتفكر معًا.»

نقلت نيكول عينيها بسرعة جَيئة وذهابًا بين مايكل وسيمون. وكان وجه مايكل مشرقًا بإيجابية. فكَّرت في نفسها: «لم تخبُ حماسته الدينية. إنما أعاد توجيهه فقط.»

سألت نيكول وهي ترتشف آخرَ رشفة في فنجان القهوة: «وهل لا تزال شخصية القديس مايكل هنا؟»

قال مايكل: «بالطبع. إننا لم نعرف باتريك عليه، فكما قالت سيمون كان الوقت ضيقًا للغاية، ولكننا نريدك ولا شك أن تقابليه.» اجتاز مايكل الغرفة، دبَّت فيه الحماسة فجأة. وقال: «هل تذكرين تلك الأسئلة الوجودية كلها التي اعتاد ريتشارد أن يطرحها عن بناة النود وراما، والهدف من هذا وذاك؟ القديس مايكل يعرف الإجاباتِ جميعها. ويشرح كلَّ شيء بالتفصيل.»

قالت نيكول بمَسحة تهكمية خفيفة في صوتها: «يا إلهي إنه لأمر رائع! لا أكاد أصدِّق هذا! متى سأحظى بشرف مقابلة القديس مايكل؟»

قال مايكل أوتول الذي ترقَّب طلبها: «الآن إذا أردت.»

قالت نيكول وهي تكبِت تثاؤبها: «حسنًا. ولكن تذكَّر أنني امرأة عجوز متَعبة ومريضة وأغضب سريعًا ... ولا أستطيع البقاء مستيقظة للأبد.»

سار مايكل بنشاطٍ إلى باب غرفة المكتب البعيد. ونادى: «يا قديس مايكل! هلا تأتي إلى هنا من فضلك، وتقابل نيكول، والدةَ سيمون؟»

وبعد بضع ثوانٍ دلَف إلى الغرفة كائنٌ يشبه قديسًا بشريًّا شابًّا في بداية العشرينيات من عمره يرتدي رداءً كهنوتيًّا أزرقَ اللون غامقًا، واجتاز الغرفةَ إلى كرسي نيكول المتحرِّك. وقال بابتسامةٍ توحي بسعادته لرؤيتها: «أنا مسرور للقائك. لقد سمِعت عنك سنوات.»

مدَّت نيكول يدَها وتفحَّصت الكائن الفضائي باهتمام. ولم تجِد فيه على الإطلاق أيَّ شيء قد يشير إلى أن هذا الواقف أمامها أيُّ شيء آخر غير بشري. ففكَّرت نيكول بسرعة: «يا إلهي! إن التكنولوجيا التي يستخدمونها ليست مدهشة فحسب، بل معدَّل تعلُّمهم مذهل.»

قالت نيكول للقديس مايكل بابتسامةٍ مازحة: «دعني أوضِّح شيئًا مهمًّا من البداية: هناك كثيرٌ ممن يحملون اسمَ مايكل هنا. وأنا لا أعتزم أن أخاطبك دائمًا باسم القديس مايكل. استخدام الألقاب ليس من شيَمي. فهل أناديك قديسًا فحسب، أو مايك أو حتى مايكي، ماذا تفضِّل؟»

قالت سيمون: «عندما يكون كلاهما هنا أنادي زوجي بـ «مايكل الكبير». ويبدو هذا حلًّا ناجحًا.»

قالت نيكول: «حسنًا. كما كان ريتشارد يقول دائمًا: «عندما تكون في روما ...» اجلس يا مايكل هنا بالقرب من كرسيٍّ المتحرِّك ... لقد أغدقك مايكل الكبير بالثناء، وأنا لا أودُّ أن يتسبَّب ضَعف سمعي في أن أفوِّت أي شيء من دُرر الحِكَم التي ستقولها.»

قال القديس مايكل وهو يبتسم: «شكرًا لكِ يا نيكول! أشاد مايكل وسيمون بفضائلك أيضًا، ولكن من الواضح أنهما قد بخسا حسَّ دُعابتك حقَّ قدره.»

فكَّرت نيكول في نفسها: «لديه شخصية أيضًا! ألن تنتهيَ العجائب؟»

بعد مُضي ساعة كانت نيكول راقدةً على جانبها تحدِّق باتجاه النوافذ بعد أن ساعدتها سيمون على أن تتَّخذ لها فِراشًا في غرفة الضيوف في نهاية الرواق. ومع أنها كانت متعَبة للغاية فلم يَغمض لها جَفن. وكان عقلها شديدَ النشاط يراجع مرارًا وتكرارًا ما مرَّ من أحداث في ذلك اليوم، مما منعها من النوم.

فكَّرت نيكول ويدها تبحث عفويًّا عن زرِّ الجرس على المنضدة التي بجوار فِراشها: «ربما يجب أن أقرع الجرس وأطلب شيئًا يساعدني على النوم. قالت سيمون إن القديسَ مايكل سيأتي إذا ضغطتِ على الزر. ويمكنه أن يفعل أيَّ شيء يفعله الرجلُ النسر.» وبعد أن طمأنت نفسَها إلى أنها تستطيع استدعاءَ المساعدة إذا ما استمرَّ الأرق، عادت نيكول إلى أكثر وضعٍ يريحها في النوم، وتركت عقلَها يحلِّق بِحرية.

تركَّزت أفكارها على ما رأته وسمِعته منذ أن وصلت إلى هذه الأرض المعزولة التي يعيش عليها مايكل وسيمون وعائلتهما. وقد شرح لها القديس مايكل أن هذا المكان الشبيهَ بنيو إنجلاند جزءٌ صغير داخل الوحدة السكنية بالنود، وأن هناك عدةَ مئات من الأجناس الأخرى المقيمة بصورة شبه دائمة بالقرب منهم. فسألت نيكول عن سببِ اختيارِ مايكل وسيمون حياةً يومية منفصلة عن الآخرين.

تذكَّرت نيكول «مايكل أوتول» وهو يجيب: «عشنا سنواتٍ في بيئة تتعدَّد فيها أنواع الكائنات. في الواقع أثناء وبعد ولادة أطفالنا الأربعة الذين وُلدوا بصورة طبيعية، كنا نُنقل سريعًا، أو هكذا بدا الأمر، من مكانٍ إلى آخر لاختبارِ قدرتنا على التكيُّف والتلاؤم مع عدد كبير من أنواع النباتات والحيوانات الأخرى. وقد أكَّد القديس مايكل حينَها صحةَ شكوكنا، وهي تحديدًا أنَّ مضيِّفينا يعرِّضوننا عن عَمدٍ لمجموعة مختلفة من البيئات لجمع المزيد من المعلومات عنَّا ... وكان كل مكان جديد تحديًا آخرَ لنا ...»

سكتَ مايكل الكبير دقيقةً كما لو أنه كان يكبَح انفعالاته. ثم قال: «كانت المشاقُّ النفسية جسيمةً في تلك الأيام الأولى. وكنَّا ما إن نتكيَّف مع ظروفٍ معيشية معينة حتى

تتغير فجأة ... ولا أزال أعتقد أن موت دارين ما كان ليحدُث لو أن كل شيء لم يكن غريبًا بهذا الشكل في هذا العالم الخفي ... وكدنا نفقد كاتيا عندما كانت في الثانية من عمرها تقريبًا، فقد أخطأ كائنٌ بحري يشبه الحبَّار في الحُكم على فضولها واعتبره فعلًا عدائيًّا ...»

قالت سيمون: «بعد أن رقدنا في سُبات عميق للمرة الثانية، ونُقلنا هنا إلى النود، كنت أنا ومايكل منهكَين تمامًا من سنوات الاختبار. كان الأطفال قد كبِروا حينها وبدءوا يكوِّنون عائلاتٍ خاصة بهم. فطلبنا قدرًا من الخصوصية وحصلنا عليه ...»

أضاف مايكل: «ولكننا لا نزال نخرج إلى العالم خارج منطقتنا، ونتعامل مع كائناتٍ غريبة من نُظمٍ نجمية بعيدة لأننا نريد هذا، وليس لأن هذا ضروري ... ويطلِعنا القديس مايكل دائمًا على أخبار الكائنات التي تشبه كرةَ السلة وحشرات السماء النطاطة والسلاحف الطائرة. إنه نافذةُ معلوماتنا التي نُطِلُّ منها على بقية النود.»

فكَّرت نيكول: «القديس مايكل خارقٌ للعادة، وأكثرُ تقدُّمًا حتى من الرجل النسر نفسِه. إنه يجيب عن الأسئلة كلها بثقة كبيرة. ولكنَّ هناك شيئًا فيه يجعلني أتعجَّب. هل هذه الإجابات المباشرة التي يمنحها عن الخالق، وأصل الكون ومصيره، صحيحةٌ بالفعل؟ أم إن القديس مايكل مبرمَج بصورةٍ ما، استنادًا إلى ولعِ مايكل بطرح الأسئلة الدينية والبحث عن إجاباتها، كي يكونَ رفيقه الفضائي الأمثل؟»

تقلَّبت نيكول في فراشها وأخذت تفكِّر في علاقتها بالرجل النسر. وقالت في نفسِها: «ربما أنا غيرى فقط لأن مايكل قد تعلَّم كثيرًا جدًّا ... بينما الرجل النسر غيرُ راغب أو غير قادر على الإجابة عن أسئلتي ... ولكن مَن الأفضل: طفلٌ لديه معلِّم يعرف كلَّ شيء ويخبر الطفل به، أم طفل يساعده مدرِّسه على العثور على الإجابات بنفسه؟ لا أعلم ... لا أعلم ... ولكن كان أداء القديس مايكل مثيرًا للإعجاب عند لوحة العرض.»

قفز مايكل الكبير من مقعده للمرة الألف وقال: «ألا تدركين ذلك يا نيكول؟ إننا جميعًا نشارك في تجربة الخالق العظيمة. هذا الكون بأسرِه، ليس مجرَّتنا فقط، ولكن كل المجرات التي تمتدُّ إلى نهاية السموات، لا يمثِّل له سوى نقطة بيانات واحدة ... وهو يبحث عن الكمال، عن تلك المجموعة الصغيرة من الظروف الأولية التي ما إن يبدأ الكون في الحركة نتيجة تحوُّل الطاقة إلى مادة، سيتطوَّر على مدى مليارات السنوات إلى كونٍ واحد محكَم التناغم يشهد على عظمة إبداع الخالق ...»

كانت نيكول تعاني بعضَ الصعوبة في فهمِ العمليات الرياضيات المعقَّدة، ولكنها فهِمت بالتأكيد النقاطَ الرئيسية وراء الرسم البياني الذي رسمَه القديس مايكل على

لوح العرض في غرفة المكتب. قالت نيكول للكائن الفضائي ذي الشعر المموَّج والعينين الزرقاوين: «إذن ففي هذه اللحظة ثمَّة عددٌ لا يُحصى من الأكوان التي تنشأ، بدأ كلٌّ منها في ظروفٍ أولية مختلفة، وقد وُضعتَ أنت والرجل النسر والنود وراما داخل عملية التطوُّر هذه من أجل جمعِ المعلومات؟ والهدف من كل هذا هو تحديد بعض النماذج الرياضية المرتبطة بالخلق التي سينتج عنها دائمًا نتائجُ تؤلِّف بين المخلوقات؟»

علَّق القديس مايكل: «بالضبط.» وأشار مرةً أخرى إلى الرسم البياني على اللوحة وهو يقول: «تخيَّلي أن هذا النظام المُناظر الذي رسمتُه أنا تمثيلٌ رمزي ثنائي الأبعاد للسطح الفائق المتاح للمتغيرات التي تحدِّد لحظةَ الخلق، تلك اللحظةَ التي تحوَّلت فيها الطاقة إلى مادة للمرة الأولى. وأي قوة موجَّهة تمثِّل مجموعةً محدَّدة من الظروف المبدئية التي تشكِّل الكونَ يمكن تصويرها نقطةً واحدة على الرسم البياني. ما يبحث عنه الإله هو مجموعةٌ كثيفة مغلقة خاصة جدًّا توجد في هذا السطح الفائق الرياضي. هذه المجموعة الخاصة التي يجري البحث عنها تمتلك خاصية أن أيًّا من عناصرها — بمعنى أي نسق من الظروف المواتية للحظة الخَلق المختارة من داخل هذه المجموعة — ستنتج كونًا ينتهي إلى حالة التناغم المطلَق.»

قال مايكل الكبير: «إنَّ خلق كون تكون المحصلة النهائية فيه أن تعلن جميعُ كائناته الحية تمجيدَها للإله مشكلةٌ يكاد يكون حلُّها مستحيلًا. فإذا لم توجد مادة كافية فإن الانفجار والتضخم الخاصَين بلحظة الخلق سينتج عنهما كونٌ تتسع جنباته للأبد، دون تفاعل كافٍ للعناصر المشكَّلة أثناء التطور لتكوين الحياة واستمرارها. وإذا كانت هناك مادةٌ أكثر مما ينبغي، فلن يكون هناك إذنْ وقتٌ كافٍ لتطور الوجود والحياة العاقلة تطورًا كاملًا قبل أن تتسبَّب الجاذبية في الانسحاق العظيم الذي ينهي الكون.»

قال القديس مايكل موضحًا: «الفوضى أمرٌ محيِّر للإله أيضًا. فالفوضى هي محصِّلة لجميع القوانين المادية التي تحكم عمليةَ التطور لأي كون مخلوق. فهي تحول دون التنبؤ الدقيق بنتائج عملياتٍ واسعةِ النطاق؛ لذا لا يستطيع الإله أن يحسُب مسبقًا ما سيحدُث في المستقبل، ومن ثَم تحديد مواطن التناغم ... التجربة هي الطريقة الوحيدة الممكنة لإيجادِ ما يبحث عنه ...»

أضاف مايكل الكبير: «النظام المخالف لتصميمِ الإله كبير. كي ينجح الإله في مسعاه، لا يكفي أن تتطوَّر الحياة من الجسيمات الأولية دون الذرية عن طريقِ حوادثَ كونية

عظيمة، إنما يجب أيضًا أن تصل هذه الحياة إلى مستوًى من الوعي الروحاني بذاتها والقدرة التكنولوجية اللذين يمكِّنانها من المشاركة بفاعلية في تغيير كل شيء حولها ...»

فكَّرت نيكول في غرفتها وهي تتذكَّر المناقشة: «إذن فالإله هو المصمِّم الأساسي والمهندس الأساسي للكون. وهو يصمِّم لحظةَ الخلق بطريقة تجعل الكائنات الحية بعد مليارات السنوات شاهدةً على بديع خلقه ...»

قالت نيكول لمايكل الكبير والقديس مايكل بالإضافة إلى سيمون قُرب نهاية الأمسية: «هناك جزءٌ من هذا ما زلت لا أفهمه. ما فائدة وجود كثير من الأكوان؟ ألا تصبح المهمة سهلةً بمجرد التأكد من وجود نتائج متناغمة؟ ألا يمكن استنساخ الظروف المبدئية لهذا الكون المتناغم ببساطة؟»

أجابها القديس مايكل قائلًا: «تلك ليست مشكلةً تستعصي على الإله. هو يريد أن يحدِّد حيزَ التناغم في السطح الفائق للظروف الأولية للخلق، إضافة إلى جميع الخواص الرياضية لذلك الحيز ... لا أظن أنكِ تُلمِّين بجميع جوانب المشكلة التي يواجهها الإله. فجزءٌ ضئيل فقط من جميع الأكوان المحتمَلة يمكن أن تئول في النهاية إلى التناغم. والناتج الطبيعي لتحوُّل الطاقة إلى مادة هو كون لا توجد على ظهره حياةٌ على الإطلاق، أو على أفضل تقدير كائنات حية عدوانية تعيش حياةً مؤقتة، وتكون هدامةً أكثر من كونها بناءة. وحتى وجود حيِّز تناغم صغير داخل كون في طَور التطور يُعد معجزة ... لهذا تُعد المهمة برُمَّتها تحديًا صعبًا بالنسبة إلى الإله.»

ثم قفز مايكل الكبير مرةً أخرى. وقال: «ما يبحث عنه الإله هو كونٌ يبلغ نقطةَ التناغم المطلَق قبل أن يصل إلى نقطة الانسحاق العظيم. وهذا يستلزم أن تعمل معًا جميعُ أجناس الكائنات الحية في جميع العوالم من أجل المصلحة العامة، وأن يشارك أيضًا كلُّ جُسيم أدنى من الذرة صنَعه الإله بنشاط في هذا التوافق ... ظلِلتُ مدةً طويلة عاجزًا عن استيعابِ عظمة هذا المفهوم. ثم أخبرني القديس مايكل عن جنسٍ لديه القدرةُ على خلقِ كائنات حية من التراب والصخر كما فعل إلهُنا المذكور في الكتاب المقدَّس عن طريق عمليات التحويل النووي وإعادة ترتيب العناصر. يستلزم التناغم التام أن تَستخدم الأنواع المتقدِّمة مثلنا أدواتِها التكنولوجية لتحويل الجماد والأشياء غير الحية إلى كائنات تسهِم في تحقيق ذلك التناغم ...»

تذكَّرت نيكول أنها أعلنت، عند هذه النقطة من الحوار تقريبًا، أن عقلها مثقلٌ بالمعلومات وتريد الذهاب إلى الفراش. فطلب منها القديس مايكل أن تنتظر بضعَ دقائق فقط حتى يلخِّص لها ما شعر أنه غيرُ منظَّم بعض الشيء من النقاش. فوافقت نيكول.

قال القديس مايكل: «بالعودة إلى سؤالك الأصلي: فإن كلَّ نود جزءٌ من ذكاء متسلسل يجمع المعلومات من جميع أنحاء هذه المجرة بالتحديد. ولدى معظم المجرات، بما في ذلك مجرةُ درب التبانة، محطةٌ فائقة نطلق عليها «المراقب الرئيسي»، تقع في مكانٍ ما بالقرب من مركز المجرة. وقد صمَّم منشآتِ النود والحاملاتِ وجميعَ المنشآت الهندسية الأخرى التي رأيتها المراقبون الرئيسيون بدورهم. والهدفُ من وراء ذلك السعي بأكمله، بما في ذلك ما حدَث كله منذ أن دخلت مركبةُ راما الأولى نظامكم الشمسي قبل سنوات، تطويرُ المعايير الكمية التي ستمكِّن الأكوانَ التالية من الوصول إلى التوافق، رغم النزعات الفوضوية للقوانين الطبيعية.»

صفَرت نيكول إعجابًا. ثم قالت في النهاية وهي تشغل كرسيها المتحرك: «إن هذه المناقشة تشدَه العقول تمامًا. وأنا منهكة للغاية الآن.»

فكَّرت في نفسها: «ولكني لست منهكةً بالدرجة التي تجعلني أنام. كيف يستطيع أيُّ شخص النومَ بعد أن شُرح له الهدف من الكون؟» ثم ضحِكت نيكول وهي في فراشها وتفكَّرت: «لا يمكن أن أتخيَّل ما كان ريتشارد سيقوله بعد هذه المناقشة ... ربما يقول إنها نظرية جيدة ولكن كيف تشرح سيطرةَ الفِرق الأفريقية على كأس العالم بين عامي ٢١٤٠ و٢١٦٠؟ أو أن الإجابة عن جميع الأسئلة الوجودية لم تَعُد ٤٢؟» ضحِكت مرةً أخرى. وقالت في نفسها: «كان ريتشارد سيقدِّر القديس مايكل ولا شك، ولكن كان سيطرح مئات الأسئلة ... وكنا سنقيم علاقةً حميمة عندما نعود إلى الغرفة، ثم نتحدَّث طَوال الليل ...»

تثاءبت نيكول وتقلَّبت على جانبها. وعندما أخلَدت إلى النوم كانت رؤى أكوان تنفجر لتعمُرها كائنات تتقافز إلى عقلها.

٩

استيقظت نيكول وقد تجدَّد نشاطها وطاقتها. وكانت على وشْك أن تضغط على زر جرسٍ بجانب فراشها، لكنها تراجعت. وجاهدت لتصل إلى كرسيِّها المتحرك وجلست عليه. ثم تحرَّكت به حتى وصلت إلى النوافذ وأزاحت الستائر.

كان الجو في الخارج جميلًا صباحًا. فهناك خليجٌ صغير يجري إلى يسارها وثلاثة أطفال، تتراوح أعمارهم غالبًا ما بين ثماني وعشر سنوات، يقفزون على الأحجار عبْر بِركة صغيرة في الخليج. وبينما تحدِّق من النوافذ إلى الحقول والأشجار المصنوعة لتحاكي الطبيعية وأيضًا التلال المحيطة بالأرض، شعرت حينها أنها شابة ومليئة بالحيوية.

فكَّرت نيكول في نفسها: «ربما ينبغي أن أتركهم يرمِّمون جسدي. ويستبدلون جميعَ أعضائي التالفة التي أعياها الزمن ... يمكنني أن أعيش هنا مع سيمون ومايكل. وربما يمكنني أن أعلِّم أحفادي بعضَ دروس الحياة.»

غادر الأطفال الثلاثة الخليجَ وجرَوا عبْر الحقل الأخضر إلى المنطقة المغلقة الخاصة بالخيول. كان الصبي يركض أسرعَ من الفتاتين الأخريين، ولكنه لم يسبق أصغرهما.

ضحك ثلاثتهم معًا وأخذوا ينادون الخيولَ من فوق السياج.

قال مايكل الكبير من ورائها: «الصبي يُدعى زاكري. والفتاتان كولين وسيمون ... زاكري وكولين أبناء كاتيا، أما سيمون فهي الابنة الكبرى لتيموثي.»

لم تسمع نيكول مايكل وهو يدخل إلى الغرفة. وحين رأته استدارت إليه بكرسيِّها المتحرك. وقالت: «صباح الخير يا مايكل!» ثم عادت لتتطلَّع من النافذة. وقالت: «إن الأطفال رائعون.»

قال مايكل وهو يسير إلى النافذة: «شكرًا لك. إنني رجل محظوظ جدًّا. فقد حبَاني الإله بحياة رائعة، وأنعم عليَّ بنعمٍ جمَّة.»

وأخذا يشاهدان الأطفالَ في صمت وهم يلعبون. امتطى زاكري حصانًا أبيضَ وبدأ يستعرض مهاراته. قال مايكل: «شعرت بالأسف لسماع خبر موت ريتشارد. باتريك أخبرَنا القصة أمسِ ... لا بد أن الأمر كان صعبًا للغاية عليك.»

أجابته نيكول: «كان كذلك بالفعل. لقد توطَّدت علاقة صداقة رائعة بيني وبين ريتشارد ...» ثم تبادلا النظرات. وقالت: «كنت ستفخر به كثيرًا يا مايكل ... لقد كان رجلًا مختلفًا في سنواته الأخيرة.»

قال مايكل: «ظننتُ هذا. فريتشارد الذي عرفته لم يكن ليتطوَّع البتة ليضع نفسَه في قلب الخطر، خاصة كي ينقذ حياة آخرين ...»

«كان لا بد أن تراه مع حفيدته نيكي، ابنة إيلي الصغيرة. كانا لا يفترقان، وكان بمنزلة الوالد لها ... لقد اكتسب الحنان في وقتٍ متأخر للغاية من حياته ...»

لم تستطِع نيكول استئنافَ حديثها. شعرَت بألمٍ مفاجئ شديد في قلبها. فقادت كرسيَّها إلى المنضدة بجوار الفراش وتناولت جرعةً من السائل الأزرق.

ثم عادت إلى النافذة ورأت في الخارج الفتاتين وهما على صهوة جوادٍ أيضًا، وتلعبان لعبة.

قال مايكل: «أخبرنا باتريك أيضًا أن بينجي أصبح رجلًا بالغًا رائعًا، وبالطبع محدود القدرات نوعًا ما، ولكنه مثير للإعجاب بالنظر إلى قدراته البسيطة والفترات الطويلة التي

قضاها نائمًا ... وقال أيضًا إن بينجي مثال حيٌّ ينِمُّ عن مواهبك جميعها، وأنكِ عملتِ معه دون كلل أو ملل، ولم تدعيه قط يتذرَّع بإعاقته ...»

وجاء الدور على مايكل كي تختنق الكلمات في فيه. استدار إلى نيكول والدموع تتساقط من عينيه ووضع يديه في يديها. وقال: «لا يوجد ما أستطيع فِعله لأشكركِ شكرًا كافيًا على تربية هذين الولدين بهذا القدرِ من العناية. لا سيما بينجي.»

تطلَّعت إليه نيكول وهي جالسةٌ على كرسيها المتحرك. وقالت: «إنهما ابنانا. وأنا أحبُّهما كثيرًا.»

مسح مايكل أنفه وعينيه بمنديل. وقال: «بالطبع أريدك أنا وسيمون أن تقابلي أطفالنا والأحفاد، ولكننا اتفقنا أن هناك شيئًا يجب أن نخبرك به أولًا ... ولم نعلم يقينًا كيف سيكون ردُّ فِعلك، وعلى أي حال لن يكون من العدل ألا نخبرك، وإلا فلن تفهمي سببَ ردة فعل الأطفال ...»

قاطعته نيكول بسؤالها: «ما الأمر يا مايكل؟» ثم ابتسمت. وقالت: «من الواضح أنك تواجه صعوبةً في الدخول إلى الموضوع مباشرة.»

فقال وهو يجتاز الغرفةَ ويضغط على الزر إلى جوار فراشها مرتين متتاليتين بسرعة: «بالفعل. ما سأقوله لك الآن يا نيكول أمرٌ حسَّاس إلى حدٍّ ما ... أتذكرين الليلةَ الماضية عندما أخبرناك أنني وسيمون لدينا رفيقان فضائيان؟»

قالت نيكول: «نعم يا مايكل.»

كانت لا تزال تتطلَّع من النافذة. اتجه مايكل ليقف إلى جوارها وأمسك بيدها. وحدَّقت هي في المشهد خارج النافذة. خرجت من المنزل امرأةٌ في أواخر الأربعينيات من عمرها، رياضية ذات بشَرة نحاسية داكنة، وكانت تسير بسرعة باتجاه إسطبل الخيول. بدت هيئة المرأة ومِشيتها مألوفتين لنيكول. وعندما رأى الأطفال السيدة لوَّحوا لها، واتجهوا نحوها بخيولهم.

انتبهت نيكول لزاكري وهو يصيح باسم المرأة، وفجأةً فهِمت نيكول الأمر. وقعت المفاجأة عليها كالصاعقة. استدارت المرأة لحظةً فرأت نيكول نفسها، مثلما كانت بالضبط عندما غادرت النود قبل أربعين عامًا. كان من الصعب على نيكول أن تسيطر على مشاعرها.

قال مايكل وهو يرى الذهولَ على وجهها: «كنتِ أنتِ أكثرَ شخص افتقدَته سيمون. لذا كان من الطبيعي أن يصنع الفضائيون رفيقًا لها على صورتك ... إنها محاكاةٌ لكِ مثيرةٌ للإعجاب. ليس في شكلها الخارجي الذي ترينه بنفسك فحسب، بل في شخصيتها أيضًا.

كنت أنا وسيمون مذهولين، ولا سيما في البداية، من النسخة المثالية التي صنعوها، وهذا الكائن الفضائي يتحدَّث مثلك، ويسير مثلك، بل يفكر مثلك ... وفي غضون أسبوع أصبحت سيمون تناديها «أمي» وأنا أناديها «نيكول». وهي معنا منذ ذلك الحين.»

حدَّقت نيكول في الصورة المقلَّدة لها دون أن تتفوَّه بكلمة. وفكَّرت في نفسها: «لا خطأ في تعبيرات وجهها أو حتى ملامحها.» واستمرَّت تحدِّق فيها بانتباه والمرأة تقترب من المنزل ومعها الأطفال الثلاثة.

«ظنَّت سيمون أنكِ قد تتضايقين بعضَ الشيء، أو تشعرين أننا قد استبدلنا أحدًا غيرك بك عندما تكتشفين أن صورتك المقلَّدة هذه تعيش مع العائلة طوال هذه السنوات. ولكني طمأنتها وقلت لها إنك ستكونين بخير، ولن يعدوَ الأمر أن تستغرقي بعض الوقت لاستيعاب الفكرة ... وعمومًا، على حدِّ علمي، لم تُستبدَل نسخةٌ آلية بإنسانٍ من قبلُ.»

التقطت نيكول الفضائية إحدى الفتاتين وأخذت تدور بها في الهواء. ثم صعِد الأربعة درجاتِ السُّلم واجتازوا مدخل المنزل.

فكَّرت نيكول: «إنهم ينادونها جَدتي. وبإمكانها الركضُ وامتطاء الخيول وتلعب معهم بقذفهم في الهواء ... إنها ليست ضامرةً وحبيسةَ كرسي متحرِّك.» بدأ شعور لم تحبَّه نيكول ينمو داخلها، كان شعورًا بالشفقة على نفسها. قالت لنفسها: «ربما لم تفتقدني سيمون كثيرًا. «فوالدتها» معها هنا طوال هذه السنوات تعتني بها، لا تكبَر قط، ولا تطلب منها أيَّ شيء ...»

شعرت نيكول أنها على وشْك أن تبكي. ولكنها استجمعت قواها. وقالت وهي تجبر نفسَها على الابتسام: «مايكل، لمَ لا تمنحني دقيقةً كي أُعُدَّ نفسي لتناول الإفطار؟»

فسألها: «هل أنتِ واثقة أنك لا تحتاجين إلى مساعدة؟»

«كلا، كلا ... سأكون بخير ... أريد فقط أن أغسل وجهيَ وأضعَ قليلًا من مستحضرات التجميل.»

بعد أن أغلق مايكل الباب خلفه بثوانٍ قليلة بدأت الدموع تنهمر من عينيها، وقالت لنفسها: «ليس لي مكان هنا أيضًا. جَدتهم هنا بالفعل، جَدةٌ أفضلُ مما يمكن أن أكون أنا عليه في أي وقت، حتى لو كانت مجرَّدَ آلة ...»

لم تقُل نيكول سوى كلمات قلائلَ في طريق العودة إلى مركز وسائل المواصلات. وظلَّت ملتزِمة بالصمت بعد أن غادر المكُّوك الوحدةَ السكنية وانطلق في الفضاء.

قال الرجل النسر: «ألا تودين الحديثَ عن الأمر؟»

قالت نيكول عبْر الميكروفون في خوذتها: «كلا.»

سألها الرجل النسر بعد عدة ثوانٍ: «هل أنت سعيدة أنك قمت بهذه الزيارة؟»

أجابته: «نعم ... بكل تأكيد. لقد كانت واحدةً من أروع التجارب التي مررت بها في حياتي ... شكرًا جزيلًا لك.»

ضبط الرجل النسر إحداثيات رحلة المكُّوك فبدأ يرجع إلى الخلف ببطء. ملأ شكل الهرم الثلاثي الضخم نافذةَ المكُّوك.

فقال الرجل النسر: «يمكن إجراءُ عملية استبدال الأعضاء بعد ظهر اليوم. وقبل بداية الأسبوع القادم ستبدين أصغرَ من مايكل الكبير.»

قالت نيكول: «كلا، شكرًا!»

خيَّم عليهما صمتٌ طويل مرة أخرى. ثم قال الرجل النسر: «إنك لا تبدين سعيدة.»

استدارت نيكول لتنظر إلى رفيقها الفضائي. وقالت: «أنا سعيدة، ولا سيما من أجل سيمون ومايكل ... من الرائع حقًّا أن تكون حياتهم مُرضية بهذا القدْر ...» التقطت نفَسًا عميقًا. وقالت: «ربما أكون متعبةً فقط. فقد وقع كثيرٌ من الأحداث في فترة زمنية قصيرة.»

قال الرجل النسر: «أجل، على الأرجح ذلك هو السبب.»

كانت نيكول مستغرِقة في أفكارها، تُراجع كلَّ شيء حدَث لها بالترتيب منذ أن استيقظت. سيطر على عقلها وجوهُ أولاد سيمون ومايكل الستة وأحفادهم الأربعة عشر. وقالت في نفسها: «عائلة بديعة، ولكن تسير حياتهم على وتيرة واحدة.»

ثم جاءها وجهٌ آخر كثيرًا، وجهٌ تتذكَّره بوضوح من مرآتها. كانت توافق سيمون ومايكل في أن نيكول الأخرى كانت صورةً مطابِقة لها على نحوٍ لا يصدَّق، إنها إنجازٌ جليٌّ للتكنولوجيا المتقدمة. ولكن ما لم تستطِع نيكول حتى مناقشتَه معهم هو مدى غرابة الموقف عندما قابلت نفسها وهي شابة ودار بينهما حديث. أو مدى الشعور الغريب الذي راودها عندما علِمت أن آلة قد حلَّت محلَّها في قلوب أفراد عائلتها وعقولهم.

شاهدت نيكول بصمتٍ نيكولَ الأخرى تضحك مع سيمون على نقاشٍ دار بين سيمون وأختِها الصغرى كاتي قبل سنوات على متن النود. وعندما تذكَّرت المخلوقة الفضائية تفاصيلَ القصة انتعشت ذاكرة نيكول أيضًا. وفكَّرت في نفسها: «حتى ذاكرتها أفضلُ من ذاكرتي ... يا له من حلٍّ مثالي لمشكلتَي الشيخوخة والاحتضار ... تصنيع صورة لشخصٍ في ريعان حياته، وهو لا يزال محتفظًا بكامل طاقته، ثم الاحتفاظ بها للأبد كأسطورة، في عيون أحبائها على الأقل.»

سألت نيكول الرجل النسر: «كيف أتأكد يقينًا من أن مايكل وسيمون اللذين تحدَّثت إليهما أمس وصباح اليوم هما بشريان حقيقيان وليسا محاكاةً أكثرَ دقة من نيكول الأخرى؟»

قال الرجل النسر: «ذكرَ القديس مايكل أنكِ سألتِ عدةَ أسئلة محدَّدة عن السنوات الأولى من حياة مايكل الكبير. ألم تكن الإجابات التي حصلت عليها شافية؟»

«ولكنني أدركت عندما كنا في العربة قبل ساعة أن بعض تلك المعلومات ربما كانت مُخزنة في ملف حياة مايكل على السفينة الفضائية نيوتن، وأعلم أن تلك البيانات متاحة لكم ...»

قال الرجل النسر معقِّبًا: «ما الهدف من بذل هذا المجهود كلِّه لخداعك؟ وهل عهدتِ ذلك منَّا؟»

سألت نيكول بعد بضع دقائق مغيِّرة موضوعَ الحوار: «كم من أطفال سيمون ومايكل الآخرين لا يزالون على قيد الحياة؟»

أجابها الرجل النسر: «هناك اثنان وثلاثون آخرون هنا على منشأة النود تلك. وأكثر من مائة في أماكنَ أخرى.»

هزَّت نيكول رأسها في استنكار. وتذكَّرت أساطيرَ السينوفو: «وسيعمُر نسلها النجوم ... كان أومه سيسعد بهذا.»

قالت نيكول: «هل أتقنتم إذنْ عمليةَ إنماء البشر خارج الرحم من البويضات المخصَّبة؟»

أجابها الرجل النسر: «تقريبًا.»

ومرةً أخرى خيَّم عليهما الصمت فترة طويلة وهما يحلِّقان. ثم سألت نيكول: «لمَ لمْ تخبرني من قبل عن المراقبين الرئيسيين؟»

«لم يكن مسموحًا لي، إلى حين استيقاظك على الأقل ... ومنذ ذلك الحين لم يُطرح الموضوع.»

«وهل كلُّ ما قاله القديس مايكل صحيح؟ عن الإله والفوضى والأكوان المتعددة؟»

قال الرجل النسر: «على حدِّ علمنا. هذه هي المعلومات المبرمجة في أنظمتنا ... لم يرَ أيٌّ منا مراقبًا رئيسيًّا قط.»

سألت نيكول: «وهل من الممكن أن تكون القصة بأكملها خرافةً من نوعٍ ما، ألَّفتها كائناتٌ أذكى منكم في الترتيب الهرمي للكائنات الذكية، ليكون التفسير المقرَّر تقديمه للبشر؟»

تردَّد الرجل النسر. ثم قال: «هذا احتمالٌ وارد ... ولكن لا سبيل لديَّ لأعرف يقينًا.»

«هل ستعرف إذا كان هناك سردية مختلفة، تفسيرٍ آخر، قد جرَت برمجته في أنظمتك من قبل؟»

قال الرجل النسر: «ليس بالضرورة أن أعرف ذلك. فأنا مسئول فقط عما هو محفوظ في ذاكرتي.»

ظلَّت نيكول على سلوكها غيرِ المعتاد. كانت تقطع أوقات الصمت الطويلة التي تستغرق فيها بسلسلة من الأسئلة المفاجئة التي تبدو غيرَ مترابطة. في لحظة سألت عن سببِ وجود أربع وحدات في بعض منشآت النود وثلاث في أخرى. فشرح لها الرجل النسر أن كلَّ نود يكون ترتيبها العاشر أو الثاني عشر تقريبًا تحوي وحدةَ معرفة، وأن وجودها في أي نود يجعلها هرمًا ثلاثيًّا. أرادت نيكول أن تعرف السببَ الذي يجعل وحدةَ المعرفة مميزة بهذا الشكل. فأخبرها الرجل النسر أنها مخزن لجميع المعلومات المكتسَبة عن هذا الجزء من المجرة.

وقال: «جزءٌ منها مكتبة والجزء الآخر متحف، وتحتوي على كمٍّ هائل من المعلومات في أشكالٍ مختلفة.»

سألته نيكول: «هل دلَفت من قبل إلى داخل وحدة المعرفة هذه؟»

أجابها الرجل النسر: «لا، ولكن تحتوي أنظمتي الحالية على وصفٍ كامل لها ...»

قالت نيكول: «هل بإمكاني الذهابُ إلى هناك؟»

قال الرجل النسر: «يجب أن يحصُل أي كائن حي على تصريح خاص لدخول وحدة المعرفة.»

عندما تحدَّثت نيكول مرة أخرى سألته عما سيحدُث للبشر الذين سيُنقلون إلى النود في غضون يوم أو اثنين. أخذ الرجل النسر يجيب عن سؤال قصير لها تلو الآخر، وشرح لها بصبرٍ أن البشر سيعيشون في الوحدة السكنية في بيئة اختبار مع أجناس عديدة أخرى، وأنهم سيُراقَبون عن قرب، ويمكن أن تنضم سيمون ومايكل وعائلتهما إلى البشر الذين سينتقلون إلى النود، وقد لا ينضمون.

اتخذت نيكول قرارها قبل دقائقَ عدة من وصولها إلى سفينة نجمة البحر. قالت ببطء: «أريد أن أبقى هنا الليلة فقط. حتى أودِّع الجميع.»

نظر الرجل النسر إليها والفضول يرتسم على وجهه. فاستكملت: «ثم غدًا، أريدك أن تصحبني إلى وحدة المعرفة إذا استطعت الحصولَ على تصريح ... وبمجرد أن أغادر نجمةَ

البحر أريد إيقافَ جميع صور العلاج الطبي ... ولا أريد أي محاولات نبيلة منكم إذا ما توقف قلبي عن العمل.»

نظرت نيكول أمامها مباشرةً عبْر مقدِّمة خوذتها الفضائية إلى خارج نافذة المكُّوك. وقالت في نفسها: «هذا هو الوقت المناسب تمامًا. أتمنى أن أتحلَّى بالشجاعة كي لا أتزحزح عن موقفي.»

قالت إيلي وهي تمسح دموعها: «نعم يا أمي، أفهمك، حقًّا أفهمك ... ولكني ابنتك. وأنا أحبك. ولا يمكن أن أكون سعيدة لأني لن أراك مرةً أخرى، بصرف النظر عن منطقية كلامي هذا لك.»

قالت نيكول: «إذن ما المفترض أن أفعله؟! أدَعهم يغيِّروني إلى امرأة من نوعٍ ما ذات أعضاء آلية وأعيش للأبد؟ وأصبح سيدة المجتمع رفيعة المقام، متكلِّفة ويملؤها الغرور؟ بالطبع لا يروق لي هذا.»

قالت إيلي: «ولكن الجميع هنا يُكنُّ لك الإعجاب يا أمي. عائلتك هنا تحبُّك. ويمكنك أن تقضي سنواتٍ لتتعرفي على جميع أفراد عائلة سيمون ومايكل. ولن تكوني عبئًا أبدًا على أيٍّ منا ...»

قالت نيكول: «ليس هذا هو السبب الأساسي.» ثم أدارت كرسيَّها المتحرك لتواجه أحدَ الجدران الخاوية. وقالت لنفسها ولإيلي أيضًا: «الكون كله في تجدُّد مستمر. فكل شيء — الأفراد والكواكب والنجوم وحتى المجرَّات — له دورة حياة، له لحظة ميلاد ولحظة موت أيضًا. لا شيء يخلد للأبد. ولا حتى الكون نفسه ... فالتغيير والتجدُّد جزءٌ أساسي من سير الحياة كلها. وكائنات الأوكتوسبايدر تعرف هذا جيدًا. لهذا تَعُدُّ عمليات إنهاء الحياة المخطَّط لها جزءًا لا يتجزأ من المفهوم العام لسد النقص في المجتمع لديهم.»

قالت إيلي من خلفها: «ولكن يا أمي، تضع كائنات الأوكتوسبايدر على قائمة إنهاء الحياة الأفرادَ الذين لم تَعُد مساهماتهم في مجتمعهم كافية على نحوٍ يبرر المصادرَ التي يستهلكونها، فيما عدا حالة نشوب حرب ... وإبقاؤك على قيد الحياة لا يكلِّفنا أي شيء ... ولا تزال حِكمتك وخبرتك لهما قيمة.»

دارت نيكول بكرسيِّها. وقالت مبتسمة: «إنك امرأة ذكية جدًّا يا إيلي. وسأعترف أن ثمة شيئًا من الحقيقة فيما تقولينه، ولكنكِ تتجاهلين عن عمدٍ العنصرين الرئيسيَّين اللذين أقمتُ عليهما قراري، واللذين شرحتهما بالفعل بإسهاب ... أولًا: لأسبابٍ قد لا تفهمينها

أنت أو أي شخص آخر، من المهم لي أن أكون قادرةً على اختيارِ وقتِ موتي. وأريد أن أتخذ ذلك القرار قبل أن أصبح عبئًا أو أن أعجز عن الإتيان بالأنشطة الأساسية، أريد أن أتخذه وأنا لا أزال أتمتَّع باحترام عائلتي وأصدقائي. ثانيًا: أشعر أنني ليس لي أي مكان محدَّد في عالمِ ما بعد الانتقال. لهذا لا يستطيع عقلي أن يبرِّر لي التدخُّل الطبي الضخم في أعضائي الذي يتطلبه الأمر قبل أن أصبح قادرةً على أن أؤديَ وظائفي دون أن أمثِّل عبئًا للآخرين ... من وجهات نظر عديدة مختلفة، أرى أن الآن هو وقتٌ ممتاز لي لأترك هذه الحياة.»

قالت إيلي: «كما قلتُ لك في البداية، يجب ألا يكون تحليلك العقلاني الخالي من المشاعر، سواء أكان صحيحًا أم لا، هو الاعتبارَ الوحيد. ماذا عن الشعور بفقدانك الذي سأعانيه أنا وبينجي ونيكي والآخرون؟ وما سيزيد من أسانا هو معرفة أنه كان من الممكن تجنُّب موتك الآن ...»

قالت نيكول: «إيلي، إن أحدَ الأسباب التي جعلتني أعود لأودعك أنت والآخرين هو محاولة أن أخفِّف أيَّ شعور بفقداني قد تشعرون به بعد وفاتي ... ومرة أخرى انظري إلى كائنات الأوكتوسبايدر. إنها لا تحزن على فقدان أحدها.»

قاطعتها إيلي وهي تقاوم انهمارَ دموعها مرة أخرى: «أمي، نحن لسنا كائنات أوكتوسبايدر، إننا بشر ... نحزن ... ونشعر بالوحدة عندما يذهب عنَّا شخصٌ نحبُّه. ندرك عقلًا أن الموت لا مفرَّ منه وأنه جزء من النظام الكوني، ولكننا نبكي ونشعر بإحساس شديد بالفقدان ...»

سكتت إيلي دقيقةً. ثم قالت: «هل نسيتِ ما شعرتِ به عندما مات ريتشارد وكاتي؟ لقد انهرتِ تمامًا.»

ابتلعت نيكول لُعابها ببطء ونظرت إلى ابنتها. وفكَّرت في نفسها: «كنت أعرف أن هذا لن يكون سهلًا. ربما ما كان يجدُر بي أن أعود ... ربما كان من الأفضل حقًّا لو كنتُ طلبتُ من الرجل النسر أن يخبرَ الجميع أنني مِتُّ جرَّاء أزمة قلبية.»

قالت إيلي بحنان: «أعلم أنكِ تضايقتِ عندما وجدتِ أن كائنًا آليًّا فضائيًّا حلَّ محلَّك في عائلة مايكل وسيمون ... ولكن يجب ألا تبالغي في ردة فعلك. فعاجلًا أو آجلًا سيكتشف جميعُ أبنائهم وأحفادهم أنه لا يمكن أن يكون هناك بديلٌ لنيكول دي جاردان ويكفيلد الحقيقية.»

تنهَّدت نيكول. شعرت أنها تخسِر المعركة: «لقد بُحتُ لكِ يا إيلي أنني شعرت أنه لم يَعُد لي مكان في عائلة مايكل وسيمون. ولكن ليس من العدل أن تُلمِّحي إلى أن ردةَ فعلي لوجود نيكول الأخرى هو السبب الوحيد، أو حتى السبب الرئيسي، لقراري.»

بدأ الإنهاك يتملك من نيكول. كانت قد خطَّطت أن تتحدَّث في البداية إلى إيلي، ثم إلى بينجي، ثم إلى باقي المجموعة قبل أن تأوي إلى فراشها. ولكن كان الحديث مع إيلي أصعبَ كثيرًا مما توقَّعت. سألت نيكول نفسها: «هل كنتِ واقعية؟ هل ظننتِ حقًّا أن إيلي ستقول: «رائع يا أمي، إنه تفكير عقلاني منك. أنا آسفة لرحيلك، ولكني أتفهَّم تمامًا».»

سمِعا صوت طرقات على باب الغرفة. وبعد أن فُتح الباب نظر الرجل النسر إلى السيدتين. وسأل: «هل أتطفَّل عليكما؟»

ابتسمت نيكول. وقالت: «أظن أننا مستعدتان لاستراحة قصيرة.»

استأذنت إيلي للذهاب إلى الحمَّام، فسار الرجل النسر إلى نيكول. وقال وهو ينحني إلى مستوى الكرسي المتحرك: «كيف تسير الأمور؟»

أجابته نيكول: «ليس جيدًا.»

قال الرجل النسر: «فكَّرت أن أمُرَّ بك وأخبرك أنه تمَّت الموافقة على طلب زيارة وحدة المعرفة. على افتراض أن القرار الذي اتخذتِه في المكُّوك لا يزال قائمًا.»

أشرق وجهُ نيكول. وقالت: «جيد. الآن أحتاج فقط إلى استجماع شجاعتي لإنهاء ما بدأتُه.»

ربَّت الرجل النسر على ظهرها. وقال: «يمكنكِ ذلك. إنكِ أكثر إنسان خارق للعادة صادفناه.»

أراح بينجي رأسه على صدر نيكول. كانت تستلقي على ظهرها وتحيطه بذراعيها. فكَّرت والنوم يغلبها: «قد تكون هذه هي آخر ليلة في حياتي.» سرَت رجفةُ خوف صغيرة في جسدها، ولكنها دفعتها عن نفسها. ثم قالت في نفسها: «أنا لست خائفةً من الموت، ليس بعد ما مررتُ به في حياتي.»

أعادت زيارةُ الرجل النسر قوَّتها إليها. وعندما استأنفت حوارها مع إيلي اعترفت أن النقاط التي أثارتها إيلي جديرةٌ بالاعتبار، وأنها لم تقصد أن تسبِّب ألَمًا لأصدقائها وعائلتها، ولكنها عاقدةٌ العزمَ على المضي قُدمًا في قرارها. ثم أوضحت حينها لإيلي أنها هي وبينجي والآخرين سيحظون بفرصةٍ أكبر لتنمية استقلاليتهم في غيابها، لأنه لن يكون هناك شخص يمثل السلطة التي يحتكمون إليها.

قالت إيلي لنيكول إنها «امرأة عجوز عنيدة»، ولكنها، بسبب حبِّها واحترامها لها، ستحاول دعْمَها في قرارها في الساعات القليلة الباقية. وسألت إيلي نيكول أيضًا هل تعتزم فِعلَ شيء معيَّن لتعجيل موتها. فضحكت نيكول وأخبرت ابنتها أنه لا توجد حاجة لأي خطوات غير عادية؛ فالرجل النسر أكَّد لها أنه دون الدعم الطبي سيتوقف قلبها في غضون ساعات.

لم يكن الحوار مع بينجي بهذا القدْر من الصعوبة. فقد تطوَّعت إيلي للمساعدة في شرح كل شيء، وقبِلت نيكول عرضَها. كان بينجي يعرف أن والدته تعاني، وحالتها الصحية ليست على ما يرام، ولكنه لم يكن يعرف أن الكائنات الفضائية تمتلك القدرات الطبية لعلاج مشكلاتها. وطمأنت إيلي بينجي أن ماكس وإيبونين ونيكي وكيبلر وماريوس وماريا سيكونون جزءًا من عالمه اليومي كما هم.

ومن بين المجموعة كلِّها كانت إيبونين فقط هي مَن دمِعت عيناها عندما أخبرتهم نيكول بقرارها. أما ماكس فقال إنه لم يفاجأ بقرارها. وأبدت ماريا حزنَها أنها لم تقضِ مزيدًا من الوقت مع السيدة التي «أنقذت حياتي». أما كيبلر وماريوس وحتى نيكي فكانوا مرتبكين ولم يعرفوا ماذا يقولون.

وبينما كانت نيكول تستعد للنوم وعدَت نفسها بأن أول شيء ستفعله في الصباح هو أن تعثر على الدكتورة بلو وتودِّع صديقتها الأوكتوسبايدر وداعًا لائقًا. وقبل أن تطفئ النورَ مباشرة، دنا بينجي من والدته وطلب منها، بما أن هذه هي آخرُ ليلة لهما معًا، أن ينام في حِضنها «مثلما كنت أفعل وأنا صبي صغير». وافقت نيكول وبعد أن استكان بينجي بين ذراعيها على السجادة انهمرت الدموع على وجنتيها وأغرقت أذنيها.

١٠

استيقظت نيكول مبكرًا. وكان بينجي قد استيقظ بالفعل وارتدى ملابسه، ولا يزال كيبلر نائمًا في الجانب القصي من الغرفة. ساعد بينجي نيكول على الاستحمام وارتداء ملابسها دون أن ينفد صبره كما فعل من قبل.

جاء ماكس إلى الغرفة بعد بضعِ دقائق. وبعد أن أيقظ كيبلر اتَّجه إلى كرسي نيكول المتحرِّك وأمسك بيدها. وقال: «إنني لم أقُل الكثير ليلة أمس يا صديقتي، لأنني لم أستطِع إيجادَ الكلمات المناسبة ... حتى الآن، لا تسعفني الكلمات بالمرة ...»

أشاح ماكس بوجهه بعيدًا عنها. وقال في صوتٍ متقطِّع دون أن يواجهها: «اللعنة يا نيكول! إنك تعرفين ما شعوري حيالك ... إنك إنسانة رائعة، رائعة حقًّا.»

توقَّف ماكس عن الحديث. وكان الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت الماء المتدفِّق وكيبلر يستحم. اعتصرت نيكول يدَ ماكس. وقالت بحنان: «شكرًا لك يا ماكس، هذا يعني لي الكثير.»

قال ماكس بتردُّد وهو يعود لينظر إلى نيكول: «عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري مات والدي بنوع نادر من مرض السرطان ... كنا جميعًا نعرف أن الموت قادم له. شاهدته أنا وكلايد وأمي يذبل شهورًا عدة ... لكني لم أصدِّق الأمر، حتى بعد أن كان يرقد جثةً هامدة في التابوت ... أقمنا مراسمَ تأبين بسيطة في المقبرة، ولم يحضُرها سوى أصدقائنا من المزارع المجاورة، بالإضافة إلى ميكانيكي سيارات من مدينة دي كوين يُدعى ويلي تاونزند كان يحتسي الخمر مع أبي في بعض ليالي السبت.»

ابتسم ماكس وتحرَّر من التوتر العصبي الذي كان يشعر به. فهو يحب روايةَ القصص. استأنف يقول: «كان ويلي وغدًا عجوزًا طيبًا، لم يتزوج، كان صلبًا صلابةَ الحديد ظاهرًا ولكنه لينٌ كالأطفال باطنًا ... كانت الفتاة الأولى في حفلةِ لمِّ الشمل لطلاب مدرسة دي كوين الثانوية قد نبذته عندما كان شابًّا، ولم يرتبط بعدها بحبيبةٍ البتة ... وعلى أي حال، طلبت مني أمي أن ألقيَ كلمة عن أبي في جنازته، فوافقتها ... وكتبتها بنفسي وحفظتها جيدًا حتى إنني تدرَّبت على إلقائها مرةً أمام كلايد ...

عندما حان وقت مراسم التأبين كنت مستعدًّا لإلقاء كلمتي ... وبدأت قائلًا: «كان والدي هنري آلان باكيت رجلًا رائعًا.» ثم سكتُّ قليلًا كما خطَّطت، ونظرت حولي. كان ويلي يبكي بالفعل بصوتٍ مكتوم وينظر إلى الأرض ... وفجأة لم أستطِع تذكُّر ما كان من المفترض أن أقوله بعد ذلك! فوقفنا جميعًا تحت شمس آركنسو الحارقة لِما بدا دهرًا كاملًا، ولكنه على الأرجح لم يدُم إلا ثلاثين ثانية أو نحو ذلك ... ولم أتذكَّر مطلقًا باقي الكلمة التي ألقيتها. وفي النهاية جعلني الإحباط والخجل أقول: «آه، اللعنة!» فدوَّى صوت ويلي كالأجراس الجنائزية وهو يقول: «آمين!»»

ضحكت نيكول ثم قالت: «ماكس باكيت، أنت شخص لا مثيلَ له في أي مكان في هذا الكون.»

ارتسمت على وجهِ ماكس ابتسامة عريضة. وقال: «أمس عندما أويت أنا وفرنسيتي إلى الفراش كنا نتحدَّث عن نيكول الأخرى التي صنعتها المخلوقاتُ الفضائية لسيمون

ومايكل، وتساءلت إيب هل بإمكانهم صُنْع ماكس باكيت آليٍّ لها. راقت لها فكرةُ أن يكون لها زوجٌ مثالي يفعل دائمًا ما تطلبه … حتى في الليل … ضحِكنا حتى تعِبنا ونحن نحاول تخيُّل، تعرفين، ما يستطيع الإنسان الآلي فِعله وما لا يستطيع فِعله في الفراش …»

قالت نيكول: «عيبٌ عليك يا ماكس.»

قال ماكس: «في الواقع كانت فرنسيتي هي مَن أطلقت العِنان لخيالها … وعلى أي حال، لقد أُرسِلت إلى هنا لهدف محدَّد وهو أن أخبرك أنه سيُقدَّم الإفطار لنا في الغرفة المجاورة، في لفتة جميلة من المكعبات الآلية، وهذا جزءٌ من محاولتنا أن نودِّعك، أو نتمنى لك رحلةً سعيدة أو أيًّا كان التعبير المناسب. وأنه سيبدأ بالضبط بعد ثماني دقائق.»

سعِدت نيكول لرؤيتها الجو العام على الإفطار مبهجًا وسارًّا. وقد أكَّدت عدةَ مرات الليلة السابقة أن رحيلها يجب ألا يكون حدثًا يدعو للأسى، وأنه يجب الاحتفال به كنهاية لحياة رائعة. ويبدو أن عائلتها وأصدقاءها قد أخذوا ملاحظتها بصورة جِدية؛ إذ إنها لم ترَ الحزن مرتسمًا على وجوههم إلا من حين لآخر.

جلس إيلي وبينجي جانَبي نيكول إلى المائدة الطويلة التي أعدَّتها المكعبات الآلية. وإلى جوار إيلي نيكي ثم ماريا والدكتورة بلو. وعلى الجانب الآخر ماكس وإيبونين إلى جوار بينجي ثم ماريوس وكيبلر والرجل النسر. وفي أثناء تناول الطعام دهشت نيكول لملاحظتها أن ماريا تتحاور مع الدكتورة بلو. فقالت نيكول بنبرةِ مديح واضحة في صوتها: «لم أكن أعلم أنكِ تستطيعين قراءةَ الألوان يا ماريا.»

قالت الفتاة وقد شعرت بالخجل بعضَ الشيء من مجاملتها: «قليلًا. فقد كانت إيلي تعلِّمني.»

قالت نيكول معلِّقة: «هذا رائع.»

قال ماكس: «بالطبع إن الخبير اللغوي الحقيقي في هذه المجموعة هو ذلك الرجل الطائر الغريب الجالس إلى نهاية المائدة … حتى إننا رأيناه أمس يتحدَّث إلى الإجوانا بطقطقات وصيحات حادة غريبة.»

قالت نيكي: «يا إلهي! لن أودَّ التحدُّث إلى أيٍّ من هذه الكائنات الكريهة …»

قال الرجل النسر: «إن لديها طريقةً مختلفة تمامًا للنظر إلى العالم. نظرة بسيطة للغاية وبدائية للغاية.»

قالت إيبونين وهي تنحني للأمام وتخاطب الرجلَ النسر مباشرة: «ما أريد أن أعرفه هو ماذا عليَّ أن أفعل كي أحصلَ على رفيقٍ فضائي آلي. أريده يشبه ماكس، على ألا يكون عنيدًا ولديه بعض الصفات الأخرى الحسنة ...»

ضحِك الجميع. وابتسمت نيكول وهي تنظر حول المائدة. وفكَّرت: «يا له من جوٍّ مثالي! ما كنت لأتمنى وداعًا أفضلَ من هذا.»

بينما كانت نيكول ترتِّب حقيبتها أعطاها الرجل النسر والدكتورة بلو جرعةً أخيرةً من السائل الأزرق. كانت نيكول سعيدة لأنها حصلت على لحظة خاصة مع الدكتورة بلو لتودِّعها فيها. فلم تقُل نيكول وهي تعانق زميلتَها الأوكتوسبايدر إلا: «شكرًا لك على كل شيء!»

قالت الدكتورة بلو بالألوان: «سنفتقدك جميعًا. أرادت مسئولة الأمثلية الجديدة أن تنظِّم حفلَ وداعٍ كبيرًا ... لكني أخبرتها أني لا أرى هذا مناسبًا ... طلبت مني أن أودعك نيابةً عن باقي جنسنا.»

رافقوها جميعًا إلى حجرة معادلة الضغط. وكانت هناك جولةٌ أخيرة من العِناق التي توَّجتها ابتسامات وهي جالسة على كرسيها المتحرك، ثم عبَر الرجل النسر ونيكول حجرةَ معادلة الضغط.

تنهَّدت نيكول عندما رفعها الرجل النسر إلى مقعدها في المكُّوك وطوى الكرسي المتحرك.

قالت نيكول: «كانوا رائعين، أليس كذلك؟»

أجابها الرجل النسر: «إنهم يحبُّونك ويحترمونك كثيرًا.»

فور أن غادرا سفينةَ نجمة البحر كان الهرم الثلاثي المضيء يدور ببطء مرةً أخرى أمامهما. سألها الرجل النسر: «بمَ تشعرين؟»

قالت نيكول: «بالارتياح، وشيء من الخوف.»

قال الرجل النسر: «هذا متوقَّع.»

سألته نيكول: «كم تعتقد لدي من الوقت؟» وأضافت بعد ثوانٍ: «قبل أن يتوقف قلبي؟»

«من الصعب تحديدُ هذا.»

قالت نيكول بنفاد صبر: «أعلم، أعلم. ولكنكم علماء ... لا بد أنكم أجريتم بعض الإحصاءات ...»

قال الرجل النسر: «ما بين ست وعشر ساعات.»

فكَّرت نيكول في نفسها: «من ست إلى عشر ساعات سأكون ميتة.» أصبح إحساسها بالخوف أقوى. ولم تستطِع دفعه عن نفسها تمامًا.

سألت نيكول: «كيف هو الموت؟»

أجابها الرجل النسر: «ظننا أنكِ قد تسألين هذا السؤال. وقيل لنا إنه يشبه عمليةَ فصل الطاقة.»

قالت نيكول: «يصبح المرء عدمًا، للأبد؟»

«أظن هذا.»

قالت: «وعملية الاحتضار نفسها؟ هل هناك شيء استثنائي بها؟»

قال الرجل النسر: «لا نعرف. كنا نأمُل أن تمدينا بأكبر قدرٍ يمكنك من المعلومات.»

حلَّقا في صمتٍ فترةً طويلة من الوقت. وأمامهم كان حجم النود يكبُر بسرعة مع اقترابهما منها. وفي لحظةٍ غيَّرت مركبة الفضاء اتجاهها تغييرًا طفيفًا فاحتلت وحدةُ المعرفة منتصف النافذة. وفي أثناء اقترابهما الأخير منها كانت الرءوس الثلاثة الأخرى للنود أسفلهما.

قال الرجل النسر: «هل تسمحين لي أن أسألكِ سؤالًا؟»

أجابته: «بالطبع.» التفَتت إلى الفضائي وابتسمت له من وراء خوذتها. وقالت: «آمُل ألا تكون قد أصبحت خجولًا بعد كل ذلك الوقت.»

سأل الرجل النسر وهما يقتربان أكثرَ من الهرم الثلاثي المهيب: «لمَ تودين قضاءَ لحظاتك الأخيرة في وحدة المعرفة؟»

ضحكت نيكول. وقالت: «ها أنت ذا تلقي سؤالًا مبرمجًا لديك من قبل. وأستطيع بالفعل رؤيةَ إجابتي محفوظة في ملف ضخم يحمل اسم «الموت: الكائنات البشرية» والملفات الأخرى المرتبطة.»

لم يقُل الرجل النسر شيئًا.

قالت نيكول: «عندما احتُجِزتُ أنا وريتشارد في نيويورك قبل سنوات، ولم نظنَّ أن لدينا فرصةً للهرب، تحدَّثنا عما نود أن نفعله في اللحظات الأخيرة قبل موتنا. واتفقنا أن خيارنا الأول هو إقامة علاقة معًا. والخيار الثاني هو أن نتعلم شيئًا جديدًا، أن نشعر بإثارة الاكتشاف مرةً أخيرة ...»

قال الرجل النسر: «هذا مفهوم متطوِّر للغاية!»

قالت نيكول: «وعملي أيضًا. ستثير وحدة المعرفة الخاصة بكم اهتمامي، إلا إذا خانني الظن، بصورةٍ كافية حتى إنني لن أدرك أن عقارب الساعة تشير إلى الثواني الأخيرة من حياتي ... وإذا كنت منهمكة تمامًا في شيءٍ ما حتى النهاية، فربما لن يسيطر عليَّ الخوف من الموت.»

أصبحت وحدة المعرفة تملأ مجال رؤيتهم من النافذة بالكامل. فقال الرجل النسر: «قبل أن ندخل أودُّ أن أمنحك بعض المعلومات عن هذا المكان ... هذه الوحدة الكروية هي في الواقع ثلاثة نطاقات متَّحدة المركز لكلٍّ منها هدفٌ محدَّد. النطاق الخارجي، وهو الأصغر، معنيٌّ بالمعلومات المرتبطة بالحاضر، أو الحاضر القريب. والنطاق التالي إلى الداخل هو المكانُ الذي تُحفظ فيه جميع المعلومات التاريخية عن هذا الجزء من المجرَّة. وتحوي الكرةُ الداخلية الضخمة جميعَ نماذجِ توقُّع المستقبل، وكذلك السيناريوهات الإحصائية المحتمَلة للدهور القادمة ...»

قالت نيكول: «ظننت أنك لم تدخل إلى هناك قط.»

أجابها الرجل النسر: «لم أدخل بالفعل. ولكن جرى تحديثُ قاعدة البيانات لديَّ عن وحدة المعرفة وتوسيعها أمس ...»

انفتح بابٌ في السطح الخارجي من الكرة وبدأ المكُّوك في الدخول. فقالت نيكول: «دقيقة من فضلك! هل أستنتج أنني لن أغادر هذه الوحدة على قيد الحياة أبدًا.»

قال الرجل النسر: «نعم.»

«إذن هلا تدور من فضلك بهذه المركبة ببطء لتدعني ألقي نظرةً أخيرة على العالم الخارجي؟»

ناورَ المكُّوك مناورةً بطيئة لينحرف عن مساره، وحدَّقت نيكول وهي تشرئب إلى الأمام في مقعدها إلى خارج النافذة بثبات. رأت الوحدات الكروية الأخرى للنود، وممرات الانتقال، وعلى بُعد سفينة نجمة البحر حيث كانت عائلتها وأصدقاؤها يَعُدون حقائبهم للانتقال. وفي أحدِ الاتجاهات كان النجم الأصفر تاو سيتي الذي يشبه الشمس كثيرًا هو الكيانَ الكبير الوحيد البادي من النافذة، ومع تألُّقه والضوء الذي تبثُّه النود، لم تستطِع نيكول أن تتبيَّن سوى عدد قليل من النجوم الأخرى في ظلام الفضاء.

فكَّرت نيكول في نفسها: «لا شيء في هذا المشهد سيتغيَّر بموتي. كلُّ ما في الأمر أنه سيقل عدد الأعين التي تشاهد روعته بمقدار اثنتين. وسيقل عددُ الكائنات الواعية التي شكَّلتها موادُّ كيميائية والتي تتساءل عن فحوى هذا الأمر برُمَّته.»

قالت نيكول بعد أن انتهى الرجل النسر من دورته بالكامل: «شكرًا لك! يمكننا الآن أن نواصل تقدُّمنا.»

١١

كانت المركبات التي تدخل وحدةَ المعرفة من الفضاء وأنابيب الانتقال التي تصل من الوحدات الثلاث الأخرى، تنتهي جميعها في محطة طويلة غير متَّسعة تقع على أحدِ جانبي الممر الحلقي المحيط تمامًا بالكرة الضخمة في منتصفها.

قال الرجل النسر ورصيف متحرِّك ينقلهما بسرعة على طول الممر الحلقي: «هناك مدخلان فقط لكلٍّ من النطاقات الثلاثة المتحدة المركز لوحدة المعرفة يبعُد كلٌّ منهما عن الآخر مائة وثمانين درجة.» كان على يمينهما السطح الخارجي الشفاف للوحدة. وعلى يسارهما جدار أصفر اللون يخلو من النوافذ.

سألت نيكول على كرسيها المتحرك: «هل سأتمكَّن من نزع سترتي وخوذتي قريبًا.»

أجابها الرجل النسر: «نعم، بعد أن ندخل المعارض. كان عليَّ ترتيب جولة من نوعٍ ما، وفي هذه الأماكن لن تحتاجي إلى سترة الفضاء، فإنهم لم يستطيعوا تغييرَ مناخ الوحدة بالكامل بين عشية وضحاها.»

«إذن فقد اخترتَ بالفعل ما سنراه؟»

قال الرجل النسر: «لم يكن هناك مفرٌّ من هذا. فهذا المكان ضخم، أكبرُ بكثير من أحد نصفي الأسطوانة في راما، وهو يعجُّ بالمعلومات ... حاولت أن أصمِّم برنامجًا لرحلتنا اعتمادًا على معرفتي بالأشياء التي تثير اهتمامك والوقت المتاح لنا ... إذا اتضح أن هناك أشياءَ أخرى ...»

قالت نيكول: «كلا، كلا. أنا لا أعرف ماذا كنت لأطلب رؤيته. وأنا واثقة من أن ما فعلتَه مناسب ...»

اقترب من مكانٍ توقَّفت فيه الأرصفة المتحركة، وبه ممشًى واسع يمتد إلى اليسار. فقال الرجل النسر: «وبالمناسبة لم أشرح لك أن جولتنا محصورةٌ في المنطقتين الخارجيتين فقط ... فمنطقة التنبؤات غير مسموح لنا بدخولها.»

سألت نيكول وهي تشغِّل كرسيها المتحرك وتتحرَّك في الرواق إلى جوار الرجل النسر: «ولمَ ذلك؟»

قال: «لا أعلم عن يقين. ولكن هذا لا يهم، إذا كنتُ أفهم غرضك من الوجود هنا. فستكون هناك أشياءُ أكثر من كافية لتشغَلك في المنطقتين المتاحتين لنا.»

كان أمامهما جدارٌ عالٍ ليس عليه أي شيء. وما إن اقترب الرجل النسر ونيكول حتى فُتح بابٌ كبير في الجدار للداخل كاشفًا عن غرفة دائرية مرتفعة السطح في منتصفها كرةٌ يبلغ قطرها عشرة أمتار. كان جدار الغرفة وسقفها ممتلئين بتجهيزات أو أدوات صغيرة مثبَّتة وكثير من العلامات الغريبة. أخبر الرجل النسر نيكول أنه ليست لديه أيُّ فكرة عما يعنيه أيٌّ منها.

قال الفضائي: «ما قيل لي هو أنكِ ستحصلين على معلوماتٍ تمهيدية عن زيارتك لهذا النطاق داخل هذه الكرة أمامنا.»

انقسمت الكرة اللامعة إلى نصفين من منتصفها. وارتفع الجزء العلوي من الكرة المفرَّغة إلى الأعلى لمستوًى يسمح للرجل النسر ونيكول بالمرور أسفله إلى داخل الكرة. وفور أن دخلا عاد الجزء العلوي من الكرة إلى مكانه الأصلي وأحاطت الكرة بهما تمامًا.

لم يخيِّم الظلام أكثرَ من ثانية أو اثنتين. ثم أُضيئت أنوارٌ صغيرة متفرقة من جانب الكرة الذي يواجههما. فقالت نيكول معلِّقة: «تحوي هذه الكرة كثيرًا من التفاصيل.»

قال الرجل النسر: «ما ننظر إليه الآن هو نموذجٌ لهذا النطاق بالكامل. ونحن نراها وكأننا نقف في مركز وحدة المعلومات بالضبط، وكما أنه لا وجودَ لأي من المنطقتين الأخريين ... ستلاحظين من الطريقة التي ستُعرض بها الأشياء على طول السطح وأمامه، ليس فقط أمامنا وخلفنا وإنما أيضًا فوقنا وتحتنا، أنه لا شيء يدخل إلى المساحة الخاوية في المنتصف أكثرَ من مسافة ثابتة. ويقع الجدار الخارجي للنطاق المتَّحد المركز القادم في تلك النقطة من الوحدة «الحقيقية» ... والآن ستريك الأضواء على هذا النموذج إلى أين سنذهب في الساعات القليلة القادمة.»

فجأةً أصبح قطاعٌ كبير من سطح الكرة الداخلي المواجه لهما منارًا بأضواءٍ هادئة، نحو ثلاثين بالمائة من مساحة الكرة بالكامل.

قال الرجل النسر وهو يشير بحركة دائرية بيده: «كل شيء في المنطقة المضاءة يرتبط بالسفر عبْر الفضاء. وستقتصر رحلتنا على هذا الجزء من النطاق ... والأضواء الحمراء الوامضة على السطح أمامنا تبيِّن موضعنا الحالي ...»

وبينما كانت نيكول تشاهد تحرُّك شعاعٍ أحمر من الأضواء بسرعة إلى السطح وتوقف عند نقطة تعلو رأسها، حيث كانت هناك صورةٌ لمجرة درب التبانة. قال الرجل النسر

وهو يشير إلى حيث توقَّف شعاع الضوء: «سنذهب أولًا إلى قسم الجغرافيا ثم إلى الهندسة وأخيرًا إلى علم الأحياء ... وبعد استراحة قصيرة سنستأنف رحلتنا إلى النطاق الثاني ... هل لديك أيُّ أسئلة أخرى قبل أن نبدأ؟»

صعِدا لأعلى ما بدا أنه سطحٌ منحدِر في عربة صغيرة مشابهة لتلك التي استخدماها في الوحدة السكنية في أثناء زيارة نيكول لمايكل وسيمون. ومع أن الطريق أمامهما وخلفهما كان مضاءً فقد كان كل شيء إلى جوار العربة في ظلام دامس.

سألت نيكول بعد أن أمضيا عشر دقائق تقريبًا بالعربة: «ماذا يوجد حولنا؟»

قال الرجل النسر: «الجزء الأغلب مخازن بيانات، بالإضافة إلى بعض المعارض. ومحيطنا مظلِم حتى لا يتشتَّت انتباهك دون داعٍ.»

في النهاية توقَّفا إلى جوار بابٍ طويل آخر. فقال الرجل النسر وهو ينصب كرسيَّ نيكول المتحرك: «الغرفة التي على وشْك أن تدخليها هي أكبر غرفة في هذا النطاق. يبلغ عرضُها عند أكبر نقطة نصف كيلومتر. وبداخلها حاليًّا نموذجٌ لمجرة درب التبانة؟ وفور أن ندخل سنقف على منصةٍ متحركة يمكننا أن نأمرها لتأخذنا إلى أي نقطة في الغرفة ... وستكون مظلمة في الغالب بالداخل، وستكون هناك عروض وتصميمات فوقنا وتحتنا. قد تشعرين أنك ستسقطين، ولكن تذكَّري أنك ليس لك وزن ...»

كان المشهد من فوق المنصة بديعًا. حتى قبل أن يبدأ التحرك باتجاه منتصف الغرفة الشاسعة، كانت نيكول مبهورة تمامًا. كانت الأضواء التي تمثل النجوم متناثرةً في كل مكان في الظلام المحيط بهما. كانت توجد نجومٌ مفردة وفي مجموعات ثنائية وأخرى في مجموعات ثلاثية متَّحدة. ونجوم صفراء صغيرة ثابتة، وأخرى حمراء ضخمة، وكذلك أخرى بيضاء قزِمة، حتى إنهما مرَّا فوق نجم مستعِر أعظم ينفجر. في كل مكان وفي كل اتجاه حولهما كانا يريان شيئًا مختلفًا ومبهرًا.

بعد بضع دقائق أوقف الرجل النسر المنصة. وقال: «فكَّرت أن نبدأ من هنا، حيث تكون هذه المنطقة مألوفة لك.»

كان الرجل النسر يستخدم عصًا تشعُّ منها خيوطُ ضوء متعددة، فأشار بها إلى نجمٍ أصفر قريب. وقال: «هل تعرفين هذا المكان؟»

كانت نيكول لا تزال تحدِّق في الأضواء اللامتناهية في جميع الاتجاهات. فسألت: «هل توجد نماذج للمائة مليار نجم في المجرة جميعها في هذه الغرفة؟»

أجابها الرجل النسر: «لا. ما ترينه هنا هو جزء كبير من المجرة ... وسأشرح لك المزيد في غضون بضع دقائق عندما نذهب إلى قمة الغرفة حيث يمكننا النظرُ لأسفل على السطح المستوي في منتصف المجرة ... لقد أتيتُ بك إلى هذه النقطة بالتحديد لهدفٍ آخر.»

تعرَّفت نيكول الشمسَ، ومجموعةَ نجوم قنطورس الثلاثية أقرب جيرانها، وحتى نجم برنارد ونجم الشِّعرى اليمانية. ولم تستطِع تذكُّر أسماء معظم النجوم الأخرى المجاورة للشمس. لكنها تمكَّنت من تحديد نجم أصفر وحيد ليس ببعيد.

فسألت: «هل هذا تاو سيتي؟»

قال الرجل النسر: «نعم، بالفعل.»

فكَّرت نيكول في نفسها: «يبدو تاو سيتي قريبًا للغاية من الشمس، ولكنه في الحقيقة بعيدٌ جدًا عنها. وهذا يعني أن المجرة أكبرُ بكثير مما يمكن أن يتخيل أيٌّ منَّا.»

قال الرجل النسر كما لو أنه يقرأ أفكارها: «تبلغ المسافة من نجم الشمس إلى نجم تاو سيتي واحدًا على عشرة آلاف من كامل المسافة عبْر المجرة.»

هزَّت نيكول رأسها والمنصة تبدأ في التحرُّك بعيدًا عن الشمس وتاو سيتي. وفكَّرت: «هناك أكثرُ مما تخيَّلت بكثير في الكون، حتى رحلاتي كانت في منطقة صغيرة ضئيلة من الفضاء.»

سلَّط الرجل النسر الضوء بعيدًا عن المنصة المتحركة إلى يمين نيكول على خطٍّ ثلاثي الأبعاد يتَّخذ شكلَ مجسَّم على شكل مثلَّث. وبالتحكم بالجهاز الأسود الذي يحمله في يده جعل حجمَ المجسَّم أكبر وأصغر بالتعاقب.

قال الرجل النسر: «هناك كثيرٌ من الطُّرق المختلفة للتحكم فيما يُعرض في هذه الغرفة. وباستخدام هذا الجهاز يمكننا تغييرُ حجم الأجرام المعروضة، والاقتراب من أي منقطة معينة من المجرة ... دعيني أريك. افترضي أني وضعتُ الضوء الأحمر هنا، في منتصف سديم الجوزاء. هذا يمثِّل الموضع المبدئي المطلوب للمنصة. والآن دعيني أبسِط هذا الشكل الهندسي ليضمَّ نحو ألف نجم ... الآن، فماذا سنرى؟!»

خيَّم ظلام دامس على الغرفة مدة ثانية تقريبًا. ثم فجأة انبهرت نيكول مرةً أخرى، ولكن هذه المرة بمجموعة مختلفة من الأضواء. كانت النجوم المفردة والمجموعات النجمية أكثرَ تحديدًا ووضوحًا. شرح الرجل النسر أن الغرفة بأكملها تنقل صورًا الآن من داخل سديم الجوزاء، وأن أطول بُعد للغرفة يكافئ الآن بضع مئات من السنوات الضوئية بدلًا من ستين ألف سنة ضوئية كما كان من قبل.»

قال الرجل النسر: «تُعَد هذه المنطقة بالتحديد مهدًا للنجوم حيث تُولد النجوم والكواكب.» ثم حرَّك المنصة باتجاه اليمين. وقال: «هنا على سبيل المثال، نظام نجمي وليد، في المراحل الأولى لتكوُّنه، ويتمتَّع بكثير من الخصائص التي كانت لدى نظامكم الشمسي قبل أربعة مليارات عام ونصف.»

ثم رسم شكلًا مجسمًا صغيرًا حول واحد من النجوم وبعد بضعِ ثوانٍ امتلأت الغرفة بضوء شمس صغيرة. شاهدت نيكول عاصفةً شمسية ضخمة تتحرك عبْر السطح المضطرب. وارتفع انفجارٌ على شكل هالة فوق رأسها، وينطلق منه شعاعان من اللونين البرتقالي والأحمر إلى ظلمة الفضاء.

أدار الرجل النسر المنصةَ باتجاه جسم بعيد أصغر كثيرًا من سابقه، يتكوَّن من عشرة تراكمات تقريبًا من الكتلة التي يمكن تعرُّفُها في المناطق التي تحيط بالنجم الصغير عن قُرب. كان هذا الكوكب بالتحديد له سطح متوهِّج يميل إلى اللون الأحمر. وبينما كانا يشاهدان ارتطم جسمٌ ضخم يهوي في السائل الساخن، ليقذف مادةً من السطح ويسبِّب موجةً عنيفة في جميع الاتجاهات.

قال الرجل النسر: «وفقًا لبياناتنا الإحصائية يوجد احتمال لا يُستهان به أن حياةً ستنشأ على هذا الكوكب بعد بضعة مليارات من السنين من التطوُّر، فور أن تنتهيَ فترةُ سقوط الأجسام والتكوين هذه. وسيدور حوله نجمٌ واحد مستقر، ويكون له غلاف جوي يحظى باختلافات مناخية وافية لنشوء حياة، بالإضافة إلى جميع المقوِّمات الكيميائية … انظري بنفسك، هنا. أبقي عينيك على ذلك الكوكب. سأشغِّل برنامجًا خاصًّا سيمر بسرعة على النصف السفلي من الجدول الدوري، وسيعرض بياناتٍ كمية عن العدد النسبي للذرات من كل العناصر الموجودة في تلك الكتلة المستعرة …»

ظهر عرضٌ بصري مبهر في الظلام فوق الكوكب الوليد. كان مشارًا إلى كل ذرة منفصلة موجودة في كتلة الكوكب بلونٍ محدَّد، وعدد النيترونات والبروتونات بها. وحجم الذَّرة يوضِّح مقدارها النسبي في المزيج. قال الرجل النسر: «لاحظي أن هناك كثافاتٍ كبيرة للكربون والنيتروجين والهالوجين والحديد. وهذه هي الذرات المهمة. وقد أوجدها جميعها انفجارٌ نجمي قريب في وقتٍ ليس ببعيد، وأثرى احتمالات تكوُّن هذا الجسم الوليد … فمن دون الكيمياء المعقَّدة لا يمكن أن تكون هناك حياة فعَّالة … فعلى سبيل المثال، إذا لم يكن الحديد متاحًا كي يكوِّن الذرة الأساسية للهيموجلوبين على كوكبكم، فسيكون نظام توزيع الأكسجين لكثير من أشكال الحياة المتقدمة غيرَ فعَّال بصورة أكبر بكثير …»

فكَّرت نيكول في نفسها: «إذنْ فالعملية مستمرة، دهرًا بعد دهر. تتكوَّن النجوم والكواكب من الغبار الكوني، وعدد قليل من الكواكب هي التي تحتوي على المواد الكيميائية الصحيحة التي قد تؤدي في النهاية إلى نشوء الحياة والكائنات العاقلة. ولكن ما الذي ينظِّم هذه العملية؟ ما اليد الخفية التي تجعل هذه المواد الكيميائية تزداد بِنيتُها تعقيدًا وتركيبًا أكثرَ فأكثرَ بمرور الوقت حتى تصل إلى مرحلةِ إدراك الذات؟ هل هناك قانونٌ طبيعي لم يُصَغ بعدُ يتناول تنظيمَ المادة لنفسها وفقًا لقواعد محدَّدة؟»

كان الرجل النسر حينها يشرح كيف أنه من غير المحتمل أن تنشأ حياةٌ في نُظم نجمية تحتوي على ذرات بسيطة فقط مثل الهيدروجين والهليوم، ولا تحتوي على أيٍّ من الذرات الأكثر تعقيدًا والأعلى في الترتيب بالجدول الدوري، التي تكوَّنت بنهاية نجوم في انفجارات نجمية. بدأ يغلب على نيكول شعورٌ قوي بضآلتها. كانت تتوق لشيء بالمقاييس البشرية.

قالت نيكول فجأة: «إلى أي حدٍّ يمكنك أن تجعل هذه الغرفة تنكمش؟» ثم ضحِكت على أسلوبها غير الملائم في التعبير. واستطردت: «كي أكون أكثر دقةً: ما أقصى حدٍّ للدقة في هذا النظام؟»

قال الرجل النسر: «أدقُّ مستوًى ممكن من التفصيل يكون على مقياسٍ يبلغ أربعة آلاف وست وتسعين إلى واحد. وفي المقابل يمكننا عرض مشهد يشمل أكثرَ من مجرة بأقصى بُعد يصل إلى خمسين مليون سنة ضوئية ... وتذكَّري أن اهتمامنا بالأنشطة خارج المجرة محدود ...»

كانت نيكول تُجري بعض العمليات الحسابية في عقلها. ثم قالت: «نظرًا لأن أطولَ بُعد لهذه الغرفة هو نصف كيلو متر، فعلى أعلى مستوى من التفاصيل يمكن أن تحتلَّ قطعة أرض مساحتها ألفا كيلومتر تقريبًا هذه الغرفة.»

قال الرجل النسر: «هذا صحيح. ولكن لمَ تسألين؟»

ازدادت نيكول حماسةً وسألته: «هل يمكننا الاقترابُ من الأرض؟ هل يمكن أن تجعلني أحلِّق فوق فرنسا؟»

أجابها الرجل النسر بعد التردُّد فترةً قصيرة: «نعم، أظن هذا. مع أن هذا ليس ما خطَّطت له.»

«سيعني هذا كثيرًا لي.»

قال الرجل النسر: «حسنًا، سنستغرق بضع ثوانٍ في إعداد المشهد ...»

بدأت الرحلة الجوية فوق القناة الإنجليزية. كان الرجل النسر ونيكول يجلسان على المنصة في قمة الغرفة المظلمة ثلاثَ ثوانٍ تقريبًا عندما انفجرت الأضواء من أسفلهما. بعد أن تكيَّفت عينا نيكول مع الضوء في النهاية، تعرَّفت المياهَ الزرقاء أسفلهما وهيئةَ ساحل نورماندي. وبعيدًا، كان نهر السين يصب في القناة.

طلبت نيكول من الرجل النسر أن يجعل المنصةَ ترتكز فوق مصبِّ نهر السين ثم يتحرَّك ببطء باتجاه باريس. أثار مشهد التضاريس المألوفة مشاعرَ قوية داخل نيكول. تذكَّرت بوضوح أيامَ شبابها عندما كانت تتجول خاليةَ البال في هذه المنطقة مع والدها الحبيب.

كان النموذج أسفلهم بديعًا. بل كان ثلاثيَّ الأبعاد عندما تخطَّت أحجامُ التضاريس الجغرافية والمباني أسفلهم حدودَ وضوح النظام الفضائي. وفي روان كانت الكنيسة الشهيرة التي تخلَّت فيها جان دارك عن تعاليمها مؤقتًا، وكانت الكنيسة تبلغ من الطول سنتيمترين ومن الارتفاع نصف سنتيمتر. وبعيدًا في اتجاه باريس استطاعت نيكول أن ترى الشكلَ المألوف لقوس النصر مرتفعًا من سطح النموذج.

وعندما وصلا إلى باريس حامت المنصة بضع ثوانٍ فوق الحي السادس عشر. ووقعت عينا نيكول هنيهةً على مبنًى بعينه أسفلها. كان قاعة مؤتمرات حديثة، وقد ذكَّرتها رؤيةُ ذلك المبنى بلحظةٍ مؤثِّرة بصورة خاصة من حياتها وهي مراهقة. سمِعت صوتَ أبيها يقول كلماته مرة أخرى: «إلى ابنتي الغالية نيكول، وإلى جميع شباب العالم، أقدِّم لكم فكرة بسيطة.» كان والدها على وشْك الانتهاء من خطابه الذي ألقاه وهو يتسلَّم جائزة ماري رينو. وكان يقول: «لقد أدركتُ في حياتي أن هناك شيئين لا يقدَّران بثَمن: التعلُّم والحب. لا شيء آخر، لا الشهرة ولا النفوذ ولا الإنجاز في حد ذاته، يمكن أن يكون له القيمة الدائمة نفسها.»

وملأت عقل نيكول صورة لوالدها. فقالت في نفسها: «شكرًا لك يا أبي! شكرًا لك للاعتناء بي هذا الاعتناء بعد أن ماتت أمي. شكرًا لك على كل شيء علمتني إياه.»

دفع شعورُ نيكول القوي والمؤلم بالاشتياق بالدموع إلى عيني نيكول. وللحظة عادت طفلةً مرة أخرى وأرادت بشدة التحدُّث إلى والدها عن موتها الوشيك. وببطء قاومت نيكول عن عمدٍ المشاعرَ التي هدَّدت بالسيطرة عليها. وقالت في نفسها بصعوبة: «ليس هذا ما أردت أن أشعر به الآن. أردت أن أترك كلَّ هذا ورائي ...»

وأشاحت وجهها بعيدًا عن نموذج فرنسا أسفلها.

فسألها الرجل النسر: «ما الأمر؟»

أجبرت نيكول نفسَها على الابتسام. وقالت: «أريد رؤيةَ شيء آخر ... شيئًا مثيرًا ... وجديدًا. ما رأيك بمدينة لكائنات الأوكتوسبايدر؟»

قال الرجل النسر: «هل أنتِ واثقة؟»

أومأت نيكول برأسها موافقة.

أظلمت الغرفة على الفور. وبعد ثانيتين، عندما استدارت نيكول لمواجهة الضوء كانت المنصة تحلِّق فوق محيط شاسع لونه أخضر داكن.

سألت: «أين نحن؟ وإلى أين نتجه؟»

أجابها الرجل النسر: «إننا الآن على بُعد ثلاثين سنة ضوئية تقريبًا من شمسكم، إننا فوق أولِ كوكب محيطي سكنَته كائناتُ الأوكتوسبايدر بعد اختفاء السلف ... إننا كما هو واضح فوق البحر على بُعد مائتي كيلومتر تقريبًا من أشهر مدن كائنات الأوكتوسبايدر.»

شعرَت نيكول بالإثارة تموج بداخلها والمنصة تقترب من البحر وتمرُّ فوقه. واستطاعت بالفعل أن ترى بعيدًا ظلالًا غيرَ واضحة لبعض المباني. وتخيَّلت لحظةً أنها مسافِرة في مغامرةٍ عبْر الفضاء تصل إلى هذا الكوكب للمرة الأولى وتتوق لرؤية عجائب المدينة الخرافية التي وصفها مسافرون آخرون بين النجوم.

قالت نيكول في نفسها: «هذا مذهل.» وجَّهت انتباهها مؤقتًا للمحيط أسفلها. وسألت الرجل النسر: «لمَ لون هذه المياه أخضر بهذا الشكل؟»

«يحوي السطح وما تحته بمسافة متر من هذا الجزء من المحيط نظامًا بيئيًّا ثريًّا لا يوجد له مثيل، ويهيمن عليه جنسٌ خاص من النباتات التي تمارس عملية البناء الضوئي، وتوفِّر أنواعه المختلفة، وجميعها خضراء اللون، المسكن والطعام لما يقرُب من عشرة ملايين من الكائنات المنفصلة ... وبعض النباتات المنفردة تغطي أكثرَ من كيلومتر مربع من المنطقة ... والسلف هم مَن أنشئوا هذه المنطقة في الأساس ... وعثرت عليها كائنات الأوكتوسبايدر وأدخلت عليها تحسيناتٍ ...»

عندما نظرت نيكول لأعلى كانت المنصة المسرعة على وشْك الوصول إلى المدينة. كانت هناك مئاتٌ من المباني المختلفة الأشكال والأحجام منتشرة أسفلهما. وكانت معظم مباني مدينة كائنات الأوكتوسبايدر مشيَّدةً على اليابسة، وبدا بعضها طافيًا على الماء. وأكثر تجمعات تلك المباني كثافة كانت تلك الموجودة بطول شبه جزيرة صغيرة تمتد مسافةً قصيرة إلى داخل البحر. وتوجد في نهاية شبه الجزيرة ثلاث قباب خضراء ضخمة قريبة جدًّا من بعضها حتى إنها كانت تسيطر على سماء المدينة.

وكان يحدُّ المدينة دائرةٌ خارجية واسعة شكَّلتها ثماني قباب أصغرَ حجمًا، وكلٌّ منها يرتبط بالقباب الرئيسية من خلال أنابيب لوسائل التنقل. وكان لكل قبَّة خارجية لون مختلف يميزها، وكانت جميع المباني تقريبًا في الجزء المحيط بقبة خارجية من المدينة مطليةً باللون نفسه. على سبيل المثال، كان بالقبة الحمراء اللامعة هناك في المحيط ثمانية نتوءات حمراء رفيعة طويلة تمثِّل المباني الأخرى تمتد إلى الخارج منها في شكل هندسي منتظم.

كانت جميع مباني المدينة تقع داخل الدائرة المحدَّدة بالقباب الثماني الملوَّنة. وأول مبنًى أُعجبت به نيكول على الفور هو مبنًى غريبُ الشكل بنِّي اللون يطفو على الماء. بدا تقريبًا في حجم القباب المركزية الضخمة. ومن أعلى كان المبنى مستطيلَ الشكل يبدو محاطًا بعشرين طبقة من الشبكات الكثيفة، مع وجودِ مادة من أعشاش الطيور تملأ المناطقَ المفتوحة داخل كلٍّ من المئات من الخلايا.

سألت نيكول وهي تشير من فوق المنصة: «ما هذا؟»

أجابها الرجل النسر: «كائنات الأوكتوسبايدر هذه تحديدًا أحرزت تقدُّمًا كبيرًا في علم الأحياء الدقيقة. وذلك المبنى — الذي يمتد بالمناسبة عشرةَ أمتار أخرى في أعماق المحيط — يحتوي على أكثرَ من ألف موطن مختلف لأجناسٍ في حجم الميكرومتر ... وما تنظرين إليه الآن ليس إلا محطة إمداد تحتوي على الأفراد الزائدين لكلٍّ من هذه المخلوقات الدقيقة. وكائنات الأوكتوسبايدر التي تحتاج أيًّا من هذه المخلوقات تأتي إلى هذا المبنى وتطلب الحصول عليها.»

أخذت عينا نيكول تتأمَّلان المعمارَ غير المألوف أسفلها. وخُيِّل إليها أنها تسيرُ في الشوارع وتنظر حولها في دهشة إلى أجناس مختلفة من الكائنات أكبرَ بكثيرٍ من المخلوقات التي رأتها في معرض الحيوانات بمدينة الزمرد. وقالت لنفسها: «أريد أن أذهب إلى هناك. أريد أن أرى ...»

طلبَت من الرجل النسر أن يحرِّك المنصة مباشرةً فوق إحدى هذه القباب الخضراء الضخمة. وسألت: «هل داخل هذه القبة يشبه ما كان في مدينة الزمرد؟»

أجابها الرجل النسر: «ليس صحيحًا. فالمقياس مختلف تمامًا ... فمملكة كائنات الأوكتوسبايدر في راما كانت عالمًا صغيرًا مضغوطًا. فالأقسام التي كان يفصل بينها في الطبيعة على كوكبهم مئاتُ الكيلومترات أصبحت موجودة في المكان نفسه قسرًا، نظرًا لمحدودية المكان ... فعلى سبيل المثال، في المستعمرات المتقدِّمة لجنس الأوكتوسبايدر، سكان الموطن البديل ليس لهم مجتمع خارج أبواب المدينة، إنها تعيش على كوكب مختلف تمامًا.»

ابتسمت نيكول. وفكَّرت في نفسها: «كوكب مليء بسكان الموطن البديل. سيكون هذا شيء جديرًا بالمشاهدة.»

قال الرجل النسر: «هذه المدينة بالتحديد موطنٌ لأكثر من ثمانية عشر مليون أوكتوسبايدر، إذا ما أحصينا جميعَ أشكالها المختلفة. وهي العاصمة الإدارية لهذا الكوكب أيضًا. ويعيش داخل أبواب المدينة ما يقرُب من عشرة مليارات كائن يمثِّلون خمسين ألف جنس ... وتساوي مساحة هذه المدينة مساحةَ لوس أنجلوس تقريبًا أو مدينة ضخمة على أرضكم ...»

واصل الرجل النسر سردَه لحقائق وإحصائيات عن مدينة كائنات الأوكتوسبايدر أسفل المنصة. إلا أن نيكول كانت تفكر في شيء آخر. فقالت مقاطِعة حديث رفيقها الفضائي المليء بالمعلومات: «هل كان آرشي يعيش هنا؟ أو الدكتورة بلو أو أيٌّ من كائنات الأوكتوسبايدر التي قابلناها؟»

أجابها الرجل النسر: «كلا. في الحقيقة إنهم ليسوا من هذا الكوكب أو من هذا النظام النجمي ... فكائنات الأوكتوسبايدر في راما تأتي مما يُعرف باسم «مستعمرة الحدود»، وهي مستعمرة مصمَّمة جينيًّا لتنتج أفرادًا للتعامل مع أشكال الحياة العاقلة الأخرى خاصة ...»

هزَّت نيكول رأسها وابتسمت. وقالت في نفسها: «بالطبع، كان لا بد أن أشكَّ أنهم حالةٌ خاصة.»

بدأت نيكول تشعر بالتَّعب. بعد بضع دقائقَ أخرى شكرت الرجل النسر، وقالت إنها رأت ما يكفي من مدينة كائنات الأوكتوسبايدر. وفي لحظةٍ اختفت القباب والمبنى الشبكي البني والبحر الأخضر العميق. وأعاد الرجل النسر المنصةَ إلى قمة الغرفة الضخمة.

وأسفل نيكول كانت مجرة درب التبانة مقصورةً على مساحة صغيرة في منتصف الغرفة. وقال الرجل النسر: «إن الكون سلسلة ستستمر في التوسُّع للأبد من المناطق المجاورة والفراغ. انظري كم هو خاوٍ حول درب التبانة. ففيما عدا سحابتي ماجلان، اللتين لا تعدوان في الواقع أن تكونا مجرات، فإن أندروميدا هي أقربُ مجرة لنا. ولكنها بعيدة جدًّا. فأطول بُعد لمجرة درب التبانة يساوي واحدًا على عشرين من المسافة إلى أندروميدا.»

لم تكن نيكول تفكِّر في أندروميدا. فقد كانت مستغرِقة تمامًا في تفكيرٍ فلسفي ممتع عن الحياة في عوالمَ مختلفة، وعن المدن، وعن العدد المحتمَل للكائنات التي تكوَّنت من

ذرات بسيطة مرَّت بتطور، بمساعدة كائناتٍ أعلى منها أو من دونها، إلى كائنات واعية. واستمتعت باللحظة وهي تعرف أنه قريبًا للغاية لن يكون هناك مزيدٌ من تحليق الخيال الذي طالما أثرى حياتها.

١٢

قال الرجل النسر بعد أن انتهى من فحص نيكول: «لقد قضينا وقتًا طويلًا للغاية في ذلك المعرض، وأرى أننا ربما نحتاج إلى مراجعة جدول جولتنا.»

كانا جالسَين متجاورين في العربة. فسألت نيكول وهي تجبِر نفسَها على الابتسام: «هل هذه هي طريقتك الدبلوماسية لتخبرني أن قلبي يتوقف عن العمل أسرعَ مما توقَّعت؟»

فقال الرجل النسر: «لا، ليس صحيحًا. لقد قضينا بالفعل ضِعف الوقت الذي خطَّطت له تقريبًا … فأنا لم أضَع في اعتباري على سبيل المثال، التحليق فوق فرنسا أو زيارة مدينة كائنات أوكتوسبايدر …»

قالت نيكول: «كان ذلك الجزء رائعًا، وأتمنى لو أستطيع الذهابَ إلى هناك مرة أخرى، وتكون الدكتورة بلو هي مرشدتي، وأكتشف المزيد عن طريقة حياتهم …»

«إذن فقد أحببت مدينةَ كائنات الأوكتوسبايدر أكثرَ من مشاهد النجوم المبهرة؟»

أجابته نيكول: «لم أكن لأقول هذا. كان الأمر برُمَّته بديعًا … وما رأيته بالفعل أكَّد لي مرة أخرى، أني اخترت المكان المناسب كي …» لم تنهِ نيكول جملتها. وقالت: «أدركتُ عندما كنتُ على المنصة أن الموت ليس نهاية التفكير والوعي، لكنه أيضًا نهاية الشعور … لا أدري لمَ لمْ يكن ذلك واضحًا لي من قبل.»

خيَّم صمتٌ قصير عليهما. ثم قالت نيكول بابتهاج: «إلى أين نتجه من هنا يا صديقي؟»

«فكَّرت أن نذهب إلى قسم الهندسة، حيث يمكن أن تري نماذجَ لمنشآت النود والحاملات وغيرها من المركبات الفضائية. وبعدها، إذا كان لا يزال لدينا ما يكفي من الوقت، أخطِّط أن أصطحبك إلى قسم الأحياء. فبعض أحفادك الذين وُلدوا خارج الرحم يعيشون في تلك المنطقة، في أحد أفضل المستوطنات التي تشبه الأرض. وبالقرب منه مجمعٌ آخر يضم جماعةً من الإنقليس، أو الثعابين المائية الساحرة، التي صادفناها معًا مرة في النود. وهناك عرضٌ تصنيفي يقارن ويفاضل، من الناحية البدنية، بين جميع الكائنات التي تسافر عبْر الفضاء التي درسناها في هذه المنطقة …»

قالت نيكول: «يبدو هذا عظيمًا.» ثم ضحِكت فجأة. وقالت: «العقل البشري مدهش ... خمِّن ماذا طرأ على ذهني الآن؟ إنه أول بيت في قصيدة أندرو مارفيل «إلى حبيبته الخجلى» ... قال فيه: «لو أُتيح لنا ما يكفي من الوقتِ ما كان هذا الخجل يا سيدتي ليكون مشكلة،» على أي حال، كنت سأقول نظرًا لأنه ليس أمامنا وقت للأبد، لِنذهب أولًا لنرى عرْض الحاملة. فأنا أود أن أرى المركبة الفضائية التي سيعيش فيها باتريك وناي وجاليليو والآخرون ... ثم نرى كم تبقَّى لنا من الوقت.»

بدأت العربة تتحرَّك، ولاحظت نيكول أن الرجل النسر لم يقُل شيئًا عن نتائج الفحص. فعاد الخوف يتسلل إلى نفسها أقوى هذه المرة وتذكَّرت: «القبر مكانٌ خصوصي ومريح. ولكن على ما أظن لن يكون أحدٌ هناك ليعانقني.»

كانا معًا على السطح المستوي لنموذج الحاملة. فقال الرجل النسر: «هذا نموذج بمقياس واحد إلى أربعة وستين، ومن ثَم يمكنك استنتاج حجم الحاملة الحقيقية.»

حدَّقت نيكول في الأفق من كرسيها المتحرك. وقالت: «يا إلهي! لا بد أن طول هذه السفينة كيلومتر.»

قال الرجل النسر: «هذا تخمين جيد. فطول سطح الحاملة الحقيقية يساوي أربعين كيلومترًا تقريبًا وعرضه خمسة عشر كيلومترًا.»

«وتحوي كلٌّ من تلك الفقاعات بيئةً مختلفة؟»

قال الرجل النسر: «نعم. ويجري التحكُّم في الغلاف الجوي والظروف الأخرى عن طريق الأدوات الموجودة هنا على السطح، بالإضافة إلى النُّظم الهندسية الإضافية الموجودة بالأسفل في جسم المركبة الفضائية الرئيسي ... وكل موطن لديه معدَّل الدوران الخاص به لإحداث الجاذبية المناسبة ... وهناك حواجزُ لفصل الأجناس داخل إحدى الفقاعات، إذا كان ذلك ضروريًّا. وقد وضع السكان القادمون من سفينة نجمة البحر في الجزء نفسِه لأنهم يشعرون بالراحة في البيئة المعيشية نفسِها تقريبًا. ولكنهم لا يستطيعون الوصولَ إلى بعض.»

كانا يتحرَّكان في طريقٍ بين أماكن الأجهزة والفقاعات. فقالت نيكول وهي تفحص نتوءًا بيضاويًّا صغيرًا يرتفع فوق السطح المستوي لمسافة لا تزيد عن خمسة أمتار: «تبدو بعض هذه المواطن صغيرةً للغاية ولا تكاد تكفي لاستيعاب أكثر من بضعة أفراد ...»

قال الرجل النسر: «هناك بعض الكائنات الضئيلة الحجم للغاية التي تسافر عبْر الفضاء. إحداها يبلغ طوله ملِّيمترًا تقريبًا، وموطنها نظامٌ نجمي ليس ببعيد للغاية عن نظامكم، بل لا يصل حجم أكبر مركبة فضاء لديهم إلى حجم هذه العربة.»

حاولت نيكول أن تتخيَّل مجموعة عاقلة من النمل أو المن تعمل معًا لبناء مركبة فضاء. وابتسمت على الصورة التي تولَّدت في عقلها.

ثم سألت مغيِّرة دفةَ الحوار: «وجميع هذه الحاملات تسافر من نود إلى نود؟»

قال الرجل النسر: «في المقام الأول. وعندما لا يعود هناك أي كائنات حية في فقاعة من الفقاعات، يُجَدَّد هذا الموطن على واحدة من منشآت النود.»

قالت نيكول: «مثل راما؟»

قال الرجل النسر: «نوعًا ما، ولكن مع كثير من الاختلافات المهمة. إننا دائمًا ندرُس بإمعان الكائنات الموجودة داخل مركبة فضائية بمستوى راما. ونحاول أن نضعها في بيئةٍ واقعية قدْر الإمكان؛ ليكون بإمكاننا مراقبتها في ظل «ظروف طبيعية». وفي المقابل لا نحتاج إلى أي بيانات أخرى عن الكائنات التي تقرَّر نقلُها إلى أسطول الحاملات. لهذا لا نتدخَّل في شئونهم.»

«فيما عدا تدخُّلكم لمنع التكاثر ... وبالمناسبة هل منْعُ التكاثر في نسقكم القيمي أكثرُ رحمةً بطريقةٍ ما، أو أيًّا كانت الكلمة النظيرة لها عندكم، من إنهاء حياة الكائنات مباشرة؟»

أجابها الرجل النسر: «هذا ما نراه.»

وصلا إلى موقعٍ على قمة نموذج الحاملة حيث يتفرَّع ممرٌّ إلى اليسار عائدًا إلى منحدراتٍ وأروقة وحدة المعرفة. قالت نيكول: «أظن أني حقَّقت ما أريد هنا.» ثم تردَّدت لحظة. وقالت: «ولكن لديَّ بضع أسئلة أخرى.»

قال الرجل النسر: «تفضَّلي.»

«على افتراض أن وصْفَ القديس مايكل السييني للغرض من وجود راما والنود وكل شيء آخر صحيحٌ، ألا ترى أنك تؤثِّر على العملية التي تشرف عليها وتغيِّر فيها؟ يبدو لي أن مجرد وجودنا هنا وتفاعلنا ...»

قال الرجل النسر: «إنك على حق بالطبع. إن وجودنا هنا يؤثِّر بالفعل تأثيرًا طفيفًا على مسار التطور. إنه موقفٌ يشبه مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج في الفيزياء ... لا يمكننا المراقبة دون إحداث تأثير ... إلا أن المراقب الرئيسي يضع تدخُّلنا في اعتباره، ويحسُب

تأثيره في النموذج الشامل للعملية. ولدينا بالفعل قواعدُ تقلل من الطُّرق التي نشوِّش بها على التطور الطبيعي ...»

قالت نيكول: «أتمنَّى لو كان ريتشارد معي ليسمع تفسيرَ القديس مايكل لكل شيء. كان سينبهر تمامًا، وأنا واثقة أنه كان سيطرح بعض الأسئلة الممتازة.»

لم يعقِّب الرجل النسر. فتنهَّدت نيكول. وقالت: «إذن ماذا بعد ذلك يا سيدي مُشرِف الجولة؟»

قال الرجل النسر: «الغداء. بالعربة شطيرتان وماء وقطعة لذيذة من فاكهتك المفضَّلة التي تذوقتها لدى كائنات الأوكتوسبايدر في العربة.»

ضحِكت نيكول وأدارت كرسيَّها المتحرِّك إلى الممر. وقالت: «إنك تفكِّر في كل شيء.»

قالت نيكول والرجل النسر يكمل فحصًا آخرَ لها: «لم يكن ريتشارد يؤمن بوجود الجنة. ولكن إذا كان بإمكانه إقامة حياته الآخرة المثالية، فستشمل — ولا شك — مكانًا كهذا.»

كان الرجل النسر يتأمَّل العلامات الغريبة على الشاشة في يده. قال وهو ينظر إلى نيكول: «أظن أنها ستكون فكرةً جيدة أن نفوِّت بعض أجزاء الجولة ... ونتَّجه مباشرة إلى أهم المعارض في النطاق التالي.»

قالت نيكول: «وضعي سيئ لهذه الدرجة؟» لم تكن متفاجئة. فالألم المتقطِّع الذي شعرت به في صدرها قبل زيارة فرنسا ومدينة كائنات الأوكتوسبايدر أصبح مستمرًّا.

وأصبح الخوف داخلها مستمرًّا أيضًا. فبين كل كلمة وكل فكرة كانت تدرك بقوة أن الموت ليس ببعيد عنها. سألت نيكول نفسها: «ما الذي تخشينه إذن؟ كيف يمكن أن يكون الانعدام سيئًا إلى هذا الحدِّ؟» ولكن استمر الخوف داخلها.

شرح لها الرجل النسر أنه لا يوجد وقتٌ كافٍ للحصول على رحلة مبدئية للنطاق الثاني. فمرَّا عبْر البوابات إلى الكرة الثانية من الكرات المتحدة المركز وسارا بالعربة عشر دقائق تقريبًا. وقال الرجل النسر وهو يقود: «يُعنى هذا النطاق بالطريقة التي يتغيَّر بها كلُّ شيء بمرور الوقت. هناك قسمٌ منفصل لكل عنصر يمكنك تخيُّله في المجرة ويتأثَّر بالتطور الشامل للمجرة ويؤثِّر فيه ... رأيت أنك ستهتمين اهتمامًا خاصًّا بالمعرض الأول.»

كانت الغرفة مشابهة لتلك التي شاهد فيها الرجل النسر ونيكول دربَ التبانة في المرة الأولى، فيما عدا أنها كانت أصغر كثيرًا. ومرة أخرى استقلَّا منصةً متحركة تسمح لهم بالتحرك في الغرفة المظلمة.

قال الرجل النسر: «ما ستشاهدينه يتطلَّب بعض الشرح. إنه ملخَّص بصور مأخوذة على مدار فترة زمنية طويلة لتطوُّر حضارات كائنات مسافرة عبْر الفضاء في المجرة التي تضم شمسكم ونحو عشرة ملايين نظام نجمي آخر. وهذا تقريبًا واحد على عشرة آلاف من المجرة بأكملها، ولكن ما سترينه ممثِّل للمجرة ككل …

لن تري أيَّ نجوم أو كواكب أو أجرام مادية في هذا العرض، مع أن أماكنها مفترضةٌ في النموذج عند صُنْعه. ما سترينه أضواءٌ كلٌّ منها يمثل نظامًا نجميًّا أصبح فيه نوعٌ من الكائنات البيولوجية مسافرًا عبْر الفضاء، بوضع مركبة فضائية في مدارٍ حول كوكبه على الأقل … وما دام النظام النجمي مركزًا قائمًا للمسافرين عبْر الفضاء فسيظل الضوء في تلك المنطقة منيرًا …

سأبدأ العرض بما حدَث قبل عشرة مليارات عام، بعد وقتٍ قصير من تكوُّن الكيان الذي تطوَّر ليصبح حاليًّا مجرةَ درب التبانة. ونظرًا لأنه كان هناك كثيرٌ من الاضطراب والتغيُّر السريع في البداية، فلم تظهر أيُّ كائنات تسافر عبْر الفضاء مدةً طويلة. ولهذا سأدير العرض بسرعة بمقدار عشرين مليون سنة في الثانية بالنسبة للخمسة مليارات عام الأولى تقريبًا وحتى تكوُّن نظامكم الشمسي … وتجدُر الإشارة إلى أن الأرض ستبدأ في التكوُّن ببطء بعد أربع دقائق تقريبًا من هذه العملية. وعندها سأوقف العرض.»

كانا معًا على المنصة في الغرفة الكبيرة. وكان الرجل النسر يقف ونيكول تجلس إلى جواره على كرسيها المتحرك. والضوء الوحيد ضوءٌ صغير على المنصة يسمح لهما أن يرى أحدهما الآخر. وبعد أن أخذت نيكول تحدِّق فيما حولها في الظلام الدامس أكثرَ من ثلاثين ثانية، حطَّمت نيكول حاجزَ الصمت. وسألته: «هل بدأت العملية؟ فلم يحدُث شيء.»

أجابها الرجل النسر: «بالضبط. ما لاحظناه من مراقبة المجرات الأخرى — بعضها أقدمُ من درب التبانة — أنه لا تظهر حياةٌ حتى تستقر المجرة وتتكوَّن بها مناطقُ مستقرة. فوجود الحياة يتطلب نجومًا ثابتة في بيئة معتدِلة نسبيًّا، وكذلك تطوُّر للنجم ينتج عنه إيجاد العناصر الحيوية بالجدول الدوري التي تمثِّل أهميةً كبيرة في جميع العمليات الكيميائية الحيوية. فإذا كانت المادة بأكملها تتكوَّن من جسيمات دون ذرية وذرات بسيطة فسيكون احتمالُ نشأة أي حياة من أي نوع بالنجم ضئيلًا للغاية، فضلًا عن حياة كائنات تسافر بين النجوم. ولا يصبح احتمال ظهور الحياة مقبولًا حتى تمرَّ النجوم الكبرى بدورة حياتها الكاملة وتكوِّن العناصر الأكثر تعقيدًا مثل النيتروجين والكربون والحديد والماغنسيوم.»

وَمَضَ أسفلهما ضوءٌ متقطع، ولكن للدقائق الأربع الأولى لم يظهر أكثرُ من بضع مئات من الأضواء المتناثرة، واحد فقط منها استمر أكثرَ من ثلاث ثوانٍ. قال الرجل النسر وهو يستعد لتشغيل العرض مرةً أخرى: «الآن وصلنا إلى وقتِ تكوُّن الأرض والنظام الشمسي.»

قالت نيكول: «انتظر لحظةً من فضلك. أريد أن أتأكد أني أفهم ... هل أريتني لتوك أنه للنصف الأول من تاريخ المجرة، عندما لم تكن هناك أرضٌ ولا شمس، تطوَّرت بضعة كائنات مسافرة عبْر الفضاء فقط في المنطقة حول المكان الذي ستتكوَّن فيه الشمس بعد ذلك؟ ... وأنه من بين تلك الكائنات المسافرة عبْر الفضاء كلها، كان متوسط عمر جميعها تقريبًا أقلَّ من عشرين مليون سنة، وواحد فقط نجح في البقاء ستين مليون سنة؟»

قال الرجل النسر: «ما تفهمينه صحيح. الآن سأضيف عاملًا آخرَ لهذا العرض ... إذا نجح جنسٌ مسافر عبْر الفضاء في السفر خارج نظامه النجمي وأرسى وجودًا دائمًا له في نجمٍ آخر، وهو ما لم تفعلوه أنتم البشر بعدُ، فإن العرض سيوضِّح هذا التوسُّع بإضاءة النظام النجمي الآخر أيضًا بلون الضوء نفسِه للنجم الأول. وبهذا يمكننا متابعةُ انتشارِ جنس معيَّن من الكائنات المسافرة عبْر الفضاء ... أيضًا سأغيِّر سرعةَ العرض إلى النصف، إلى عشرة ملايين سنة في الثانية ...»

وبعدها بنصف دقيقة فحسب ظهر ضوءٌ أحمر في أحد أركان الغرفة. وبعد ست إلى ثماني ثوانٍ أخرى أحيط بمئات من الأضواء الحمراء. وتألقت معًا بشدة لدرجةٍ جعلت بقيةَ الغرفة تبدو مظلمة وغير مثيرة للاهتمام، مع وجود شعاع ضوء واحد أو شعاعين متقطعين. ثم اختفت فجأة مجموعةُ الأضواء الحمراء في جزء من الثانية. فأظلم في البداية مركز إشعاع الضوء الأحمر تاركًا مجموعات صغيرة من الأضواء متناثرة على حوافِّ ما كان يومًا منطقة عملاقة، وفي غمضة عين أخرى كانت جميع الأضواء الحمراء قد خبَت.

كان عقل نيكول يعمل بسرعته القصوى وهي تشاهد الأضواء تومض من حولها. وقالت في نفسها وهي تتأمَّل الأضواء الحمراء: «لا بد أن هذه قصة مثيرة. حضارة انتشرت على نطاق منطقة تضم مئات النجوم، ثم فجأة، تختفي ... هذا درس حتمي ... كما لكل شيء بداية، فله نهاية أيضًا ... والخلود يوجد بوصفه مفهومًا معنويًّا فقط وليس بوصفه حقيقةً.»

ثم نظرت في أرجاء الغرفة. كان هناك ضوءٌ متكرِّر ظهوره، وأضواءٌ متقطِّعة تظهر في منطقةٍ تلو أخرى، مما يشيرُ إلى نشوءِ حضارةِ نوعٍ آخرَ من الكائنات المسافرة عبْر

الفضاء وزوالها. ولأنَّ تلك الكائنات التي انتشرت واستعمرت نُظُمًا نجميةً متاخِمة عاشت وقتًا قصيرًا، فإنها نادرًا ما كانت تقترب من حضارةِ كائنات أخرى تسافر عبْر الفضاء.

حدَّثت نيكول نفسها قائلة: «لقد كانت هناك كائناتٌ عاقلة، وسفر عبْر الفضاء في الجزء الخاص بنا من المجرة قبل أن توجد الأرض ... ولكن قليلًا جدًّا فقط من تلك الكائنات المتقدِّمة أثار حماستَهم إيجادُ قناة اتصال مع أقرانهم ... إذن فالوحدة أيضًا من المبادئ الأساسية للكون ... على الأقل هذا الكون ...»

وبعد ثماني دقائق أوقف الرجل النسر العرضَ مرة أخرى. وقال: «وصلنا الآن إلى نقطة في التاريخ قبل عشرة ملايين عام من زمننا الحاضر. على الأرض كانت الديناصورات قد اختفت قبل وقتٍ طويل حيث دمَّرها عدمُ قدرتها على التكيف مع التغيرات المناخية التي سبَّبها اصطدام كويكب عظيم بالأرض ... إلا أنَّ اختفاءها قد سمح للثدييات بالتكاثر، وبدأ أحد مسارات تطور تلك الثدييات في إظهار جذور حياة عاقلة ...»

توقَّف الرجل النسر عن الحديث. كانت نيكول تنظر إليه وعلى وجهها تعبيرٌ ينِمُّ عن مشاعرَ قويةٍ تموج داخلها، مشاعرَ أقربَ إلى الألم. فسألها الفضائي: «ما الأمر؟»

سألته نيكول: «هل سينتهي كوننا إلى التناغُم؟ أم إننا سنصير واحدة من نقاط البيانات التي تساعد الإله في بحثه بكوننا مستبعدين من المجموعة التي يبحث عنها؟»

قال الرجل النسر: «ما الذي دفعك إلى طرحِ هذا السؤال الآن؟»

أجابته نيكول وهي تلوِّح بيدها: «هذا العرض بأكمله محفِّز مذهل للتفكير. وفي عقلي عشرات الأسئلة.» ثم ابتسمت. وقالت: «ولكن نظرًا لأنني لا أملك وقتًا لطرحها جميعًا، أظن أنني سأطرح أهمها أولًا ...»

ثم استأنفت: «فقط أنظر إلى ما حدَث هنا، حتى الآن بعد عشرة مليارات عام من التطور، الأضواءُ متناثرة على نطاق واسع. ولا واحد من المجموعات التي كانت موجودة أصبح دائمًا أو منتشرًا حتى في هذا الجزء الصغير نسبيًّا من المجرة. وبالطبع إذا كان كوننا سيصل في النهاية إلى نقطة التناغم، فعاجلًا أو آجلًا ستسطع الأضواء التي تشير إلى الكائنات المسافرة عبْر الفضاء والحياة العاقلة في كل نظام نجمي تقريبًا في كل مجرة ... أم إنني أسأت تفسير ما قصده القديس مايكل بالتناغم؟»

قال الرجل النسر: «لا أظنك أسأت فهمه.»

سألته نيكول: «أين نظامنا الشمسي في هذا العرض الحالي؟»

قال الرجل النسر وهو يستخدم عصا الأشعة الضوئية: «هناك.»

نظرت نيكول أولًا إلى المنطقة حول الأرض ثم فحصت سريعًا باقي الغرفة. وقالت: «إذن قبل عشرة ملايين سنة كان هناك ما يقرُب من ستين جنسًا مسافرًا عبْر الفضاء يعيشون بين أقرب عشرة آلاف نجم مجاور لنا ... ونشأ أحد تلك الأنواع، إذا كنتُ أفهم هذه المجموعة من الأضواء الخضراء الداكنة، في مكان ليس بعيدًا عنَّا وانتشر ليضم عشرين أو ثلاثين نظامًا نجميًّا معًا ...»

قال الرجل النسر: «هذا صحيح. هل أقدِّم العرض مرةً أخرى، بسرعة أقل؟»

قالت نيكول: «بعد قليل. لكن أولًا أود أن أدرك هذا الشكل بالتحديد إدراكًا كاملًا ... فحتى الآن كان يجري كل شيء في هذا العرض بسرعةٍ تفوق قدرتي على استيعابه ...»

حدَّقت نيكول في مجموعة الأضواء الخضراء. وكانت حافتها الخارجية لا تبعُد أكثرَ من خمس عشرة سنة ضوئية من المكان الذي أشار الرجل النسر أنه مكان النظام الشمسي. أشارت نيكول للرجل النسر أن يبدأ العرض مرةً أخرى، وأخبرها أن سرعة العرض ستكون فقط مائتي ألف سنة في الثانية.

تحرَّكت الأضواء الخضراء أقربَ وأقرب إلى الأرض ثم اختفت فجأة. فصاحت نيكول: «توقَّف.»

أوقف الرجل النسر العرض. ونظر إلى نيكول نظرةً متسائلة.

قالت نيكول: «ماذا حدَث لهذه الكائنات؟»

قال الرجل النسر: «لقد أخبرتك عنهم قبل يومين. لقد محَوا أنفسَهم من الوجود جينيًّا.»

فكَّرت نيكول في نفسها: «لقد كادوا يصلون إلى الأرض. كم كان التاريخ سيختلف لو أنهم فعلوا ... كانوا سيدركون على الفور الإمكانات الفكرية للإنسان البدائي في أفريقيا وكانوا ولا شك سيفعلون معه ما فعله السلف مع كائنات الأوكتوسبايدر. كنَّا حينها ...»

وفي عقلها رأت نيكول فجأةً صورةَ القديس مايكل وهو يشرح لها بهدوء الهدفَ من وجود الكون أمام مدفأة غرفة مكتب مايكل وسيمون.

فسألت نيكول الرجل النسر: «هل يمكن أن أرى البداية؟»

أجابها: «بداية ماذا؟»

قالت نيكول بلهفة: «بداية كل شيء؛ اللحظة التي بدأ فيها هذا الكون وبدأت فيها عمليةُ التطور بأكملها.» أشارت بيدها باتجاه النموذج أسفلهما.

قال الرجل النسر بعد صمتٍ لم يدُم طويلًا: «يمكننا فِعل ذلك.»

ثم قال الرجل النسر بعد لحظةٍ وهو يقف هو ونيكول على المنصة في الظلام الدامس: «ليست لدينا أيُّ معلومات عن أي شيء حدَث قبل خلق هذا الكون. ولكننا نفترض أن نوعًا من الطاقة قد وُجد قبل لحظة الخلق؛ إذ قيل لنا إن مادةَ هذا الكون نتجت من تحوُّل للطاقة.»

نظرت نيكول حولها. وقالت بصوتٍ خفيض جدًّا وكأنما تُحدِّث نفسَها: «الظلام في كل مكان، وفي مكانٍ ما في هذا الظلام، إذا كان لتعبير «مكان ما» أيُّ معنًى، كانت هناك طاقة. وخالق ... أم إن الطاقة كانت جزءًا من الخالق؟»

قال الرجل النسر بعد فترةِ صمت قصيرة أخرى: «لا نعرف. ولكن ما نعرفه أن مصير كل عنصر على حدة في الكون قد تقرَّر في هذه اللحظة الأولى. شكَّلت الطريقةُ التي تحوَّلت بها تلك الطاقةُ إلى مادةٍ ثمانين مليار سنة من التاريخ.»

وبينما كان الرجل النسر يتكلم ملأ الغرفةَ ضوءٌ مبهر. أشاحت نيكول بوجهها بعيدًا عن مصدره وغطَّت عينيها. مدَّ الرجل النسر يدَه إلى حقيبته. وقال وهو يناولها نظارةً خاصة: «تفضَّلي.»

سألت نيكول بعد أن ارتدَت نظارتها: «لماذا جعلتَ المحاكاةَ مبهرةَ الإضاءة بهذا الشكل؟»

قال وهو يشير أسفلهما: «كي أوضِّح، على الأقل بمقياسٍ ما، ما كانت تبدو عليه تلك اللحظات الأولى ...» قال وهو يشير إلى الأسفل: «انظري، لقد أوقفت النموذج عند $١٠^{-٤٠}$ ثانية بعد لحظة الخلق. لقد وُجد الكون فقط مدةً ضئيلة للغاية من الزمن، ولكنه غنيٌّ بالفعل بتكوينه المادي. وهذا الكمُّ الذي لا يُصدَّق من الضوء يأتي من هذه الكمية الضئيلة من المادة الكونية أسفلنا ... وكل هذه «المادة» التي كوَّنت الكون في بدايته غريبةٌ تمامًا عن أي شيء يمكننا إدراكه أو فهمه. فلا توجد ذراتٌ ولا جزيئات. وكثافة الكواركات والليبتونات وما على شاكلتها كبيرةٌ للغاية حتى إن مقدارًا صغيرًا من هذه «الأشياء» لا يزيد عن حجم ذرة هيدروجين كان سيزن أكثرَ من مجموعة كبيرة من المجرات في عصرنا هذا ...»

فقالت نيكول: «بدافع الفضول فحسب، أين أنا وأنت في هذه اللحظة؟»

تردَّد الرجل النسر. ثم قال في النهاية: «في اللامكان ستكون أفضلَ إجابة، ولأغراض توضيحية، إننا خارج نموذج الكون. ولكن يمكن أن نكون في بُعد آخر. فالقوانين الرياضية التي تحكُم الكون في بدايته لا تعمل إلا إذا كان هناك أكثرُ من أربعة أبعاد. وبالطبع كلُّ

شيء في المكان والزمان — الذي سيصبح فيما بعدُ كوننا — يوجد في هذه الكتلة الصغيرة التي تُنتِج الضوءَ المبهر. وبالمناسبة الحرارة هناك — إذا كان النموذج تمثيلًا صحيحًا — ستكون أعلى بمقدار عشرة تريليونات مرة من أعلى النجوم حرارةً الذي سينشأ فيما بعدُ.»

واستأنف الرجل النسر بعد صمتٍ قصير: «والنموذج هنا أيضًا قد غيَّر من مفاهيم الحجم والمسافة. وبعد لحظة سأبدأ المحاكاةَ للكون في بدايته مرة أخرى، وسننبهر بشدةٍ عندما تنفجر هذه الومضة الصغيرة المضغوطة من الإشعاع إلى الخارج بسرعة مذهلة … وبينما تحدُث محاكاةٌ لِما يُطلِق عليه علماء الكون عصر التضخم، سيزداد أيضًا الحجمُ المفترَض لهذه الغرفة بسرعة. وإذا لم نغيِّر المقياس فلن يكون بإمكانك الآن رؤيةُ بِنية الكون بمقياس $١٠^{-٤٠}$ ثانية دون ميكروسكوب خارق.»

حدَّقت نيكول أسفلها في مصدر الضوء. وقالت: «إذن فتلك الكرة الضئيلة المنبعجة من الأشياء الثقيلة الساخنة كانت نواةَ كل شيء؟ ومن ذلك المزيج الضئيل من الجسيمات دون الذرية وُلدت المجرات الكبرى التي أريتني إياها في النطاق الثاني؟ هذا لا يبدو ممكنًا …»

قال الرجل النسر: «ليست تلك المجرات فحسب. فهناك احتمال أنَّ كل شيء في الأكوان مُخزَّن في تلك المادة الغريبة الشديدة السخونة …»

فجأة بدأت الكرة الضئيلة تتسع بمعدَّل هائل. وشعرت نيكول أن إطار الكرة على وشْك أن يمس وجهها في أي لحظة. وأمام عينيها تكوَّنت ملايين من الأشكال الغريبة واختفت. شاهدت نيكول بافتتانٍ والمادة تبدو أنها تُغيِّر طبيعتها عدة مرات، وتمرُّ بحالات انتقالية مؤقتة على الدرجة نفسها من الغرابة مثل الكرة الصغيرة المبدئية الشديدة السخونة.

قال الرجل النسر بعد ثوانٍ: «لقد قدَّمت الوقت في النموذج. ما ترينه هناك الآن، وهو بعد مليون عام تقريبًا من الخلق، سيكون مألوفًا لأي طالب فيزياء متمرِّس. فعلى سبيل المثال، تكوَّنت بعضُ الذرات البسيطة؛ ثلاثة أنواع من الهيدروجين ونوعان من الهليوم. والليثيوم هو أثقل ذرة معروفة لعنصرٍ متوافر … وكثافة الكون الآن مكافئة تقريبًا للهواء على الأرض، وانخفضت الحرارة إلى مائة مليون درجة تقريبًا وهي درجة مناسبة نسبيًّا، أو أقل مما كانت عليه في وقت الكرة الضئيلة الساخنة بعشرين مرة.»

ثم نَشَّط المنصة وقادها بين الأضواء والمجموعات والخيوط. وقال: «لو كنا أذكياء حقًّا، لكنا قادرين على النظر إلى كل هذه المواد الأصلية والتنبؤ بأي من «الكتل» ستصبح في النهاية عناقيدَ مجرات … وفي ذلك الوقت تقريبًا ظهر أولُ مراقب رئيسي، وهو الدخيل الوحيد في عملية التطور الطبيعية … ولم يكن من الممكن فرضُ مراقبة قبل ذلك؛ نظرًا لأن

العملية حسَّاسة للغاية؛ فعلى سبيل المثال، أيُّ نوع من المراقبة في أثناء الثانية الأولى للخلق كانت ستشوِّه التطور الناشئ تمامًا.»

أشار الرجل النسر إلى كرةٍ معدنية صغيرة في مركز عدة تكتُّلات ضخمة للمادة. وقال: «هذا المراقب الرئيسي الأول جاء من بُعد آخرَ للكون في بدايته إلى نظامنا الزمكاني الناشئ. وكان الهدف من إرساله هو مراقبةَ ما كان يحدُث وأن يصنع، كما يتطلب الأمر، بذكائه هو، نُظُم المراقبة الأخرى التي ستجمع معًا جميعَ المعلومات المرتبطة بهذا الأمر عن العملية بأكملها.»

قالت نيكول ببطء: «إذنْ فالشمس والأرض وكلُّ بشري نَتج عن عملية التطور الطبيعي غيرِ المتوقَّع لهذا الكون. والنود وراما وحتى أنت والقديس مايكل تم إنتاجُكم من عملية تطور مباشر صمَّمها أساسًا المراقب الرئيسي ...»

توقَّفت نيكول ونظرت حولها ثم استدارت إلى الرجل النسر وقالت: «أنت كان يمكن توقُّع وجودك بعد لحظات من الانفجار العظيم ... أما أنا، بل حتى الجنس البشري، فنتاجُ عملية بعيدة عن الاحتمال الرياضي إلى حدٍّ أنها لم يمكن توقعها حتى مائة مليون عام مضَت، وهو ما نسبته واحد بالمائة من الزمن منذ بداية الكون ...»

ثم هزَّت رأسها ولوَّحت بيدها. وقالت: «حسنًا، هذا يكفي ... لقد أرهقني التفكيرُ في الأمور المطلَقة.»

أصبحت الغرفة الضخمة مظلِمةً مرة أخرى فيما عدا الأضواء الصغيرة على أرضية المنصة. فقال الرجل النسر وهو يرى نظرةَ أَسًى على وجه نيكول: «ما الأمر؟»

قالت: «لستُ واثقة. أشعر بنوع من الحزن كأني فقدت شخصًا عزيزًا. إذا كنتَ فهمتَ كلَّ هذا، فإن البشر أكثرُ خصوصيةً منك، وحتى من راما. وفرص نشأة أي كائنات تشبهنا مرةً أخرى، سواء في هذا الكون أو في أي كون آخر، غيرُ واردة ... نحن نتاجُ مصادفة نشأت من الفوضى. أما أنتَ فعلى الأرجح يوجد مثلك أو ما شابهك في كلٍّ من تلك الأكوان الأخرى التي يُفترض أن الإله يلاحظها ...»

ساد صمتٌ مؤقت. ثم استأنفت نيكول: «أظن أني تخيَّلت بعد الاستماع إلى القديس مايكل، أنه سيكون هناك بشرٌ مشاركون في ذلك التناغم الذي يسعى إليه الخالق ... الآن أدركتُ أنه على كوكب الأرض فقط، في هذا الجزء بالتحديد من الكون ...»

شعرَت نيكول بنوبةِ ألمٍ حادة في صدرها. وظل الألم شديدًا. جاهدت كي تلتقط أنفاسها واقتنعت للحظات أن النهاية قادمةٌ على الفور.

لم يتفوَّه الرجل النسر بكلمة، ولكنه راقبها باهتمام. وعندما نجحَت في التقاط أنفاسها، تحدَّثت بعبارات متقطعة قصيرة. قالت: «أخبرتني ... أثناء الغداء ... مكان شخصي ... حيث يمكنني رؤية العائلة والأصدقاء ...»

تبادلا أطرافَ الحديث قليلًا في العربة عندما احتملت نيكول الألمَ مؤقتًا. وكان كلاهما يعلم، دون أن يقول أيَّ شيء، أن الأزمة القلبية القادمة ستكون الأخيرة.

دخلا منطقةً أخرى من أماكن العرض في وحدة المعرفة. كانت تلك الغرفة مكتملةَ الاستدارة، وبها مساحة في جزء صغير من الأرض في المنتصف حيث يستطيع الرجل النسر الوقوفَ إلى جوار كرسي نيكول المتحرك. ثم اجتازا إلى المكان المخصَّص لهما في مركز الغرفة، وشاهدا أشكالًا تشبه البشرَ تبدأ إعادةَ عرضِ أحداث من حياة نيكول وهي ناضجةٌ على كلٍّ من المسارح الستة المنفصلة التي كانت تحيط بهما عن قرب.

كانت مصداقيةُ العروض مبهرة. فلم يَبدُ جميعُ أفراد عائلة نيكول وأصدقاؤها بالضبط كما كانوا وقتَ وقوع تلك الأحداث فحسب، وإنما كانت جميع الإعدادات إعادةَ بِناء مثالية. وفي أحد المشاهد كانت كيتي تمارس التزلجَ على الماء بجرأة بالقرب من شاطئ بحيرة شكسبير، وتضحك وتلوِّح بيدها، مندفعةً بطيشٍ كان سِمتها المميزة. وفي مشهدٍ آخر رأت نيكول إعادةَ تجسيد للحفل الذي أقامته الفرقة الصغيرة على متن مركبة راما الثانية للاحتفال بالذكرى الألف لوفاة إليانور الأكويتينية. وعندما رأت نيكول سيمون وهي في الرابعة من عمرها وكيتي في الثانية، ورأت أيضًا نفسها هي وريتشارد في شبابهما وهما لا يزالان يتمتَّعان بالحيوية، اغرورقت عيناها بالدموع.

وقالت في نفسها: «لقد كانت حياةً مذهلة.» ثم أدارت كرسيها المتحرك إلى المشهد من مركبة سفينة راما الثانية، فتوقَّف العرض. وانحنت نيكول والتقطت الإنسانَ الآلي تي بي الذي صنعه ريتشارد لتسلية الفتاتين الصغيرتين. وشعرت بوزنه بالضبط بين يديها.

فسألت نيكول: «كيف أمكنكم فِعل هذا؟»

أجابها الرجل النسر: «تكنولوجيا متقدِّمة. لا يمكنني أن أشرحها لك.»

«وإذا ذهبتُ إلى هناك إلى حيث تتزلج كيتي هل سأشعرُ بالمياه عندما ألمسها؟»

«بالطبع.»

سارت نيكول مبتعدةً عن المشهد وهي تمسك الإنسانَ الآلي غير الحقيقي بين يديها. وعندما ابتعدت، تجسَّد تي بي آخر واستمر المشهد. فقالت نيكول في نفسها: «كنتُ قد نسيت يا ريتشارد كلَّ اختراعاتك الصغيرة العبقرية.»

منحها قلبُها بضعَ دقائق أخرى للاستمتاع بمقتطفاتٍ من حياتها. فشعرت مرةً أخرى بسعادة لحظة ميلاد سيمون، وعاشت من جديد أول ليلة حب لها مع ريتشارد بعد وقت ليس بطويل بعد أن عثر عليها في نيويورك، ومرَّت ثانية بمجموعة المشاهد الرائعة والكائنات التي استقبلتها هي وريتشارد عندما فُتحت أبواب مدينة الزمرد لهما أول مرة.

وسألت نيكول وهي تشعر بانقباضٍ مفاجئ في صدرها: «هل يمكن أن تعيد عرْضَ أي حدَث أريد من حياتي؟»

أجابها الرجل النسر: «ما دام حدَث بعد أن وصلت إلى راما، ويمكنني أن أجدَه في الأرشيف.»

جاهدت نيكول لالتقاط أنفاسها. ها هي ذي الأزمةُ القلبية الأخيرة توشك أن تداهمها. قالت: «من فضلك، هل يمكن أن أرى آخرَ حوار دار بيني وبين ريتشارد قبل أن يغادر؟»

قال صوتٌ من داخلها: «لن يطولَ الأمر.» فأطبقت أسنانها بإحكامٍ وحاولت أن تركِّز على المشهد الذي ظهر أمامها فجأة. كان ريتشارد يشرح لصورة نيكول السببَ الذي يجعله هو مَن يصطحب آرشي إلى عدن الجديدة.

كانت صورة نيكول في المشهد تقول: «أفهم.»

فقالت نيكول الحقيقية في نفسِها: «أفهم. هذه هي أهمُّ جملة يقولها أي شخص … مفتاح الحياة هو الفهم … وأنا الآن أفهم أني مخلوق فانٍ حان وقت موته.»

جاءتها نوبةٌ أخرى من الألم الشديد مصحوبةً بذكرى عابرة لعبارة لاتينية من قصيدة قديمة. كانت تقول: «الخوف من الموت يخيفني … ولكني لن أخاف لأني أفهم.»

كان الرجل النسر يراقبها عن كثَب. قالت بمشقة: «أود أن أرى ريتشارد وآرشي، لحظاتهما الأخيرة … في الزنزانة … قبل أن تأتي الكائنات الآلية.»

حدَّثت نفسَها مرة أخرى: «لن أخاف لأني أفهم.»

«وأبنائي، إذا أمكن أن أراهم بطريقةٍ ما … والدكتورة بلو.»

أظلمت الغرفة مرةً أخرى. ومرَّت الثواني. وأصبح الألم رهيبًا. «لن أخاف …»

عادت الأضواء. وكان ريتشارد وآرشي في زنزانتهما أمام كرسي نيكول المتحرك مباشرة. وسمِعت صوت الكائنات الآلية وهي تفتح بابَ رواق الزنازين …

فقالت نيكول بصعوبة: «أوقفِ الصورةَ هنا من فضلك.» وإلى يسار مشهد ريتشارد وآرشي، كان أطفالها والدكتورة بلو يصطفون في لوحة. فجاهدت نيكول لتقفَ على قدميها وقطعت الأمتارَ القليلة لتقف بينهم. وبدأت الدموع تنهمر من عينيها وهي تمس للمرة الأخيرة وجوهَ أحبائها.

بدأت جدران قلبها تنهار. فسارت بخطواتٍ متعثرة إلى المشهد في زنزانة ريتشارد وعانقت نموذجَ زوجها. وقالت: «أنا أفهم يا ريتشارد.»

سقطت نيكول على ركبتيها ببطء. وعادت لتواجه الرجلَ النسر. وقالت بابتسامة: «أنا أفهم.»

وكان آخر ما دار بعقلها: «والفَهْم هو السعادة.»


هنداوي